سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

عُمان
منذ ١٨٥٦
مسيرًا ومصيرًا

تأليف
روبرت جيران لاندن

الطبعة الخامسة

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

عُمـــان
منذ ١٨٥٦
مسيراً ومصيراً

الطبعة الخامسة
١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م



سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة

عُمان

منذ ١٨٥٦

مسيرًا ومصيرًا

تأليف روبرت جيران لاندن
ترجمة محمد أمين عبدالله



إن الآراء والمعلومات الواردة في هذا الكتاب هي على مسئولية المؤلف، ولا تعبر بحال من الأحوال عن آراء حكومة سلطنة عُمان ولا تتحمل ما أية مسئولية.

مقدمة المؤلف

بالمقارنة الى الأقاليم الأخرى فى الشرق الأوسط ، لم يحظ الخليج العربى والمناطق المجاورة له الا باهتمام ضئيل من المؤرخين .. وتتناول معظم كتاباتهم عن المنطقة ، الفترة التى تبدأ منذ الحرب العالمية الأولى . وتركز على موضوع استغلال موارد النفط فى المنطقة وحسب .. كما أن الأبحاث التاريخية التى تعالج العصر الذهبى للنشاط التجارى والملاحى فى الخليج فيما بين القرن الثامن والسادس عشر وبداية الاتصالات الأوربية بالخليج فيما بين القرن السادس عشر ومطلع القرن العشرين قليلة هى الأخرى .. أما الفترة الواقعة ما بين ١٨٥٠ و ١٩١٤ فقد اقتصرت فى المقام الأول وبمقدار ما اجتذبت من اهتمام المؤرخين . على نمو الوجود الأوربى وعلى الأخص البريطانى منه فى المنطقة .. وليس ثمة أى عيب فى الطريقة هذه فى تناولها لاحداث المنطقة ، غير أن احدى نتائج هذا النوع من الاهتمام بالشرق هى اننا نحصل على قدر يسير من المعلومات عن التاريخ القومى لشعوب الخليج فى الفترة الواقعة بين أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين كما لا نحصل على معرفة نوعية ردود الفعل لتسلل المدنية الحديثة التى قلبت البيئة التقليدية للخليج رأسا على عقب .

ومن خلال الأبحاث التى قمت بها توصلت الى ان أواخر القرن التاسع عشر — وعلى الأخص بعد دخول المواصلات التلغرافية والملاحة البخارية الى الخليج ابتداء من سنة ١٨٦٢ — كانت مرحلة الأزمة التى احدثت فى تراث المنطقة القديم تغييرا جذريا ، كما توصلت أيضا الى أن فهمنا لهذه الثورة المجهولة . قد يساعدنا على استنباط أبعاد المرحلة الراهنة من تاريخ الخليج ، كما قد يقنعنا بشىء واحد وهو أن عملية التحديث (*)

(*) كلمة من حدث الشىء اى جعله حديثا — من الحداثة .

فى بعض المجتمعات قد تسفر عن آثار مدمرة أكثر مما تسفر عن آثار بنـــاءة .

وعلى أى حال فان الخليج العربى . رغم التجانس الذى يسود سكانه فى كثير من المجالات ، منطقة ما تزال تضم أنواعا من الخصائص المتنوعة الواضحة المعالم ، لكل منها تاريخها المميز ، وثقافتها البيئية .. ويركز هذا الكتاب على احدى هذه الوحدات الجزئية ونعنى بها عمان ، فى محاولة لتقييم الأحداث والاتجاهات التى تنفرد بها احدى امارات الخليج خلال تلك الفترة الحاسمة التى استهدف فيها مجتمعها القبلى ونشاطها الملاحى القديم لتغييرات كان شعبها أعجز من أن يستوعبها أو يسيطر عليها . ولقد نذرت نفسى لا لمجرد اعطاء صورة حقيقية عن ذلك الانقلاب ، وحسب . بل لتفسير الأحداث التى وقعت فى عمان بعد عام ١٨٦٢ بالشكل الذى وقعت فيه . وبالرغم من تكريس الاهتمام على الفترة الواقعة فيما بين ١٨٦٢ و ١٩٠٣ . عندما بدأت المنطقة تستوعب الحقائق الاقتصادية والدولية ، والداخلية والسياسية الجديدة فان الفصول الختامية من الكتاب تتناول فترة القرن العشرين من تاريخ عمان حتى أوائل الستينات منه . ومن الممتع حقا أن نلاحظ أن الفترة الممتدة من سنة ١٨٦٢ حتى سنة ١٩٦٢ ، تشكل وحدة تاريخية متميزة الملامح .. الأمر الذى يعود الى الاكتشافات البترولية التى تم التوصل اليها فى سنة ١٩٦٣ استشرافا لمرحلة جديدة فى تاريخ البلاد .

ان نظرة واحدة الى فهرس الكتاب كافية لأن تكشف لنا أن هذه الدراسة ان هى الا محاولة استكشافية تعتمد فى المقام الأول على المؤلفات التاريخية العمانية ، والمراجع الرسمية وانى لأعترف بما فى هذا العمل من قصور ، غير أنى أعلم أيضا أنه قصور لابد منه فى طبيعة العمل الذى اضطلعت به . كما أنى أتوقع أن يخالفنى الرأى كثير من الناس فى بعض تحليلاتى ، بل وفى صميم الفكرة التى يقوم عليها الكتاب .. هذا أمر طبيعى

ان تاريخ الشرق الأوسط ميدان واسع والفرصة سانحة فى هذه الظروف لتقديم تفسيرات متباينة عن هذا التاريخ • وسوف يسعدنى كثيرا لو حاز كتابى هذا القبول ، غير أنى سأشعر بالرضا أكثر لو أصبح هذا الكتـاب حافزا لوضع مؤلفات جديدة حول المسائل التى تناولتها ، حتى ولو اختلف أصحابها معى اختلافا جوهريا فى تفسيرى للأحداث •

اننى لم أحاول أن أتناول كل الأحداث التى شهدتها المنطقة من زاوية موسوعية ، بل انتقيت بعض الحقائق ، كمـا أن ثمـة معلومات تتضمنها الخرائط والرسوم البيانية ليست من صلب البحث ، وينبغى اعتبـارها جزءا لا يتجزأ من النص • أما فيما يتصل بالصعوبة الدائمة فى ترجمـة الاصطلاحات العربية ، فقد انتهجت بوجه عام نهج الصيغ العربية المألوفة فىنطق أسماء الأماكن والأعلام ، مستثنيا من ذلك مسقط فلقـد كتبتهـا بالقاف بدلا من الكاف فى الانجليزية ولما لم يكن ثمة اصطلاح عربى متفق عليه للنطق ، كما هو الحال فى الواقع ، فقد لجأت الى كتابة اللفظة العربية بالحروف الانجليزية (وهو ما يسمى بالانجليزية الترجمة) (*) وان كنت لم استخدم كل الحروف وحروف العلة العربية فى كتابتها • ويضم الفهرس أسماء الشخصيات والأماكن العربية مكتوبة بالحروف الانجليزية وفقـا لنطقها بالعربية • وأخيرا فقد أدخلت بعض التنقيحات على أسماء الاعلام العربية التى ظهرت فى النصوص والهوامش حتى تخضع لطراز واحد من الكتـابة •

لقد أسهم معى فى هذا الكتاب جمع غفير من الرجال والمنظمات ، وعلى حين اعتبر نفسى المسؤول عما فى الكتاب من أخطـاء ، فانى أعترف بأن الفضل فى انجازه يعود الى المساعدات والارشادات الكثـيرة التى قدمت الى ، وعلى الأخص من أساتذتى وعلى رأسهم الآنسة ميرى بويل والآنسة

(*) العبارة بين الهلالين للمترجم •

روث ايبل والسيد جون ماكنيلي والسيد روبرت كلمان أساتذتي بمعهد واترتاون في ولاية ماسوشوسيت الذين كان لهم تأثير على مؤلفاتي يفوق ما تصورته يوم كنت أجلس طالبا في المعهد . كما أدين بالشكر للاستاذين دوجلاس ادير وآر بروس ماكولي اللذين تلقيت على أيديهما دراسة التاريخ في كلية (وليم وميرى) وكان لهما الفضل في تلقيني حب النظام والتفكير ، اللذين يظهران في مؤلفاتي .. أما البروفسور جورج حوراني ، الأستاذ في جامعة ميتشجن فقد أطلعني على أسرار تاريخ الشرق الأوسط والدراسات الملاحية الشرقية .. ولقد قدر لي ان التقي بعالم أغزر اطلاعا ومعرفة بالمنطقة هو البرفيسور سيريل آي بلاك ، الاستاذ في جامعة برنستون الذي اقترح لأول مرة ان موضوع ادخال المدنية الحديثة الى المنطقة موضوع جدير بالدراسة ، والذي تعتبر محاضراته القيمة والمثيرة مثلا يحتذى به كل متخرج ممتاز . كما قدم لي كل من البرفيسور تي . كويليريونج وليوس توماس معلومات وارشادات كثيرة ومساعدات قيمة . واني لمدين بنوع خاص لأعضاء هيئة التدريس السابقة بكلية برنستون منهم البروفيسور فرحات زيادة ، بجامعة واشنطن ، الذي كرس جانبا كبيرا من وقته في فترة كان فيها مشغولا بأعمال أخرى ، والبروفيسور آربيلي وندر بجامعة نيويورك الذي وضع خبرته العميقة بالشؤون العربية وارشاداته الودية الناضجة تحت تصرفي . وغيرهم آخرون أخصهم بالشكر بما فيهم البروفيسور جورج كريج الاستاذ بجامعة ستانفورد حاليا ، وجامعة برنستون سابقا ، والسيد أبو حاكمه الاستاذ بجامعة الاردن في عمان والسيد دوجلاس ماثيوز نائب مدير مكتبة لندن ، ومكتبة وزارة شؤون الهند سابقا والسيد والسيدة الفريد فنسنت من انجلترا ، والسيد ريتشارد شامبرز والسيد جون مانفيلد والسيدة هند أبو السعود من الجامعة الأمريكية في القاهرة والسيدات الثلاث اللواتي طبعن النص على الآلة الكاتبة وهن الآنسة شارون كي مارشال والسيدة ال رن والسيدة اليس ويموث كذلك السيد روى جريشام المشرف على مطبعة جامعة برنستون الذي

أشرف على طبع الكتاب .. كما أشكر حموى وحمـاتى السيدة والسيدة (كلارك . ف . كيزيا) اللذين اشتركا معى صيفا بطوله لانجـاز هـذا الكتاب .

وانني مدين بالشكر أيضا لعدد من المؤسسات التى أسهمت بالتأييد المالى وبتوفير البحوث والدراسات خلال اعداد الكتاب بما فيه جامعـة برنستون ، ومكتبة وزارة شؤون الهند ، وشركة الزيت العربية الامريكية ، والجامعة الامريكية بالقاهرة ، ومكتب امامة عمان فى القـاهرة ، والامانة العامة لجامعة الدول العربية ، ومؤسسة فورد ، ومجلس أبحـاث العلوم الاجتماعية ، اللذين قدما لى منحة سخية للقيام بالدراسة ولتغطية نفقات تنقلاتى فى منطقة الشرق الاوسط ، وكلية درماوث .

كذلك ازجى تقديرى وشكرى للسيد روبرت بى آر . هالر ، أستاذ كلية اللغة الانجليزية بجامعة كاليفورنيا فى بركلى الذى قام بمراجعة الكتاب والذى يعتبر مسؤولا عن أى خطأ لغوى فيه .. كما أشكر ميشيل وبوبى وجل اللذين لولا وجودهم لتأخر ظهور الكتـاب . أو أنه لم يظهـر على الاطلاق . وأخيرا أخص بالشكر قرينتى التى شاطرتنى الجهد فى اخراج هذا الكتاب الى حد كتابة الملاحظات والنصوص ، كما رافقتنى فى رحلاتى وفى الاهتمام بآرائى ومخاوفى وآمالى .

هنوفر — نيوهامفشاير

يوليو ١٩٦٦ آر . جى . ال

الجزء الأول

عُمان ووضعها القديم في الخليج

الفصل الأول

الخليج قبل العصر الحديث

فيما بين منتصف القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر كانت عمان ، وعاصمتها مسقط ، تعد من أهم أقطار الشرق ومنطقة المحيط الهندي . وقد اكتسبت هذه الأهمية من النشاط التجاري والبحري للموانيء العمانية فضلا عن وضع البلاد كقوة سياسية اقليمية لها أهميتها البالغة .

ومنذ العصور الاسلامية الأولى لعبت مدينة مسقط وغيرها من المواصم البحرية التي تتناثر على ضفاف الخليج دورها كمحطات تجارية ومراكز لتوزيع البضائع وشحنها . فالخليج الذي يتوسط شبكة من الطرق البحرية التي تربط بين الهند ، وجنوب شرقي آسيا ، والشرق الاقصى ، وأفريقيا ، وأوربا ، قد لعب دورا ضخما في التجارة الدولية وفي النشاطات الملاحية لنصف الكرة الشرقي . غير أن « العصر الذهبي » لما قبل التاريخ الحديث للخليج قد أسدل عليه الستار بظهور البرتغاليين في مياهه في مطلع القرن السادس عشر ، وبسبب ما تبع ذلك من تحول تجارة الشرق والأقطار الأسيوية مع أوربا من الطرق التي تمر بالشرق الأوسط ، والخليج . وعلى الرغم من هذا فان بعض الموانيء في الخليج لم تفقد أهميتها البحرية والتجارية وازدهارها حتى منتصف القرن التاسع عشر . فقد ظلت هذه الموانيء محتفظة بأهميتها الذاتية كمراكز اقليمية لنقل السلع وتوزيعها ، خدمة للتجارة مع الجزيرة العربية والعراق ، وايران والشرق الاوسط الى جانب الأقاليم الأخرى المتاخمة للساحل الغربي للمحيط الهندي وغيرها من الأقطار في أفريقيا الشرقية وشبه القارة الهندية . ولقد كانت مدينة مسقط العمانية خلال المرحلة التي أعقبت ذلك في طليعة المدن التي تمثل أهمية تجارية وسياسية بين مدن المنطقة . وكمركز تجاري وبؤرة للنشاط

البحرى احتلت عمان وعاصمتها مسقط مكانة بارزة ورثتها من الدول التى قامت فى الخليج عبر مئات السنين .

والى سنة ١٨٣٠ كانت مسقط لا تزال محتفظة بأهميتها ، مما حـدا بأحد الأوربيين الى أن يصفها على النحـو التالى : « على الرغم من أن مسقط مدينة جدباء ، وليس فى مظهرها ما يوحى بالجمال ، الا أنها بحكم موقعها على مدخل مياه الخليج . تعج موانئها بالسفن القادمة من أقطـار الشرق ، كما أن الحركة التجارية فيها تضفـى على طرقاتها مسـحة من الحيوية . ان اجتماع كل هذه الضروريات ، ان لم نقل الكماليات ، قل أن يتحقق الا فى أجزاء قليلة من العالم » (٩) .

ترد هذه التعليقات فى مؤلفات غيره من أوائل الرحالة فى معـرض وصفهم لمختلف موانىء الخليج التى سبقت مسقط كمنطقة رائدة فى هـذا المضمار . ان التماثل الجوهرى فى نشاط هذه الموانىء ليشير الى وجـود طراز أو أسلوب يتميز بحضارة شهدها الخليج قبل القرن التاسع عشر . وهو يتمثل فى عدد من الخصائص التى ظلت سائدة رغم اختلاف الشعوب والنماذج والسياسات فى المنطقة عبر السنين . وعلى أى حال فلقد كانت أقوى العوامل التى ساعدت على الحفاظ على تلك الخصائص هى العوامل الجغرافية .

ان منطقة الخليج العربى تتألف فى الواقع من المياه العميقة والشواطىء المحيطة بخليجين : الخليج العربى الذى تحف به اليابسة من كل جانب ، وخليج عمان الذى يمتد لسانه الى داخل البحر العربى . ويؤلف هـذان الخليجان كامتداد للمحيط الهندى حوضا يخترق قلب الشرق الاوسط . ويلتقى طرفهما الشمالى بسهل العراق والطرق المؤدية الى البحر الأبيض المتوسط ، بينما ينفتح طرفهما الجنوبى على سواحل المحيط الهندى وأفريقيا

---

(١) رحلات الى مدينة الخلفاء عبر شواطىء الخليج العربى والبحر الأبيض المتوسـط .

الشرقية . ان كون الخليج ملتقى لأهم وأقدم طرق المواصلات الدولية ، وبحكم تكوينه الجغرافى كممر مائى قد ترك أثرا هائلا على تاريخ الخليج . واذا كانت الأقدار قد قضت بوجود وحدة تاريخية قوية بين الاقطــــار الواقعة على ضفاف الخليج ، فمن المؤكد أيضا أن هناك اختلافات كبيرة فى تفاصيل الاحداث التى شهدها الخليج على اختلاف مناطقه ويمكن تقسيم المناطق المتاخمة للساحل الايرانى وعمان الى أقسام اقليمية أربعة ، تنقسم بدورها الى وحدات أخرى محددة ولكنها أصغر . أما التقسيمات الأربعة الرئيسية فهى :

١ ـ البلدان المتاخمة للحدود الشمالية ، حيث تلتقى أنهار ثلاثة هى دجلة والفرات وقارون وهى تصب فى مياه شط العرب ، وهذه المنطقـــة الجنوبية من العراق بالاضافة الى مقاطعة خوزستان الايرانية ، منطقـة زراعية خصبة ، يعتمد عليها عدد كبير من سكان هذه البلدان .

٢ ـ الساحل الايرانى من الخليج ، وخليج عمان ، والجزر القريبة من شواطئهما . وهى مناطق غـير مأهولة ، وتمتد خلفها سـلسلة جبـال زاكروس التى تكثر فيها النتوءات وتتخللها الممرات التى تربط الســاحل الايرانى للخليج بالمنطقة الداخلية الخصبة والكثيفة السكان نسبيا .

٣ ـ السهل الشرقى الاجدب من شبه الجزيرة العربية ، ويمتـد من الكويت جنوبا عبر شبه جزيرة قطر ، ويضم ساحل الصلح الذى تتناثر حوله كثير من الخلجان ، وهذا الجانب من الخليج تحيط به سلسلة من الجزر التى تبعد كثيرا عن الساحل ، أغلبها غير ذى أهمية ، ولكنه يشمل جزيرة البحرين الهامة وعددا من حقول النفط الحديثة .

٤ ـ الطرف الجنوبى الشرقى للجزيرة العربية ، أو عمان . وهى بلاد تؤلف جزءا من شبه الجزيرة العربية ، الا أنها تحتفظ بطابع خاص ، ويحدها البحر من الجهة الأخرى .

ان مياه خليج عمان والخليج العربى تشكل عاملا من أقوى عوامل الوحدة بين سكان التقسيمات الاربعة للخليج • وثمة عامل آخر يعزز من هذه الوحدة • وهو أن جميع هذه التقسيمات مناطق ساحلية ، وأنهـا — باستثناء جنوب العراق وخوزستان — مناطق معزولة عن مراكز الحضارة فى العالم • فسلاسل جبال ايران والصحارى فى الجزيرة العربية تحد من سهولة الاتصال فيما بين المناطق الداخلية والمناطق الساحلية من الخليج • كذلك فان هذه المناطق الساحلية تشترك معا فى نوعية المناخ العام ، ونوعية مصادر الثروة ، والعوائق الطبيعية •

الحضارة التقليدية فى الخليج

ان من الخطأ طبعا أن نعالج مجتمع ما قبل العصر الحديث وتاريخه كشىء لا يتغير • فالتغيير صفة لازمت المجتمعـات القديمة • كمـا تلازم المجتمعات الحديثة وان كانت سرعة التغيير فى الماضى أبطأ منها الآن وأقل تطرفا • كذلك فمن الممكن أن تتبلور الاحداث التى تتصل بحقبة معينة من التاريخ ضمن منطقة معينة من المناطق • فى اطار ما • وفى نطاق حـدود معينة • لتتخذ مسارا واحدا منظما • واذا كان هذا التفسير ينطبق على شىء ، فانما ينطبق على الخليج فى الفترة التى سبقت القرن التاسع عشر ، عندما كان التغيير يتم ببطء والاحداث تتطور بشكل عادى • وفى اطارها التقليدى • وان كان مستمرا نسبيا •

ان الاستمرارية فى تطور الاحداث احدى السمات التاريخية للخليج اعتبارا من فترة ما قبل الميلاد حتى القرن التاسع عشر • وحتى بعد ان بدأت الحياة الثقافية فى الخليج تتأثر ، بل وتتغير أيضا تحت تأثير الحضارة الاوربية الحديثة ، فان جوانب كثيرة من السمات التقليدية للحياة فيه ظلت كما هى ، حتى أواخر القرن التاسع عشر ، بل والى يومنا هذا •

سبق أن أشرنا الى العـامل الجغـرافى وأثره على تاريخ الخليج ، خصوصا موقع هذه المنطقة باعتباره ملتقى عدد من طـرق المواصـلات الطبيعية • كما لابد من الاشارة الى عامل جغرافى آخر وهو ما كانت تعانيه المنطقة من فقر مدقع فى العهود الماضية • فعلى الرغم من شهرة الخليج كمصدر للؤلؤ ، فقد شحت الطبيعة عليه بالموارد الأساسية وعلى الأخص المياه باعتبارها عاملا ضروريا لتحقيق مستوى حضارى عال والاحتفاظ به •

ومن المعروف أن ظروف المعيشة فى الخليج قاسية الى حـد كبير • وبالتالى فقد كان من العسير على شعوبه أن ترتفع بمعيشتها عن مستوى الكفاف ، الا بجهد كبير وبشىء من الحظ • ومن هنا كان التنافس على موارد الرزق المتاحة ووسائل المعيشة حادا ، مما كان سببا رئيسيا فى العنف الذى طبع تاريخ الخليج حتى عهوده الأخيرة • فلقد كانت القرصنة من الحرف العادية « المشروعة » ووسيلة مقبولة الى حد ما من وسائل المعيشة ، وسبيلا الى تحقيق منافع سياسية واقتصادية فى أجزاء معينة من المنطقة ، بل قد يجوز أن نصف القرصنة بأنها كانت تعبيرا عن الصراع بين الذين يملكون والذين لا يملكون ، أكثر من كونها عيبا فطريا فى النسيج الأخلاقى لأهل الخليج • ونحن غالبا ما نصادف مثل هذا التفسير فى كتابات الاوربيين من جيل القرن التاسع عشر المؤيد للاستعمار [٢] •

---

(٢) « القرصنة والسياسة فى منطقة الملايو » (طبعـة ملبورن ١٩٦٣) ص ١ — ٢٠ ، تأليف آن تارلنج . ويناقش بشكل متميز طبيعة القرصـنة التى كانت منتشرة فى دول الملايو والتى كانت تتشابه الى حد كبير مع القرصـنة السائدة فى الخليج العربى قبل منتصف القرن التاسع عشر . ويشير تارلنج الى أن التركيب السياسى والاقتصادى والاجتماعى لدول الملايو قد أوجد حالة كانت فيها اعمال العنف فى البر والبحر — وهى اعمال تعتبر فى نظر الأوربيين قرصنة ، من الوسائل المشروعة لتغيير الأوضاع السـائدة كما كانت اداة عنـد بعض المجموعات لتحقيق اغراض سياسية وتجارية ولدعم مركزها . كما لم تكن هذه الاعمال تعبيرا عن سوء خلق او اطماع فحسب كما يحذر المؤلف من مغبة تطبيق المقاييس الغربية الحديثة للقانون الدولى والقواعد الأخلاقية على الأوضـاع الحضارية للدول الافريقية الاسيوية القديمة .

وهناك عدد كبير من الامارات قد ظهر الى الوجود كنتيجة لعمل ناجح قام به بعض القراصنة وقطاع الطرق الذين تحولوا بمضى الوقت الى بناة دول .

أما العامل الآخر الذى طبع الحضارة القديمة فى الخليج فهو استمرار أهميته كمركز من مراكز التجارة والنشاط الملاحى فى العالم . فبالرغم من فقر الخليج فهو يتمتع بموقع استراتيجى هام فيما كان يعتبر قديما خطا من خطوط المواصلات الدولية التى كانت تنتقل عن طريقها الافكار والمصالح التجارية فيما بين حضارات ما قبل العصر الحديث .

أما خطوط المواصلات الدولية المنافسة يومئذ فهى « الدوران حول افريقيا » (وهو طريق لم يبدأ استخدامه الا قبيل نهاية القرن الخامس عشر) ، وطريق البحر الأحمر — السويس ، طريق ايران ، وطريق بحر قزوين — البحر الأسود ، ثم طريق آسيا الوسطى عبر بحر قزوين ونهر الفولجا . ولقد كان لكل طريق من هذه الطرق حظه من الاهمية النجاح ، كما أن عددا من الامبراطوريات قد ارتبط قيامها بازدهار هذه الطرق وتدهورها أو بعثها . كذلك فقد كان لكل طريق أسلوبه الخاص فى تنظيم التجارة التى كانت تمر منه . أما فيما يختص بالخليج فقد نشأت على ضفافه سلسلة من الدول البحرية التى أسهمت فى خدمة الحركة الملاحية التى كانت تمر عبر موانئها ، وفى الاستفادة من تلك الحركة وحمايتها . كما كانت هذه الموانىء تستقبل قوافل سفن البضائع والركاب التى كانت ترتاد سواحل الخليج والمحيط الهندى ، هذا فضلا عما كانت تقوم به من النشاط فى عمليات صيد اللؤلؤ والأسماك . وبوجه عام لم يكن فى مقدور أى فئة من سكان الخليج ، أن تحقق لمنطقتها قسطا من الازدهار ، الا بجهد بالغ من النشاط التجارى والملاحى ، وبالتالى كان رخاء كل منطقة يعتمد اعتمادا كليا على موضوع توفير الأعمال للسفن والملاحين . ونظرا لأهمية الخليج التجارية والملاحية فقد تركز معظم النشاط السياسى والاقتصادى

والاجتماعى للمنطقة فى الدول الساحلية وفى موانئها . وكانت هذه الموانىء تتمتع بالاستقلال على أساس الأمر الواقع . كما كانت تمثل مراكز التجمع التجـارى بالنسبة لمنتجات المنطقة وحسب ، بل وبوجه أهم ، بالنسبة لما كان يرد من الأقطار الأخرى ويمر عن طريقها الى جهـات أخرى خارج المنطقة . ولقد نشأت معظم الدول الساحلية فى الخليج من أساس قبلى ، بحيث كان من المتعذر التمييز بين الحكومة القبلية والحكومة المدنية أو بين الأهداف السياسية فى المدن الصغيرة . وكان من المألوف فى الموانىء الصغيرة أن يجمع الحاكم بين سلطة شيخ وحاكم المنطقة أو سلطة رئيس وحـاكم الميناء . وعلى أى حال فبحكم نمو هذه المدن وازدياد قوتها كانت الروابط القبلية تفقد الكثير من تأثيرها ، كما قد يحدث أن تلجأ المدن عند الحاجة الى الحكام الذين يرتبطون بروابط قبلية ضعيفة . وحتى فى حالة وجود نوع من الروابط السياسية بين مدن لها أهميتها التجارية والسياسية والمناطق القبلية المتاخمة لها ، فان المدن عادة تؤثر مصالحها المدنية الخاصـة على مصالح المناطق القبلية .

ونظرا لأن المدن عادة تنتهج سياسة مرنة فى علاقاتها بالقوى القبلية ، فقد كان هذا يتيح لها أن تسيطر على الحياة التجارية ، وفى أغلب الأحيان على الحياة السياسية للمنطقة بأسرها . وكانت هذه السيطرة تتحقق عن طريق المناورات الاقتصادية . الا أن الاحتفاظ بها كان يتم عن طريق القوة البحرية واقامة الحاميات العسكرية فى النقط الاستراتيجية . غير أن الادارة السياسية فى الخليج كانت بالأحرى ضعيفة . وبالتالى لم يكن فى وسـع المدن أن تحول دون قيام مدن أخرى منافسة ، أو تقوم بتهدئة بعض المناطق القبلية الثائرة . وكان التنافس فيما بين المدن نفسها حادا وقاسيا ، وهذا ما يدل عليه تاريخ دولة قيس وهرمز ، وسيراف . فالقلاقل السـياسية المستمرة . والحروب بين مدينة وأخرى ، أو بين مجموعة من المـدن الى جانب النزاعات القبلية ذات الطابع الملاحى ، ثم الغارات التى كانت طابع الحياة فى كل شبر من أرض الجزيرة العربية ، فيما قبل العصر الحـديث

كلها تزحم تاريخ الدول التجارية التى قامت فى الخليج على اختــلافها ٠ وكان المراقبون الغربيون غالبا ما يخلطون بين هــذه الثورات وعمليــات القرصنة البسيطة فى الخليج ٠ بيد أنه حتى فى المــوانىء الصغيرة كانت الحياة تختلف فى كثير من جوانبها وبشكل ملحوظ ، عنها فى المناطق الريفية أو القبليــة ٠

ان العناصر الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، بــل والعنــاصر السياسية فى الموانىء الكبرى ، التى شكلت أسس حضارة الخليج الخاصة كان محورها النشاط التجارى والملاحى ٠ فمعظم مدن الخليج كانت تعتمد على صيد اللؤلؤ فى اقتصادها ، وكان اللؤلؤ مصدر دخلها وبالتالى مصــدر رخائها وسبب بقائها ٠ ومن هنا كانت حماية التجارة والتجار المهمة الرئيسية لكل دولة ٠ أما فى المدن الكبــيرة ، فقد كانت الواردات التجــارية من الضرائب الجمركية وغيرها تنفق على المنشآت العسكرية والبحرية ، أو تدفع كرشــاوى ، أو معــونة لبعض الحلفــاء أو لكسب عدو يهددها ٠ ومع نضوب موارد دولة ما كانت تتضاءل قوة تلك الدولة بسرعة ٠ بما أن ضعف وسائل الدفاع عند أى دولة من تلك الدول كان يغرى الآخرين بالاغارة عليها ، كما يتيح الفرصة لدولة أخرى فى المنطقة أن تستولى على المصالح التجارية والسياسية للدولة المتدهورة ٠

لقــد كان تركيب المجتمع فى الخليج ، اذا استثنينا بعض المنــاطق الساحلية ، تركيبا قبليا ٠ فقد كان للمجموعات القبلية والريفية اليد الطولى ، وكانت تمارس حياتها وفقا لقيم معينة ٠ وعلى أى حال كان هناك قســم كبير من القبائل الساحلية تتقن حرف ثابتة وتشغل مناطق تكاد أن تكون محدودة ٠ وفى بعض الأحيان كان يقوم نوع من الوئام السياسى فيما بين القبائل المتاخمة لاحد الموانىء ٠ كما كانت هناك علاقات تكافل بين الموانىء الساحلية والقبائل المتاخمة لها ٠ أما سكان المدن فكانوا يتألفون فى الغالب من الجماعات التى كانت تهاجر من المناطق المجاورة لها ٠ كما كان يحــدث

أن ينتقل بعض سكان الريف للعمل مؤقتا فى المدن . وبالعكس كان رخاء المدن يتسلل الى الأرياف حيث تقوم المدن بتوفير الخدمات والسلع للمناطق الريفية . وكان يحدث أن يمارس حاكم المدينة سلطة اسمية على القبائل القريبة من مدينته اذا كانت المدينة كبيرة وعلى جانب من القوة ، غير أن مثل هذه السلطة لم تكن سلطة مطلقة كالتى يمارسها الحاكم على المدينة نفسها . أما القبائل التى تقيم فى المناطق الريفية ، أو بعيدا عن المؤثرات الثقافية للموانىء فقد كانت أكثر اكتفاء ذاتيا من تلك التى تقع على الساحل ، وأكثر بعدا عن متناول نفوذ المدينة .

كانت القبائل الريفية تتألف فى الدرجة الأولى من بدو الصحراء الذين يمكن فى بعض الاحيان أن يثيروا مشكلة كبيرة من مشاكل الأمن بالنسبة للمدن الساحلية .

تاريخ الخليج قبل القرن التاسع عشر

خلال مرحلة الازدهار التى شهدتها عمان وعاصمتها مسقط — أى منذ النصف الأخير للقرن السابع عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر ظلت البلاد تتطور ضمن الخطوط التى أشرنا اليها آنفا . ولم يبدأ التفكك فى أوضاع البلاد الا بعد أن ثبت البريطانيون أقدامهم فى المنطقة . أما ان عمان قد ورثت خلال أعوامها المجيدة ، عادات وتقاليد وعيوب الدول التى سبقتها فى زعامة المنطقة ، فيمكن تصوره من خلال القاء نظرة على تاريخ الخليج قبل القرن التاسع عشر [٣] ان وراء الخليج تاريخا عريقا . ومن المحتمل ، على

---

(٣) يتضمن كتاب « اى . تى ويلسون » الخليج العربى معلومات قيمة عامة ومفيدة تكشف عن جوانب كثيرة من تاريخ الخليج فى الفترة الواقعة قبل القرن التاسع عشر . و « الملاحون العرب فى المحيط الهندى خلال وفى اوائل العصور الوسطى » ، تأليف جى . اف . حورانى (طبعة برنستون ١٩٥١) =

سبيل المثال ، أن يكون الانسان قد أطلق الطلقة الأولى فى مضمار التجارة البحرية على صفحة مياهه ، ومما لا يتطرق الشك اليه أن الخليج قد استخدم كطريق مائى منذ آلاف السنين . والأدلة غير متوفرة عن تلك الفترة التى سبقت العصور الاغريقية ، مما يحول دون كتابة بحث موثوق به عن التاريخ القديم للمنطقة ، غير أن عمليات الحفر التى أجريت فى الحسا قد كشفت عن وجود حضارة ملاحية لا يقل عمرها عن ستة آلاف عام . وفضلا عن ذلك فان علماء الآثار [٤] ، على ما يبدو ، قد وفقوا الى اكتشاف علاقة بين المدن التى قامت على ضفاف نهر الاندس عبر الطريق المائى الذى يخترق خليج عمان والخليج العربى . ولا يعرف على وجه التأكيد متى احتل العرب شواطىء الخليج ، ولكن يبدو أنهم جاءوا الى المنطقة كغزاة انطلقوا من بطن الجزيرة العربية وراحوا يطاردون سكانه الأصليين حتى سفوح الجبال الداخلية فى عمان وظفار ، حيث لايزالون يعيشون فى هذه المناطق حتى اليوم . ثم زحف العرب على الخليج فأقاموا فى جزره واحتلوا معظم سواحله الايرانية [٥] ومنذ ذلك الحين ظل الخليج يستقبل أفواجا لاتنقطع من القادمين اليه عن طريق البحر أو عبر الصحراء ، غزاة أو نازحين ، أو تجارا أو عبيدا . وعلى الرغم من أن سكان الخليج شعب خليط ، الا أن العنصر العربى كان له التفوق دائما ، وظلت الثقافة العربية هى الثقافة السائدة منذ أن وطىء العرب أرض الخليج .

= و « التقويم الجغرافى للخليج — عمان وأواسط الجزيرة (طبعة كلكتا ١٩٠٨ — ١٩١٥) و « بحر فارس » ، تأليف سى اف بكنجهام مجلد ٢ فصل ١ ص ٩٢٧ — ٩٢٩ و « الانسان قديما وحديثا فى جنوب غربى الجزيرة العربية » ، تأليف دبليو . اج . فيلد وفيه بحث وجيز وفهرس مفصل عن سلالات سكان المنطقة وتاريخها كما ساهم جى . دى . بيرسون بفهرس مفصل يتناول دراسة للخليج بعنوان « الفهرس الاسلامى » ١٩٠٦ — ١٩٥٥ (طبعة كمبردج ، ١٩٥٨) وملحقه ١٩٥٦ — ١٩٦٠ (طبعة كمبردج ١٩٦٢) .

(٤) حضارة نهر الاندس (طبعة كامبردج ؛ ص ٦٠ و ٩٣ ، تأليف ام . ويلر . و « سواحل الجزيرة العربية » (طبعة نيوهافن ١٩٣٢) ، تأليف آر دوجرتى .

(٥) « الازد » ، تأليف جى سترنزيوك مجلد ٢ فصل ١ ص ٨١٢ .

وحتى خلال العصور الأولى كانت ثروات الخليج ، على ما يبدو ، هى التى تتحكم فى الاتجاهات الرئيسية لتاريخ هذه المنطقة . وتكشف المعلومات الحديثة عن القرن الأول بعد الميلاد ، انه عندما كانت الامبراطوريات الكبرى فى أوربا وآسيا فى أوج ازدهارها ، كان الملاحون العرب ينشطون كوسطاء تجاريين بين الشرق والغرب [٦] ، وفى عهد الرومان كان الغربيون يفضلون ارتياد طريق البحر الأحمر على طريق الخليج فى رحلاتهم الى الهند ، لأن رأس الخليج ، وهو العراق كان فى قبضة الامبراطوريات الفارسية من البارثيين وخلفائهم الساسانيين خصوم الرومان . أما الفرس كشعب يسكن المنطقة الداخلية فكانوا يفضلون طريق القوافل البرى عبر ايران أما الخليج العربى فانه لم يصبح طريقا تجاريا رئيسيا حتى العصر الاسلامى ، حين أخذ الملاحون العرب من سكان المنطقة يستخدمون شتى نواحى نشاطهم الملاحى ، كصيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ .

« العصر الذهبى » تعتبر الفترة الواقعة بين سنة ٧٥٠ وسنة ١٥٠٧ بعد الميلاد الفترة المجيدة فى تاريخ الخليج أو ما يطلق عليه بالعصر الذهبى ، غير أن بريق هذا الذهب أخذ يخبو منذ أول القرن الحادى عشر عندما تحولت الحركة الملاحية من طريق الخليج الى طريق برزخ البحر الأحمر السويس باعتباره المعبر الرئيسى للتجارة بين المشرق والمغرب . وأيا كان فمما لاشك فيه ان أكثر المراحل ازدهارا فى تاريخ الخليج ، اذا استثنينا الازدهار الحالى الناتج عن تدفق النفط ، هى الفترة التى تبدأ بالخلافة العباسية وتنتهى بسقوط دولة هرمز فى أيدى البرتغال .

غير أن ظهور الاسلام فى القرن السابع عشر وما تبعه بعد مضى قرن ونصف من قيام الخلافة العباسية سنة ٧٥٠ بعد الميلاد يعتبر بداية العصر

---

(٦) « ارض اللبان والمر فى الجنوب العربى » مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية (١٩٥٨) ص ١٤٧ — ١٥١ و « روما فيما وراء الحدود الامبراطورية » ؛ تاليف أم . ويلر (طبعة لندن ١٩٥٤) فصل ٣ .

الذهبى للمنطقة • ومع قيام امبراطورية اسلامية مترامية الأطراف تضم كل منطقة جنوب غربى آسيا وتمتد من سواحل المحيط الأطلسى حتى ضفاف الاندس ثم ما تبع ذلك من اقامة جهاز سياسى مركزى عاصمته المركزية بغداد — لتوجيه هذه الامبراطورية وادارتها ، أصبحت الظروف ملائمة لكى تزدهر الحياة فى أرجاء الخليج ، يوم كانت مياهه تخترق كالسهم قلب المركز الاقتصادى والسياسى والثقافى للعالم الاسلامى • وفضلا عن ذلك فانه فى الوقت الذى كانت الامبراطورية الاسلامية العالمية بزعامة الخلفاء العباسيين فى أوج عظمتها ، كان هناك الى جانبها دول قوية أخرى فى مناطق مختلفة من مراكز الحضارة فى العالم •

ففى الصين كانت أسرة تانج قد استعادت نفوذها فى البلاد ، كما استطاعت الامبراطورية البيزنطية اعادة تحقيق الازدهار فى الجزء الشمالى الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، بينما استطاعت أوربا الغربية بقيادة الملوك الكارولينجيين أن تتخلص من الفوضى التى أعقبت انهيار الامبراطورية الرومانية • أما بغداد فبالاضافة الى كونها قلب النشاط الاقتصادى وعاصمة للامبراطورية ، فقد كانت تقع مباشرة عند ملتقى طرق رئيسية تربط بين مراكز هذه الحضارة كلها •

ولما كانت الطرق البرية بين غرب وجنوب شرقى آسيا ذات امكانيات محدودة ، فان نمو واتساع النشاط الاقتصادى للعالم خلال القرن الثامن عشر استوجب استخدام الطرق البحرية ولما لم يكن طريق الدوران حول افريقيا قد بدأ فى الاستعمال حتى ذلك الوقت ، انحصر الخيار بين طريقى البحر الأحمر والخليج العربى باعتباره الحلقة الرئيسية للتجارة البحرية التى كانت تتحرك عبر منطقة غربى آسيا • وطبيعى أن استخدام أى من الطريقين المذكورين كان يتوقف الى حد كبير على امكانيات المحطات النهائية للطريق وعلى ازدهاره وأهميته السياسية — كمصر والعراق والأقاليم الواقعة فى ما وراءهما والتى كانت تتعامل معها تلك الأقطار • وكانت مصر

وهى فى أوج عظمتها تخضع للعباسيين • وكانت تجارتها مع البلاد الأوربية والممالك البيزنطية قد انخفضت الى المستويات التى شـهدتها العصـور الرومانية • ومن ناحية أخرى كان العراق يحتل موقعا هاما فى أرجـاء الامبراطورية • كما كان سكانه فى تزايد واقتصاده يسير فى طريق النمـو والازدهار • لهذه الأسباب كان تفضيل طريق الخليج على طريق البحـر الأحمر الذى توقف النشاط فيه نسبيا لبضعة قرون بعد سنة ٧٥٠ م (٧) •

وسجلت تجارة العراق مع الشرق الأقصى تطورا كبيرا حتى أصبح للتجار الفرس والعرب مستعمرات فى بعض المدن الصينية • وبالرغم من موقع بغداد فى صميم طرق التجارة العالمية • وازدهارها فقد كانت بعيدة عن طرق المواصلات البحرية بحيث لم تكن تصلح كمحطة بحرية للسـفن الكبيرة التى كانت تبحر الى الهند وشرقى آسيا • ومن هنا وقد الاختيـار على مينائى البصرة والأبلة كمحطة للسفن عابرات المحيط التى كانت تتولى نقل التجارة الى الشرق • وفى البصرة كان يعاد شحن البضائع الى السفن النهرية لنقلها الى بغداد حيث كان يتم توزيعها • وكانت مناطق سـاحل الخليج تخضع لسلطات بغداد ، التى كثيرا ما كانت ترسل الحملات لاخماد حركات التمرد التى كانت تنشب فى عمان والبحرين وغيرهما من الاقاليم •

أو لمطاردة القراصنة الذين كانوا يهاجمون السفن فى عرض البحر • ولعل البصرة هى الميناء التى كان يخرج منهـا ملاحـو السندباد البحرى فى مغامراتهم • ولكن من المؤكد أيضا أن الملاحين العمانيين قد أسهموا بنشاط وافر فى مضمار التجارة العالمية • وقد بدأت البصرة كمدينة تقع على أحـد الانهـار ، تفقد أهميتها كميناء عميق بسبب زحف طمى النهر على الساحل •

وقد استوجب هذا الوضع اقامة فنائر لتحذير السفن بالابتعاد عن المناطق الخطرة وعلى الرغم من كل هذه الاحتياطات فقد تبين أنه لابد من

---

(٧) الملاحون العرب . ص ٥١ — ٦١ ، تاليف حورانى •

ارساء سفن ذات غاطس عميق فى بعض المناطق القريبة من الســاحل الايرانى ليتم عن طريقها تفريغ البضائع الى السفن الصغيرة التى يمكنها الابحار فى مياه الانهار • ومن بين المواقع التى اتخذت كمحطة لنقــل حمولات السفن الكبيرة الى القوارب سد رملى اطلق عليه فيما بعد ميناء سراف • وقد اجتذب تجمع السفن والحركة التجارية فى هذا الموقع نشاط الحركة التجارية فى الموانىء الأخرى الصغيرة على ساحل الخليج ، وبمضى الوقت حلت سراف محل البصرة كأهم مركز للتبادل التجارى والحركة الملاحية فى المنطقة • ولم تكن سراف منطقة صغيرة اذ لاتزال أنقاضــها موجودة حتى الآن وتمتد الى نحو ميلين داخل البحر[٨] •

وقد بقى هذا الميناء كمستودع رئيسى للبضائع فى الخليج وأكبر محطة تجارية عبر الطريق البحرى الرئيسى الذى يربط بين الشرق والغرب خلال الفترة الواقعة بين عام ٩٠٠ ميلادية وسنة ١١٠٠ ميلادية كما أصبح منطقة التجميع والمنفذ الرئيسى للسلع القادمة من بلاد فارس • ويقع هذا الميناء بالقرب من احدى الثغرات فى الحاجز الجبلى الذى يفصل بين داخلية ايران والبحر • ومن خلال هذا الممر كانت تتدفق شحنات الحرير الايرانى من شيراز • ويرجع ذلك الى أهمية ميناء سيراف التجارية • ومن الأسباب التى كانت تغرى الناس بالاقامة فى هذا المكان القاحل الشديد الحرارة هو وجود المستودعات ومناطق التخزين بجانب الارباح التى كان التجــار يحصلون عليها من عمليات التبادل النقدى والتجارى •

وفى أعقاب التحول الفكرى الذى طرأ على الجو السياسى فى الشرق الأوسط أخذت حالة ميناء سيراف تتدهور • فمع انهيار سلطان الخلفــاء العباسيين فى العراق وانتشار الفوضى السياسية • أخذ الغزاة يهاجمون سيراف من البر والبحر • كما ومن ناحية أخرى فان ظهور مصر كقــوة

---

(٨) العراق والخليج — الامبرالية البريطانية (لندن ١٩٤٤) ص ١٥٨ •

سياسية وثقافية واقتصادية لم يساعد على تدهور حالة الميناء المذكور وحسب ، بل والى تحول تدريجي فى التجارة البحرية عن موانىء الخليج ، بينما كان العراق فى ذلك الوقت نهبا لقلاقل واضطرابات سياسية عنيفة . وقد تمخضت الاوضاع فى مصر عن قيام الخلافة الفاطمية هناك كقوة منافسة لدولة العباسيين فى العراق . وفى القرن الحادى عشر اكتسب طريق البحر الاحمر — السويس أهمية تضارع الاهمية التى كان يحتلها الخليج فى عهد ازدهار العراق — وهو الازدهار الذى انهار والدولة هناك فى أوج قوتها . ومن جهة أخرى كانت مصر فى ذلك الوقت تستعيد المكانة التى كانت قد بلغتها أيام الرومان كوسيط للحركة الملاحية بين أوربا والأقطار الآسيوية . ولقد أسفرت الثورات والغزوات التى كانت تجتاح العراق عن تحول حركة التجارة والملاحة عن طريق البحر الأحمر — السويس كما أدى انهيار حكم العباسيين فى العراق الى تدهور الأوضاع فى الخليج متمثلا فى ازدياد القلاقل الملاحية وضعف النشاط التجارى عبر الخليج وهو فى أوج قوته (٩).

حلت ميناء قيس كمستودع رئيسى لتجارة الخليج محل ميناء سيراف . وتقع قيس فى منطقة تبعد نحو ١٣٠ ميلا الى الجنوب ، على جزيرة لا تبعد أكثر من عشرة أميال تقريبا عن ساحل ايران . ومع هذا فلم تحتل قيس الأهمية التى احتلها ميناء سيراف ، بسبب ظهور مصر الى الوجود واستخدام طريق البحر الاحمر — السويس . ورغم ذلك لعبت قيس دورا كبيراً كمركز رئيسى للتجمع والتوزيع للبضائع التى كانت تمر بالخليج فى الفترة بين سنة ١١٠٠ وسنة ١٣٠٠ ونستدل من الآثار العضوية التى تم اكتشافها ان قيس أصغر من سيراف فى المساحة ، اذ تمتد أنقاضها مسافة تربو على نصف ميل فى جوف البحر ولا تعود أهمية ميناء سيراف الى أهمية العوامل الاقتصادية بقدر ما كانت ترجع الى استيلاء احدى الاسر العربية التى تنتمى الى ما يعرف الآن بساحل الصلح على الجزيرة المذكورة

---

(٩) الخليج العربى « فصل ٧ ، تاليف ويلسون والسيراف » تاليف سى . هورات م ١ ف ٣ ص ٤٤٤ .

والى سيطرة أسطولها التجارى على النشاط التجارى فيها وارغام التجار على استعمال ميناء قيس بدلا من ميناء سيراف • وبفضل ما كان لقيس من أسطول بحرى فقد سيطر حكامها على الجزر والمقاطعات الكبيرة على كل من جانبى الساحلين الايرانى والعربى للخليج ، وفى سنة ١١٧٠ دانت سيراف لحكام قيس ، وبالتالى تضاءلت أهمية الميناء الأول الكبير • وبما أن قيس جزيرة فقد كان هذا العامل يسهل للاسطول مهمة الدفاع عنها وحمايتها ، كما كان سببا فى تجنيبها القلاقل التى كانت تجتاح ايران فى أعقاب حكم العباسيين ، مما يسهل نقل السلع التى ترد من شيراز عن طريق هذا الميناء لبعده عن مناطق الاضطرابات التى كانت تسود داخلية ايران فى ذلك الوقت (١٠) •

غير أن ميناء قيس رغم أهميته لم يحل دون قيام قوة منافسة للحكم فيه • وفى أواخر القرن الثالث عشر برزت الى الوجود دولة هرمز التى غدت أهم منطقة لتجميع السلع التجارية فى الخليج وأكبر منافس لميناء قيس • وكانت هرمز التى بدأت تأخذ دورها فى القرن الحادى عشر فى شؤون المنطقة الداخلية من ايران تحتل موقعا استراتيجيا على المضيق الذى يربط خليج عمان بالخليج العربى ويبلغ عرض هذا المضيق نحو أربعين ميلا • وكانت المياه متوفرة بكثرة فى المنطقة المحيطة بهرمز نسبيا • وكانت تنتج كمية وفيرة من المحاصيل الزراعية • غير أن الميناء نفسه لم يكن أكثر من ممر للسلع القادمة من مقاطعتى كرمان وسيجستان الايرانيتين • وقد ظلت هرمز لعدة سنوات خاضعة للأسر التى كانت تحكم فى كرمان وغيرها من عواصم ايران الداخلية كما عقد حكامها العرب علاقات زواج مع حكام دولة قيس • وقد أتاحت الاضطرابات التى اقترنت بغزو المغول لايران فى القرن الثالث عشر الفرصة لحكام هرمز ان يدخلوا تغييرات على الوضع وبالتالى أخذوا ينهجون سياسة أكثر استقلالا من ذى قبل • فعندما حاولت السلطات

---

(١٠) « الخليج العربى » فصل ٧ و « قيس » تأليف ام سترك مجلد ١ فصل ٢ ص ٦٢٩ — ٦٥١ •

الايرانية في الداخل فرض ضرائب جديدة على سكان هرمز على سبيل المثال ، غادر هؤلاء الميناء الى قلهات ، احدى المناطق التابعة لهرمز على خليج عمان ومن هناك أخذوا يغيرون على القوافل التجارية البحرية وهي في طريقها الى ايران ، وبذلك أرغموا حكام كرمان على الوصول الى اتفاق معهم حتى لا يحرموا من نصيبهم من الأرباح التي كانت تدرها هذه التجارة عليهم • وأخيرا في سنة ١٣٠٠ قرر حكام هرمز وضع حـد للمتاعب الناجمة عن السياسة العدائية التي كان حكام المنطقة الداخلية من ايران يمارسونها ضدهم • وذلك كان بنقل نشاطهم الى جزيرة صغيرة قاحلة تبعد نحـو ١٥ ميلا عن الساحل المواجه للموقع القـديم ، حيث أنشأوا لهم مركزا جديدا • وهكذا أخذت التجارة تتدفق على هرمز الجديدة التي أصبحت بمضي الوقت مدينة يسكنها نحو ٤٠٠٠٠ نسمة •

غير أن قيس كدولة هامة في الخليج لم تستسلم بسهولة • فقد نشبت حرب تجارية طويلة تخللتها مصادمات مسلحة ، لم تنته الا في سنة ١٣٣٠ عندما استطاعت هرمز بزعامة ملكها الرشيد طوران شاه (ويبدو أن الاسم هذا يحمل معنى مزيجا من الدم والتقاليد العربية والتركية والمنولية) أن تجرد دولة قيس من أهميتها الى حد كبير •

ويرجع فضل المكانة والثروة التي حققتها هرمز الجديدة لنفسها الى موقعها الاستراتيجي الذي يتحكم في المضايق المؤدية الى المياه الداخلية للخليج ، مما أتاح لها أن تسهم بدور هام في تجارة الهنـد مع العراق ، وايران ، والجزيرة العربية ، ومصر أيضا • فهي تقع على مقربة من الخط الرئيسي للمواصلات بين الشرق والغرب الذي يربط مصر والهند بالاسواق النامية في أوربا • ومن هذا الميناء كانت تخرج معظم السلع التي كانت تمر عبر ذلك الطريق الطويل • كما أدى انتصار دولة هرمز على قيس الى تحول تجارة ايران — وفي مقدمتها المنسوجات الحريرية — بالاضافة الى التجارة المحلية لمنطقة الخليج الى ميناء هرمز •

خـلال العصر الذهبي (١٣٣٠ — ١٥٠٧) كان ملك هرمز يحـكم البلاد اسميا ، بينما كانت السلطة الفعلية فى أيدى مجموعة أوليجاركية من تجار البلاد ، الذين لم يكن فى مقدور الملك أن يقف ضدهم اذا أراد أن يظل ملكا وان يستمتع بامتياز الملك • وكان الخلاف بين أفراد العـائلة الحاكمة مزمنا ، غير أن بعض أفراد هذه الاسرة احتلوا مناصب عالية كولاة ومحافظين فى بعض المناطق الخارجية • وكان مجلس الملك برئاسة الوزير هو الذى يقوم بتعيين الولاة فى مناصبهم ، كما يشرف على القوات البحرية وعلى جيش من المرتزقة يرابط فى أنحاء البلاد ويستخدم ـ قمع حركات التمرد التى تقوم فى المحميات بين حين وآخر • وكانت هرمز تسيطر على ضفتى خليج عمان وعلى بعض الجزر كالبحرين وعلى عدد من الأقاليم الكبيرة • كما كانت تدفع جزية سنوية الى حكام ايران ولم يكن فى هـذا الاجراء ما يمس استقلالها الحقيقى وانمـا كان ضروريا للمحافظة على مصالحها التجارية وكانت لهرمز علاقات تجارية مع معظم المناطق التجاريه الرئيسية فى حوض المحيط الهندى • ولعل أهم العلاقات المذكورة علاقتها بالهند ومصر التى كانت فى ذلك الوقت محور شبكة الحركة التجارية الزاحفة فى عهد المماليك • ومن الأسباب التى أسهمت فى تنمية الحـركة التجاريه بهرمز هو بعدها عن مناطق القلاقل بالاضافة الى السياسة التجاريه المستقله التى كانت تنتهجها حكومتها • حتى أن عدد المراكب فى الميناء كما يقول أحـد شهود الصيانة ، قد بلغ فى سنة ١٥٠٣ نحو ٣٠٠ سفينة لأن نسبة الضرائب الجمركية كانت قليلة جدا • وكان أغلب البحارة من عرب عمان واليمن ، فضلا عن وجود عدد من الهنود والافريقيين المخصصين للرحلات البعيدة • على أن النشاط الملاحى فى مجمله لم يكن منظما تنظيما كافيا فقد كان ربابنة السفن يجرون كيف يشاؤون مدفوعين بدافع المصلحة التجارية والربح وحسب • أما الحكومة نفسها فلم يكن يتعدى دورها نطاق الاشراف على الحركة التجارية فى هرمز وغيرها من الموانىء التابعة لها ، باعتبـارها مناطق تجميع للبضائع ، كما كانت مهمتها توفير الحماية للتجار والسلع التى كانت تتجمع ضمن حدودها من وقت الى آخر •

ولم يكن للدولة أسطول تجارى خاص بها ، وان كان يحق للملك وأفراد أسرته اقتناء السفن التجارية ، وهى سفن يمكن تحويلها الى سفن حربية اذا اقتضت الضرورة لذلك لاستخدامها ضد كل من تسول له نفسه بتهديد وجودها كمركز تجارى هام . وكانت علاقة تجار هرمز علاقة متكافئة ولم تكن علاقة السيد بمسوده ولقد وصف أحد الرحالة ثروة هرمز فى ذلك الوقت فقال : انها ثروة خيالية وان هرمز كما تقول المؤلفات الأوربية الحديثة ، كانت رمزا حيا لثراء الشرق وازدهاره فى تلك المرحلة من التاريخ . وحتى لو كان فى هذا الوصف شىء من المبالغة ، فالذى لاشك فيه أن هرمز فى أوج ازدهارها كانت احدى الاسواق الكبرى فى آسيا (١١) .

العصر الفضى للخليج : يسجل وصول البرتغاليين الى ميـاه المحيط الهندى نهاية للعصر الذهبى للخليج غير أن الخليج مـع ذلك ظل محتفظا بأهميته على مدى النصف الأول من القرن التاسع عشر . لقـد تم طرد البرتغاليين من الخليج فى منتصف القرن السابع عشر . ولكن رغم ظهـور السفن البريطانية والهولندية والفرنسية بين حين وآخر فى مياه الخليج فقد ظل تحت سيطرة شعوبه حتى أواخر القرن التاسع عشر ، عندما جاءت بريطانيا لتبدأ فرض السيطرة الاوربية على هذه المنطقة . أما خلال العصر الفضى ، فقد كانت عمان وعلى رأسها مدينة مسقط تسيطر على الخليج خصوصا من الناحية الاقتصادية .

---

(١١) ثمة فهرس كبير من المراجع عن هرمز اهمها طوران شاه — تاريخ ملوك هرمز وقد صدر كملحق لكتاب « رحلات بدرو تكسيرا » ترجمة دبليو ان سنكلير (طبعة لندن ١٩٠٢) وولسون فصل ٧ ، ثم النص العربى لرحـلات ابن بطوطة ترجمة واعداد سى دفر يميرى وبى آر سانجونيتى (طبعة باريس ١٨٥٤) مجلد ٢ ودى بريوزا فى كتاب دورات بريوزا ، ترجمة ام ال ديمس (مترجم) (طبعـة لنـدن ١٩١٨) ص ٤١ ، ٧٥ — ٧٩ و ٩٠ — ١٠٠ ، وهرمز تاليف ار ستوب مجلد ١ فصـل ٢ ص ٣٢٥ — ٢٦ و « هرمز » ، مجلد ١٨ (١٩١٤) ص ٥٣١ — ٥٤٣ ، تاليف شوارتز و « امراء هرمز من القرن الثالث عشر حتى القرن التاسع عشر » تاليف جى اوبين — المجـلة الاسيوية (١٩٥٣) ص ٧٧ — ١٣٨ و « الملاحون العرب » تاليف حورانى ص ٨٧ — ١٢٢ .

يعتبر وصول الربان فاسكو ديجاما الى الهند سنة ١٤٩٨ بداية للعصر الجديد • وبفضل الجهاز الادارى والتوجيه السياسى والاقتصادى المنظم وبفضل التطور الذى طرأ على صناعة بناء السفن والأسلحة وبدافع الحماس الدينى الصليبى اضحى البرتغاليون سادة البحار العربية فى سنة ١٥٣٠ • كما تمكنوا بفضل سلسلة من الهجمات المدمرة على النقاط الاستراتيجية فى المحيط الهندى ان يخضعوا الشرق كله لسيطرتهم • وكان الهدف من السيطرة على النقاط الاستراتيجية (بما فى ذلك هرمز) هو السيطرة على التجارة واحتكارها وبصورة خاصة تجارة السلع الكمالية • وقد طلبوا الى السفن المحلية ، بما فيها سفن عدن ، وعرب الخليج ان تحمل تصريحات من السلطات البرتغالية والا تعرضت للهجوم والمصادرة • وقد تسببت هذه السياسة بتحـول الحركة التجـارية من طريق المواصلات الرئيسى عبر السويس والبحر الى الطريق المهمل حتى ذلك الوقت أى ، الطريق الذى يدور حول الطرف الجنوبى للقارة الافريقية الى ساحل المحيط الاطلسى فى أوربا • وهكذا خفت حدة النشاط التجارى عبر الشرق الاوسط وبدأت المنطقة تعانى من تدهور اقتصادى ما لبث أن تطور الى كارثة اقتصادية شاملة فى منتصف القرن السادس عشر عندما أخذت شحنات الذهب والفضة الرخيصة تتدفق على العالم الجديد لتقوض التركيب المالى للمنطقة فى ذلك الوقت •

وقد أدرك مماليك مصر ثم العثمانيون الخطر الذى تمثله محـاولة البرتغاليين التحكم فى التجارة واحتكارها لمصلحتهم فقاموا بارسال بعض قطعهم الى المحيط الهندى وعقدوا تحالفا فيما بينهم لطرد البرتغاليين من المنطقة غير أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح بسبب المشاكل التنظيمية ، الأمر الذى حال بين الدول الاسلامية الكبرى وبين الاحتفاظ بقوة بحرية ضاربة فى البحار الشرقية • ان تسلل النفوذ البرتغالى وما أعقبه من احتياج الدول الغربية للشرق كان فى مقدمة العوامل التى ساعدت على ادخـال الوسائل التكنيكية والآلية الى المنطقة والسيطرة على مختلف الوسـائل

التى يستطيع بها الناس أن يسيطروا على بيئاتهم ومجتمعاتهم . وعلى الرغم من أن طرق المواصلات القديمة ظلت محتفظة بنشاطها ردحا من الوقت ، الا أن السفن الأوربية بدأت فى نحو سنة ١٦٢٦ أى بعد مضى نحو قرن على سيطرة البرتغاليين على المحيط الهندى تقوم بنقل البضائع الى بلاد الشام ، وهى نفس البضائع التى كانوا قبل نحو مائة عام يشترونها من تلك البـــلاد [١٢] .

استولى البرتغاليون على هرمز سنة ١٥٠٧ الا أنه بعد وقوع بعض الاشتباكات التى ساعدت على حماية مؤخرة الطريق الجديد الذى يستخدمه البرتغاليون ، استعاد الخليج وضعه القديم تقريبا . على الرغم من أن البرتغاليين أنشأوا القواعد والقلاع فى المنطقة ، الا أن استراتيجيتهم كانت تقوم على أساس وضع القسم الاكبر من السلطة فى أيدى الحكومات المحلية لتحكم من خلالهم بطريق غير مباشر وبالتالى يتجنبون كل ما كان ينطوى عليه الحكم المباشر من نفقات ومشاكل وتعبئة للطاقة البشرية . وعلى الرغم من التحول الذى طرأ على هرمز من دولة مستقلة الى دولة تابعة للبرتغاليين فقد ظلت محتفظة بملكها حتى القرن السادس عشر . والواقع أن العيب الوحيد فى حكم البرتغال ليس فى أنهم كانوا يحكمون حكما صارما بل فى اهمالهم للمنطقه . فهم لم يفعلوا شيئا لتشجيع التجارة فى الخليج . فعندما استولى البرتغاليون على هرمز كانت هذه المنطقة من أغنى مصادر الدخل فى امبراطورية الهند البرتغالية . لكن الوضع قد تبدل فى سنة ١٥٨٥ حيث انخفض الدخل الى حد كبير [١٣] . بل كادت هرمز أن تختفى من الوجود بحلول القرن السابع عشر . وليس من الانصاف أن يعزى سبب تدهور تجـارة الخليج الذى بدأ فى مطلع القرن الحادى عشر الى البرتغال .

---

(١٢) مكتب محفوظات الملك — جدول الوثائق الحـكومية — السلسلة الخاصة بفينسيا ، ٣٦/١٦٢٥ (طبعة لندن ١٩١٣) مجلد ١٩ ص ٢٨٠ .

(١٣) رحلات تكسيرا ص ٦٦/٢٦٥ .

وعلى الرغم من الحرب الخاطفة التى عمد اليها البرتغاليون واهمالهم للناحية التجارية للمنطقة فانهم لم يحاولوا احداث أى تغيير فى أسلوب الحياة فى الخليج . كما لم يتمكنوا من فرض سيطرة كاملة على تجارة الهند ، بينما لم يكن دورهم أكثر من دور السيد المهيمن . أما ادارة شؤون المنطقة فقد تركوه لأهلها ، ولم يتدخلوا فى تقاليد البلاد أو أنظمتها طالما لم تكن هذه تتعارض مع السلطة البرتغالية تعارضا سافرا ، أو تمس المصالح الملاحية أو الاحتكارات التجارية الأوربية . وحتى هذه السيطرة الضعيفة بدأت تواجه تحديات جديدة فى مطلع القرن السابع عشر ازاء تدهور السيطرة البرتغالية على السواحل الشرقية تدهورا ملحوظا . وقد اتضح من ذلك ان فرض سيطرة احتكارية على منطقة واسعة كالمحيط الهندى مهمة عسيرة على دولة صغيرة ذات امكانيات محدودة . والواقع أن البرتغال نفسها أصبحت مجرد مقاطعة من المقاطعات الأسبانية بعد أن تربع على عرشها الملك فيلب الثانى حيث أهملت الامبراطورية البرتغالية فى الشرق وتركز الاهتمام على المستعمرات الأسبانية فى أمريكا [١٤] .

وفى مطلع القرن السابع عشر بدأت السفن البريطانية والهولندية تتدخل فى مناطق النفوذ البرتغالية الضعيفة فى المحيط الهندى ، مما أدى الى نشوب صراع بين الدول فى سبيل السيطرة على المنطقة وفى سنة ١٦٢٢ طرد البرتغاليون نهائيا من هرمز بالتعاون بين قوات شاه عباس الصفوى حاكم ايران والانجليز . غير أن فجر السيطرة الاوربية على الخليج لم يكن ليحل بتلك السرعة فقد ظل النشاط الملاحى لسكان الخليج مستمرا حتى فى عهد البرتغاليين . كما أخذ الملاحون العرب يثبتون وجودهم بصورة متزايدة مع انحسار النفوذ البرتغالى . ولقد احتفظ البرتغاليون ببعض مراكزهم فى الخليج بعد طردهم من هرمز . غير أن هذه المراكز قد فقدت هى الأخرى مع مرور الوقت . وعلى أى حال فمن الجدير بنا أن نؤكد

---

(١٤) نفس المصدر ص ١٨ — ٢٤ و ١٦٧ — ٧٨ وابن رزيق ٢٣ و « جزر البحرين » ، تأليف اف عظيمات (طبعة نيويورك ١٩٥٥) ص ١٥ — ١٦ .

بأن هذه المراكز لم تسقط فى البداية فى يد الانجليز ، وانما استعادها العرب أنفسهم فى القرن السابع عشر .

ومنذ سنة ١٦٤٢ حتى مطلع القرن الثامن عشر كان العمانيون فى مقدمة الدول التى أسهمت فى اقصاء البرتغاليين وتصفية نفوذهم ، فبعد أن أجلوا البرتغاليين عن مدينة مسقط على ساحل عمان واصلوا عملياتهم الى أن استولوا على الجزء الاكبر من افريقيا الشرقية وعلى حين اتهم الاوربيون العمانيين بممارسة القرصنة فان من الانصاف أن نقول بأن العمليات العسكرية التى قام بها العمانيون خلال الفترة المشار اليها كانت من قبيل الحروب الملاحية . وقد سيطر العمانيون على الخليج سيطرة تامة بعد خروج البرتغاليين . وفى أعقاب الستينات من القرن السابع عشر أخذ الانجليز ، والهولنديون والفرنسيون يرتادون منطقة الخليج ، كما أنشأوا لهم مراكز تجارية هنا وهناك . الا أن الغاية الأساسية من ذلك النشاط كانت تجارية أكثر منها سياسية . ولم يكن لتلك المراكز رغم تحصينها صفة سياسية أو عسكرية لأن الخليج يومئذ لم يكن مسرح الصراع بين الدول الاوربية فى سبيل السيطرة على المحيط الهندى وعلى الشرق . وبالتالى لم كن يهمهم سيطرة عمان على جزء صغير منه .

غير ان الفترة التى تألقت فيها عمان لم تكن فترة متصلة فقد كان يتخللها من وقت لآخر تحديات من جانب الحكام المناوئين لها . ففى خلال القرن الثامن عشر خضعت عمان مؤقتا لنادر شاه حاكم ايران وكان هذا الاحتلال جزءا من سياسة نادر شاه التوسعية وقد عرف كيف يستغل الخلافات السياسية الداخلية التى كانت تمزق عمان فى ذلك الوقت . وبذلك فرض نفسه على منطقة الخليج — وبالرغم من أن عمان قد استعادت مركزها بعد وفاة نادر شاه . فقد ظلت القوى البحرية الأخرى فى الخليج والموالية لكريم خان زند (١٧٧٣ — ١٧٥٠) تشكل تهديدا لعمان وعلى كل فقد كان الأسطول الفارسى فى عهد كريم خان بوجه عام تحت اشراف وادارة الربابنة

العرب سكان الشاطىء الايرانى من الخليج • والواقع أن مصالح ايران فى الخليج فى القرن الثامن عشر كانت تتمثل فى محاولات عرب ايران تأكيد زعامتهم فى الخليج •

وفى منتصف القرن الثامن عشر بعد طرد القوات الايرانية من عمان انتقل مركز الثقل السياسى فى عمان من المنطقة الداخلية الى ميناء مسقط التى أصبحت محطة التجميع الرئيسية واحد المراكز الاقتصادية الهامة فى الخليج • وكان هذا الحدث دليلا على مسعى الزعماء العمانيين الى دفع البلاد لتبوء مركز الصدارة فى مضمار التجارة على غرار ما كانت عليه هرمز وقيس •

فى أواخر القرن الثامن عشر بدأت عمان ومركزها الدولى فى الخليج يستهدفان لخطر جديد ليس من جانب ايران وانما من الجزيرة العربية نفسها خلال هذه الفترة مرت الجزيرة العربية بسلسلة من التغييرات العاصفة التى لا تزال آثارها باقية حتى اليوم • ومن الأسباب التى مهدت لهذه التغييرات ظهور عدد من المجموعات الملاحية النشطة التى ماتزال موجودة حتى الآن على الساحل الغربى للخليج من الكويت حتى عمان [١٥] •

وبالرغم من أن هذه الدويلات الناشئة كانت متأثرة بتقاليدها القبلية • فقد تطورت بسرعة حتى أنها أصبحت قادرة فى أواخر القرن الثامن عشر على تحدى نفوذ العمانيين على النشاط الملاحى والتجارى فى الخليج • وكالعادة حين تحاول بعض القوى الجديدة تحقيق أطماع سياسية واقتصادية معينة •

---

(١٥) لوريمر مجلد ١ وارتشيف وزارة شؤون الهند ، ويضم من المراجع سجلات حكومة الهند مجلد ١ ويعتبران من اهم المراجع الاوربية عن نشوء امارات الخليج العربى فى القرن الثامن عشر أيضا « تاريخ شرقى الجزيرة العربية » تأليف أبو حاكمه (طبعة بيروت ١٩٦٥) وقد اعتمد المؤلف على المراجع العربية وحدها وتتركز اهمية الكتاب فى تخصصه لدراسة تاريخ الخليج استنادا الى المصادر المحلية •

نشبت حرب ملاحية بين العمانيين والقوى الأخرى المناوئة لهم . وفى الوقت الذى كانت تتطور لمصلحة عمان . ظهر عامل جديد زاد الموقف تعقيدا ونعنى به ظهور الحركة الوهابية الدينية . بتأييد السلطة المركزية فى السعودية وما أن حل عام ١٨٠٠ حتى كان القسم الأكبر من شرقى شبه الجزيرة العربية قد اعتنق الدعوةالوهابية وصار منأتباعها مما أضاف بعد ايديولوجيا ودينيا الى معترك الصراع بين عمان وعرب الخليج . ولقد شجع التأييد الوهابى القوى المناوئة لعمان وبعث الحياة فيها . وقد كادت الحرب التى نشبت نتيجة لذلك تدخل مرحلة جديدة — اذ كان من المحتمل أن تقضى على الدور القيادى لعمان . أو بالأحرى على استقلالها — عندما انعكس انفجار السياسة النابليونية فى أوربا على الاوضاع فى الخليج [١٦] .

دعم السيطرة البريطانية فى الخليج : فى سنة ١٨٠٠ تمخضت المنافسة بين الدول الأوربية للسيطرة على المحيط الهندى عن نشوب صراع مدمر بين بريطانيا وفرنسا . وما بين سنة ١٧٩٨ وسنة ١٨١٠ كانت هاتان الدولتان الأوربيتان تتنافسان على تأييد بعض دول آسيا الغربية ولما كانت عمان دولة بحرية واستراتيجية هامة من هذه الدول فقد سعى البريطانيون بالحاح الى كسب تأييدها . وقد نجحت بريطانيا فى ذلك فعقدت معاهدة تجارية وسياسية بين بريطانيا وعمان فى سنة ١٧٩٨ . الأمر الذى أسهم فى درء الخطر عن الجانب الشرقى للخط البحرى الذى كانت تعتمد عليه الحكومة

---

(١٦) للاطلاع على تاريخ السعودية القديم انظر « مذكرة الحكومة السعودية » ١٣٧٤ — ١٩٥٥ مجلد ١ و « محمد عبد الوهاب » ، تاليف جى . اس . رنتز (١٧٠٣/١٧٠٢) ١٧٩٢ ٢ و « رسالة للحصول على الدكتوراه لم تنشر وكانت بعنوان « بداية امبراطورية الموحدين » جامعة كاليفورنيا . بركلى ١٩٤٨ و « تاريخ الدولة السعودية من ١٨١٨/١٢٣٣ حتى ١٨٩١/١٣٠٨ » وهى رسالة للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة برنستون ١٩٥١ . وقد نقحت واعيد نشرها بعنوان « السعودية العربية فى القرن التاسع عشر » (طبعة نيويورك ١٩٦٥) .

البريطانية الى حد كبير [١٧] . وأثناء المحاولات التى كانت تقـوم بهـا بريطانيا لتأمين خطوط مواصلاتها تدخلت سفنها فى الاشتباكات التى كانت تنشب بسبب الحروب الملاحية التى كانت تحتدم سنوات عديدة بين عمان والامارات العربية الناشـئة لكن هذه الأحـداث لم تكن تعنى بالنسـبة للبريطانيين والاوربيين سوى أعمال سلب ونهب اعتاد عليها رجال البحـر العرب . ولم يدرك البريطانيون آنئذ الأسـباب الحقيقية الكامنـة وراء انتشار تلك الفوضى فى الخليج . وبالتالى فقد ارتكبوا خطأ فادحا بتدخلهم فى حرب ملاحية وتجارية عربية . وكانوا يعللون أسباب تلك القلاقل بأعمال القرصنة التى كان يمارسها عرب الخليج بتحريض من الوهابيين . ولهـذا عمدوا الى تأييد العمانيين ودفعهم الى مهاجمة القراصنة الذين كانوا فى نفس الوقت من خصوم العمانيين . وقد شن العمانيون ثلاث هجمات ضد القراصنة ما بين سنة ١٨٠٥ وسنة ١٨٢٠ . وبعد أن تم القضاء على نشاطهم الى حد كبير فرض البريطانيون رقابة مسلحة على الخليج كانت تقوم بهـا بعض الوحدات البرية والبحرية التابعة لهم . وأخيرا تمكنوا من عقـد معاهدة سلام بحرية « تحظر على امارات الخليج العربى اعلان الحروب على بعضها البعض بغير موافقة صريحة من السلطات البريطانية » . وقـد اعتبرت اتفاقية السلم المعقودة فى سنة ١٨٣٥ اجراء مؤقتا وحسب . وعلى كل فقد ظلت هذه المعاهدة تتجدد تلقائيا حتى سنة ١٨٥٣ عندما تم التوصل الى معاهدة سلام بحرية شاملة بين بريطانيا وأغلبية المشيخات العربية . وفى منتصف القرن التاسع عشر عقدت معاهدات واتفاقات أخرى شـبه رسمية بين هذه الأطراف ، منحت بمقتضاها امتيازات اقليمية لرعايا الدول الغربية المقيمين والمتعاملين بالتجارة فى الخليج . كما شملت هذه الاتفاقيات تحديد رسوم الواردات بالاضافة الى بعض القيود التى فرضتها هـذه

---

(١٧) لوريمر مجلد ١ ص ١٦٩ — ٢١٠ و « فرنسا ومسقط فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر » تاليف اوزو — استعراض لتاريخ الدبلوماسية — ٢٣ ا ١٩٠٩) ص ٥١٨ — ٥٤٠ .

الاتفاقيات على اشتراك الملاحين العرب فى تجارة الرقيق • وبهذه الخطوات التى كان رائدها المصلحة ، سددت بريطانيا أول ضربة الى نظام الحياة فى الخليج • فعلى الصعيد الرسمى أعلنت بريطانيا سياستها على أساس عدم التدخل فى الشؤون الداخلية لامارات الخليج ، بينما كانت سياستها من الناحية الفعلية سببا مباشرا فى قلب مفاهيم وديناميكية الحياة التقليدية للمنطقة • واذا كانت بريطانيا قد أدخلت بعض أساليب الحياة الغربية الى سكان المنطقة ، فان هذا قد تم على حساب الأنماط السياسية التقليدية ، وفى كثير من الأحوال على حساب العلاقات التى كانت تربط بين دولها • وعلى أساس هذه الاعتبارات عدلت أو سويت أو ألغيت تماما كثير من الالتزامات التى كانت تخول لدولة من دول المنطقة السيطرة على الأخرى أو التمتع بمركز الأولوية على الدول الباقية (ومن الأهمية بمكان أن نقرر بأن الخليج كان وما زال مسرحا لتغييرات سياسة مزمنة ، وانه ما زال يحتفظ بنفس الجغرافية السياسية التى كان عليها يوم بدأ الانجليز تقويضهم لأسس الحياة التقليدية للمنطقة) •

ما بين سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٦٢ بدأ النشاط البريطانى فى الخليج يغير من الاطار التقليدى للواقع السياسى ، وبدرجة أقل للوضع الاقتصادى والاجتماعى • وحتى سنة ١٨٦٢ كان نشاط بريطانيا فى معظمه سلبيا بمعنى انه كان مقصورا على مكافحة القرصنة والنخاسة أو على منع الحروب البحرية بين دول المنطقة • وانطلاقا من الفلسفة الاستعمارية أدركت بريطانيا ان دورها فى الخليج يومئذ لا ينبغى أن يتعدى دور رجل البوليس المحايد أو اللامبالى [١٨] • ولم يفطن البريطانيون الى الدور الذى كان

---

(١٨) لوريمر مجلد ١ و « الخليج العربى » وتقرير ايتشيسون — ١٩٣٣ ، سجلات حكومة بومبى — ١٩٥٨ و « الدولة السعودية » تاليف وندر و « الطرق البريطانية الى الهند » (طبعة نيويورك ١٩٢٩) ، تاليف اج هوسكنز ويضم كل من هذه المراجع معلومات قيمة عن تطور النفوذ البريطانى فى الخليج =

عليهم أن يضطلعوا به بنشر مزايا التقدم والحضارة بمفهومها الأوربى الا فى القرن التاسع عشر ومن هنا كانت العلاقات الاجتمـاعية التقليدية فى الخليج خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر لا تزال متينة وان الاطار القديم لهذه العلاقات لم يبدأ فى التفكك الا فى سنة ١٨٦٢ ٠

= خلال أوائل القرن الناسع عشر ٠ غير أن مرجعين آخرين هما « السياسة البريطانية فى الخليج » — ١٨١٣ — ١٨٤٣ ٠ وهى موضوع اطروحة لم تنشر (طبعة لندن ١٩٥٦) و « الاسس القانونية والتاريخية للوجود البريطانى فى الخليج » ، فى مجلة شؤون الشرق الاوسط » (طبعة لندن ١٩٥٨) ص ١١٩ ؛ قد يتضمنان معلومات أدق عن الســلوك البريطانى فى المنطقة خــلال الفترة المذكورة ٠

الفصل الثانى

عمان قبل القرن التاسع عشر

البلاد ــ أهلها ــ مواردها

قبل أن تتوطد السيطرة البريطانية على الخليج العربى فى مطلع القرن التاسع عشر ، كانت عمان تسيطر على الشؤون الملاحية والتجارية والسياسية للخليج على امتداد فترة القرن والنصف التى سبقت ذلك • ومن المؤكد أن أهمية عمان بين دول الخليج لم تتدهور بشكل ملحوظ قبل الستينات من القرن الثامن عشر • ولما كانت الغاية من وضع هذا الكتاب هى توضيح عملية انهيار البناء القديم لنظام الحكم فى عمان فى أواخر القرن التاسع عشر ، فان هذا يلزمنا تقديم بيان موجز عن أوضاع البلاد قبل العصر الحديث •

لقد ظهر فى عمان فى فترة مبكرة جدا من التاريخ نموذج لحضارة متميزة شهدتها منطقة الخليج فكان البحر والجبال التى تحيط بعمان والصحراء التى تخترقها تأثير أساسى على نفسية الشعب وكيفية تطوره • ومن بين الأقاليم الأربعة التى تحيط بالخليج ، تعتبر عمان من أكثرها عزلة • فالى جانب احتواء البحر لعمان من جهاتها الثلاث ، ورمال الربع الخالى من الجانب الرابع ؛ تكاد عمان أن تكون جزيرة • ولقد كان البحر همزة الوصل الوحيدة بين عمان والعالم الخارجى • وفضلا عن أهمية البحر كطريق دولى يربط عمان ومدنها الساحلية بالعالم الخارجى فهو مورد هام لمعيشة الجانب الأكبر من سكان البلاد • وعلى الرغم من امكان اجتياز الصحراء فانها لا تزال تشكل العائق الرئيسى الذى يحول بين عمان والاتصال المباشر بداخلية شبه الجزيرة العربية • كما ان سلاسل الجبال الشاهقة ، والوديان التى تتخلل عمان تشكل سدا منيعا يحميها من التدخلات الخارجية ، سواء كانت جيوشا غازية أو أفكارا غريبة •

ولعل لفظ عمان يعنى الموطن (Abode) أو الأرض . هذا بالرغم من ان هناك روايات أخرى تؤكد أن اللفظ مشتق من اسم رجل يدعى عمان ابن قحطان [١] . باعتباره أول من استوطن هذه البلاد كما يقال .

وعمان فى مساحة انجلترا تقريبا ومقسمة الى عدد من المقاطعات ، يعبر اسم كل منها عن موقعها أو خصائصها . وهكذا :

١ — مقاطعة الغربية تعبر عن موقع هذه المقاطعة الذى يقع فى الجهة الغربية من البلاد وهى المنطقة التى تعرف فى الغرب « بعمان المتصالح » أو (ساحل الصلح) .

٢ — مقاطعة الباطنة ومعناها الداخلية أو الواطية .

٣ — المقاطعة الثالثة هى مقاطعة الظاهرة ومعناها الخارجية أو البارزة ثم عمان ومعناها كما قلنا الموطن (وتسمى غالبا بعمان الداخلية ، أو الوسطى وهى التى تستمد منها المنطقة الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة العربية اسمها) ، والشرقية أى المقاطعة الواقعة فى الجهة الشرقية من البـلاد ، ومقاطعة جعلان التى اشتق اسمها من اسم سكانها القدامى ، أى الخنافس المائية والحجر أى المنطقة الصخرية من البلاد والتى هى عبارة عن كتـل من الجبال تتألف من قسمين :

(الحجر الغربى) و (الحجر الشرقى) ، وتفصل بين سلاسل الجبال هذه منطقة وادى سمايل الذى يعتبر الطريق الرئيسى بين المنطقة الساحلية من عمان وداخلية البلاد . وهناك منطقة الجبل الأخضر الذى يعتبر مقاطعة مستقلة ولكنه جغرافيا يمثل ذلك الجزء من عمان الذى يضم أعلى قمم

---

(١) السالمى فى الفصل الأول ص ٤ .

سلسلة جبال الحجر الغربى أى جبل وشام الذى يصل ارتفاعه الى عشرة آلاف قدم ويمكن مشاهدته من على بعد مئات الأميال من جهة البحر . وهناك مقاطعات أو مناطق أخرى تعتبر جزءا من عمان كمنطقة رؤوس الجبال التى هى امتداد لسلسلة الحجر الغربى ، الذى يشكل شبه جزيرة تفصل بين خليج عمان والخليج العربى . وتمتد الى رأس مسندم . وبالاضافة الى ذلك توجد منطقتان تابعتان لعمان هما مصيره وهى جزيرة يبلغ طولها أربعين ميلا وتقع فى منطقة لا تبعد كثيرا من مقاطعة جعلان ، ومقاطعة ظفار على الساحل الجنوبى للجزيرة بالقرب من حضرموت .

وعلى حين يعتبر البحر وسيلة هامة من وسائل المواصلات بين المدن الساحلية فى عمان فان طريق المواصلات فى داخلية عمان وعرة وشاقة . ومنذ الأزمنة القديمة كانت هناك ثلاث طرق للمواصلات فى عمان تربط ساحلها بالمقاطعات الداخلية . ومن المؤكد أن أسهل هذه الطرق وأهمها الطريق الوسط الذى يمتد من ارباض مدينة مسقط حتى وادى سمايل حيث يتفرع من هناك الى طريقين . الطريق الذى يؤدى الى الجزء الداخلى . وطريق الشرقية . أما الطريق الشمالى . ويأتى فى المرتبة الثانية من الأهمية فيبدأ من ميناء صحار ومنه الى مقاطعة الظاهرة . وواحة البريمى امتدادا الى الشميلية (عمان المتصالحة) مارا بسلسلة جبال الحجر الغربى . وثمة طريق جنوبى يمتد من ميناء صور حتى مقاطعة جعلان . كما أن هناك طرقا أخرى تلتف على مدار منحدرات سلاسل جبال الحجر ، حيث تلتقى فى نهاية الطرق الثلاث الممتدة من الساحل . ومنذ وقت غير بعيد (أى فى سنة ١٩٥٥) شق طريق برى بين داخلية عمان وظفار بالاضافة الى طريق أخرى تمتد الى منطقة حقول النفط على حافة الربع الخالى . أما فى المناطق الجبلية فالطرق قليلة وضيقة وهى تتألف فى العادة من الصخور الجافة للأودية الكثيرة التى تنساب بين سفوح الجبال . ولا تزال الحمير والجمال حتى الآن وسيلة المواصلات فى أنحاء كثيرة من البلاد .

وربما كانت عمان أفضل من بقية المناطق الساحلية فى الخليج من حيث وفرة المياه وغيرها من موارد الطبيعة ، غير أن مناخها ، اذا شئنا أن نكون موضوعيين فى حكمنا ، قاس جدا • اذ أن الجو فى مدينة مسقط فى شــهور الصيف أشبه بحمام تركى ، عندما ترتفع درجة الحرارة هنــاك الى ١٠٠ درجة فهارنهايت تصاحبها موجات من الرطوبة الساخنة • وعلى غرار المناطق القليلة الأمطار ، تعانى عادة من فترات جفاف طويلة بين حين وآخر • ويبلغ معدل هطول الأمطار فى فصــل الشتاء فى بعض المنــاطق الجبلية أكثر من ١٠ بوصات ، مما يجعل زراعة بعض المرتفعات أمرا ميسورا • وأهم من ذلك ، على أى حال ، ان مياه الأمطار تتسرب الى باطن التربة فتكون مصدرا من مصادر الرى الكثيرة فى شكل آبار وينابيع وأفلاج (قنوات جوفية) • وعلى كل فان الزراعة الطبيعية ومناطق الرعى تكاد أن تكون نادرة فى عمان باستثناء المناطق التى تتوافر فيها المياه • وزراعة النخيل هى أهم الزراعات الموجودة كما هو الحال فى بقية أنحاء الخليج • كما أن البلح والسمك هما المادة الغذائية الرئيسية لسكان البلاد • وتتركز زراعة النخيل فى مقاطعة الباطنة الساحلية ووادى سمايل والشرقية فضلا عن وجود مزارع أصغر حجما فى كثير من الواحات • ومن الفواكه التى تنتجها عمان بكثرة فواكه المناطق شبه الاســتوائية ، كالتين ، والليمــون ، والمانجــو ، والرمان ، والزيتون ، والجوز وهى المحصولات الزراعية التى كانت تصدر الى الأقطار الخارجية بالاضافة الى البلح • أما العنب الذى تستقطر الخمر من بعضه — بما يعارض تعاليم القرآن — فينمو فى منطقة الجبل الأخضر ، ويبدو ان البرتغاليين قد استفادوا من محصول العنب العمانى فى صنع نوع من الخمر كانوا يسمونه مسكتل ، وهو تحريف للفظة العمانية الأصلية • كذلك تزرع الحبوب • وأهمها الحنطة أو الشعير ، أما الذرة فتزرع على نطاق ضيق غير أن الغذاء الرئيسى لسكان عمان هو الأرز الذى يستورد من الهند • وتربى الجمال التى تعتبر أجود أنواع الجمال فى العالم فى مقاطعتى الشرقيــــة والباطنة وعند القبائل التى ترتاد صحراء الربع الخــالى • أما الحمــير والأغنام فتوجد بكثرة فى المناطق الجبلية • بينما تستخدم الثيران فى أعمال

الرى فى مقاطعة الباطنة • أما الماعز فتوجد فى كل مكان من عمان • وحتى الستينات من القرن التاسع عشر كانت عمان تصدر أحسن أنواع الجياد ، رغم أن أكثرها من أصل ايرانى • وفيما يتعلق بالموارد الطبيعيه فهى اما أن تكون غير مستغله أو نادرة ، هذا على الرغم من أن عمان قد اشتهرت فى الماضى بوجود مناجم للنحاس والفضة فيها • ومنذ الخمسينات من القرن التاسع عشر اصبحت عمان مسرحا لعمليات التنقيب والبحث عن النفط • ويستدل من الحقول التجريبيه التى تم حفرها فى بعض مناطق الربع الخالى على الحدود السعودية عن وجود ثلاثة حقول كبيرة للنفط بالقـرب من الفهود ، وفى مقاطعة ظفار التابعه لعمان [١] ويعيش على هذه الموارد سكان البلاد ويبلغ تعدادهم تعـداد سـكان جزيرة قبرص ، أو ما يزيد على ٥٠٠,٠٠٠ نسمة وهو نفس عدد السكان ، كما جاء فى تقدير أحد المراقبين ، قبل قرن مضى • ويشكل العرب الأغلبية الساحقة من المواطنين ، الى جانب مجموعات أخرى من الأجنـاس هى البلوش ، والفـرس والزنوج الذين يعيش معظمهم فى المناطق الساحلية • وما يزال العمانيون حتى اليـوم يتناقلون قصه وفود العمانيين الأوائل الى البلاد • ويبدو ان أوائل العمانيين قد نزحوا الى عمان على موجتين كجزء من الهجرة الشامله التى قام بهـا العرب الى ساحل الخليج العربى فى فترة ما قبـل التاريخ • وعلى حين لا تتوفر المعلومات الأكيدة عن هجرة العمانيين الأوائل الى البلاد ، قـد

---

(٢) المعلومات الجغرافية عن عمان ومواردها الطبيعية توجد فى اكثر من مرجع ففى المجلد الثانى من التقويم الجغرافى الذى الفه لوريمر معالجة مستفيضة لهذا الموضوع كما تناوله ايضا اج . هزارد فى كتابه « شرقى الجزيرة العربية » (طبعة نيوهافن ١٩٥٦) وفى كتاب « عمان والساحل الجنوبى للخليج » اعداد شركة الزيت العربية الامريكية (طبعة القاهرة ١٩٥٢) وفى « رمال العرب » تأليف الرحالة تيسيجر (طبعة نيويورك ١٩٥٣) وفى « قصة رحلة الى داخلية عمان » ، تأليف جى آر وولستد مقال فى المجلة الجغرافية الملكية ، و « سلطنة مسقط وعمان » ، مع وصف لرحلة المؤلف الى داخلية البلاد فى سنة ١٩٢٥ بقلم آل اكليس فى مجلة « جمعية آسيا الوسطى الملكية مجلد ١٤ (١٩٢٧) ص ١٩ — ٤٢ بالاضافة الى فهرس الجزيرة العربية ويعد من انفس المراجع الذى نشرته الجمعية الجغرافية الامريكية بقلم اج . هزارد (طبعة نيوهافن ١٩٥٦) .

استغرق توزيعهم عبر المنطقة فترة طويلة من الوقت . وهؤلاء ينتمون الى قبائل اليمن الجنوبية التى كانت من أوائل المستوطنين فى اليمن . وكان يطلق على أوائل المهاجرين الى عمان أسماء مختلفة كاليمانيين . والازد والقحطانيين ، والهناوية . والمعروف أن الموجة الثانية من المهاجرين جاءوا الى عمان من شمال وأواسط الجزيرة ، قبل ظهور الاسلام ببضعة قرون . وكان يطلق على الدفعة الثانية من المهاجرين أسماء عديدة منها : النزارية والقحطانيون ، وتنتمى الفئات الاخيرة من هؤلاء الى الغافرية . ولقد ظل العداء بين المجموعتين مستمرا على امتداد ألفى عام من التاريخ . أو منذ وصول الدفعة الثانية من المهاجرين الذين ما زالوا يمثلون عاملا فعالا فى السياسة الداخلية للبلاد . وفى الوقت الذى يسيطر الغافرية على الشمال العربى من عمان يسيطر الهناوية على الجنوب الشرقى منها . غير أنه قد حدث تداخل ملحوظ بين المجموعتين . وبالتالى فقد لا ينطبق الحكم الذى أسلفنا اليه فى كل الظروف . ان الدفعة الأولى من المهاجرين قـد ارتبط أفرادها بمذهب الذات والتمسك الشديد بالصيغة الاباضـية للاسـلام باعتبارها أقرب المذاهب الايديولوجية « القومية » السائدة فى البلاد . أما الغافرية فقد كانوا أكثر تسامحا ازاء المؤثرات الخارجية . وثمة شـبه بين المذهب الذى يدين به قسم كبير من الغـافرية والمـذهب السنى فى الاسلام . كما يلتقى البعض منهم بالمذهب الوهابى المنتشر فى المملكـة السعودية . وقد بدأ استخدام لفظى « هناوى » و « غافرى » كتمييز بين القبيلتين الرئيسيتين فى عمان منذ القرن الثامن عشر . فبعد نشوب صراع داخلى عنيف . انحاز بعض القبائل المائتين التى تسكن عمان الى الزعيمين القبليين . محمد بن ناصر من بنى غافر . وقد انحازت اليه قبائل الشمال وقبائل نزار . بينما انضوت قبائل المنطقة الجنوبية تحت لواء خلف بن مبارك الهنائى زعيم الهناوية . ومنذ القرن الثامن عشر حتى الآن ظلت كل قبيلة تفخر بزعيمها . كما ظلت الهناوية والغافرية ـ السـمتين الشعبيتين للقبيلتين .

ولقد لعبت القبيلة وسياستها دورا مؤثرا فى تاريخ عمان . لأن معظم

سكان المنطقة يخضع للزعامة القبلية أو له إرتباطات قبلية • وهناك عامل آخر لتعريف القبائل العمانية ضمن انتمائها الى الأصلين الهناوى والغافرى• ونعنى به القبائل الحضرية والقبائل البدوية • فمعظم القبائل البــدوية يقيم على امتداد حدود الصحراء الداخلية موزعين على مقاطعات الظاهرة وعمان الداخلية • وجعلان • أما فى المرتفعات والسواحل فالتركيب القبلى يكاد يكون مانعا فى الغالب • ويرئس المجموعة القبلية اما شيخ أو زعيم (تميمة) وفى حالة الطوارىء يمتد نفوذ الزعيم القوى الذى يتصدر قيادة أو الشيخ يصل الى مركز الزعامة من الناحية الرسمية عن طريق الانتخاب • المجموعة الى كافة المجموعات الفرعية للقبلية • وعلى الرغم من أن الزعيم أو الشيخ يصل الى مركز الزعامة من الناحية الرسمية عن طريق الانتخاب الا أنه ينتقل الى المجموعة الطليعية من العناصر الرئيسية للفرع القبلى بعد انتخابه • وقد كان لكل من القبيلتين الرئيسيتين الهناوية والغافرية امام خاص بها • غير ان هذا التقليد لم يعد يسرى منذ ان بدأ القرن التاســع عشر • ومن المألوف ان تعتبر كل قبيلة (على اختلاف الفرع الذى تنتمى اليه • نفسها مستقلة عن القبيلة الأخرى • وان تخضع لسلطان زعيمها أو شيخها وحده • دون سواه من الشيوخ أو الزعماء • وتفتت سلطة القبيلة بهذا الشكل يحد من سلطة القبيلة • وبالتالى فان القبائل الخاضعة لامام واحد يمكنها أن تمارس نفوذا أقوى من تلك التى تفتقر الى الوحــــدة السياسية ، رغم كثرة عددها • وبسبب هــذا التفتت داخــل التشكيلات القبلية ، قل عدد القبائل التى تمارس سلطة مباشرة فى عمان • وتلجــأ القبائل بتلافى هذا الوضع أحيانا الى الدخــول فى ســلسلة من الولاءات والائتلافات القبلية [٣] •

---

(٣) المعلومات التى يمكن الاعتماد عليها عن القبائل العمانية وعن الاوضاع الاجتماعية للبلاد قليلة اهمها تحفة الاعيان ، تاليف الســالمى جــزء ١ ص ٣ و ١٥ — ٢٦ وجزء ٢ ص ١٢١ — ١٢٩ و « التقويم الجغــرافى للخليج » ، تاليف لوريمر مجلد ٢ ص ١٣٨٩ — ١٣٩٠ و ١٤١٤ — ١٧ و « معلومات عن بدو عمان » ، تاليف اس بى . مايلز و « التقرير الادارى — ١٨٨٠ — ١٨٨١ ص ١٩ — ٣٤ و « بلدان الخليج وقبائلها » (طبعة لندن ١٩١٩) و « عمان » اعداد شركة الزيت العربية الامريكية و « جزيرة العرب » ، جى . ونتز مجلد =

وقد ظل العمانيون حتى الآن يعيشون فى بيئة قبلية ريفية ، هذا على الرغم من الدور البارز الذى لعبته المدن العمانية فى تاريخ المنطقة ذاتها ، وفى صنع الأحداث التى شهدها الخليج ومنطقة المحيط الهندى ، فقد كانت هذه المدن تقوم بثلاث وظائف : وظيفتها كموانىء تجارية ، ووظيفتها كمراكز قبلية ، ثم كأسواق تجارية أو خطوط دفاع لتلك المدن ، وقد تطور بعض تلك الموانىء البحرية الى مدن هامة على غرار ما كان يحدث يومئذ فى مناطق أخرى من الخليج ، وتعتبر مسقط من أهم الامثلة على ذلك ، فلقد احتلت مكانا بارزا بين مدن عمان بسبب مرفئها الجميل وموقعها الجغرافى ، أما المدن الداخلية فيقع عادة بين عدد من الواحات ، وقد أنشئت فى كل مدينة من هذه المدن قلعة أو حامية تشرف على المناطق الريفية وتتحكم فى مداخل المدينة ، وتتولى هذه الحاميات حراسة النقاط الاستراتيجية ، وخطـوط المواصلات ، كما تعمل كمراكز للتجمعات القبلية ، يتضح مما سبق ان عمان بلد متعدد السمات وعلى الأخص فيما يتعلق بالخصائص التى تميز سكان المناطق الساحلية عن المناطق الداخلية ، وأيا كان فمن الخطأ أن نبالغ فى هذا التعدد لدرجة تؤدى الى اشاعة الغموض على الظروف والمصالح التى تشد المجتمع العمانى بعضه الى بعض ، وحتى المراقبون اللذين يقـرون بالطابع الفريد للمجتمع العمانى وبأثر العوامل التى تفرق بين سكان الداخل والساحل ، لا يقللون من أهمية الروابط الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى تجمع بين الشطرين ، وأهم من هذا كله ان الأغلبية من العمانيين تدين بدين واحد وتنتمى الى أيديولوجية واحدة ، على الرغم من الغموض الذى يسود هذا الجانب فى مجال التطبيق ، ومن المؤكد ان أغلبية الرحالة الذين سجلوا انطباعاتهم وآراءهم عن المجتمع العمانى لم يغفلوا ذلك التجانس والتشابه بين سكانه ، الا أن الاختلافات بين المناطق الاقليمية فى عمان لها

= ٢ ص ٥٣٣ — ٥٥٦ و « البدوى » ، تأليف سى . كون مجلدى ٢ و ١ ص ٨٧٣ — ٨٩٢ و « الازد » تأليف جى سترنزك مجلدى ٢ و ١ ص ٨١١ — ٨١٣ وابن رزيق ص ٥ — ١٠ .

اهميتها أيضا • فاذا ما قارنا بين المنطقتين الساحلية والداخلية من البلاد ، نرى الزراعه فى المنطقه الساحليه وهى تتمثل بمزارع النخيل الواسعه التى تمتد الى مسافة ميل عبر الساحل تنتج من محاصيل البلح والفاكهة ما يزيد عن حاجه البلاد ويكفى لتصديره الى الخارج • اما الزراعه فى الجزء الداخلى فقد كانت محدودة ، اذا استثنينا بعض المنــاطق ، ولا يزيد ما تنتجه من المحاصيل عن حاجة الاستهلاك المحلى الا فى احوال نادرة • اما من الناحيه الصناعية فان الامكانات محدودة بالنسبة لكلتا المنطقتين • فقد كان الانتاج الصناعى فى معظم الأحوال انتاجا يدويا ، فى المنطقة الداخلية بينما هو اكثر تطورا وانتشارا فى الأجزاء الساحلية من البلاد • وربما كان للبحر تأثير كبير على مزاج أهل المنطقة الساحلية فصيد الأسماك كان ولا يزال المهنــة الرابحة حتى فى الأوقات التى يندهور فيها النشاط الملاحى • وعلى الرغم من أن عمان قد فقدت كثيرا من تجارتها البحرية ، ومن أهميتها التجاريه فهى ما تزال تصدر كميات كبيرة الى الخارج مما تنتجه سواحلها • فقبــل الستينات من القرن التاسع عشر كان سكان المنطقة الساحلية يعتمدون على التجارة والنشاط الملاحى فى معيشتهم وقد لعب كل من هذين المرفقين دورا نسبيا فى تنمية الثروة القومية • أما بالنسبة للمنطقة الداخلية فقد كانت مثل هذه الحوافز مفقودة • أضف الى ذلك التقاليد الاجتماعية فى الجزء الساحلى من البلاد قد تميزت بالانفتاح على المؤثرات الخارجية ، مما يتمثل بوجود عدد من العلاقات والتقاليد الهندية • لذلك فقد كان سكان الساحل أكثر تسامحا تجاه الأجانب من سكان الداخلية المنعزلين • وذلك على الرغم من وجود قاعدة مشتركة من العقيدة توحد بين كل من سكان داخلية البلاد وساحلها • وأغلبية العمانيين أباضيون وهو المذهب الذى ظل منذ القرن السابع عشر شعار عقيدة العمانى ومحور تفكيره وفلسفته — باعتبــاره مضمون الايديولوجية العمانية • كما لا يزال نفس المعلمين الدينيين يحظون بالتقدير والاحترام فى كل من شطرى البلاد • وينسحب التنوع فى خصائص المجتمع العمانى على النواحى الدينية أيضا ، ولكنه تنوع لا يمس صــلب الوحدة القائمة بينهما ، على الرغم من أن سكان المنطقة الساحلية أكثــر

اعتدالا فى ممارستهم للعقيدة الدينية من سكان الداخلية حيث العزلة والانغلاق والتزمت . وعلى العموم فقد كانت عمان الساحلية على مدى القرون أكثر استجابة للأحداث العالمية ، وأكثر استعدادا للقيام بدور فعال فى تلك الأحداث ، على عكس عمان الداخلية التى آثرت العزلة والانغلاق ، والاعتماد على مواردها الداخلية الضئيلة .

وبالتالى فان دقائق التاريخ العمانى وعلى الأخص الجانب الداخلى منه ، كان تعبيرا عن التوتر المستمر بين عناصر الوحدة وعناصر التنوع ، الأمر الذت كان له أثره فى توحيد أو تفريق نصفى البلاد الساحلى والداخلى ، وذلك ما سوف نعود اليه فى فصول لاحقة من الكتاب .

الخلافة ــ التيار المحافظ ــ الامامة فى القرون الوسطى

فى القرن التاسع عشر انعكس التوتر بين المنطقة الساحلية والداخل ، أو بين الوحدة والتعدد ، بين المعتدلين والمحافظين . انعكس بوضوح فى تيارين سياسيين ظلا يشغلان التاريخ العمانى منذ دخول عمان فى الاسلام فى القرن السابع : التيار الذى تمثل فى المحاولات الدائبة لاقامة مجتمع اسلامى مثالى ، محوره نظام الامامة التى كانت عمان تحكم بموجبه خلال القسم الأكبر من العصور الوسطى . والتيار المتمثل بالدور الذى كانت تقوم به عمان كعامل هام فى النشاط الملاحى والتجارى فى منطقة المحيط الهندى . وطبيعى الى أبعد الحدود أن يترتب على هذا الدور ظهور موقف معتدل ومتسامح تجاه شعوب العالم الأخرى . فهذان التياران كانا يلتقيان أحيانا ، ولكنهما كانا يصطدمان فى أكثر الأحيان . ان معرفة السمات التقليدية للاهوت الاسلامى بالنسبة للغربيين المعاصرين ليس شرطا أساسيا لفهم التطورات الحديثة فى أقطار الشرق الأوسط ، ومع ذلك فان النظام الأساسى التقليدى يقوم على أيديولوجية وتركيب قيمى وتطلعات ظلت لقرون عديدة حافزا للفكر والعمل ضمن اطار معين . وبالتالى ، فلكى نفهم حركة التطور

الحديث فى الشرق الأوسط — كحركة تنطوى قبل كل شيء على تغييرات أو اتجاهات حديثة على صعيد الأيديولوجية والتطلعات والقيم — لابد أولا من فهم النظام الدينى الاسلامى التقليدى [٤] .

منذ القرن السابع اقترن اسم عمان بالمذهب الأباضى فى الاسلام — وهو مذهب لم يكن يرضى بأقل من اقامة مجتمع مثالى — خلافة الله على الأرض — والتى تهيىء للأفراد البيئة التى تحقق لهم الخلاص الأبدى . بهذا جاء الاسلام على يد محمد بن عبد الله ، الذى أعلن أن رسالته الى الملأ هى تطبيق شريعة الله واقامة مجتمع يقوم على الشرائع الالهية المنزلة ويتمسك بها على مر العصور . ويعتقد المسلمون ان أول جماعة أنيط بهـا تحقيق مثل هذا المجتمع هى عندما خرج محمد فى سنة ٦٢٢ بعد الميــلاد (بداية التاريخ الاسلامى) على رأس قلة من أنصاره من مكة الى المدينة لوضع اللبنات الأولى فى صرح مجتمع اسلامى مستقل سياسيا . وبهـذا أصبح المسلم هو ذلك الذى ينضوى تحت لواء الجمــاعة متمثلا لقوانينها السياسية والاجتماعية المطلقة فى سلوكه .

وفى أيام الرسول لم تنشب خلافات على طريقة تنظيم الحكم وادارة دفته . ولكن ما أن توفى الرسول حتى حدثت فتنة بين ضــعاف الايمان ، بحيث باتت تهدد المجتمع الاسلامى بانقسامات حادة فى صفوفه . عــلى ان هذه الخلافات لم تكن تمس جوهر العقيدة ، أو صورة المجتمع الاسلامى كما بشر به الرسول : وانما تناولت التطبيقات التكتيكية وما كان يتطلبــه تنظيم مثل ذلك المجتمع . وقد انصب الخلاف على طريقة الحكم وبمعنى أخص على المؤهلات التى ينبغى أن تتوفر فى الرجــال الذين ســيخلفون الرسول فى زعامة الأمة الاسلامية ، ذلك ان نوعية الزعامة السياسية تعتبر

---

(٤) تعتمد المناقشة التالية للاسلام ، والخوارج ، والأباضية بشكل خاص على ما ورد فى كتاب « الاسلام فى العصر الحديث » (طبعة برنستون ١٩٥٧) تأليف دبليو . سى . سميث .

فى نظر المسلمين موضوعا حيويا ، اذ ان مثل هذه الزعامة لا تتوفر الا فيمن يرى المسلمون فى قدرته على رفع راية الاسلام والحفاظ على الصـــورة المحمدية للحكم ، مع توفير البيئة الاسلامية الحقيقية التى تهيىء للافراد الحياة التى تضمن لهم الخلود فى الحياة الاخرى • والخليفة وفق هــذا المفهوم هو الشخص القادر على فض اى خلاف قد ينشــا حول تفســير الشريعة الالهية ، ولا يحق للخليفة ان يستمر فى السلطة اذا لم يضع تلك التشريعات موضع التنفيذ • وهكذا يعتبر اى خلاف حول التكتيك السياسى والتنظيمى فى ظل التشريع الاسلامى التقليدى الذى يعتمد على الجمع بين الدين والسياسة • خلافا دينيا وسياسيا فى ان واحد •

وكنتيجة للخلافات التكتيكية والتنظيمية • خلال الثلاثين عاما التى أعقبت وفاة الرسول انقسم المسلمون الى ثلاث فرق ، ثم ما لبث هـــذا الانقسام أن تطور الى انقسام مذهبى ينافس كل طرف منــه الاطراف الأخرى • وأهم التقسيمات الثلاثة وأقواها هم أهل السنة « المتطرفون » الدين أصروا على اختيار خليفة الرسول من بين افراد الأسرة القرشية التى ينتسب اليها الرسول ، بشرط أن ترضى عنه الغالبية المطلقة من المسلمين • ويناقض هذا الرأى تماما الاجراءات المتبعة بين أهل البادية فى طريقــة اختيارهم للزعيم ، حيث يتم اختياره من بين صفوة المرشحين لهذا المنصب من بين أعلى مراتب الفروع القبلية • غير أن انتخاب الزعيم او الخليفة بهذه الطريقة ينطوى على تباين بين المركز الذى يحتله الفرع الأكبر من القبيلة والفرع القبلى الأقل مرتبة • أما الفرقة الأخرى من المسلمين فهم الشيعة (نسبة لتشيعهم لطرف معين) • وينادى هؤلاء بجعــل الخلافة وراثية ومقصورة على آل البيت ، ويرى أصحاب هذا المذهب أن الخلافة بعد وفاة الرسول كان ينبغى أن يعهد بها الى على بن أبى طالب ، ابن عم الرسول وصهره عن طريق زواجه من كريمته فاطمة ، وفى اعتقاد هؤلاء أن الخلافة منصب الهى ولا يجوز تشويهه بعمليات الانتخاب • وعلى عكس هذا المفهوم للخلافة ما ينادى به الفريق الثالث من المسلمين وهم الخوارج

الذين يرون بأن خليفة المسلمين ينبغى أن يكون من أتقاهم بغض النظر عن قبيلته أو طائفته ٠ وان يتم اختياره بالانتخاب ٠ ومن هذا الفريق يتكون أهل عمان ٠

ويعود الفضل فى ظهور الخوارج فى البداية الى قيام تحالف بين بعض المجموعات القبلية التى استهوتها الديمقراطية البدائية ٠ وبعض النخبة من المثقفين وجماعة القراء الذين كانوا يريدون الاحتفاظ بالاسلام كما هـو وحمايته من السفسطائيات والأفكار الغريبة ٠ فالكتاب بالنسبة للخـوارج هو الملهم الروحى ، والدستور السياسى ، ومنبع الفلسفة الاجتماعية من الوجهتين التطبيقية والنظرية ٠ ودستوره مستمد من حياة الرسول ، ومن بعض الأحاديث النبوية التى قام بجمعها لفيف من خيرة العلماء ٠ وبما أن الخوارج يرفضون فكرة الاجماع ، والقياس (الاجتهاد) كسبيل لتعديل الشريعة ، فقد كانوا أقل الفرق الاسلامية تقبلا لفكرة التغيير ٠ ويشمل موقفهم هذا الدولة نفسها اذ يصرون على التقيد الصارم بالتركيب الأساسى للدولة وبالقوانين الأساسية ، ويعارضون ادخال أى تعديل عليها ٠ تنطلق هذه الجماعة فى فكرتها هذه من الايمان بأن وظيفة الدولة ان هى الا تنظيم المجتمع بما يحمى روح أفراده ٠ وان فى القرآن ما يضمن تحقيق المجتمع الانسانى المنشود ، وبالتالى لا داعى فى مفهومهم لأى تعديل على التشريعات الاسلامية بحيث تخرجها عن هذه الأسس ٠ ولما كان المعنى الحقيقى للعقيدة الأباضية هو رفضها للتجديد أو التغيـير ، فقـد كان من الطبيعى أن لا يستطيعوا الاستقرار الا فى المنـاطق المعزولة من العـالم فى أغلب الأحوال (٥) ٠

لقد ظل الخوارج حتى عهد الخليفة الاسلامى الأول ضمن الجمـاعة الاسلامية ولم ينشقوا عنها الا فى عهد خلافة على بن أبى طالب (سـنة

(٥) النظرية والمؤسسات السياسية للخـوارج ، تأليف اى . سـالم (طبعة بلتيمور ١٩٥٦) ص ١٤ — ١٨ و ٦٧ — ٦٨ ٠

٦٥٦ — ٦٦١) بعد الميلاد عندما اتهموه بالانحراف بعد قبوله لمبدأ التحكيم فى معركة صفين • منذ ذلك الحين انسحب الخوارج وانتخبوا لهم أماما من بينهم بعد أن تعهد لهم بالحفاظ على جوهر الدين ونظامه بين الجماعة الاسلامية • والخوارج يعارضون هذه التسمية ويعتقدون بأنها تنطبق أكثر على الفرق الاسلامية الأخرى لأنها خالفت الشريعة الاسلامية [٦] • ويرى الأباضيون أن من حقهم مهاجمة أهل الضلالة والبدع من زعماء المسلمين أو من يسمون بخلفائهم واحلال زعماء أتقياء متمسكين بالمثل الاسلامية محل الزعماء غير الأكفاء • الخوارج ينظرون الى العالم نظرة كلها تزمت ، انهم فئة هجرت الحياة الدنيا واتجهت الى الحياة الأخرى • ويحرم الخوارج كل أنواع الوسائل الترفيهية كالرقص ، والموسيقى ، والغناء والتدخين وكل ضروب الترف ، كما ان حياتهم تغشاها الألوان القاتمة ، وطبيعى أن تنشب فى مجمع متزمت كهذا ، تتحكم فيه النظرة الجامدة الى الخير والشر ، خلافات داخلية • وقد تمخضت هذه الخلافات ، بالاضافة الى رفض الخوارج تأييد السلطة المركزية للخلافة عن تردى هذه الجماعة الاسلامية فى هوة الشقاق الطائفى ، فأخذت كل طائفة تسفه الطوائف الأخرى وتصر على أن الحق فى جانبها • وقد ظهرت هذه الطوائف فى العراق وتعددت أجنحتها ، من غلاة المحافظين الذين ينادون باعدام كل معارض الى المعتدلين • ومن بين الفريق الثانى العالم الدينى العراقى عبد الله أباض (سنة ٦٦١ — ٧٠٥) • ويبدو ان الجماعة الأباضية قد أتسمت باسم العالم المذكور بينما يزعم البعض أن التسمية مشتقة من الكلمة العربية « الابيض » [٧] •

(٦) التحفة جزء ١ ص ٦٥ و ٦٨ و « الخوارج » ، تأليف سالم ص ٦١ •

(٧) الهداية الأولى الاسلامية للملوك والأمراء فى الداء والدواء ، تأليف مصطفى بن اسماعيل (طبعة القاهرة ١٩٠٣) ص ٧٩ — ٨٨ . أما السالمى فلم يتعرض الى التسمية الى انها مشتقة من ابن اباض . ويشير الى جماعته بكلمة المسلمين • غير أن أبن رزيق (ص ٣٨٥ — ٣٨٦) يؤيد هذا الرأى وان كان لا يعلق أى اهمية على اشتقاق الكلمة من الابيض . وعلى أى حال فان الاباضيين المحافظين يستعملون علما ابيض اللون ، ويلبسون عمائم وقمصانا بيضاء ، ويعتقدون أن العمائم البيضاء هى بشرى خير •

الامامة فى العصــور الوسطى :

يعود السبب فى عمق جذور المذهب الأباضى فى عمان الى عــدد من المصادفات • فقد كان عبــد الله بن أباض مؤسس المذهب فى العراق أيام ولاية الحجاج بن يوسف للعراق من قبل خلفاء بنى أمية • وكانت جهــود الحجاج منصبة بشكل خاص على قمع العناصر المتمردة من الخوارج فى العراق كما فى توطيد سلطان بنى أمية فى منطقة الخليج كلها • وفرارا من اضطهاد الحجاج خرجت مجموعات من علمــاء الدين الأباضى من العراق وتفرقت فى أنحاء عديدة ومتباعدة من العالم العربى كشمال أفريقيا وعمان • وقد لقى اللاجئون ترحيبا حارا فى عمان بسبب الروابط القبلية من جهــة ولأن العمانيين كانوا من ضحايا الحجاج أيضا الذى كان يستخدم قوته فى دعم نفوذ الأمويين فى الخليج • وقبل أن يشن الحجاج هجومه كانت عمان جزءا مستقلا من الامبراطورية الاسلامية تحت حكم الجلندى الذى بدأ منذ اعتناق العمانيين للاســلام فى مستهل القرن السابع عشر • وقــد أفلح الحجاج مؤقتا فى اخضاع عمان وارغام حكامها على الانسحاب مؤقتا الى شرق افريقيا • ومما ساعده على ذلك الحرب الأهليــة التى نشبت بين الهناوية والغافرية • وقد توثقت من خلالها الصلة بين الجلنديين والقبائل اليمنية التى كانت من أنصار الاستقلال الذاتى • ولما كان الاثنان من خصوم بنى أمية ، فلقد كان التقاؤهما من أهم العوامل التى أسهمت فى دعم مذهب الصفوة الذى كان ينادى به الأباضيون [٨] •

أما سيطرة بنى أمية على عمان فانها لم تدم طويلا ، ففى منتصــف القرن التاسع عشر قاد بنو العباس ثورة ناجحة انتهت باســتيلائهم على الخلافة سنة ٧٥٠ • ومن ناحية أخرى فان الفوضى التى عمت العــالم

---

(٨) السالمى جزء ١ ص ٦١ — ٧١ وابن رزيق ص ٢ — ٥ . ويقول السالمى أن العمانيين ، يعترفون بان ابا بكر وعمر كانا خليفتين ، الا انهما كانا يوالبان عبد الله بن وهب ، بوصفه اول زعيم للخوارج يظهر على المسرح بعد معركة صفين •

الاسلامى ، وتوافقها مع انتقال الخلافة الى العباسيين ، مكنت العمانيين من استعادة استقلالهم كما أن ازدياد نفوذ المنادين بحكم الصفوة وبالمفهوم الأباضى للاسلام قد تمخض فى عام ٧٤٩ عن انتخاب الجلندة بن مسعود ؛ وهو من أفراد الأسرة المخلوعة . وعلى أساس هذه الاعتبارات أصبح بيد الأئمة مبرر لحماية الاسلام من جميع الهراطقة والدخلاء (٩) .

وما ان فرغ العباسيون من تدعيم جهاز الحكم المركزى للامبراطورية الاسلامية ، حتى أخذوا يعملون على تثبيت دعائم ملكهم فى جميع الاقاليم التى سبق أن خضعت لبنى أمية . وعلى الرغم من ان عمان كانت ضمن الأقاليم المذكورة الا أنها استطاعت أن تقاوم كل محاولات العباسيين لفرض سيطرتهم عليها من جديد . وقد نشبت معارك متفرقة بسبب ذلك بين الطرفين ، ولكن عمان استعصيت على العباسيين وكل ما حققوه أنهم تمكنوا من فرض سيطرة جزئية علي المناطق الساحلية بينما ظلت الامامة فى الداخل منيعة الجانب . وهكذا غدت الامامة محور المقاومة العمانية ضد بنى العباس ويتمثل هذا فى مصرع الامام الجلندى فى احدى المعارك التى وقعت بعد سنتين من انتخابه . وفى القرن العاشر بعد الميلاد انسحب العباسيون من عمان تحت ضغط احداث أكثر خطورة تاركين البلاد لأهلها . وبزوال الخطر الخارجى خفت حدة الحماس والتضامن داخل الامامة بعد أن كانت من عوامل قوتها واستقرارها وفى عام ١١٥٠ عادت النزعة القبلية تفرض نفسها من جديد وانتقل مركز الثقل الى تحالف قبلى مائع بزعامة بنى نبهان أسفر عن تولى أحد شيوخهم الامامة فى عمان . هذا مع العلم بأن السلطة السياسية ظلت محتفظة بطابعها العلمانى البسيط على امتداد سنوات كثيرة حتى القرن السابع عشر .

---

(٩) « الازد » ، تأليف جى سترنزيوك مجلد ٢ فصل ١ ص ٨١٢ — ٨١٣ . والتحفة ، تأليف السالمى جزء ١ ص ٧٢ — ٧٦ وابن رزيق ص ٧ — ٨ .

وعلى أى حال فقد ظلت الامامة على مدى فترة العصور الوسطى النظام المفضل للحكم فى عمان حتى فى الحالات التى تعذر فيها وجود امام تتوفر فيه الصفات المطلوبة • بل هى لا تزال حتى الآن تعتبر أفضل الأنظمة • بالنسبة للعمانيين • وتتألف المناطق التى يسيطر عليها الامام فى الفترة الواقعة بين سنة ١٩١٣ وسنة ١٩٥٥ عند خلعه من جانب قوات سلطان مسقط بمساعدة البريطانيين من ثلاث مقاطعات : الشرقية • والجبل الأخضر • وعمان الداخلية • ولا يزال الامام حتى هذه الساعة يعتبر نفسه الحاكم الشرعى لعمان • وقد ألف حكومة فى المنفى ، هذا بينما يظهر دوره فى السياسة العربية ، وفى الصراعات الدولية على النفط فى المناقشات التى تشهدها أروقة الأمم المتحدة حول قضية عمان • ولا يوجد مثيل فى أقطار الشرق لنظام الحكم المتبع فى عمان ، حيث لا يزال هذا النظام البالى القوة المحركة للشعب •

فما هى طبيعة الامامة فى العصور الوسطى ؟ من الناحية الاساسية تعتبر الامامة نظاما غايته حماية المجتمع وتوفير بيئة صالحة يعيش فيها الأفراد وفق ما أمر به الله • ويشارك الأباضية الخوارج — نظريا على الأقل فى تمسكهم الشديد بهذا المفهوم للسلوك السياسى والاجتماعى والدينى • ان واجب الامام وفق هذا المفهوم هو الدفاع عن حقوق المسلمين وحمايتهم من الأفكار الدخيلة والبدع • ان مهمة الامام بصورة أوضح تتلخص فى تنظيم وقيادة الجيش • وتعيين الولاة وقادة الجيش • وتنظيم جميع الضرائب وتطبيق نصوص الشريعة الاسلامية ومد يد العون الى الفقراء وائتمام صلاة الجمعة • وتتألف الايرادات فى نظام الامامة من الضرائب التالية : الزكاة (ضريبة دينية) والصدقات • والربع • ثم الضرائب الجمركية • ويتم صرف هذه الايرادات على الأغراض العامة • كالدفاع ، والجهاد فى سبيل الله ، والمنشآت العسكرية ، والمساجد • وعلى العجزة وكبار السن واليتامى وأبناء السبيل ، ويتقاضى الامام لنفقاته

الخاصة مبلغا زهيدا ، اذ من المفروض أن يعيش الامام حيــاة الزهــد والتقشف [١٠] .

ان هذا المفهوم عند العمانيين لم يتغير رغم مرور القرون عليه . أما الصفات التى ينبغى أن تتوفر فى الامام فهى التواضع ، والورع ، والعدل ، والاحاطة الشاملة بالعقيدة والكفاءة العسكرية . ولقد كان معظم أئمة عمان من الفئة العسكرية ، أو من فئة العلماء مع الأولوية للفئة الثانية . ويعتبر الامام بمثابة خليفة الله على الأرض . ويمكن التأكد من توافر هذه الصفات فى الامام المنتخب من الطريقة التى تتم بها الاجراءات الانتخابية [١١] .

وتمر عملية الانتخاب بسلسلة من الاجراءات ، تبدأ باجتماع جمهور من أبرز القادة السياسيين والدينيين فى مكان من البلاد — وهو عادة مدينة نزوى — برئاسة أحد العلماء حيث تجرى المباحثات بين المرشحين . فاذا اتفق المؤتمرون على ترشيح رجل معين منحوه ولاءهم . وتعتبر هذه الخطوة أول عملية فى الاحتفالات التى تقام لمبايعة الامام . أما المرحلة الثانية فتتمثل فى اعلان البيعة على الناس . وعندئذ يكون من حق الجماهير أن تؤيد أو ترفض الامام المرشح . ان الدور التى تقوم به جماهير الشعب فى اجراءات البيعة ليست مجرد شكليات فارغة . اذ أن كثيرين ممن رشحهم وجهاء البلاد وعلماؤها ، لم ينالوا ثقة الشعب . وبالتالى لم يتولوا هذا المنصب . ومن المميزات الطريفة لنظام البيعة فى المذهب الأباضى الشروط التى يتعهد الامام بها عند انتخابه . وكنتيجة لهذا الالتزام أصبح فى عمان أئمة ضعفاء لم يكن فى مقدورهم اتخاذ قرارات هامة بدون الرجوع الى زعماء البلاد السياسيين

---

(١٠) التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ٢٣٧ وابن رزيق ، ص ٣١ — ٣٢ — و ٣٨٣ — ٣٨٤ ، « والخوارج » ، تأليف سالم ص ٥٩ — ٦٠ .

(١١) رحلة ابن بطوطة مجلد ٢ ص ٢٢٧ — ٢٢٩ و « عمان » اعداد شركة الزيت العربية الامريكية ص ٧١ و « التحفة » تأليف السالمى جزء ١ ، ص ٢٣٩ — ٤٠ و جزء ٢ ص ٢١٨ و « الخوارج » ص ٥٩ — ٦٠ ، تأليف سالم .

والدينيين • ولكن عمان عرفت أئمة أكفاء لم يضطروا الى هذا الاجراء [١٢] •

وقد يخلع الامام اذا عجز عن القيام بالمسؤولية على الوجه الأكمل • ومن ناحية أخرى فان منصب الامامة الذى يعتمد على حسن نية المرشحين من أهل العقيدة لا يلزم المسلمين بانتخاب امام على الدوام • ان كل ما يهم المسلمين هو أن تسود شريعة الله ، وبالتالى يمكن لأى مجموعة من العلماء عن طريق التشاور والتفاهم المشترك فيما بينها أن تقوم بمهمة الامام • وان كان مثل هذه الهيئة لا يمكن أن تصدر أحكاما قد تضيف أى تغير بدرجة كبيرة من الشريعة الاسلامية • على أن وجود امام يحكم جماعة الأباضيين ينبع فى التحليل النهائى من الحاجة الى سلطة مركزية موجهة فى ظـروف معينة [١٣] •

ومن الواضح ان علماء الدين والفكر الأباضيين قد أسهموا بدور هام فى تاريخ عمان • فللفكر الدينى مكانة سامية فى نفوس العمانيين ، كما هى الحال فى بلاد الاسلام الاخرى • ولقد أسهمت هذه المكانة التى يتبوأها التراث الدينى فى تدعيم السلطة السياسية لرجال الدين بوصفهم المشرعين الدينيين والعلميين ورواد الثقافة • ولكن سلطة رجال الدين لم تكن سلطة مباشرة ، وان كانت تعلن عن نفسها أحيانا فى التهديدات بخلع الائمة أو بالتحريض على ثورة شعبية ، اذا لم يذعن رجال السلطة التنفيذية لنصائح العلمـــاء •

ولعل أهمية الصلاحيات التى يتمتع بها علماء الدين فى عمان تكمن فى أنهم يشكلون سلطة تشريعية عليا تراقب سلوك الزعماء السياسيين والجمهور

(١٢) التحفة ، تأليف السالمى جزء ١ ص ٢٣٩ — ٢٤٠ وجزء ٢ ص ٢٣٧ « وابن رزيق » ص ٣٠ — ٣٢ و ص ٣٨٠ — ٣٨٢ ، و « الخوارج » ، تأليف سالم ص ٥٣ — ٥٤ •
(١٣) التحفة ، تأليف السالمى جزء ١ ص ٢١٧ ، و « الخوارج » ، تأليف سالم ص ٥١ •

على حد سواء . ومن الأهمية بمكان ان نلاحظ بأن معظم الثـورات التى اندلعت فى تاريخ عمان وأدت الى اطاحة الائمة ، أو الى نشوب حـروب أهلية ، كانت من تدبير بعض الفئات المتنفذة من رجال الدين . وأغلب التهم التى توجه الى أئمة عمان هى الضلالة أو البدع . وفى هذه الحالة يكون من حق رجال الدين خلع الامام ، اذا لم يصلح من نفسه . كما أن أى امام يحيد عن هذه القوانين يجرد من لقب الامام ويعتبر ملكا ، وليس للملوك مكانة بين الأباضيين (١٤) .

وفى مثل هذا النظـام الذى تختلط فيه السياسـة بالدين ، فانه من الطبيعى أن يكون للعلماء دور هام فى البناء الحكومى للدولة ، كما فى نقـد الحكم ومراقبته ، اذ أن تطبيق الشرع لا يقتصر على شخص الامام وحده ، بل وعلى رجال الدين أيضا باعتبارهم الرجال التشريعيين . وكل منطقة فى عمان تختار لها قاضيا بعد أخذ رأى الامام فى الشخص المرشح ولما كان القضاة هم الذين يبتون فى القضايا العادية وفقا للتفسيرات الأباضـية للكتاب والسنة فانه لابد لهؤلاء من التضلع فى المسائل الدينية . وفى أحيان كثيرة تحال القضايا الهامة الى أحد الرجال البارزين من علماء الدين أو الى هيئة القضاء ، أو الى الامام نفسه للحكم فيها . والواقع أن دراسة الفقه الاسلامى تعتبر حجر الزاوية بالنسبة للمثقفين ، لان أبرز المفكرين العمانيين هم دائما من فئة كبار القضاة ، أو المؤرخين ، أو الفلاسفة ، كما ان الثقافة الدينية هى الوعاء الأكبر لمناهج التعليم فى عمان (١٥) .

---

(١٤) التحفة ، تأليف السالمى جزء ١ ص ٦٦ — ٦٨ .

(١٥) الخوارج ، سالم ص ٧٩ — ٨٠ ، ابن رزيق ص ٣٨٤ . لا تختلف الشريعة الأباضية بوجه عام عن شريعة السنة انظر كذلك الشريعة الاسلامية فى افريقيا ، ، جى . آن . دى اندرسون (طبعة لندن سنة ١٩٥٤) وثمـة مؤلفات كثيرة للعلماء الأباضيين غير معروفة فى الغرب ، ويتناول معظمها الشريعة الاسلامية أما العلماء الفرنسيون الذين قصروا اهتمامهم على الطوائف الأباضية فى افريقيا الشمالية قد قاموا بمجهود واسع لتوضيح العقيدة الأباضية . راجع فهرس كتاب « الخوارج » تأليف سالم . كذلك فان ثلاثة من مؤلفات العلمـاء العمانيين كانت تتناول الموضوعات الشرعية ، وقد ظهر أحد هذه المؤلفات فى =

ان ثقة الأباضيين فى مفهومهم للحق ثقة مطلقة . وهم يؤمنون بأن من عداهم من المسلمين على خطأ . ونجـدهم فى كل ما يكتبون أو يصرحون يسمون أنفسهم « بالمسلمين » بينما يعتقدون أن الفرق الاسلامية الأخرى مخطئة وأصحابها ضالون ، وأن مسؤولية ردهم الى حظيرة الحق والصواب انما تقع على عاتق الأباضيين . أما الخوارج فقد أفتوا باعدام غيرهم من المسلمين . اما الأباضيون فان موقفهم من الفرق الاسلامية الأخرى هـو أنهم لن يكونوا البادئين بالقتال . كما أنهم يرحبون بكل من يرغب فى اعتناق مذهبهم . ويعرف المفكرون الأباضيون ان الفرق الاسلامية الأخرى تعتبرهم من الخوارج . وبالرغم من هذا فقد استطاعوا أن يكونوا لأنفسهم شخصية محددة ومستقلة . ومما يدل على اعتدال موقف الأباضـيين أنهم يقبلون شهادة المسلم غير الأباضى ، كما يسمحون بالتزاوج والتوارث بين الطرفين . أما موقفهم من المسيحيين ففيه كثير من التسامح ، لأنهم من أهل الكتاب . وتظهر هذه النظرة بشكل أوضح فى الأجزاء السـاحلية من عمـان حيث الاتصالات بالأجانب أكثر [(١٦)] .

أما بالنسبة للاباضيين أنفسهم فلا مجال للتساهل عندهم فيما يتصل بتطبيق الشريعة الاسلامية فهى فى نظرهم لا تحقق الرفاهية المادية للانسان وحسب بل والخلاص الروحى . وهم يستمدون مبادئهم هذه من كتاب الله وسنة نبيه وفق تفسير العلماء الأباضيين لها . فالقرآن فى اعتقادهم قـد أحصى كل صغيرة وكبيرة ، وبالتالى لم تعد ثمة ضرورة للبحث والاجتهاد فى سبيل الوصول الى الحقيقة . وقد عبر عن هذه الحقيقة أحد علماء الدين الاباضيين فى بيان حذر فيه قومه من « أهل الشك » فالأباضيون كـ
من طوائف الخوارج لا يعتقدون بان « مجرد الايمان هو مبرر كاف

= القرن الثالث عشر — بيان الشرع ، تاليف محمد بن سليمان . والمصنف أحمد بن موسى وأخيرا قاموس الشريعة من تاليف جميل بن خميس السـ منتصف القرن التاسع عشر . (أنظر التحفة ، تاليف السالمى جزء ٢ ص ١

(١٦) التحفة ، تاليف السـالمى جزء ١ ص ٤ و ٦٤ — ٦٨ ، وابن ص ٣١٠ .

ذاته » ويقولون بأن المحك هو عمل الفرد . ويدعى بعض العلماء أن الترابط الوثيق بين النظرية والتطبيق هو من أعظم ما ساهم به الخوارج فى علم اللاهوت الاسلامى بوجه عام . وقد أدى الأصرار على تقيد الفرد الأباضى بنوع معين من قواعد السلوك الى الاستمرار بالدعوة لتعاليم الدين ، حتى لا يكون الجهل بها سببا فى ارتكاب الأخطاء . ومن هنا يصر الأباضيون على حضور صلاة الجمعة والاستماع الى الخطباء الدينيين فى أيام الجمع . وترى الغالبية من الأباضيين أن موقفها هذا يتسم بالاعتدال . وأن ترديد الأباضيين لعبارة « اننا لا نغالى فى أمور ديننا ، أو لا نترك أمورنا بيد الجهلاء » يعبر تعبيرا واضحا عن موقف الأباضيين من الدين [١٧] .

ان الخلاف بين المحافظين والمعتدلين كما تعكسه أيديولوجيتهم الدينية والسياسية يعتبر من خصائص التاريخ العمانى . فنظرة المعتدلين الى الحياة تختلف عن نظرة المحافظين أو الصفوة . بمعنى أن المعتدلين لا يرفضون التعامل أو التعاون مع بقية الملل الأخرى . فعقيدتهم تقوم على أساس التوفيق بين الروح والمادة ، كما أنهم لا يضيفون الى العقيدة أشياء من عندهم . والخلاف بينهم وبين المتزمتين خلاف على اهمال المعتدلين لبعض التطبيقات وليس فى التطبيقات نفسها . كذلك لا يمكن اعتبار موقف المعتدلين خروجا على تعاليم الاسلام الصحيح ، لأن ظهور هذه الفئة قد جاء نتيجة للمواقف المتزمتة لبعض فرق الخوارج . ومن ناحية أخرى فان التساهل الذى أظهره بعض الأباضيين ، قد اتخذه المتزمتون سببا لتعزيز رأيهم فى وجوب التمسك الحرفى بالعقيدة ، حتى لا يحيد المسلمون عن طريق « الحق » . وعلى أى حال فقد كان لهذا الخلاف بين شطرى الجماعة الاباضية مضاره على تاريخ عمان حتى هذا القرن . فهو لم يكن خلافا بين دينين مختلفين ، وانما على مبلغ تمسك كل طائفة بمذهب واحد . وكانت قوة المحافظين تتركز فى المنطقة الداخلية من عمان حيث لم

---

(١٧) « الخوارج » ص ٣٣ ، تأليف سالم ، والتحفة ، تأليف السالمى جزء ١ ص ٦٤ — ٧٠ .

تكن تتعارض مواقف هؤلاء مع ذوى المصالح تعارضا كبيرا . أما نفـوذ المعتدلين فقط كان يتركز فى المدن الساحلية حيث الانفتـاح على المؤثرات الخارجية . وعلى كل فقد ظلت الكفة بين الفريقين تتأرجح باستمرار غير أن الفترات التى ظهرت فيها الامامة كقوة وظهر نفوذ علمائها ، هى الفترات التى ساد فيها نفوذ المحافظين ، بينما الفترات التى ازدهرت فيها الحركة الملاحية والتجارية والتوسع هى الفترات التى ساد فيها نفوذ المعتدلين . وحتى القرن السابع عشر كانت عمان خاضعة لنفوذ المحافظين الى حـد كبير ، بينما تحول التيار منذ ذلك الوقت لصالح المعتدلين .

ازدياد أهمية عمان الملاحية والتجارية

وظهور حركة الأباضية المعتدلة

قبل انتشار الاسلام فى عمان بوقت طويل كانت الموانىء العمانيـــة مسرحا لحركة ملاحية وتجارية هامة . وحتى وقت قريب كان نشاط عمان التجارى والملاحى فى منطقة المحيط الهندى بالاضافة الى الجهود التى كان يبذلها الأباضيون لاقامة مجتمع اسلامى مثالى ، تمثل أحد تيارين رئيسيين فى تاريخ البلاد . فخلال العصر الذهبى للخليج ، أى مجىء البرتغاليين فى مستهل القرن السادس عشر لعب الملاحون والتجار العمانيون دورا هاما فى الحياة التجارية للشرق . وكان أبناء عمــان من أوائل الذين أبحروا الى الصين ، وأسهموا بدور ملحوظ فى انشاء سلسلة من المدن البحرية عــلى امتداد شواطىء أفريقيا الشرقية ، على غرار المــدن التى انشــأوها على شواطىء الخليج . كذلك أقاموا لهم صلات وثيقة مع موانىء الهند نظــير اقامة عدد من التجار الهنود فى عمان . وعلى امتداد العصور كان نمــو الحضارة الملاحية وتطور المصالح التجارية يسيران جنبا الى جنب . وكان سكان عمان الساحليون متحررين من التقاليد والقيود التى يفرضها سكان الداخل الأباضيون على أنفسهم . ويرجع هذا النجاح الى أن سلطة الامامة كانت مقصورة على المنطقة الداخلية وحدها ، ولم تكن تمارس نفوذا على الموانىء العمانية . وكنا تحدثنا عن محاولات الأمويين والعباسيين للسيطرة على الساحل العمانى .

ولقد سيطرت دولة هرمز على هذه الموانىء من سنة ١٣٠٠ حتى سنة ١٥٠٠ عندما بدأ النفوذ البرتغالى يتسلل الى المنطقة ويفرض عليها سيطرته التى دامت حتى منتصف القرن السابع عشر (١٨) .

---

(١٨) انظر « الملاحون العرب » تأليف حورانى ويتضمن معلومات عن تطور المصالح التجارية والملاحية العمانية ابان العصور الوسطى . وابن رزيق ص ١٩ — ٢٠ و ٥ ويتحدث فيه عن الامراء الجلنديين الذين نزحوا الى « بــلاد =

،يعاربة والتوسع الامبريالى العمانى :

فى سنة ١٦٥٠ أجلت القوات العمانية المسلحة المحتلين البرتغاليين عن الاراضى العمانية وعن مدينة مسقط بالذات مسجلة بذلك بدايه النفـوذ العمانى فى الخليج الذى امتد زهاء قرنين . لقد كانت عملية اجلاء البرتغاليين من مسقط احد الاعمال البطولية التى صاحبت نمو القوة العمانية الذاتية ، وهى قوة استطاعت أن تحقق بالمقاييس الاقليمية ، مركزا تجارياً وملاحياً وسياسيا عظيما . وقد بدأ نجم عمان فى الصعود فى مطلع القرن السابع عشر فى اعقاب الفترة التى شهدت بعث الامامة فى داخلية البلاد تحت الزعامة الجادة لمجموعة من القادة الذين ينتمون الى قبيلة اليعاربة . وعلى عكس من سبقهم من الأئمة الذين اقتصر حكمهم على داخلية عمان ، اتبع اليعاربة سياسه هجومية لتوحيد البلاد تحت راية حكمهم . وبانحسـار نفـوذ البرتغاليين فى عمان ضاقت الدائرة على ممتلكاتهم حتى لم تعد تتجاوز خلال الاربعينيات من القرن السابع عشر أسوار مدينة مسقط . وهكذا أصبح يعاربة من القوة بحيث أنهم لم يكتفوا ، بعد احتلالهم لمدينة مسقط فى بداية الخمسينات من القرن السابع عشر ، بطرد البرتغاليين من البلاد . وما أن توحدت عمان لأول مرة منذ مئات السنين ، وتحررت الطبقات التجارية والملاحية من قيود السلطة البرتغالية حتى أخذوا فى العمل على توسـيع نفوذهم السياسى والاقتصادى الى ما وراء البحار . ولم تنته الحرب بين العمانيين والبرتغاليين ، وانما امتدت بالاحرى الى بقية الأجزاء الغربية من المحيط الهندى . ومما ساعد العمانيين على نجاحهم فى هذا الصراع هـو

= الزنج » — افريقيا الشرقية فرارا من بنى امية ، ولانشاء الجاليات العربيـة خلال القرن السابع عشر . انظر ايضا « رحلة ابن بطوطة » مجلد ٢ ص ٢١٤ — ٢٢٨ وكتاب بربوزا ص ٦٨ — ٧١ ويتحدث فيه عن المدن السياسية العربية فى شرقى افريقيا فى القرن الخامس عشر و Les Premiers Commercants Arabes en CHINE تأليف تى ليويكى مجلد ١١ (١٩٣٥) ص ١٧٣ — ٨٦ ، وهو من تأليف واحد من ابرز العلماء فى شؤون الاباضية . و « الخليج العربى » ، تأليف ويلسون فصل ٤ .

تسلحهم بنوع جديد من السفن الحربية والمدفعية • فقد تخلوا عن السفن التقليدية وبدأوا باستخدام سفن كبيرة الحجم على الطراز الأوربى • وما أن حل القرن الثامن عشر حتى كانت جميع الأساطيل البحرية تضم سفنا من الطراز الغربى بنى معظمها فى الهند وكانت مزودة بمدفعية حديثة [١٩] •

فرض العمانيون فى أول الأمر سيطرتهم على ضفتى خليج عمان على غرار ما فعل سكان هرمز قبلهم بثلاثة قرون • كما أقاموا مراكز لهم فى النقاط الهامة على الساحل الجنوبى من الخليج العربى • وقد عززوا هـذا الاجراء بتوطيد سيطرتهم على الجزء الأكبر من ساحل افريقيا الشرقية ، بعد طرد البرتغاليين منها • ولعل أهم جانب فى تعاظم القوة السـياسية العمانية هو النمو السريع لمدينة مسقط التى أصبحت نقطـة التجمـع فى منطقة الخليج وأحد الموانىء الكبرى فى المحيط الهندى • وهكذا ما أن بدأ القرن الثامن عشر حتى كان اليعاربة يحكمون دولة يمتد نفوذها السياسى عبر منطقة الخليج كله الى سواحل أفريقيا الشرقية والجنـوب العـربى غربا ، والى مشارف وادى الأندلس فى الشرق • كما كان نفوذها الاقتصادى يمتد عبر شواطىء الخليج الى داخلية ايران والعراق والجزيرة العربية ، أما على الجهة الغربية فقد وصل هذا النفوذ الى البحيرات الوسـطى فى أفريقيا بينما وصل على الجانب الشرقى الى دلتا نهر الجانج • وعلى الرغم من ارتياد سفن الدول الأوربية لمياه الخليج من وقت الى آخر ، فان هذه الدول لم تكن تطمع فى المناطق التى كانت خاضعة يومئذ للنفوذ العمانى ، اذ أن هذه الدول كانت مشغولة بتوطيد نفوذها فى شبه القارة الهندية ، مما

---

(١٩) كتاب آر • اى • واديا « مرفا وبناء السفن فى بومبى » (طبعة بومبى ١٩٥٥) يتحدث عن رواج بيع السفن المبنية فى الهند على الطراز الاوربى الى العرب • و « الملاحون العرب » ، تاليف حورانى ص ٧٨ و « ملاحظات حول السفن الشراعية » — الداو من مجلة مارينرز ميرور Mariners Mirror مجلد ٢٦ (١٩٤٠) بقلم آى • مور A. Moore ، و « تصنيف صـناعة السفن العربية » بقلم جى • طورنل • مجلة مارينرز ميرور مجلد ٢٧ (١٩٤٢) و « الخليج العربى » ، ويلسون فصل ٩ — ١١ ويقدم ملخصا وافيا عن طرد البرتغاليين من الخليج •

هيأ للدول الواقعة على ضفاف الخليج ومنها عمـان الفرصـه للمناورات السياسيه والطموح فى انشاء امبراطورية لها .

غير ان العمانيين لم يتمكنوا من احتكار النفوذ السياسى فى الخليج كما فعلت بعض دول المنطقة قبلهم . فقد واجه النفوذ العمانى تحـديات كثيرة كانت ناجحة فى بعض الاحيان . وتكمن أسباب هذا التحدى فى نجاح اليعاربة بدعم المصالح السياسية والاقتصادية مما سبب لهم مشـكلات كبيرة لم يستطيعوا التغلب عليها . واذ كانت الامامة القديمة قد استطاعت أن تحافظ على وجودها عن طريق السياسة المترمتة التى كانت تسير عليها ، فانها من ناحية اخرى كانت تقف ضد كل محاولة للتغيير داخل المجتمـــع الاسلامى الذى تحكمه ، غير إن هذه الفلسفة لم تكن تصلح أساسا عمليا لدولة تهدف الى اقامة امبراطورية تجارية واسعة ومجتمعا من تجار ينتمون الى جنسيات مختلفة . ولهذا تغير بالفعل (وان كان بالقوة أيضا) طابع الامامة بعد سيطرة اليعاربة على الأجزاء الساحلية من عمان . فقد ارتبطت زعامة البلاد بالمثل العلمانية للدولة ، وضعف اهتمامها بالجوانب الروحية . بل أنشأ اليعاربة فى سنة ١٧٠٠ أسرة حاكمة نشأت عنها تقاليد تسـمح للحكام باختيار خلفائهم قبل وفاتهم بل بلغ ببعضهم الأمر ان عينوا بعض أبنائهم أئمة على البلاد . ولا شك بأن مثل هذا التقليد كان يتعارض مـع المبادىء الأساسية للأباضية والخوارج ، وهكذا فجر التوتر بين الحقائق الجديدة والعصبيات القديمة أزمة حادة .

وفى مطلع القرن الثامن عشر لم يكن الأئمة أكثر من صنائع فى أيدى الفئات المتصارعة ، التى كان كل همها هو تحقيق مصالحها عن طريق سيطرتها على صنائعها من الحكام واستغلالهم . وبمضى الوقت أصبح الامام نفسه من كبار التجار وأصحاب السفن ، كما تحولت الامامة من نظام دينى متزمت الى أداة لجنى الأرباح وتحقيق مطالب فئات التجار . وهكذا أصبح امام عمان فى سنة ١٧٠٠ يسيطر على قوة اقتصادية وبحرية تسيطر بدورها على

منطقة تمتد آلاف الأميال عبر المحيط الهندى وتربطها بملوك هرمز التجار علاقات مشتركة أكثر مما كانت تربطها بأئمة عمان الجلنديين الذين كانوا أول من وضع أسس العقيدة الأباضية فى جنوب شرقى آسيا [٢٠] •

وقد رافق هذه التطورات عملية أخرى لتحويل الامامة الى معقل من معاقل المذهب الأباضى المعتدل • وبالتالى الى اضعاف نفوذ الفئات المتعصبة• غير أن المتطرفين أبوا التخلى عن موقفهم بسهولة مما فجر اضطرابات داخلية خطيرة فى العشرينات من القرن الثامن عشر انتهت الى انشقاق الجماعة الى فريقين ظلت خلافاتهما تستنزف امكانات البلاد وقواها فترة من الزمن • وأخيرا نشبت حروب واضطرابات قبلية بين جماعتى الهناوية والغافرية استمرت حتى النصف الثانى من القرن الثامن عشر • وقد أدى هذا كله بامام البلاد ، وكان آخر امام فى أسرته ، الى أن يطلب مساعدة عسكرية من نادر شاه حاكم ايران (١٧٣٢ — ١٧٤٧) لاخماد التمرد الذى كان يهدد حكمه ، وكان نادر شاه أخبث حكام ايران ، ومؤسس امبراطورية فارسية تمتد من العراق حتى سهول البنجاب • وكان يتحين مثل هذه الفرصة ليزيد من رقعة امبراطوريته فى الخليج ، ولهذا استجاب فوراً لطلب الامام وبعث بجيش وأسطول الى عمان • وقد أسفر التدخل الفارسى عن احتلال الفرس للساحل العمانى وسقوط دولة اليعاربة فى عمان وسيطرة الفرس مؤقتا على امتداد الجزء الأكبر من الثلاثينات والأربعينات من القرن الثامن عشر [٢١] •

---

(٢٠) التحفة : تأليف السالمى جزء ٢ ص ٢ — ٩٠ ، وابن رزيق ص ٢١ — ٣١ و ٥٣ — ١٠٠ و « خطر مسقط ونتائجه » خلال أواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر ، مجلة « آشياتيك ريفيو » السلسلة الجديدة (١٩٥٢) بقلم لوكهارت عدد ١٥٢ ص ٣٦٣ — ٦٩ . وسجلات حكومة الهند — ١ مجلد ١٩ ولوريمر مجلد ١ فصل ١ و « الخليج العربى » فصل ٩ — ١١ ، تأليف : ويلسون .

(٢١) التحفة ، تأليف السالمى ، وابن رزيق ص ١٠٠ — ١٥٥ و « حملات نادر شاه على عمان » ١٧٣٧ — ١٧٤٤ — ٩٠ — ١٩٠ نشرة معهد الدراسات الشرقية مجلد ٨ (١٩٣٥) جزء ١ ص ١٥٧٠ — ١٥٧١ ، بقلم آل لوكهارت =

وقد بدا ان الظروف والمواقف التى تسببت فى سقوط دولة الخوارج فى الأيام الأولى من ظهــور عمان كدولة على المسرح ، عادت من جديد فى القرن الثامن عشر ، وأدت الى اسقاط دولة اليعاربة • وفى كل من المرحلتين الأولى والثانية وجد الخوارج أنفسهم أمام طريقين : اما أن يتكيفوا مـع شعوب وقيم متباينة أو أن يسقطوا • ولما كان الخوارج قوما ضيقى الأفق وينظرون الى الأشياء من زاوية الأبيض والأســود ، فقــد كان لابد ان يصطدموا بالجماعات الأخرى من طائفتهم ممن كانت تحاول التكيف مـع الظروف الجديدة • وقد هيأ هذا الوضع الفرصة للقوى الخارجية للتدخل مرة أخرى لتقويض مجتمع منقسم على نفسه • وبما ان اليعاربة لم ينجحوا بتسوية الخلافات بين القيم الدينية القديمة وبين متطلبات مجتمع تجارى متوسع فقد انهار حكمهم •

دولة البوسعيد وذروة الدولة الاباضية

تمخض احتلال الفرس لعمان عن اقرار زعيم جديدة للبلاد قام ليسترد لها استقلالها وسيادتها ويعيد لها امبراطوريتها وما ضــاع من نفوذها فى الخليج وليعمل على تحقيق الوحدة الوطنية • وبرز هذا الزعيم — وهـو أحمد بن سعيد من بين صفوف احدى الطوائف الفرعية من قبيلة الهناوية التى تقطن داخلية عمان وتعرف بالبوسعيد • وقد لمع اسم هذا الزعيم فى مدينة صحار الساحلية الواقعة فى مقاطعة الباطنة حيث كان من تجــــارها الناجحين عندما تم تعيينه محافظا لمدينة صحار • وعندما هاجم الفــرس عمان رفض هذا الاستسلام ونظم ائتــلافا من القبــائل الهنـاوية ومن المجموعات الأباضية المعتدلة من فريق التجار والملاحين كما ومن رجال الدين المحافظين • وقد كوفىء على عمله هذا بانتخابه اماما للبلاد فكانت ولايتـه بداية لحكم دولة البوسعيد التى ما تزال تحكم البلاد حتى اليوم •

= « بحث جديد عن الهند الشرقية » (طبعة ادنبرة ١٧٢٧) مجلد ١ ، ويحتوى معلومات عن عمان فيما بين ١٦٨٨ و ١٧٢٥ •

وقد برهن أحمد بن سعيد عن ارادة فولاذية فاستطاع تحقيق الوحدة القومية عن طريق القوة بصرف النظر عن الوسائل التى استعان بها لتحقيق هذا الهدف . غير أن قبائل الغافرية لم تمنح أحمد غير ولاء أســمى مما اضطره الى شن حملات ضدهم وضد حلفاء القواسم سكان رأس الخيمة . ولم يدخر أحمد جهدا للتوفيق بين المعتدلين والمتطرفين من الأباضيين غــير أنه لم يحرز فى المدى الطويل أى نجاح يذكر ولكنه استطاع أن يحد من الخلافات التى كانت تفصل بين الفريقين . ويبدو ، فى التحليل النهائى ان الامام أحمد اختار الاتجاه العلمانى للحكم باعتباره الاتجــاه الذى كان سائدا خلال المرحلة الأخيرة من حكم اليعاربة ، وقد استعان أحمد بسلطاته التقليدية وبتحالفه الوثيق مع حكام اليعاربة . وبالثروة التى كانت تدرها عليه مشاريعه التجارية ، وبارادته الصلبة لدعم مركزه فى البلاد . وعرف عنه أنه كان يستخدم تكتيكا عجيبا فى التخلص من خصومه ، فقد كان يقيم لهم المآدب ثم يقوم باعدامهم الواحد تلو الآخر قبل أن يغادروا مائــدة الطعام . كما كان من أنصار التجديد ، فاليه يعود الفضل فى ادخال بعض الأساليب الجديدة الى الجهاز الادارى . وقد استحدث فوق البناء الحكومى للدولة مناصب جديدة كمنصب « جباة الضرائب » و « قادة الأسطول » كما أنشأ جيشا احتياطيا قويا من المرتزقة والرقيق . وعين أبناءه فى عدد من المناصب المسؤولة سواء فى الادارة المركــزية أو كولاة ومحافظين فى المقاطعات والمدن الهامة ، ومن المشروعات التى تعزى اليــه قانون بمنح امتيازات وألقاب عائلية لأفراد الأسرة الحاكمة كلقب « سيد » الذى كان يلقب به أبناؤه [٢٢] . وعلى أى حال فقد عاد حكم أحمد يسوده الاضطراب من جديد نتيجة للثورات التى أشعلها ضده بعض أبنائه وأفراد أسرته طمعا بالســـلطة .

---

(٢٢) يطلق لقب سيد فى البلاد الاسلامية على الاشخاص المنحدرين من سلالة النبى محمد ، بينما يحمله فى عمان افراد اسرة البوسعيد الحاكمة ، ولا علاقة له بالنسب مع الرسول .

وما أن تم لأحمد توطيد دعائم الحكم حتى خاض صراعا ناجحا لاستعادة النفوذ العمانى فى الخليج وكان ألد خصم له فى هذه المنطقة كريم خان زند (١٧٥٠ — ١٧٧٩) مؤسس دولة الجنوب الايرانى خلفا لامبراطورية نادر شاه • وكان كريم خان ملتزما بسياسة التوسع الفارسى التى بدأها نادر شاه فى الخليج ، الا أن الأخير كان يعمل عن طريق صنائعه أمثال شيخ المحمرة الذى ورث القسم الاكبر من أسطول نادر شاه • وعلى كل ، فقد استطاع الامام أحمد فى أواخر أيام حكمه وعن طريق الدخول فى بعض الأحلاف وشن الحروب ، وكنتيجة للتدهور التدريجى فى نفوذ خصومه ، وعلى رأسه وفاة كريم خان زند أن يستعيد بشكل قاطع سيطرة عمان على الخليج وتدعيم مركز مدينة مسقط كأهم الموانىء التجارية الحرة فى منطقة الخليج • كما عقد حلفا مع العثمانيين كان يدر على خزينته مبلغا من المال كل عام ، فى مقابل حماية عمان للجناح الجنوبى للعراق (٢٣) •

وعندما شاخ أحمد انقضت ضده الفئات الأباضية المتطرفة ، غير أن هذا الموقف لم يتطور الى محاولة لخلعه احتراما لكبر سنه • وكانت نزوى التى تقع فى داخلية عمان ، وعاصمة الامامة الوسطى ، والمعقل التقليدى للعناصر المتطرفة بؤرة الحركة المضادة ضد حكم أحمد • وبعد وفاته فى نحو سنة ١٧٨٣ خلفه ابنه سعيد بن أحمد بن سعيد ، غير أن الامام الجديد لم تسنح له الفرصة بأن يتمتع لفترة طويلة بثمار هذا المنصب ، رغم انه كان على جانب كبير من الدهاء السياسى • فهو لم يستطع أن يتفادى الصراعات العائلية التى كانت تتفجر وتهدد مصيره ، أو يحد من سخط المتطرفين الذى تحول فى سنة ١٧٨٤ الى ثورة شاملة ضده • وقد اتهم المتطرفون سعيد بتأييده للبدع والهرطقات ، وبأنه قد انحرف عن التعاليم الاسلامية

---

(٢٣) التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ١٦١ — ٦٦ ، وابن رزيق ص ١٥٦ — ١٨٨ وبلدان الخليج وقبائلها مجلد ٢ • ولوريمر مجلد ١ ص ٤٠٠ — ٤١٧ — وسجلات حكومة الهند — ١ مجلد ٢٠ — ٢١ وحتى سنة ١٨٢٦ كان الحلف العمانى العثمانى لا يزال سارى المفعول •

الحقيقية مما أدى فى النهاية الى اسقاطه • ومن المآخذ التى نسبت اليه هو انه منح ابنه حمد الذى كان ينوب عن والده فى الحكم لقب « وكيل » أو « وصى » وكان هذا يعنى تسليم سلطة الحكم فى المنطقة الساحلية من عمان الى عائلة البوسعيد (الذين لقبوا أنفسهم بعد عام ١٨٦١ بالسلاطين) وكانوا يحكمون البلاد حكما علمانيا لا يحظى بتأييد رجال الدين • ولكن سعيد تمسك بلقب الامام حتى وفاته ، غير أن لقبه هذا لم تعد له أية أهمية سياسية أو دينية فى كل من داخلية البلاد والمنطقة الساحلية • وهكذا كاد الانقسام بين « المعتدلين » الذين كانوا وقتها يسيطرون على دولة تجارية ملاحية فى الجزء الساحلى من البلاد ، و « المحافظين » الذين كانوا يحكمون المنطقة الداخلية من عمان ويحاولون بعث الامامة على النمط الذى نشأت عليه فى القرون الوسطى أن يكون تاما فى نهاية القرن الثامن عشر • ومن الطريف أن نلاحظ هنا ان معظم الأسر التى اقترن حكمها بحركة المحافظين هى التى ظلت تمد الجناح الأباضى المحافظ بالقادة والزعماء حتى وقتنا هذا (٢٤) •

وعلى الرغم من الاضطرابات السياسية التى عكرت صفو الأوضاع فى القرن التالى على انشاء دولة البوسعيد ، فقد انتعشت الحالة الاقتصادية فى البلاد لا سيما فى النصف الساحلى • ويعود هذا الانتعاش الى ثلاثة عوامل :

١ — نشاط الملاحين العمانيين الذين كانت أساطيلهم تجوب المحيط الهندى على امتداده من سواحل أندونيسيا حتى شرقى أفريقيا •

٢ — المساهمة الفعالة للطبقة التجارية العمانية التى عرف أفرادها

---

(٢٤) التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ١٦٨ — ١٨٥ وابن رزيق ص ١٨٨ — ٢١٣ •

كيف يستفيدون من تدهور نشاط الموانىء الايرانية لدعم مركز مدينة مسقط باعتبارها المركز الأول للحركة التجارية فى الخليج ، وواحـدة من أهـم الموانىء على ساحل المحيط الهندى •

٣ ــ نجاح حكام البوسعيد فى استغلال موارد الدولة لتنشيط الملاحة والتجارة فى الخليج أو دعمها •

بين عام ١٧٥٠ وعام ١٨٠٠ ازداد النشاط التجارى والملاحى لمدينـة مسقط ، بحيث ارتفع مستوى هذا النشاط ارتفاعا ملحوظا فى مطلع القرن التاسع عشر عما كان عليه فى عهد الامام أحمد • ويعود هذا التحسن الى حد كبير للحماية والرعاية التى كان يلقاها التجار والبحارة والمغتربون من جانب السلطات المحلية فى المدينة • فلم تكن نسبة الرسوم الجمركية تزيد على ستة ونصف بالمئة بل أنها خفضت الى خمسة بالمئـة فقط • كمـا ان الدوريات الحراسية قد قللت من خطر القرصنة على الخطوط الملاحيـة الساحلية ، بينما كانت الأسوار التى تحيط بالمدينة سدا يحمى التجـار والسلع من الغارات المفاجئة •

فقد كان التجار العمانيون من أنشط التجار فى المنطقة • كما استفادت مدينة مسقط من تحول النشاط التجارى اليها من المركز التجارى البريطانى فى بندر عباس بعد أن هجر الأوربيون ذلك المركز فى سنة ١٧٦٣ أثر الفوضى السياسية التى اجتاحت ايران • كذلك فان طريقة التجـار المسقطيين فى التعامل والبيع والشراء قد اجتذبت صغار التجار اليها ، بينما كانت البيوت التجارية الكبيرة تتعامل على الأسس الطويلة المدى ، وتستفيد من نظـام الوكلاء التجاريين فى الموانىء الهندية • وتقدر قيمة التبادل التجارى خلال الفترة الأخيرة من القرن الثامن عشر بنحو خمسة أثمان مجموع التجارة ذات المدد الطويلة التى تعبر ميناء مسقط • فقد كان هذا المينـاء يحتكر توريد البن الى ايران والعراق ، كما أن جزءا هاما من تجارة المنطقـة

المحلية يتركز فيها أيضا • والواقع ان التجارة بجميع أنواعها كانت تزاول فى أسواق المدينة ومناطق التفريغ فيها من العمليات الخاصة بالسلع الكمالية من اللؤلؤ الى بيع وشراء العبيد ، الى تصدير واستيراد الحبوب كالقمح والبن ، والأسماك والفواكه • كما كانت السلع الهندية المصنعة — كالمنسوجات القطنية بصورة خاصة — من أهم بنود تجارة البلاد • بينما كانت السلع الأوربية الصنع تصل اليها عن طريق الهند ، على الرغم من أن بعضها كان يأتى عن طريق الشام • وفى التسعينات من القرن الثامن عشر كانت البصرة كميناء بحرى فى المرتبة الثانية من الأهمية ، بينما كانت المحمرة الميناء الرئيسى الوحيد على الساحل الايرانى • وفى أواخر القرن الثامن عشر أخذت الامارات العربية الناشئة ، كالبحرين ، والكويت وموانىء ساحل عمان تتحدى بشكل عدوانى سيادة عمان التجارية فى الخليج ، وهو وضع أشعل حروبا بحرية بين هذه الامارات وعرب عمان • ومع ذلك فقد ورد فى تقرير أحد الرحالة البريطانيين فى سنة ١٧٩٠ « ان مدينة مسقط كانت أغنى وأكثر ازدهارا من أية مدينة بحرية أخرى على شواطىء الخليج » ، وان « التجارة فيها ستظل مزدهرة الى أجل غير مسمى » [٢٥] •

يعزز هذا الوجه المشرق ، التطور السليم لصناعة بناء السفن فى عمان خلال الفترة الواقعة بين سنة ١٧٥٠ وسنة ١٨٠٠ • فقد كان فى مدينة مسقط وحدها نحو ١٥ سفينة من الطراز الغربى المربع الهيكل و ٣ مراكب صغيرة ونحو ٢٥٠ سفينة شراعية أغلبها من سفن الشحن الكبيرة الحجم والحمولة • الى جانب ١٠٠ سفينة أخرى تزاول نشاطها الملاحى فى ميناء صور • كما كانت هناك أساطيل أخرى من السفن فى موانىء عمان الأخرى كميناء صحار • وفضلا عن الرحلات التقليدية التى كانت تقوم بها هذه

---

(٢٥) « تقرير حول تجارة بريطانيا مع ايران والجزيرة العربية » اعداد اس مانستى واج جونز مؤرخ ١٧٩٠/١٢/١٨ من سجلات الحكومة الهندية — ١ مجلد ٢١ •

السفن الى سواحل الهند الغربية ، واليمن ، والبحر الأحمر ، وأفريقيا الشرقية ، وموانىء الخليج الأخرى ، كانت السفن الكبيرة من الأسطول التجارى العمانى تصل فى رحلاتها الى كلكتا ، وملاكا وبتافيا (جاكارتا)[٢٦] .

بلغ النشاط التجارى والملاحى العمانى ذروته فى أواخر القرن الثامن عشر . وكان مركز مدينة مسقط فى ذلك الوقت يعتبر على الصعيد الدولى فى المرتبة الثانية من الأهمية حيث كان يجرى التبادل التجارى فى السلع والمنتجات القادمة المتجهة الى بلاد كثيرة فى جنوب غرب آسيا وفى أفريقيا . وكانت المراكز التجارية الرئيسية فى منطقة المحيط الهندى فى ذلك الوقت ثلاثة مراكز : كلكتا وبتافيا وملاكا . وكانت تزورها السفن الأوربية وعلى اتصال مباشر بمراكز التجارة العالمية كلندن وأمستردام ونيويورك . وكانت السفن العمانية والتجار العمانيون يلعبون دوراً هاما فى تجارة المحيط الهندى ، كموزعين ومنظمين للسلع التجارية التى ترد من كلكتا وملاكا وبتافيا ، فضلا عن التجارة الداخلية لمدينة مسقط وميناء زنجبار الخاضع لعمان .

وقد قدر لزنجبار أن تلمع كمركز تجارى وذلك فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . واعتبارا من سنة ١٨٠٣ حتى سنة ١٨٥٦ فقدت مدينة مسقط أهميتها كمركز تجارى دولى للامبراطورية العمانية ، وان كانت قد احتفظت بأهميتها كميناء رئيسى لمنطقة الخليج . وعلى كل ففى العشرينات من القرن الثامن عشر أخذ سعيد بن سلطان (١٨٠٤ — ١٨٥٦) يركز اهتمامه على ممتلكاته على الساحل الشرقى من أفريقيا ونظرا للفترات الطويلة التى كان يتغيب فيها عن البلاد ، فقد نقل مقره الى زنجبار وابتداء من سنة

---

(٢٦) سجلات الحكومة الهندية ١٨٥٦ ص ٣٠٠ — ٣١٢ « الطريق البرى الى الهند » ، تأليف دى . كروترز (طبعة لندن ١٩٢٩) ، ولوريمر مجلد ١ ص ١٦٣ — ٦٦ و Precis Commerce ص ٤٢ — ٥٩ .

١٨٣٢ أخذت زنجبار والمنطقة الرئيسية المواجهة للجزيرة تجنى ثمار سياسة الازدهار الاقتصادى من محاصيل مزارع القرنفل وجوز الهند التى أنشأها سعيد ، بالاضافة الى ما كانت تدره لخزينته تجاره الرقيق . وهكذا أصبح ميناء زنجبار خلية تجارية ، وأخذت البلاد تجتذب اليها أفواج التجار من العرب والهنود ، والأوربيين والأمريكيين . وبمضى الوقت استطاع التجار الهنود بمهارتهم المعروفة أن يسيطروا على الجـزء الأكبر من النشـاط الاقتصادى المتزايد . وكان لتجارة الرقيق التقليدية التى اتسـع نطاقها بفضل الازدهار الاقتصادى ، دور فى خلق نفوذ سياسى أسمى لعمـان كنتيجة لتسلل تجار الرقيق العرب الى أعماق المنطقة الشرقية من أفريقيا وأواسطها . وحتى بعد أن شرعت بريطانيا فى مكافحة هذه التجارة ، ظلت زنجبار محتفظة بانتعاشها الاقتصادى . وفى نهاية حكم سعيد فى سـنة ١٨٥٦ ظلت ممتلكاته فى أفريقيا موردا يمد خزانته بما يوازى نصف ما كانت تمده به الممتلكات العمانية فى آسيا [٢٧] .

أما فى عمان نفسها فقد شهد حكم سعيد بداية لفترة كسـاد طويلة وبطيئة ، تفاقمت بسرعة فى الستينات من القرن التاسع عشر ، ثم اتسـع نطاقها فى أواخر القرن ، عندما تعرضـت البلاد الى حـالة من الركـود الاقتصادى الشديد . وكان تركيز سعيد على زنجبار . أحد العوامل التى أسهمت فى هذا التدهور ، اذ أنه أهمل الوضع التجارى فى عمان على عكس من سبقه من الحكام . وبمضى الوقت أخذ السلطان سعيد يتعرض لمزيد

---

(٢٧) عن المعلومات الخاصة بدور زنجبار كمركز تجارى رئيسى خلال حكم سعيد بن سلطان راجع « افريقيا الشرقية وغزاتها بداية من العصـور الأولى حتى وفاة سعيد سنة ١٨٥٦ » تاليف : آر . كوبلاند (طبعة اكسفورد سنة ١٩٣٨) . و « زنجبار » تاليف أربرتون (طبعـة لنـدن ١٩٧٢) و « زيارة الى زنجبار سنة ١٨٣٨ » من سجلات الحكومة الهندية ، و « تقرير عن مملكة زنجبار (دمونيون) » تاليف : سى . بى . رجبى — من سجلات حكومة بومبى (بومبى ١٨٦١) .

من المتاعب من جانب العناصر المترمتة والمحافظـة مما أسـهم فى تدهور الأوضاع فى بعض أجزاء المملكة . وترجع أسباب المشاكل الداخلية التى أخذ يواجهها سعيد الى امتداد النفوذ الوهابى الى أواسط الجزيرة ، مما جعل لهذا الوضع انعكاساته السيئة على الحالة الاقتصادية فى عمان . وعلى صعيد أوسع أصبح التدخل الأجنبى فى شؤون البلاد عاملا له تأثيره على سياسة المنطقة ، وبصورة غير مباشرة على حياة سكان الامارات الواقعـة على الخليج وذلك فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . ولسوف نعود الى بحث المضاعفات السياسية للتدخل الأجنبى لاحقا ، غير أنه يبدو من المناسب أن نشير الى أن اقتصاديات منطقة الخليج بأسرها بدأت تتضرر نتيجة لتدفق السلع الأوروبية الصنع الى المنطقة . ففى الأربعينات من القرن التاسع عشر حل التدهور بصناعة المنسوجات المحلية فى ايران بعـد أن أغرقت أسواق المنطقة بالسلع القطنية البريطانية الرخيصـة ، وبالتـالى سادت المدن الايرانية موجة من الكساد الشامل مما أثر على شركاء ايران التجاريين كعمان [٢٨] . وفى الأربعينات من القرن التاسع عشر أيضا أرغم البريطانيون سعيد على الحد من تجارة الرقيق ضمن مملكته . بحيث انخفض معدل أرقام تصدير العبيد من زنجبار فى الخمسينات الى خمس معـدله السابق تقريبا [٢٩] . وكان من الطبيعى أن تعانى السفن العمانية والتجار العمانيون من تلك التطورات . ومما يدل على تدهور الوضع الاقتصادى أن السلطان لم يكن يحصل مقابل الامتيازات الجمركية على أكثر من ٨٠ ألف ريال نمسوى فى سنة ١٨٥٤ مقـابل ١٠٥٫٠٠٠ ريال نمسـوى فى سـنة

---

(٢٨) بالرغم من معالجة هذا الكتاب للموضوع على أسـاس المفهـوم الطبقى الماركسى ، فانه يعتبر من أفضل المراجـع التى تتنـاول التصـدعات الاقتصادية فى ايران فى الأربعينـات والخمسينات من القرن التاسـع عشر . والكتاب من تأليف : آم : اس ايفانوف .

(٢٩) مذكرات انطباعات عن رحلة الى مانجونجا ، وزنجبار ، ومسقط ، وعدن ، والى غيرها من الموانىء الشرقية .

١٨٣٥ [٣٠] • وبالرغم من تدهور الحالة الاقتصادية فى عمان بالمقارنة الى وضعها فى سنة ١٨٠٠ فقد ظلت مدينة مسقط خلال حكم سعيد ميناء ومنطقة للتبادل التجارى فى الخليج ، بالاضافة الى دورها كنقطة ارتكاز للنشاط التجارى فى منطقة المحيط الهندى ، بحث كان يتم نقل نصف تجارة الخليج فى السفن العمانية [٣١] • وهكذا وبرغم الكساد الذى طرأ على تجارة المنطقه بوجه عام فان ذلك لم يؤد الى تدهور اقتصادى خطير ، كما لا ينبغى أن نبالغ فى تصوير الاثار التى ترتبت على ذلك الركود الاقتصادى •

ومن رأى الرحالة الذين زاروا مدينة مسقط فى أيام سعيد أن المدينة ظلت محتفظة بازدهارها وجمالها ، وتطل مدينة مسقط على البحر حيث يزدحم ميناؤها بالنشاط والحركة وهو على شكل خليج يحيط بالمدينة من جانبيها وتقوم على كل جانب منه احدى القلعتين اللتين بناهما البرتغاليون • وتصفى المنازل البيضاء مشهدا خلابا على المدينة من البحر ، وذلك على عكس حقيقتها اذ هى مدينة قذرة بالنسبة للاوربيين ، وتنبعث منها رائحة كريهة فى حين أنها مزدحمة بالسكان • وهى محاطة من جميع جهاتها باستثناء الناحية البحرية بسور يبلغ ارتفاعه ١٥ قدما ، تخترقه بوابتان ، لحراستها ، وتتناثر الأسواق فى المنطقة الواقعة ضمن السور ، ومعظم شوارع المدينة ضيقة لا يزيد عرضها على ١٠ أقدام وتحميها من الشمس المحرقة سقوف من سعف النخيل • وقد وزعت المحال التجارية داخل السوق ، بحيث يضم كل قسم منها نوعا من السلع ، وتتكون الحوانيت من فتحة مربعة مظلمة سعتها نحو ١٠ أقدام حيث يكدح فيها الصناع أو يعرض التجار سلعهم على الأرصفة التى تفصلها بين الجانبين طريق • أما منازل الأثرياء فتتكون من طابقين أو ثلاثة طوابق ، تحيط بها ساحة مسورة لها حوائط داخلية من

---

(٣٠) رحلات الى العربية ج • آر • وولستد •

(٣١) أو سنجود •

الخيزران وسقوف بيضاء مزينة برسوم هندسية بديعة • أما الأرضيات فمغطاة بالحصر أو السجاجيد • بينما يعيش أفراد الطبقات الفقيرة فى أكواخ وعشش قذرة • وبالاضافة الى سكان البلاد العرب يقيم فيها الهنود ، والايرانيون ، والتجار والحرفيون اليهود ، الى جانب العمال الوافدين اليها من منطقة بلوشستان ، ومن العبيد الافريقيين • وتعتبر الظروف المادية لهذا الخليط ، فى نظر المراقبين « أفضل بكثير » من أوضاع أمثالهم فى أغلب المدن الآسيوية • والى جانب الطبقة الغنية يوجد الفقراء والشحاذون • وفى الثلاثينات من القرن التاسع عشر كان عدد سكان مدينة مسقط يتراوح بين ٥٠ و ٦٠ ألف نسمة • ذلك بفضل ما كانت تزخر به من امكانات الثراء والنشاط التجارى ، حيث كان فى امكان أى فرد أن يجمع ثروة ، وذلك بالرغم من الكساد التجارى الذى كانت تعانى منه فى تلك الفترة [٣٢] •

ان الجو الاقتصادى المضطرب الذى كانت تعيشه عمان فى الفترة بين سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٥٦ لم يكن يضارعه فى الاضطراب والتصدع غير الجو السياسى خلال نفس الفترة • ويعود ذلك الى الانقسامات التى كانت تمزق القبائل الأباضية ، وبصورة خاصة الخلاف بين الجناح المعتدل والجناح المتطرف خلال حكم سعيد ، الذى انفجر بعد وفاة الامام أحمد وتفاقم بسبب الخلافات التى نشبت بين أفراد الأسرة الحاكمة نفسها ، بالاضافة الى الخطر الذى كان يمثله تغلغل الوهابيين فى منطقة جنوب شرقى الجزيرة وأخيرا التدخل البريطانى المتزايد فى شؤون عمان •

لقد ألمنا بردود فعل المحافظين ضد ما كانوا يعتبرونه خروجا على تقاليد الدين من جانب حكام آل بوسعيد ، غير أن اطاحة سلطان البوسعيد ،

---

(٣٢) نفس المصدر ص ٧٤ ، ٨٩ — ٩٣ و ١٠٥ — ١٠٧ •

الذين كانوا يتمتعون بمركز ونفوذ قويين فى ذلك الوقت لم يكن من الأمور السهلة . وبمضى سنوات القرن التاسع عشر ، ارتبط حكم آل بوسعيد بمنطقة الساحل ارتباطا أكثر باعتبارها المنطقة التى كانوا يستغلون ثروتها ويشرفون على حمايتها . وكان أول الحكام المهمين فى أسرة البوسعيد بعد الامام أحمد ، هو سلطان بن أحمد ، أحد أبنائه (١٧٩٣ — ١٨٠٤) الذى يعتبر عهده من وجوه عديدة ذروة ما بلغه حكم الأسرة المذكورة من مكانة وازدهار . لقد كانت أمنية سلطان الكبرى هى تحويل عمان الى امبراطورية بحرية تخضع لحكم صارم وتضم ضفتى الخليج العمانى ، والجزر الرئيسية فى الخليج ، بالاضافة الى النقاط الاستراتيجية على الجانب العربى للخليج ، والمستعمرات العمانية فى أفريقيا الشرقية . وحتى ذلك الوقت كان النفوذ العمانى فى الخليج مائعا ، ولم يكن يهدف الى فرض سيطرة كاملة على النشاط التجارى فيه ، وانما كان يكتفى بمجرد الوجود . وعلى أى حال فقد أدخل أحمد بعض القوانين ، منها فرض رسم عبور على السفن أثناء دخولها الخليج وخروجها منه . غير أن تلك القوانين قد ضاعفت من حدة العداء بين عمان والامارات النامية فى الخليج ، وتسبب فى النهاية فى اشعال حرب سافرة بينهما . وقد كان الصراع فى البداية يسير فى مصلحة سلطان ، غير ان هذا الموقف تغير بعد حصول الامارات على مساعدات من حلفائهم الوهابيين السعوديين الذين كانوا أثناءها يسيطرون على أواسط الجزيرة العربية . فبالاضافة الى تمسك حكام الامارات المذكورين بالصيغة الوهابية للاسلام وقبولهم الوصاية الاسمية السعودية على اماراتهم ، تلقى هؤلاء الحكام مساعدات كبيرة منها قيام الوهابيين بغارات برية مسلحة على عمان . وفى غمرة هذه الأحداث لقى سلطان مصرعه فى احدى العمليات الحربية التى كان يقودها ضد قواسم رأس الخيمة ، احدى الامارات المناوئة لعمان . وقد بدا يومئذ ان عمان ، وهى تحت ضغط العصبيات الطائفية التى تمزقها ، وفقدانها للزعامة السياسية ، وازاء أعداء أقوياء يحاصرونها ويتربصون بها

من البر والبحر ، سوف تسقط لقمة سائغة فى قبضة النفوذ الوهابى [٣٣] •

ولكن أمكن تفادى هذا المصير بفضل ثلاثة أحداث : الأول نجاح سعيد النجل الأصغر والمتحمس لأحمد فى الوصول الى السلطة وملء الفراغ الناتج عن فقدان الزعامة سنة ١٨٠٧ — الأمر الذى وضع نهاية لحرب أهلية استمرت أربع سنوات بعد وفاة سلطان ابن أحمد • وكانت أول خطوة قام بها هى اقناع الوهابيين عن طريق الرشوة بالكف عن مهاجمة الحدود العمانية • والعامل الثانى تحالفه مع بريطانيا منذ سنة ١٧٩٨ كرد على هجمات العرب المؤيدين من الوهابيين فى مياه الخليج مما أدى فى سنة ١٨٢٠ الى قمع القوى البحرية المناوئة لعمان ، أما العامل الثالث فهو الجزر التدريجى للنفوذ الوهابى ، بعد أن اضطروا الى تحويل قواتهم لمواجهة الحملات التى أخذت تشنها عليهم بعض دول الشرق الأوسط ، وكنتيجة للغزو الذى قامت به جيوش محمد على والى مصر سنة ١٨١١ م للحجاز انهارت الدولة السعودية نفسها مؤقتا فى نحو سنة ١٨١٨ م [٣٤] •

ومن العوامل التى أسهمت فى تفجير الموقف السياسى فى عمان بين سنة ١٨٠٠ م وسنة ١٨٥٦ م هو التسلل الغربى الى المنطقة ، ممثلا فى التدخل البريطانى الذى كان مقدرا أن يترك آثاراً بعيدة المدى • وبالرغم من أن الوجود الغربى لم يتخذ صورة شاملة قبل النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فان الوجود البريطانى قد تحول الى سيطرة دائمة على الخليج فى بحر السنوات الأولى من القرن • فهذا النفوذ الذى تمثل فى معاهدات الصلح البحرية ، وتدعمه الدوريات المسلحة ، والاشراف السياسى ، كان له تأثيره فى احداث التغييرات السياسية • بيد أن هذه التأثيرات قد تبلورت فى النهاية

---

(٣٢) سيرة حياة السيد سلطان بن احمد : اس • مايلز من تقرير للامبرالية البريطانية ١٨٨٧ — ١٨٨٨ وابن رزيق ص ٣٣ — ٢٣٩ ، والسالمى فصل ٢ ، ولوريمر جزء أول ص ٤٢٠ — ٤٣٥ وانطباعات عن السعودية مجلد ١ ص ١٠٠ — ١٤١ •

(٣٤) ابن رزيق ص ٢٥٥ ، وفيه يتناول الفترة الاولى من حكم سعيد •

انى الحد الذى أفضت الى قلب المفهوم التقليدى لحضارة الخليج ، كما وضعت الأسس الأولية لتسلل الثقافة الحديثة الى المنطقة . ولما كانت عمان متحالفة مع بريطانيا ، فقد كانت تمارس حدا كبيرا من الحرية نظير الرقابة التى كانت تمارسها بريطانيا على الخليج . كما أنها لم تكن من الدول الموقعة على معاهدة الصلح التى كبلت الامارات العربية الأخرى فى الخليج . وعلى أى حال فقد اتضح ، فى منتصف القرن التاسع عشر ان بريطانيا تمكنت من تجريد عمان من الصلاحيات التى كانت تمارسها على شؤون الخليج ، مما أصبح يحد من استقلالها وحريتها فى العمل ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالحروب البحرية ، وبتجارة الرقيق ، والشؤون الاقتصادية . ومن ناحية أخرى فان فشل المحاولة العمانية فى الاستيلاء على البحرين سنة ١٨٢٨ م قد وضع خاتمة لسياسة خارجية هجومية مستقلة فى الخليج . وفى الأربعينات من القرن عززت الاتفاقية الجديدة التى عقدتها عمان مع الحكومة البريطانية والاتفاقيات الأخرى التى عقدت مع فرنسا والولايات المتحدة من الوجود الغربى والامتيازات الأجنبية فى عمان . فقد أعفى رعايا الدول الغربية ومستعمراتها من الخضوع لسلطة القوانين المحلية ، كما حددت نسبة أدنى من الرسوم على المنتجات الأوروبية مقدارها ٥ بالمئة هذا فضلا عن أن البريطانيين ، استنادا الى « معاهدة مورسبى Moresby Treaty » ظلوا يضغطون على سعيد للحد من تجارة الرقيق الرابحة ، وهو اجراء كانت تعارضه جميع طبقات الشعب العمانى ، الأمر الذى أسهم فى زيادة المشاكل فى البلاد [٣٥] .

ومن ناحية أخرى فان تدخل الوهابيين السعودين قد أسهم فى مضاعفة

---

(٣٥) وردت تفاصيل نمو النفوذ البريطانى والعلاقات الانجليزية العمانية فى مطلع القرن التاسع عشر فى كتاب Precis Gulf كما تناول الموضوع كل من كيلى فى « السياسة البريطانية » ١٨١٣ — ١٨٤٣ م وكتاب « وضع بريطانيا فى الخليج » .

موجه القلاقل التى كانت تجتاح البلاد • وبالاضافة الى أن الوهابيين دنوا يتشكون تهديدا مستمرا لاستقلال عمان السياسى ، فمما لا ريب فيه أن هذه الاحداث قد هزت الأباضيين العمانيين على كلا الصعيدين الدينى والعقائدى • غير أن بعض قبائل الغافرية من سكان الصحراء قد اعتنق المذهب الوهابى • ولكن الأهم من هذا ان رجال الفكر الأباضيين أخذوا يقيمون الأوضاع الأمر الذى أسهم فى تثبيت دعائم الاتجاهات المذهبية المحافظة فى عمان • ورغم أن الخطر الوهابى قد خف مؤقتا فى الفترة من سنة ١٨١٨ م الى سنه ١٨٣٣ م الا أنه لم يزل نهائيا قبل عام ١٨٧٠ م •

وازاء الأوضاع الاقتصادية غير المضمونة ، والحروب ، والتدخل الأجنبى ، والغليان العقائدى ، لم يكن غريبا أن يصطدم آل بوسعيد بمعارضة متزايدة لحكمهم فى عمان[٣٦] •

لقد تحدثنا عن المعارضة التى كان يمثلها الجناح المحافظ • غير أن هناك جانبا آخر للمعارضة وهو الجانب الذى تمثل فى ظهور صراعات عائلية بين أفراد الأسرة الحاكمة أنفسهم • وفى مطلع القرن التاسع عشر تبلور هذا الصراع ضمن فريقين من أبناء أحمد ، فريق سلطان بن أحمد وفريق قيس ابن أحمد والى مقاطعتى الباطنة ومدينة صحار • وعندما نجح سعيد بن سلطان فى احتلال مركز والده فى سنة ١٨٠٧ م ، ترك عمه فى حالة سخط مرير عليه ان لم يكن قد تركه فى وضع الخصم المهزوم • ولقد ظل الصراع بين أبناء سلطان وقيس من السمات المميزة للتاريخ العمانى على امتداد القرن التاسع عشر • وعلى وجه العموم فقد كان فريق سعيد يؤيد الجناح المعتدل بينما كان فريق قيس يظاهر الجناح المحافظ • والواقع أن

---

(٣٦) لقد تناول موضوع التدخل السعودى فى عمان وندر فى كتابه « الدولة السعودية » كما تناوله ج . ب كيلى فى كتابه « الحدود الشرقية للجزيرة العربية » والذى قام بنقله الى العربية مترجم هذا الكتاب .

فريق العلماء المؤيد للجناح المحافظ وبقيادة شخصية سوف نعرف عنها الكثير لاحقا ، وهى سعيد بن خلفان الخليلى — وكانت أحد العوامل الفعالة فى حركة الامامة المتطرفة فى منتصف القرن التاسع عشر ، أخذ يتآمر لبعث الامامة فى عمان تحت زعامة حمود بن عزان ، انطلاقا من مبدأ الأمر الواقع الذى كان يمارسه على منطقة صحار وساحل الباطنة الشمالى، وذلك باطاحة حكم سعيد من البلاد . ولما كان سعيد يومئذ مشغول بمشروعاته الناجحة فى أفريقيا الشرقية حيث كان يمضى معظم أوقاته فى زنجبار ، فانه لم يكترث بالخطر الذى كان يهدده فى عمان . ولم يعد الى البلاد الا فى سنة ١٨٥١ م بعد أن نصحه البريطانيون الذين بدأ الخوف يساورهم من تغلب العناصر المتطرفة ، وبعد اقصاء جماعة قيس من الباطنة واحتواء حركتهم مما أعاد الاستقرار الى الجزء الساحلى من عمان، بينما بقيت المنطقة الداخلية تضطرم بالقلاقل[٣٧] .

عمان فى سنة ١٨٥٦ — ونهاية عهد : كانت وفاة سعيد سنة ١٨٥٦ م نهاية لعهد كان يعتبر حاكمه آخر حاكم بارز فى الخليج ويعتبر عهده مرحلة ناجحة فى اطار الحضارة التقليدية للمنطقة ونظامها الديناميكى القديم ، اذ أن تأثير الامبريالية الغربية وعملية التحديث للمنطقة دمرت البناء السياسى العام ان لم تكن قد دمرت كل خاصية من خواص ذلك النظام وذلك بعد

---

(٣٧) ان ظهور المعارضة ممثلة فى الفئات الاباضية المحافظة للسلطان سعيد والتى بلغت ذروتها سنة ١٨٤٦ م عند انتخاب محمود بن عزان ولكن الاخير اعرض عن قبول منصب الامامة . ممكن الاطلاع على تفاصيلها فى التحفة للسالمى فصل ١ ص ١٨٦، — ٢٢٠ . راجع ايضا كتاب ابن رزيق ص ٢٥٩ — ٣٧١ وفى « موجز تاريخ عمان » ، تاليف أى روس ، والتقرير الادارى سنة ١٨٨٢ و « سيرة حياة السيد سعيد » ، تاليف اس . مايلز والتقرير الادارى ١٨٨٣ — ١٨٨٤ و « سعيد بن سلطان » ، تاليف : آر . سعيد رويتى (١٧٩١ — ١٨٥٦) و « حكام عمان وزنجبار » (طبعة لندن ١٩٢٩.) ، و Precis Gulf ويتناول حكم سعيد بن سلطان فى عمان . اما موقف البريطانيين من اهمال السيد سعيد لشؤون عمان بعد سنة ١٨٢٨ . فيمكن الرجوع اليه فى سجلات حكومة الهند — ١٨٥٦ ص ٢٠٥ و ٢١٧ — ١٩ .

أعوام قليلة من وفاة سعيد • غير أن الخليج ظل حتى سنة ١٩٥٦ م محتفظا على وجه العموم بحضارة ما قبل القرن السادس عشر فى اطار ما أسميناه « بالعهد الفضى » فحتى ذلك التاريخ كانت عمان لا تزال قوة سياسية كبرى بين دول الخليج كما كانت مدينة مسقط مركزا ملاحيـا وتجـاريا هاما فى المنطقة •

كما ظلت الدولة العمانية حتى ذلك الوقت امبراطورية ملاحية تمتد ممتلكاتها آلاف الأميال عبر سواحل المحيط الهندى • وكانت سفنها تجوب آفاق ذلك المحيط وكانت هذه الامبراطورية تتألف من ساحل عمان الشرقى ، وشمال صحار ، وميناء جوادر فى مكران وجزيرتى زنجبار وبمبا على الساحل الشرقى لافريقيا ، والمنطقة الأم فى أفريقيا وهى التى تحيط بممباسا ودار السلام ، كما كانت هذه الامبراطورية تمارس نفوذا على عمان الداخلية ومكران فيما وراء مستعمرة جوادر ، والساحل الشرقى من أفريقيا ، شمال موزمبيق حتى الصومال ، وفى اتجاه الداخل نحـو البحـيرات الكبرى فى أواسط أفريقيا • كما كانت دولة عمان تستأجر ميناء بندر عباس فى ايران وجزيرتى كشم وهرمز على الجانب الايرانى من الخليج العربى • وكانت مسقط عاصمة هذه المنطقة التى تشعبت كخيـوط العنكبوت والتى ترتبط ببعضها البعض عن طريق الخطوط البحرية ، وبالرغم من زنجبـار وهى المكان المفضل لدى سعيد ، كانت قد وصلت الى نفس المستوى من الأهمية ، وكان يشد هذه الامبراطورية الى بعضها البعض صلات تجارية متينة قوامها الملاحون العمانيون الذين كانوا يستغلون المستعمرة الافريقية الغنية التى كانت تمثل أكبر مورد للتجارة والثراء وأكبر سوق للعبيد •

وأيا كان الوضع فلا يجوز أن نبالغ فى تصوير التناسق الذى اتسمت به المملكة العمانية فى ذلك العهد أى فى سنة ١٨٣٦ م • فالسلطة المركزية لم تكن قوية الا فى بعض أجزاء البلاد كمدينتى مسقط وزنجبـار ، بينما كانت مزعزعة فى المنـاطق الأخـرى ، أما فى داخليـة عمان فقـد كادت

الاضطرابات القبلية والمعارضة ضد الحكم التى كانت تتمثل فى الجناح المحافظ ، والاعتداءات الوهابية المستمرة على الأراضى العمانية كل هذه العوامل كادت أن تنسف سلطة البوسعيد فى المنطقة الساحلية ومن البلاد . غير أن دبلوماسية سعيد وحسن استغلاله لامكانياته قد نجحت فى تأمين الأوضاع فى عهده . فمن طريق التحرك الدبلوماسى ، وتقديم الرشاوى ودفع الجزية استطاع سعيد وقف الخطر الوهابى بعد أن تجدد هذا الخطر فى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر . ومن ناحية أخرى نجح سعيد فى احباط محاولة الفرس لضم مناطق النفوذ العمانية على الساحل الايرانى . والواقع ان المحافظة على مناطق النفوذ العمانية الشاسعة كانت تعتمد فى الغالب على الاستغلال الأقصى لموارد الدولة التى كانت التجارة الخارجية من أهم مصادرها . ومن هذه الموارد كانت الدولة تسد نفقاتها والاعانات القبلية والمنح والرشوات الى النفقات الحربية . ويقدر دخل الدولة فى سنة ١٨٤٠ م بمبلغ ٦١٠٫٠٠٠ ريال نمسوى أو ١٢٠٫٠٠٠ ج . س . وثمة بنود أخرى للدخل هى الضرائب الجمركية وتجارة الرقيق ، والايجارات بالاضافة الى الأرباح التجارية وريع العقارات الخاصة بالسلطان نفسه . كما كان يحصل على مبلغ ٢٠٠٫٠٠٠ ريال نمسوى من بيع محاصيل القرنفل التى كان يملكها فى زنجبار [٣٨] . وكان هذا البند يمثل نحو ثلثى دخل البلاد .

وعلى الرغم من أن عددا لا يستهان به من الرحالة الأوربيين قد أطلقوا على السلطان سعيد لقب الامام سعيد ، الا أنه لم يكن يتخذ من الدين أساسا للحكم . وانما كان حكمه حكما علمانيا أشبه بنظام الحكم الفارسى القديم فى امارات الخليج التجارية . ولكن هذا الطابع العلمانى لنظام الحكم كان هدفا سهلا للعناصر المتطرفة التى كانت تتهمه بالانحراف

---

(٣٨) ابن رزيق ومذكرات اسكود ص ٢٣ — ٢٤ وسجلات ارتشيف حكومة بومباى لسنة ١٨٥٦ م ص ٢٢٨ ، ٢٧٦ — ٢٨٨ و ٦٣١ .

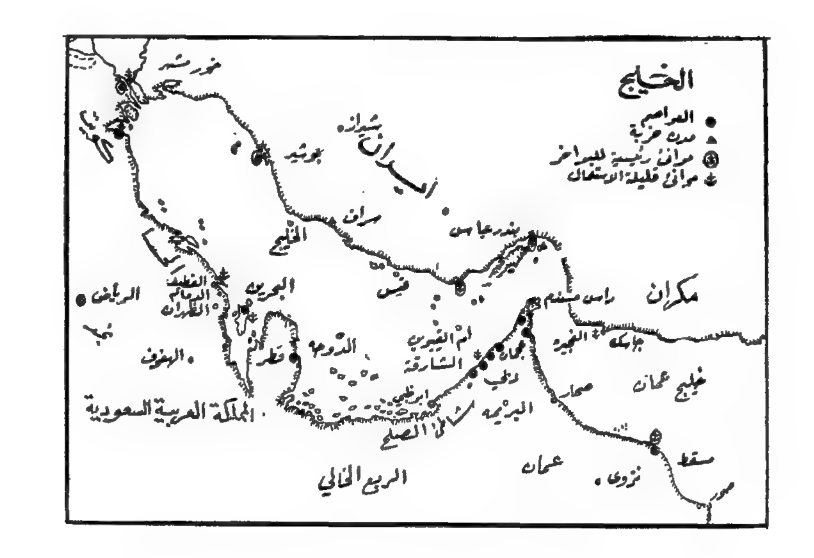
وباقامته نظاما لكيا يتعارض مع تعاليم الدين الحقة [٣٩] ، وكرجل ادارى كان سعيد يوزع أوقاته بين زنجبار ومسقط • وكان ينيب عنه أحد أبنائه عندما كان يتغيب من منطقة أو أخرى من مناطق حكمه وكان ينفق الجزء الأكبر من موارده على دعم الأسطول الذى كان يتألف فى أوج قوته من ١٥ سفينة حربية من الطراز الأوربى و ٧٤ سـفينة مقاتلة وخمس فرقاطات وعدد كبير من السفن الغربية الطراز • وفى أوقات السلم كان يعمل هـذا الأسطول على الخطوط التجارية والمشروعات المربحة • وعلى الرغم من أن هذا الأسطول لم يكن على درجة كبيرة من الفاعلية القتالية ، على حد رأى خبراء البحرية البريطانية ، الا أنه كان فى استطاعته ، على حد تقديرهم ، نقل ٢٠,٠٠٠ رجل • وكان سعيد ، كزميله وليم الرابع ، ملك انجلترا من « هواة البحر » وكان يستمتع بهذه الهواية أيما استمتاع وكان أسطوله همزة الوصل بين أجزاء مملكته المبعثرة • ورغم احتفاظه بجيش صغير من المرتزقة ، تقتصر مهمته على أعمال الحراسة فقد كان سعيد أكثر ميلا الى التجارة منه الى المناورات السياسية ضد القوى القبلية فى البلاد [٤٠] •

---

(٣٩) السالمى فصل ٢ ص ١٨٦ ومن ١٨٦ — ٢٢٠ وابن رزيق ص ٣٦٨ — ٣٧٠ .

(٤٠) رحلات الى الجزيرة العربية فصل ١ ص ٤٠٠ تأليف وولستد وتقرير عن زنجبار تأليف رجبى . من السلسلة الجديدة لسجلات حكومة بومبى رقم ال ٩ (١٨٦١) ، ص ١٨ — ١٩ و « ترسـانة بومبى » ، تأليف واديا ص ٣٣٤ و ٣٣٧ . تكاد تكون كل قطع أسطول السيد سعيد قد تم بناؤها فى الهند وفقا للطراز الأوربى . وقد دشنت اكبر سفينة فى هذا الاسطول واسـمها ليفربول ومسلحة بـ ٧٤ مدفعا وحمولتها ١٨٨٩ طنا فى بومبى فى سنة ١٨٢٦ . غير أن السيد سعيد قد ادرك انه لا يستطيع الاحتفاظ بهـذه المدرعة ، فقرر الاستغناء عنها فقدمها هدية للملك وليم الرابع فى سنة ١٨٣٦ كمحاولة لتحقيق مغنم دبلوماسى .

وقد اعيد تسمية السفينة باسم « الامام » تكريما لمهديها . وقد تم تفكيكها فى سنة ١٨٥٢ بعد أن ظلت تعمل فى جمايكا كسفينة استقبال . وفى الثلاثينات كان الاسطول العمانى يعادل ٣ اضعاف أسطول الهند الشرقية البريطانى على حد راى وولستد . على أن التقديرات لهذا الاسطول تتراوح . وربمـا كان للسلطان قوة من ١٥٠٠ رجل فى عمان ، و ١٣٠٠ فى زنجبار ، كما كان فى وسعه أن يجند قوة اضافية من ٥ آلاف و ١٠ آلاف من القبائل العمانية فى الأحـوال الطـارئة .


الخليج
العواصم
مدن حربية
موانئ رئيسية للبواخر
موانئ قليلة الاستعمال
خورمشهر
الكويت
بوشهر
شيراز
ايران
الخليج
بندرعباس
قيس
مكران
راس مسندم
جاسك
الفجيرة
خليج عمان
صحار
مسقط
نزوى
عمان
البريمي
ساحل الصلح
ابوظبي
دبي
عجمان
الشارقة
ام القيوين
الدوحة
قطر
البحرين
القطيف
الدمام
الظهران
الرياض
الهفوف
المملكة العربية السعودية
الربع الخالي

لقد كان النفوذ الأجنبى — والبريطانى منه على الأخص — فى عملية تصريف سعيد لشؤون الدولة على جانب كبير من الخطورة فى سنة ١٨٥٦م ، الا أننا لا ينبغى أن نبالغ فى تصوير هذا النفـوذ . لقد كانت الحقيقـة البارزة فى علاقات عمان الخارجية هى التحالف مع البريطانيين . وهـو تحالف قد أثبت فعاليته على امتداد الفترة التى حكم فيها آل بوسعيد ، وعلى الأخص فى احباط محاولات الوهابيين للسيطرة على عمان . وعلى أى حال ، فقد كان لهذا التحالف جانبه السلمى أيضا . وهو اضطرار سعيد الى الغاء تجارة الرقيق التى يبيحها الاسلام والتى كانت تدر عليه دخلا كبيرا .

كذلك فان بريطانيا وغيرها من دول الغرب قد حققت نفـوذها فى عمـان بوسائل غير الوسائل الدبلوماسية خلال النصف الأول من القرن التاسـع عشر . لقد كانت نسبة كبيرة من تجارة عمان مرتبطة بالهند عن طريق السلع الاستهلاكية التى كانت تستوردها عمان من تلك البـلاد الأمر الذى كان يتمثل فى وجود عدد كبير من التجار الهنود فى الأراضى العمانية . وقـد اجتذب الازدهار التجارى لزنجبار أعدادا كبيرة من التجار العرب والهنود ، والأوربيين والأمريكيين تمخض عن ابرام اتفاقيات تجارية بين عمان من ناحية والولايات المتحدة سنة (١٨٣٣ م) ، وبريطانيـا (١٨٣٩ م) من ناحية أخرى ، فضلا عن سلسلة من المعاهدات السياسية كما مع فرنسا فى (سنة ١٨٤٢ م) . وبمقتضى هذه المعاهدات حصل الغربيون على امتيازات تجارية حددت الرسوم الجمركية على أساسها بنسبة ٥ بالمئة فقط . وبما أن تلك المعاهدات قد أعطت الغربيين امتيازات اقليمية خاصة فى عمان ، فقد كان طبيعيا أن تعفى الجاليات التجارية فى عمان من الخضوع للسلطة المحليـة (٤١) .

---

(٤١) للاطلاع على نصوص هذه المعاهدات وغيرها بين عمـان والدول الغربية التى ابرمت قبل سنة ١٩٣٠ . راجع تقارير ايتشيسون — ١٩٣٢ — =

وخلاصة القول أنه عندما قضى سعيد نحبه سنة ١٨٥٦ م كان حاكما مستقلا الا أنه كان يحكم فى مجتمع يخضع لنفوذ أجنبى واسع وبلد معرض لفوضى داخلية واقتصاد مزعزع .

= ١١ و ٢٧ و ٣٤ كانت الامتيازات الاقليمية فى الخليج شيئا مألوفا بحكم العادة والعرف ، قبل أن تتحول الى نصوص محددة فى المعاهدات .

الجزء الثاني

تأثير المرحلة الاقتصادية والتكنولوجية الحديثة على الوضع في عمان

الفصل الثالث

بداية المرحلة العصرية في الخليج

عندما فرضت بريطانيا نظام الرقابة البحرية على المياه الاقليمية للخليج عام ١٨٢٠ ، كان هذا الحدث ايذانا بالتحول النهائى لا فى النظام السياسى القائم يومئذ ، وانما فى التركيب العام للحضارة التقليدية للمنطقة فى مختلف جوانبها . ومهما يكن فمنذ عام ١٨٢٠ وحتى الستينات من القرن التاسع عشر كان تأثير النفوذ البريطانى فى المنطقة محصورا فى نطاق الطبقة السياسية العليا ، ولم يكن يمس الجماهير العريضة الا فى أضيق الحدود ، وحتى على مستوى الطبقة العليا فقد كان هذا النفوذ يمارس فى شكل ضيق . ولم يكن الهدف الأساسى منه تحقيق مطامع مادية أو سياسية ، أو فرض السيطرة ، بقدر ما كان للحيلولة بين حكام الخليج والقيام بأعمال حربية أو تخريبية فى المنطقة . ولم يبدأ الصدام بين المصالح البريطانية ومصالح الطبقات التجارية والملاحية فى الخليج قبل الأربعينات من القرن التاسع عشر عندما قررت بريطانيا الحد من تجارة الرقيق . وعلى الرغم من أن المحاولات الأولى لفرض سيطرة امبريالية سافرة وأشد مفعولا وعنفا ، كانت قد بدأت فى الفترة الواقعة بين العشرينيات والستينيات من القرن التاسع عشر ، الا أن الحياة العادية فى الخليج لم تتأثر بذلك اطلاقا .

وفى الستينيات من القرن التاسع عشر حدث أول تحول حقيقى وعميق وشامل فى حياة الخليج الاقتصادية ، كنتيجة للتسلل الواسع النطاق للمؤسسات الاقتصادية الخاضعة للاشراف الغربى ، وما صاحب ذلك من أدوات تكنولوجية حديثة . ومن الآراء التى تقال فى هذا الشأن أن التطور الاقتصادى بالمعنى العصرى للكلمة لم يبدأ قبل ظهور صناعة النفط فى الخليج . غير أن هذا الرأى ليس صحيحا الى حد كبير ، اذ أنه فى عام ١٨٦٢ م بدأت السفن البخارية بين الهند والخليج ، وغيرها من موانىء

المنطقة الغربية للهند نشاطها الملاحى • كما أنه فى منتصف الستينيات من القرن التاسع عشر أدخلت المواصلات التلغرافية الى منطقة الخليج • وفى أواخر هذه الفترة كانت تجارة المنطقة تنتقل من أصحابها الى أيدى الهنود وغيرهم من وكلاء المؤسسات التجارية الحديثة ، التى كانت تمارس نشاطها من مراكزها فى الهند وأوربا • وقد أسفر تسلل المصالح الاقتصادية الغربية والتكنولوجيا الحديثة الى المنطقة عن تدهور فى أوضاع الطبقة التجارية والملاحية ، وعن انهيار للنظام الاقتصادى التقليدى ولأسس المجتمع بكافة أوجه نشاطه وجوانبه بعد أن ظلت لفترة طويلة تعتمـد على العمليـات التجارية والملاحية التقليدية للمنطقة • وهكذا اكتشف البحارة العرب أن السفن البخارية الجديدة انما جاءت لتقضى على تجارة النقل القديمة التى كانوا يزاولونها • وما أن أخذت البواخر تزور موانىء الخليج حتى فقدت مدينة مسقط أهميتها كمركز لتجميع السلع وتوزيعها فى منطقة الخليج ، كما فقدت وضعها كمنطقة اقتصادية رائدة للمنطقة استمرت نحو مائتى عام • والأدهى من ذلك أنه لم ينج أى مواطن من سكان ساحل الخليج من عواقب ذلك الوضع • وفى مستهل هذا القرن أصبحت حتى الأقمشة القطنية لسكان الريف من صنع معامل النسيج فى لانكشاير ، وكانت تنقل الى عمان بالبـــواخر •

ويجوز القول بأن ظهـور صـناعة النفط فى الخليج فى مطلع القرن العشرين ، تطور ايجابى من حيث الأساس ، اذ أنه على الرغم من تعجيله لعملية انهيار الأسس القديمة للأنظمة القائمة ، فقد تمخض عن البـدء فى بناء نظام اقتصادى متين يمكن أن يقوم على أساسه نشاط اقتصادى حديث فى المستقبل • وعلى كل فان انشاء الخطوط الملاحية الحديثة كان له فى بداية الأمر تأثير مدمر على الحضارة الملاحية القديمة فى الخليج ، فضلا عن أن ادخال نظم حديثة على أى مجتمع غالبا ما يحمل فى طيـاته عوامل تدمير

حيث تنهار الأساليب القديمة فى غمرة التيارات الجديدة [١] .

وعلى كل فان تاريخ الشرق الأوسط ومناطق أخرى كثيرة من العالم الافريقى — الآسيوى ، كان على ما يبدو موضوع دراسة تستهدف بحث التفكك الناتج عن عملية المؤثرات الحديثة ، أكثر مما تستهدف محاولات بناء مؤسسات حديثة سليمة ومتينة بين ربوعه . وعلى غرار الخليج كان كل من ايران ، والأناضول ، ومصر ، وسوريا ، ولبنان يمر فى ذلك الوقت بمرحلة غير مشجعة ، كنتيجة لظهور معالم حضارية جديدة تحل محل المؤسسات والقيم والتطلعات القديمة المنهارة .

وعلى الرغم من أن القرن التاسع عشر كله كان مرحلة من مراحل التغيير الثورى فى الخليج العربى ، فقد كانت الفترة من سنة ١٨٦٢ م حتى سنة ١٨٧٢ م بصورة خاصة بمثابة ثورة حقيقية فى الأوضاع . فخلالها تمت تغييرات جذرية وسريعة فى التقاليد السياسية والاقتصادية للمنطقة أعقبها ظهور تنوع فى الأوضاع الاجتماعية لا يقل أهمية عن التطورات نفسها . وقد تضررت عمان ، الدولة التجارية والملاحية الرائدة ، والقوة السياسية الهامة ، ان لم تكن المسيطرة فى تلك الفترة التى واكبت وفاة سعيد سنة ١٨٥٦ م تضررا مباشرا من تلك التطورات ، ان سقوط عمان من المركز الذى كانت تتبوأه فى الخليج الى حضيض الضعف السياسى والركود الاقتصادى ، سوف يبقى مثلا حيا للآثار المدمرة التى تنطوى عليها عملية التغيير فى بعض المجتمعات .

---

(١) يرد اصطلاح ادخال الأنظمة الحديثة أو « التحديث » فى هذا الكتاب كتعريف للطريقة التى يواجه بها المجتمع او يتكيف مع تلك المجموعة من الأفكار الثورية والتكتيكية التى ظهرت لأول مرة فى أوربا الغربية ابتداء من القرن الثانى عشر وانت الى دعم قدرة الانسان على تفهم بيئته والسيطرة عليها ، كما اسهمت مساهمة جذرية فى تغيير علاقة الفرد ببيئته . وهى عملية يمكن النظر اليها من زاويتين :

تدمير ضمنى للعلاقات القديمة ، واقامة مؤسسات ومواقف وعادات جديدة . وهذا الكتاب يتناول الجوانب التدميرية للعملية .

أثر الخصائص الهندية على التغيرات الاقتصادية والتكنولوجيـة فى الخليج

تعتبر الهند من الناحية التقليدية من أقدم وأهم الشركاء التجاريين والملاحيين لسكان الخليج العربى . وقد ظلت عمليات المقايضـة للسـلع الهندية مثل الحبوب ، والتوابل والأقمشة ، والأدوات الحديدية والكماليات لمئات السنين حتى القرن التاسع عشر وتمثل نسبة كبيرة من النشاط التجارى والملاحى لتجار الخليج وملاحيه . ومن المؤكد أن تجارة السلع والنقل التى بدأت من الهند كانت تشكل أهم عنصر فى نشاط عمان التجارى . ومضى قرنان على هذا النحو حتى الستينيات من القرن التاسع عشر عندما سيطرت مدينة مسقط على النشاط التجارى للخليج وعلى الجانب الأكبر من تجارة النقل البحرى للمنطقة الغربية من المحيط الهندى . وفى القـرن التاسع عشر قبل أن تتحقق السيطرة الاقتصادية للمنتجين الغربيين على الخليج ، كانت الصناعة وتجارة التوزيع والتسويق للتجار الهنود من أهم العناصر فى الحياة الاقتصادية لقسم واسع من سكان المناطق القريبة الى الهند فى آسيا وأفريقيا . أما قبل العصر الحديث فقد كانت غالبية سكان ساحل المحيط الهندى تعتمد فى حياتها على امتهان بعض الحرف والصناعات . وكانت الهند ، وهى وحيدة فى الساحة ، تتمتع بمصادر غنية ، وبالتالى كان فى وسعها تصدير الفائض من أغذيتها ومواردها الأولية ومنتجاتها ورؤوس أموالها ، بل وخبرتها التكتيكية الى جيرانها الأقل حظا من التقدم . ومن قدر له أن يزور مسقط فى الثمانينات من القرن الثامن عشر ، كان لابد أن يلتقى فيها بعدد كبير من التجار ورجال الأعمال الهنود ، كما ويجـد أن الجانب الأكبر من البضائع ، بما فيها الأقمشة التى يصنع منها أهل البلاد ملابسهم — اما أن تكون من انتاج الهند أو وردت عن طريقها ، وقد يتناول طعامه على موائد تصطف فوقها أطباق كثيرة من الأرز الهندى .

وخلال معظم الفترة الطويلة التى اتسمت بوجود علاقة وثيقة بين

الخليج والهند ، كانت امارات الخليج تحتل من الناحية الاقتصادية مركزا ثانويا وان كان مهما بالقياس الى الهند • وكان بحـارة الخليج يملكون ويديرون جانبا كبيرا من السفن التى كانت تقوم بنقل المنتجات الهنـدية على امتداد منطقة المحيط الهندى • وكانت بعض مدن الخليج التى تعمل كنقطة لتجميع السلع التجارية و كمركز ثانوى لتوزيع البضائع الخاصـة بمنطقة الساحل الغربى للمحيط الهندى تعتبر المركز الاقتصادى الرئيسى لمنطقة حوض المحيط الهندى بأسرها ، وذلك لنقل السلع من والى شـبه القارة الهندية • كانت هذه هى طبيعة العلاقة الأساسية التى تربط عمان فى عهد السيد سعيد بالهند خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، فلقد كانت الدولة العمانية مركزا لشبكة توزيع السلع والمنتجات لمنطقـة الساحل الغربى للمحيط الهندى ، وبالتالى كانت مشـدودة الى النظـام التجارى للهند ، ذلك النظام الذى كان منذ القرن السادس عشر جزءا من النظام الاقتصادى العالمى الخاضع للسيطرة الأوروبية •

على ضوء هذه العلاقات التاريخية ، لا يبدو غريبا أن تتم الاتصالات الأولى للخليج بالغرب ، ثم بالحضارة الغربية عن طريق الهند • وما أن دخل البرتغاليون الى الخليج بعد أن ثبتوا أقدامهم فى شبه القارة ، حتى أخذوا يحولون تجارة الخليج الى الموانىء الواقعة على الساحل الهندى التى كانوا قد احتلوها ، كما يدافعون عن الخطوط البحرية المؤدية الى مستعمراتهم الجديدة • وكذلك الحال بالنسبة للبريطانيين ، فعندما أخذوا يتدخلون بالقوة فى سياسة الخليج ويقيمون ما سمى فيما بعد « بالنظام المسالم » سنة ١٨٢٠ م ، انما كانوا فى الواقع يدافعون عن مؤخرتهم ، وعن خطوط المواصلات البحرية التى كانت تربط امبراطوريتهم الجـديدة فى الهند • ومما لا يرقى اليه الشك أن البواعث التى حملت الانجليز فى النهاية الى القيام بأول غزو تكنولوجى واقتصادى حديث للخليج فى بحر الستينات من القرن التاسع عشر ، هى الآثار الجانبية للعديد من المشروعات البريطانية

التى كان الهدف منها دعم التنظيمات الحديثة فى الامبراطورية الهندية . وعلى ضوء المسيرة التاريخية ، فقد كان لابد وأن تنعكس التغييرات الاقتصادية فى الهند على الأوضاع فى الخليج [٣] .

ادخال الوسائل الحديثة على المواصلات
فى الهند ، ومنها الى الخليج

أشرنا سابقا الى النشاط الصناعى والتوزيعى والتسويقى للهند قبل القرن التاسع عشر ، وكيف كان ذلك النشاط يسيطر على الأسواق الآسيوية والافريقية الشرقية ، ليس لهذا وحسب ، بل ان المنسوجات القطنية الهندية أيضا كانت تسيطر على جانب كبير من السوق الأوربية فى القرن الثامن عشر . وعلى أية حال ففى مطلع القرن التاسع عشر بدأ المنتجون الهنود يفقدون هذه الأسواق بعد غزو المصانع البريطانية الآلية للشرق وكانت منتجات هذه المصانع تنقل الى الهند مباشرة على السفن الأوربية (وقد أخذ يتزايد عدد هذه السفن بعد سنة ١٨٤٠) ومن الهند كان يتم توزيع تلك المنتجات على نطاق المحيط الهندى بالناقلات المحلية ، أو بالسفن العمانية . وكان تأثير المنتجات الأوربية على الهند والمناطق الانتاجية الأخرى كايران هائلا ، ففى منتصف القرن التاسع عشر انهارت الصناعات اليدوية فى الهند وبالأخص صناعة النسيج الهامة . ولم ينج التجار الهنود من الكارثة الا عن طريق العمل كموزعين تجاريين للمنتجات الأوربية ، وللسلع المحلية وبذلك تكيفوا مع الأوضاع الجديدة [٣] .

---

(٢) انظر « تاريخ المحيط الهندى » تأليف ج . اوير (طبعة تاناناريف ، بمدغشقر سنة ١٩٥٥) من ص ٢٢٩ الى ص ٢٦٠ وذلك للاطلاع على المركز الذى كانت تحتله فى حوض المحيط الهندى ، و « الاقتصاد الهندى » (طبعة لندن ١٩٢٩) « تاريخ الهند » من اصدار اكسفورد تأليف ف . آى . سمث (طبعة اكسفورد ١٩٥٨) ص ٦٤١ — ٦٤٢ .

(٣) تاريخ الهند — اعداد اكسفورد الطبعة الثالثة — اعداد بى سبير (اكسفورد ١٩٥٨) ص ٦٤١ — ٦٤٢ .

ان التغييرات المدمرة التى تناولت البناء الاقتصادى للهند لم تؤثر فى بداية الأمر على تجارة التوزيع فى منطقة المحيط الهندى . فقد واصلت السفن العمانية وسفن الخليج نقل السلع من الهند — رغم كونها سلعا أوربية الصنع — الى المناطق الأخرى على ساحل المحيط الهندى طوال عهد السيد سعيد . ولم يتدهور نظام التوزيع ومركز عمان وأقطار الخليج التجارى والملاحى فى المحيط الهندى الا فى الستينيات من القرن التاسع عشر تحت زحف التطور التكنولوجى الحديث .

وعلى كل فغى الثلاثينات من القرن اتضحت الأمور فقد أخذ حجم وتنظيم التجارة العالمية يدخل مرحلة من التصاعد السريع ، فى ذلك الوقت كانت أوربا منهمكة فى تطوير صناعة السفن البخارية ، والسكك الحديدية ، والصناعات الهندسية والتلغرافية ، مما ضاعف من كفاءة المواصلات وزاد من سرعتها .

وكنتيجة لهذه التطورات التى أملتها الرغبة فى زيادة الانتاج والصراعات الدولية ، كالحرب النابليونية ، فكرت الدول الأوربية وعلى الأخص بريطانيا بصورة جدية فى ايجاد طريق قصير وسريع يربط أوربا بالشرق . وكان الجانب الأكثر من هذا الاهتمام يتركز على تطوير الخطوط البحرية التى تمر بالشرق الأوسط وتتجنب الطريق الدائرى الطويل حول أفريقيا ، الذى كان يعتبر فى ذلك الوقت أهم طريق بين الشرق والغرب ، منذ أن بدأ البرتغاليون يستخدمونه فى القرن السادس عشر . وفى العشرينيات من القرن التاسع عشر بدأ التفكير فى بريطانيا باستخدام السفن والمحركات البخارية عبر ساحل الشام ، ومنطقة ما بين النهرين ، وعن طريق الخليج الى الهند ، وبدأت التجارب العملية لاستخدام السفن البخارية على هذه الخطوط فى الثلاثينيات . وكان هناك مشروع يقوم على فتح خطين ملاحيين بحريين ، خط بين بريطانيا والشام ، وخط بين بريطانيا من ناحية والخليج والعراق من ناحية أخرى عبر خطين آخرين ، أحدهما

نهرى والآخر برى عن طريق الشام فالعراق ، وبذلك يتم انشــاء خط ملاحى سريع بين الغرب والشرق • وقد وضـــعت عدة تصميمات لهــذا المشروع ، الا أنها فشلت كلها لأن الحكومة البريطانية رفضت أن تتعهد بالنفقات المالية اللازمة لانشاء الخط ، ولم يبدأ العمل فى تسيير الســفن عبر نهرى العراق قبل عام ١٨٦٠ ، عندما بدأت مؤسسة لنش فى فتح خط للسفن البخارية ، غير أن هذا المشروع اقتصر على المدن العراقية الواقعة على ضفتى النهر ، وتموين الخطوط الملاحية التجارية المتجهة الى الخليج ، وبالتالى لم يكن جزءا من مشروع ملاحى شامل (٤) •

فى الأربعينيات من القرن تركزت الأنظار على مصر كموقع محتمــل للاتصال المقترح بين الشرق والغرب • وخلال الحروب النابليونية وضعت فرنسا مشروعا لشق قناة عبر برزخ السويس ، الا أن هذا المشروع صرف النظر عنه بعد فشل الحملة النابليونية على مصر • ومع أن المشروع أعيد التفكير فيه من جديد فى نفس الفترة ، الا أن بريطانيا وقفت ضده خوفا من أن يستغل الفرنسيون وغيرهم من خصوم البريطانيين القناة للوصول الى المحيط الهندى • وكبديل للخطة الفرنسية اقترحت بريطانيا انشــاء خط سكة حديد من الاسكندرية الى السويس عبر القاهرة لتسهيل الانتقال بين المدينتين مع الابقاء على البحر الأبيض المتوسط ضمن حدوده الشرقية • وفى عام ١٨٤٠ شرعت مؤسسة باننشولار اند أورينتل لاين Peninsuar & Oriental Lincs فى تسيير خط ملاحى بين انجلترا والاسكندرية ، ثم أعقبت ذلك بخط آخر بين السويس والهند فى سنة ١٨٤٤ • وبانتهاء العمل فى خط ســكة الاســكندرية الســويس عام ١٨٥٨ ، وربط الخطين البحــرين أحدهما بالآخر ، تحقق المشروع البريطانى فى صورته النهائية • وعلى

---

(٤) « الطريق الى الهند » فصل ٦ — ٧ : هوسكنز ولوريمر مجلد ١ ص ٢٣٦ — ٢٣٧ والخليج الفارسى : ولسون فصل ٥ و ١٦ و « الدبلوماسية فى الشرقين الادنى والاوسط » هروتيز (طبعة برنستون ١٩٥٦) .

أية حال فان هذا النجاح سرعان ما غطى عليه مشروع فيردناند دى ليسبس ، عندما نجح هذا فى اقناع سعيد باشا حاكم مصر ، والفرنسى الميول بالموافقة على شق قناة السويس ، وهو المشروع الذى انتهى العمل فيه سنة ١٨٦٩ . وبالرغم من المرارة التى كان يحس بها الفرنسيون نتيجة فشلهم فى الحرب الفرنسية ـ الروسية ، فقد توخوا من فتح قناة السويس أن تمكنهم من توسيع نطاق مصالحهم السياسية والاقتصادية الى منطقة المحيط الهندى . أما فيما يختص بالمشروعات الفرنسية فى الخليج فقد كانوا يفكرون فى انشاء مستعمرة زراعية بالقرب من البصرة ، وانشاء قنصليات لهم فى الموانىء الكبرى ، الى جانب مستودع للوقود فى مسقط كجزء من مشروع آخر خاص بمنطقتى عدن ـ جيبوتى [٥] .

ومنذ سنة ١٨٤٠ حتى سنة ١٨٦٠ أنفق الجانب الأكبر من الجهود والأموال المخصصة سابقا لانشاء خطوط مواصلات حديثة فى منطقة حوض المحيط الهندى فى تقوية الخط الملاحى المباشر بين السويس والهند التابع لشركة بانشولار اند اورينتيل . وبعد ذلك بقليل بدأ التفكير فى انشاء خطوط ملاحية اضافية بين موانىء المحيط الهندى ، فيما اذا توفرت الامكانيات الاقتصادية والتكنولوجية اللازمة لتنفيذ هذه الخطوط قبل استكمال الخط الرئيسى . أما فى الهند نفسها فقد شهدت هذه الفترة حركة لادخال النظم الحديثة وهى الحركة التى بدأت بتولى اللورد وليم بنتك منصب الحاكم العام فى الهند . فلقد حاول المصلحون الانجيليون فى بريطانيا تغيير كل شىء فى الهند من المثل الأخلاقية والنظم التعليمية الى البيئة المادية للمجتمع الهندى . وقد بلغت حركة التغريب هذه ذروتها فيما بين سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٥٦ عند تعيين اللورد دلهوسى حاكما عاما للهند .

---

(٥) « الطريق الى الهند » فصل ١٢ و ١٤ هوسكنز ، و « الدبلوماسية » تاليف هروبنز فصل ١ ص ١٤٦ ـ ١٤٩ ورسالة من اتكنسون الى جون مؤرخة ١٨٦٨/١٢/٩ برقم ٥٥٥ ورسالة أخرى من فرير الى وود بتاريخ ١٨٦٢/٢/١٠ و ١٨٦٣/٥/٢٢ و ١٨٦٥/٢/١٢ .

وقد بدأ دلهوسى سياسة نشطة ومركزة ولكنها صارمة فى أغلبها بهدف خلق دولة هندية موحدة ومتجانسة وعصرية تحت السيطرة البريطانية . وكان أساس سياسة دلهوسى هو اقامة شبكة من خطوط المواصلات تربط بين المقاطعات الهندية كلها . ولعله من سخريات القدر أن يتم تحقيق مشروع اللورد دلهوسى بعد احالته على المعاش على يد الرجل الذى كان من أشد المعارضين لبرنامجه الاصلاحى ونعنى به السر بارتل فرير (Bartle Frere) الذى تسلم عمله فى الهند سنة ١٨٣٤ بعد تخرجه من كلية هل برى Hailey bury التابعة لشركة الهند الشرقية . وبمضى الوقت رأى فرير أن ادخال الحضارة العصرية الى الهند وبقية أقطار الشرق تقع مسؤوليتها على بريطانيا . وكان هذا أيضا رأى اللورد دلهوسى غير أن فرير كان ينادى باتباع الأساليب الدبلوماسية واللباقة فى تحقيق هذه الأهداف ، وكان يعارض أسلوب القوة لفرض العصرية فرضا على سكان الهند . وكان من رأيه أن احترام تقاليد الثقافة الهندية وقيمها على اختلافها وحكمتها ونشر مفاهيم الحضارة الحديثة بين ربوعها عن طريق الحكومات المحلية والنفوذ غير المباشر ، وبث أفكارها عن طريق أدوات التعليم ، سوف يؤدى فى النهاية الى نجاح المشروع . وكان يعتقد أن هذا الأسلوب لو طبق فأنه سيرتفع بالهند الى المستويات الحضارية فى الغرب ، بينما سيحفظ لها فى نفس الوقت أهم قيمها الثقافية . وعلى كل فقد كان فرير كغيره من المحافظين والاداريين البريطانيين المناهضين للحركة الاصلاحية ، يؤيد المضى فى تنفيذ الخطط التى تساهم فى تنمية رصيد الهند من مزايا « الحضارة » المادية ، كما يؤيد ادخال وسائل التكنولوجيا الحديثة اليها . الا أنه كان يؤمن بأن المشروعات الاقتصادية أفضل من الوسائل الثقافية والسياسية لنشر الحضارة الحديثة [٦] .

---

(٦) تاريخ الهند اعداد اكسفورد — الطبعة الثالثة ص ٦٤٣ الى ٦٦٢ و « حياة ورسائل السر بارتل فرير » تأليف ج . مارتينو (طبعة لندن سنة ١٨٩٥) جزء ١ ص ١٦٨ — ١٦٩ و « رجال حكموا الهند » تأليف بى ماسون وفيليب وبى وودروف (طبعة لندن سنة ١٩٥٤) ص من ٣٧ الى ٤١ .

وقد أمضى فرير سنوات عمله فى مناطق غرب الهند المجاورة لبومباى، وفى مقاطعة السند والأقاليم المطلة على شـواطىء نهر الأندلس • وفى الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر طالب فرير بتطـوير وسائط النقل فى هذه المناطق ، وأكد بأن انشاء خطوط للسكك الحـديدية سوف يعزز من وسائل الدفاع عن الهند ، كما يفتح فى نفس الوقت المناطق المغلقة أمام الحـركة التجـارية • ومن مشروعاته مشروع احاطة أقليم بومباى بشبكة من السكك الحديدية تمتد غربا الى كلكتا ، وميناء كراتشى على ساحل السند بأقليم البنجاب كمـا أن التحسينات التى أدخلها على ميناء كراتشى الذى كان قبل الخمسينيات من القرن التاسع عشر محـدود الامكانات ، قد زادت من كفاءته بحيث أمكن استخدامه فى انزال القوات المسلحة عندما انفجرت ثورة ١٨٥٧ فى الهند • وبفضل السياسة البعيدة النظر التى اتبعها فرير بالنسبة لحاجة الهند الى وسائل المواصـلات ومعارضته لسياسة القوة فى فرض الاصلاح ، حظيت آراؤه بالتأييـد فى الدوائر العليا لحكومة الهند ، ففى سنة ١٨٦١ تم العمل فى خط سكة حديد البنجاب ـ كراتشى وأخذت هذه المدينة تكتسب طابع المدنية الحديثة ، كما أصبحت أحد الموانىء الهامة فى غرب آسيا • ومن مشروعاته الخاصة الأخرى لتطوير حركة المواصلات شق طرق ثانوية أو مساعدة لخطـوط السكك الحديدية الرئيسية وبهذا المشروع كان فرير ينوى توسيع طـرق المواصلات بحيث تشمل كل الهند وبالتالى يسهل الاتصال بين المنـاطق الداخلية والمناطق الساحلية [٧] • وقد عمت مشروعات فرير فى أرجاء الهند كلها ، بعد تعيينه فى مجلس الحاكم العام اللورد كاننج الذى شغل منصب حاكم عام ونائب الملك فى الهند وهو المنصب الذى شغله من سنة ١٨٥٦ حتى سنة ١٨٦٢ • وأثناء وجوده فى هذا المنصب اتسـعت دائرة صداقاته وعلاقاته وبالأخص بين أفراد الجالية التجـارية الأوربيـة فى كلكتا • ومن الأصدقاء الذين تعرف عليهم فرير وليم ماكينون (السر وليم

(٧) حياة فرير : تأليف مارتينو جزء ١ ص ٤٥ و ٩٣ — ١٠٣ و ٢٦٨ •

ماكينون فيما بعد) الرجل الذى قدر له أن يلمع كأحد واضعى خطة التوسع البريطانى فى شرق أفريقيا — بوصفه مؤسس الشركة البريطانية الهندية للملاحة . كما كان واحدا ممن أشعلوا ثورة ملاحية فى أرجاء الخليج .

وكان ماكينون اسكوتلانديا هاجر من جلاسكو الى كلكتا فى سنة ١٨٤٧ ، للحاق بصديق له من زملاء الدراسة يدعى روبرت ماكنزى ولمشاركته فى ادارة مؤسسة تجارية عامة . وفى سنة ١٨٥٤ اشترك الاثنان فى مؤسسة للنقل تعمل فى سواحل خليج البنغال . وفى نفس العام عقد الشريكان النشيطان والطموحان اتفاقية لنقل الركاب والبضائع والبريد بين كلكتا ورانجون . واقترضا مبلغا لشراء سفينتين بخاريتين صغيرتين وهو مشروع تطور فى النهاية الى مؤسسة ملاحية جبارة تمارس نشاطها عبر مياه المحيط الهندى كله . وفى عام ١٨٥٦ أطلق على هذه المؤسسة اسم « شركة كلكتا وبورما للملاحة البخارية
(Galcutta & Burmah Steam Navigation Co.)
وبفضل الاعتمادات الخاصة بالخدمات البريدية والصفقات الرابحة التى عقدتها الشركة مع السلطات خلال حركة التمرد تغلبت المؤسسة على الصعوبات التى كانت تعترضها . وفى عام ١٨٦٢ عاد ماكينون من رحلة الى انجلترا يصحب معه رؤوس أموال وبواخر عديدة ، وفى جعبته مشروع جديد لتوسيع خط كلكتا — رانجون الملاحى الى ٣ خطوط : خط يلتف حول الساحل الهندى ، وخط يمتد الى سنغافورة ، وخط ثالث يمتد غربا الى الخليج العربى ويرتبط بخط بخارى للملاحة النهرية يعمل بالعراق [٨] .

---

(٨) للاطلاع على سيرة حياة السير وليم ماكينون راجع « معجم السير القومية » — السر وليم ماكينون ملحق ٢ جزء ٣ ص ١٢٧ — ١٢٨ — الملحق رقم ٣ ص ١٢٧ — ٢٨ تاليف آى كارلايل ومقال صحيفة التايمز اللندنية بعنوان « السر ماكينون — ترجمة حياه » عدد ١٨٩٣/٦/٣٠ للاطلاع على التاريخ المبكر لشركة الملاحة التجارية الهندية البريطانية راجع « مائة عام من تاريخ شركة بى انداو للملاحة البخارية » ، تاليف اى . اى . ابوارت بويد كيبل (طبعة لندن ١٩٣٧) ص ٢٠٢ — ٢٠٧ .

لقد كانت هذه كلها مشروعات طمــوحة ، ولئن كان لــدى ماكينون وماكنزى الخبرة والدافع لانجاز تلك المشروعات ، فقد كان ينقصهما رأس المال • وهنا يجىء دور السر بارتل فرير بوصفه عضوا فى مجلس الحاكم لكى يمارس ما كان له من نفــوذ فى دفع المشروع ، وكان من الطبيعى أن يتحمس فرير لمشروع ماكينون ، لأن تصور فرير لرسالة بريطانيا الحضارية لم يكن ينحصر ضمن حدود الهند وحســـب ، ومن هنا كان فرير يؤيد أى مشروع من شأنه أن يدعم نفوذ بريطانيا الحضارى • وكان من رأى فرير أن بواخر شركة ماكينون تؤدى دورين فى آن واحــد : خدمة المصـــالح التجارية من جهة ، ونشر الحضارة من جهة أخرى ، وأن أى مســـاعدة يمكنه أن يقدمها الى مشروع ماكينون فانما يقدمها من أجــل تحقيق ذلك الحـــلم •

ولب المشكلة أن ماكينون كان ينقصــه رأس المــال اللازم لتنفيــذ المشروع • • وبالرغم من أن « الوعى الرأسمالى » لم يكن مألوفا يومئذ فى انجلترا ، فقد أعربت حكومة الهنــد البريطانية عن عطفها على المشروع سيما وأنه مشروع يتعلق بالمواصـــلات • فالسكك الحديدية فى الهنــد قد أنشئت بأموال اعتمدت لها من ميزانية الدولة ، وهى مشروعات لم تكن فى رأى الدوائر الرسمية مشروعات تجارية ، بل من مستلزمات الدفاع عن الهنــد • وعلى أساس هذه الاعتبارات اعتمد بارتل فرير فى طلب معونة حكومية لمشروع ماكينون وقد تعهدت مؤسسة ماكينرن فى مقابل ذلك بنقل البريد وبوضع سفنها تحت تصرف حكومة الهند فى أوقات الطوارىء وبذلك أعفت حكومة الهند من أعباء الاحتفاظ بأسطول خاص للنقل • وقــد ظلت حكرمة بومباى لعدة سنوات تطالب بخط ملاحى منتظم الى شاطىء الخليج ولهذا ما أن وافق اللورد كاننج والوايت هول على المشروع حتى أعيــد تنظيم خط كلكتا — بورما تحت اسم « الشركة البريطانية الهندية للملاحة البخارية » هذا وقد باشر هذا الخط عمله ابتداء من سنة ١٨٦٢ [٩] •

(٩) Precis Turkish Arabic ص ١٩٩ حيـــاة فرير جــزء ١ ص ٢٩٧ و ٢٩٨ •

وقد رأى البعض أن انشاء خط ملاحى منتظم الى الخليج مجازفة خطيرة غير أنه من حسن حظ ماكينون أن افتتاح هذا الخط قد جاء فى فترة شهدت ارتفاعا دوليا فى الطلب على القطن حدث فى أعقاب خفض الكميات المصرح بتصديرها من القطن الأمريكى كنتيجة للحرب الأهلية الأمريكية . ويوم أبدت مصانع لانكشاير فى انجلترا استعدادها لدفع أسعار أعلى للقطن شجع هذا زراع القطن فى مصر ، والهند وغيرها من الأقطار على زيادة انتاجهم منه .

وقد وافق ازدياد الطلب العالمى على القطن تولى السر بارتل فرير منصب حاكم ولاية بومباى ، كبرى الولايات الهندية يومئذ . وقد اعتبر تولى فرير لهذا المنصب وهو ثانى منصب هام فى الهند ، ويجىء فى المرتبة الثانية بعد منصب الحاكم العام نفسه ، من سنة ١٨٦٢ حتى سنة ١٨٦٧ من الأعمال الناجحة . وبمجرد أن تولى فرير عمله شرع فى العمل على تحسين وسائل الرى ، والنقل والمواصلات وتطويرها . وبجانب تحويل مناطق شاسعة الى أراضى زراعية جديدة ، مدت شبكة من خطوط النقل والموانىء . وهكذا أصبحت مدينة بومباى مركزا لنشاط متزايد للمستثمرين وأصحاب رؤوس الأموال الذين ألقوا بثقلهم فى حملة زيادة انتاج القطن فى الهند . وقد جاء الانتعاش فى تجارة القطن لصالح المؤسسة ولم تحقق الشركة أرباحا كثيرة من وراء هذه العمليات وحسب ، بل ضاعفت خطها الثانى عبر الخليج تحت تأثير هستريا القطن التى اجتاحت ايران أيضا . وكما فعلت كل من مصر والهند ضاعفت ايران من مساحة أراضى زراعة القطن . وعندما كانت البواخر تعود من موانىء الخليج الى الهند كانت عنابرها تمتلىء بالقطن الذى ما أن يصل حتى يتخاطفه وكلاء المصانع البريطانية هناك [١٠] .

---

(١٠) نفس المصدر من ص ٣٩٨ الى ص ٤١٤ جزء ٢ ص من ١ الى ٢٧ رسالة من فرير الى وود مؤرخه ١٨٦٣/٥/١٢ و « التنمية الاقتصادية فى الهند » تأليف ف . انستى (طبعة لندن ١٩٥٢) س ٢٠٨ وص ٢٦١ و « مملكات من =

هذه هى معالم النجاح للخطوط الملاحيــة التجــارية التى ظهرت فى الستينيات من القرن التاسع عشر • كما تم أيضا التنسيق بين رحلات هذا الخط وخط شركة بانتشولار واورينتل بين انجلترا والهند عبر السويس • وقد نشأت بعض المشاكل من افتتاح قناة الســويس عام ١٨٦٩ ، وعلى الرغم من ذلك فان هذا الحدث قد ساهم فى دعم الشركة فى المدى الطويل الى حد بعيد • ففى عام ١٨٩٥ كان لــدى الشركة ٨٥ باخرة ، ووكــلاء تجاريون موزعون على مناطق جنوب آسيا ، وأفريقيا الشرقية ، وأستراليا، كما بدأت خطا ملاحيا الى لندن أيضا • وعلى أية حال فان ظهور بواخر شركة الهند البريطانية فى مياه الخليج ، يعتبر بداية مرحلة من الحضارة الاقتصادية والمادية فى المنطقة ، أدت فى النهاية لا الى تشويه المفهــــوم التقليدى لحياة سكانها وحسب بل والى القضاء عليها أيضا •

مساعى حكومة الهند البريطانية
لادخال النظم الحديثة الى الخليج

تمثل رحلات بواخر شركة الهند البريطانية الى الخليج جانبــا من قصة انتقال المؤثرات الهندية عن طريق محاولة ادخال التطور التكنولوجى الحديث الى المنطقة • أما الجانب الآخر فهو أن حكومة الهند البريطانية — أو بعبارة أدق — حكومة بومباى برياسة فرير — قــد بدأت فى تطبيق سياسة نشر مفاهيم الحضارة الغربية بعد سنة ١٨٦٢ • وكان مقر المقيم البريطانى فى الخليج أداة هذه السياسة • ومنذ سنة ١٨٦٢ حتى ســنة ١٨٧٢ وهى الفترة التى شهدت تغييرات حاسمة فى الخليج كان على رأس البعثة البريطانية فى الخليج رجل من ألمع الشخصيات البريطانية هــ لويس بلى • وقد وقع اختيار فرير على بلى وكان من الضباط البريطانيين

= قصة » سى مكنزى (طبعة لندن ١٩٥٤) ص ٢٨ — ٤٠ •
Precis Commerce ص ١٠٧ •

الشجعان والمتحمسين والأكفاء فى سلاح الفرسان للاشراف على مصالح الحكومة البريطانية والهند فى منطقة الخليج • وكان فرير على يقين من أن اختياره بلى لتلك المهمة يلبى حاجة بريطانيا الى شخصية تشارك بلى آراءه فيما يمكن أن يكون عليه الخليج فى ظل المدنية الغربية • واذا كان فرير هو صاحب « النظرية الجديدة » لرسالة الرجل الأبيض الاستعمارية التى بدأت فى الستينيات من القـرن التاسـع عشر فقـد كان بلى أداة تنفيذها • ويعتبر فرير فى مستوى ليفنج ستون وفراود كصاحب فلسفة تشكل جزءا لا يتجزأ من « الامبريالية الحديثة » للقرن التاسع عشر ، بينما يعتبر كل من بلى وماكينون من أوائل روادها •

وفيما بين عام ١٨٢٢ وعام ١٨٦٢ اقتصر دور المقيم البريطـانى فى الخليج بوجه عام على المحافظة على النظام فى المنطقة • وكأحد مساعدى فرير وأنصاره لعب بلى دورا فعالا وايجابيا وان لم يكن ناجحا دائما فى أحداث الخليج • وكان بلى يتعاون مع رجال الأعمال والتجار البريطانيين كما كان يفعل ماكينون الذى كان يحثهم على توسيع نشاطهم فى المنطقة • ولا نستطيع القول فيما اذا كان بلى فى ممارسـته لواجبـاته يفرق بين الأهداف السياسية والاقتصادية • ولكنه قام بتدعيم وتوسيع الامتيازات الاقليمية البريطانية فى الخليج كسبيل لضمان حرية الأعمال التجـارية ، أكثر منه لتدعيم النفوذ البريطانى فى المنطقة • وفى سنة ١٨٦٦ لم يتردد بلى فى اللجـوء الى القـوة (دبلوماسية القـوارب المسـلحة) عنـدما اعتدى الوهابيون على التجار الهنود فى ميناء صور • وكان يلجأ الى فرض أشد العقوبات على الذين يرتكبون مثل هذه الأعمال ومن خلال تنقلاته فى مناطق الخليج أدرك بلى مجموعة من الحقائق — فى اطار المفهوم العـام لنظريات فرير عن أفضل الوسائل لتطوير المنطقة حضاريا — غير أن بعض تلك الآراء لم يكن واقعيا • فقد كان بلى يؤيد توسيع النشاط المـلاحى للسفن البريطانية ضمن المنطقة حتى وان أدى ذلك الى وقف صناعة السفن المحلية • كما كان يعتقد أن خلاص المنطقة يكمن فى قبولها غـير المشروط

لمفاهيم الحضارة الغربيه بدلا من تشبثها بتقاليدها القديمة التى عفى عليها الزمن • وكان من رأيه أن حجم تجارة المنطقة ونوعيتها سوف يزداد حتما ، اذا لم تعترض السلطات المحلية هذا النشاط التجارى • وبالتالى كان يؤيد تطوير وسائل النقل والمواصلات والخطوط التجارية ، كطريق وادى قارون فى ايران ، الذى ينفتح على الخليج ، غير ان بلى لم يكن يضع فى اعتباره الصعوبات التى كانت تعترض مثل هذه المشاريع • وانبرى الى الكشف عن كل الامكانيات التى يمكن استغلالها فى هذا الغرض • وكان يتنبأ لنقطة الخليج بدور هام فى مستقبل التجارة العالمية • اذا قدر للمشروع الذى طرح فى أواخر الثلاثينيات من القرن التاسع عشر أن يبعث من جديد • وهو يتضمن مد خط بين الشام وسواحل الخليج عبر الصحراء [١١] •

وكخطوة لادخال النظم الحديثة الى الخليج وضع مشروعا لانشاء مستعمرة فى رأس مسندم تخضع للسيطرة البريطانية وهى المنطقة التى تلتقى عندها مياه خليج عمان بمياه الخليج العربى • ولما كان بلى لا يعرف شيئا عن قسوة المناخ ، فقد اقترح أن تتخذ هذه المنطقة مقرا للمقيم البريطانى فى الخليج بدلا من أبو شهر (المدينة الساحلية فى ايران) كما كان يأمل أن تتحول هذه المنطقة الى ميناء حرة ومركز تجارى جديد لتوجيه النشاط التجارى منه • وكان يأمل فى أن تصبح هذه المدينة فى يوم من الأيام مركز اشعاع حضارة لسكانها وحافزا لادخال الحضارة الغربية الى الخليج فضلا عن أنها ، كما كان يتصور ، يمكن أن تقوم بنفس الدور الذى يقوم به جبل طارق دون أن تثير لبريطانيا أى مشاكل قانونية • وكان يعتقد أن سلطان مسقط وعمان سوف يوافق على بيع المنطقة التى اقترح انشاء المستعمرة المذكورة عليها • وعلى الرغم من أن الاقتراح لقى اهتماما من فريير الا أن السلطات الحكومية فى كلكتا رفضت المشروع خوفا من

---

(١١) تقرير تجارى عن الخليج — ١٨٦٣ Precis Commerce
من ص ٣١ الى ٣٧ ورسالة من بلى الى دبليو نبكول وشركاه بتاريخ =

التورط فى السياسات الداخلية للمنطقة ، بالاضافة الى التكاليف الباهظة التى كان سيكلفها المشروع (١٣) .

ولم تكن آراء بلى فى كيفية تطوير منطقة الخليج ماديا واقتصاديا ، تختلف عن آراء فرير من حيث أنها جزء من فلسفة عامه واحدة ، فلقد كان بلى داعية لا يكل لأهمية الخليج الاقتصادية البالغة ومنذ سنة ١٨٦٣ ، وفى تقاريره الرسمية ، وفى ما كان ينشره من المقالات الصحفية كان بلى يدعو بريطانيا الى استغلال التغييرات التى يمر بها الخليج كنتيجة لدخول الحضارة الأوربية . وكان من رأيه أن منطقة الخليج تضم امكانيات هائلة للنمو الاقتصادى ، لو أنها استغلت على الوجه الاكمل . وكان طبيعيا أن يدق بلى ناقوس الخطر من المنافسة المحتملة فى الخليج . فخلال الستينيات من القرن التاسع عشر كانت هناك مشروعات فرنسية كثيرة لتطوير منطقة الخليج كجزء من خطة فرنسية للوصول الى منطقة الخليج الهندى ، بعد افتتاح قناة السويس . غير أن تحذيرات بلى ذهبت كلها أدراج الرياح ، لا فى الدوائر العليا لحكومة الهند البريطانية وحسب ، بل وبين المسؤولين البريطانيين فى لندن أيضا ، وذلك رغم تأييد فرير له . ومما يدل على

= ١٨٧٢/٦/١٣ رقم ٨٩٦ — ٣٧٨ من سجلات دار المقيم البريطانى فى الخليج مجلد ٢٠ ورسالة بتاريخ ٦٨/١٠/١٨ من بلى الى ديوك اوف ارجيل برقم ١٨٧١ وفى الستينيات من القرن التاسع عشر عدلت بريطانيا عن محاولاتها الرامية الى تشجيع الملاحة فى الخليج .

(١٢) رسالتان من بلى الى اندرسون احداهما بتاريخ ١٨٦٣/١/١٢ والثانية بتاريخ ١٨٦٣/٢/١ . راجع أيضا Precis Int'l Rivalry من ص ٢٥ الى ٣٠ .

(١٣) رسالة من بلى الى اندرسون بتاريخ ١٨٦٣/٢/١٦ وص ٢٩ من Precis Int'l Rivaery ، ورسالة من بلى الى حكومة بومباى بتاريخ ١٨٦٦/٥/١٢ . وص ٢٩ الى ٣٠ من Precis Commerce لقد كتب بلى اكثر من مقالة اعلانية عن الامكانيات الاقتصادية للخليج واهم تلك المقالات مقال بعنوان « ملاحظات عن قبائل المناطق الساحلية وتجارتها ومواردها » من مطبوعات جمعية بومبى الجغرافية مجلد ١٦ (١٨٦٣) ص ١١٣ — ٣٢ .

تحمس فرير لآرائه ، أنه استطاع خلال الفترة التى أمضاها فى المنطقة تحقيق جانب كبير من المشروعات التى وضعها رغم قلة النقود والامكانيات التى كانت تحت يده • وكان فرير بوصفه حاكم ولاية بومباى يؤيد مشروعات بلى • وبالرغم من محاولة الاثنين اقناع الحكومة بأهمية تلك المشروعات وتنفيذها كمشروع انشاء مستعمرة بريطانية فى الخليج ، فان سياسة الحكومة كانت فى الحقيقة مشدودة ولم تكن تؤيد فكرة ادخال الحضارة الى الخليج • وعلى الرغم من اجماع المسؤولين على تأييد حرية التجارة ، واتباع سياسة التحفظ الأقصى ، فان العوامل المشتركة فى ادخال الوسائل العصرية الى الخليج فى الستينيات من القرن التاسع عشر ونعنى بها — بواخر شركة الهند البريطانية للملاحة ، وأفراد الجالية الهندية البريطانية المقيمين فى الخليج ، والمقيم البريطانى فى الخليج ، والخط التلغرافى بين أوربا والهند عبر الخليج — كل هذه العوامل كانت تحظى بالتأييد المباشر أو غير المباشر من حكومتى لندن وكلكتا • غير أن هذا التأييد فى حد ذاته كان أمرا لا غنى عنه بالنسبة للدفاع عن الهند كما كان تعبيرا عن مسؤولية الحكومة عن حماية حقوق رعايا البريطانيين والهنود ومصالحهم • غير أن انعكاسات التأييد المشار اليه خصوصا من حيث مساسه بالحضارة التقليدية للخليج التى قد جاوزت فى الواقع حدود الدفاع عن الهند • ومن ناحية أخرى فان التغييرات التى طرأت على الوضع فى الخليج كنتيجة لجهود كل من فرير ، وماكينون وبلى تصور أن تطلعات بعض رجال الأعمال المسؤولين فى الخليج قد جاوزت حدود الهند ، وان محاولات ادخال الحضارة العصرية لم تقتصر على الهند وحدها بل شملت المناطق المجاورة لها • ففى الستينيات من القرن التاسع عشر كانت الهند هى مصدر التيارات الحضارية التى أخذت تمتد الى مناطق المحيط الهندى •

الثورة والركود الاقتصـــادى فى الخليج العربى

١٨٦٢ — ١٩١٤

يعتبر عام ١٨٦٢ بداية للحضارة الاقتصادية والتكنولوجية فى الخليج • وكانت أهم التطورات التى شهدتها المنطقة فى الفترة الواقعة بين ســـنة ١٨٦٢ والحرب العالمية الأولى هى انهيار النظام الاقتصـــادى التقليـــدى بجميع صوره وأنمـــاطه ، وفى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الأولى تميزت الحالة فى المنطقة بازدياد فى مظاهر المجتمع الصناعى الحـــديث ، كنتيجة لاكتشاف النفط فيها • وتعتبر الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى على جانب كبير من الأهمية من حيث ادخـــال النظم العصرية على اقتصاديات المنطقة • وبالمثل تعتبر المرحلة الفاصلة بين سنة ١٨٦٢ والحرب العالمية الأولى على جانب أعظم من الأهميـــة • فمن زاوية التطـــورات الاقتصادية ، تفرعت عن هذه المرحلة مرحلة أخرى بداية من سنة ١٨٧٢ • وما بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٧٢ اندلعت ثورة اقتصادية بفعل المواصلات الحديثة التى دخلت المنطقة • وفى الفترة التى أعقبت ظهـــور المؤسسات التجارية الموجهة من قبل الأوربيين أو الخاضعة لسيطرتهم ساد الغموض معالم النشاط الاقتصادى القومى ، بحيث أصيب هذا النشاط بالشـــلل أو التدمير فى معظم جوانبه • وما بين سنة ١٨٧٢ والحرب العالمية الأولى اتضح بشكل مؤلم للأوربيين أن الآمال التى عقدوها على مرحلة الستينيات من القرن قد انهارت • وان الصدمة الناتجة عن التغييرات الثـــورية التى واكبت مولد المرحلة الجديدة ، قد قضت على جوانب هامة من العـــلاقات الاقتصادية القديمة ، وتركت جانبا كبيرا من الاقتصاد القومى للمنطقة فى حالة من الكساد أصبح معها عاجزا عن الاستجابة بصورة ايجابية لتحديات المرحلة الجديدة واحتمالاتها • وحتى فى الوقت الذى بدأت اكتشـــافات البترول الموجهة من قبل الأجانب توجد مفهوماً اقتصادياً جديدا فى المنطقة • وامتيازات النفط توفر رؤوس الأموال اللازمة ، ظلت المنطقة تعـــانى من

النقر المدقع فى الأموال والمهارات الفنية الحديثة ، وفى وضع مضطرب لا يسمح بتطور سليم للتجارة والاقتصاد العام .

الثورة الاقتصادية : ١٨٦٢ — ١٨٧٢ : تعتبر الحقبة الواقعة بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٧٢ بالمعنى المجرد قفزة كبرى فى حجم التجارة والنشاط الاقتصادى فى الخليج . ولسوء الحظ هبط نصيب التجار والملاحين العرب من النشاط الاقتصادى للمنطقة بالمقارنة الى الأوربيين ووكلائهم والتجار الهنود المستوطنين الذين حصلوا على الجانب الأكبر من الأرباح الجديدة . وكانت أسوأ الأوضاع التى حاقت بمصالح سكان المنطقة هى عملية — التصاعد — فالركود — فالانتعاش التى سادت المناخ التجارى فى الستينيات من القرن التاسع عشر . وتقدر قيمة تجارة الخليج لما وراء البحار فى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر بـ ٣٫٥٠٠٫٠٠٠ ج . س . معظمه من نصيب الملاحين والتجار المحليين [١٤] . أما فى سنة ١٨٦٦ فقد بلغت قيمة هذه التجارة نحو ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ ج . س . وقد تحقق معظم

---

(١٤) ينبغى أن نؤكد أن هذه الارقام ان هى الا تقريبية ، تم التوصل اليها بعد تقييم للمعلومات القليلة والمبعثرة ، وغير الدقيقة الى حد كبير مما أمكن جمعه من مختلف المصادر وعلى الاخص كتاب وولستد « رحلة الى جزيرة العرب » مجلد ١ ص ٢٢ — ٢٤ وكتاب اف آر شسنى بعثة المسح الى نهرى دجلة والفرات ، (طبعة لندن ١٨٥٠) مجلد ١ ص ٥٦٩ . وقد وضعت هذه التقديرات على اساس العوامل الآتية : قيمة تجارة مسقط ١٫٨٠٠٫٠٠٠ ج . س : قيمة صادرات البحرين من اللؤلؤ ٤٠٠٫٠٠٠ ج . س ، قيمة تجارة ابو شهر ٨٠٠٫٠٠٠ ج . س . قيمة تجارة موانىء الخليج الاخرى (الكويت ، البصرة ، المحمرة الخ) ٥٠٠٫٠٠٠ ج س . وهذا الرقم الأخير هو مجرد تقدير ويعتمد فى المقام الأول على افتراض ان خمسة اثمان مجموع التجارة البعيدة المدى للخليج يمر عن طريق مسقط خلال أواخر القرن الثامن عشر ، وبداية التاسع عشر . ان دقة أرقام تجارة الخليج بوجه عام ، كانت موضع شك حتى قبل سنوات الحرب العالمية الأولى . ومع ذلك فان تلك الأرقام على الاقل تعبر عن الاتجاهات العامة لتلك التجارة .

الزيادة فى قيمة التجارة فى فترة الستينيات من القرن التاسع عشر (١٥) . وبمعنى أصح فقد كان هناك ارتفاع فى أرقام قيمة التجارة فيما بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٦٥ كنتيجة لانشاء خط شركة الهند البريطانية للبواخر ، وتصاعد الطلب على القطن . فالارتفاع فى حجم تجارة الخليج كان يرجع أساسا الى ارتفاع أسعار القطن فى الأوساط التجارية فى بومباى ، الى جانب شحنات خيوط الصوف الى بومباى والأفيون الى شرقى آسيا ، وواردات السكر من الهند واندونيسيا . ورغم الارتفاع فى أسعار النقل فقد تحققت أرباح كثيرة من تلك العمليات . كما أسفر تدفق الثروة على أقطار الخليج عن ارتفاع فى أرقام الواردات الى الهند . وكنتيجة لهذا الانتعاش ، حققت الخطوط الملاحية للخليج والبواخر البريطانية أرباحا كثيرة من العمليات المذكورة ولم تتوقف عن نشاطها خلال أوائل الستينيات. كانت هذه الفترة خاتمة المطاف بالنسبة للمرحلة المجيدة للملاحين العرب فى الخليج ، اذ ان ذلك النشاط الملاحى والتجارى الذى بلغ ذروته ابان ذلك العهد ، عاد فتدهور مع نهاية الحرب الأهلية الأمريكية ، وظهور القطن الأمريكى فى الأسواق العالمية . وبنهاية مرحلة الانتعاش انخفضت الأرقام التجارية ابتداء من سنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٦٨ الى نصف مجموعها فى سنة ١٨٦٤ (١٦) .

كانت الملاحة المحلية فى الخليج الضحية الأولى للنكسة الاقتصادية . ومنذ ذلك الوقت خفضت أجور النقل على البواخر البريطانية مما أدى الى انتعاش تجارة الخليج فى سنة ١٨٦٩ ، وبالتالى أتاح لتجار المنطقة فرصة لممارسة نشاطهم فى أسواق الهند من جديد . وعلى كل فقد اضطر عدد من

---

(١٥) Precis Commerce ص ٢٩ ، ٣٢ — ٣٧ ، ١٠٧ .

(١٦) رسالة مؤرخة ١٨٦٤/٨/٢٣، برقم ١ من بلى الى اندرسون نفس المصدر ص ٢٧ — ٢٨ ورسالة مؤرخة ١٨٧٠/٤/٢٥ رقم ٣٤/٨٦ من بلى الى جون — نفس المصدر ص ٣٥ — ٣٧ .

وبابنة السفن المحلية وقف عملياتهم التجارية بسبب ذلك الركود ، وبعد أن عجزوا عن منافسة التخفيضات فى أجور النقل التى أجراها أصحاب البواخر البريطانية ، ولم يعد ثمة عمل لسفن كـلا الطرفين (وكانا قد زادا من رحلاتهما الى مرتين فى الشهر خلال عام ١٨٦٦) وهكذا فعندما انتعشـت التجارة فى الخليج من جديد كانت الخطوط الملاحية المستفيد الأول من ذلك الانتعاش . وفى عام ١٨٦٥ أصبحت السفن المحلية عاجزة عن منافسـة البواخر بصورة فعالة فى ميدان النقل التجارى — على خطوط الهنـد — الخليج . وأخذ نشاط السفن المحلية يقتصر على العمليـات السـاحلية المحدودة والرحلات غير المنتظمة ، أو على النشـاط غـير المسـموح به كالتهريب (١٧) .

وعلى الرغم من التوازن التجارى الذى شهدته المنطقة فى أعقـاب الانتعاش الاقتصادى فيما بين سنة ١٨٦٨ وسنة ١٨٦٩ فقد استمر نشاط البواخر بالازدياد فى أواخر القرن التاسع عشر . ويصور الجدول رقم ١ النمو المطرد فى رحلات البواخر الى الخليج من سـنة ١٨٦٢ حتى سـنة ١٩٠٤ . كما يعكس مدى السيطرة البريطانية على تلك الرحـلات وعلى الرغم من أن سفن بلاد أخرى أخذت تزور موانىء الخليج من وقت الى آخر ، فان بعضها افتتح بالفعل خطوطا ملاحية ، الا أن الشركات المذكورة لم تنجح فى مواجهة الاحتكار البريطانى فى النقل التجارى وبواخر الركاب حتى للفترة الواقعة بين سنة ١٩٠٦ وسنة ١٩١٤ عندما بدأ الخط الملاحى لشركة هامبورج وأميركا ينافس الخطوط البريطانية بشكل خطـير . وفى سنة ١٨٩٧ بلغت نسبة البواخر المسجلة فى بريطانيا والعاملة فى مـوانىء الخليج ٨٤ بالمئة ، كان معظمها يرفع علم بواخر شركة الهند البريطانيـة

(١٧) نفس المصدر ص ٣٢ و ٣٧ و ٣٨ تقرير ادارى : ١٨٧٧ — ١٨٧٨ ص ١٢٩ ولوريمر جزء ١ ص ٢ ومن ص ٣١٩ الى ٣٣٢ . فى أواخر عام ١٨٥٤ لم يزد عدد البواخر البريطانية العاملة بين ابو شهر وبومباى عن ٣ فقط .

للملاحة • وما تزال بواخر شركة الهند البريطانيه حتى اليوم ، باستثناء ناقلات النفط ، البواخر الرئيسية لنقل البضائع والركاب بين موانىء الخليج• ومع بداية القرن العشرين كانت هذه البواخر تصل تقريبا الى جميع الموانىء الهامة فى المنطقة بين وقت وآخر • ومعظم هذه البواخر كان يبحر من بومباى الا جزءا قليلا منها كان يبحر من الموانىء الأخرى فى المحيط الهندى • غير ان عددا متزايدا منها كان يأتى من أوربا مباشرة — خصوصا فى الفترة الواقعة بين سنة ١٨٩٠ وسنة ١٩١٢ ، عندما كان استيراد الأسلحة الى موانىء الخليج أو تهريبها عنصرا هاما فى النشاط التجارى للمنطقة • غير ان التجارة الملاحية فى الخليج كانت تجارة مربحة الى حد كبير نظرا لأن متطلبات الأسواق المتعاملة كانت محدودة فى غالبها ، كما كانت أسعار النقل فى صعود وهبوط وبشكل صارخ فى بعض الأحيان ، وذلك على الرغم من الكساد العام الذى ساد أواخر القرن التاسع عشر • ولئن كان لهذا الوضع بعض المزايا للتجار المحليين ، فانه من ناحية أخرى قد أسهم فى اضعاف قدرة المساومة لدى التجار المذكورين وفى حجم الرحلات الملاحية الأسبوعية التى أخذت تفرض نفسها على تجار الخليج العربى [١٨] وبجانب صناعة السفن سقط معقل آخر من معاقل النظام الاقتصادى التقليدى فى الخليج أمام التغييرات الثورية للستينيات من القرن التاسع عشر ، وهو نظام « مركز التجمع » أو « المناطق الحرة » فقبل عام ١٨٦٢ كانت مدينة مسقط أهم المراكز التجارية فى الخليج بلا منازع ، غير ان الفترة الواقعة بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٧٢ شهدت نهاية ذلك النظام • وبالتالى تدهورت مكانة مسقط تدهورا سريعا كميناء تجارى • وكان افتتاح خطوط البواخر السبب الأساسى لذلك التدهور ، هذا فضلا عن عوامل أخرى كثيرة نشأت عن التقسيم السياسى للدولة العمانية فى سنة ١٨٦١ الى سلطتين احداهما افريقية عاصمتها زنجبار والأخرى عمانية عاصمتها مسقط • من هنا فان

---

(١٨) « الدبلوماسية » تأليف هروتز جزء ١ ص ٢٢٧ وتقرير ادارى سنة ١٨٨١ — ١٨٨٢ ص ٢١ سنة ١٨٨٢/١٨٨٣ ص ١٨ — ٢١ •

التكنولوجيا البحرية التقليدية التى قامت عليها أهمية عمان الملاحية لم يعد لها وجود بعد سنة ١٨٦٢ ، ولم يكن لدى البحارة العمانيين الخبرة أو رأس المال ، أو التنظيم للتحول الى بناء السفن البخارية • ولم يتمخض هذا عن انعدام الحوافز التجارية لدى الملاحين العمانيين وحسب ، بل والى تجريد مدينة مسقط من أهميتها كمركز للتجميع أيضا • وهكذا تداعت الأسس التى كان يقوم عليها رخاء المدينة والجانب الأكبر من تجارتها ، كنتيجة لمقاطعة بواخر الخطوط الملاحية البخارية لميناء مسقط •

لقد كانت مسقط تعتمد فى ثرائها وأهميتها على مركزها كنقطة لتجميع البضائع واعادة شحنها الى أقطار الخليج الأخرى والموانىء الغربية للمحيط الهندى ، وبالتالى فان مسقط لم تكن تصدر من انتاجها الا بنسبة ضئيلة من السلع المذكورة [١٩] • وقد صادف تدهور مسقط التجارى والاقتصادى ظهور موانىء جديدة على ضفاف الخليج ، الا أنه لم يتسن لأى من الموانىء المذكورة أن يحقق ما حققته مدينة مسقط من الأهمية قبل عام ١٨٦٢ • وربما كان أهم الموانىء الناشئة فى الخليج قبل الحرب العالمية الأولى ميناء أبو شهر ، الذى يربط المنطقة الجنوبية الوسطى من ايران ، ومقر المقيم البريطانى فى الخليج • وقد لمعت لبعض الوقت مدينة بندر عباس الواقعة على الساحل الايرانى الى الجنوب من مضيق هرمز ، كمنطقة للتبــــادل التجارى غطى نشاطها مساحة واسعة من جنوب وسط آسيا ، غير ان الميناء عاد ففقد أهميته فى التسعينيات ، واقتصر نشاطه على تجــارة المنطقــة الجنوبية الشرقية من ايران ، كنتيجة للتغييرات التى طرأت على الجـــو السياسى لمنطقة آسيا الوسطى • كان طبيعيا أن يتمخض ضم روسيا لمنطقة آسيا الوسطى عن زيادة كبيرة فى حجم السلع الروســية المستوردة الى المنطقة ، كما أدى الى تسلل المنتجات الروســية الى الجــزء الشرقى من

---

(١٩) رسالة مؤرخة ١٨٦٤/٨/٢٣ رقم ٤١ من بلى الى اندرســـون ، Precis Commerce ص ٢٩٢٧ •

جدول رقم ١
نمو حركة الملاحة البخارية فى الخليج ، ١٨٦٢ — ١٩٠٤

السنة	الشركة	منطقة التسجيل	الرحلات	الميناء
١٨٦٢	شركة الهند البريطانية	المملكة المتحدة	٨ رحلات سنويا	بومباى
١٨٦٦	شركة الهند البريطانية	المملكة المتحدة	رحلتان شهريا	بومباى
١٨٦٨	شركة الهند البريطانية	المملكة المتحدة	رحلتان شهريا	بومباى
١٨٦٩—٧٩	برشين ميل —	المملكة المتحدة	غير منتظمة	بومباى
١٨٧٠	بومباى أند برشيا	المملكة المتحدة	غير منتظمة	بومباى
١٨٧٠	عمان واوتومان	تركيا	غير منتظمة	اسطنبول
١٨٧٠	أنجلو اربيان وبرشين جلف	المملكة المتحدة	مرة كل شهر	لندن
١٨٧٤	برتش انديا	المملكة المتحدة	اسبوعيا	بومباى
١٨٨٣—٨٥	ملسا جريز ماريتيم	فرنسا	غير منتظمة	مرسيليا
١٨٩٦—٩٧	ملسا جريز ماريتيم	فرنسا	شهريا	بومباى
١٩٠١	رشين أندبرشين جلف	روسيا	شهريا	أوديسا
١٩٠٤	برشين انديا	المملكة المتحدة	اسبوعيا سريع وعادى	بومباى

ايران • وكان هذان العاملان من الأسباب التى أدت الى تخفيض معدل السلع التى ترد من انجلترا عن طريق بندر عباس • كما أن انشاء سكة حديد كويتا — سحستان فى التسعينيات من القرن قد هيأ طريقا بديلا من الهند ، وشرق ايران ، وبلوشستان وأفغانستان • وهناك ميناء ايرانى آخر ازدهر بعض الوقت ، ونعنى به ميناء لنجه الذى ظل لفترة طويلة من الوقت مركزا لتجميع السلع وتوزيعها من البحرين وموانىء ساحل الصلح • وعلى كل فبعد سنة ١٩٠٢ ، هبط مستوى هذا الميناء بسبب القيود الجمركية الخانقة التى كانت تفرضها الحكومة الايرانية ، مما أدى الى اثارة المتاعب فى وجه بندر عباس • ومن ثم بدأت البواخر رحلات مباشرة وان لم تكن منتظمة الى ساحل عمان والبحرين • أما فيما يتعلق بميناء البصرة فى العراق فقد انتعش من جديد بعد فترة من الركود فى منتصف القرن التاسع عشر وذلك لسببين : افتتاح خط البواخر النهرى سنة ١٨٦١ وابتداء شركة الهند البريطانية للملاحة بتسيير رحلاتها الى ميناء البصرة سنة ١٨٦٢ • ومن

الموانىء النامية الأخرى على الخليج فى أواخر القرن التاسع عشر ميناء خور مشهر (المحمرة) عند ملتقى شط العرب ونهر قارون • وقد استفادت المحمرة من افتتاح خط الملاحة النهرى عبر نهر قارون سنة ١٨٨٨ وانشاء خط تجارى يربط بين قارون ، والاهواز وأصفهان فى سنة ١٩٠٠ • وقد أخذت هذه المدينة تجتذب نسبة متزايدة من التجارة حتى أصبحت لفترة من الوقت بعد الحرب العالمية الأولى فى طليعة موانىء الخليج • وفيما يتعلق بالكويت التى كانت المنفذ الى قلب الجزيرة العربية وآسيا الوسطى، فقد غدت فى سنة ١٩٠٠ الفردوس الجديد لما تبقى من خطوط الملاحة البعيدة المدى للأساطيل الشراعية المحلية • غير ان البواخر لم تكن ترسو فيها الا نادرا [٣٠] •

ومن المعقبات الهامة الأخرى للثورة الاقتصادية سنة ١٨٦٢ — ١٨٧٢ سيطرة التجار الهنود على الجانب الأكبر من النشاط التجارى لمدن الخليج • فقد ظل الهنود لمئات السنين عاملا هاما فى اقتصاديات المنطقة ، حتى أنهم كادوا أن يحتكروا التجارة المحلية بعد الستينيات من القرن التاسع عشر • أما التجار العرب والفرس فقد كانوا مرتبطين أكثر بتجارة التوزيع التى كانت سائدة قبل عام ١٨٦٢ ، بحكم افتقارهم الى الخبرة ، والامكانات والمرونة التجارية للتكيف مع الأوضاع الجديدة • أما الهنود فبحكم صلتهم بشبه القارة والتسهيلات الائتمانية التى كانوا يتمتعون بها هناك استطاعوا التغلب على الصعوبات التى واجهوها فى البداية ، بالاضافة الى استغلال الفرص التى أتاحتها لهم الأساليب التجارية العصرية والمواصلات •

والواقع ان الهنود أخذوا يعملون كوسطاء تجاريين بين عرب الخليج

---

(٣٠) التجارة : تأليف : انستى ص ٢٤ — ٢٥ و Precis Commerce من ص ٤٤ الى ص ٥٧ • وتقرير ادارى ١٩٠٠ — ١٩٠١ ، ص ٩٨ — ٩٩ •

ورجال الأعمال الأوربيين الذين كانوا يشرفون على تطوير الهند ، وأصبحوا المسيطرين على التجارة فى نهاية الأمر .

لم يكن البخار هو التجديد الوحيد الذى طرأ على وسائل المواصلات فى الخليج فى الستينيات من القرن التاسع عشر ، بل شهدت المنطقة ادخال الخطوط التلغرافية فى نفس الفترة . ويعتبر انشاء هذه الخطوط المائيـة منها والسطحية ، احدى المنجزات الهامة التى يعـود الفضـل فيها الى مشروع خطوط المواصلات النهرية عبـر الفرات فى الفترة الواقعـة بين الثلاثينيات والخمسينيات من القرن . فقد هيأ انشاء تلك الخطـوط فى الستينيات من القرن التاسع عشر أى فى أعقاب الثورة الهندية سرعة نقل المعلومات بين بريطانيا وأوربا من ناحية والهند من ناحية أخرى ، كما هيأ حفر قناة السويس مرور الركاب ، والجنود والمعدات عن طريقها . وقد مر مشروع مد الخطوط التلغرافية بين الهند وأوربا فى مرحلتين المرحـلة السياسية التى سبقت تنفيذ المشروع والمرحلة الثانية التى تم فيها مـد هذه الخطوط .

كانت أول محاولة لربط الهند بأوربا عن طريق الخطـوط التلغرافية سنة ١٨٥٩ — ٦٠ وقامت بها « شركة التلغراف الى الهند » — Telegrafh To India Co. وكانت تنوى مد أسلاك تحت مياه البحر عن طريق يمر بالبحر الأحمر والبحر العربى الى الهند ، مع انشاء محطات مراقبة للخط فى كل من عدن ، وجزر كوريا موريا ، ومسقط وموفز (بالقرب من مدينة كراتشى). ومن سوء الحظ ان الخبرة الفنية والامكانات المالية لم تكن متوفرة للشركة المتبنية للمشروع . وبعد تعطل الخطوط أكثر من مرة ، فشل المشروع وعلى كل حال فان حاجة الحكومة البريطانية الى الخطوط التلغرافية المذكـورة جعلتها تفكر فى تجربة طريق آخر لمد الخطوط يجمع بين المناطق البـرية والبحرية .

وكان أصلح الطرق لهذا الخط يمر عبر الخليج العــربى • وما بين سنة ١٨٦١ وسنة ١٨٦٥ دارت مفاوضات بين بريطانيا ومختلف الحكومات والرؤساء الذين يمر الخط التلغرافى فى أراضيهم • وقد انتهى الأمر بابرام اتفاقيات مع حكومات تركيا ، وعمان ، وايران ، بينما تم عقد مجموعة من المعاهدات الاضافية مع رؤساء العشائر فى سواحل مكران وبلوشستان • وبطبيعة الحال تعهدت بريطانيا بدفع مكافآت مالية الى رؤساء هذه الامارات نظير تعهدهم بتوفير القوى العاملة والحماية المسلحة للخطوط التلغرافية فى أراضيهم • وقد استدعى ذلك فرض السيطرة البريطانية على منطقــة بلوشستان حتى يمكن تأمين الخطوط السطحية للمواصــلات التلغرافيــة • وكان وجود شبكة واسعة من خطوط المواصلات من المنشآت الخاصـــة بالخطوط التلغرافية فى الفترة الواقعة بين سنة ١٨٦٣ وسنة ١٨٦٥ • ثم ضمت هذه الخطوط الى الخط التلغرافى العثمانى فى بغداد ، وغدت امتدادا للشبكة الأوربية الموسعة عبر مدينة اسطامبول • وفى عام ١٨٦٥ أضيفت طهران وغيرها من المدن الايرانية الى نظام الخطوط الأوربية الهندية عن طريق ايصالها بخطوط أبو شهر وبغداد • ومن هنا امتدت هذه الخطوط فى أواخر الأمر الى أوربا عن طريق شبكة الخطوط التلغرافية الروسية • على الرغم من أن الغرض الأســاسى من مد الخط التلغرافى بين الهنـد وانجلترا ، هو التقريب بين أرجاء الامبراطورية البريطانية ، فقد كان له تأثيره على أحوال الخليج • كذلك فان وضع المقيمين من رعايا بريطانيا فى الخليج أخذ يخضع لرقابة أشد من جانب المسؤولين البريطانيين فى الهند • كما تم تدعيم نفوذ حكومات القاجار على الامبراطورية الايرانية بما فيها الموانىء الخاضعة للادارة الواهية — أما على الجانب العربى من الخليج فلم تكن توجد تسهيلات تلغرافية قبل أن يتم مد خط جاشك — مسقط ـ سنة ١٩٠١ ، وبالتالى لم يكن لتلك التسهيلات أى أثر فى محاولات حكام الامارات السيطرة على مناطقهم • ومن ناحية أخرى ، فان التجار العرب

والهنود منهم على الأخص قد استفادوا من التسهيلات الجديدة فى ممارسة نشاطهم التجارى من حيث عامل السرعة[٢١] .

ومن أهم الفوائد التى حققتها المواصلات الجديدة كنتيجة لتسيير البواخر ، هو انشاء الخدمات البريدية . فقبل سنة ١٨٦٢ كان الخطـاب المرسل من بغداد الى الهند يمر عادة عن طريق سـوريا ، ومصر ، ومنهما بالسفن عبر البحرين العربى والأحمر . كما كان البريد المرسل من أبو شهر الى الهند يمر عن نفس الطريق بعد مروره أولا ببغداد عن طريق طهران . ويعود ذلك الى عدم انتظام حركة النقل ، ولكنه يعود بالدرجة الأولى الى عدم توفر الأمان للرحلات المتبادلة بين الهند والخليج قبل بدء البواخر لرحلاتها المنتظمة عبر المنطقة . وكان من الطبيعى أن يستغرق وصـول الخطاب الى الجهة المرسل اليها عدة شهور . وعلى كل فبعد سنة ١٨٦٤ ، افتتحت حكومة الهند مكاتب بريد لتعزيز مراكزها الدبلوماسية فى مسقط ، وأبو شهر ، والبصرة وقد خفضت الخدمات البريدية الوقت اللازم لوصول الرسائل بين الخليج والهند الى بضعة أسابيع فقط . وفى أواخر القـرن التاسع عشر كان نظام البريد الهندى — البريطانى هو الجهـاز البريدى المنظم الوحيد فى الخليج ، وكما هو الشأن بالنسبة للمواصلات التلغرافية التى أدخلت الى المنطقة ، كان لانشاء مكاتب البريد انعكاساتها السياسية والاقتصادية على أوضاع المنطقة .

---

(٢١) يعتبر بحث السرافة . ج . جولد سمد بعنوان « التلغراف والاسفار » من أحسن البحوث التى تناولت عملية مد الخط التلغراق بين بريطانيا والهند : وهو عرض عن انشاء وتطوير المواصلات التلغرافية بين انجلترا والهند (طبعة لندن سنة ١٨٧٤) راجع كذلك Precis Commerce ص ٢٧ ومن ص ٦٧ الى ص ٦٨ و « الخليج الفارسى » تاليف : ولسون من ص ٢٦٦ الى ص ٢٦٩ كذلك راجع ايتشسون — سنة ١٨٩٢ للاطلاع على المعاهدات الخاصة بالخطوط التلغرافية مجـلد ٩ ص ٧٤ ، ٣٦٤ — ٣٩٥ ، ٤٠١ — ٤٠٦ ومجـلد ١٠ ص ٧٦ و ٨٠ — ٩٣ و ١٣٧ ومجلد ١١ ص ٢٦ — ٣٠ .

سبق أن أشرنا الى نمو الحركة التجارية فى الخليج بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٧٢ ، وكيف أنه بالرغم من ذلك اعتبر التحول الاقتصادى من أكثر الأحداث ثورية فى تلك المرحلة • وكان تدهور نظام التجميع والتوزيع ، وانهيار الوضع الاقتصادى لمدينة مسقط ، وتوقف صناعة السفن المحلية حصيلة لذلك الانقلاب • ومن سوء حظ المنطقة أن المرحلة الجديدة فى حياتها لم يواكبها نمو اقتصادى سريع وثابت • فلقد اعتقد فرير وبلى أن الثورة الاقتصادية فى الستينات من القرن التاسع عشر • لابد وأن تصطحبها مرحلة طويلة وسريعة من التنمية الاقتصادية الشاملة والتنظيم العصرى • وكان من رأى بلى أن أقطار المنطقة سوف يهمها ، بل وستكون قادرة على استيعاب التكنولوجيا الحديثة • ويبدو أنه قد أغفل تعقيدات المرحلة التى كان يتم فيها ذلك التحول • الأمر الذى حال دون الهدف • أما ان سكان الخليج لم يرحبوا بالمظاهر العصرية للحياة ، وأنهم ، فى الواقع ، ظلوا متمسكين بالقيم والتقاليد والأساليب التى عاشوا عليها تمسكا شديدا ، فان هذا لم يتصوره بلى •

الركود الاقتصادى ، ١٨٧٢ — ١٩١٤ : من سوء حظ الخليج ان التطور الاقتصادى فيه لم يكن سريعا وشاملا خلال الفترة الواقعة بين سنة ١٨٧٢ والحرب العالمية الأولى • وبالتالى فان الآمال التى كانت تراود المهتمين ما بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٧٢ لم يكتب لها النجاح • وباستثناء بعض الحالات فان كل مناطق الخليج أخذت تعانى من ركود اقتصادى طويل ، أو بالأحرى تدهور امتد حتى سنوات الحرب الأولى واستمر حتى الحرب العالمية الثانية بل ما يزال مستمرا حتى الآن فى بعض المناطق التى لم يتفجر فيها البترول • وقد ساهم الجو السياسى المضطرب • فى أواخر القرن التاسع عشر فى خلق تلك الأوضاع • فلقد كانت الاضطرابات السياسية طابع الأوضاع فى داخل شبه الجزيرة العربية التى غدت مسرحاً لصراع

---

(٢٢) لوريمر مجلد ١ ص ٢٣٨ ، و « الخليج الفارسى » تأليف : ولسون من ص ٢٦٤ الى ٢٦٦ •

قبلى مرير • وعلى الأخص بين السعوديين وقوات ابن رشـيد • كمـا ان موقف السلطات العثمانية وضعفها كانا من العـوامل التى سـاعدت على الاستثمارات الأجنبية فى العراق • وكذلك ايران التى كانت تتركز فيها نصف تجارة الخليج ، كانت هى الأخرى ضحية لسياسة حكومة مركزية ضـعيفة وفاسدة وجشعة فضلا عن وجود فوضى قبلية فى مناطقها الريفيـة • ومن ناحية أخرى فقد كان لوجود مصالح امبريالية غربية متزايدة دور فى طمس الصورة الحقيقية للأوضاع فى الخليج والمناطق المجاورة له • ومن ناحيـة أخرى أدى الصراع السياسى بين روسيا وبريطانيـا فى ايران الى زيادة المفواجع الاقتصادية للامبراطورية القاجارية • فلم تـكن أى من الدولتين ترغب فى أن تكون للأخرى اليد الطولى فى المنطقة ، وبالتالى كان كل منهما يعمل على سد الطريق فى وجه الآخر ومنعه من توسيع نطاق مصـالحه التجارية أو الاستئثار بامتيازات استغلال الموارد الطبيعية فيها • وخوفا من أن تحقق احدى الدولتين مكاسب على حساب الأخرى اتفقتا أخيرا على وقف انشاء خطوط حديدية طويلة فى البلاد [٢٣] • وكان الخاسر الأكبر فى هذه اللعبة هو ايران طبعاً ، فضلا عما ألحقته هذه المؤامرات من ضرر بتجارة ايران • وقد ازدهر ميناء المحمرة بفضل رحلات البواخر التى بدأت سـنة ١٨٨٨ عبر نهر قارون • ويعد هذا دليلا على ما يمـكن أن يحققـه الخليج بأسره من خلال التحسينات التى تم ادخالها على وسائل المواصلات • ومن المؤكد ان رداءة الطرق التجارية بين داخلية أقطار الخليج وموانئها ، وحاجة تلك الطرق الى الاصلاح والتطوير ، وقفت عائقا أمام تطور التجارة وسببا رئيسيا لتردى الأحوال الاقتصادية للمنطقة بعد سنة ١٨٧٢ •

أشرنا الى أن القيمة التقديرية للتجارة البحرية البعيدة المدى للخليج سنة ١٨٦٦ قد بلغت ٠٠٠ر٠٠٠ر٥ ج • س • وفى عام ١٨٦٩ ، بعد الانتعاش من أزمة سنة ١٨٦٥ — سنة ١٨٦٨ ارتفع مجمـوع القيمـة التقديرية الى

---

(٢٣) الدبلوماسية ، تأليف : هورتز جزء ١ ص ٢٠٧ .

٦٠٠٠ر٠٠٠ر٦ ج ٠ س ٠ ويتضح الكساد التجارى والركود الاقتصادى فى الخليج من خلال تجارة المنطقة البعيدة المدى لسنة ١٨٩٩ التى لم تتجاوز نفس النسبة أى ٦٠٠٠ر٠٠٠ر٦ ج ٠ س ٠ [٢٤] ٠ على أن التوسع المطرد فى الرحلات الملاحية لأواخر القرن التاسع عشر ، قد ضاعفت فى الأزمة من بعض الوجوه ٠ وفى أوائل الثمانينات من القرن التاسع عشر كانت البواخر البريطانية والأوربية تغرق المنطقة بوارداتها ٠ وفى سنة ١٨٨٣ تكدست البضائع فى الموانىء الايرانية بانتظار وصول القوافل التى تنقلها الى داخل المنطقة ٠ ومن الطبيعى أن يسفر هذا التكدس عن هبوط دورى فى أسعار تلك البضائع [٢٥] ٠ وفى التسعينيات من القرن التاسع عشر كانت عبارة « السنة الحالية لم تكن ملائمة للعمليات التجارية » تتكرر كثيرا فى التقارير الرسمية البريطانية من خلال استعراضها للنشاط التجارى السنوى فى الخليج ٠

وما بين سنة ١٨٧٢ وسنة ١٩٠٢ ظلت أرقام تجارة ايران ، ومنطقة جنوب آسيا الوسطى ، والعراق ، والأناضول ، وشرقى شبه الجزيرة العربية — وجميع المناطق التى تزودها موانىء الخليج من وقت لآخر ، ظلت فى ارتفاع مطرد وان لم يكن مثيرا ، غير أن نصيب الخليج من تلك الزيادة لم يكن كبيرا ٠ ففى سنة ١٨٩٠ كانت بريطانيا وروسيا تسيطران على ٤٠ بالمئة من تجارة ايران الخارجية ، بينما كان نصيب روسيا وحدها من التجارة المذكورة قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى ٦٠ بالمئة ٠ بينما لم تكن حصة بريطانيا تزيد عن ٢١ بالمئة ٠ واذا كانت تجارة بريطانيا كلها تقريبا مع ايران ، تمر عن طريق الخليج العربى ، فان أرقام تجارة الخليج عن كل الفترة ، كانت مشجعة ، وكانت نسبة هذه التجارة فى سنة ١٩١٤ أقل

---

(٢٤) نفس المصدر ص ٢٢٧ ٠

(٢٥) تقرير ادارى سنة ١٨٨١ — سنة ١٨٨٢ ص ٢١ وتقرير ادارى سنة ١٨٨٢ — ١٨٨٣ ص ١٨ — ٢١ ٠

منها فى سنة ١٨٩٠ مما يدل على أن نشاط الخليج الاقتصادى نسبيا لم يكن راكدا وحسب ، بل ومتدهور أيضا خلال تلك الفترة .

ومن المؤكد أن المنطقة الداخلية من ايران قد شهدت توسعا اقتصاديا ، غير أن الجانب الأكبر من تلك التجـارة كان يصلها عن طـريق الخليج . وباستثناء فترات متقطعة وغير مضمونة من الانتعـاش المحلى ، ترجـع أسبابها الى وفرة غير عادية فى حاصلات المنطقة من البلح ، أو الحبوب ، أو اللؤلؤ ، أو الى تصاعد غير عادى فى تجارة السـلع الواردة كالأسـلحة والذهب ، فان انتعاش المنطقة لم يبدأ فى الحقيقة قبل اكتشـاف النفط فى أراضيها (٢٦) .

على الرغم من ان بعض موانىء الخليج والمجموعات التجارية قـد استفادت من التحول الذى صاحب التغييرات الاقتصادية ، فان النظـام الملاحى والتجارى القديم لم يسترد قوته نتيجـة للنشاطات الاقتصـادية الحديثة . كما أن المنطقة لم تشهد تقدما زراعيا واسعا أو حركة شـاملة لاكتشاف الثروات المعدنية ، التى تعتبر من العوامل الأسـاسية للحيـاة الحضارية فى المناطق الاستوائية أو شبه الاستوائية قبل عصر البترول . وعلى أى حال فان النشاط التكنولوجى الحديث الذى بدأت تشهده المنطقة خلال الفترة المذكورة ــ كالبخار والتلغراف ــ كان تحت اشراف العناصر الأوربية . وعلى أية حال ففى الفترة الواقعة بين سنة ١٨٦٢ ، سنة ١٩١٤ توفر عدد من الشروط اللازمة لهذا النشاط ، مما كان له تأثيره على مجرى الأمور ، مثل عملية ادخال مظاهر الحياة العصرية الى المنطقة التى بدأت مع

---

(٢٦) التجارة ، تأليف انيستى ص ٢٢ ــ ٢٤ . وزارة الجمارك والبريد ــ اللائحة العمومية للتجارة مع البلاد الأجنبية (طهران ١٩٠٢) و « التطـور الاقتصادى ومشكلاته فى ايران » ، تأليف سوتوده (طبعة باريس ١٩٣٦) . ان احسن صورة لركود الحركة التجارية فى الخليج خلال القرن التاسـع عشر هى ما ورد فى التقارير الادارية المختلفة من ١٨٧٦ الى ١٩٠٤ وفى
Precis Commerce

بداية استغلال موارد النفط المحلية قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة • ان النظام القديم الذى كان يقوم على أساس تحكم منطقة اقليمية واحـــدة ، وعلى تحركات وحسابات رجال البحر العرب وتجارهم ، قد انهار ، وانحدر الخليج من مركزه الأول الى وضع المنطقة التابعة لمصالح الدول الغربية ، وفى مقدمتها بريطانيا • على أننا سوف نعود الى شرح هذه الآراء العـــامة بتفصيل أكثر فى الفصل التالى من الكتاب ، حيث سنناقش التغييرات التى طرأت على البناء الاقتصادى فى عمان فى أواخر القرن التاسع عشر •

الفصل الرابع

التغيرات الاقتصادية في أواخر القرن التاسع عشر

ان مضاعفات المراحل الأولى للتطور الاقتصـــادى والتكنولوجى فى الخليج يمكن تقييمها من الوجهة الانسانية على ضوء الأحداث التى شهدتها عمان فى أواخر القرن التاسع عشر • فخلال تلك المرحلة ، وعلى الرغم من التغييرات الاقتصادية العميقة التى سادت القطر العمانى ، نجد البلاد لم تحقق أى تطور اقتصـــادى هام • ولا يوجـــد قطر فى الخليج أضرت به التطورات الاقتصادية لأواخر القرن التاســع عشر كعمـــان • فدخـــول المواصلات الحديثة الى البلاد بوجه خاص قد قوض البيئة الاقتصـــادية القائمة يومئذ فى الجزء الساحلى من عمان • وحتى فى فترة تصاعد الطلب على القطن فى أوائل الستينات من القرن التاسع عشر ، منيت عمان بتدهور اقتصادى لم تتخلص من آثاره حتى اليوم ، هـــذا على الرغم من ازدهار الأقطار الأخرى فى الخليج فى نفس الفترة • فمن ذروة المركز الاقتصادى والتجارى القديم الذى كانت تحتله عمان بين أقطار المنطقة الغربيـــة من المحيط الهندى ، تدهورت أوضاعها خلال سنوات قليلة • أما الآن فمـــع اكتشاف حقول غنية بالنفط ووضع الخطط لاستغلالها أصبح من المحتمل أن تستعيد البلاد بعض ما فقدته من الأهمية والازدهار • ولكن حتى يأتى ذلك اليوم ويترتب على استغلال حقول النفط تطور اقتصادى يسهم فى تغييـــر أوضاع البلاد ، فان عمان سوف تبقى مثلا صارخا لبلد عانى كثيراً ، ولكنه لم ينتفع من معطيات التطور الحديث •

وضع الاقتصاد العمانى فى سنة ١٨٥٦

سبق ان أشرنا الى أن تفاصيل حياة العمـــانيين وتاريخهم كانت فى معظمها انعكاساً للصراع بين عناصر الوحدة ، وعنـــاصر التنـــوع ، وهى

العناصر التى كانت العامل فى توحيد أو تجزئة البلاد الى منطقتين ساحلية وداخلية . ولقد طبعت هذه الأوضاع ، التى تتمثل فى التوتر ، أو الوحدة ، أو التنوع بين الجزئين من البلاد ، الحياة الاقتصادية من عمـان بطابعها الخاص خلال الفترة التى توفى فيها السلطان سعيد . والواقع كان فى عمان نوعان من الاقتصاد ، أحدهما خاص بالمنطقة الداخلية ، ونوع آخر خاص بالمناطق الساحلية المجاورة لميناء مسقط . وقد مر اقتصاد المنطقة الساحلية وتوابعها بتغييرات جذرية بفضل انتشار التكنولوجيا والمؤسسات الاقتصادية الحديثة فى الخليج بعد عام ١٨٦٢ ، بينما ظل اقتصاد المنطقة الداخلية من عمان على حالته الأولى ، غير متأثر بالأوضاع الجديدة .

فى عام ١٨٥٦ كانت هناك عوامل كثيرة تتحكم فى النشاط الاقتصادى للمنطقة،وهى العوامل التى تضافرت لتجعل من الاقتصاد العمانى اقتصادا زراعيا يقوم على الاكتفاء الذاتى واقتسام ما كان يعتبر موردا دائما ، وان كان شحيحا للمواد الاستهلاكية . لقد كانت الحواجز الجغرافية ، كسلاسل الجبال والصحراء بوجه عام تعوق نمو التطلعات الاقتصادية نحـو العالم الخارجى وتفرض قيودا رهيبة على رؤيا أهل عمان للعالم ، وبالتالى كانت حركة سكان المنطقة تخضع للقيـود التى فرضتها العـزلة الجغرافيـة ، والمواصلات البدائية التى تعتمد على الجمـال . فبالاضـافة الى النظرة الضيقة لأهل عمان فأنهم يخضعون لايديولوجيـة محافظـة جدا . وكان المجتمع العمانى مجتمعا متحجرا جدا وموجها نحو غرض واحد الا وهـو المحافظة على البيئة الأباضية المحافظة . وكان الرأى الغالب بين أهل عمان هو أن الغاية من النشاط الانسانى هى تحقيق الخلاص الأبدى للفرد ، بدلا من الجرى وراء متع دنيوية تافهة وحياة فانية ، أما فكر الفرد العمانى فقد كان محصورا كله فيما يستطيع أن يحصل عليه من النخـل ، والجمـال ، والأغنام ، والجوارى والزوجات . وحتى هذه المقتنيات لا ينبغى أن تكون

على حساب القيم الروحية ، والتمسك بما جاء فى الكتاب ، بل وفى حدود ما تسمح به الشريعة الأباضية التى تحرم اكتناز المال ، ومن ثم فان نشاط سكان الجزء الداخلى من عمان كان مكرسا للشؤون الروحية ومطالب الأسرة ، والسياسات المحلية • وكل الجهد المبذول فى الناحية الاقتصادية ينحصر فى الدرجة الأولى برحلات الى الأسواق المحلية ، أو برحلات نادرة الى المراكز التجارية بحثا عن المواد المعيشية الضرورية التى لا يمكن انتاجها فى الداخل • وفضلا عن ذلك فان رؤساء القبائل وغيرهم من زعماء عمان الداخلية لم يكونوا يفكرون فى شىء أكثر من الحصول على اللوازم الاقتصادية للمعيشة ، هذا على الرغم من انهم لا يدخرون وسعا فى دعم مركزهم السياسى القبلى ، بل وعلى استعداد لأن يموتوا فى سبيل العقيدة الأباضية اذا ما تطلب الأمر •

ان المذهب الأباضى المحافظ فى الوقت الذى كان يهتم كثيرا بضمان توزيع عادل للسلع ، لم تكن لديه حلول لمعالجة الندرة المزمنة للموارد الاقتصادية • فالنشاط الاقتصادى فى داخلية عمان كان يهدف فى المقام الأول الى المحافظة على وجود الفرد ، وعلى تعليمه وخلاصه الروحى • لأن الاقتصاد ليس غاية فى حد ذاته • وان تناقض هذا المفهوم الاقتصادى مع المفهوم الاقتصادى فى مسقط والموانىء والمناطق التابعة لها ، لهو تناقض صارخ جدا •

أما الاقتصاد فى المنطقة الساحلية فعلى خلاف التنظيمات الاقتصادية القائمة فى المقاطعات الداخلية من البلاد يخضع لمجموعة من العوامل المعقدة • ولما كانت سواحل مسقط تشكل طريقا يربط موانئها وموانىء عمان الأخرى بالأقطار الواقعة على شواطىء المحيط الهندى فان سكان هذه المناطق يتمتعون بفرص تجارية كثيرة ويحتكون بالشعوب والحضارات الأخرى • لقد كانت الضفاف الغربية للمحيط الهندى تعتبر بنظر العمانى من سكان الساحل هى العالم كله ، وبالتالى لم تكن نظرته الى العالم محصورة فى نطاق سفوح الجبال والوديان حيث يقيم العمانى الداخلى • واما من حيث

التكنولوجيا الملاحية فقد كان العمانيون سكان الساحل فى سنة ١٨٥٦ يتمتعون بقسط كبير من النشاط ٠ فاذا كانت الأحوال الجوية مؤاتية يكون بوسع هؤلاء العمانيين أن يبحروا بسفنهم من زنجبار الى مسقط فى بحر أسبوعين ، أو من مسقط الى عدن أو بومبى فى ظرف اثنى عشر يوما ٠ وبسبب الروابط الوثيقة بين سكان الساحل والهند ، فقد كانت أحداث الهند وعلى الأخص الاقتصادية منها تؤثر بدورها على عمان ٠ وعلى عكس الاقتصاد الزراعى المعيشى فى داخلية عمان كان اقتصاد المنطقة الساحلية فى سنة ١٨٥٦ اقتصادا يقوم على المنافسة ، وعلى تجارة المسافات الطويلة ، وتبادل السلع والمنتجات بين منطقته والأقطار الأخرى ٠ فهو بالتالى اقتصاد وسطاء ، يعتمد فى نجاحه على نقل السلع المستوردة من منطقة عرض المحيط الهندى أو المصنوعة فيها الى المناطق المجاورة لها ٠

ومن الناحية الاجتماعية ، كانت مسقط مجتمعا متفتحا يركز اهتمامه على النشاط التجارى ٠ كما كان التعايش الاجتماعى داخل السلطنة بين التجار والملاحين الأباضيين من سكان البلاد ، والتجار الهنود ، والصناع اليهود والعمال البلوشستانيين ، والبحارة والحرفيين من الشيعة ظاهرة مألوفة ٠ ومع هذا فان ذلك كله لم يمنع مسقط من أن تكون بلدا عمانيا وأباضيا فى نفس الوقت ٠ لقد كانت الأباضية فى مسقط ، شأنها فى بقية البلاد العمانية عقيدة محافظة ، غير انها فى مسقط ، وبحكم المؤثرات الخارجية كانت متسامحة وأقل تطرفا منها فى داخلية عمان ٠ وكان أباضيو مسقط فى هذه الفترة متمسكين بمعتقداتهم التقليدية فيما يتصل بموقفهم من العلوم وطبيعة الكون ، كما كانوا يخضعون لنفس الاعتبارات الدينية التى كان يخضع لها سكان المنطقة الداخلية ٠ ورغم ذلك فقد كان العمانيون فى الساحل يعانون ، على ما يبدو ، من بعض التوتر وعدم التوازن كنتيجة للصدام بين الانغلاق الأباضى والاهتمامات العملية لمجتمعهم الذى يعتمد على النشاط التجارى والتجارة الخارجية ٠ ومن ثم فقد كانت الأباضية فى الساحل أقل تزمتا وانغلاقا منها فى الداخل بدليل انها كانت تشتمل على

تيارين : التيار الروحى الدينى ، والتيار العملى الدنيوى بينما كان هذان التياران فى داخلية عمان متداخلين ومختلطين الى حد كبير ، وذلك بحكم تغلب النزعة الروحية بوجه عام على أفرادهما . أما فى الجزء الساحلى من البلاد فان اهتمام الناس بالجوانب المادية الى جانب النزعة الدينية للمجتمع كان يسبب لهم بعض المتاعب النفسية .

ان مفهوم سكان الساحل للثروة أكثر تعقيدا من مفهوم اخوانهم لها فى المنطقة الجبلية . ولئن كانت زراعة البلح هى الاستثمارات المفضلة فى كل من المنطقتين ، فان الاستثمارات النقدية ، والملاحية ، والأعمال التجارية ، والتجارة الخارجية ، عند التجار الهنود على الأقل ، تعتبر مصـدرا هاما للنشاط الاقتصادى فى عمان الساحلية . كما ان سكان هذه المنطقة لم يكونوا مرتبطين ، كسكان الداخل بالمراتب الأدنى للامكانيات المادية . ومن هنـا كانت الفجوة واسعة بين الساحل والداخل فى موقف كل جزء منهما تجـاه المؤسسات الاقتصادية . ففى الساحل كان رجل التجارة والنشاط التجارى له احترامه ومكانته فى المجتمع . ويعتبر الحاكم السيد سعيد أكبر رأسمالى فى منطقة الساحل . فقد كان يملك أسطولا كبيرا من السفن ومجموعة كبيرة من المزارع . كما كانت الحكومة تشجع الأعمال التجـارية بكل امكانياتها لدرجة انها كانت ترحب بالتجار الأجانب الذين أخذوا يلعبون دورا متزايدا فى تجارة البلاد وتهيىء لهم الحماية اللازمة . وكنتيجة لازدياد النفـوذ البريطانى فى المنطقة الغربية من المحيط الهندى ، أخذ سلطان حكام مسقط فى توجيه النشاط الاقتصادى والسياسى فى الخليج لصالح عمان يضعف . ويعود الفضل فى المركز التجارى الذى كانت تحتله سلطنة مسقط فى القرنين السابع عشر والثامن عشر الى امكانياتها الواسعة فى ميـدان المنافسـة التجارية ، مما هيأ لها أن تحتل مركزا مرموقا بين دول الخليج . وهـكذا يصبح التنافس الحاد فى سبيل السيطرة على الامكانيات التجـارية ، من المميزات الأساسية للقوى التقليدية فى منطقة الخليج فى تلك المرحـلة . الا انه فى أعقاب معاهدة الصلح البحرى التى فرضتها بريطانيا فرضا على

حكومات الخليج اختفى هذا النشاط من الوجود . وربما كان هذا أحد الأسباب التى دفعت بعدد كبير من تجار عمان وعلى رأسهم السلطان سعيد بعد العشرينات من القرن التاسع عشر الى نقل نشاطهم التجارى الى زنجبار وافريقيا حيث لم تكن توجد دولة أوربية قوية تحول بينهم وبين ممارسة أعمالهم التجارية .

الركود الاقتصادى ، ١٨٦٢ — ١٩٠٠

اقتصرت التغييرات التى مر بها الاقتصاد العمانى فى أعقاب وفاة السلطان سعيد سنة ١٨٥٦ فى الدرجة الأولى على النصف الساحلى من البلاد . فبعد سنة ١٨٥٦ تعرضت عمان لموجة عنيفة من الركود الاقتصادى أعقبتها فترة جمود اقتصادى طويلة . وثمة أسباب عديدة للسرعة والخطورة التى حدث بهذا التدهور الاقتصادى فى الجزء الساحلى من البلاد لعل أهمها الاضطرابات السياسية التى اجتاحت عمان بعد سنة ١٨٥٦ . وفى مقدمتها الحرب الأهلية التى نشبت للاستيلاء على السلطة بين ورثة سعيد وأخذت تهدد الامبراطورية العمانية كلها بالتمزق والانهيار . ولقد أخذت غيوم الحرب تتجمع بعد أن فرض البريطانيون عام ١٨٦١ مشروع تقسيم المملكة التى خلفها سعيد بن سلطان الى دولتين : دولة آسيوية مستقلة عاصمتها مسقط ، ودولة افريقية مستقلة عاصمتها زنجبار . غير ان الحل الذى فرضته حكومة الهند البريطانية للمشكلة كان أسوأ من المشكلة نفسها من وجوه عديدة ، فالتقسيم شطر دولة قائمة وموحدة وصفها أحد المراقبين البريطانيين « بالدولة البحرية الأولى » كما قوض اقتصاد هذه الدولة ووحدتها السياسية ، وأسهم بالتالى فى اضعاف النشاط التجارى للملاحين العمانيين ويرى بلى بأن التقسيم كسبب فى تقويض دعائم الاقتصاد العمانى فى الستينات من القرن التاسع عشر ، لا يضارعه فى الأهمية سوى ادخال خط الملاحة التجارية الى المنطقة . ان وقوع مسقط فى قبضة مجموعة من الأباضيين المتزمتين من سكان المنطقة الداخلية يعتبر السبب الرئيسى فى

تفجير الاضطرابات السياسية التى كانت من أخطر عوامل تدمير الاقتصاد العمانى . كذلك فان المحاولات التى بذلت ما بين سنة ١٨٦٨ وسنة ١٨٧١ لبعث نظام الامامة المترمتة قد ضاعفت من الكارثة الاقتصادية فى البلاد . ان حماس المتطرفين الأباضيين لفرض مفاهيمهم الشكلية للتقوى ، كان على حساب التسامح الاجتماعى لسكان النصف الساحلى من عمان ، كما قضى على البقية الباقية من تجارة المنطقة لدرجة كان يخشى معها أن تتحول هذه البلاد الى قرية مهجورة من قرى الصيادين [١] . وخلال الفترة التى سيطر فيها هؤلاء المتطرفون ، أصبح التجار المتمتعون بالحماية البريطانيـــة فى وضع لا يحسدون عليه ، مما اضطر عدد كبير منهم الى مغادرة البلاد ونقل ممتلكاتهم وتجارتهم ، أما البعض الآخر ممن مضى عليه فى البلاد سنوات كثيرة فقد أخذوا يغادرون مسقط الى موانىء أخرى . ومن هؤلاء التاجر صاحب السفينة كلكتا مارشنت (Calcutta Merchant) وهو من أصل هنـــدى وكان قد مضى على اقامته بالبلاد حوالى خمسين سنة ، فقد حمل معـــه أمتعته وغادر مسقط الى زنجبار . أما التجار الهنود الأقــل حظــا من الثروة ، والذين يملكون بعض العقارات والمحـــال التجارية ، ولم تـــكن امكانياتهم المادية تسمح لهم بمغادرة البلاد فقد استنجدوا بالســـلطات البريطانية لتحميهم من المتطرفين القـــادمين من الداخـــل والذين كانوا يهددونهم فى معيشتهم . وعندما تمكن السلطان تركى بن سعيد فى ســـنة ١٨٧١ من طرد المتطرفين العمانيين من مسقط استعادت البـــلاد سياستها التقليدية القائمة على تشجيع التجارة [٢] .

لقد مر المناخ الاقتصادى فى المنطقة الغربية من المحيط الهندى ، وفى

---

(١) رسالة رقم ٢٩٧ مؤرخة ١٨٦٩/١٢/٩ من دسبراو الى جاون راجع ايضا سجلات حكومة الهند المتعلقة بمسقط — الجزء الثانى — المجد ال .

(٢) رسالة رقم ٤٦٤ صادرة من مسقط بتاريخ ١٨٦٩/٨/١١ من دسبراو الى جاون وأخرى رقم ٦٨٣ بتاريخ ١٨٦٩/١١/٢٥ من سجلات حكومة الهنـــد جزء ١ مجلد ال .

الخليج العربى بتغييرات جذرية فى الستينات من القرن التاسع عشر .
ويبدو واضحا من هذا ان أى محاولة من جانب حكومة مسقط لتشجيع التجارة لم يكن فى وسعها أن تعيد الى البلاد ما فقدته من امكانيات تجارية . وبنجاح حركة البواخر فى أوائل الستينات من القرن التاسع عشر ، وافتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ لم يعد لوجود مركز لتجميع السلع فى الخليج أى أهمية . وبالتالى تحتم على مسقط أن تقنع بوجودها كميناء من الموانىء التى تستقبل السفن البخارية فى الخليج . وبمرور الوقت وكنتيجة للمنافسة القوية من جانب شركات الملاحة التجارية فقدت مسقط ما تبقى لها من أهمية . وهكذا لم يتبق لأصحاب السفن التجارية فى مسقط فى أوائل سنة ١٨٦٤ الا النزر اليسير من النشاط التجارى الذى كان يقتصر على نقل الملح من بندر عباس والبلح من عمان الى الهند . وقد تمخض هذا الوضع عن انخفاض فى نسبة دخل الجمارك الذى كان يشكل مصدرا هاما من مصادر دخل الحكومة ، كما ان الاجراءات التى اتخذها السلطان لرفع الضرائب الجمركية قد عجلت بالتدهور الاقتصادى وخلال الستينات تحولت التجارة عن موانىء مسقط ، كما انتقل بعض أصحاب السفن الى صور حيث تتوفر بعض الحرية التجارية [٣] . وما ان حل عام ١٨٦٨ حتى أصبحت مسقط شبه مدينة مهجورة ، على حد وصف البعض لها كما كانت ماضية فى طريق التدهور [٤] . وخلال الستينات من القرن التاسع عشر وكنتيجة لمشاكل مسقط السياسية ومنافسة البواخر لنشاطها التجارى ، وتدهور النشاط الذى كانت تنبض به موانئها منيت بانهيار اقتصادى عميق .

---

(٣) رسالة بتاريخ ١٨٦٢/٢/١٦ من بلى الى اندرسون ورسالة أخرى رقم ٤١ مؤرخة فى ١٨٦٤/٨/٢٣ من المقيم البريطانى . أنظر أيضا كتاب Precis Int'l Rivalry ص ٢٧ .

(٤) رسالة رقم ٤١٢ مؤرخة فى ١٨٦٨/٩/١٧ من اتكنسون الى جاون .

تدهور النشاط التجاري والملاحي :

سبق أن أكدنا بأن صناعة السفن ، في عمان كانت تمثل دعامة الاقتصاد في المنطقة الساحلية على مدى آلاف السنين قبل الستينيات من القـــرن التاسع عشر . وفي العصور الوسطى كان الملاحون العمانيون رواد الرحلات البحرية الى بلاد الصين . كما كانوا بناة امبراطورية ملاحية ازدهرت خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وفي كل من العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة كانت التكنولوجيا البحرية العمانية تضم خبرة تعد في طليعة الخبرات التكنولوجية في العالم أجمع ! غير أن التكنولوجيا الملاحية العمانية قد تجمدت منذ وقت طويل . ومن ثم كنتيجة ظهور السفن البخارية على المسرح أصبح العمانيون غير قادرين على مواجهة هـذا التحـــدى الثورى ، وبذلك تدهورت صناعة بناء السفن في عمان . وحاول العمانيون في القرن السابع عشر أن يقلدوا الاسلوب التكنولوجي الغربي في بنـــاء السفن غير أنهم لم يكونوا في مستوى الصناع الغربيين وفي فهم أسرار صناعة السفن البخارية التي أخذت تزاول نشاطها في القرن التاسع عشر .

لم تكن المشاكل التي تواجه صناعة بناء السفن في عمان في الستينيات من القرن التاسع عشر تختلف عن المشاكل التي كان يواجهها أصحاب السفن في أقطار الخليج الأخرى . وكنتيجة للنشاط الاقتصادى الناتج عن ظهور السفن البخارية وتصـــاعد الطلب على القطن في الوقت نفســـه في أوائل الستينيات من القرن التاسع عشر شهدت المنطقة نشاطا تجاريا كبيرا كانت تقوم به كل من السفن المحلية والسفن البخارية التابعة للشركات الأجنبية . غير أن النشاط الاقتصادى المشار اليه قد سبب ارتفاعا في مستوى الأسعار في الخليج بوجه عام ، وهو الارتفاع الذى استمر حتى عام ١٨٦٨ ، مما أدى الى رفع أجور الشحن في السفن المحلية . وبتصاعد الطلب على القطن في سنة ١٨٦٥ ، اضطر الارتفاع في الأجور ، النقل ، وضعف النشـــــاط التجاري ، وازدياد الطلب على السفن البخارية ، قسما كبيرا من أصحاب

السفن المحلية الى بيع سفنهم ، أو سحبها الى الشاطىء • اما السـفن البخارية فلم تكن تعتمد على مستوى الأجور ، كما كان يفعـل أصـحاب السفن المحلية • وقد لجأت البواخر لمعالجة أزمة سنة ١٨٦٥ الى تخفيض أجور النقل مما شجع تجار المنطقة الى التحول الى البواخر ، الأمر الذى أسهم فى انعاش تجارة الخليج مرة أخرى فى سنة ١٨٦٩ وقد حقق هـذا الاتجاه نجاحا ملحوظا مما زاد فى عدد الرحلات التى تقوم بها البواخر الى الخليج فى سنة ١٨٦٦ • غير أن أصحاب السفن ، لم يكن فى مقدورهم أن يتحملوا أزمة السنوات الأربع أو المنافسة على الأسعار • وبالتالى وحتى فى الفترة التى انتعشت فيها الحالة على أثر التحسن الشامل فى النشـاط الاقتصادى للخليج ، ظلت معظم الأرباح الناتجة عن العمليات الملاحية من نصيب البواخر ، ولم ينل الملاحة المحلية سوى نسبة ضئيلة منها • ولقد تضررت الملاحة المحلية من هذه الأزمة ضررا بالغا ، وذلك من جراء محاولاتها للتغلب على مشاكلها الاقتصـادية والصمود لمنافسـة السفن البخـارية لهـا (٥) •

ومن ناحية أخرى أسهم تدهور حالة الأسطول العمانى الكبـير فى اضعاف الحركة الملاحية لعمان فى الستينات • وعند وفاة السلطان سعيد سنة ١٨٥٦ كان الجانب الأكبر من هذا الأسطول راسيا فى ميناء زنجبار ، وحتى القطع التى بقيت فى ميناء مسقط تم بيعها فى الستينات • وقد اعتبر هذا جزءا من المؤامرة البريطانية لشطر الامبراطورية العمانية وتفتيتها • وهكذا اختتمت هذه الحقبة من تاريخ عمان ، ولم يعدلها قوة بحرية يعتد بها • وقد كان لهذه التطورات آثارها السياسية والاقتصادية على البلاد لأن السيد سعيد كان يستخدم الأسطول فى النواحى التجارية والعسكرية وكان أكبر أسطول فى المنطقة • وهكذا فى الستينات من القرن التاسع عشر تخلت عمان التى ظلت على امتداد قرن ونصف عاملا هاما فى تجارة النقل

(٥) Precis Commerce من ص ٣٢ الى ص ٣٧ •

والنشاط الملاحى فى منطقة الخليج ، عن صناعة بناء السـفن الأمر الذى أسهم الى حد كبير ولأسباب سياسية أكثر منها اقتصادية فى تدهور عمان كدولة ملاحية كبرى فى المنطقة (٦) .

وعندما كان المحافظون الأباضيون على رأس السلطة فى مسقط ما بين سنة ١٨٦٨ وسنة ١٨٧١ فر عدد كبير من أصحاب السفن من البلاد وعلى كل فان الاجراءات الشديدة التى فرضتها هذه الحكومة فى مسقط قـــد خففت فى عام ١٨٧٠ ، وبدأت التجارة تستعيد نشاطها (٧) . وقد شارك فى خلق هذه الأوضاع بعث الحكم المعتدل فى مسقط . وكان عدد السفن التى يملكها العمانيون فى مسقط سنة ١٨٧١ ١٦ سفينة كبيرة بعضها من أصـــل بريطانى وأمريكى (٨) . غير أن صعوبة الاحتفاظ بسفن قديمة فى حـــالة ملاحية جيدة ، ونتيجة للمنافسة الشديدة من جانب السفن البخارية لم يزد عدد سفن مسقط على ٦ فقط ، وحتى هذا العدد انخفض فيما بعـــد الى سفينتين فقط . وكانت آخر سفينة تملكها مسقط هى السفينة (County of Forts) التى اختفت فى سنة ١٩٠١ وهى تنقل شحنة من الحبوب الى كلكتا . ومن

---

(٦) للاطلاع على مصير اسطول السيد سعيد راجـــع ما كتبـــه رجبى فى « تقرير عن زنجبار » وسجلات حكومة بومبى رقم ٩ ال (١٨٦١) ص ١٨ — ١٩ ورسالة دسبراو الى جاون رقم ١٣٩ بتاريخ ١٨٦٩/٣/٤ من سجلات حكومة الهند جزء ٢ مجلد ال وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٤٦٩ وفيه معلومات عن انسحاب حكومة مسقط من مسرح النشاط الملاحى . وبالاضافة الى أسطول السيد سعيد المؤلف من ١٥ سفينة حربية ، كان يملك عشرين سفينة تجاريـــة ، كمـــا كانت الارباح الناتجة عن التجارة الملاحية موردا اضافيا لخزينة الدولة حيث لم يكن يوجد خط فاصل بين الدخل الخاص والدخل العام للحاكم . أنظر كذلك كتاب « صيد العبيد » ، تأليف السر ج . س . ا . كولومب ص ١١٧. (طبعة لندن ١٨٧٣) . وجاء فيه أن آخر سفينة فى اسطول السيد سعيد غرقت بعـــد أن داهمها اعصار وهى راسية فى زنجبار سنة ١٨٧٢ .

(٧) رسالة من بلى الى ديوك ارجيل ٧ مايو ١٨٧٠ رقم ١٤٧ — ٢ سجلات الهند ٢ مجلد ال .

(٨) تقرير ادارى — ١٨٧٦ — ١٨٧٧ ص ٨١ .

الطريف أن نلاحظ أن أغلب السفن العمانية قد اشتريت من شركات أوربية كانت على وشك تفكيكها وبيعها كخردة [٩] .

وما أن حل عام ١٨٧٨ حتى كانت محاولات بعث النشاط الملاحى الذى شهدته مسقط فى السبعينات من القرن التاسع عشر والملاحة المحلية على اختلافها قد انخفض عددها من ٩٩٩ سفينة سنة ١٨٧٥ — ١٨٧٦ الى ٧١٦ سفينة فى سنة ١٨٧٨ — ١٨٧٩ ، ثم الى ٣٧٤ سفينة فى سنة ١٨٩٣ — ١٨٩٤ وأخيرا انخفض العدد فى سنة ١٨٩٥ — ١٨٩٦ الى ٢٣٨ سفينة[١٠] . ويبين الجدول رقم ٢ الانخفاض المطرد فى مستوى النشاط الملاحى فى نهاية القرن التاسع عشر ، كما يوضح الزيادة المطردة فى الرحلات التى تقوم بها السفن الأوربية والبواخر بصورة خاصة الى ميناء مسقط فى نفس الفترة . ويبلغ مجموع حمولة البواخر التى زارت ميناء مسقط عام ١٨٩٥ ٠٠٠ر١٩٤ طن ، بينما لم تزد حمولة السفن المحلية فى الفترة نفسها على ٩٠٠ر٢٤ طن [١١] . ومن الواضح أن السفن الأوربية قد استحوذت على الجانب الأكبر من تجارة النقل التى كانت فى يوم من الأيام حكرا على الملاحين العمانيين ، كما انخفض عدد السفن العمانية العاملة انخفاضا مخيفا (شمل جميع الموانىء العمانية) ولم يعد للملاحة المحلية غير دور محدود ويقتصر على النشاط الساحلى . فما أعظم الفرق بين هذا الوضع وبين وضع عمان الملاحى فى الأربعينات من القرن التاسع عشر حيث كانت تملك ١٤ سفينة من الحجم الكبير ومائتى سفينة على الأقل من عابرات المحيط ومئات غيرها من سفن الصيد لا تقل حمولة كل منها عن ٥٠ طنا تمارس نشاطها فى منطقة مسقط وحدها . وكذلك كانت السفن العمانية تقوم بنقل أكثر من نصف تجارة

---

(٩) نفس المصدر : تقرير ادارى ١٩٠١ — ١٩٠٢، ص ٩ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٢٣١٩ — ٢٣٣٢ .

(١٠) Precis Commerce ص ٢٢٠ — انظر كذلك تقرير ادارى ١٨٩٥ — ١٨٩٦ ص ٥٢ .

(١١) Precis Commerce ص ٢٢١ انظر كذلك تقرير ادارى ١٨٩٥ — ١٨٩٦ ص ٥٢ .

الخليج وقد استمر هذا الوضع حتى عام ١٨٥٤ ، على ما جاء فى تقرير أحد المراقبين الغربيين (١٢) .

وقد ارتفع مجموع حمولة السفن التى تغادر موانىء الخليج ما بين سنة ١٨٧٤ وسنة ١٨٩٤ ، الا ان أرقام رحلات السفن المحلية انخفض الى حد كبير . أما السفن الأوربية فقد ظلت محتفظة بنشاطها . غير أن أحجامها كانت تزداد . ومن ناحية أخرى انخفض عدد السفن التى كان يقودها الملاحون المحليون فى نهاية القرن التاسع عشر عن عددها قبل هذه الفترة . ويلاحظ منذ عام ١٨٧٧ أن السفن الأوربية الكبيرة والمربعة الشكل التى كانت تمارس نشاطها التجارى بين موانىء مسقط والهند قد أخذت تستبدل بسفن أصغر حجما (١٣) .

أن اختفاء السفن الكبيرة وظهور السفن الصغيرة فى أعداد متزايدة ، كان له تأثيره الحتمى الخطير على حركة أحواض بناء السفن العمانية والاقليمية . ففى أوائل القرن التاسع عشر كان نوع السفن الكبيرة المسمى (Trankis) ترانكيس يعمل فى مياه الخليج ولكنه اختفى بعد فترة ، كما اختفت أيضا فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر السفن الشراعية التى تسمى « بالبغلة » من مياه الخليج . ويصف اللفتنانت ولستد ، أحد ضباط الأسطول البريطانى هذا النوع من السفن الشراعية بعد أن شاهد احداها وهى راسية فى ميناء مسقط فيقول « انها سفينة هائلة الحجم مشوهة الشكل لا تقل حمولتها عن ٤٠٠ طن ولها خرطوم بارز طويل ومؤخرة واسعة عليها نقوش وحفريات . ولها سارية واحدة وشراع واحد اذا فرش على الأرض فانه يغطى مساحة طولها ١٥٠ قدما ويضم من القماش

---

(١٢) من سجلات حكومة بومباى سنة ١٨٦٥ ص ٦٣١ — ٦٣٢ انطباعات اسكود ص ٨٦ و ٨٢ — ٨٣ .

(١٣) Precis Commerce ص ٢١٩ — ٢٢٢ انظر أيضا « تقرير ادارى » ١٨٧٧ — ١٨٧٨ ص ١٤٩ .

جدول ٢ - بواخر زارت وغادرت مسقط بين ١٨٧٤ـ ١٨٩٤

جنسية السفن ووجهاتها	١٨٧٤ - ٧٥	١٨٧٥ - ٧٦	١٨٧٦ - ٧٧	١٨٧٧ - ٧٨	١٨٧٨ - ٧٩	١٨٧٩ - ٨٠	١٨٨٠ - ٨١	١٨٨١ - ٨٢	١٨٨٢ - ٨٣	١٨٨٣ - ٨٤	١٨٨٤ - ٨٥	١٨٨٥ - ٨٦	١٨٨٦ - ٨٧	١٨٨٧ - ٨٨	١٨٨٨ - ٨٩	١٨٨٩ - ٩٠	١٨٩٠ - ٩١	١٨٩١ - ٩٢	١٨٩٢ - ٩٣	١٨٩٣ - ٩٤
امريكية	٤	٥	٥	٥	٤	٣	٣	٣	٣	٥	٣	١	١							١
سفن فحم	١			٣	١	١	١	١		٣		١	٣	١		٢	٣	١	٢	
هندية	١٨	١٢	١٨	٢٢	١٧	٢٧	٢٠	٢٢	١١	٧	٧	٩	١٠	١٥	١٦	١٣	١٢	١٣	١١	١٣
لندنية										٣			١	٣	٢	١		١	٢	٢
شركة الهند للملاحة	٨١	١١	٥٤	٥٢	٥٨	٧٣	٧٣	٨١	٨٤	٧٢	٧٩	٧٤	٧٤	٧٤	٧٧	٦٠	٦١	٦٢	٦٥	٦٥
فرنسية										١١	١٤	٨	٢	١					١	
جزر موريشيس	٥	٣	٨	١٢	٥	٥	٣	٤	١	٣	٦	٣	٢	٢	١	٤	٤	١	٢	٢
الخليج	٥	٧	١٣	١٥	١٣	٦	٤	٦	٤	٧	٥	٤	٤	٦	١٠	٨	١٠	٦	٩	١٦
البحر الأحمر		١	٤	٧	٣	٣	١	١	١	١	٣	٥	٢	٢	٣	٣	٣	٣	٤	٥
سنغافورة	١	٣	٣	٢	٣	[illegible]	١	٢												
زنجبار			١	٣	٤	١	٢	٣	٢	٥	٤	١		٤	٢	٢	٣	٣	٣	٢
موانئ أخرى	١٢	٤	٣	٢٦	١٥	١٢	١٣	١٢	٩											
المجموع	١٢٨	٨٩	١٠٧	١٥٣	١٢٨	١٣٦	١٣٠	١٢٨	٩٩	١٢١	١١١	١٠٧	١٠٢	١٠٨	١١١	٩٤	٩٦	٩٠	٩٩	١٠٦
السفن العربية																				
الهند	٤٠٠	٣٠٠	٤٥٠	٥٠٠	٣٠٠	٢٥٠	٢٠٠	٢١٥	١٤١	١٤١	١٣٢	١٤٨	١٧٠	١٨٠	١٩٠	١٥٠	١٧٠	١٥٠	١٦٠	٩٩
الخليج	١٠٠	٢٠٠	٩٥	١٤٠	٢٠٠	٢٠٠	١٨٠	٢٠٠	١٥٠	١٥٠	١٤٨	١٢٥	٤٥	٤٠	٥٠	٥٠	٤٥	٤٠	٤٤	٤٠
مكران	٥٠	١٥٠	١٢٠	١٠٠	٢٠٠	١٠٠	٦٠	٥٥	٨٤	٨٤	٨٠	١١٠	١٠٢	٩٠	٧٥	٨٦	٨٥	٨٠	٧٠	٧٥
اليمن	٦٠	٢٠٠	٥٠	٢٠	٤٠	٤٠	٤٠	٤٠	٤٦	٤٦	٣٧	٢٥	٢٥	٢٠	٢٢	٢١	٨١	١٨	٢٠	٢٤
زنجبار	٤٠	٦٠	٢٥	٣٠	٤٠	٢٥	٢٠	٢٢	٢٢	٢٢	٢٨	٣٥	٣٠	٢٥	٢٠	١٨	٢٠	٢٤	٢٠	٢٠
المجموع	٦٥٠	٩١٠	٧٤٠	٧٩٠	٧٨٠	٦١٥	٥٠٠	٥٢٢	٤٤٣	٤٤٣	٤٢٣	٣٥٨	٣٧١	٣٦٥	٣٦٥	٣٢٥	٣٤٠	٣١٢	٣١٨	٢٦٨
المجموع الكلي	٧٧٨	٩٩٩	٨٤٧	٩٤٣	٩١٨	٧٥٦	٦٣٠	٦٧٠	٥٤٢	٥٤٤	٥٣٠	٤٦٥	٤٧٥	٤٧٣	٤٧٦	٤١٩	٤٣٦	٤٠٢	٤١٣	٣٧٤

كمية تزيد على القماش المستعمل فى أكبر وأقدم سفن أسطول صاحبة الجلالة » (١٤) .

وتتسع السفينة التى شاهدها وولستد لمائة وخمسين رجلا ، كان أغلبهم من الزنوج الافريقيين . وكانت هناك سفن أخرى تتسع لأربعمائة شخص ويصل طولها الى ٢٠٠ قدم وعرضها ٥٠ قدما . وعلى أى حال ففى نهاية القرن التاسع عشر لم تكن تزيد حمولة أكبر السفن التى كانت تبنى فى عمان على ١٠٠ الى ٢٠٠ طن . وكان النوع المفضل من السفن هو النوع الصغير الذى لا يتجاوز طوله ٣٠ قدما وحمولته ١٠ أطنان . وهذا يعنى انه على الرغم من الرحلات الطويلة التى كانت تقوم بها السفن العمانية الى بحار أفريقيا والهند ، فقد كان البحارة العمانيون يفضلون الرحلات الساحلية القصيرة . وكانت مطرح — المدينة التوأم لمسقط أحد مركزين لبناء السفن فى عمان — وتبعد مطرح عن مسقط بحوالى خمسة أميال . أما صور فقد كانت تصدر السفن الى الخارج . الا أن الكويت أصبحت فى سنة ١٩٠٠ أهم مركز لبناء السفن فى الخليج . ولقد ظلت صناعة بناء السفن فى عمان فى هبوط مطرد بحيث لم تعد لها أى أهمية الآن . وكان من المحتم أن يتدهور التركيب العام لنشاط الموانىء الخاص ببناء السفن فى عمان ، والذى كانت له أهميته بالنسبة للبلاد تبعا لتدهور صناعة بناء السفن (١٥) .

غير ان اختفاء الأنواع الكبيرة من السفن لم يؤثر ، عندما حدث ، على عدد كبير من أصحاب السفن العرب . ففى الستينات من القرن التاسع عشر تمخض تركيز الثروة والنشاط التجارى فى أيدى التجار الهنود المقيمين فى الخليج عن امتلاكهم للمزيد من السفن باعتبار ذلك المجال الوحيد

---

(١٤) رحلة الى جزيرة العرب فصل ١ ص ٢٨ ، تأليف : وولستد .

(١٥) بلدان وقبائل الخليج جزء ٢ ص ٤١٢ : مايلز وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٢٣٢٠ — ٢٣٢٦ . كذلك راجع « جزيرة العرب وحدودها الشرقية » ص ٣٢٦ (١٦) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ١١٨١ — ١١٨٦ .

للاستثمار . وفى السبعينات كان الهنود يملكون السفن الكبيرة المسجلة فى كل من مسقط ومطرح بينما يملك العرب ويديرون السفن الصغيرة [١٦] .

لقد ذكرنا آنفا بأن مجالات النشاط المفتوحة قد أخذت تضيق أمام السفن العمانية فى الستينات من القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من الرحلات التى كانت تقوم بها السفن من والى الهند لنقل الملح والأرز ، فقد ظل عدد السفن العمانية فى تناقص مطرد . ولقرب ميناء كراتشى من عمان ، حلت هذه المدينة محل كل من بومبى وكلكتا كمحطة رئيسية لما بقى من تجارة عمان مع الهند . ولقد زاد ، كما كان متوقعا ، عدد الرحلات التى تقوم بها السفن العربية للموانىء التى ترتادها البواخر .

وعلى الرغم من تدهور النشاط الملاحى مع الهند فقد احتفظت بعض الموانىء ، كميناء مكران لتعذر وصول البواخر اليه ، بأهميتها كموانىء تقصدها السفن العمانية . وفى سنة ١٩٠٠ لم تعد السفن العمانية تزور مياه البحر الأحمر الا فى حالات نادرة ، كما انخفض عدد رحلاتها الى زنجبار أيضا على الرغم من أنها كانت تقوم ببعض الرحلات الخاصة بجلب العبيد . وهكذا أصبح النشاط التجارى المحظور كتجارة الرقيق وتهريب الأسلحة بوجه عام المنفذ الأخير لعدد كبير من الملاحين العمانيين ، والنشاط الرئيسى لملاحى صور . ولم يبق من النشاط التجارى المشروع لعمان سنة ١٩٠٠ غير الرحلات الساحلية المحدودة ونقل السلع من الموانىء الصغيرة الى موانىء البواخر ، الى جانب صيد الأسماك . وحتى الملاحة المشروعة منيت بضربة ساحقة فى سنة ١٩٠٢ عندما فاجأت القوات البرتغالية أسطولا لأهالى صور فى أحد موانىء موزمبيق وفيه شحنة من العبيد فاستولت على معظمه ودمرت الباقى . أما ان السفن قد واصلت رحلاتها الى موانىء مسقط فان ذلك يدل ، على أى حال ، على أن هذا الميناء ظل محتفظا بنشاطه ، ولكن بشكل محدود . وبعد سنة ١٨٧٤ أخذت سفن شركة الهند البريطانية للملاحة البخارية تتوقف فى ميناء مسقط فى طريق رحلاتها . أما

سفن شركة بومبى وفارس للبواخر فلم تكن تزور مسقط فى فترات منتظمة، كما كانت تفعل البواخر التابعة للشركات الأخرى • أما الرحلات المنتظمة الوحيدة للرحلات المباشرة بين أوربا ومسقط فهى بواخر الشركة الانجليزية العربية ـ الفارسية التى أخذت تزور ميناء مسقط اعتبارا من سنة ١٨٨٦ وكانت رحلاتها من لندن الى المنطقة تستغرق أربعة أسابيع • كما كانت فرنسا تسير رحلات على نفقتها ، وقامت برحلات الى مسقط خلال ١٨٨٣ ـ ٨٥ و ١٨٩٦ ـ ٩٧ • وكذلك روسيا افتتحت خطا تجاريا الى مسقط ابتداء من سنة ١٩٠١ ، ولكنه لم يستمر طويلا •

وكانت الموانىء المزدهرة الوحيدة فى عمان هى الموانىء التى كانت تستقبل تجار العبيد ومهربى الأسلحة • فودام التى كانت مجرد قرية بيوتها من سعف النخيل وعدد سكانها لا يزيد على مائة نسمة فى سنة ١٨٤٠ تحولت فى عام ١٩٠٠ الى أحد مراكز التهريب النشطة التى كان يغادرها كل عام ما لا يقل عن أربعين سفينة فى طريقها الى موانىء الخليج والهند واليمن [١٧] وكانت صور أهم مدينة يتركز فيها النشاط التجارى غير المشروع ولم يكن لحكام مسقط حتى فى أوج سلطانها أى نفوذ على صور • وفى أعقاب الستينات من القرن التاسع عشر ، ونتيجة لاختفاء الأسطول العمانى من الوجود ، انعدم هذا النفوذ انعداما تاما • وعندما أخذ البحارة العرب يتدفقون على هذه المدينة هربا من الرقابة والضرائب أصبحت صور أكبر الموانىء الملاحية فى نهاية القرن التاسع عشر كما جعلها تعداد سكانها الذى وصل فى سنة ١٩٠٠ الى اثنى عشر ألف نسمة أكبر المدن العمانية كلها • غير أن هذه الأهمية عادت فانتقلت منها الى مطرح فيما بعد • وقد بلغ عدد السفن التى صادف أن كانت متجمعة فى ميناء صور فى ذلك الوقت مائة سفينة كلها من عابرات المحيط ، غير أن هذا الرقم لا يعتبر شيئا

---

(١٧) سجلات حكومة بومبى : ١٨٥٦ ، ص ٦٢٧ وكتاب لوريمر فصل ١١ ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ •

بالمقارنة الى مجموع السفن التى كانت تعمل فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر وعددها ٣٠٠ سفينة . وباستثناء صور ، وودام وبضع موانىء أخرى صغيرة ، فان الأربعين عاما الأخيرة من القرن التاسع عشر تعتبر فترة ركود فى نشاط السواحل العمانية . فقد تدهورت كل أوجه النشـــاط الملاحى فى موانىء البلاد فيما عدا صيد الأسماك . وقد اضطر عدد كبير من العائلات التجارية العربية الى الانسحاب الى مزارعها فى داخلية البلاد تاركة ما بقى من التجارة الملاحية للتجار الهنود [١٨] .

تدهور تجارة مسقط وازدهارها . لقد كان من أســوأ النتائج التى تمخض عنها تدهور مسقط كمركز ملاحى ، وكمنطقة حرة ، هـــو ســقوط أهميتها التجارية وازدهارها الاقتصادى الى جانب انخفاض عدد سكانها . فالفترة التى شهدتها البلاد فى أعقاب وفاة السيد سعيد سنة ١٨٥٦ تعتبر كارثة لمسقط وملحقاتها . ففى الأربعينات من القرن كانت حوالى خمســـة أثمان تجارة الخليج تأتى عن طريق مسقط ، غير أن هذه النسبة قد انخفضت فى سنة ١٨٧٤ الى ١ من ١٢ . وبما أن هذه النسبة لم ترتفع فى سنة ١٩٠٠ ففى ذلك دليل على أن الركود قد تحول الى تجمد فى النشاط التجارى . ان الأرقام التجارية لهذه الفترة انما تعكس انخفاض نسبة النشاط التجارى وما أعقبه من ركود اقتصادى أصاب المنطقة الساحلية بالشلل التام . وقد بلغت أرقام القيمة التقديرية لصادرات مسقط التجـــارية ووارداتهـــا فى الثلاثينات من القرن مبلغ ١٫٨٠٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى . ولا يعتبر هذا رقما زهيدا اذا قورن بالنشاط التجارى الخارجى للشرق الأوسط عن الفترة

---

(١٨) رحلة الى جزيرة العرب جزء ١ ص ٤٣ — ٤٤ ، تاليف ولســـتد ورســـالة رقم ٢٥٣ مؤرخة فى ١٨٨٤/٩/١٥ من مايلز الى روس . من ســـجلات الحكومة الهندية — ٣ مجلد ٤ والتقرير الادارى لسنة ١٨٧٩ — ١٨٨٠ ، ص ١٣٤ وكتاب لوريمر مجلد ٢ ص ١٤١٣ — ١٤١٤ وص ١٨٤٧ — ١٨٥٠ .

التى سبقت العصر الحديث ، بينما قدرت قيمة تجارة الصادرات والواردات العثمانية فى منتصف القرن التاسع عشر بأحد عشر مليونا من الجنيهات الاسترلينية [١٩] . وعلى أى حال ، فان نسبة مجموع قيمة التجارة عن سنة ١٨٧٤ — ١٨٧٥ قد انخفض الى ٤٢٥ر٧٩٤ ج . س . كما ورد فى سجلات القنصلية البريطانية . كما تبين الجداول رقم ٣ و ٤ و ٥ بدورها نسبة الانخفاض فى معدل تجارة مسقط الذى حدث فى أعقاب ذلك التدهور . كذلك يتضح من هذه الجداول بأرقام صادرات البلاد ووارداتها ومجموع تجارتها الخارجية انها ظلت محتفظة بنفس المعدل الذى وصلته فى منتصف السبعينات من القرن ، هذا باستثناء بعض حالات الصعود والهبوط فى الأرباح التجارية . وفى الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر زادت نسبة الواردات على الصادرات ، غير أن العجز الناتج عن ذلك قد تمت تسويته عن طريق القروض والأرباح الناتجة عن بعض الخدمات التى تقوم بها السفن والنشاط المحظور كالاتجار فى الأسلحة وتهريبها . ولقد شهدت مسقط قبل الستينات من القرن التاسع عشر حركة تبادل (مقايضة) واسعة فى عدد من السلع منها الكماليات تبعا لنظام التبادل المعمول به فى المنطقة . أما فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر فقد تركزت المقايضة فى المواد الغذائية والسلع الضرورية ، كالأرز ، والمنسوجات وخيوط الغزل ، والسكر، والبن الذى كان على رأس الواردات ، بينما تركزت الصادرات فى البلح . والفواكه والأسماك واللآلىء ، كذلك النقود الفضية على اختلاف كمياتها ،

---

(١٩) رحلة الى جزيرة العرب ، تأليف : ولستد فصل ١ ص ٢٢ — ٢٤ للاطلاع على أرقام التجارة العثمانية انظر بحثا بعنوان « رسائل من تركيا » ويتناول الكاتب فيه الحالة الدينية والسياسية ، والاجتماعية ، والتجارية للامبراطورية العثمانية وقد قامت الليدى ايستوهوب بترجمته عن الفرنسية (طبع لندن ١٨٥٦) فصل ١ ص ٣٥١ — ٣٥٢ .

والأسلحة المهربة الى الأقطار الآسيوية الأخرى التى كانت أهم بنود التجارة فى القرن التاسع عشر [٢٠] .

وبسبب الانفجارات السياسية داخل عمان فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر انخفض معدل التجارة انخفاضا كبيرا لأن الظروف لم تكن تشجع الناس على التصدير . وكنتيجة للانتكاسات التى سببتها الأوضاع السياسية للبلاد سنة ١٨٧٨ و ١٨٨٤ و ١٨٩٥ أغلق الطريق بين داخلية عمان وموانىء البلاد لفترة من الوقت . وتتضح أبعاد الانتكاس فى النشاط التجارى والازدهار الاقتصادى للبلاد أكثر ما تتضح فى الشلل الصارخ الذى أصاب الموانىء العمانية . ففى بداية الخمسينات من القرن التاسع عشر ، كان عدد سكان مدينة مسقط ٥٥٠٠٠ نسمة تقريبا فى الوقت الذى لم يكن يزيد عدد سكان المدينة التوأم مطرح على ٨٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠ نسمة وفقا لتقدير بعض المراقبين [٢١] . ان الاضطراب السياسى والاقتصادى الذى عم البلاد نتيجة لوفاة السيد سعيد . قد اضطر عددا كبيرا من أهل البلاد ، على ما يبدو ، الى مغادرتها ، بحيث انخفض عدد السكان فى الستينات من القرن التاسع عشر الى ٤٠٠٠٠ نسمة فقط . وينعكس هذا التدهور الذى تعرضت له المدينة فى أعقاب أزمة الستينات فى الانخفاض الحاد فى عدد السكان الى نحو ٨٠٠٠ نسمة ، وهو الرقم الذى وصل اليه تعداد السكان فى السبعينات من القرن التاسع عشر [٢٢] .

---

(٢٠) Precis Commerce ص ١٨٢ — ٨٦ والتقرير الادارى سنة ١٨٧٥ — ١٨٧٦ ولسنة ١٩٠٢ — ١٩٠٣ . لقد ظلت أرقام تجارة عمان فى تقلب حتى العشرينات من القرن العشرين ، غير ان الاحصاءات الاولى تشير الى الاتجاهات العامة لهذه الارقام .

(٢١) انطباعات ، اسكود ص ٥٢ ورحلة الى جزيرة العرب ، تاليف ولستد .

(٢٢) أخبار رحلة عام عبر شرقى واواسط آسيا . الطبعة الثالثة (لندن ١٨٦٦) فصل ٢ ص ٣٦٩ وفصل ١ ص ٣٢ .

(٢٣) كتاب لوريمر مجلد ٢ ص ١١٨١ — ٨٦ ان اجراء احصاء سكانى لمدينة مسقط امر بالغ الصعوبة وذلك لتراوح عدد هؤلاء السكان وفقا لفصول العمل وارتفاع وانخفاض نشاط الميناء .

تغيرات اقتصادية فى عمان

(جدول رمم ٣)

مستوردات مسقط ١٨٧٤ — ١٩٠٣

سنة	ريال نمسوى روبية	جنيه استرلينى
١٨٧٤—٧٥	٢،٠٠٣٧،٦٨١١،٤٤٦،٥١٥	٢٨٠،٢٢٨
١٨٧٩—٨٠	٣،٦٦٤٦،٢٣٠١،٧٣٦،٣٠٠	٣٠٣،٨٥٢
١٨٨٤—٨٥	٤،١٢٢،٣٥٢١،٩٦٦٣،٠٢٥	٣٢٩،٧٨٨
١٨٨٩—٩٠	٤،١٩٥،٢٢٤١،٩٩٧،٧٢٦	٢٨٨،٥٢٩
١٨٩٤—٩٥	٤،٣٦٧،١٦٠٢،٠٧٩،٦٠٠	٢٢٨،٣٨٢
١٨٩٩—١٩٠٠	٣،٢٥٠،٩٠٠٢،٦٠٠،٧٢٠	٢١٦،٤٣٨
١٩٠٢—١٩٠٣	٤،٠٠٦،٧٩٣٣،٢٠٥،٤٣٥	٢٦٧،١١٩

(جدول رقم ٤)

صادرات مسقط بين ١٨٧٤ و ١٩٠٣

سنة	ريال نمسوى روبية	جنيه استرلينى
١٨٧٤—٧٥	١،٥٧٧،٩٤٠ ،٧٥٠،٤٠٠	١٤٥،٥٦٦
١٨٧٩—٨٠	٣،١٩٦،٥٦٧١،٥٢٢،١٧٥	٢٦٦،٣٨٠
١٨٨٤—٨٥	٣،٤٤٧،٢٦٥١،٦٤١،٥٥٥	٢٧٥،٧٨١
١٨٨٩—٩٠	٢،٩٥٣،٨٧٠١،٤٠٦،٦٠٥	٢٠٣،١٥٤
١٨٩٤—٩٥	٣،٤٢٠،٠١٨١،٦٢٨،٥٨٠	١٨٦،٦٨٢
١٨٩٩—١٩٠٠	١،٩١٦،٦٢٥١،٥٣٣،٣٠٠	١٢٧،٦٠٤
١٩٠٢—١٩٠٣	٣،١٣٣،١٤٣٢،٥٠٦،٥١٥	٢٠٨،٨٧٦

(جدول رقم ٥)

قيمة مجموع الصادرات والمستوردات فى مسقط بين ١٨٧٤ و ١٩٠٣

سنة	ريال نمسوى روبية	جنيه	سعر الجنيه بالروبيات
١٨٧٤—٧٥	٤،٦١١٥،٦٢١٢،١٩٧،٩١٥	٤٢٥،٩٧٤	١٠،٨٤
١٨٧٩—٨٠	٦،٨٤٢،٧٩٧٣،٢٥٨،٤٧٥	٥٧٠،٢٣٢	١٢،٠
١٨٨٤—٨٥	٧،٥٦٩،٦١١٧٣،٦٠٤،٥٨٠	٦٠٥،٥٦٩	١٢،٥٠
١٨٨٩—٩٠	٧،١٤٩،٠٩٤٣،٤٠٤،٣٣١	٤٩١،٦٨٣	١٤،٥٤
١٨٩٤—٩٥	٧،٧٨٧،١٧٨٣،٧٠٨،١٨٠	٤٢٥،٠٦٤	١٨،٣٢
١٨٩٩—١٩٠٠	٥،١٦٧،٥٢٥٤،١٣٤،٠٢٠	٣٤٤،٠٤٢	١٥،٠٢
١٩٠٢—١٩٠٣	٧،١٣٩،٩٣٦٥،٧١١،٩٥٠	٤٧٥،٩٩٥	١٥،٠٠

* الاحصاءات من Precis Commerce صفحة ١٨٢ — ٨٦ وتقارير الادارة ١٨٧٥ — ١٩٠٣ .

وتتضح الأزمة التى تعرضت لها مسقط بعد سنة ١٨٥٦ فى التغييرات التى طرأت على أوضاعها المادية . ففى أوائل السبعينات كان الوضع التجارى والازدهار المادى والتعداد السكانى فى تدهور مستمر والبلاد تخطو نحو الخراب ، كنتيجة لمنافسة البواخر والخسارة التى أصيبت بها البلاد فى تجارة التوزيع والقلاقل السياسية . ويذكر الرحالة البريطانى تيودور بنت Theodore Bent الذى زار مسقط فى عام ١٨٩٥ بأن أسواق المدينة التى كانت تزدان بالمعروضات الجميلة ، لم تعد ترضى ذوق الباحثين عنها ، وبأن جزءا كبيرا من هذه الأسواق قد تهدم وأصبح أنقاضا ، وأن مطرح أصبحت العاصمة التجارية للبلاد بعد أن جردت مدينة مسقط من هذه الميزة [٢٤] .

ولم تكن مطرح فى سنة ١٩٠٠ من حيث الحجم أكبر من مسقط بكثير ، كما لم يكن عدد سكانها يزيد على ١٠ آلاف نسمة فى الأحوال العادية و ١٤ ألف نسمة فى الفصول التجارية . غير أن أهمية مطرح تنبع من حيث أنها بوابة عمان الداخلية . غير أن عدد السفن التى تزورها قد انخفض من ٥٠ الى ٢٧ سفينة فى غضون الأربعين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، كما أصبح التجار الهنود فى سنة ١٩٠٠ هم الذين يملكون هذه السفن [٢٥] . ومن ناحية أخرى كانت مدينة صحار فى سنة ١٨٤٠ تضم ٩٠٠٠ نسمة ويملك تجارها أربعين سفينة من عابرات المحيط ، غير أن عدد السفن انخفض فى الثمانينات من القرن التاسع عشر الى ثمانى سفن صغيرة فقط تستخدم فى الرحلات الداخلية ، بالاضافة الى عدد من سفن الصيد . كما انخفض

---

(٢٤) التقرير الادارى ١٨٧٦ — ٧٧ ص ٥١ و « الجنوب العربى » ، تأليف بنت (طبعة لندن ١٩٠٠) ص ٨٣ — ٨٦ .

(٢٥) السجلات الرسمية لحكومة بومبى : ١٨٥٦ ص ٦٢٩ وكتاب لوريمر مجلد ٢ ص ١١٩٧ — ١٢٠١ فى سنة ١٩٠٧ انخفض عدد سكان مدينة مطرح الى ٧ آلاف نسمة فقط .

عدد سكانها فى سنة ١٩٠٠ الى ٤٠٠٠ نسمة [٢٦] • وبالاضافة الى ذلــك تدهورت حالة عدد آخر من المدن الساحلية مثل بركا وشناص ، وصحم ، والمصنعة والسويق التى كانت تمد خزينة الحكومة فى مسقط بعشرين ألف ريال نمسوى كل عام فى صورة ضرائب ورسوم • بينما انخفض ما قدمته فى عهد خليفة سعيد سنة ١٩٠٤ الى ألفى ريال فقط [٢٧] • وهناك مــدن أخرى على ساحل الباطنة احتفظت بعدد سكانها بحكم اعتمادها على صيد الأسماك وزراعة البلح ، ولم يكن لها أى نشاط تجارى آخر • ولا نعرف بالتأكيد المناطق التى هاجر اليها سكان هذه المدن على أثر تلك الأحداث • وقبل سنة ١٨٥٦ كان الأجانب يشكلون نسبة كبيرة من سكان مسقط ، وذلك بسبب فرص ومجالات العمل التى توفرها لهم • ومن هنا يمكن القول بأن هؤلاء عادوا الى مواطنهم الأصلية • أما العمانيون فكان فى امكانهم العودة الى الأرياف حيث قراهم ومواطنهم الأصلية • ومن المؤكد أن البلاد قــد شهدت هجرة مستمرة فى الســتينات والسبعينات من القــرن التاســع عشر [٢٨] • ولم ينج من نتائج التدهور التجارى والاقتصــادى والمادى الذى اجتاح السواحل العمانية فى نهاية القرن التاسع عشر غير مدينــة صور ، وذلك لاعتمادها على النشاطات التجارية المنوعة •

أزمة النقد فى عمان : غير أن البلاد منيت بكارثة أسوأ من سنة ١٨٧٠ وسنة ١٩٠٠ وهى كارثة لم تنج منها أى منطقة فى عمان ، ونعنى بها أزمة العملة والنقد التى تفاقمت بسببها المشكلات الاقتصــادية الأخرى التى

---

(٢٦) رحــلة الى جزيرة العرب ، تأليف : ولســتد جــزء ١ ص ٢٢٩ والسجلات الرسمية لحكومة بومبى ، ١٨٥٦ ص ٦٢٥ — ٥٢٦ وكتاب لوريمر مجلد ٢ ص ١٨٢٨ — ١٨٤٠ وكتاب « الجزيرة العربية مهد الاسلام » تأليف : اس • دبليو زويمر (طبعة نيويورك ١٩٠٠) ص ٨٤ •

(٢٧) السجلات الرســمية لحكومة بومبى — ١٨٥٦ ص ٦٢٤ — ٦٢٨ وكتاب لوريمر مجلد ٢ ص ٢٥٦ — ٢٦٦ و ١٦٤٥ و ١٨٢٠ و ١٨١٥ •

(٢٨) التقرير الادارى ١٨٧٧ — ١٨٧٨ ص ١٢٦ — ١٢٩ •

كانت تعانى منها البلاد يومئذ . وتعود أسباب هـذه الأزمة الى هبـوط احتياطى عمان من النقد والعملة الذى كان يرتكـز فى الريال النمسـوى (ويسمى أيضا التاج الألمانى) وذلك فى الثلاثين عاما الأخيرة من القرن . وكان سعر هذا الريال يتحدد بعد فترة السبعينات من القرن التاسع عشر وفقا لأسعار الفضة السائدة حسب القانون العمانى [٢٩] . والى جانب الريال النمسوى توجد عملات أخرى من مختلف الأنواع من معدن فضى ردىء منها الريال البصراوى ، والعملات الممسوحة أو المكسورة والريالات النحاسية ، ولكنها كانت عملات رخيصة . وبعبارة أخرى كانت عملة عمان تخضع لتقلبات الأسعار العالمية للفضة .

وبحكم العلاقة التجارية الوثيقة بين مسقط والهند ، كانت عملة البلاد مرتبطة بالروبية الهندية بصورة غير رسمية منذ سنة ١٨٣٥ . وكان الريال النمسوى يعادل ١١ر٢ آنة بالعملة الهندية رغم أن سعر التحويل كان يتغير وفقا لمتغيرات السعر . وكان من السهل تغيير الروبية الى الريال النمسوى ، لأن الفضة التى يتكون منها الريال يمكن اعادة صكها الى روبيات فى مراكز الصك الحكومية فى بومبى وكلكتا . وفى نهاية القرن التاسع عشر تعرضت العملات الفضية لأزمة عالمية . ومن هذه العملات الريال الفضى الأمريكى . وبعد عام ١٨٧٣ أخذ السعر الذهبى لجميع العملات الفضية فى العـالم فى الانخفاض بسبب الزيادة فى الانتاج العالمى من الفضة . وقد سعرت أوقية الفضة التى كانت تباع بـ ٢/١ر٦٠ ستين بنسا ونصف فى سنة ١٨٧١ — ٧٢ بـ ٢٦ ٣٢/١٥ بنسا فى سنة ١٨٩٨ — ١٨٩٩ [٣٠] . أما فى الهنـد فقـد

---

(٢٩) مبايعة الامام عزان بن قيس وقد ورد كمرفق فى خطاب رقم ٨١ — ٧ بتاريخ ١٨٧١/١/١٤ من بلى الى ديوك اوف ارجيل راجع سـجلات الحكومة رقم ٢ مجلد ١٧ .

(٣٠) النظام النقدى فى الهند (طبعة بومبى ١٩٥٥) ص ١٨٨ ايضا موجز تاريخ العملة فى الهند . تأليف ك ان . اس نامبودريباد (طبعة بونا ١٩٥٥) ص ٥٠ .

عولجت هذه المشكلة باصدار كميات اضافية من الروبيات — وعمـــلات أساسها الفضة — كمحاولة لتسوية ميزان المدفوعات البريطانية حيث ظلت عملتها التى تعتمد على الذهب ثابتة طوال هـذه الفترة • وبمرور الوقت تسبب الاصدار التضخمى للروبية الهندية فى زعزعة استقرارها المالى ، مما أضر كثيرا بعلاقاتها التجارية مع بريطانيا وكعلاج لهذه المشكلة قررت الهند اتخاذ الذهب قاعدة لنظام عملتها • غير أن الخطوة الحاسمة فى هذا الموضوع اتخذت على سبيل المثال فى سنة ١٨٩٣ حينما قررت الهند منـــع صك الفضة فى معامل الصك التابعة لها ، كاجراء للحد من كمية الروبيات المتداولة • وعلى الرغم من أن الهند لم تتخذ من الذهب قاعدة لعملتها ، فان الانخفاض فى سعر العملة الهندية قد توقف فى سنة ١٩٠٠ • وقد تمت عملية تثبيت سعر الروبية بتحويلها الى قيمة اسمية تعــادل شلنا وأربع بنسات أو ١٥ روبية للجنيه الاسترلينى (٣١) • ولقد انجرفت عمـــلات الخليج شرقا نحو الهند ، وطوال الفترة التى كان صك العملات الفضـــية مسموحا به فى الهند كانت عملية تبادل العملات بالصورة التقليدية المعمول بها قائمة حتى فى حالة انخفاض قيمة الريال على أثر التحول الذى حدث فى أسعار الفضة عام ١٨٧٣ • ومن المؤكد أن الأسعار كان من الممكن أن ترتفع ، غير أن هذه المشكلة كان يمكن حلهـــا عن طريق التبادل بالفضـــة لتغطية أى زيادة فى الأسعار • وعلى أى حال ، فبعد اغلاق معامل صـــك العملة فى الهند سنة ١٨٩٣ تعرضت عمان وغيرها من بلدان الخليج العربى لعملية استنزاف خطيرة لاحتياطيها من الروبية الهندية والعملات النحاسية التى تسمى بلغة أهل البلاد (البيسة) وقد استحال تعويضه • ومن جهة أخرى فان انخفاض أسعار الفضة ، أدى بدوره الى خفض ســـعر الريال النمسوى • واذا كان سعر الجنيه الاسترلينى فى سنة ١٨٦١ يســـاوى ٤٧ ريالا نمسويا فان سعره فى سنة ١٩٠٢ قد ارتفع الى ١١ ريالا نمسويا •

---

(٣١) التنمية الاقتصادية فى الهند ص ٤٠٩ — ٤١٠ •

وقد أسفر هذا عن عجز خطير فى العملة والنقد وعلى الأخص فى الوحدات الصغيرة من العملة العمانية وهى البيسات النحاسية التى تستعملها الطبقات الفقيرة ومما زاد المشكلة أن أسعار الصادرات بل والأسعار بوجه عام ظلت فى تصاعد ، بينما أخذت أسعار الفضة فى التقلب وان كان هذا التقلب يتجه نحو الانخفاض . وقد تمخض هذا الوضع عن سخط عارم بين التجار ، كما فجر مضاربات مميتة فى العملات . ولقد كان أساس المشكلة هو أن الريال النمسوى فى سنة ١٨٩٣ كان يحتفظ بمركزه بالنسبة الى الروبية التى كانت تتمتع بالثبات آنئذ ، على غرار الروبية غير الثابتة بالنسبة الى الجنيه الذهب فيما بين سنة ١٨٧٣ و سنة ١٨٩٣ . غير أن الموقفين يختلفان، بمعنى أنه لم يعد بالامكان سد العجز فى احتياطى العملة فى مسقط ، بعد أن أصدرت حكومة الهند قرار وقف سك الروبيات الفضية فى معاملها وبالتالى لم يبق هناك فى التسعينات من القرن رصيد من العملة يكفى لتغطية الفرق فى أسعار الواردات التى أخذت أرقامها ترتفع بينما أخذ سعر الريال فى الانخفاض (٣٢) .

ولقد عانى كل عمانى تقريبا من هذه الحالة ، وعلى الأخص المناطق الساحلية . كما تفاقمت الأزمة السياسية بعد أن اضطر السلطان الى الاقتراض لتسديد النفقات الحكومية . وقد وجدت الطبقات الفقيرة نفسها بين شقى الرحى : الارتفاع فى أسعار العملة حيث ارتفع سعر الريال النمسوى فى سنة ١٨٦١ من ١١٠ بيسات الى ١٣٠ بيسة بينما أصبح سعره فى سنة ١٩٠٤ ٢٢٠ الى ٢٧٠ بيسة من جهة والنقص فى كمية العملات المتداولة واللازمة لشراء الضروريات من الأسواق من جهة أخرى . وبالتالى انخفضت الواردات . كما لم تفلح الجهود لزيادة الصادرات لسد العجز .

---

(٣٢) رسالة مؤرخة ١٨٦٤/٢/٢٧ من قرير الى وود والتقرير الادارى ١٨٩٣ — ١٨٩٤ ص ٩٣ وكتاب لوريمر مجلد ١، ص ٥٨٦ وكتاب Précis Maskat ١٣٤ وص ١٣٩ .

وفى هذا الجو النقدى الملبد سدت الأبواب أمام التجـار للحصـول على القروض والائتمانات ، وبالتالى انخفضت القيمة الفعلية للقروض غـير المدفوعة . ولقد فكر السلطان فى فرض قيود على تصدير النقد الى الخارج وبالأخص العملات النحاسية غير أنه تراجع فى قراره هذا بعد أن تأكد أنه سوف يقضى على البقية الباقية من تجارة البلد . وأخيرا قرر السـلطان صك العملات النحاسية داخل البلاد كمحاولة لسد النقص فى العمـلات الهندية الصغيرة ، غير أن هذه الخطة لم تنجح فى معالجـة نقص العمـلة النحاسية . وقبل أن ينتعش سعر الريال النمسوى من جديد سنة ١٩٠٤ فى أعقاب الثبات فى عملة الروبية ، قرر السلطان اتخاذ العملة الهندية عملة رسمية للبلاد والتخلى نهائيا عن فكرة العملة المستقلة لعمان (٣٢) .

ولأزمة العملة فى عمان جانبان جديران بالاهتمام . أولهما ارتبـاط عمان بالنشاط الاقتصادى العالمى بعد سنة ١٨٦٢ . الأمر الذى يجعل أقل اهتزاز فى مستوى أسعار المواد والنقود ، يؤثر على رخاء سكان البـلاد كلها . وعلى الرغم من تأثر الاقتصاد العمانى بالاتجاهات التجـارية فى العالم ، الا أنه كان أكثر استقلالا ومرونة ، وضماناً . أما الجانب الآخر من الأزمة فهو أن الأرقام المنمورة عن تجارة عمان يجب أن لا تؤخذ على علاتها . فبالنسبة للريالات النمسوية ، ارتفع مجموع قيمة تجارة مسقط من ٢٫١٩٧٫٨١٥ ريالا فى سنة ١٨٧٤ — ٧٥ الى ٥٫٧١١٫٣٥٠ فى سـنة ١٩٠٢ وسنة ١٩٠٣ . وبالتالى فان تجارة البلاد فى مجموعها قد سـادها الكساد ، وذلك لأسباب عديدة أهمها أزمة النقد والعمـلات العالمية التى أطلت برأسها فى أواخر القرن التاسع عشر .

---

(٣٢) المصدر نفسه ص ١٣٤ — ١٣٩ .

سيطرة التجار الهنود على التجارة :

لقد كان التاجر الهندى من السمات المألوفة فى الخليج والضفاف الغربية للمحيط الهندى منذ أزمان بعيدة . ومنذ فجر الاسلام على أقل تقدير كان التجار الهنود يترددون على الأجزاء الساحلية من المحيط الهندى وعندما اجتاز فاسكو ديجاما هذه المناطق شاهد عددا من المستعمرات الهندية المزدهرة فى شرقى أفريقيا . أما فى الخليج فقد كان محور نشاط التاجر الهندى بوجه عام التجارة . ويمكن تقسيم التجار الهنود الى فئتين : البانيان أى البوذيون والخوجا — المسلمون . ولفظة البانيان هى تحريف لكلمة « بهاتيا » وهو اسم احدى الطبقات التجارية فى الهند اقترن تاريخها بالاتجار مع الخارج . وأفراد هذه الطبقة بالاضافة الى الطائفة المعروفة باسم لوهانا وانيا تشكل المجموع الأكبر من الجالية التجارية فى الجزء الغربى من المحيط الهندى . والمعروف عن التجار الهنود — بوذيين ومسلمين — انهم يتكيفون مع بيئة سكان البلاد التى يقيمون فيها مع احتفاظهم بتقاليدهم وطريقة حياتهم [٣٤] . وعلى الرغم من أن هؤلاء التجار قد اضطروا بعد وصول الأوربيين الى المياه الشرقية الى اعادة النظر فى أساليبهم التجارية ، الا أنهم ظلوا محتفظين بمركزهم السابق وعلى الأخص فى بعض موانىء الجهة الغربية من المحيط الهندى . ويقيم بعض التجار الهنود فى مسقط بصفة دائمة . وفى القرن السابع عشر كان التاجر الهندى ناروتام ، وهو من عباد البقرة ، أحد الذين حرضوا على الحرب التى كان لها الفضل فى طرد البرتغاليين من عمان [٣٥] . وبحلول القرن الثامن عشر ، كان الهنود يؤلفون جالية تجارية ناجحة فى مسقط ، ولكنهم نادرا ما كانوا يستوطنون المناطق الأخرى فى الخليج أو فى افريقية الشرقية . وفى أواخر سنة ١٨٢٠ لم يبق من التجار الهنود فى زنجبار أو

---

(٣٤) فرير Precis Slave ص ٧ — ٨ مجلد ١٦ اوكتوبر ١٨٧٣ .
(٣٥) ابن رزيق ، ص ٨١ .

افريقية الشرقية الا عدد أقل ممن استوطنوها قبل أربعين سنة مضت . وكان التجار الهنود فخورين بهذا . غير أن اقامة التجار الهنود ترتبط بتوفير الأمن لهم ولممتلكاتهم قبل أن يفكروا بالاقامة وهذا ما لم يكن متوفرا لهم فى زنجبار وغيرها من موانىء شرقى افريقيا [٣٦] .

ومن المفارقات العجيبة أن النفوذ التجارى الهندى وعدد التجار الهنود فى المنطقة الغربية من المحيط الهندى قد زادا رغم خضوع الاقتصاد القومى فى الهند للاقتصاد البريطانى الحديث ، غير أن الخطوات التى اتخذها السيد سعيد لتطوير تجارة زنجبار وافريقية الشرقية كانت حافزا لتكاثر التجار الهنود فى المنطقة فى غضون القرن التاسع عشر : فلقد أراد السيد سعيد بذلك أن يتولى التجار الهنود عمليات تسويق وتمويل محاصيله الزراعية من جوز الهند والبلح ، كما أسهم هؤلاء التجار أيضا فى تمويل عمليات تجارة الرقيق فى افريقيا . وكان تصاعد النشاط التجارى فى مستعمرات سعيد عاملا من عوامل استقرار الهنود فى الأجزاء الآسيوية من دولته ، فقد بلغ عدد التجار الهنود الذين نزحوا الى مسقط ومطرح فى سنة ١٨٤٠ نحو ألفى هندى [٣٧] .

لقد كانت أهمية الهندى بالنسبة للامبراطورية العمانية فى أوائل القرن التاسع عشر أنه التاجر الوحيد الذى كان يمكنه الاضطلاع ببعض القطاعات الاقتصادية ، خصوصا عمليات التمويل ، ومن هنا كان من مصلحة السلطات العمانية تشجيع مثل هذا النشاط . ويتم تنفيذ العمليات التجارية بالتعاون بين التجار الهنود والمؤسسات التجارية المماثلة فى أنحاء أخرى من

(٣٦) « البانيان » فرير و Precis Slave ص ٧ — ١٣ والتقرير الادارى لسنة ١٨٨٧ — ١٨٨٨ ص ٢٢ .

(٣٧) « افريقيا الشرقية وغزاتها » ص ٣١٤ السجلات الرسمية لحكومة بومبى — ١٨٥٦ ص ٦٣١ — ٦٣٢ وابن رزيق ص ٨١ .

الامبراطورية العمانية ، وفى الهند نفسها • ويبدأ التجار الهنود أعمالهم التجارية برؤوس أموال صغيرة ، ويمكنهم أن يعيشوا فى ظروف وأوضاع لا يمكن أن يعيشها غيرهم من الجاليات • وتمكن التجار الهنود تدريجيا وقبل سنة ١٨٥٦ أن يستردوا ما كان لهم من مركز تجارى فى المحيط الهندى قبل وصول فاسكوديجاما • فالأعمال التجارية التى لم يكن العرب يتوقعون لها أى نجاح ويعتبرها الأوربيون أعمالا تافهة ، سطا عليها الهنود ، وحولوها خلال فترة قصيرة الى أعمال ناجحة [٣٨] •

وكان المرابى أو السمسار يعتبر تاجرا نموذجيا ، كما كان الهنود يعملون وكلاء للسفن التجارية الأوروبية • وكان لبعض التجار الهنود نفوذ عند السيد سعيد ، ومما يؤيد ذلك أن السلطان كان يمنح بعض هؤلاء التجار امتياز الادارات الجمركية فى كل من مسقط وزنجبار نظير مبالغ معينة • وقبل أن تندلع الثورة الاقتصادية فى الستينات من القرن التاسع عشر أفرز النظام التجارى فى عمان نموذجا خاصا به ، كان الهنود يقومون فيه بدور المولين ، وتجار الجملة والتجزئة ، ووكلاء المؤسسات الأوربية الأجنبية • أما العرب فكان نشاطهم ينحصر فى الملاحة رغم أن عددا ملحوظا منهم كان يمارس الأعمال التجارية أما السلطان سعيد فلم يكن له نشاط تجارى من هذا النوع بل كان يملك خطوطا ملاحية وملكيات زراعية • وعلى حين كان رأس مال التجار الهنود يستثمر فى السلع المنقولة التى يسهل توزيعها كالحبوب والأقمشة ، كان العرب يستثمرون رؤوس أموالهم فى بناء السفن وفى العقارات • وقد أدخلت تعديلات على هذا النمط من الأعمال التجارية فى الأربعينات والخمسينات من القرن التاسع عشر ، ومرد ذلك فى المقام الأول الى أن العرب وعلى رأسهم السلطان ، كانوا يستفيدون من

---

(٣٨) « البانيان » من كتاب Precis Slave ص ٧ — ١٣ ، تأليف : فرير •

الامكانيات المالية لرجال الأعمال الهنود وكانوا يعقدون معهم قروضا طويلة الأجل . وقد ارتفعت نسبة القروض الهندية للتجار العرب مع مرور الوقت، بحيث غدا الهنود فى أواخر حكم السلطان سعيد يملكون ، بل ويسيطرون على الجانب الأكبر من السفن العربية . وكانت نتيجة هذا الوضع تجميد الديون بعد أن تعذر على التجار العرب تسديدها . وسبق أن ذكرنا كيفية انتقال الأساطيل التجارية العربية فى نهاية القرن التاسع عشر الى الهنود ، كنتيجة لعجز التجار العرب عن الصمود للأزمات القاسية التى شهدتها المرحلة [٣٩] . وفى سنة ١٨٥٦ أصبح من المتعذر على الأسواق الأوروبية ، أو الأمريكية أو الهندية ، أو المحلية عقد صفقات تجارية مع أى جزء فى الامبراطورية العمانية ما لم يكن للتجار الهنود نصيب فى تلك الصفقات بصورة أو بأخرى ، وان ظل فى الامكان توزيع بعض السلع والمنتجات الأوروبية فى الأسواق المحلية مباشرة ومن غير وساطة الوكلاء التجاريين الهنود . وكانت بعض المحال التجارية الهندية فى عمان محال قد مضى عليها زمن طويل ، ولديها امكانيات كبيرة من رؤوس الأموال ، وهى مكونة من أطراف متعددة وتستخدم جيشا من الموظفين . وفى أكثر الحالات كان هؤلاء من شباب التجار الذين أمضوا فترة من التدريب فى محال تجارية أخرى لها مراكزها وبدأوا نشاطا تجاريا مستقلا بأموال أو بضائع اقترضوها من تجار آخرين من أبناء جلدتهم . ولقد كانت هناك علاقات وثيقة متداخلة على الدوام تربط بين أفراد المؤسسات التجارية العاملة فى مناطق ساحل المحيط الهندى وفى الهند نفسها . وبالتالى فمن الجائز أن يقوم أحد تجار الهنود فى مسقط بتمثيل مجموعة كبيرة من المؤسسات لها فروعها فى مناطق أخرى مثل زنجبار ، والبحرين ، وأبو شهر ، وكراتشى ، وبومبى ، وكلكتا . وهكذا سرعان ما أخذ التجار الأوروبيون العاملون فى المنطقة يستعينون بخبرة

---

(٣٩) نفس المصدر « تقرير عن زنجبار » تأليف رجى السجلات الرسمية لحكومة بومبى رقم ل ٩ سنة ١٨٦١ . ص ٥ — ٢٠ وص ٦٣١ — ٦٣٢ .

التجار الهنود فى جميع مجال النشاطات التجارية • ولقد كان التاجر الهندى ينظر الى الملاحين والتجار ، أوروبيين كانوا أم عربا أم افريقيين كحلقة فى مؤسسة تجارية هندية من حيث الأساس (٤٠) •

لقد أكدنا آنفا ان دخول السفن البخارية الناقلة الى منطقة غربى المحيط الهندى والخليج العربى ابان الستينات من القرن التاسع عشر كان عاملا أساسيا من عوامل تفجير ثورة اقتصادية عميقة فى المنطقة • وطبيعى أن يضار كل من التجار العرب والهنود من تدهور الوضع الاقتصادى للمنطقة ، مما أدى الى هجرة عدد من التجار الهنود الى المنطقة الأكثر ازدهارا • ومما يثير الفضول ان من بقى من أولئك التجار فى مسقط وعمان استفاد من التطورات الاقتصادية الحديثة التى شهدتها المنطقة • ان المحاولات العامة لاعادة تنظيم المجتمع التجارى فى الخليج خلال الستينات من القرن التاسع عشر ، قد فتحت أمام التجار آفاقا واسعة للافادة من التغييرات التى تناولت العلاقات الاقتصادية فى المنطقة • وأصبح التاجر الهندى ، كوكيل مباشر للمؤسسات التجارية وخطوط الملاحة التجارية الأوربية ، عاملا فى اقتصاد الخليج أكثر من أى وقت مضى ، على الأخص بعد انسحاب عدد كبير من رجال الأعمال العرب المحنكين من ميدان التجارة • وفى السبعينات من القرن التاسع عشر أصبح الهنود يسيطرون على جانب كبير من تجارة الخليج الداخلية •

غير ان التاجر الهندى فى عمان لم يكن يعتبر فى نهاية القرن التاسع عشر كجزء من النظام التجارى العربى ، كما انه لم يكن جزءا من المجتمع العربى الذى يمارس فيه نشاطه التجارى • بل لم يكن دوره يتعدى دور

---

(٤٠) « البانيان » ، Precis Commerce ، تاليف غرير من ص ٧ الى ص ١٣ ورسالة رقم ٧٦٤ — ٧٥ بتاريخ ١٨٧٢/٥/١٨ من بلى الى دوق أرجيل دار المقيم البريطانى — من سجلات حكومة الهند — رقم ٢ مجلد ٢٠ •

الوسيط بين أوربا الحديثة ، وعمان التقليدية الشرقية • وحتى بعد ازدياد التغلغل الاوربى فى الشؤون الاقتصاديه للخليج فى أعقاب الستينات من القرن التاسع عشر ، لم تكن المؤسسات التجاريه الاوربيه باستثناء عـدد محدود منها كشركة جرى ماكنزى (المحدودة) Gray Maekenzie LTD تتعامل مباشرة مع سكان المنطقة فقد كانت غالبيتها تؤثر التعامل عن طريق التجار الهنود المقيمين ، ويعود السبب لهذا الاتجاه الى وجود « نظـام الوكلاء الاداريين » وهو عنصر أساسى فى التنظيم التجـارى الذى يشمل مناطق واسعة من الشرق •

وما يميز البيوت التجارية الهنديه هو التقليد الذى يجمعها فى عضويته مع مجموعة من المؤسسات التجارية المتحالفة والمتداخلة • وعلى أثر انهاء احتكار شركة الهند الشرقية للتجارة الخارجية ، واعادة تنظيمها سنة ١٨٣٣ ، تشجعت المؤسسات التجارية المحلية فى الهند على تنظيم شبكة مؤسساتها التجارية ودعمها • فكان من نتيجتها ادخال « نظام الوكـلاء الاداريين » كخطوة فى سبيل ضمان متطلبات المرحلة الاقتصادية الجديدة [٤١] •

ولقد كانت أهم نتيجة أسفر عنها هذا الارتباط بمجمـوعة المؤسسات التوكيلية ، هى توفير الخبرة بالأسواق الجديدة وبالأجهزة التجارية العاملة وتوزيع المسؤوليات على عدد كبير من الشركاء أهمها ضمان مصادر القروض القصيرة والطويلة الأجل • ولابد لأى مؤسسة تجارية غربية ترغب ، مثلا ، فى القيام بأعمال تجارية فى مسقط ، أن تتفق مع شريك من التجار الهنود ، لان هذا يسهل لها كثيرا من المشاكل التجارية التى قد تواجهها • لأن دور التاجر الهندى هنا ضرورى فى تقديم المشورة للمؤسسة الغربية وتمهيـد الطريق لها للدخول الى الميادين الاقتصادية المحليـة • وعلى الرغم من

---

(٤١) الاقتصاد الصناعى فى الهند ص ٤٢١ ، تاليف كوشال (Kushal)

ارتباط التاجر الهندى فى مسقط بالنظـام الغربى للمؤسسات التجـارية المتمركزة فى الهند ، فقد كان يزاول أعماله التجارية على النمط التقليـدى المعمول به فى البلاد • وفى أكثر الحالات كان الوكلاء التجاريون الهنود فى مسقط يعينون لهم وكلاء محليين فى كافة أنحاء البلاد • والى جانب الكفاءة التى يتمتع بها الوكلاء التجاريون الهنود فى الأسواق المحلية ، بحكم معرفتهم بالتقاليد والأوضاع المحلية ، كانوا يعرفون كيف يحلون مشكلة ادارة هـذه المؤسسات التى لم يكن ممثلوها موجودين أو يستطيعون البقاء فى المنطقة ، وعلى هذا الأساس كانت المؤسسات الرئيسية تتفـادى بنفسها المشـاكل والمجازفات التى قد تتعرض لها من وجود فروع لها فى مناطق ليست لها معرفة أو اتصال سابق بها • وبالتالى فان نظام الوكلاء الاداريين معنـاه ادارة مؤسسات تجارية حديثة ، أو مؤسسات غربية متمركزة فى الهند فى مناطق كعمان من جانب أشخاص لا يعملون مباشرة فى المؤسسات المنتدبة لها (بكسر الدال) ، أو بالأحرى تقوم المؤسسات العاملة فعلا بتمثيـل الشركات الرئيسية فى المناطق المفروض أن تمارس فيها نشاطها التجارى • وكانت المؤسسات الممثلة تتمتع بسمعة طيبة فى المناطق التى تعمل فيهـا • كما كانت تقوم بعمليات تجارية واسعة لحسابها الخاص ، ولا علاقة لهـا بمصالح المؤسسات الأخرى الداخلة ضمن المجموعة • وفضلا عن ذلك كان قسم كبير من المؤسسات التوكيلية يشرف على مجموعة من بيوت التجـارة العامة ، غير مختص بنوع معين من النشاط ، وفى الوقت نفسه يمثل عددا من الشركات الأوربية • أما الوضع الحقيقى لأغلب المؤسسات التوكيلية فى الهند ، فقد كان أقرب الى وضع الشريك المقيم منه الى وضع الشريك التابع للشركات الأصلية • وكانت العلاقة بين الوكيل وصاحب المؤسسة الأصلية ، أو بين الوكلاء العاملين فى مختلف المناطق تقوم على أساس العمولة أو الرسم المباشر • ومن مزايا هذا النظام انه فى وسع أى مؤسسة توكيلية عاملة فى مسقط أن تحصل على قرض أو مقدم من الأموال من المؤسسات الرئيسية • وهو يشبه نظام التأمين ضد الحريق المعمول به فى الولايات المتحدة حاليا •

حيث يمثل الشركات الرئيسية آلاف مؤلفه من الوكــلاء المحليين الخبيرين بأحوال المناطق المباشرة التى يمارســون فيها نشــاطهم على الأســاس المذكور [٤٢] •

غير ان هذا النظام كانت له عيوب خطيرة ، على رأسها عمليات الغش التجارى ، أو سوء الادارة من جانب الوكلاء المحليين • لأن الشركات المحلية يهمها ما تحصل عليه من أرباح محلية ، أكثر مما يهمها مصــالح الشركات الأم • ولقد كان اغراق الأسواق المحلية بالسلع التى ترد اليها من الشركات الأم احدى الوسائل التى تلجأ اليها الشركات التوكيلية لمنافســة بعضها البعض • غير أن هذا الأسلوب كان يثير مشــاكل تجــارية دورية ، تدفع بالمؤسسات الى هوة الافلاس فى الوقت الذى لا تخدم مصالح الشركات الأم • وعلى الرغم من أن المؤسسات العربية الضعيفة التنظيم والمحدودة التمويل كانت أولى ضحايا هذا النظام ، الا أن عددا من الشركات الهندية قد خرت صريعة معها • وهكذا أخذ نظام الوكلاء الاداريين يعزز من عمليات المضاربة والتلاعب وسيطرة العمليات القصيرة فى ميدان ادارة الأعمال[٤٣] •

ويعود نجاح التجار الهنود فى السيطرة على المرافق التجارية فى عمان كما هو واضح ، الى القروض وعمليات تصدير رؤوس الأموال من والى المناطق التى يعملون فيها عبر شــبكات عــديدة من المؤسسات والشركات الرئيسية المتداخلة المنتشرة فى منطقتى المحيط الهندى والخليج العربى • فالنشاط التجارى الهندى بحكم طابعه التعاونى كان يتعارض بكل وضوح مع النشاط الفردى للتجار العرب من أهل البلاد •

---

(٤٢) نفس المصدر ص ٤٢١ — ٤٣٢ وكتاب « التجارة » ، تاليف : انستى ص ١٣٤ — ١٣٨ •

(٤٣) « الاقتصاد الصناعى للهند » صفحة ٤٣٣ — ٣٦ تاليف كوشـــال • وانتسى صفحة ١٣٤ — ١٣٨ •

غير أن الأحداث السياسية والاقتصادية فى الستينات من القرن التاسع عشر ، قد عززت من سيطرة التجار الهنود على الحياة الاقتصادية لعمان الساحلية حتى أصبح هؤلاء يسيطرون عليها سيطرة كاملة فى سنة ١٨٧١ . كما انهار فى هذه الفترة البناء التقليدى الذى قامت عليه تجارة ورفاهية العرب سكان المنطقة . فقد شلت حركة تجميع السلع فى ميناء مسقط ، ولم يبق للسفن المحلية أى شىء من أعمال النقل . كما أسهم التصدع السياسى للامبراطورية العمانية فى فصم العلاقات التجارية مع أفريقيا ، ومن ناحية أخرى قضت الأزمات السياسية فى عمان بتولى العناصر المحافظة للحكم فى الشطر الساحلى من البلاد سنة ١٨٦٨ وذلك قضى على نشاط التاجر العربى قضاء مبرماً ، حتى انخفض عدد التجار من ذوى الشأن على حد ما جاء فى تقرير أعده بلى فى سنة ١٨٦٩ الى اثنين أو ثلاثة . وعلى الرغم من مواصلة التجار العرب لنشاطهم التجارى الداخلى ، وعلى المدن الساحلية الصغيرة بعد السبعينات من القرن ، الا أن غالبية التجار الذين كان لهم نشاط فى وقت من الأوقات فى المدن الساحلية الرئيسية ، قد هجروها الى قراهم فى الداخل أو غادروها الى زنجبار . وهكذا مهد الجو للتجار الهنود [٤٤] .

وعلى أى حال فان التجار الهنود لم ينجوا بدورهم من الكساد التجارى الذى قضى على التجار العرب . فقد انخفض عدد الجالية التجارية الهندية من ألفى رجل فى الأربعينات من القرن التاسع عشر الى مائتين وخمسين تاجرا فى سنة ١٨٦٩ . كما بقى فى مدينة مطرح نحو ألف شخص من التجار الهنود المسلمين — طائفة الخوجا غير ان عدد الذكور فى هذه الطائفة لم يكن يتجاوز المائتين وخمسين شخصا [٤٥] . أما عدد الجالية

---

(٤٤) رسالة رقم ٤١ بتاريخ ١٨٦٤/٨/٢٣ من بلى الى اندرسون ورسالة اخرى رقم ١٤٠ بتاريخ ١٨٦٩/٦/١٩ من بلى الى جاون وكتاب Precis Commerce ص ٢٨ — ٣٠ .

(٤٥) رسالة رقم ٢٨٥ مؤرخة ١٨٦٩/٥/١٤ من دسبراو الى جاون .

الهندية فى كل من مسقط ومطرح فقد ظل كما هو خلال الفترة الباقيـــة من القرن ، ومن الطريف أن نلاحظ أن عدد التجار العرب الهامين لم يكن يربو فى سنة ١٩٠٢ على ثلاثة تجار [٤٦] .

وفى عام ١٩٠٠ أصبح التجار الهنود يسيطرون نسبيا على جانب أكبر من تجارة عمان الخارجية ، بينما انخفض عدد أفراد الجالية ، على ما يبدو عما كان عليه عام ١٨٥٦ ، كما شمل الركود والجمود اللذان منى بهما اقتصاد مسقط التجار الهنود ككل فى عمان .

ما بين سنة ١٨٧٠ وسنة ١٩٠٠ كان نشاط الهنود التجارى يشمل : التصدير . والاستيراد ، وتجارة التوزيع والجملة والتجزئة ، وأعمـــال البنوك . والوظائف الحكومية والملاحة . والواقع انه لم تكن ثمة بنـــوك بالمعنى الحقيقى للكلمة ، وانما كان العمل يتمثل أساسا فى نظام الكمبيالات ، أو كما كانت تسمى هناك (هنديز Hundis) وهى كمبيالات تحرر فى الهند . وكان نحو نصف رؤوس الأموال الهندية فى مسقط تستثمر فى الهند ، بينما يستخدم الباقى فى النشاط المحلى . وتعتمد الصفقات والمعاملات التجارية فى مسقط على الأموال والقروض التى يقدمها التجار الهنود . ففى ســـنة ١٩٠٠ كان السعر للفائدة فى مسقط يتراوح بين ١ ونصف فى المئة الى ٣ فى المئة فى الشهر . وعلى الرغم من الرهونات والقروض كانت من الاستثمارات المرغوبة ، الا أن الهنود كانوا يربحون أكثر من التجارة . ويتقاضى التاجر الهندى فى مسقط نظير السلع التى يقوم بتوزيعها عمولة قدرها ١٠ بالمئة من القيمة بينما لا يزيد ما يتقضاه التجار فى الهند على ٢ ونصف فى المئة عن نفس العملية . كذلك كانت تجارة الأسلحة وهى أهم بنود التجارة فى عمان

---

(٤٦) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٢٣٨٢ — ٢٣٨٣ ومجلد ٢ ص ١١٩٧ — ١٢٠١ ، وتقرير تجارى ١٩٠١ اعداد أوتاقى ، السجلات الفرنسية مجلد ٢ .

ما بين سنة ١٨٩٠ وسنة ١٩١٢ من أربح العمليات التجارية اذ تصل نسبة أرباحها من ٢٠ بالمئة الى ٣٠ بالمئة . وفى سنة ١٩٠٠ كان غالبية المرابين ، وتجار الأقمشة ، والمواد الغذائية ونحو ٢٠ تاجر أسلحة من الهنود ، كما كانت هناك عشرة بيوت تجارية هندية يعتبر أصحابها الخمسة والثلاثون أغنى تجار مسقط . والواقع أن أكبر تجار مسقط فى القرن التاسع عشر كانوا من الهنود . ويعتبر التاجر الناجح رتنسى برشوتم Ratansi Purshotam أكبر تجار التصدير والاستيراد ، بل وأهم تاجر أسلحة فى منطقة الخليج فى التسعينات من القرن التاسع عشر . وكان يملك جزءا كبيرا من عمارات مسقط . كما ان قروضه للسلطان ومنصبه كمدير للجمارك قد جعل له نفوذا سياسيا وان لم يكن مباشرا [٤٧] .

وغالبية الهندوك أو البانيان فى مسقط قد هاجروا اليها أصلا من منطقة غربى الهند . ولقد اعتاد هؤلاء الاقامة فى المدينة فترات تتراوح بين ١٥ و ٢٠ عاما تتخللها زيارات طويلة الى عائلاتهم ومواطنهم فى الهند . ولم يكن هؤلاء يحضرون معهم عائلاتهم الى مسقط خوفا عليها من قسوة المناخ . واحتكاكهم ببيئة غريبة عنهم ومعادية لهم . وعلى الرغم من ان التاجر الهندى يعتبر من أذكى التجار ، الا أنه كان يعيش فى عزلة عن المجتمع الذى يقيم فيه بقدر الامكان . وكان الهنود يؤدون طقوس ديانتهم فى معابدهم الخاصة ويتمسكون بتقاليدهم الطائفية . وبوجه عام كانوا يعيشون فى عزلة تامة من الوجهة الاجتماعية [٤٨] .

---

(٤٧) « البانيان » ، من Procis Slave ص ٧ — ١٣ ، تأليف فرير وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥٧٨ و ٢٦٢٩ وجزء ٢ ١١٨١ — ١١٨٦ و « علاقات بريطانيا بالخليج » م . داود وكان موضوع رسالة لنيل درجة الدكتوراه (لندن ١٩٥٧) وكذلك « التخطيط الطبى فى مسقط » اى . اس حاباكار .

(٤٨) انطباعات ، اسكود ص ٣٥ — ٣٩ .

أما الطائفة المسلمة من الهنود ــ الخوجا باعتبارها أكبر من الجالية الهندوكية فى عمان ، فيقيم أفرادها فى مدينة مطرح . ويتعاطون الأعمـال التجارية والحرف . ففيهم نجارون وبناة سفن ، وأصحاب محال وحرفيون وتجار صغار . وقد نزح هؤلاء الى مدينة مطرح من منطقة كجرات فى الهند . وعلى عكس الهنود فقد استوطنوا البلاد بصفة دائمة ويرتبط هـؤلاء فى الأصل بالاسماعيلية ، أتباع أغاخان ، غـير أنهم فى الستينات من القـرن انفصلوا عن أغاخان واعتنقوا مذهب الشيعة الاثنى عشرية ، والواقع أن عددا ضئيلا منهم يهتم بتفاصيل الدين ، ولهذا كانوا يركزون نشاطهم على التجارة . وعلى غرار الطوائف الاسلامية الهندية العديدة ، كان الخوجا مرتبطين ارتباطا وثيقا بجاليتهم ، وخاضعين لمجموعة معقدة من القـوانين والتقاليد الطائفية لا تختلف فى كثير من جوانبهـا عن تقاليـد الطائفـة الهندوكية . ولا يقيمون علاقات اجتماعية بالعناصر الأخرى للمجتمـع العمانى [٤٩] .

وكان هناك نوع من التنافس التجارى والاقتصادى بين الهنود المسلمين والبوذيين . وتضم كل طائفة منهما نحو ٢٥٠ من الذكور . ولئن كان البوذيون أقوى من حيث المركز الاقتصادى (ولا يزيد عدد التجـار البـارزين من المسلمين على أكثر من ١٢ تاجرا بالمفهوم السائد) فأنهم أكثر عرضـة للمضايقات والمتاعب المادية ، اذن يعتبرهم بعض الأباضيين من عبدة الأوثان. وقد وقعت فى سنة ١٨٩٤ حادثة تصور طبيعة العلاقة بين المجموعتين الهنديتين الاسلامية والبوذية . فقد امتنع التجار الهنود فى مطرح عن وزن محصول البلح الخاص بالمسلمين ، مما اضطر هؤلاء الى التوجه به الى مسقط لوزنه هناك فى الموازين الخاصة بالهندوك المقيمين فى العاصمة . ويقيم البانيـان

---

(٤٩) الجاليات الاسلامية فى كجرات (طبعة نيويورك) و « البانيان » ؛ تاليف فرير ص ٧ — ١٣ تاليف اس . سى مسرا وكتاب لوريمر مجلد ٢ ص ٣٢١ — ٣٢٣ ، ١٠٣٤ ، ١١٩٧ ، ١٢٠١ وحياة فرير ، تاليف مارتينيو .

على امتداد منطقة الساحل العمانى ، وغالبيتهم من التجار • وفى عام ١٩٠٠ كان مجموع التجار الهنود فى عمان ٣٨٠ تاجرا ٢٥٠ منهم يقيمون فى العاصمة مسقط ، و ٣٧ فى مطرح و ٢٨ فى صور والباقون موزعين على المدن الساحلية الأخرى • ولم يكن مجموع عدد الذكور من الهنود المسلمين (الخوجا) المقيمين فى عمان يزيد على ثلث العدد الكلى • وأكبر جالية من هؤلاء تقيم فى مطرح ويصل عددها الى ٦٨٥ شخصا • وهناك نحو ١٢٠ يسكنون مسقط و ١٠٧ فى الخابورة و ٣٤ فى السويق و ٣١ فى صور • غير أن أفراد كلتا الجاليتين الهنديتين فى عمان — المسلمين والبوذيين — هم جزء من شبكة تجارية يتحكم كبار تجارهم فى مصير المدينتين • وهذه الشبكة فى حد ذاتها تعتبر صورة مصغرة لنظام الوكلاء الاداريين ، الذى يشكل التجار الهنود فى مسقط ومطرح جزءا لا يتجزأ منه • وبوجه عام فان عدد الهنود المسلمين فى المناطق النائية من البلاد أكبر من عدد الهندوك ، وذلك لتعرض الأمن والنظام فى هذه المناطق الى الخطر من وقت الى آخر ، وبالتالى تكون حياة الهندى غير المسلم أكثر عرضة للخطر [٥٠] من الهندى المسلم •

وتعتبر الأساليب التى يستخدمها التجار الهنود فى العمليات التجارية الخاصة بالبلح ، نموذجا للنشاط التجارى والحركة التجارية • ويعتبر البلح أثمن الصادرات العمانية ومصدرا للعملة الأجنبية فى نهاية التسعينات من القرن التاسع عشر اذ بلغ رصيد البلاد من هذه التجارة خلال الفترة المذكورة رقما قياسيا يزيد على ٧٥٠٫٠٠٠ ريال نمسوى • ويجلب البلح المخصص للتصدير من مزارعه فى المنطقة الداخلية من البلاد من وادى سمايل وعمان الوسطى ، والشرقية بوجه عام ، ومن مقاطعة الباطنة كذلك • ويقوم التجار فى مدينة مطرح بتجميعه • ويتم شراء البلح من داخلية عمان عن طريق السماسرة والتجار بعد دفع مقدم من الثمن يدفعه التجار الهنود • فيقوم

---

(٥٠) Precis Maskat ص ٨٩ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٢٣٥١ ومجلد ٢ ص ١٤١١ — ١٢ و ص ١٤٢٥ •

السماسرة بجولة فى المناطق الزراعية لشراء المحصول وشحنه الى مسقط ومطرح • ويحصل السماسرة العرب من هذه العمليات على عمولة تتراوح بين ٢ ونصف بالمئة الى ٥ بالمئة من سعر البلح النهائى • كما يجوز أن يذهب التجار الهنود — من مسلمين وبوذيين — بأنفسهم الى الداخلية للتعاقد على شراء كميات البلح المطلوبة • وعلى أى حال فقد كان من المألوف أن يبقى الهنود فى مراكزهم التجارية لتنظيم عمليات تصدير البلح الى الخارج • ولقد ظلت مدينة مسقط — كمركز للتجار الهنود — المنطقة الرئيسية فى عمان لتصدير المنتجات العمانية الى ما وراء البحار لأنها الميناء البحرى الوحيد الذى تزوره البواخر • أما الهنود المسلمن (الخوجا) فقد كانت مهمتهم تنحصر فى جمع وتوزيع البلح فى داخلية عمان ، وبالتالى كان من الطبيعى أن تكون مدينة مطرح مركزا لنشاطهم • وهى مدينة ساحلية وميناء بحرى هام ، بل هى أكبر موانىء التوزيع بالنسبة لتجارة عمان الداخلية • ولا يختلف النظام التجارى بالنسبة لتجارة البلح عن النظام المتبع فى غيره من النواحى التجارية الأخرى • فالتجار البوذيون يسيطرون على العمليات الخارجية — بينما يتولى الخوجا عمليات التوزيع فى الداخلية ، أما التجار العرب فيعملون كوسطاء وسماسرة للمؤسسات التجارية الهندية فى المناطق الأخرى من البلاد معتمدين على رؤوس أموال التجار الهنود • كما يملكون قوافل الابل والسفن التى تقوم بنقل المنتجات والسلع عبر البلاد كلها (٥١) •

ان موقف العمانى العربى بوجه عام من الهنود موقف التسامح المقرون بالكبرياء • فبينما كان الهنود المسلمون (الخوجا) أقل عرضة للمشاكل والاهانات ، نرى أن البوذيين كثيرا ما كانوا يتعرضون لحوادث الاغتيالات ، سواء فى العاصمة نفسها أو فى خارجها • ولما كانت الاغتيالات تحدث بسبب السرقة وليس لأسباب دينية فمعنى هذا ان أفراد الجالية الهندوكيــة فى الستينات من القرن التاسع عشر لم يكونوا يتمتعون بنفس المعاملة والحماية

---

(٥١) كتاب لوريمر مجلد ٢ ص ١١٨٧ — ٨٨ •

التى كانوا يتمتعون بها على عهد السيد سعيد • ولقد زادت متاعب هؤلاء التجار عندما استولى الأباضيون المحافظون على مقاليد السلطة فى المنطقة الساحلية (١٨٦٨ — ٧١) ، وكنتيجة لأحداث سنة ١٨٧١ اضطرت الحكومة البريطانية الى أن تتعهد بنفسها بحماية الهنود المقيمين فى عمان •

فى سنة ١٨٧٣ وضع البريطانيون صيغة اتفاق الامتيازات الاقليمية للجالية الهندية التى يعتبر أفرادها أنفسهم من رعايا حكومة الهند — البريطانية . وبذلك أصبحوا غير خاضعين للقوانين المحلية وأصبحت السلطات البريطانية الجهة الوحيدة المسؤولة عنهم • وبالتالى أصبح القنصل البريطانى أو بالأحرى سفن الأسطول البريطانى هى المسؤولة عن حمايتهم فى حالة تعرضهم لأى اعتداء أو تهديد • واذا تعرضت أموال أى تاجر هندى أو ممتلكاته لأى تلف من جانب العمانيين • فانه يكون مستحقا لتعويضات يقررها البريطانيون يدفعها المتهم ، أو فى حالة فرار الجانى من جانب السلطات الحاكمة • وقد أوضحت الحكومة البريطانية خلال الحقبات الأخيرة من القرن التاسع عشر بأنها لن تتساهل اطلاقا تجاه أى تدخل فى حرية المستوطنين الهنود أو معاملاتهم التجارية فى عمان • وما ان حلت سنة ١٩٠٣ حتى أصبح التاجر الهندى يتمتع بالأمن والكرامة [٥٢] •

وعلى الرغم من عدم خضوع أفراد الجالية الهندية للسلطات المحلية بحكم اكتسابهم للجنسية البريطانية فان هذا لم يغير من وضعهم كأهم فئة تجارية فى عمان • وقد مكنتهم هذه الأهمية المستمدة فى الدرجة الأولى من براعتهم التجارية ، من ممارسة بعض النفوذ على السياسة المحلية ، لا سيما وان الأموال التى ترد الى خزينة السلطان كانت تعتمد على القروض التى يقدمونها لحكومته ، وعلى اشرافهم على المصالح الجمركية للبلاد • فكلما

---

(٥٢) المصدر السابق مجلد ١ — ٢٥٦٢٩ •

استطاعت حكومة السلطان توفير المناخ التجارى الملائم للهنود ، كلما أمكنها الحصول على قروض مالية منهم • ولم يكن التجار الهنود يميلون الى التدخل فى الشؤون السياسية تدخلا مباشرا ، وكانوا يؤثرون ان يتم ذلك من وراء الستار ومع ذلك فان جميع الأعمال السياسية التى اشترك فيها التجار الهنود ، ومن بينها سيطرتهم على الجمارك ، لم يكن لها من هدف سوى تحقيق الربح التجارى •

لقد كان الهنود تجارا بالفطرة ، وكانوا يمارسون التجارة فى تفان وبذهن مركز • كما كانوا الجسر الذى يربط بين المجتمع التقليدى للعرب العمانيين وعالم الغرب المتمدين وبالهند التى غدت فى القرن التاسع عشر المصدر الثانى من مصادر المؤثرات الحضارية للشعوب المجاورة للمحيط الهندى • غير ان التجار الهنود المقيمين فى عمان كانوا عازلا ثقافيا أكثر منهم موجهين ثقافيين • كما أنهم يفضلون القيام بأعمالهم التجارية من غير ضجة ويحاولون دائما التكيف مع عادات أهل البلاد وتقاليدهم قدر المستطاع • ولم يحاولوا قط العمل على تغيير تلك التقاليد والعادات ، أو تغيير تقاليدهم أو أساليبهم التجارية بدرجة تهز الأسس القائمة وتهدد نفوذهم التجارى بالزوال • وعلى الرغم من أن كثيرا من مظاهر الحضارة العصرية قد تسللت الى عمان عن طريق المؤسسات التجارية الهندية • بوجه عام :

١ — كانت تحقق أرباحا من أعمالها التجارية •

٢ — وتزاول أعمالها اليومية باستخدام الأساليب التقليدية •

٣ — راضية عن وضعها المحدود فى عمان • الا أنها كانت وسيطا ضعيفا للحضارة العصرية •

تدهور الصناعات اليدوية :

لم تكن عمان فى أى وقت من تاريخها مركزا هاما من مراكز الصناعة فى العالم • صحيح كان فى عمان بعض المصانع اليدوية ذات الأهمية المحلية • وعلى غرار ما حدث فى كثير من بلدان العالم الافرواسوى ، فقد تدهورت هذه الصناعات بعد غزو المنتوجات الغربية الرخيصة لأسواق هذه الأقطار فى القرن التاسع عشر • وفى الأربعينات والخمسينات من القرن التاسع عشر كانت مسقط ومطرح أهم المراكز الصناعية العمانية فضلا عن وجود صناعات هامة أخرى فى صحار والقرى الداخلية كوادى سمايل ونزوى ، وبلاد بنى بو حسن ، وعبرى • ويذكر ولستد « ان المهنة الأســاسية فى مطرح هى حياكة الأقمشة ، والعباءات الصوفية البنية التى يرتديها العمانيون • ومن النادر أن يوجد كوخ أو بيت فى المدينة ولا يكون فيه مغزل تعمل عليه سيدة البيت » [٥٣] • ومما لا خلاف عليه ان حياكة الأقمشة القطنية والصوفية ، الى جانب الأقمشة الحريرية فى بعض مناطق عمان كبلاد بنى بو حسن كان يشكل الصناعة اليدوية الرئيسية فى عمان عند وفاة السيد ســعيد • أما الحدادة فكانت تتركز فى المدن الكبرى • وربما تأتى صــناعة المجوهرات والسيوف ، والرماح ، والخناجر ، والبنادق ، والمدافع التى تصنع خصيصا لأسطول الحاكم ، فى الدرجة الثانية بعد صناعة الأقمشة • أما صناعة السكر فكانت مقصــورة على نزوى ومســقط وكانت هاتان المدينتان العمانيتان تصدران نوعا من الحلوى الى ايران والهند • ويدخل فى صناعة الحلوى السكر والسمن ، واللوز • ويشترك فى هذه الصناعة بالاضافة الى العرب ، الايرانيون والخوجا ، بل واليهود أيضا ممن وفدوا الى البلاد من البصرة سنة ١٨٢٨ [٥٤] • فى الستينات من القرن التاســع عشر بدأت المصنوعات

---

(٥٣) « رحلة الى جزيرة العرب » وولستد مجلد ١ ص ٣٢ .

(٥٤) نفس المصدر ص ١٣ ، ٢٢ ، ١٢٣ و ٣١٥ — ٣٢٢ وكتاب « انطباعات » ، تأليف اسكود ص ٩٠ — ٩١ كذلك « انطباعات رحلة حول العالم بما فيها احدى السفارات فى مسقط ، وسيام » ص ٨٥ (طبعة فلادلفيا ١٨٣٨) .

الأوروبية تغزو عمان بكميات كبيرة . وبنهاية القرن سيطرت هذه المنتجات على الجانب الأكبر من الأسواق المحلية . وحتى قبل وفاة السيد سعيد كانت المنسوجات الأمريكية والبريطانية تصل متسللة الى البـــلاد . وعلى أثر وصول الأقمشة البيضاء والملونة الرخيصة من أوربا فى الستينات انخفضت نسبة انتاج الأقمشة المحلية لدرجة باتت تهدد تلك الصناعة بالبوار . ولم يبق من الصناعات العمانية الهامة التى استمر الطلب عليها قائما محليـــا ودوليا ما يبرر الاستمرار فيها غير الكماليات التى كانت مدينة صحار تنتج منها أنواعا مختلفة كالأقمشة ، ومدينتا مسقط ومطرح العمائم العمانية ، ومدينة سمايل العباءات الصوفية والقطنية البنية اللون ، ومدينتا صحار ومسقط قماش الأشرعة . وحتى سنة ١٩٠٠ كان انتاج الأقمشة فى كل من مسقط ، ومطرح ، وصحار ما يزال قائما . غير ان هذه الصناعة كغيرها من صناعات عمان الأخرى كانت تستخدم المواد الأولية الأجنبية الصنع . أما صناعة المواد الغذائية ـ كتجفيف الليمون والبلح والأسماك قـــد احتفظت بمركزها كمورد لبعض سكان المدن الساحلية فى عمان ، وقد كان يعمل فى هذه الصناعات عدد كبير من العمال بما فيهم السيدات وكانوا يقومون بجنى محصول البلح والأسماك فى مواسمهما . وفى أعقاب سنة ١٨٩٢ تدهورت صناعة الحديد أمام تدفق هذه السلع من الخارج . وعلى حين اســـتمرت صناعة النحاس قائمة فى نزوى على نطاق أضيق ، فان استيراد الأســـلحة من أوربا وتوقف صب المدافع للأسطول العمانى قد قضى على صـــناعة الأسلحة المحلية . والصناعة الوحيدة التى بقيت فى عمان سنة ١٩٠٠ هى صناعة المجوهرات والخناجر (النصال) التى كان يقوم بصنعها الصـــناع العرب والهنود فى مسقط . كما ظلت صباغة الأقمشة من الصناعات القائمة فى عبرى ، وان كانت هذه الصناعة تستخدم المواد الأولية الأوربية الصنع . ولكن نخل الواقعة فى منطقة وادى سمايل احتفظت بصناعة انتاج الجرار الفخارية المعروفة . ومعنى هذا ان غزو المنتجات الآلية الحديثة قـــد أثر عموما تأثيرا خطيرا على الصناعات فى عمان وأسهم فى تدهور أوضاع المدن

العمانية فى نهاية القرن التاسع عشر . كما تدهورت صناعة بناء السفن بعد سنة ١٨٥٦ [٥٥] .

وعلى عكس الصناعة فان الزراعة لم تتأثر بتلك التطورات . فقد ظل البلح والسمك المادة الغذائية الرئيسية للسكان . ولقد ارتفعت نسبة صادرات البلح فى أواخر القرن التاسع عشر حتى أصبح المادة الوحيدة التى تصدرها البلاد الى الخارج . أما من حيث التدهور الاقتصادى عموما فيظهر ذلك فى الارتفاع غير المعهود فى القيمة النسبية لمحصول البلح . وفى سنة ١٨٨٠ زادت نسبة البلح العمانى الذى يصدر الى الهند والولايات المتحدة (وتنتج عمان نوعا من البلح يسمى الفرض باصطلاح أهل البلاد ، وكان النوع المفضل لدى المستوردين الأمريكيين) ولقد كان الطلب على بلح عمان قويا بوجه عام فيما بين سنة ١٨٥٧ وسنة ١٩١٤ ، حتى ان بعض أصحاب مزارع البلح والتجار الهنود المشتركين فى هذه التجارة وفى عمليات تصدير هذه السلعة قد حققوا ثروة عظيمة منها . وسهل تطور المواصلات فى الهند من عملية تصدير البلح العمانى اليها ، كما تضاعفت صادرات البلح الى كراتشى حيث كان يتم تفريغها ومنها تنقل بالسكك الحديدية الى أقاليم البنجاب المكتظة بالسكان . وتقدر قيمة صادرات البلح العمانى خلال التسعينات بمبلغ ٧٥٠٫٠٠٠ ريال نمسوى فى العام الواحد .

أما المنتجات الزراعية الأخرى فقد احتفظت بأسواقها الداخلية والخارجية . ولقد استمرت عمان فى تصدير الفاكهة والبلح الى الهند وايران ، كما ظل معدل الاستهلاك من الحبوب والفواكه ثابتا . ولقد أصيبت

---

(٥٥) تقرير تجارى ، ١٩٠١ ، لوثاق من السجلات الفرنسية مجلد ١ ولوريمر مجلد ٢ ص ٧٥٧ — ٧٥٨ وص ١١٨١ — ١١٨٦ ، و ١٣٥٩ — ١٣٦٦، ١٨٣٨ — ٤٠ وتقرير وزارة التجارة البريطانية عن حالة ومستقبل التجارة البريطانية فى عمان أو البحرين وغيرهما من المدن العربية .

الزراعة ببعض الأضرار فانتاج القطن الذى لم يكن فى أى يوم من الأيام انتاجا كبيرا ، قد أضير من تدهور صناعة النسيج العمانية • كما كان تصدير الخيل الى الهند وجزر موريشيس ، والحمير الى الهند من العمليات التجارية الناجحة فى أوائل القرن التاسع عشر ، غير أن هذه التجارة لم يعد لها وجود فى السبعينات من القرن • وبما أن أغلب الخيل العمانية من أصل ايرانى والحمير من أصل بحرينى ، فان تدهور هذه التجارة كان تعبيرا صارخا عن مركز عمان كمنطقة لتجميع السلع وتوزيعها ، أكثر منها تعبيرا عن وضعها الزراعى الداخلى • غير ان الجمال العمانية ظلت تعتبر من أجود الأبل العربية • وكان بعض هذه الجمال يجد طريقه الى مناطق أخرى من الجزيرة العربية فى الفترة التى أعقبت وفاة السيد سعيد [٥٦] •

ولم يقم رجال الأعمال الغربيون بانشاء أراض زراعية على غرار ما فعلوه فى المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية الأخرى • واذا أستثنينا أهمية عمان كبلد منتج ومصدر للبلح فان الحالة الزراعية فيه ظلت على الحالة التى كانت فيها منذ مئات السنين • ولم يعد للمحاصيل النقدية أى مجال فى البلاد فيما عدا بعض انتاج النخيل والفاكهة • اذ كان النشاط الزراعى فيها نشاطا معيشيا استهلاكيا • كما ظلت أنماط الملكية وأساليب العمل والانتاج بشكلها البدائى البالى غير متأثرة بالأنماط العصرية •

الأهمية النسبية للتجارة غير المشروعة :

نظرا للتدهور العام الذى منيت به الحركة التجارية فى عمان بعد سنة ١٨٦٢ • اكتسبت التجارة غير المشروعة ــ فالتهريب ، والنخاسة ،

---

(٥٦) تقرير ادارى ١٨٧٦ — ١٨٧٧ ص ٧٩ — ٨٠ ؛ و Precis Commerce ص ٢١٢ والتقرير التجارى اعداد أوتاق ١٩٠١ نقلا عن السجلات الفرنسية وكتاب « بعثة الى مسقط وسيام » تأليف روشنبرجر و « تقرير عن تجارة عمان » ص ٢٢٨١ وثائق اجتماعات مجلس العموم البريطانى سنة ١٩٠٥ •

وتجارة الأسلحة أهمية نسبية بالنسبة لاقتصاد المنطقة الساحلية من عمان ٠ والواضح ان جانبا هاما من تجارة عمان لم يكن يخضع للتفتيش الجمركى من جانب السلطات المحلية ٠ ولم يكن لحكومة مسقط جمركيون فى صــور أكبر مدن عمان وأكثر موانئها نشاطا فى سنة ١٩٠٠ غير انه لم تتوفر معلومات كافية عن أعمال التهريب ومن ثم لا يمكن اصدار أحكام عامة ٠ ومن العوامل التى ساعدت على اضعاف تجارة التهريب لستخدام البواخر فى نقل الجزء الأكبر من الصادرات والواردات العمانية بشكل متزايد ٠ ونظرا لوجــود ميناء واحد فى عمان هو ميناء مسقط فقد أمكن تنظيم هذه التجارة ٠ وكانت تجارة الأسلحة والرقيق القطاعين التجاريين الوحيدين من التجارة الممنوعة اللذين أمكن جمع معلومات عنهما ٠ لقد كان الاسترقاق عملا غير مشروع فى عمان بعد سنة ١٨٧٣ ، وذلك على خلاف الاستيراد ٠ لكن تجارة الأسلحة بالرغم من انها كانت تجارة مشروعة ، كانت ممنوعة فى عدد كبير من الأقطار التى تصدر اليها هذه السلعة ٠

أما تجارة الرقيق فقد كانت ذا طابع اقتصادى أكثر منها مصدرا لليد العاملة فى عمان ٠ ففى منتصف الثلاثينات كانت مسقط سوقا رائجة للعبيد وكانت تصدرهم الى منطقة الخليج كلها والى العراق وايران ٠ وكان السيد سعيد شخصيا يتجر بالعبيد ويجنى من وراء هذه التجارة أرباحا تصل الى ٦٠٫٠٠٠ ريال نمسوى فى السنة الى ان عدل عن هذه التجارة فى سنة ١٨٤٥ مرضاة لأصدقائه البريطانيين ٠ وقبل سنة ١٨٤٥ كانت الحكومة تفرض رسم استيراد قدره ريال واحد عن كل عبد يستورد فى زنجبار ونصف هذا المبلغ عن العبد الذى يستورد الى مسقط ٠ وكان استيراد العبيد فى الأربعينات من القرن التاسع عشر بندا رئيسيا من بنود تجارة عمان وكانت تدر على أصحابها أرباحا أكثر مما كانت تدره على خزينة السلطان ٠ وقد بلغت أرقام معدل مبيعات العبيد فى مسقط فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر نحــو ٤٠٠٠ عبد كل عام ٠ وكان تجار العبيد يحصلون على ربح قدره ٢٠ بالمائة عن العبيد المستوردين من أفريقيا ، أما اذا صدر العبيد الى البصرة فان

معدل الربح يصل الى ٥٠ بالمائة وكانت أسعار العبيد تحدد وفقا لأعمارهم وجنسهم ومظهرهم ومنشئهم • وفى سنة ١٨٤٠ كان يباع العبد المخصى المستورد من أقليم أدفو فى السودان بمبلغ ٢٠٠ الى ٣٠٠ ريال للايرانيين • أما الفتاة الحبشية فكان ثمنها يتراوح بين ٦٠ الى ٢٠٠ ريال نمسـوى والرجل الحبشى من ٥٠ الى ١٥٠ ريالا • أما العبد الأفريقى البالغ ، فكان ثمنه يتراوح بين ٢٠ و ٦٠ ريالا والفتى من ١٥ الى ٣٠ ريالا ومن حق العبد الأفريقى اذا قدر له أن يجتاز مخاطر الرحلة ويصل الى مسقط ، أن يطلب الى القاضى أن يعرضه للبيع فى مزاد علنى اذا أساء سيده معاملته • غير أن العبيد يلقون معاملة طيبة من أسيادهم عندما يصلون • وكان التـاجر الهندى العنصر الأساسى فى تجارة العبيد ، لأن الهنود هم الذين يمولون سماسرة العبيد • ويبدو أن الهنود المسلمين (الخوجا) كانوا متورطين فى هذه التجارة أكثر من التجار البوذيين [٥٧] •

فى الستينات من القرن التاسع عشر أخذت تجارة الرقيق تفقد أهميتها بشكل ملحوظ ، وذلك بسبب الدوريات التى كان يقوم بها الأسـطول البريطانى لمطاردة تجار هذه المهنة ، هذا بالرغم من وصول نحو ٤٠٠٠ الى ١٠٠٠٠ عبد تقريبا الى الخليج خلال هذه الفترة • غير أن الحد من استيراد العبيد أدى بدوره الى ارتفاع فى أثمانهم • وبأيماز من الحكومة البريطانية بدأت حكومة الهند باتخاذ اجراءات لوضع حد لاشتراك التجار الهنود فى هذه التجارة • ففى الستينات من القرن التاسع عشر بدأ تقديم التجـار الهنود الذين يمارسون هذه التجارة أو يشتركون فيها للمحاكمة ، وما أن حل عام ١٨٧٣ حتى كانت الحكومة نجحت بمنع الهنود من الاشتراك فى

---

(٥٧) رحلة الى جزيرة العرب ، تأليف وولستد فصل ١ ص ٢٨٧ — ٩٠ سجلات حكومة بومبى سنة ١٨٥٦ ص ٦٤٨ — ٦٤٩ وتقرير حول زنجبار « اعداد رجبى من سجلات حكومة بومبى رقم ال ٩ ص ٩ — ١٢ وكذلك « الخليج العـربى » تأليف ولسون ص ٢٠٣ — ٢٣٠ •

تجارة الرقيق وأصدرت مرسوما يقضى بارسال المخالفين منهم لأحكام هذا القانون للمحاكمة . وفى سنة ١٨٧٣ اشتركت كل من حكومة مسقط وزنجبار فى تحريم تجارة الرقيق . وهكذا سددت خلال عامين اثنين ضربتان قاضيتان الى تجارة الرقيق (٥٨) .

غير أن ربابنة السفن العرب استمروا بجلب العبيد ، على الرغم من تحريم هذه الأعمال بعد سنة ١٨٧٣ . ولهذا أخذت سفن الأسطول البريطانى تطاردهم . ولعل الرسالة التالية التى بعث بها أحد الحكام العرب الى سلطان زنجبار توضح أسباب اصرار الملاحين العرب على جلب العبيد :

« كنا قد حذرناهم بالامتناع عن هذه التجارة يا أخى . وبعثنا اليهم من يبلغهم ذلك وأذعنا مضمون خطابكم على الجمهور ، غير انى لا أعتقد ان هذا له أثر فعال فى ردعهم . لأن الأرباح التى يحصلون عليها من هذه التجارة كبيرة جدا وانه لمن الحماقة أن نفكر فى منعهم عن ممارستها . فمقابل عشرة جرب (شوالات) من البلح يستدينها الفرد يمكنه أن يشترى عشرين عبدا يدرون عليه ألف ريال نمسوى » (٥٩) .

وفى سنة ١٨٧٢ ذكر أحد البحارة العرب الذين يتعاملون فى العبيد ان أى صاحب سفينة يتمكن من نقل عبد الى الخليج يحصل على ٣ ريالات

---

(٥٨) « البانيان » من كتاب « Precis Slave » ، تأليف فرير ص ١٢ — ١٩ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٢٤٩٨ و « صيد العبيد » تأليف : كولومب ص ٤٦ — ٤٨ . وكانت تقديراته لعدد العبيد الذين صدروا الى الجزيرة العربية سنة ١٨٧٠ فقط ١٣,٠٠٠ عبد بينما لم يزد عدد الذين وصلوا الى مسقط سنة ١٨٦٦ على ٥٠٠ عبد .

(٥٩) رسالة من شيخ أبو ظبى الى سلطان زنجبار من وثائق مجلس العموم البريطانى سنة ١٨٧٠ رقم ال ١١ ص ٤٦ .

مقابل ذلك هذا اذا لم يقبض عليه « النصارى » ونجح فى نقل العبد • أما التاجر فيبيع العبد الواحد بستين أو مائة ريال فى مسقط بينما لا يكلفه هذا العبد أكثر من ٢٠ ريالا • وبعد سنة ١٨٦٢ أصبحت تجارة الرقيق أكثـــر أهمية بالنسبة للملاحين العرب لأن منافسة البواخر لهم قد انتزعت منهم مجالا آخر من مجالات النشاط التجارى المشروع (٦٠) •

وما بين سنة ١٨٧٤ وسنة ١٨٨٤ تمكنت وحدات من الأسطول البريطانى الخاصة بمكافحة تجارة الرقيق من خنق نشاط المهربين بمكران • غير ان هذا النشاط عاد مرة أخرى ما بين سنة ١٨٨٤ وسنة ١٩٠٢ الى حد ما لأن بعض المتعاملين بالرقيق أخذوا يعملون تحت حماية الفرنسيين ويرفعون العلم الفرنسى على سفنهم وكانوا يحصلون عليه بمنتهى السهولة • غير أن نقل الرقيق على نطاق واسع على شواطىء المحيط الهندى قد انتهى فى عام ١٩٠٢ وذلك عندما اعتقل البرتغاليون ١١٤ عربيا من سكان صور و ١٢ سفينة و ٧٢٥ عبدا فى قاعدة شحن العبيد بأحد موانىء موزمبيق • وقد حكم عليهم بالسجن ١٢ عاما فى أنجولا وهو الاجراء الذى جعل أهالى صـــور يقيمون المناحات والمآتم على ذويهم المقبوض عليهم • كما وضع الاجراء هذا نهاية لأهمية صور كقاعدة لتوزيع الرقيق (٦١) •

غير أن مرسوم السلطان الذى صدر سنة ١٨٧٣ ، اذا كان قد حـــرم تجارة الرقيق فانه لم يمنع العمانيين من امتلاكهم للعبيد • ونظرا لهـــذا ، ونتيجة لتساهل السلطان فى تنفيذ بنود القانون بدافع من حســـن النية ، وبسبب اعتقاد أهل عمان بأن ملكية العبيد عمل مشروع فى اطار العقيـــدة

---

(٦٠) رسالة بتاريخ ١٨٧٢/١٠/٥ من بلى الى دوق ارجيل من ســـجلات الحكومة الهندية •

(٦١) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٢٥٠٠ — ٢٠١٤ « شكوى مضادة بخصوص التحكيم فى قضية السفن العمانية فى محكمة التحكيم الدائمة فى لاهاى » (طبعة لندن ١٩٠٥) ص ٥ •

الاسلامية ، فقد أستمرت تجارة الرقيق فى عمان ولو بشكل غير مطرد اذا قدر لها أن تفلت من حصار الأسطول البريطانى . وكانت غالبية العبيد الذين يستوردون لعمان ينزلون فى ميناء صور . وكانت ثمة أسواق خاصة داخل بيوت تجار العبيد فى المدن الكبيرة . وخلال السبعينات من القرن التاسع عشر كان أشهر سمسار للرقيق من أصل أفريقى . ويتراوح عدد الرقيق الذين كانوا فى عمان فى أواخر القرن التاسع عشر بين ١٥ ألفا و ٥٠ ألفا . بينما يزداد هذا العدد فى بعض السنوات بنسبة حوالى ١٠٠٠ عبد (٦٢) وتتخذ اناث العبيد كجوارى وكعاملات فى البيوت . أما الذكور فيعملون فى المزارع والمنازل والسفن . والعلاقة بين العبد وسيده علاقة روتينية بحتة ، فالعبد يمكنه أن يعمل ان شاء ، ويدفع الى سيده جزءا من أجره . ومن الأشياء المألوفة أن يحتل بعض العبيد مراكز هامة . أما الطلب على العبيد فقد كان يتغير بتغير الظروف . ففى جعلان والشرقية حيث وسائل الرى لا تتطلب عمالا ، تقل نسبة الطلب عليهم ، بينما تزيد فى منطقة الباطنة حيث وسائل الرى تحتاج الى خدمة مستمرة . ويتم انزال شحنات العبيد الى الموانىء العمانية فى البداية ومنها يتم توزيعهم على ايران وساحل الصلح حيث يعملون كبحارة وغطاسين . وتعتبر ودام الواقعة على ساحل الباطنة فى عمان مركز توزيع للعبيد . وعلى أثر حظر استيراد العبيد من أفريقيا نهائيا بعد سنة ١٩٠٢ ، بدأت ودام تستورد أسرى من بلوشستان وتبيعهم . وكانت أسعار العبيد فى عمان ثابتة : فثمن الصبية من العبيد هو ١٢٠ ريالا للواحد ، والكبار ١٥٠ ريالا للعبد أما البنات فكان ثمنهن يتراوح بين ٢٠٠ الى ٣٠٠ ريال للواحدة . أما فى أفريقيا فقد ظل سعر العبيد منخفضا فى

---

(٦٢) رسالة رقم ٩٢ — ١٢ بتاريخ ١٨٧٣/١/٢٥ من رس الى دوق أرجيل — من السجلات الرسمية لحكومة الهند — ٢ مجلد ٢٢ وزسالة رقم ١٦٥ — ٥٧ بتاريخ ١٨٧٦/٤/٢٨ من مايلز الى بوريدو وتقرير اوتاق التجارى — ١٩٠١ .

حدود ثلاثة جنيهات استرلينية للعبد ، فى الوقت الذى كان العاج يباع بسعر أعلى من سعر العبد فى ذلك الوقت (٦٣) .

وبانتهاء القرن التاسع عشر تدهورت تجارة الرقيق تدهورا كبيرا . ويعود ذلك فى الدرجة الأولى الى الجهود البريطانية . غير أن تدهور هذه التجارة فى نظر العمانيين كان دليلا جديدا على تدخل الغربيين فى تجارة ملاحية قديمة . بل ان أحد العرب السعوديين الساخطين على هذا الوضع قد أبلغ الكولونيل بلى بأن حملة مكافحة الرقيق قد جعلت البريطانيين « قراصنة ناجحين » (٦٤) .

وكانت تعتبر تجارة الأسلحة وتهريبها من الأعمال التجارية المشروعة فى عمان فى أواخر القرن التاسع عشر . وما بين سنة ١٨٩٠ وسنة ١٩١٢ غدت مسقط مركزا هاما لتجارة الأسلحة الرائجة . أما الأسلحة وأهمها البنادق فقد كانت تستورد من أوربا الى مسقط بالبواخر بدون قيود قانونية . غير أن ٩٥ بالمئة من الأسلحة المستوردة كان يعاد تصديرها وبطريقة غير مشروعة عادة ، الى مناطق فى جنوب آسيا . ففى التسعينات من القرن كانت مسقط تستورد كل عام ٢٥،٠٠٠ بندقية ، قيمة كل منها من ٣٠ الى ٥٠ ريالا نمسويا ثم ارتفع العدد الى ٨٥،٠٠٠ بندقية فى سنة ١٩٠٨ . كما كانت نسبة الأرباح التى يحصل عليها تجار الأسلحة تتراوح بين ٢٠ بالمئة الى ٣٠ بالمئة (٦٥) .

---

(٦٣) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٢٤٩٩ — ٢٥٠٣ و Precis Commerce ص ٥٣ .

(٦٤) « صيد العبيد » ، تاليف كولومب ص ٥٠ و « عمان » اعداد شركة الزيت العربية الامريكية ، ص ٤٥ — ٤٦ و ٦٣ وقد تلقى السلطان احتجاجات كثيرة على تدخل البريطانيين فى تجارة الرقيق .

(٦٥) « الخليج العربى » ، تأليف ويلسون ص ٢٦٣ — ٢٧١ و « علاقات بريطانيا بالخليج » . تأليف داود ص ٣٤٨ و Precis Maskat ص ١٣٥ و « تقرير عن تجارة الأسلحة » — ١٩١٣ و « تقرير حول تجارة الخليج » سنة ١٩٠٩ من سجلات الحكومة الهندية — ٥ .

ولقد كان لهذا النشاط تأثير هام فى دعم تجارة عمان الخارجية خلال المرحلة الاقتصادية الدقيقة من التسعينات من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين • ولعدة سنوات كان دخل البلاد من استيراد الأسلحة يشكل ربع الدخل العام من الواردات • وما بين سنة ١٨٩٠ وسنة ١٩١٢ كان تقلب أرقام مجموع الواردات اجمالا يتفق مع ارتفاع وانخفاض الواردات من الأسلحة • ولقد كان لهذه التجارة فضل كبير فى الحيلولة دون تدهور التجارة الخارجية الى مستوى خطير خلال أزمة العملة فى عمان • وعلى الرغم من التقلب الحاد فى أسعار الأسلحة من سنة الى أخرى ، فقد ارتفعت قيمة واردات مسقط من البنادق من أرقامها المتواضعة فى التسعينات الى ٧٣٫٦٦٦ ج • س فى سنة ١٨٩٧ — ٩٨ والى ١١٠٫٩٩٣ فى سنة ١٩٠٤ وسنة ١٩٠٥ ثم بلغ أقصاه فى سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩٠٨ ثم عاد فانخفض انخفاضا صارخا فى عام ١٩١٠ — ١٩١١ كنتيجة للحصار البحرى الذى فرضه الانجليز على تهريب الأسلحة من مسقط •• ولقد أنهارت تجارة الأسلحة فى مسقط سنة ١٩١٢ عندما تمكن البريطانيون من اقناع السلطان بانشاء مستودع للأسلحة وفرض رقابة على هذه التجارة • وقد خصص الانجليز معونة مالية للسلطان مقدارها ١٠٠٫٠٠٠ أو ما يعادل ٦٫٦٦٦ ج•س• كتعويض له عن الخسائر التى سيتكبدها نتيجة لحظر هذه التجارة (٦٦) •

وفى أوائل سنة ١٨٩٨ بدأت السلطات البريطانية محاولات للحد من تجارة الأسلحة فى مسقط نفسها ، اذ أن معظم الأسلحة التى كانت ترد الى عمان كانت تجد طريقها الى الأقطار الأسيوية الأخرى ، مما كان يؤدى الى تعكير السلام فى كثير من بلدان الشرق الأوسط وجنوب آسيا ، وعلى الأخص على الحدود الشمالية الغربية للهند ، حيث كانت القبائل فى هذه المنطقة تملك فى سنة ١٩٠٦ نحو ٩٤٫٠٠٠ بندقية تقض بها مضاجع البريطانيين فى

---

(٦٦) كتاب لوريمر مجلد ٢ ص ٢٥٨٧ — ٨٨ و « تجارة الأسلحة » ١٩١٣ •

الهند . وقبل اتخاذ الاجراءات لوقف هذه التجارة سنة ١٨٩٨ كانت انجلترا هى المصدر الذى ترد منه الأسلحة الى عمان وتقوم بنقله السفن البريطانية عن طريق وكلائها فى الهند أما بعد سنة ١٩٠٠ وتحت ضغط حكومتهم البريطانية تخلى المصدرون البريطانيون عن جانب كبير من تجارة الأسلحة ، ليحل محلهم المصدرون الفرنسيون . غير أن التجار الهنود فى مسقط بحكم اشتراكهم فى هذه التجارة ، كاشتراك زملائهم من قبل فى تجارة الرقيق ، قد استاءوا بوجه عام من قرار حكومتهم بالحد من تدفق الأسلحة ، ولهذا ظل عدد كبير من هؤلاء يمارس هذه التجارة رغم الحظر . كذلك فان الحكومة الفرنسية ظلت ترفض التعاون مع الحكومة البريطانية لفرض قيود على تصدير السلاح الى عمان حتى سنة ١٩١٤ عندما تعهد البريطانيون بتعويض المصدرين الفرنسيين عن الموجودات من الأسلحة التى لم يتم تصريفها (٦٧) .

انعدام التكنولوجيا الحديثة فى عمان :

فى أواخر القرن التاسع عشر لم تكن قد ظهرت بوادر محاولات لادخال التكنولوجيا الحديثة الى عمان ، وكان المظهر الوحيد للحياة الحديثة يتمثل فى الدرجة الأولى فى بعض الأوربيين المقيمين فى البلاد . كما أن المحاولات المتقطعة والمتعثرة لادخال مظاهر المدنية الحديثة الى عمان كانت تقابل برفض وبمقاومة من جانب سكان البلاد فى كل من شطريها الساحلى والداخلى . وكان من النادر فى عهد السيد سعيد وجود فرد عمانى له ثقافة علمية أو معرفة بالعالم الحديث . وكان القرآن وبعض المؤلفات التاريخية الأباضية وبعض نظريات القرون الوسطى عن طبيعة الكون هى أفضل ما يشبع شهية المثقفين العمانيين كما أن الوضع لم يتغير تغيرا يذكر بعد سنة ١٨٥٦ .

---

(٦٧) Precis Maskat ص ١٣٥ .

أما المشروعات الحديثة التى وضعت خصيصا لعمان فهى تعـد على أصابع اليد الواحدة وكان الممثل البريطانى يؤيد الجهود التى تبذل لادخال مظاهر العصرية فى ميدان الصحة العامة . ولما كانت الكوليرا والطاعون تهاجم هذه المنطقة من وقت الى آخر كجزء من العدوى العالمية التى كانت تجتاح أقطار آسيا وتهدد أوربا ، فقد كانت السلطات البريطانية وحدها هى التى تتولى مكافحتها . ولم يكن هناك أى عمانى يؤيد ادخال الأساليب الصحية الحديثة الى البلاد حتى سنة ١٩٠٠ عندما هاجم الوباء المنطقة وحصـد ١٢ ألفا من سكانها أى بنسبة ٦١ بالمئة . وقد دفع هذا الحادث السلطان الى انشاء مستشفى واستئجار طبيب من بومبى لتطعيم السـكان وتعقيم المنطقة ، غير أنه لم يوافق على انشاء وحدات فعالة للحجر الصحى قبـل سنة ١٩٠٣ . والواقع أن سكان مسقط بوجه عام ، وأفراد الجالية الهندية المقيمين بها كانوا يعارضـون التطعيم والوسـائل الصـحية الوقائيـة و « المستشفى الأهلى » الوحيد فى مسقط ، ويتبع ادارة الاعتماد السياسى البريطانى لم يحصل على أكثر من ٩ روبيات كتبرع من جانب سكان البلاد فى سنة ١٨٩٩ . وكان يشرف على المستشفى أحد الأطباء الهنود . وعلى أية حال ففى نفس العام بلغ عدد الزوار اليوميين للمستشفى ٥٨ مريضا ربعهم من الهنود . وفى سنة ١٩٠٠ أخذ السلطان يستعين بطبيب المعتمد السياسى البريطانى فى معالجته أو معالجة أفراد العائلة الحاكمة . ورغم هذا فلم يفكر السلطان بالعمل على توسيع أو تطوير الشؤون الصحية للبلاد [٦٨] .

ومع قدوم البعثات التبشيرية البروتستانتية الى مسقط ، بدأت مرحلة جديدة من المحاولات الهادفة الى ادخال العصرية الى عمان . وقـد بدأ

---

(٦٨) « المسح الطبى لمسقط » والتقرير الادارى ١٨٧٦ — ١٨٧٧ وسنة ١٨٩٨/٩٩ ص ٢٨ — ٢٩ ، ١٨٩٩ — ١٩٠٠ ص ٢٠ — ٣٥ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥٧٣ — ٧٨ ، لقد كان اليخت البخارى الذى يملكه السلطان فى الثمانينات من القرن التاسع عشر المظهر الوحيد لدخول الآلة الحديثة الى عمان .

النشاط التبشيرى فى عمان سنة ١٨٩١ ، غير أن المركز الرئيسى للبعثات التبشيرية لم يقم بانشاء مركز دائم له فى البلاد قبل انقضاء تسع سنوات على المحاولة الأولى . والى جانب الأعمال التبشيرية ، كانت البعثة تدير مستوصفا ومدرسة . وقد لقيت هذه المحاولة فى البداية ترحيبا بين أوساط الزنوج العبيد المحررين الذين كان يوجد عدد كبير منهم فى مسقط ومطرح . وعند وصول الدكتور تومس سنة ١٨٩٨ تم توسيع الأعمال الطبية فى المنطقة الداخلية من البلاد . كما أن المدرسة التى أنشأتها البعثة فتحت عيون الطلاب على العالم الحديث ، غير أن نتائج هذه المدرسة التى لا تزال ضئيلة حتى اليوم ، لم تتضح قبل حلول القرن العشرين (٦٩) .

فى سنة ١٩٠١ وسنة ١٩٠٢ بدا أن عمان قد تصبح مسرحا لنشاط بريطانى للبحث عن الثروات المعدنية . فقد كان بعض الخبراء يعتقد أن ثمة مناجم غنية بالفحم على بعد نحو ٣٠ ميلا داخل البلاد من ناحية صور . ولقد تمت محاولتان من جانب الجيولوجيين للبحث وذلك رغما عن المضايقات التى أبدتها القبائل فى هذه المنطقة ، غير أن عروق الفحم كما تبين من البحث لم تكن فى مستوى المحاولة . وبالتالى توقفت الجهود عند ذلك الحد (٧٠) .

وبرغم التغييرات التى أحدثتها التكنولوجيا الحديثة فى المواصلات فى منطقة الخليج ، فى الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر فان ظروف عمان لم تتعقد بشكل ملحوظ . كما أن مواقف وسلوك ومعتقدات العمانيين الذين عارضوا الطب الحديث سنة ١٨٩٩ ، أو الذين أطلقوا الرصاص على

---

(٦٩) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٢٣٨٦ — ٢٣٩٩ . راجع ايضا مجلة « الجزيرة العربية المجهولة » و « الجزيرة العربية الى اين ؟ » استعراض لمجالات البعثات التبشيرية تأليف دبليو ا . ج . ستورم .

(٧٠) ايتشيسون — سنة ١٩٠٩ المجلد ١٢ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥٧٦ — ٥٧٧ .

الجيولوجيين البريطانيين كانوا ينقبون عن مناجم الفحم سنة ١٩٠٢ ، انما هى تعبير عن نفور العمانيين من التجديد ٠ ففى الشطر الداخلى من البلاد على الأخص لم يكن هناك ميل الى الأشياء الأجنبية الحديثة أو الاهتمام بها ٠ ولم يكن بالبلاد فئة قومية تؤيد ادخال الوسائل المدنية العصرية الى عمان ٠ فالمعارضة الأباضية المتطرفة للتجديد كانت احساسا فطريا وعقيدة فكرية فى نفس الوقت ٠ أما السلطان الذى كان يعتمد على الحراب البريطانية ، فلم يلق تشجيعا من المواطنين لادخال النظم الحديثة الى أجهزته العسكرية ، وبالتالى جنب بلاده كثيرا من المضاعفات التى كانت سببا فى حدوث تغييرات كثيرة فى أقطار منطقة الشرق الأوسط ٠ أما الجاليات الهندية المستوطنة ، فكانت تكتفى بما يدخل الى جيوب أفرادها من الأرباح التجارية وبسيطرتها على المقومات الاقتصادية للبلاد ، كما لم تكن عمان مجتمعا يجتذب أو يشجع على ادخال تحسينات تكنولوجية ، أو استثمارات أوربية ٠ فعمان بثقافتها الملاحية التقليدية المتدهورة لم تسهم بشىء يؤهلها لأن تتبوأ مكانها بين الدول الأخرى ٠

الاقتصاد العمانى فى سنة ١٩٠٠

تعتبر الأربعين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر فترة تدمير وهدم لاقتصاديات عمان ٠ ففى الجزء الساحلى من عمان على الأخص اتسمت هذه التغييرات الثورية بحيث أنها كانت تنظيما أساسيا للحياة الاقتصادية المنطقة ٠ ونظرا للتوسع الذى طرأ على نشاط البواخر ، وغيرها من مظاهر التكنولوجيا الحديثة انهار اقتصاد الطبقة المتوسطة الذى ساد المنطقة الساحلية من البلاد وتجارة المسافات الطويلة ، ومراكز التجمع التى كانت قائمة قبل سنة ١٨٥٦ ٠ وهكذا فقدت مسقط وضعها كمركز تجارى رائد فى الخليج وهو المركز الذى احتلته منذ القرن السابع عشر ٠ كما أن دور السفن العمانية فى مياه الخليج والمحيط الهندى قد تدهور هو الآخر تدهورا يكاد يكون شاملا والى جانب ذلك تدهور نشاط الموانىء العمانية بشكل خطير

وظل على مستواه المنخفض . وكنتيجة للحالة التى انحدرت اليها تجـارة النقل والتجميع ، وكافة النشاطات المترتبة عليها ، فقد انتكس الاقتصاد العمانى الى وضعه المعيشى القائم على مزاولة الصيد والزراعة ، والتجارة الداخلية والنشاطات الأخرى غير المشروعة فى الجزء الساحلى من البلاد .

ومن خلال النكسة التى منى بها اقتصاد الطبقة المتوسطة ، ظهرت فى المجتمع العمانى تلك النظرة المتشائمة اليائسة تجاه العالم . فالتجار العرب الذين أثروا من خلال النشاط التجارى والملاحى ، تراجعوا الى مجتمعاتهم الزراعية وسلموا ما بقى من تجارة عمان ونشاطها الملاحى الى التجار الذين أصبحوا فى سنة ١٩٠٠ المسيطرين الحقيقيين على الحياة التجارية للبلاد . أما فى أوساط العمانيين الداخليين ، فان هذه الأزمة قد تمخضت عن تراجع الى معاقل القيم الأباضية القديمة ، بدلا من محاولة جادة لمواجهة حقائق الحياة الاقتصادية الجديدة . كما أن زعماء البلاد السياسيين الذين قادوا عمان الى مراكز التحكم فى شؤون الخليج فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، قد حال الوجود البريطانى بينهم وبين اسـتخدام القـوة لتحقيق الرفاهية الاقتصادية ، فأصبحوا عاجزين عن انتهاز الفرص بشكل فعال ، وبذلك قنعوا من السلطة بفتاتها . ومن ناحية أخرى أصبحت السلطة الفعلية مركزة فى يد شيوخ القبائل من جهـة والبريطانيين من جهـة أخرى . أما الشيوخ فقد ظلوا متمسكين بموقف اللامبالاة من تنمية المصالح الاقتصادية القومية ، بينما اكتفى البريطانيون بضمان استتباب النظام والأمن فى المنطقة بحيث لم يعد هناك ما يهدد مواصلاتهم الامبراطورية أو النشاط التجارى لأفراد الجالية التجارية الهندية ــ البريطانية فى عمان .

ومما زاد فى تأزيم الموقف ، حلول المنتجات الأوروبيـة الصـنع فى الأسواق المحلية محل المنتجات اليدوية الأهلية . كما تأثر النظام النقدى بأزمة النقد العالمية لأواخر القرن التاسع عشر ، الأمر الذى أسهم فى تفاقم الحالة الاقتصادية فى البلاد . والواقع أن هذه الأزمة تعتبر مثلا صارخا

لبقاء الاقتصاد العمانى تحت رحمـة قوى لا يستطيع المجتمـع فهمها أو التحكم بهـا •

وعلى نقيض كثير من الأقطار التى مرت بنفس المشاكل ، فان وضـع أسس لاقتصاد عمانى حديث لم يتحقق • وفى سنة ١٩٠٠ ظهر أنه يوجد فى عمان احتياطى من الثروة المعدنية ، كما لم تكن ظروفها المحليـة تسـمح بدخول الاستثمارات والتكنولوجيا الغربية ولم تقم فى عمان زراعات حديثة تستفيد منها البلاد • ورغم ذلك فان الجزء الساحلى من البلاد كان أكثر أجزاء عمان تأثيرا بالثورة الاقتصادية للستينات من القرن التاسـع عشر بينما لم يتأثر الشطر الداخلى من تلك التطورات ، الا فيما يتعلق بالصناعات الريفية ، وبأزمة النقد • كذلك فقد كان اعتماد المقاطعـات الداخليـة فى اقتصادها على الاكتفاء الذاتى الزراعى ، عاملا فى التخفيف من حدة المشكلات التى رافقت التغييرات الاقتصادية •

ان الآثار التى تركتها التغييرات الاقتصادية لأواخر القرن التاسع عشر على الاجواء السياسية فى عمان تعتبر هامة • فتدهور الامكانيات التجارية فى الجزء الساحلى من البلاد قد أسهم فى اضعاف خطة التقشف الاقتصادى التى كانت تدعم الجهاز السياسى الذى يتربع فوقه حكام الساحل المعتدلون وبانخفاض معدل الدخل من الضرائب الجمركية وغيرها من المصـادر ، لم يبق للسلطان مصدر آخر يمكنه من التحكم فى سير الأحداث ، كما فعل قبل سنة ١٨٥٦ • وبما أن الاقتصاد العمانى بوجه عام قد تدهور بعد سـنة ١٨٥٦ ، فقد تعرضت المنطقة الساحلية الى أسوأ صورة لذلك التدهور • وفى أعقاب الستينات من القرن التاسع عشر لم يعـد فى حوزة المنطقـة الساحلية والجناح المعتدل من مصادر الثروة ما يفوق ما عند المحافظين فى الداخل • ولقد انعكس تدهور المنطقة الساحلية بالمقارنة الى الجزء الداخلى من البلاد على الأوضاع السياسية الخطيرة التى شهدتها عمان بعـد وفاة السيد سعيد فى سنة ١٨٥٦ •

أما عن أهمية المركز الذى كانت تتبوأه عمان فى تجارة المحيط الهندى قبل هذه الفترة فقد كان ينبع من قوة النشاط الاقتصادى للجزء الساحلى من البلاد • وبالتالى فان مركزها فى الميدان الدولى قد تدهور الى أدنى حد فى المدة الواقعة بين سنة ١٨٥٦ وسنة ١٩٠٠ أى بعد انهيار اقتصاد الطبقة العمانية المتوسطة • وهكذا ففى أعقاب سقوط عمان فى الستينات ران عليها سبات طويل دام زهاء قرن من الزمان • ولم تظهر فى الأفق بشائر حدوث تغيير الا فى سنة ١٩٦٣ عندما أكدت شركة للبترول أن كثبان الرمال الجرداء فى منطقة فهو تضم احتياطيا ضخماً من النفط وبكميات تجارية • وتقع فهود على حدود صحراء الربع الخالى وعبر المنطقة غير المخططة مع المملكة السعودية • وسوف يتم وصلها بالساحل عن طريق خطوط أنابيب يبلغ طولها مائتى ميل يمر عبر جبال الحجر عن طريق وادى سمايل وتفيد التقديرات المتحفظة أن معدل انتاج عمان من النفط سيصل الى ١٠ ملايين طن فى السنة ، وهو نفس معدل آبار نفط قطر فى سنة ١٩٦٣ والذى حصلت قطر فى مقابله على ٦٫٠٠٠٫٠٠٠ ج • س خلال ذلك العام وبما أن ايرادات سلطان مسقط وعمان فى الوقت الحاضر لا تزيد على ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ ج • س ، فمن الواضح أن هذه الأموال سوف تأتى بتغييرات عظيمة فى السلطنة قبل وقت طويل • ومن المحتمل خلال سنوات قليلة أن يسدل الستار على الركود الاقتصادى الطويل فى عمان وتصبح البلاد شريكة لا ضحية للعالم المتحضر •

الجُزءُ الثالِث

دعم السيطرة السياسية البريطانية في الخليج

الفصل الخامس

نشوء الحكم غير المباشر
١٨٦٢ - ٩٢

يعتقد البعض أن الأساليب والأجهزة التى استعانت بها بريطانيا للسيطرة على الخليج العربى على مدى الخمسين سنة الأخيرة هى حصيلة الفترة الأولى للقرن التاسع عشر • غير أن هذا ليس صحيحا • فالتركيب الذى تقوم عليه السيطرة البريطانية فى المنطقة قد ظل يتطور عبر فترة طويلة من الوقت ، وبالتالى فان طبيعة الوجود البريطانى قد مرت هى الأخرى بتغييرات كثيرة خلال الفترة الواقعة بين القرن السابع عشر ومنتصف القرن العشرين •

ولعل أهم مظاهر التغييرات التى مرت بها منطقة الخليج فى أواخر القرن التاسع عشر هى عملية تدعيم السيطرة السياسية البريطانية هناك • ان النفوذ البريطانى فى الخليج ، وهو يقوم على أساس من العلاقات يمتد تاريخها الى أوائل القرن السابع عشر ، وقد تحددت بصورة أوضح فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ظل ، على أى حال ، نفوذا مرنا نسبيا حتى سنة ١٨٦٢ • وعلى كل ففى أواخر القرن التاسع عشر اشتدت قبضة هذا النفوذ وأخذت مظاهره المحلية تقوى يوما بعد يوم • وقد تكون حاجة بريطانيا الى دعم وسائل الأمن بالنسبة الى وجودها فى الهند ومحافظتها على تنفيذ معاهدة السلم البحرية المعقودة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، والرغبة فى نشر المفاهيم الثقافية الأوروبية وعلى الأخص ذات الطابع الانسانى ، والحملة لتوسيع الاتصالات الاقتصادية المربحة ، ونشر

المفاهيم الادارية السياسية الحديثة فى مختلف الامارات ، هى الأسـباب الرئيسية فى ازدياد التدخل البريطانى فى السياسة الداخلية للخليج فى أواخر القرن التاسع عشر . لقد سبق أن تناولنا المضاعفات المترتبة على تغلغـل المواصلات والتكنولوجيا الغربية الحديثة الى المنطقة . غير أنه بالاضافه الى ذلك كانت هناك حملة شامله وخبيثة لفرض العبودية السياسية . وفى عام ١٨٦٢ كانت السياسة الرسمية ، أو بالأحرى الفعلية للحكومة البريطانيـة فى الخليج تكتفى بالاشراف على الشؤون الخارجية للمنطقة دون أن تحاول التدخل فى الشؤون الداخلية للامارات العربية . وعلى كل حال فعلى الرغم من أن السياسة الرسمية البريطانية لم تتغير فى سنة ١٩٠٠ ، الا أن حكام الخليج لم يكونوا يستطيعون معالجة أية مسألة هامة تمس شؤونهم الداخلية دون الرجوع الى الممثلين البريطانيين فى المنطقة .

ازدياد السيطرة السياسية البريطانية فى الخليج قبل سنة ١٨٦٢

هناك خمس مراحل مر بها الوجود البريطانى فى الخليج مع الأجهزة التى كان يعتمد عليها ذلك النفوذ فى تأمين مصـالحه [1] . المرحلة الأولى وتبدأ من سنة ١٦١٦ عندما استطاعت بريطانيا أن توجد لها موطىء قدم فى رأس جاشك بالقرب من الخليج على الحدود الايرانية الجنوبية وتنتهى فى أواخر القرن التاسع عشر . وهى مرحلة يغلب عليها الطابع التجارى أكثر من الطابع السياسى . فقد جاء بعض أصحاب الأعمال التابعين لشركة الهند الشرقية الى الخليج بحثا عن الامكانيات التجارية فى العراق ، وايران وآسيا

---

(١) ربما كان أدق تحليل لتطور الوجـود البريطانى السـياسى فى الخليج ما كتبه كيلى « الوجود البريطانى فى الخليج » وثائق معهد سـانت انتونى رقم ٤ ص ١١٩ — ١٤٠ . وكذلك « العلاقات الدولية لجزيرة العرب والمناطق التابعة » . بقلم هـ . لايبزنى (H. Liebesney) فى مجلة الشرق الاوسط عدد (١٩٤٧) ص ١٤٨ — ١٦٨ وكتاب « جزيرة العرب » المحميات والمشيخات مستقاة من « المجلة المصرية للحق الدولى » ص ٥ — ٣٨ مجلد ٣ (١٩٤٧) .

الوسطى • وبالتالى فان اهتمام بريطانيا بشؤون الخليج ناتج عن وجودها فى الهند ، وأن مصالحها فى الهند تعتبر من أهم العوامل التى أسهمت فى تشكيل أبعاد الوجود البريطانى فى منطقة الخليج • ومما يؤيد هذا أن حكومة الهند وليس حكومة لندن هى التى كانت تشرف على الجانب الأكبر من المصالح البريطانية فى المنطقة • كما أن المراكز البريطانية القديمة فى بندر عباس كانت مراكز تجارية أكثر منها مراكز سياسية ، رغم التحصينات المسلحة التى زودت بها • فخلال المرحلة الأولى من الوجود البريطانى لم تكن المصالح البريطانية تستهدف الساحل العربى ، بل كانت وجهتها ايران والعراق وعلى الأخص البصرة وأبو شهر حيث توجد المراكز البريطانية التى كانت تمثل قاعدة النشاط البريطانى بعد الانسحاب من مركز بند عباس سنة ١٧٦٣ ، هذا اذا استثنينا بضع رحلات عرضية كانت تقوم بها البواخر البريطانية لمسقط والكويت • أما المركزان البريطانيان المشار اليهما آنفا ، بالاضافة الى المصالح البريطانية الأخرى فقد كانت تخضع لسلطة « المقيمين البريطانيين » وفى الوقت الذى كان المقيمان البريطانيان فى كل من البصرة وبغداد هما اللذين يشرفان على المصالح البريطانية فى العراق ، كان المقيم البريطانى فى أبو شهر هو الذى يشرف على الالتزامات البريطانية فى الخليج بعد سنة ١٧٧٨ • وعلى الرغم من التغييرات التى طرأت على طبيعة النفوذ البريطانى ووظيفته ، فقد ظل المقيم البريطانى فى أبو شهر — باستثناء الفترة الواقعة بين سنة ١٧٩٨ وسنة ١٨١٠ التى أنشىء خلالها تمثيل سياسى بريطانى مستقل فى مسقط الجهة التى تمثل المصالح البريطانية فى الخليج حتى سنة ١٩٤٦ عندما نقل مقر المقيم البريطانى الى البحرين •

المرحلة الثانية من الوجود البريطانى فى الخليج تمتد عبر فترة النصف الأول من القرن التاسع عشر • وعلى الأخص منذ سنة ١٧٩٨ حتى سنة ١٨٦٢ فخلال هذه المرحلة تحول الوجود البريطانى فى الخليج من دور يقوم على النشاط التجارى الى دور سياسى بحت • وكانت متطلبات الدفاع عن

الهند والامبراطورية ، والمحافظة على خطوط المواصلات ، وحماية الدول البحرية فى الخليج محور المصالح السياسية البريطانية ، يضاف الى ذلك أن بريطانيا قد أخذت تمارس نشاطا متزايدا فى شؤون الجزيرة العربية لدرجة أصبحت هذه المصالح بنفس أهمية مصالحها القديمة فى كل من العراق وايران . وقد حدثت كل هذه التطورات بعد أن وضعت شركة الهند الشرقية يدها على ممتلكات اقليمية واسعة فى شبه القارة الهندية فى الفترة الأخيرة من القرن الثامن عشر . وتبعا لهذا تغير وضع هذه الشركة من مؤسسة تجارية الى سلطة سياسية ذات سيادة تخضع الهند من أقصاها الى أقصاها للسيطرة البريطانية . وبظهور امبراطورية الهند الى الوجود ، أصبح من المحتم أن تكتسب منطقة الخليج أهمية استراتيجية وسياسية بالنسبة الى بريطانيا وذلك لقرب موقعها من خطوط المواصلات التى تربط انجلترا بامبراطوريتها الجديدة فى جنوبى آسيا .

ان غزو نابليون لمصر وانكشاف خطته لمهاجمة الهند قد أرغم البريطانيين على تأمين مصالحهم الاستراتيجية فى الخليج بالوقوف فى وجه أية دولة تحاول الاستيلاء على الهند . وفى أواخر التسعينات من القرن التاسع عشر قامت الدوائر الهندية — البريطانية بحملة دبلوماسية مشتركة واسعة لاحباط مناورة فرنسية فى غربى آسيا ، وذلك بعقد معاهدات بين الحكومة البريطانية ودول هذه المنطقة . وقد وقعت أول معاهدة من هذا النوع فى سنة ١٧٩٨ بين بريطانيا واحدى دول المنطقة وقد وقعها السيد سعيد حاكم مسقط المعتدل بالنيابة عن العمانيين ، بينما وقعها عن الجانب البريطانى شركة الهند الشرقية . وقد عرفت بمعاهدة الحلف [٢] . وفى سنة ١٨١٠ ارتفع الخطر النابليونى عن الهند والشرق الأوسط بعد استيلاء البريطانيين على جزر موريشيس . وفى نفس الوقت أعلن البريطانيون عن تصميمهم على منع أى دولة من استخدام منطقة الخليج بشكل يهدد الهند أو المواصلات الامبراطورية بالخطر .

---

(٢) ايتيشيسون — ١٩٣٣ ، ١١ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

وقد عادت بريطانيا فعززت من هذا الاجراء باتخاذ احتياطات مضادة ضد تهديد بعض موانىء الخليج الشرقية للمواصلات الامبراطورية . فمنذ الثمانينات تفاقمت الفوضى فى مياه الخليج بحيث اشترك فيها العمانيون أيضا الذين كانوا يتحرقون الى بسط نفوذهم على تجارة الخليج ، بالاضافة الى عرب ساحل الصلح والبحرين ، والكويت . فقد كانت هذه الشعوب تحاول أن تنشىء لها دولا جديدة وتدعم استقلالها السياسى فى تلك الفترة . وفى عام ١٨٠٠ أخذت هذه الفوضى أبعادا جديدة عندما أخذ الوهابيون السعوديون يزحفون على الساحل الشرقى من الجزيرة ويدخلون فى تحالف مع خصوم عمان . وقد أدى اتساع هذا الصراع الى اشتراك السفن البريطانية فيه ، كما تعرض البريطانيون لهجمات عديدة من جانب هذه القرى . وقد اعتبر البريطانيون تلك الأعمال مجرد قرصنة ، ولم يدركوا ان سفنهم كانت تبحر فى مناطق حربية وأخذت المخاوف تشتد من أن يظهر قراصنة من بلدان الخليج ليفتكوا بخطوط المواصلات الملاحية بين أوربا والهند ، بل وقد يقومون بمهاجمة الهند نفسها . ومن هنا قررت بريطانيا القضاء على الخطر الجديد الذى يهدد مواصلاتها الامبريالية وحدود الهند أيضا . ففى سنة ١٨٠٥ ، ١٨٠٦ ، ١٨٠٩ ، ١٨١٠ ، ١٨١٩ ، ١٨٢٠ قامت السلطات الهندية — البريطانية فى بومبى بالتعاون مع العمانيين بتجهيز حملات مسلحة لردع القراصنة عن امارات ساحل الصلح (أو ساحل القراصنة) كما يسميه الأوربيون غير ان الحملات فشلت فى تدمير القوة البحرية للعرب [٣] .

وفى سنة ١٨٢٠ قررت حكومة الهند — الانجليزية البدء فى فرض رقابة دائمة على مياه الخليج لمنع وقوع حوادث السلب والنهب فى المنطقة . وعهد الى المقيم البريطانى فى أبو شهر بالاشراف على هذه الاجراءات . وقد

---

(٣) الخليج العربى — ويلسون فصل ١٣ سجلات حكومة بومبى سنة ١٨٥٦ وتاريخ الاسطول الهندى ، تأليف اس . اركوو ١٦١٣ — ١٨٦٣ (طبعة لندن ١٨٧٧ مجلد ١ فصل ١) .

استقر الرأى فى البداية على أن ترابط بضع فصائل من القوات الهندية فى الخليج لحماية الأمن والنظام • وأقيم لهذا الغرض معسكر فى جزيرة قشم الواقعة على مضيق هرمز الاستراتيجى ، غير أن لنفقات هذه الحاميـــة ، ولمتاعب المناخ واحتجاجات الحكومة الايرانية ، وللخــوف من التورط فى شؤون الخليج الداخلية تقرر سحب الجنود سنة ١٨٢٢ وبعد هذا اعتمد الوجود البريطانى على دوريات تقوم بها وحدات الأسطول البريطانى • ويبدو ان تردد الحكومة البريطانية بتوريط نفسها فى تدخلات عســكرية داخل الجزيرة العربية ، أو بالدخول فى التزامات تفرض عليها القيام بحملات برية دفعها الى وضع منهج للسياسة البريطانية فى الخليج بعد ســـنة ١٨٢٢ [٤] •

وقد عقدت سلسلة من المعاهدات والتسويات مع امارات المنطقة على اختلافها تحدد طبيعة الوجود البريطانى • ومن هذه الاتفاقات معاهدة عامة لمكافحة القرصنة وتجارة الرقيق المعقودة سنة ١٨٢٢ اشترك فى التوقيع عليها الى جانب شيوخ ساحل القراصنة حاكم البحرين أيضا [٥] • وعلى

---

(٤) هنالك مقتطفات من الوثائق الاصلية لهذا الموضوع مع معالجة واسعة لنمو الالتزامات البريطانية فى منطقة الخليج فى أوائل القرن التاسع عشر موجودة فى كتاب Frecis Gulf •ولعــل المرجـــع الثانى للفترة نفسها يأتى Kelly فى كتابه « السياسة البريطانية بين ١٨١٣ — ١٨٣٤ » وللتوسع بالمعلومات هذه أكثر يراجع « كلى » فى « الوضع البريطانى فى الخليج » • وورد فى محفوظات سانت انتونى رقم ٤ أن القطعات العسكرية الانكليزية — الهندية قد استخدمت فى عمليات عديدة فوق الارض العربية منذ ١٨٠٢ حتى ١٨٢٢ •

(٥) ايتشيسون ١٩٣٣ ، ١.١ ، ٢٤٥ — ٤٧ • وفى ســنة ١٨٢٠ شـــملت المعاهدة دولة راس الخيمة والشـــارقة التى قســـمت الى مشيختين مستقلتين سنة ١٨٦٦ ثم انفصلتا نهائيا ١٩١٩ ، ثم مشيخة أم القيوين ، ومشيخة عجمان ومع أن هنالك من البلاد من لم تناصب بريطانيا العــداء مثل ابو ظبى ودبى التى بقيت تابعة لها حتى سنة ١٨٣٤ ، فقد وقعت معاهدة السلام سنة ١٨٢٠ وجميع اتفاقات الهدنة الاخيرة • وقد اقتفت البحرين خطـــة ابو ظبى ، ولم تعتبر عادة =

الرغم من توقف الهجمات على السفن البريطانية فان تلك الاتفاقات لم تضع حدا نهائيا للاضطرابات الملاحية فى ساحل الامارات • وأخيرا فى سـنة ١٨٣٣ نجح الانجليز فى اقناع شيوخ المنطقة العليا من الخليج بعقد هدنة مدتها بضعة أشهر تمتنع كل دولة خلالها من مهاجمة الأخرى فى مواسـم الغوص • ومن هذا ظهرت فكرة الصلح بالمعنى الحقيقى للكلمة • وقد ظلت هذه الاتفاقية تجدد تلقائيا كل عام حتى سنة ١٨٤٣ عندما أبرمت معاهـدة العشر سنوات التى تحظر الأعمال الحربية فى البحر • وقد توجت الاتفاقات الموقعة سنة ١٨٥٣ بمعاهدة الصلح البحرية الدائمة التى ما تزال سـارية المفعول حتى الوقت الحاضر (٦) • ويعتبر توقيع حكام الخليج على المعاهدات المذكورة اعترافا منهم بحق بريطانيا بمنع وقوع اضطرابات فى الحـركة الملاحية وفى حمايتها للأمن فى مياه الخليج وفى تدخلها لتسوية المنازعات بين دوله ، كما نصت الاتفاقيات المذكورة على تنظيم المسائل التجارية والأوضاع القانونية للرعايا البريطانيين ، وتجارة الرقيق • كذلك فقد هيأت الاتفاقيات نوعا من الاشراف على الشؤون الخارجية للخليج ، رغم ان هذا البند لم ينص عليه صراحة فى المعاهدات •

= كعضو مع الدويلات المتصالحة بالمعنى الحرفى للكلمة لكونها غدت ذات ارتباطات معقدة فى أواخر القرن وفى سنة ١٨٦٨ قام شيخ الدوحة ، رغم ارتباطاته بالبحرين والسعودية التى كانت تبعده عن الاستقلال التام كباقى المشيخات ، قام بالامتناع عن الاشتراك فى اى حرب بحرية . وبذلك دخل فى نظام المصالحة . ولكن هـذا لم يلزم خلفاءه بعده ، وسيما أن قطر لم تنضم الى المعاهدة حتى سنة ١٩١٦ . وحتى اليوم لا تزال قطر غير محسوبة مع الدويلات المتصالحة . ولم تدخل الكويت فى معاهدة مع البريطانيين حتى سنة ١٨٩٩ . وقد نصت هذه المعاهدة على علاقات الكويت العالمية ولم تنص على السلام البحرى . فهكذا لم تعتبر الكويت من وجهة قانونية فريقا فى نظام المصالحة ، بل هى كعمان حفظت مركزها للعمل . وفى سنة ١٩٥٢ اعتبرت الفجيرة رسميا فريقا بنظام المصالحة . وقد كانت جزءا من الشارقة وأصبح لها وجود منفصل منذ سنة ١٩٠٢ . وبين سنة ١٩٣٦ و ١٩٥٢ اعتبرت أيضا « كالبا » مشيخة مستقلة وفريقا فى نظام المصالحة ، لكنها الآن تعتبر جزءا من الشارقة .

(٦) اتشيسون — ١٩٣٣ مجلد ١١ ص ٢٤٨ — ٥٣ .

ولم تشترك فى هذه الاتفاقات اثنتان من الدول العربية الهامة ونعنى بهما عمان والسعودية هذا بالرغم من ان تحركاتهما فى المنطقة قد بدأت تخضع بصورة متزايدة لنصوص معاهدات السلم • فقد أمكن على سبيل المثال كبح جماح التوسع السعودى فى المنطقة عن طريق ما تعهدت به امارات الخليج من احترام لاتفاق الصلح البحرى فيما بينها ، مقابل تعهد بريطانيا بتأييدها تأييدا تاما وغير محدود يرقى الى مستوى الضمان الفعلى لاستقلال الدول الساحلية الصغيرة • وأخيرا فى عام ١٨٦٦ اعترف السعوديون رسميا بهذا الوضع بتوقيعهم على تعهد باحترام كيانات الدول الشرقية الأخرى فى شبه الجزيرة العربية المرتبطة بمعاهدات مع الحكومة البريطانية [٧] • وقد انتظمت العلاقات البريطانية ــ العمانية بحلف ١٧٩٨ ، وفقا للتعديلات التى أدخلت عليه سنة ١٨٠٠ ، والاتفاقيات الأخرى الخاصة بمكافحة تجارة الرقيق الموقعة سنة ١٨٢٢ ، ١٨٣٩ ، ١٨٤٥ [٨] وكان المفروض أن يحترم العمانيون ، كما فعل السعوديون ، روح معاهدة الصلح فيكبحوا جماح أطماعهم فى البحرين وبعض مناطق الساحل الايرانى • ورغم ان الانجليز لم يتعهدوا بشكل صريح بتأييد استقلال عمان ، الا أنهم بعد سنة ١٨٠٦ كانوا فى أغلب المناسبات يظاهرون سلطات الحكم فى مسقط ويدعمون موقفهم ، هذا فضلا عن تأييدهم لهم دبلوماسيا فى كل مرة يتعرض فيها حكمهم للخطر • وبهذه الاجراءات خلقت بريطانيا المبررات والسوابق التى تسمح لها بالتدخل فى الأوضاع السياسية فى الخليج ، كجزء من محاولاتها للمحافظة على الأمن والنظام فى هذه المنطقة ومن ناحية أخرى تجنبت بريطانيا الدخول فى التزامات وتعهدات مسبقة ، أو اعطاء ضمانات قاطعة باستقلال هذه الامارات وقد آثرت انتهاج سياسة مرنة تعالج بموجبها كل مشكلة تطرأ فى حينها • غير أن هذه التسويات ، سواء الرسمية منها وغير

---

(٧) نفس المصدر ص ٢٠٦ •

(٨) المصدر نفسه ص ٢٨٩ ــ ٣٠٢ •

الرسمية ، فى مجموعها ، قد خلقت مناخا سياسيا يشبه المناخ الذى كان يسود الهند خارج مناطق النفوذ البريطانى المباشر • فقد قام حزام من « الدول القومية » يرتبط ببريطانيا بمعاهدات خاصة لحماية المداخل الغربية للهند ، كما وسع فى نفس الموقف من نطاق النفوذ البريطانى دون أن يكلفها مزيدا من الأعباء الادارية المباشرة • فقد تناولت هذه التغييرات طبيعة العلاقات السياسية بين دول الخليج بشكل ثابت ، بمعنى ان استخدام القوة فى مياه الخليج قد استبعد أو أصبح عملا محظورا ، وبالتالى فان الخريطة السياسية للخليج التى ظلت تتأرجح باستمرار قد استقرت على قواعد ثابتة ، منذ ذلك الوقت • ومن هنا لم يعد فى وسع أى دولة من دول الخليج ، بحرية أو غير بحرية أن تلجأ الى القوة كوسيلة للسيطرة على أجزاء أخرى من المنطقة • أما البريطانيون فكانوا يتصورون أن سياستهم فى الخليج سياسة تقوم على « عدم التدخل » • ولكنهم بهذا الرأى يتجاهلون عمق أو بعد التغييرات التى أحدثوها فى الطابع التقليدى للحياة السياسية فى الخليج • كانوا من ناحية يعلنون بأن دورهم فى الخليج لا يتعدى دور رجل البوليس الذى يحمى النظم القائمة من أى اضطرابات قد تهدد خطوط مواصلات الامبراطورية • وهى سياسة مبنية على اللامبالاة ، أو بالأحرى على عدم التدخل فى الشؤون الداخلية لشعوب المنطقة • وعلى الرغم من أوجه النشاط الذى كان يقوم به الانجليز ، كحملاتهم ضد تجارة الرقيق التى كانت من المجالات التجارية الرائجة ، وباعتبارها عملا يبيحه الدين الاسلامى ، فقد كان البريطانيون لا يتدخلون فى عادات أهل البلاد وأسلوب حياتهم • وفى الواقع حدثت تحولات هامة كثيرة فى بيئة الحياة التقليدية للبلاد فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فهذه الفترة ترسم بداية عملية التغيير فى التقاليد السياسية للخليج • ومن الواضح أن القرارات التى اتخذها واضعو اسياسة البريطانية كانت لها أهميتها فى بدء هذه المرحلة من تاريخ الخليج •

واذا كانت النتائج الأولية لفرض رقابة بريطانية نشطة على مياه الخليج

نتائج سياسية فى طبيعتها أساسا ، فلابد من بعض الايضـــاحات عن دور الأجهزة التى كانت تمارس بها السيطرة السياسية على المنطقة • فمنذ القرن السابع عشر كانت ممارسة الوجود البريطـــانى فى الخليج تتم بالتعـــاون والتفاهم بين حكومة لندن المركزية ، وسلطات الهند البريطانية فى كل من بومباى وكلكتا ، والممثلين البريطانيين فى الخليج • وكان تقرير الســـياسة البريطانية فى الخليج يخضع فى أعلى مستوياته لمبدأ توازن القوى بين الدول الأوربية الكبرى ولظروف المواصلات الامبراطورية المتشعبة ، وكحقل تجرى فيه التجارب لنشر « الحضارة الغربية » فى العالم • أما السلطات البريطانية فى كلكتا وبومبى فكانت تنظر الى الخليج من وجهة نظر الحدود • وكانت المنطقة تشكل حلقة فى سلسلة من المحميات والمناطق العازلة ، وبعض البلاد المحايدة التى تحيط بالهند وتحمى حدودها من أى عدوان خارجى وتمتد من برما فى الشرق عبر الهملايا ، وأفغانستان ، وبلوشستان وايران الجنوبية والخليج العربى وتنتهى غربا عند الحدود الجنوبية لشبه جزيرة العرب • ومن ناحية أخرى كانت مهمة الممثلين البريطـــانيين فى المنطقـــة تنحصر فى تصريف الشؤون اليومية ، ومعالجة المشاكل والاضطرابات ، والتعامل مع المسؤولين فى المنطقة والعمل على تنفيذ المعاهدات • وككل تعاون يقوم بين طرفين فان الأبعاد الثلاثة للحكومة الامبريالية ، قد خلقت نوعا من المصالحات بين الأطراف المعنية لا تعتبر مرضية بالنســـبة لأى منها • ان المسؤولين البريطانيين فى الهند هم الذين وضعوا تصميم الأجهزة التى اعتمدت عليها بريطانيا فى تأمين مصالحها فى الخليج • وكـــان نظام التمثيل السياسى البريطانى هو أساس هذه الأجهزة•فمن الناحية النظرية كان المقيم الهندى— البريطانى يقوم مقام السفير فى تمثيل بريطانيا باعتباره السلطة العليـــا بالنسبة الى الحكام المحليين المرتبطين بالنفوذ البريطانى [٩] والواقع ان المقيم البريطانى كان هو الذى يقوم بتمثيل السيطرة البريطانية وممارستها

---

(٩) يرقى منصب المقيم البريطانى فى الخليج فى الوقت الحاضر الى رتبـــة ســـــفير •

فى الدولة « الحليفة » أو المرتبطة . وبالتالى لم يكن فى وسـع أى حاكم محلى أن يرفض نصيحة المقيم البريطانى وقبل عام ١٨٢٢ كان لبريطانيا مقيم سياسى فى أبو شهر غـير ان مسؤولياته كانت تنحصر فى الشـؤون التجارية أكثر منها فى الشؤون السياسية : وتعتبر مهمته بمثابة امتداد للعهود الماضية عندما كانت شركة الهند البريطانية مجرد مؤسسة تجارية . أما فى سنة ١٨٢٢ وكنتيجة للدور الجديد الذى ترتب على بريطانيا أن تضطلع به فى المنطقة ، تغير لقب الممثل البريطانى من « المقيم البريطانى فى أبو شهر » الى « المقيم البريطانى فى الخليج » وتبعا لذلك تغيرت مسؤوليته من مسؤولية تجارية الى مسؤولية سياسية ، كما منح صلاحية الاشراف على جميع الممثلين البريطانيين فى الخليج بما فيهم المعتمد السياسى البريطانى فى مسـقط . الذى بدأ عملة هناك فى سنة ١٧٩٨ . وقد عهدت الحكومة البريطانية الى المقيم المذكور بالاشراف على نظام الرقابة على المنطقة ، الى جانب دعم السيطرة السياسية البريطانية فى المنطقة ، وحتى سنة ١٨٦٢ كان دور المقيم البريطانى فى الدرجة الأولى يقتصر على منع أو قمع الاضطرابات وأعمـال الشغب . ولم يقم المقيمون البريطانيون فى أوائل ومنتصف القرن التاسـع عشر بتشجيع أهالى الخليج على تغيير أسلوب حياتهم القديم ، واعتناق المدنية الغربية الحديثة .

وكما هو معروف عن الادارة البريطانية فى الهند ، فقد كان المقيم السياسى البريطانى يمارس أعماله بحد أدنى من الاداريين . وكان يعاونه فى أعماله مقيم مساعد ، وطبيب ، ومحاسب ، وكاتب وأمين خزينة ، فضلا عن عدد من الكتبة العرب والايرانيين ، والخـدم المحليين ، وفصيلة من الحرس . كما كانت حكومة الهند تعين سياسيين ملحقين (غالبا من أصل هندى) فى كل من الشارقة ، والبحرين ، ولنجه ، وشيراز وفى الفترة الواقعة بين سنة ١٨٠٠ وسنة ١٨١٠ أى على أيام التهديد النابليونى . ثم فى سنة ١٨٤٠ كان يقوم بتمثيل بريطانيا فى مسقط مقيم سياسى من أصل أوربى الا أنه فى أغلب الأحوال حتى سنة ١٨٦١ كان المعتمد الذى يمثل بريطانيا فى

عمان من أهل البلاد • وكان المقيم فى أبو شهر على صلة وثيقة فى أعماله بالمقيم البريطانى فى العراق الذى نقل مقر عمله فى سنة ١٧٩٨ من البصرة الى بغداد التى اتخذت مقرا دائما للممثل البريطانى فى سنة ١٨٣٢ • وفيما بين سنة ١٨٠٦ وسنة ١٨٧٣ كان المقيم البريطانى يخضع من الناحية النظرية للحكومة المركزية فى الهند ــ البريطانية ، غير أنه بالرغم من ذلك كان يرجع فى نشاطه ومسؤولياته الى حاكم اقليم بومبى الذى كان يشرف على المصالح الهندية ــ الانجليزية فى كل المنطقة الغربية من حوض المحيط الهندى • وكان يتم تعيين المقيم أو مساعده عادة من بين رجال الأسطول الهندى وذلك لتنسيق الأعمال مع نشاط هذا الأسطول • والواقع ان الأسطول الهندى ــ البريطانى كان يعتبر الخليج من مناطق نفوذه ، وكان ضباطه يمثلون الادارة البريطانية فيه حتى سنة ١٨٦٢ • ومن ناحية أخرى ، كان من المألوف أن تترك حكومتا الهند وبومبى للمسؤولين فى الخليج حرية اتخاذ القرارات فى حينها • ولعل من الأسباب التى دعت الى ذلك هو عدم وجود مواصلات سريعة بين الهند والخليج قبل افتتاح الخطوط التلغرافية فى سنة ١٨٦٤ (١٠) •

أما العامل الثانى فى نظام الرقابة البريطانية فى الخليج بعد سنة ١٨٢٠ فهو الدوريات التى كانت تقوم بها سفن الأسطول الهندى ، فقد كانت السفن الحربية جنبا الى جنب مع دوريات سلاح الفرسان فى الجيش تقوم بحراسة حدود الهند • وكان فى الامكان توجيه الأسطول الى أى بقعة على امتداد ساحل الخليج • غير ان بعض الاضطرابات التى كانت تنشب فى المناطق الداخلية كحركة الوهابيين مثلا ، لم تكن فى متناول الأسطول البريطانى بشكل مباشر •

غير ان حكومة الهند البريطانية لم تكن تحتفظ بأسطول بحرى كبير فى

---

(١٠) Precis Gulf ص ١٤٨ — ٥٠ •

الخليج • ويعتبر عام ١٨٣٠ فترة هامة ، اذ بلغ عدد سفن الدوريات خمس بوارج ، بينما لم يكن يتجاوز عددها فى سنة ١٨٣٤ سفينتين غير أن هـذا العدد ، فيما يبدو لم يكن كافيا وبالتالى زيد عدد السفن فى عام ١٨٣٥ كنتيجة لانفجار الموقف فى ساحل عمان • وكان الجانب الأكبر من نشاط هذه القوة البحرية يقتصر على عمليات المسح ، وتقديم المساعدة الملاحية وهى الأعمال التى كانت قد بدأتها بحرية بومبى سنة ١٧٧٢ التى كانت مسؤولة عن المنطقة قبل انشاء الأسطول الهندى (١١) • ومنذ سنة ١٨٢٢ حتى سنة ١٨٦٢ تولى شؤون الخليج وعقد الاتفاقيات مع حكامه المقيم السياسى البريطـانى فى المنطقة • ويستثنى من هذا ما حدث سنة ١٨٣٧ — ٤١ عندما أظهرت حكومة لندن اهتماما أكثر بشؤون الخليج • وقد توافقت هذه المرحلة مع نشـوب أزمة دورية فى المشكلة الشرقية ، وهو التعبير السياسى عن الصراع الذى كان يدور بين الدول الأوربية على المنطقة التى تقـع فيها الامبراطوريتان الفارسية والعثمانية فى مرحلة انهيارهما • فالخليج العربى كانت له أهميته بالنسبة للشرق ، اذ أنه يشكل نقطة محـورية تتصـارع حولها المطامع والمخططات• وفى سنة ١٨٤٠ كانت المصالح البريطانية قد توطدت فى الخليج بصورة ثابتة • ومن جهة أخرى فان مصر محمد على — حليفة فرنسا غـير الرسمية — قد وطدت سلطانها فى شبه الجزيرة العربية بينما كان النفـوذ الروسى يسيطر على بلاط الحكم فى ايران • وبالتالى فان هذا التحـالف الفرنسى الروسى القوى ، سوف يتمكن لو ترك وشأنه ، من تصفية الوجود البريطانى فى الخليج وخلق أوضاع قد تهدد المواصلات الامبريالية البريطانية تهديدا خطيرا فى منطقة الخليج • ومما زاد فى تعقيد المشكلة ، ذلك المثلث الجغرافى الذى يربط بين البحر الأبيض المتوسط ، والخليج العربى ، والبحر الأحمر باعتباره موقعا هاما لأقصر الطرق التى تربط أوربا بالمحيط الهندى • ولما كانت حركة النقل تتطور بسرعة ، فان سيطرة دولة قوية واحدة على ذلك المثلث يعطيها ميزة التحكم بالطرق القصـيرة التى تربط أوربا بالأسـواق

---

(١١) Precis Naval ص ٢ — ٥ •

المتعاظمة فى آسيا وافريقيا الشرقية . ولقد استطاع اللورد بالمرستون ببراعته الدبلوماسية أن يسجل نصرا هاما فى أزمة عام ١٨٣٧ — ٤١ ففى الوقت الذى نجحت بريطانيا فى الاحتفاظ بنفوذها فى الشرق الأوسط ، بل ووسعت من رقعة هذا النفوذ (باحتلالها لعدن ١٨٣٨) كانت تقاوم محاولات (فرنسا وروسيا) للتسلل الى المنطقة . ولم يواجه الوجود البريطانى تحديا جديدا لنفوذه فى الخليج قبل سنة ١٨٩٩ — ١٩٥٢ . وقد ترتب على أزمة سنة ١٨٣٧ — ٤١ دعم شبكة المعاهدات التى تربط امارات الخليج بالحكومة البريطانية . وحتى عمان التى لم تكن قد تأثرت بالوجود البريطانى كالدول الأخرى فى الخليج ، اضطرت هى الأخرى الى الالتزام بالمعاهدات البريطانية [١٢] .

وكانت أزمة سنة ١٨٥٦ — ٥٧ أقل خطورة من أزمة سنة ١٨٣٧ — ٤١ ، فقد تقلدت السلطات الهندية الانجليزية زمام التوجيه المباشر للسياسة البريطانية فى الخليج مؤقتا . وانتهت الأزمة بوقف التحركات الفارسية ضد هرات وهى التحركات التى اعتبرت تهديدا للحدود الشمالية الغربية للهند ، لمنع ارسال قوات هندية الى الخليج واحتلالها بعض المواقع على ساحل ايران كتدليل من جانب بريطانيا على اعتبار الخليج جزءا من خطوط الدفاع عن حدود الهند [١٣] . وفيما عدا هاتين الحادثتين ، فقد تركت مهمة الدفاع عن المصالح البريطانية فى الخليج للعناصر التقليدية المحلية . وبالتالى فان الأبعاد الثلاثة للسياسة البريطانية فى الخليج — وهى البعد الامبريالى ، والبعد الهندى والبعد السياسى ، كان لكل منها نصيب فى تكييف السيطرة البريطانية . أما فى التحليل النهائى فان المصالح البريطانية فى الخليج ما بين

---

(١٢) « طريق الهند » هوسكنز فصل ١٦ — ١٧ واتشيسون ١٩٣٣ مجلد ١١ ص ٢٨٩ — ٣٩٢ .

(١٣) « الدبلوماسية » هروتز فصل ١ ص ١٦١ — ٦٣ وكذلك « تاريخ الاسطول الهندى » مجلد ٢ فصل ٢ ، تأليف لوو .

سنة ١٨٢٢ وســـنة ١٨٦٢ ظلت فى واقع الأمر فى أيدى الممثلين البريطانيين المقيمين ، فيما عدا بعض حوادث متفرقة تتعلق بالتدخل الخارجى • وكان المقيمون يمارسون صلاحياتهم عادة فى شكل مخفف ويشرفون على الشؤون المحلية ويراقبون حركة الرقيق من وراء الستار • وبالتالى فان هذه العوامل ولعدم وجود مصالح اقتصادية حديثة ومتطورة للبريطانيين فى الخليج قبل عام ١٨٦٢ ، قد هيأت العرب ليمارسوا نصـــيبا أكبر من السيـــطرة على شؤونهم الداخلية •

فى سنة ١٨٦٢ بدأت المرحلة الثانية من مراحل تطور الوجود البريطانى فى الخليج ، وهى التى استمرت حتى عام ١٩٠٣ • ولقد ولدت هذه المرحلة من تطورات ثلاثة : اعـــادة تنظيم الحكم البريطانى فى الهند وملحقاتهـــا كنتيجة لثورة ١٨٥٧ ، دخول التكنولوجيا والمواصلات الحديثة الى الخليج بعد سنة١٨٦٢، ومحاولات بعض المسؤولين البريطانيين فى الهند نشر المفاهيم السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحديثة فى المنطقة • وانتهت هـــذه المرحلة باحباط البريطانيين محاولات دول امبريالية أخرى الحصـــول على مناطق نفوذ لها فى الخليج • وفى الفترة ما بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٩٠٣ نقل الممثلون البريطانيون فى المنطقة النظم والقواعد وأدوات الحكم الأســـاسية البريطانية التى تم وضعها فى أوائل القرن التاسع عشر الى الخليج وطبقوها بشكل يدعم من النفوذ البريطانى فيها بعد ادخال بعض التعديلات عليها • ومن ثم أصبح البريطانيون فى سنة ١٩٠٣ يمارسون نفوذا فعليا ، وان لم يكن مباشرا على نواح كثيرة من دقائق الحيـــاة السياســـية ــ الداخليـــة والخارجية ــ لامارات الخليج • كما تم خلال هذه الفترة توضيح وتحديد هوية المصالح الاستراتيجية البريطانية وأبعادها فى المنطقة • وسنتناول هذا الجانب بالدراسة فى الفصلين القادمين • وأيا كان ذلك ، فمن الجـــدير أن نشير بهذا الصدد الى أقرب مرحلتين من مراحل تطور الوجود البريطانى فى الخليج •

فى الفترة ما بين سنة ١٩٠٣ وسنة ١٩٤٧ وصل النفوذ البريطانى فى

الخليج الى أقصى درجاته . فالسيطرة الاقليمية التى فرضتها بريطانيا عليه سنة ١٩٠٣ من جانب واحد فقط ، أصبحت وضعا معترفا به من الدول الامبريالية الأخرى المنافسة لها — وهى فرنسا ، وروسيا ، وألمانيا ، والامبراطورية العثمانية . وقد تم هذا الاعتراف من خلال المفاوضات الدبلوماسية التى أجريت ما بين سنة ١٩٠٤ وسنة ١٩١٤ . واعتبرت نتيجة الحرب العالمية الأولى التى انتهت باحتلال الانجليز للعراق ، وجزء كبير من ايران بمثابة تثبيت للسيطرة البريطانية على المنطقة . وأصبح من المألوف بعد هذا أن يرى الانسان بريطانيين مثل شارلس بلجريف فى البحرين ، وبرترام توماس فى عمان كمستشارين اداريين فى حكومات الأمراء العرب . وعلى كل فقد أخذت قبضة هذا النفوذ البريطانى تضعف من بعض النواحى فى العشرينات من هذا القرن . فلقد تأكد استقلال ايران ، كما ان الضغط الدبلوماسى الأمريكى قد أخذ يدعم مصالح النفط الأمريكية فى المنطقة على حساب الاحتكار البريطانى للثروة البترولية المتزايدة . وفى عام ١٩٤٧ انسحب البريطانيون من الهند ومنذ ذلك الوقت يحاول البريطانيون أن يتكيفوا مع حقائق الأوضاع الجديدة فى المنطقة ، والبحث عن أساليب أفضل للابقاء على وجودهم فى الخليج فكان عليهم أن يوفقوا بين مطالب القوميين العرب والايرانيين من ناحية ، ورغبتهم فى تحقيق وعودهم السياسية القديمة ، وضمان تدفق النفط الذى يسد جانبا هاماً من حاجة بريطانيا وغرب أوربا من الطاقة والوقود من ناحية أخرى .

اعادة تنظيم الحكم البريطانى فى الهند

وانعكاساته على الأوضاع فى الخليج

أشرنا فى سياق هذا الكتاب الى التحولات الكبرى فى الهند وانعكاسها على الأوضاع فى الخليج • ولعل ما يؤيد هذا الرأى التغييرات السياسية التى شهدها الخليج فى أعقاب ثورة سنة ١٨٥٧ الهندية وهى الثورة التى تمخضت عن اعادة تنظيم جهاز الحكم البريطانى التابع لها • ففى عام ١٨٥٨ حلت شركة الهند الشرقية ــ الاداة القديمة للسيطرة البريطانية على الهند بموجب مرسوم حكومة الهند لسنة ١٨٥٨ • وأصبحت السلطة العليا فى توجيه دفة السياسة البريطانية بعد أن كانت خاضعة للملك ومجلس الوزراء ، فى يــد « وزير الدولة لشؤون الهند » الذى كان عضوا فى مجلس الوزراء ، وكان يساعد الوزير مجلس وزراء خاص بالهند • اختير أعضاؤه من بين المسؤولين البريطانيين المتقاعدين فى الهند وممن كانوا يحملون أرفع الألقاب ويتمتعون بكفاءة وخبرة علمية واسعة • أما الاجراءات الادارية فقد عهد بها الى نخبة من الرسميين المحترفين ، وذلك بالرغم من تغير الوزراء وكانت مهمة هؤلاء الأشراف على سير الاجراءات الدستورية ، واستخدام أفضل الطرق بل كاد أن يكون هؤلاء المخططين للسياسة • وفى الفترة الأخيرة من حياة شركة الهند الشرقية ، تقلص نفوذها فى مجالات السياسة العليا تقريبا • وعندما بدأت وزارة شؤون الهند عملها سنة ١٨٥٨ دبت فى ادارة الهند البريطانية روح جديدة • كما ان رغبة حكومة لندن فى خلق دولة منظمة وفعالة فى الهنــــد انتشرت كالعدوى بين مختلف أوساط حكومة الهند البريطانية • وهــكذا انطلقت روح التغيير الى الخارج سنة ١٨٦٠ ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى انتقلت هذه الروح الى منطقة الخليج أيضا [١٤] •

---

(١٤) تاريخ الهند ــ اعداد اكسفورد (الطبعة الثالثة) ، ص ٦٧٥ ، تاليف ت . ار . متكاف و « ثورة الهند » ، ١٨٥٧ ــ ١٨٧٠ (طبعة برنستون ١٩٦٤)

أما فى الهند فقد احتفظ النائب العام بالسلطة العليا ، غير أنه كممثل شخصى للملك كان يحمل لقب (نائب الملك فى الهند) وكان له مجلس للوزراء يساعده فى أعماله ، وان كان هو المسؤول الوحيد عن الشؤون الخارجية التى كان يساعده فيها أيضا « وزير خاص » ودائرة أو وزارة للشؤون الخارجية. وكانت الادارة الخارجية هى التى تشرف على شـؤون الولايات الهنـدية وغيرها من المناطق العازلة فى الخليج وحتى سنة ١٨٧٣ كان محافظ اقليم بومبى الشخص المسؤول عن العلاقات الخارجية فى منطقـة غربى المحيط الهندى . غير ان هذا الوضع كامتداد للمرحلة التى سبقت ظهور المواصلات السريعة ، قد تغير فى سنة ١٨٧٣ ، بتسلم حـكومة الهند المركزية مقاليـد السلطة على جميع ممثليها خارج دائرة النفوذ المباشر . وقد عهد بالاشراف على شؤون الخليج بعد سنة ١٨٧٣ الى مكتب وزير الخارجية التابع لنائب الملك ومقره كلكتا . وكان اهتمام هذه الادارة ينصب على ناحيتين ، علاقة حكومة الهند بالولايات الهندية داخل الحدود الهندية ، والعلاقات الخارجية الحقيقية أى علاقة الهند بالدول الأجنبية . وكان المفروض فى مثل هـذه العلاقات أن تخضع للسياسة الامبريالية . وبالاضافة الى هيئة الموظفين فى حكومة كلكتا ، كان يعمل حشد من رجال السلك السياسى الدبلوماسى ، وعدد كبير من وحدات الجيش المخصصة « لرجال التمثيل » ومن الناحيـة التنفيذية كان اختيار الرسميين يتم عادة من بين المتخصصين فى شـؤون الامارات الواقعة ضمن الامبراطورية الهندية نفسها أو فى مناطق الحدود ، والمناطق الخارجية كالخليج العربى [١٥] .

وعلى الرغم من تعقيدات جهاز الحكم الامبريالى بحكم تراكب السلطة فى أعلى مستوياتها ، فقد كان هذا الجهاز كله (بعد سنة ١٨٧٣) يرتبط بخط تلغرافى مع نائب الملك فى الهند الذى يرتبط بدوره بخط تلغرافى مع حكومته

---

(١٥) سيرة حياة السر مورتيمور دوراند ، تاليف بى سايكز (لندن ١٩٢٦) ص ٥٥ — ٥٦ ، ٢٢٤ — ٢٥ و الجارديانز ، تاليف ملسون ، ص ٢٧٠ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٢٦٥ — ٦٦ .

فى لندن [١٦] . وعلى كل حال فقد كان نواب الملك فى الهنـــد يخضعون فى تصريف شؤونهم لمجموعة من القواعد والسوابق . وبالتالى كانت قراراتهم تخضع لتلك القواعد أكثر مما كانت تخضع لميولهم الخاصة [١٧] ، أما الحكومة نفسها فلم تكن تهتم بالتفاصيل ، وهذا ينطبق أكثر على شؤون الخليج . ومن هنا كانت الفرصة مهيأة ما بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٩٠ أمام الأقوياء من الرسميين لفرض ارادتهم ، أما فيما يتعلق بمنطقـــة الخليج فقـــد كان التركيب الذى تقوم عليه السيطرة البريطانية ، وطريقة ممارستها يتقرران سرا ، من حيث المضـــمون أو من حيث التفاصـــيل وعلى هـــوى الممثلين البريطانيين وحدهم .

قضية جونز ، ١٨٦٢ — ١٨٦٣ اتجاهات جديدة للسيطرة البريطانية فى الخليج

فى عام ١٨٦٢ تولى السر بارتل فرير منصب حاكم اقليم بومبى ، كما بدأت السفن التجارية رحلاتها المنتظمة الى موانىء الخليج . ويعتبر هذان الحدثان اشارة الى بدء مرحلة جديدة فى تاريخ الخليج . فالنظام الادارى القديم السلبى كان يتعارض مع فكرة بارتل كادارى يمى ، كما ســـبق أن أشرنا ، رسالة بريطانيا الحضارية فى العالم . وكان بارتل هذا واضح الرؤية بالنسبة للاتجاه الذى ينبغى أن تتحرك فيه الأحداث فى الخليج . وبنوعيـــة الرجال الذين يجب أن يقودوا المصالح البريطانية هناك . وكان من رأى هذا الرجل أن لا يتقيد المقيم البريطانى بمهمته كرجل بوليس ، بل عليه أن يسعى الى توسيع نطاق نفوذه مع سائر الحكام الذين يتعامل معهم . وبهذه الطريقة يستطيع المقيم أن يقوم بدور المستشار لا فى الشؤون السياسية وحسب ،

---

(١٦) الممتلكات البريطانية فيما وراء البحار ص ٢٥٥ (كامبردج ١٩٥٠) .
(١٧) الجارديانز ، تأليف ماسون ص ٧٦ .

بل وفى الشؤون الداخلية أيضا • غير انه لا ينبغى للمقيم فى رأى فرير أن يحشر نفسه فى الادارة الداخلية ، بل أن يراقب كل ما يجرى حوله فى البلد أو الامارة التى يعمل فيها • كما ينبغى عليه أن يقف الى جانب رؤساء المنطقة طالما احتفظوا بعلاقات ودية ومرضية مع البريطانيين • وأخيرا ينبغى على المقيم أن يرشد حكام المنطقة الى أهمية أساليب الحياة الحديثة المستنيرة ، وأن لا يفرضها عليهم فرضا • وعلى حين كان يرى فرير بأن وضع المبادىء العامة لسياسة المقيم تقع على عاتق رؤسائه ، فان تفاصيلها ينبغى أن تكون من اختصاصــه •

وبالتالى كان دور المقيم البريطانى فى الخليج وفق تصور فرير يرتبط بالخطط التى يضعها لتعديل السياسة البريطانية وبآرائه العــامة فى دور الامبراطورية البريطانية فى العالم وبدلا من أن يضع بارتل أسس نظــام ادارى بريطانى مباشر ، فقد آثر أن يدخل هذا النفوذ من النوافذ الخلفية وأن يحترم الثقافات القومية ، على أن يمارس نشاطه عن طريق الحــكام المحليين ، فى الوقت الذى يضيف الى الأوضاع القديمة السائدة قوة دافعة جديدة • غير أنه لا ينبغى أن يكون ثمة أى لبس فيما يتعلق بالجهــة التى ينبغى أن تقبض على السلطة النهائية وعلى الحكومات المحلية أن ترضخ من حيث الأساس لمفاهيم الخطأ والصواب البريطانية • وفوق ذلك ينبغى أن يكون الاشراف البريطانى الجسر الذى تعبر عليه المبادىء الحديثــة للفكر والتكنولوجيا • وقد أطلق على هذا النوع من النفوذ البريطانى « السيطرة غير المباشرة » وبعبارة أخرى كان بارتل يعتقــد بأن التحضــير (لادخال الأساليب الحضارية) شرط أولى لغرس الأخلاقيات المسيحية فى العالم ، وبالتالى فان مفهــوم فرير للامبريالية ، هو جــزء من التقاليد اللبرالية البريطانية ، وبدرجة أقل من الانجليين • ان الامبراطورية مســؤولة فى عقيدة فرير ، وبالتالى فهى حركة لنشر المدنية والحرية فى آن واحد [١٨] •

---

(١٨) « سيرة حياة فرير » ، تاليف : ماريتنو فصل ١ ص ٥٠ — ٥١ و ٦٩ — ٧٠ و ١٦٨ و ٦٩ — ٤٩٥ •

وكان يعتقد فرير بأن بريطانيـــا كانت متخليـــة عن مسؤولياتها فى الخليج • ولم يكن راضيا عن المقيم البريطانى فى أيامه الكابتن فلكس جونز ، الذى كان يتولى التمثيل فى أبو شهر منذ سنوات قبل تعيين السر بارتل فرير حاكما على اقليم بومبى • وكان جونز من ضباط الأسطول الهندى وكانت له خبرة طويلة بالعراق ومنطقة الخليج العربى • وقد ظل التمثيل البريطانى فى عهد جونز من حيث الأساس كما كان منذ سنة ١٨٢٢ • وكانت السياسة المتبعة فى أيام جونز سياسة تقوم على أساس عش ودع غيرك يعيش • وكان هذا متزوجا من سيدة أرمنية فارسية وكان قد تشرب تقاليد الحياة فى الخليج • واذا كانت هذه السياسة تعتبر سياسة مقبولة فى سنة ١٨٤٠ ، فقد أصبح جونز فى نظر بارتل فرير نموذجا غير صـــالح لتمثيل أفـــكار البريطانيين وسلوكهم وحضارتهم فى سنة ١٨٦٢ ، وبالتالى بدأ فرير حملة ضد جونز فى التقارير التى كان يبعث بها الى رؤسائه يطالب بنقل جونز الذى لم يعد صالحا لتمثيل النفوذ البريطانى فى المنطقة وفق رأيه • وعندما سافر جونز فى الاجازة الى انجلترا سنة ١٨٦٢ ، انتهز فرير الفرصة فعين مقيما بالنيابة عن جونز ، وكان هذا الأخـــير ضابطا متحمسا من ســـلاح الفرسان ويدعى ليويس بلى Lowis Pelly وكان قد لمع فى المناصـــب التى سبق أن شغلها فى الشرق الأوسط وزنجبار • واستمر فرير بعد ذلك فى ارسال الخطاب تلو الخطاب الى وزارة شؤون الهند فى لندن يحثهم على الغاء عودة جونز الى الخليج والموافقة على تعيين بلى فى محله • وكان فى كل الخطابات التى يبعث بها الى لندن يركز على أن منطقة الخليج مقبلة على مرحلة جديدة لم يعد يصلح لتمثيل بريطانيا فيها ، لأنه رجل ليس فى وسعه مواجهة متطلبات منطقة تستقبل مرحلة جديدة من اليقظة الحضارية الحديثـــة •

ولقد قاوم جونز بعنف للاحتفاظ بمنصبه فى الخليج ولكنه لم يفلح ،

وتم تعيين بلى أخيرا كمقيم فى الخليج خلفا لجونز [١٩] • لقد كان جونز يمثل « الطغمة القديمة » من ضباط الأسطول الهندى الذين يعتبرون الخليج منطقة نفوذهم الخاصة • وبما أن هذه الجماعة كانت تؤمن بأنها تعرف عن الخليج أكثر من غيرها ، فقد كانت نظرتها ضيقة جدا ، ولم تكن تنظر الى الخليج من زاوية المصالح البريطانية فى الهند وانما من زاوية الامبريالية البريطانية • وبتسلم بلى منصبه كمقيم بريطانى فى الخليج بدأت مرحلة جديدة من العلاقات بين بريطانيا وسكان المنطقة ، وقد تمثلت فى مزيد من التدخل فى شؤون السياسة الداخليـة لامارات الخليج • وبذلك أخـذت القرارات السياسية البريطانية تؤثر بصورة متزايدة على مجرى التـاريخ القومى للخليج • وهكذا ما أن حلت سنة ١٩٠٠ حتى كانت جميع امارات الخليج قد فقدت استقلالها بحيث أصبحت من الوجهـة الفعليـة جزءا لا يتجزأ من الامبراطورية البريطانية •

ليويس بلى والتوسع البريطانى فى الخليج

لقد اتسمت الفترة التى تولى فيها ليويس بلى منصب المقيم السياسى البريطانى فى الخليج بحركة توسعية للنفوذ البريطانى فى المنطقة • فقـد شهدت المرحلة انتشار المؤسسات الاقتصادية ، والمواصـلات الحديثة ، وتزايد التدخل السياسى البريطانى فيها • وعلى الرغم من أهمية هـذه الأحداث فى حـد ذاتها ، فانها ستبدو أكثـر اثارة ، اذا ما تذكرنا بأن الستينات كانت مرحلة تتسم بالحذر السياسى من الجانب البريطانى وفى أغلب الأحوال مرحلة تدعيم لامبراطورية الهند البريطانية • أما من حيث أهمية الخليج كمنطقة عازلة فقد كان يحتل موقعا فريدا ، وهذا يعنى أن

---

(١٩) رسائل من بارتل فرير الى وود بتاريخ ١٢ فبراير و ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٦٢ و ١٢ مايو سنة ١٨٦٤ انظر ايضا « سيرة حياة فرير » ، تأليف مارتينو .

السياسة البريطانية فى سنة ١٨٧٠ كانت أهم منها فى سنة ١٨٦٠ ولهـذا ثلاثة أسباب :

١ — ازدياد حجم الالتزامات الاقتصـادية البريطانيـة فى الخليج كنتيجة لادخال خطوط الملاحة التجارية الى المنطقة •

٢ — انشاء الخطوط التلغرافية (السلكية) بين أوربا وشبه القـارة الهندية عبر الخليج ، وما أعقب ذلك من زيادة فى سرعة المواصلات داخل المنطقة نفسها من جهة ، وبينها وبين العالم الخارجى من جهة أخرى •

٣ — وضع المصالح البريطانية فى يد شخصيتين متحمستين ومخلصتين، هما السر بارتل فرير ، حـاكم اقليم بومبى ، ومعـاونه فى الخليج المقيم البريطانى ليويس بلى •

لقد تحدثنا آنفا عن رأى فرير بالنسبة الى الامبريالية البريطانية ، والى ما كان يؤمن به هذا الرجل من آراء تتعلق بالتطور الاقتصادى فى الخليج وبالدور الذى يمكن أن تضطلع به بريطانيا فى ادخال الحضـارة العصرية الى المنطقة • وعلى أى حال ، فالشىء المهم أن نرى كيف استطاع بلى أن يحول أحلامه ، الى حقائق ! ولما كان بلى يؤمن بضرورة توفـير الأجواء والشروط السياسية اللازمة التى يمكن فى ظلهـا التمهيـد لنشر الحضارة الحديثة فقد ركز الجانب الأكبر من جهـوده على النـواحى السياسية أكثر منه على النواحى الاقتصادية • وكان من رأيه أنه ما لم تشرف بريطانيا اشرافا فعليا ، فلا يمكن تحقيق هذا الهدف • ولهذا وجه بلى كل همه الى تدعيم النفوذ السياسى البريطانى فى الخليج ولا يمكن خلق بيئة تسمح بنمو « الحضارة والتجارة » ما لم يدعمها نظام سياسى متين • وبالتالى لم يكن غريبا أن يحاول فرير التدخل فى بعض تقـاليد ومؤسسات الحضارة التقليدية فى الخليج وكانت هـذه موضـع احترام السياسيين البريطانيين حتى ذلك الوقت • وأخذ بلى يعمل بلا كلل ، ولكنه

كان يبالغ أحيانا مبالغة كبيرة فى تقدير امكانيات المنطقة الاقتصادية وكان يحث مواطنيه على استغلال نفوذهم فى المنطقة لدعم المصالح التجارية ، كما كان يحذرهم من ان أى تقاعس من جانبهم سوف يعرض مركز بريطانيا لتحديات خطيرة . وكان من رأيه أيضا أنه لم يكن فى الامكان تطبيق السياسة البريطانية فى الخليج بشكل فعال اذا كان ثمة من يعترض على وجوده على رأس الممثلين البريطانيين وخضوع بقية المسؤولين من مدنيين وعسكريين فى المنطقة لأوامره وتعليماته . ويبدو من الصعب تحديد خط فاصل بين قيام بلى بواجباته الرسمية ، وبين عملية ادخال الوسائل العصرية الى الخليج فهو لم يكن يفصل بين الناحيتين وكان يقف فى وجه كل من يحاول اثارة المتاعب فى طريقه أو احباط مشاريعه . وعلى كل فقد كان ايويس بلى فى تلك المرحلة من « الاستعمار الجديد » يعبر عن رأى حكومته فى الطريقة التى يمكن أن تتم بموجبها عملية ادخال الحضارة الحديثة الى المنطقة . وهى طريقة تقوم على أساس فرض السيطرة الغربية على المنطقة الى حد كبير . وعلى الرغم من أن طريقته لم تكن معقدة الى درجة كبيرة ، الا أنها من الوجهة العلمية لم تكن طريقة تجديدية ، أما من الناحية العملية فقد كانت تعتمد على عدد من المشروعات المحددة والمعدة سلفا لمنطقة معينة أكثر ، منها على نظريات عامة للتطور .

غير أن ميزة بلى الادارية — المستمدة من ايمانه بدور بريطانيا الحضارى فى الخليج — هى أكثر الصفات التى تركت آثارها بعد وفاته . فقد كان وراء اندفاعه وصموده فى وجه العواصف ، شجاعة وحماسة مقرونتين بالكبرياء . كما ان أسلوب قيادته كان يكشف عن شخصيته كفارس متمرس لم يفقد حبه للمغامرة والاقدام . لقد كان أمامه طريق محفوف بالأخطار . وفى عام ١٨٦٠ قام بلى برحلة على ظهر جواد من ايران الى الهند عن طريق أفغانستان مرورا بمناطق تسكنها قبائل متوحشة . كما قام بعد تعيينه فى سنة ١٨٦٥ برحلة شاقة أخرى الى قلب الجزيرة العربية عندما زار الرياض فى محاولة لتسوية الأزمة الخطرة التى وقعت بين

السعودية وبريطانيا . وكان بلى يدافع بحرارة عن مفهومه للمصالح البريطانية فى الخليج فى تلك الفترة التى كانت تشهد تغييرات جذرية فى أسس الحياة التقليدية للمنطقة . وعند احالة بلى على المعاش سنة ١٨٧٢ نقل نشاطه الى أفغانستان والهند حيث لعب دورا لامعا فى الميادين الدبلوماسية منح عليها سنة ١٨٧٧ لقب الفارس . وهكذا أخذت تنهال عليه الألقاب والرتب حتى وفاته فى سنة ١٨٩٢ ، وكان يومها قد وصل الى رتبة لفتنانت جنرال ، كما برز اسمه فى مناقشات مجلس العموم كأحد الناطقين باسم الاستعمار .

وعلى الرغم من صفات الحماسة والشجاعة ، والقدرة على الاقناع والذكاء التى كانت يتصف بها بلى ، الى جانب غروره وتعنته ، فقد أسهمت كل تلك الصفات فى تدعيم مركز بريطانيا فى الخليج ، فى الوقت الذى كان من المتوقع لذلك الوجود أن ينهار ، لو عهد بالمسؤولية الى رجل آخر أقل كفاءة وثقة بنفسه من ليويس بلى . وقد يكون من حسن حظ بلى أن منصب المقيم فى بعض الأحيان كان تعبيرا عن قوة شخصية صاحبه أو ضعفه أكثر منه تعبيرا عن المنصب نفسه . وعلى عكس منصب الحاكم العام ، فأن فعالية أى منصب آخر لا تتحدد بمدى قوة التركيب الادارى الذى يسنده . فمنصب المقيم هو بالأحرى صورة مكبرة لشخصية الرجل الذى يشغله . فالمفروض فى المقيم البريطانى فى الخليج أن يعمل فى حدود مسؤوليته وهى الاحتفاظ بعلاقات ودية مع حكام المنطقة التى يمثل فيها . أو تقديم مشورته اليهم ، لا فى المسائل الخارجية وحسب ، بل وفى الشؤون السياسية الداخلية أيضا . وقد قام بلى بواجبه هذا على الوجه الأكمل . والحق أنه كان سياسيا ثوريا ، وكان يسمى نفسه رائد التغيير ورسول الحضارة والعهد الجديد فى الخليج . غير أن مهمة بلى فى الخليج واجهت كثيرا من العقبات والخيبات ، ولما كان المبشر بالامبريالية الجديدة —

باعتبارها فلسفة الرجل الأبيض — فقد ظل نجاحه يتصاعد وكذلك مركزه فى المنطقة [٢٠] •

وكانت هناك ثلاث مشاكل رئيسية تواجه بلى : أولها الخلافات التى دبت بينه وبين رؤسائه فى كلكتا حول السياسة التى ينبغى أن تتبع فى الخليج وعلى الرغم من أن رئيسه المباشر بارتل فرير كان يؤيد موقفه عموما ، غير أن سياسة رؤسائه المتزمتة فى كلكتا وكانت مصدر مضايقات كثيرة له • أما المشكلة الثانية فهى أنه كان يواجه بعض العقبات فى فرض سلطته الرسمية على غيره من المسؤولين البريطانيين فى الخليج • أما المشكلة الثالثة فهى عقلية الحكام الذين كان عليه أن يتعامل معهم والعبء الملقى على عاتقه فيما يتعلق بالمحافظة على النظام السياسى فى الخليج فى فترة من التغييرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية العميقة ، فضلا عن محاولاته لخلق مناخ سياسى فى بلدان الخليج ، يسمح بدخول وسائل المدنية الحديثة اليها •

ليويس بلى ، ورؤساؤه والسياسة البريطانية فى الخليج

لقد كانت متاعب بلى مع رؤسائه ثمرة صدام بين فلسفتين امبرياليتين• فقد كان هذا من دعاة « الامبريالية الجديدة » وكان يدعو الى قيام بريطانيا بتعميق وجودها والتزاماتها فى منطقة الخليج حيث كانت توجد بالفعل

---

(٢٠) للاطلاع على صورة وافية لحياة بلى انظر « معجم السير القومية » (١٨٩٥) ص ٢٧٥ — ٧٧ وكتاب « سيرة حياة فرير » ، تأليف مارتينو فصل ١ ص ٥٠ — ٥١ و ٥٠٣ • راجع ايضا رسالة بلى الى اندرسون بتاريخ ١٦/٢/١٨٦٦ و Precis in' Rivalry ص ٢٩ ورسالة بتاريخ ١٢/٥/١٨٦٦ من بلى الى اندرسون و Precis Commerce ص ٣٠ ورسالة مؤرخة ٢٢/١٠/١٩٠١ من هاملتون الى كرزن •

مقدمة لعلاقات غير عادية بين بريطانيـا ودول المنطقـة . أما المسؤولون البريطانيون فى الهند ، وعلى رأسهم السر جون لورنس Sir John Lawrence نائب الملك من سـنة ١٨٦٤ حتى سـنة ١٨٦٩ ، وتشـارلس اتيشـيون Charles Aitchison ، المسؤول عن الادارة الخارجية فى الهند من ١٨٦٨ حتى ١٨٧٨ فقد كانوا ينادون بسياسة ودية أو سياسة « عدم التورط » أو كما كان يحلو للورنس أن يسميها « سياسة غير نشطة » ووجهـة نظـر أصحاب هذه المدرسة السياسية ان امبراطورية الهند البريطانية يجب أن تحاط بحزام من الحدود الواضحة بحيث لا تتعداها . أما فى المناطق التى تقع خارج حدود الهند ، وتقضى الضرورة باقامة علاقات دبلوماسية معها ، أو تحمل نوع من المسؤولية ازاءها ، فان أصحاب هذه المدرسة يوافقون على الحد الأدنى من التدخل فى الشؤون الداخلية لتلك المناطق وتقاليدها ، أو بتجنيب ذلك اذا أمكن . غير ان هذه السياسة بالنسبة الى العلاقات الدولية والامبريالية ، قد تأثرت فى الستينات من القرن بحدثين خاصين ، الأول هو رغبة كل من حكومتى لندن وكلكتا فى الوصول الى اتفاق مـع حكومة سانت بيترسبرج حول امتداد نفوذ كل من بريطانيا وروسيا فى آسيا . وكان المسؤولون فى كلكتا يطالبون بأن تتوقف الدولتان عن توسيع نفوذهما عبر القارة وان تتفقا على تعيين منطقة محايدة عازلة تفصل بين مناطق نفوذ كل منهما . ولتفادى وقوع أى صدام بين روسيا وبريطانيا فى آسيا كانت كلكتا ترى استبعاد كل من أفغانستان وايران من الصراع تحسبا لترشيحهما كمنطقتين عازلتين بين مناطق نفوذ كل من الدولتين . وانه فى حالة قيام دولة من الدول كفرنسا أو روسيا بتجاوز حدود المناطق العازلة فان معالجة هذا الوضع يمكن أن تتم بالطرق الدبلوماسية من جانب حكومة لندن فى عاصمة الدولة المعنية [٢١] .

---

(٢١) « سيرة حياة فرير » ، تأليف مارتينو فصل ١ ص ٤٨٢ و « السر مورتيمار ديوراند » ، تأليف سايكز ص ٨٤ و « أسس السياسـة الخارجيـة للهند » ، تأليف : ب . براساد ص ٢٦ و ٤١ (طبعة كلكتا ١٩٥٥) .

كانت سياسة تجنب المشاكل والامتناع عن المغامرات فى مرحلة كانت الهند تفيق لتوها من آثار ثورتها الكبرى ، أحد العوامل التى أسهمت فى تشكيل سياسة حكومة كلكتا فى الستينات . وهى سياسة وضع أسسها اللورد كاننج ، ثم جاء جون لورنس فقام بتنفيذها . ومن ناحية أخرى فان الثورة التى اجتاحت الهند وما أعقبها من أحداث قد أسهمت فى استنزاف ميزانية الحكومة الهندية ، وبذلك أضافت بعدا جديدا الى الوضع . وقد بلغت ديون الحـكومة فى سنة ١٨٦٣ ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٨ ج . س . بينما بلغ العجـز فى الميزانية ٠٠٠ر٠٠٠ر٧ ج . س . ومن ثم فان سياسة الضغط على النفقات واصلاح الجهاز المالى للدولة كانت أهم بالنسبة الى حكومة كلكتا ، ممـا كانت تعتبره مشروعات خارجية باهتة ومغامرات تضر أكثر مما تنفع وتؤدى الى اضعاف الاقتصاد [٢٢] .

وبالنسبة للخليج فكانت ترى حكومة كلكتا أن يستمر العمل بالسياسة القائمة ، دون الدخول فى ارتباطات جديدة قد تحيد بها عن الخط المقـرر بشكل جذرى . ومما يبعث على السخرية أن سلطات حكومة الهند المركزية كانت تؤيد مشروع مد الخط التلغرافى بين الهند وأوربا ، وتمويل مشروع الخط الملاحى لبواخر شركة الهند الشرقية فى الخليج باعتباره اجراءا دفاعيا عن الهند . غير ان مضاعفات وضع هذه المشروعات موضع التنفيذ كانت فى الوقت نفسه سببا فى زيادة التورط البريطانى فى الخليج ، وهو ما كانت الحكومة تحاول أن تتفاداه . وعلى العموم فان حكومة لندن كانت تؤيد سياسة حكومة كلكتا السلبية حتى السبعينات من القرن التاسع عشر عندما بدأت السياسة البريطانية دبلوماسية أكثر نشاطا .

---

(٢٢) تاريخ الهند — اعداد اكسفورد الطبعة الثالثة ص ٦٧٧ و « التنمية الاقتصادية فى الهند » ص ٣٧٣ ، تأليف اينستى وكتاب « سيرة حيــاة فرير » فصل ١ ص ٢٨٩ — ٩٩ ، تأليف : مارتينو و « معقبات الثورة » تأليف متكاف (Metcalfe) .

وفى مقابل شعار « عـدم التورط » ظهر خـلال الستينات شـعار « الامبريالية الجديدة » الذى لم يصل الى أقصى مداه قبل الثمانينات • ومفهوم هذا الشعار ان الامبريالية مسؤولية أخلاقية وليست شرا لابد منه ، ولئن كان « الامبرياليون الأوائل » ، قد تراجعوا عن شعاراتهم القديمة ، التى كانوا سيحرمون بها أقطارا كثيرة من نعمـة المدنية الحديثـة ، فان الامبرياليين الجدد يرون فى تلك المؤثرات مؤثرات حضارية • لقـد كان النموذج البريطانى للاستعمار الجديد فى مرحلته الأولى على الأقل متأثرا بدرجة عميقة بالنزعة الانسانية والأخلاقيـة • وكان ديفيد ليفنجستون David Livingstone أول من دعا اليه • وقد استطاع بكتاباته أن يقنـع كثيرين من البريطانيين بأن رسالة البريطانيين المسيحية فى العالم هى العمل على نشر النفوذ السياسى البريطانى فى آسيا وأفريقيا ، كخطوة أولى فى سبيل غرس قيم المدنية الحديثة بين ربوعهما ، ولم تكن غاية الامبرياليين الأوائل هى تحقيق المجد الامبريالى أو النفوذ الدولى ، بل كانوا بالأحرى دعاة للانسانية ولحياة مستنيرة للناس • غير أنه مع انتشار المفهوم الجديد للاستعمار ، اتخـذت الدعوة للأسف ، طابعا عنصرياً ، بـل وشيطانيا ، يعكس مفاهيم داروين الاجتماعية التى شاعت فى أوائل القرن التاسع عشر • ولقد كان السر بارتل فرير من أوائل الذين اعتنقوا الفلسفة الاستعمارية الجديدة • وبما أن فرير قد نجح فى كسب واحد من شباب العقيدة وتعيينه فى منصب المقيم البريطانى فى أبو شهر ، فقد كان الخليج العربى أول منطقة فى أفريقيا وآسيا تحظى بنصيبها من الاستعمار الجديد ، ومن مقر عمله كحاكم لاقليم بومبى كان فرير يدير المصالح البريطانية على امتداد رقعة واسعة من الساحل الغربى للمحيط الهندى • وكان على يقين من امكان نشر القيم الحضارية الحديثة والتأثير على حكام المنطقة — بمـا فيها الخليج العربى — اذا توفرت الظروف اللازمة لها •

وقد تولى بلى منصبه كمقيم بريطانى فى الخليج فى فترة تشهد صداما بين فلسفات استعمارية متعارضة • وعلى الرغم من اصطدامه بين الحين

والآخر مع الساسة فى كلكتا ، ومع ممثلى الخارجية الهندية ، فقد كان يلقى كل دعم وتأييد من جانب السر بارتل فرير ، كلما اشتدت معارضة حكومة كلكتا لسياسته • وكان فرير يعتقد بأن السياسة البريطانية فى الخليج كانت تقوم على أساس التدخل الحقيقى ، وان سياسة الحكومة فى كلكتا لم تكن سياسية واقعية بحكم التصرفات البريطانية السابقة ، والمسؤوليات التى كانت تتحملها بالنسبة للمنطقة [٢٣] غير ان كلكتا كانت مضطرة الى أن ترضخ لمقترحات فرير بوصفه الرجل الثانى فى الهند ، حتى وان كانت تتجاهل مسؤولا صغيرا نسبيا مثل بلى • وعلى مدى الستينات كان الخلاف مستمرا • وفى الوقت الذى كان فرير وبلى يواصلان مساعيهما لتوسيع نطاق الالتزامات البريطانية فى الخليج ، كانت الحكومة فى كلكتا تحت ضغط الأزمة المالية الحادة تعارض تلك الجهود •

وكان الخلاف واضحا بصورة خاصة بين الاتجاهين ، وفى التضمينات المتعلقة بالاشراف على حماية الخليج • وكان بلى يقتدى فى ذلك بقائده العسكرى القديم الجنرال جون جاكوب ، الذى عمل بلى تحت امرته فى سلاح الفرسان على حدود السند ، وهى أحد أقاليم الهند • وكانت طريقة جاكوب فى حماية الحدود تقوم على تسيير دوريات من الفرسان تجوب المناطق مع الاحتفاظ بالمنطقة الواقعة مباشرة كمنطقة سلام ، وذلك عن طريق النفوذ الشخصى للمسؤولين البريطانيين المقيمين فى مناطق الحدود [٢٤] • وبعبارة أخرى كانت منطقة الحدود وفقا لهذه الطريقة بالأحرى منطقة غير محددة ، يبدو فيها النفوذ البريطانى باهتا كلما توغل الانسان عبر المنطقة • أما لورنس فقد كان ينادى بسياسة تقوم على تخطيط الحدود تخطيطا واضحا ، وباستخدام القوة اذا وقع أى غزو

---

(٢٣) خطاب بتاريخ ١٨٦٦/٤/٢٦ من فرير الى لورانس وقد ورد فى كتاب « سيرة حياة فرير » تاليف : مارتينو فصل ١ ص ٥٠٩ — ٥١٠ وص ٤٨٣ •
(٢٤) تاريخ الهند — اعداد اكسفورد — طبعة ٣ ص ٦٩٨ •

أو اعتداء من جانب منطقة أخرى • ولكنه أعلن من ناحية أخرى وجوب التمسك بمبدأ التدخل فى الشؤون الداخلية للقبائل المجاورة ، أو فى نزاعاتها المحلية ، أيا كانت الظروف [٢٥] • ولقد أخذ بلى على عاتقه أن يوفق بين طريقة جاكوب والأوضاع القائمة فى الخليج • وقد لخص هذه السياسة ، كما كان يتصورها هو ، وأسبابها والمصاعب التى تقف فى طريق تنفيذها على الوجه الآتى « ••• ان المحافظة على السلام الملاحى على امتداد حدود الامارات الساحلية مسألة على جانب من الصعوبة • ولا يكفى مجرد الظهور المفاجىء أو الدورى لاحدى السفن الحربية فى المنطقة ليستقر السلام • وانما المطلوب نوع من التنسيق بين ممارسة يقظة وفرض ضغط على المنطقة • ان مهمة المقيم البريطانى فى الخليج كحكم فى المشاكل الملاحية للمنطقة أشبه بدور ضابط الحرس الذى يحمى الحدود ضد منطقة خارجة على القانون ••• الأمر الذى يتطلب ضغطا مستمرا عن طريق وجود حاميات متقدمة ومستعدة فى أى لحظة للرد على أى عدوان ، والمحافظة على المناطق المسالمة التى لا تضمر أى نوايا شريرة ••• وبالتالى فان قواربنا المسلحة هى بمثابة تلك الدوريات والنقاط الأمامية بالنسبة للساحل الغربى » [٢٦] •

لم تكن معارضة حكومة كلكتا هى التى تقلق بال بلى فى محاولاته الرامية الى المحافظة على السلام فى الخليج • وانما هى عدم اهتمام الحكومة المذكورة فى الستينات من القرن بالمناطق الواقعة وراء حدود الهند وبالتالى اهمالها للخليج العربى • وكان الأسطول هو الدعم الوحيد لبلى ولكل مقيم بريطانى فى الخليج بالنسبة لمشكلة الحدود • وحتى عام ١٨٦٣

---

(٢٥) خطاب رقم ١٠٤٤ من موير الى جاون ـ كلكتا ـ سجلات حكومة الهند . عند كتابته لهذا الخطاب كان موير يشغل منصب سكرتير الشئون الخارجية لنائب الملك فى كلكتا بينما كان جاون سكرتيرا لحكومة بومبى .

(٢٦) التقرير التجارى : ١٨٦٩ اعداد بلى وقد ورد فى كتاب Precis Commerce ص ٣٣ .

كانت سفن الأسطول الهندى هى التى تمد الخليج بالوحدات اللازمة (٢٧) . فيما بين سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٦٢ كانت وحدة من ٤ أو ٥ سفن تقوم بأعمال الدورية فى مياه الخليج بانتظام . وعلى كل فقد ألغيت هذه الدوريات فى شهر ابريل سنة ١٨٦٣ عندما تقرر العمل على اعادة تنظيم الأسطول الهندى فى أعقاب الثورة التى اجتاحت الهند . وقد ألغيت الدورية بناء على اتفاق تعهدت الحكومة البريطانية بموجبه أن يتولى عمليات الدورية الأسطول الملكى بنفسه . غير ان الاستفادة من هذا الأسطول بشكل فعلى لم تبدأ قبل سنة ١٨٧١ . وخلال هذه الفترة اضيرت المصالح البريطانية فى الخليج ، كما تصدعت حالة الأمن والسلام فى المنطقة (٢٨) . ومما يثير السخرية حقا ان السر بارتل فرير كان قد تنبأ بهذه المصاعب ففى سنة ١٨٦٣ أعرب عن نقاط الضعف فى الأسطول الهندى ، كما نبه الى عدم كفاءة ضباطه ورجاله . وكانت اعترافات فرير تذكر على ان الأسطول الهندى لم يعد فى مقدوره الاضطلاع بمهمة حماية المصالح البريطانية على سواحل الجزيرة العربية (٢٩) .

غير ان احلال الأسطول الملكى محل الأسطول الهندى لم يكن خطة ناجحة لأسباب عديدة ، فلقد كانت قاعدة هذا الأسطول فى الجزء الشرقى من الهند كبيرة جدا ، كما كان الطقس شديد الوطأة على السفن والبحارة ، وكانت العمليات كثيرة جدا تشمل كل منطقة المحيط الهندى التى كان

---

(٢٧) يعود تاريخ انشاء الاسطول الهندى الى اوائل القرن السابع عشر ، وان كان لم يعلن عن انشائه رسميا قبل سنة ١٨٣٠ . وقد كان هذا جزءا من برنامج اعادة تنظيم الادارة البريطانية فى الهند فى اعقاب ترك الهند الكبرى . حين الغى الاسطول سنة ١٨٦٣ غير ان سلاح النقل والمسح البحرى التابع لحكومة بومبى تولى بعض مهام الاسطول الهندى بعد الغائه .

(٢٨) precis Naval ص ١١ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٢٤٧ .

(٢٩) خطاب مؤرخ ١٨٦٢/٤/١٢ وآخر مؤرخ ١٨٦٢/٨/٢٦ من فرير الى وود .

الاشراف عليها اشرافا فعالا يكاد يكون مستحيلا • وكان عدد السفن أقل من العدد المطلوب فى الستينات • ومن ناحية أخرى فان سفن الأسطول الملكى لم تكن تستطيع البقاء فى مياه الخليج الا فى فصل الشتاء ، وذلك بالرغم مما تتطلب أعمال الدورية من وجودها باستمرار على حد رأى الوزير [٣٠] • وفى الفترة الواقعة ما بين سنة ١٨٦٤ — ٦٥ وسنة ١٨٦٦ — ٦٧ لم تصل الى الخليج أى سفينة من سفن الأسطول الملكى • ومن ناحية أخرى لم تكن طلبات المقيم لارسال سفن تلقى استجابة من نائب الملك فى الهند ، أو من السر تشارلز وود وزير شؤون الهند فى لندن الذى كان يتصل به بلى [٣١] • كما توقف الجانب الأكبر من عمليات المسح والاسعافات الملاحية ما بين سنة ١٨٦١ وسنة ١٨٧١ بدوره [٣٢] •

وقد ألحق هذا الاهمال أضرارا خطيرة بمركز بريطانيا فى الخليج • حيث وقعت اضطرابات كثيرة فى منطقة الخليج فى الستينات ، وانتهت سنة ١٨٦٧ — ٦٨ بتجدد القتال بين الأساطيل العربية فى المنطقة القريبة من البحرين • وقد بلغ من خطورة الوضع أن بلى اضطر الى الاستيلاء على بعض السفن التجارية العابرة وعلى المراكب الشراعية العربية ، لعدم وجود خطوط ملاحية منتظمة • وكان يشكو دائما مر الشكوى من استحالة القيام بواجبه على الوجه الأكمل من غير وجود قوة بحرية تسنده [٣٣] • وكان فرير يؤيد مطالب بلى تأييدا قويا ، ولكم حاول اقناع رؤسائه بوضع طراد

---

(٣٠) Precis Naval ص ١١ ورسالة مؤرخة ١٨٦٤/٤/٢٨ من فرير الى وود •

(٣١) Precis Naval ص ١١ •

(٣٢) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٢٤٧ •

(٣٣) رسالة مؤرخة ١٨٦٦/٤/٢٣ من بلى الى فرير وقد وردت فى Precis Trucial Chiefs ص ٣٣ — ٣٤ ورسالة مؤرخة ١٨٦٦/١٠/٢ من فرير الى اللورد كرنبورن ، وقد وردت فى كتاب « سيرة فرير » ، تأليف : مارتينو جزء ١ ص ٤٦٥ •

تحت تصرف المقيم بصورة دائمة [٣٤] . وفى عام ١٨٦٥ — ٦٦ وصلت الازمة الى ذروتها عندما قرر لورنس وضع شؤون الخليج فى عهدة قنصل عام مقره اصفهان الواقعة على السهل الداخلى من ايران ، وسحب القوة البحرية من الخليج بصورة نهائية ، غير أن فرير وبلى هاجما هذه الخطة . وأخيرا أبلغ لورنس فرير بأنه لا يريد أن يشغل نفسه بموضوع سياسة الخليج بعد ذلك . وانه سيترك شؤون هذه المنطقة لحكومة لندن نفسها [٣٥] . ولكن الوضع تغير فى سنة ١٨٦٧ عندما عين فرير عضوا فى وزارة شؤون الهند بلندن . فخلال احتلاله لهذا المنصب استطاع التأثير على وزير الدولة لشؤون الهند . كما ان لورنس نفسه غادر الهند فى سنة ١٨٦٩ . وبذلك أزاح داعية لسياسة « عدم التدخل » وسنحت الفرصة لوضع سياسة خارجية وامبريالية فى الهند تشق طريقها الى الوجود وفقا لشعار « الامبريالية الجديدة » .

---

(٣٤) رسالة مؤرخة ١٨٦٤/٤/٢٨ من فرير الى وود واخرى بتاريخ ١٨٦٦/١٠/٢٨ .

(٣٥) Precis int'l Rivary ص ٣١ — ٣٢ ورسالة مؤرخة ١٨٦٦/٤/٢١ من لورانس الى فرير . وقد وردت فى مؤلف مارتينو ، « سيرة فرير » جزء ١ ص ٥٠٩ وكذلك ص ٤٤٥/٤٦ .

جـــــدول رقــم ٦

السفن الحربية البريطانية فى مياه الخليج سنة ١٨٦٣ — ١٨٧٢

السنة	اسم السفينة	ملاحظات
١٨٦٣ — ٦٤	السفينة كلايد السفينة هيوروز	الغاء الأسطول الهندى
١٨٦٤ — ٦٥	لا توجد أى سفينة	
١٨٦٥ — ٦٦	السفينة هايملاير السفينة بارينيس	عمليات ضد السعودية
١٨٦٦ — ٦٧	لا توجد أى سفينة	
١٨٧٧ — ٧٨	السفينة هيوروز	
١٨٧٨ — ٧٩	السفينة البريطانية دريلد السفينة البريطانية فيجيلانت السفينة البريطانية هيوروز السفينة الهندية السند السفينة الهندية كلايد	عمليات بالقرب من البحرين دوريات ضد تجارة الرقيق
١٩٦٩ — ٧٠	السفينة الهندية كلايد السفينة الهندية هيوروز السفينة الهندية دالهاوسى	عمليات فى مسقط
١٨٧٠ — ٧١	لا توجد أى سفينة	
١٨٧١ — ٧٢	السفينة الهندية بلفنش السفينة البريطانية ماجبى السفينة فلتشر السفينة لينكس السفينة نمبل	الأسطول الهندى يقوم بدوريات متواصلة تم الاتفاق عليها ٦٩

ومما يدل على تغيير الأوضاع هو الاتفاق بين حكومة الهند ــ الانجليزية والأسطول الملكى المعقود سنة ١٨٦٩ والذى بدأ تطبيقه فى سنة ١٨٧١ . وبموجب هذا الاتفاق تعهدت حكومة الهند بدفع مبلغ ٧٠٫٠٠٠ ج . س . كنفقات سنوية للأسطول الملكى مقابل تعهد الأخير بتزويد الهند بتسع سفن حربية كل عام ترابط ثلاث منها فى منطقة غير بعيدة من ســواحل افريقيا الشرقية لمكافحة نشاط تجار الرقيق . بينما ترابط ثلاث أخرى فى ميــاه الخليج للقيام بدوريات منتظمة لحراسة المنطقة ومنع عمليات توريد الرقيق وبيعهم . على أن تخضع هذه السفن لسلطة المقيم البريطانى فى الخليج ، وغير مسموح لها القيام بعمليات هجومية الا بموافقة المقيم نفسه (٣٦) . غير أن مشكلة الأسطول هذه انما تصور الجهد والصراع الذى تكلفته سياسة الاحتفاظ بالسيطرة البريطانية فى الخليج من أجــل الرقابة البحرية على المنطقة . ولقد كان اهمال حكومة لندن لموضوع القوة البحرية فى الخليج أحد الأمثلة على المتاعب التى كان يواجهها بلى فى تنفيذ مشروعاته هناك . وكانت سياسة عدم التدخل التى ارتبطت بها كل من حكومتى لندن وكلكتا فى الستينات ستؤدى الى انهيار النفوذ البريطانى فى الخليج . كما كان هناك عدد لا يستهان به من الرسميين الانجليز يؤيدون هذا الاتجاه . غــير ان فرير وبلى كانا يحذران باستمرار فى تقاريرهما ورسائلهما للمسؤولين من مغبة هذه السياسة التى قد تخلق أزمات خطيرة على مناطق الحدود مع الهند وبالنسبة للمواصلات الامبريالية . وكان فرير على الأخص لا يألو جهدا فى التنبيه الى ما قد ينشأ من مواقف خطيرة اذا استمرت بريطانيا فى تجاهلها لتحذيرات المسؤولين فى المنطقة كما كان يعمد الى اختلاق سخط وهمى بين العمانيين والفرس والعرب ، كما كان يقول ، عملاء بعض الدوائر الأوربية المغرضة . وكان يتصور ان اثارة فكرة التدخل أو التسلل الأوربى للخليج

---

(٣٦) تعليمات الى قيــادة شرقى الهنــد كما وردت فى « مختصر تاريخ الاسطول » ص ١٧ وفى كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٣٥ . راجع أيضا « صيد العبيد » ، تاليف : كولومب ص ١٣٦ — ١٣٨ وذلك للاطلاع على آراء رجال الاسطول الملكى فيما يتعلق باعمال الدوريات الحراسية فى الخليج .

سوف تدفع بحكومتى لندن وكلكتا الى الاهتمام بالمنطقة . ورغم ذلك فقد كانت لندن وكلكتا تؤثران تجنب المواقف المكشوفة أو القيام بمغامرات باهظة ومعقدة فى مناطق تقع خارج دائرة النفوذ البريطانى المباشر ، وذلك طوال تولى جون لورنس لمنصب نائب الملك فى الهند . الذى كان يعارض عادة ، ومن حيث المبدأ ، جر بريطانيا الى تورطات جديدة . وعلى ضـوء هـذه الاعتبارات كان موقف لورنس وبلى على طرف نقيض ، غير أن نائب الملك لم يكن مع ذلك يرغب فى الدخول فى نزاع مكشوف مع فرير الذى كان يدافع عن وجهة نظر بلى فيما يتعلق بأوضاع الخليج بعد أن كان لورنس يعتبرها موضوعا تافها (٣٧) .

ولعله من حسن الحظ ان بلى كان يحظى بتأييد رئيسه المباشر الذى كان من أشد المتحمسين له . ففى خطاب بعث به فرير الى وزير الـدولة لشؤون الهند أعرب عن اعجابه ببلى وبحساسيته التى ورثها عن المعهـد الفكتورى . وقال فى خطابه « بأن فرير قد قدم لنا معلومات عن المنطقة اكثر من أى مسؤول بريطانى آخر هناك خلال العشرين سنة الماضية وفى رأيى أن آراءه سليمة بوجه عام ، كما انه مفاوض وجواب لا مثيل له وقد نجح فى تكوين صلات وصداقات مع أقطار متعصبة ومتوحشة . دون أن يكون لخلقه الانجليزى أى تأثير على هذه المواقف (٣٨) .

ويعود الفضل فى الاحتفاظ بالنفوذ البريطانى فى الخليج خلال الفترة العصيبة من الستينات الى جهود واخلاص بلى ، كما والى مركز بارتيل فرير وموهبته . وقد أخذ بلى يدافع عن وجهة نظره بالنسبة الى الخليج وامكانياته المحتملة فى تقاريره الرسمية وفى الصحف وعن طريق الكتابة كما شن حملة من المقالات والرسائل فى الصحف البريطانية والهندية — دفاعا عن آرائه . وحتى مغادرة بلى للهند فى سنة ١٨٦٩ لم يكن واثقا من مصير دعوته ، فلقد

---

(٣٧) خطاب مؤرخ ١٨٦٣/٥/٢٢ من فرير الى وود / مارتينو « حياة فرير » مجلد ١ ص ٥٠٧ — ١٠ مجلد ٢ ص ١٥٧ — ١٠٨ .

(٣٨) من فرير الى وود تاريخ ٢٢ ابريل ١٨٦٥ محفوظات الهند مجلد ١ .

كانت السياسة المألوفة لكل من حكومتى لندن وكلكتا هى اهمال الخليج . بحيث لم يكن هناك وقت للتراجع عن فكرة الانسحاب من المنطقة • وبما انه لم تكن ثمة أى أزمة خطيرة فى الخليج يومئذ فقد ظلت الحكومتان متمسكتين بموقفهما • وكان مصير اقتراحات بلى كمصير الخليج نفسه هو الاهمال التام فى معظم الدوائر الحاكمة • غير ان بلى برغم الامكانيات المحدودة مضى فى اقامة أسس العهد الجديد فى الخليج •

بلى ومرؤوسيه :

كانت المشكلة الكبرى الثانية بالنسبة الى بلى هى اخضاع كافة المسؤولين البريطانيين فى الخليج لسلطته • ولم يواجه بلى صعوبات كثيرة فى تحقيق هذا الهدف • كما تأكدت سلطته على رجال الأسطول العاملين فى الخليج بصورة نهائية فى سنة ١٨٦٩ الا أن نقطة الخلاف الرئيسية كانت فى علاقة بلى بالممثل البريطانى فى مسقط • ففى عام ١٨٦١ استأنف البريطانيون علاقاتهم السياسية بمسقط على أثر تقسيم الامبراطورية العمانية الى شطرين ، شطر أفريقى وشطر أسيوى بتعيين معتمد سياسى أوربى للاشراف على علاقة بريطانيا بعمان • وكان هناك اعتماد بريطانى غير رسمى فى مسقط منذ حكم الامام أحمد (١٧٤٩ ــ ١٧٨٣) وبصورة رسمية ابتداء من سنة ١٨٠٠ ، وكان المسؤول عنه معتمد هندى غير مدرب ، وكانت مهمته تقتصر على الشؤون التجارية والقنصلية • ولم تبذل أى محاولة لممارسة أى نفوذ سياسى فى المنطقة الا عندما تم تعيين قنصل أوربى بالوكالة ، كما حدث فى سنة ١٨٠٠ ــ ١٨٠٩ وسنة ١٨٤٠ •

ففى عام ١٨٦١ عين اللفتنانت دبليو • ام • بنجلى من ضباط الأسطول الهندى معتمدا سياسيا فى مسقط غير ان صلاحيات بنجلى لم تحدد بوضوح كما لم تجدد رتبته فى سلسلة القيادات البريطانية فى الخليج : اذ ان هذه المسألة لم تسو قبل أن تفاجأ حكومة الهند ــ الانجليزية بموقف بنجلى المتردد من الثورة التى نشبت ضد السلطان • وقد حل محل بلى ضابط آخر

يدعى الماجور جرين ، ولكنه نقل أيضا وتم تعيين معتمد آخر هو اللفتنانت كولونيل هربرت دســبراو It. Col. Horbert Disprowe ، وذلك فى نفس الفترة التى تم فيها تعيين بلى مقيما بريطانيا فى الخليج (٣٩) .

ومنذ البداية كان الوفاق معدوما بين بلى ودسبراو . فقد كان دسبراو يعمل مساعد لفلكس جونز سنة ١٨٥٢ وكان يمثل العقلية السلبية ، كما كان يعتقد انه يعرف عن الخليج أكثر مما كان يعرف بلى . وبعبارة أخرى كان دسبراو بمثابة خط الرجعة لعهد مضى وانقضى (٤٠) .

أما بلى فقد كان تصرفه تجاه دسبراو تصرفا دبلوماسيا وكان يعامل معاملة الرئيس لمرؤوسيه . وفى أحد خطاباته الى دســبراو طلب بلى بأن يوجه دسبراو جميع رسائله عن طريق ادارة المعتمد البريطانى من أبو شهر غير أن دسبراو فسر هذا الاجراء بأنه محاولة منه لفرض التبعية عليـــه (وهو ما كان فى الواقع) لا غير . ولقد حاول فرير وضع حد للصدام بين الرجلين . فأصدر تعليماته الى دسبراو بارسال تقاريره عن طريق بلى ، أو أى مقيم بريطانى آخر . باعتباره السلطة العليا فى المنطقة . وكان بلى يؤيد فرير فى هذا الرأى (٤١) . وعلى أى حال فقد ترك فرير لدسبراو منفذا واحدا اذ سمح له بتوجيه رسائله مباشرة الى بومباى فى الأحوال الطارئة . غير أن دسبراو ظل يوجه رسائله مباشرة خلال معظم الفترة التى تولى فيها عمله فى مسقط . وكان يدافع عن تصرفه هذا بأن الظروف السائدة يومئذ لم تكن ظروفا عادية .

فى سنة ١٨٦٧ غادر دسبراو مسقط لمدة سنتين ، تولى خلالها شؤون

---

(٣٩) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٤٧٢ و ٧٣ .

(٤٠) للاطلاع على رأى دسبراو نفسه فى كفاءته ومؤهلاته بالمقارنة الى بلى انظر خطاب رقم ٥١٤ بتاريخ ١٨٦٩/٩/١٥ من دسبراو الى جاون (من سجلات الحكومة الهندية) .

(٤١) خطاب رقم ٢٧٣٧ مؤرخه ١٨٦٥/١١/١٧ من جاون الى دسبراو سجلات حكومة الهند .

الوكالة ضابط شاب يدعى الكابتن جى ٠ اى ٠ اتكنسون ٠ ورغم صغر سنه فقد ظل يكافح لتحرير دار الاعتماد فى مسقط من سيطرة أبو شهر عليها ٠ ولقد ضاق بلى ذرعا بتصرفات اتكنسون الذى حذا حذو سلفه دسبراو الذى كان يرى بأن المعتمد البريطانى لا يمكنه اتخاذ أى اجراء اذا اضطر الى مراجعة أبو شهر فى جميع المسائل ٠ ولقد أظهر بلى تجاه اتكنسون نفس روح الاصرار على موقفه ، كتنفيس عن مشكلته وذلك بمهاجمة كل من لا يتفقون معه فى الرأى ٠ وفى سنة ١٨٦٩ عاد دسبراو الى مقر عمله فى مسقط ٠ وحتى شهر يناير سنة ١٨٧٠ عندما أرغم على ترك منصبه ٠ واصل دسبراو معركته ضد المقيم البريطانى ٠ وعند عودة المعتمد الى مسقط سويت هذه المشكلة نهائيا ٠ ومنذ ان استأنف دسبراو عمله فى مسقط أخذ يمطر حكومتى بومبى وكلكتا بسيل مدرار من الرسائل يهاجم فيها بلى ويصفه بالجهل « والتآمر عليه لاضعاف مركزه » وبافتقاره الى روح المجاملة ٠ وسواء كان على حق فى حملته على بلى ، أو لم يكن ، فقد تبين لرؤساء دسبراو فى الهند بأن عقدته ضد بلى قد بلغت فى خريف ١٨٧٩ حدا لم يعد معها قادرا على القيام بمسؤوليته على الوجه الأكمل فى رعاية المصالح البريطانية فى عمان ٠ ولقد واجه بلى حملة دسبراو بالهدوء وترك دسبراو يحطم نفسه بنفسه فى سلسلة من رسائل القذف والتشنيع ٠ ويكشف كل هذا أن دسبراو كان خصما عنيدا ، كما يكشف عن بعد نظره وأهميته كممثل لبريطانيا فى الخليج [٤٢] ٠ وفى سنة ١٨٧٠ حل محل دسبراو الماجور آى ٠ كوتون وى A. Cotton Wov ٠ وعلى أى حال فقد تقرر أن يخضع الماجور وى لسلطة المقيم السياسى البريطانى فى الخليج ٠ وهكذا أصبح المعتمد السياسى فى مسقط خاضعا نهائيا لأبو شهر [٤٣] ٠ وكنتيجة لهذا الاجراء تقرر أن يمارس المقيم سلطة كاملة على الادارة البريطانية فى الخليج ، وبذلك يكون المقيم

---

(٤٢) خطاب رقم ٤٦٤ مؤرخ ١٨٦٩/٨/٢١ من بلى الى دسبراو ٠ غير أن دسبراو ظل متمسكا بموقفه واستمر فى ارسال تقاريره وخطاباته الى بومبى مباشرة وكان يهاجم فيها بلى : سجلات حكومة الهند ٠

(٤٣) خطاب رقم ١٧ مؤرخ ١٨٧٠/١/٨ من دسبراو الى جاون ٠

مطمئنا بأن جميع رجال الادارة البريطانية فى منطقة الخليج يتلقون أوامرهم منه ويقفون وراءه •

بلى وتطور « الحكم غير المباشر » فى الخليج :

المشكلة الثالثة التى واجهها بلى هى تقوية العلاقات مع حكام الخليج وذلك لكى يعزز من قدرة المقيم البريطانى على اقرار السلام وتشجيع الجهود المبذولة لتحديث الخليج فى وقت كانت حضارة الخليج القديمة تواجه تحديات خطيرة • وقد استخدم بلى طرقا متعددة لمواجهة الوضع ، غير أن استراتيجيته الأساسية ظلت كما هى : فلقد استمر بلى فى محاولاته لتدعيم النفوذ السياسى البريطانى بحيث يتسنى للمقيم أن يمارس أكبر قدر من هذا النفوذ فى تحديد الجو السياسى فى امارات الخليج والسيطرة على شؤونها الخارجية • وعلى الرغم من العراقيل التى اعترضت بلى فقد تمكن فى النهاية من تحقيق نجاح كبير فى هذه السياسة واستطاع بلى أثر توليه لمنصب المقيم البريطانى فى الخليج عام ١٨٧٢ أن يضع النظام الذى يضمن المصالح البريطانية فى المنطقة ، بحيث لا يقتصر هذا الضمان على المعاهدات الخاصة التى تربط أمراء الخليج بالحكومة البريطانية ، ولا على الأجهزة الادارية • أو الأسطول وحسب ، بل وعلى التعاون الفعال من جانب معظم الحكام المحليين للمنطقة • ولقد استعان بلى بطرق كثيرة لايجاد صيغة تجمع بين المصالح البريطانية فى الخليج ومصالح الحكام • وهى المصالح التى ورد معظمها فى المعاهدات الخاصة التى أبرمت قبل سنة ١٨٦٢ ، وان يكن بشكل مؤكد دائما • وعن طريق البيانات الرسمية والاجراءات التى كان يتخذها المقيم البريطانى كان يعلن بها عن تصميمه على تأييد حكومته لدول الخليج على اختلافها ابتداء من عمان حتى البحرين • وفى سنة ١٨٦١ ، أى قبل تعيين بلى مقيما بريطانيا فى الخليج ، اتخذت حكومة الهند البريطانية أول خطوة من نوعها عندما أعلنت فى بيان لها عن ضمان استقلال وأمن حاكم البحرين ضد أى تدخل أو عدوان خارجى (٤٤) • وكان الغرض من اصدار

---

(٤٤) النص كما ورد فى تقرير ايتشيسون — ١٨٩٢ مجلد ١٠ ص ١١٨ كذلك انظر « الوجود البريطانى فى الخليج » تأليف ، كيلى .

هذا البيان هو احباط محاولة من جانب الحكومة السعودية لشن هجوم على البحرين بقصد الاخلال بميزان القوى فى المنطقة وتهديد السلام • وقد قام بلى بعد تسلمه لمنصبه كمقيم بريطانى فى الخليج بترجمة بيانه هذا عمليـا عندما أصدر أوامره فى سنة ١٨٦٥ ثم فى سنة ١٨٦٦ الى السفن الحربيـة البريطانية بضرب بعض المعاقل الساحلية التى كان يحتلها الوهابيـون وحلفاؤهم ردا على التهديدات الوهابية للأوضاع الاقليمية القائمة • وأخيرا فى سنة ١٨٦٦ حصل بلى على بيان رسمى من عبد الله الفيصـل ، حـاكم السعودية يتعهد فيه باحترام السيادة الاقليمية لدول الخليج التى ترتبط بمعاهدات خاصة مع بريطانيا [٤٥] • غير ان ربط الحكام العرب فى الخليج بعجلة النفوذ البريطانية قد تجاوزت حدودها المقررة ، وهى حماية هؤلاء الحكام من تدخل أو عدوان خارجى الى تأييد هؤلاء الحكام ضد الثورات الداخلية والأعداء الداخليين • ويعتبر هذا الاتجاه خروجا على القواعد — الانجلو — هندية فى الخليج تعارضه الادارة الخارجية لحكومة الهند بشدة • غير ان بلى كان يعمل على أساس فرض الأمر الواقع على كلكتا • وكان يلجأ الى طرق كثيرة لتحقيق هدفه كالتهديد بالقوة البحرية ، وتأييد بعض الحكام ضد البعض الآخر ، واستغلال المساعدات المالية • كل هذه التدابير استعان بها المقيم بلى لدعم موقف الحكام الموالين للحكومة البريطانية ، أو الضغط على العناصر التى ترفض التعاون معه أو تقاوم خططه •

وباضافة بنود جديدة الى المعاهدة التى تحدد سياسة المنطقة ، ازداد تدخل بريطانيا فى الشؤون الداخلية لحكومات الخليج • كما عقدت اتفاقيات ثنائية ، وتعهدات جماعية ، كذلك أضيفت أحكام وقرارات جديدة الى صلب نظام المعاهدات المعمول به بين الطرفين • كما أضيفت نصوص خاصـة بالامتيازات الاقليمية للرعايا البريطانيين — وأغلبهم من الهنود — المقيمين فى الخليج • كذلك لم يكن المقيم البريطانى قد تردد فى استخدام الضغط

---

(٤٥) الدبلوماسية ، هروتز مجلد ١ ص ١٧٢ •

الدبلوماسى ، أو حتى القوة المسلحة أحيانا ، لحماية التجار الهنـود ، أو الحصول على تعويضات مالية لهم اذا ما تعرضت أملاكهم لأى اعتداء •

لقد استخدمت كل الأساليب على اختـلاف أشكالها لتوطيـد دعائم السيطرة البريطانية فى المنطقة وتعتبر علاقة عمان ببريطانيا خلال الستينات من القرن التاسع عشر مثلا للنمو السريع للنفوذ البريطانى فى احدى دول المنطقة • ففى عمان ، كما كان الحال فى أجزاء أخرى من المنطقة ، تم اتخاذ عدد كبير من الترتيبات الخاصة لتعزيز التدخل البريطانى فى الشـــؤون الداخلية للبلاد ، كنتيجة للأوضاع الجديدة المترتبة على التغييرات السريعة التى طرأت على الأسس التقليدية للحياة فى الخليج • وفى عام ١٨٦٥ أصبح فى وسع البريطانيين من غير شك ، التأثير فى شؤون عمان الداخلية ، غير ان نفوذهم لم يكن نفوذا حاسما حتى تلك الفترة • اذ كانت العلاقة بين عمان وبريطانيا لا تزال تقوم على أساس معاهدة التحالف المعقودة فى سنة ١٧٩٨ ، والمعاهدة التجارية المعقودة فى سنة ١٨٣٩ ، الى جانب الاتفاقيات الأخرى بشأن تحريم تجارة الرقيق التى عقدت آخر اتفاقية منها فى سنة ١٨٤٥ •

وفى أعقاب وفاة السيد سعيد ، أخذ الوضع يتغير • فخلال الفتـرة الواقعة بين سنة ١٨٥٦ وسنة ١٨٦١ كانت عمان تعانى من صراع مرير بين أبناء الحاكم الكثر ، حيث كان كل منهم يسعى للاستئثار بالحكم • ولكى يتفادى البريطانيون اتساع نطاق هذا الصراع الذى يمكنه أن ينشر الفوضى على امتداد منطقة حوض المحيط الهندى اقترحوا على المتنازعين على السلطة باحالة الخلاف على هيئة تحكيم هندية بريطانية • وبعد اجراء تحقيقات فى هذا النزاع أعلن اللورد كاننج فى سنة ١٨٦١ ، نائب الملك فى الهند تقسيم عمان كحل للخلاف • وبمقتضى هذا الحكم انقسمت الامبراطورية العمانية الواسعة الى دولتين : دولة افريقية غنية ، ودولة أســيوية فقيرة مقرها مسقط • ومراعاة للعدالة فى عملية التقسيم المذكورة تعهدت الدولة العمانية الافريقية فى زنجبار بدفع تعويضات مالية منتظمة لسلطنة مسقط فى حدود ٤٠,٠٠٠ ريال نمسوى كل عام ، كما تقرر أيضا بموجب هذا الحكم أن يستمر

هذا الحل على تعاقب الورثة من حكام الدولتين ، وأطلق لقب « سلطان » على كل حاكم منهما . كما اعتبر التعويض المالى السنوى الذى تدفعه حكومة زنجبار لسلطان مسقط ثمنا لقاء تنازل الأخير عن كل حقوقه ومطالبـه فى القسم الافريقى من المملكة (٤٦) . وفى سنة ١٨٦٢ ، وبدون علم بلى ، أو فرير ، أو حكومة كلكتا ، اتفقت حكومة لندن مع الحكومة الفرنسـية على اصدار بيان مشترك تعلنان فيه احترامهما لاسـتقلال كـل من المملكتين العمانيتين الآسيوية والافريقية ، مع تصديقهما للحكم الذى أصدره اللورد كاننج (٤٧) غير أن هذا البيان البريطـانى ـ الفرنسى المشترك قـد كلف البريطانيين ثمنا باهظا فيما بعد .

وعلى الرغم من أن حكومة كلكتا كانت تنادى بسياسة «عدم التدخل» فى شؤون عمان . الا أن الحكومة البريطانية نفسها لم يكن فى وسعها التقيد بهذا الشعار وفقا لحكم كاننج . وبالتالى فان المناسبات الكثيرة التى تدخلت فيها بريطانيا فى الشؤون الداخلية لعمان ما بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٧٢ ، انما تعكس التدخل المتزايد بين سياسة حكومة الهند البريطانية كما كان يطبقها المقيم بلى ، والأحداث الداخلية فى المنطقة وما بين سنة ١٨٦٤ وسنة ١٨٦٥ تدخل بلى أكثر من مرة فى النزاع العمانى الوهابى ، انطلاقا من رغبته الشخصية فى الدفاع عن بلد ، كان يعتبره « مركزا متقدما للحضارة » . ومن خلال هذه السياسة شارك بلى فى تنظيم القوى المناوئة للسعودية فى عمان ، كما قذف بعض المعاقل السـعودية فى القطيف والدمام ، ودمر بعض السفن التابعة لقبائل الجنبة الموالين للوهابيين فى عمان ، وفرض على أفرادها دفع غرامة قدرها ٢٧٫٧٠٠ ريال نمسوى ، عقابا على اعتدائهم على ممتلكـات الرعايا الهنود فى أقليم صور . وأخيرا استطاع بلى أن يستكتب الحـاكم السعودى فى سنة ١٨٦٦ تعهدا يلتزم فيه بعدم التعرض لامارات الخليج

---

(٤٦) للاطلاع على النص راجع تقرير ايتشيسـون ـ ١٩٢٣ ـ مجلد ١ ص ٣٠٣ .

(٤٧) « الدبلوماسية » ، تأليف هروتز جزء ١ ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .

وعمان التى تربطها بالبريطانيين معاهدات خاصة [٤٨] . أما الشىء الآخر الذى تمخض عن حكم كاننج ، فهو ان الحكومة البريطانية وجدت نفسها ملزمة بالاشراف على عملية دفع التعويض المالى السنوى الذى تعهدت حكومة زنجبار بدفعه لسلطان مسقط ، أو حتى التعهد بدفعه من جانبها اذا لزم الأمر . ففى الستينات من القرن التاسع عشر كثر عدد المطالبين بالسلطة فى عمان وكان من الواضح ان اعتراف بريطانيا بأى من هؤلاء كحاكم للبلاد سوف يعزز من مركزه ويخوله الحصول على التعويض السنوى من زنجبار ، حتى ولو لم يكن يؤيده الشعب ، ولقد ازدادت أهمية هذا التعويض بالنسبة لحكام عمان بعد الأزمة التى تعرضت لها الحركة التجارية فى عمان فى الستينات ، هذه الأزمة التى سببت انخفاضا فى حاصلات الجمارك ، التى كانت تشكل المصدر التقليدى الرئيسى للدخل الحكومى . وتتضح أهمية اعتراف الحكومة البريطانية بحكام عمان أو عدم الاعتراف بهم مما كتبه المقيم البريطانى فى الخليج ليويس بلى الذى يقول : « على الرغم من أن السكان العرب يعلمون ان اعتراف بريطانيا بالحاكم لا يعنى تأييدها له ، فانهم ، وجميع الرعايا البريطانيين المقيمين فى البلاد متأكدون ، بأن مثل هذا الاعتراف ضرورى لتأمين الثقة فى الحركة التجارية التى يتركز معظمها فى أيدى رعايانا الهنود ... اذ أن العرب يعتبرون عدم الاعتراف كدليل على رغبتنا فى تغيير الحاكم ، وبالتالى فان مثل هذا الاعتقاد يثير الشكوك بالنسبة للمستقبل » [٤٩] وبفضل التأييد البريطانى والتعويض المالى من زنجبار ، استطاع سالم بن ثوينى الاحتفاظ بالحكم من سنة ١٨٦٦ حتى

---

(٤٨) للاطلاع على النزاع العمانى السعودى خلال هذه الفترة ، والتدخل البريطانى فى المنطقة ، راجع « مختصر تاريخ نجد » من ص ٧ الى ص ٣٠ و « عمان » اعداد شركة النفط العربية الامريكية ص ٢٠ — ٢٤ و ٢٥٥ — ٢٥٧ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٤٧٤ — ٤٧٥ و « مختصر تاريخ حاكم ساحل الصلح » ص ١١ — ٢٥ و « الدولة السعودية » ، تأليف ونـدر ص ٢١١ — ٢١٥ و « التحفة » للسالمى ص ٢٢٣ — ٢٢٥ و « جزيرة العرب وحدودها الشرقية » ص ٨١ — ٨٦ و « انطباعات عن العربية السعودية » جزء ١ ص ٢٢٦ — ٢٤٠ .

(٤٩) خطاب رقم ١٤٥ — ١٧ بتاريخ ١٨٧١/٢/١٣ من المقيم البريطانى بلى الى دوق ارجيل .

سنة ١٨٦٨ بالرغم من عدم تأييد العمانيين له ، بينما لم يستطع عزان بن قيس المؤيد من جانب الشعب أن يستمر فى الحكم أكثر من ثلاث سنوات ١٨٦٨ — ١٨٧١ لعدم اعتراف البريطانيين به أو تأييدهم له . ولم يكن فى وسع أى حاكم عمانى أن يبقى فى السلطة ، اذا لم يكن البريطانيون راضين عنه . ولقد ذهب أحد الزعماء العمانيين الى حد قبوله الحماية البريطانية ، مقابل تأييد الانجليز له . غير أنه لم يحصل على رد ملزم من جانبهم (٥٠) وفى سنة ١٨٧١ عندما حاول تركى بن سعيد ، نجل السيد سعيد ، الاستيلاء على السلطة وطرد الحاكم ، أبلغ الانجليز مقدما بتحركاته حتى يضمن تأييدهم له (٥١) . وبمجرد أن استولى على الحكم طالب بريطانيا بالاعتراف به ودفع التعويض المالى لحكومته مقابل تأييده لسياستهم (٥٢) وبهذا أكد تركى أنه أداة طيعة فى يد الانجليز ، ففى عهده (١٨٧١ — ١٨٨٨) تحولت عمان الى بلد تابع للحكومة البريطانية كما كان عهده بداية للنفوذ البريطانى غير المباشر فى عمان .

وفى الستينات أثير موضوع السيادة الاقليمية على الرعايا البريطانيين فى عمان ، بعد أن ساءت الأحوال هناك وما ترتب على ذلك من أهمية توفير الحماية البريطانية لهم . فلقد كان هؤلاء الرعايا يتمتعون بامتيازات عملية أخرى فى ذلك الوقت كاعفائهم من قانون التفتيش أو الحجز ، والتدخل المباشر من جانب السلطات المحلية فى شؤونهم . كما كانوا معفيين من جميع الضرائب التى يدفعها سكان البلاد ، ومن تسديد الديون التى تستحق عليهم فى حالات الافلاس ، ومساعدتهم على استيفاء ديونهم الى جانب اشتراك المعتمد السياسى فى محاكمة أى فرد منهم فى القضايا الجنائية .

---

(٥٠) خطاب رقم ١٥٦ — ١٩ مؤرخ ١٨٧١/٢/١٩ من بلى الى دوق ارجيل (من السجلات الرسمية لحكومة الهند ٢) م ١٧ .

(٥١) خطاب مؤرخ ١٨٧١/١/١ من تركى بن سعيد الى وى .

(٥٢) خطاب مؤرخ ١٨٧١/٣/١٣ من تركى بن سعيد الى بلى وقد ورد كمرفق لخطاب رقم ٣١٤ — ٣٧ بتاريخ ١٨٧١/٣/١٢ من بلى الى دوق ارجيل . وخطاب آخر بتاريخ ١٨٧١/٢/١٢ من تركى بن سعيد الى حكومة بومبى وقد ورد كمرفق لخطاب رقم ٣٤/١٥٤ مؤرخ ١٨٧١/٢/١٣ من بلى الى دوق ارجيل .

. وكان فى عمان فئتــان من الرعايا الهنــود الذين يطالبون بالحماية البريطانية . فئه تعيش فى عمان منذ أجيال عديدة ، وفئة البحارة الذين من اصل عمانى هاجروا الى الهند للعمل كبحارة فى السفن وسجلوا أنفســهم كرعايا هنود وحصلوا بموجب ذلك على الجنسية الهندية ، ثم عادوا الى عمان وطالبوا بالحماية البريطانية [٥٣] . وفى سنة ١٨٧٠ طلب موظفو شركة الهند البريطانية للمــلاحة اعفــاءهم من الضرائب بحجة انهم تابعون للحكومــة البريطانية بحكم عملهم فى شركة بريطانية . وعلى الرغم من ان الشركة قد تتعرض لمشاكل كثيرة فيما لو حرمت من خدمات مثل هؤلاء الموظفين ، الا ان الحكومة البريطانية كانت توفر لهم الحماية اللازمة ، بالرغم من انها كانت تشك فى سلامة مثل هذا الاجراء ، ومن الجائز أن لا يحدث هذا الا اذا أحس الموظف المعنى بغبن يقع عليه كنتيجة لفرض ضريبة باهظة عليه [٥٤] . غير ان مثل هذه الاجراءات لا بد وان تثير مشاكل بين الحكومة البريطانيــة والسلطات المحلية فى عمان . فوجود جالية هندية بريطانية كبيرة فى مسقط غالباً ما كان يتخذ ذريعة للتدخل البريطانى فى شؤون عمان الداخلية . وحتى سنة ١٨٦٧ كان المعتمد السياسى والقنصل البريطانى فى مسقط يمارس سلطة قانونية على الرعايا البريطانيين المقيمين ، وذلك بموجب معاهدتى سنة ١٨٢٢ وسنة ١٨٣٩ ، وكان العمل بهذا يتم وفقاً للقوانين البريطانية المعمول بها فى الهند ، ويمكن استئناف أحكام المعتمد البريطانى لدى المحكمة العليا فى بومبى وفى سنة ١٨٦٧ حاول المجلس القانونى توضيح ماهية سيادة القنصــل البريطانى فى مسقط ، غير أن هذا الموضوع ظل على غموضه ولم يكن هناك سجل دقيق للرعايا البريطانيين المقيمين فى عمان ، كما ان المسائل التجارية لم تكن تنظر أمام المحاكم القنصلية ، لأن السلطة القانونية لهذه المحاكم

---

(٥٣) خطاب رقم ٣٨ مؤرخ ١٨٧٠/٧/٢٠ من وى الى بلى .
(٥٤) خطاب رقم ٤٧٠ مؤرخ ١٨٧٠/٩/٢٤ من وى الى بلى — من سجلات حكومة الهند المجلد ١٦ .

سواء فى مسقط أو فى غيرها من أقطار الخليج كانت محدودة جدا ، كما لم تكن المعاهدات تتضمن نصوصا محددة لسلطة القناصل على رعايا الولايات الهندية [٥٥] . ولم تحل هذه المشكلة الا بعد مغادرة بلى للخليج . ومن ناحية أخرى فقد أدت محاولات بلى لتدعيم وتحديد السـيادة الاقليمية البريطانية فى عمان الى المزيد من التدخل فى شؤونها الداخلية . كذلك اتضح خلال الفترة المذكورة نوع العلاقة بين عمان وبريطانيا ، كما كان يتصورها البريطانيون . وحتى العشرينات من القرن التاسع عشر كانت الثقافة الشرقية موضع احترام الغربيين ، غير أن هذا الوضع قد تغير فيما بين سنة ١٨٢٢ وسنة ١٨٧٠ تحت تأثير فكرة التطور وجماعة الانجيليين . وعلى الرغم من أن العمانيين يعتبرون أكثر عرب الخليج تحضرا الا أنهم فى نظر هؤلاء مازالوا شعبا يحتاج الى التثقيف والتحكم فى مقدراته [٥٦] . وبالتـالى فمن الطبيعى أن يرى المسـؤولون البريطانيـون ان تدخلهم فى الخليج ومحاولاتهم لفرض الأنماط الغربية للحياة السياسية ومفاهيمها ، ان هو الا عمل سليم . ومن هذا الاعتقاد يستمد البريطانيون مفهومهم للحاكم العربى الصالح — أى الحاكم الذى يتعاون معهم وينقاد لنصائحهم وتوجيهاتهم ، بينما يعتبر الحاكم الذى يرفض التعاون حاكما « منحرفا وهمجيا » . وفى عام ١٨٧١ أصبح البريطانيون برغبة أو غير رغبة منهم سـادة الموقف فى الخليج . فكانوا لا يؤيدون أى حاكم من حكامه الا اذا كان مستعدا للتعاون معهم والانصياع لتوجيهاتهم .

وفى الستينات من القرن التاسع عشر حدد البريطانيون موقفهم من الجناحين الأباضيين اللذين كانا يتنازعان الحكم فى عمان ، الجناح المعتدل ، والجناح المحافظ . ولقد كان لهذا التحديد تأثيره الكبير على وضع السياسة

---

(٥٥) تقرير ايتشيسون — ١٩٠٩ وسنة ١٨٩٢ م ١١ ص ٧٨ و « مختصر اريخ الخليج » ص ٨٧ .
(٥٦) كتاب لوريمر جزء ١ ص ١٣٩١ .

الداخلية فى البلاد فى أواخر القرن التاسع عشر • وقد استمر حكم المعتدلين الذين كانوا يتعاونون مع الانجليز ابتداء من عهد الامام أحمد • أما قبل سنه ١٨٦٨ فقد كان الاعتقاد السائد من المحافظين انهم جماعة ســاخطة متعصبة كل هدفها هو القضاء على الأنظمة الموالية للانجليز فى عمان • ولكن عندما تولى الامام المحافظ عزان بن قيس الحكم فيما بين سنة ١٨٦٨ وسنة ١٨٧١ فوجىء الرسميون البريطانيون باستقرار الأوضاع فى البلاد وذلك على عكس ما كانوا يتوقعون • غير ان هذه المرحلة شهدت بعض الأحداث التى اصطدمت فيها المصالح العمانية بالمصالح البريطانية ، كما شــهدت انكماشا ملحوظا فى النشاط التجارى • وظلت الأوضــاع فى تأرجح طوال بقاء السلطة فى يد المحافظين • وما أن تمكن الحاكم المعتدل تركى بن سعيد من انتزاع السلطة من المحافظين سنة ١٨٧١ حتى وجد البريطانيين مستعدين للاعتراف به وتأييد حكمه • ومنذ ذلك التاريخ ظــل البريطانيون يؤيدون باستمرار الحكم المعتدل فى عمان ، بل وكانوا يقاومون بالقوة المسلحة كل محاولة يقوم بها المحافظون فى عمان لاسترجاع الحكم •

بعد هذا بدأ الانجليز ينظرون الى الدولة العمانية من وجهة النظــر الأوربية العصرية للدولة أى على أساس ولاء الشعب للحاكم الشرعى فى مسقط دون أن يضعوا فى حسابهم تاريخ عمان الحافل بالقلاقل والاضطرابات وبالتالى أصبح كل من يعارض الحاكم فى مسقط أو يثور على حكمه يعتبر فى نظرهم متمردا أو ارهابيا ، أو قاطع طريق ، أو « قرصانا » بل « وقاتلا » أو مجرما • أما من وجهة نظر الشعب ، فقد كان كل حاكم لا يستمد حكمه من شريعة الدين ، حاكما غير صالح يرفضه الشعب ويقاومه ، وان مما كان يعتبر فى نظر العمانيين المحافظين جهادا فى سبيل الله ، كان يعتبر فى نظــر البريطانيين شغبا أو تمردا على النظام • ومن ثم فان الفكرة التى كونهــا البريطانيون عن عمان لم تكن تتفق وحقائق الوضع • وتعتبر الفترة التى كان بلى يشغل فيها منصب المقيم البريطانى فى الخليج فترة بالغة الأهمية ؛ فهو الذى تزعم فكرة ترسيخ النفوذ البريطانى فى المنطقة ، بالرغم من أن بعض الشخصيات الهامة فى حكومة كلكتا كانت تعارض سياسته • كما نجح

بلى أيضا فى حمل حكومة كلكتا على الموافقة على اقتراحه بوجوب خضوع جميع المسؤولين من عسكريين ومدنيين فى الخليج لسلطة المقيم • غير ان بلى رغم ذلك لم يستطع أن يمنع وقوع عمليات انتهاك خطيرة للسلام فى المنطقه خلال الفترة الواقعة بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٦٨ ، غير أن أسباب هـذا الفشل تعود الى عدم وجود الأسطول البريطانى فى مياه الخليج خلال تلك الفترة • والى جانب ذلك قام بلى فى أوائل السبعينات من القرن التاسـع عشر بدور كبير فى توثيق علاقة حكومته بكثيرين من أمراء الخليج العرب • كما استغل هذه فى دعم النفوذ البريطانى فى المنطقة ، غير انه لم يتمكن من بث الدوافع اللازمة للتطور الاقتصادى فى المنطقة أو اقناع أهلها بالتخلى عن تقاليدهم وقيمهم فى سبيل اعتناق الأفكار الجديدة للحياة العصرية •

لقد تدخل بلى فى شؤون الخليج الداخلية بشكل لم يسبقه اليه أى مسؤول بريطانى ، ويوم ترك منصبه كان قـد حقق بطرقه الملتوية بعض التغييرات فى طريقة العلاقات بين بريطانيا وعدد من امارات الخليج العربى ، وان لم تكن تغييرات حاسمة • وحتى سنة ١٨٦٢ كانت الفرصة لا تزال مؤاتية لاحداث تغييرات هامة فى سياسة المنطقة وفى أجهزتها الادارية المحلية دونما حاجة الى استخدام بريطانيا لنفوذها أو اشراكها فى اتخاذ القرارات الخاصة بتلك التغييرات • كما أن احداث مثل هذه التغييرات ، أو على الأقل تحقيقها بصفة دائمة لم يعد ممكنا بعد سنة ١٨٧٢ بغير موافقة الحكومة البريطانيـــة •

ادوار روس — وذروة الوجود البريطانى فى الخليج
١٨٧٢ — ١٨٩٢

فى سنة ١٨٧٢ انتهت خدمة ليـويس بلى فى الخليج ، وعين ادوار شارلس روس ، أحد المســؤولين الذين كانوا يعملون تحت امرة بلى فى جواذر ثم مسقط ، خلفا له كمقيم بريطانى فى الخليج • وكان ثمـة بون شاسع بين شخصيتى المقيمين البريطانيين وطريقة تفكير كل منهما • وعلى

حين كان روس أقل عجبا بنفسه وحبا للظهور من سلفه ، فقد كان مثله فى الحيوية والنشاط وأكثر لباقة فى تعامله مع رؤسائه ومرؤوسيه من ناحية ، وحكام الخليج من ناحية أخرى • ولئن كان هدف بلى الأساسى هو توفير الشروط اللازمة لاقامة المجتمع العصرى فى الخليج ، فان روس كان يركز اهتمامه على الشؤون الادارية والسياسية فى أضيق صورها • واذا كان بلى يسعى الى تحقيق عصر جديد للخليج ، فان روس كان يهتم بتدعيم الوجود البريطانى واضفاء المزيد من الشرعية عليه • وعلى الرغم مما أظهره روس من روح العالم فى دراسته لتاريخ الخليج ، فانه لم يكن يشاطر بلى حماسه الصليبى فى الدعوة للقيم والتقاليد الحديثة • صحيح ان روس قد حذا حذو سلفه فى دعم النفوذ البريطانى فى الخليج ، غير ان اهتمامه كان ينصب على تحقيق الاستقرار السياسى كشرط أساسى لدعم المصالح الامبريالية البريطانية أكثر منه لتوفير الشروط السياسية اللازمة لاقامة المجتمع المدنى الحديث فى المنطقة •

فى سنة ١٨٧٤ استولى حزب المحافظين على مقاليد السلطة فى لندن ، وفى سنة ١٨٧٦ عين دزرائيلى اللورد ليتون (Lytton) ذا النزعة الاستعمارية نائبا للملك فى الهند • وعندئذ انتهت مرحلة سياسة « عدم التورط » و « المواقف السلبية » لتفسح الطريق لسياسة القرن التاسع عشر الامبريالية التوسعية • وبالتالى لم يواجه روس الموقف الذى كان يواجهه من اهمال حكومتى لندن وكلكتا لشؤون الخليج • وعلى أى حال فخلال اقامة روس فى منطقة الخليج كانت حكومة الهند البريطانية مشغولة بمشكلات الحدود مع ايران ، وأفغانستان ، وبرما ، وتايلاند • فى ذلك الوقت لم يكن قطاع الخليج العربى من حدود الهند الدولية ، يتعرض لتهديد أى دولة من الدول العظمى ، وبالتالى كانت الفرصة مهيأة أمام روس لتوجيه اهتمامه الى شؤون الخليج كما يشاء • وفى الفترة بين ١٨٨٧—١٨٩٢ توج روس فترة خدمته فى الخليج بعقد سلسلة من المعاهدات بين بريطانيا والامارات العربية • وبهذه المعاهدات حدد روس طبيعة الحماية البريطانية

للخليج وعززها وفقا لسياسة الأمر الواقع • وعلى الرغم من ان امارات عربية أخرى فى الخليج قد انضمت الى القائمة فيما بعد ، الا أن الأسس القانونية للوجود البريطانى فى الخليج وفق التعديلات التى أدخلها روس عليها ، لم تتغير من حيث الأساس ، الا بعد أن اعترفت بريطانيا باستقلال الكويت اعترافا قاطعا فى سنة ١٨٦١ [٥٧] • ولم يحدث فى تاريخ الخليج ان مارس مقيم بريطانى فى الخليج ما مارسه ادوارد روس من نفوذ عليه • فكانت توصياته واقتراحاته تجاب على الفور ، كما كان له نفوذ واحترام بين حكام الخليج بفضيل الهيبة التى يتمتع بها فى المنطقة • كذلك فان معرفته الموسوعية بالتراث الشعبى للخليج ، وكفاءاته الادارية ، ولباقته ، ودقة أحكامه كل هذه العوامل قد أسهمت فى القرارات المستقلة التى كان يتخذها •

معاهدة حظر تجارة الرقيق سنة ١٨٧٣ :

المرة الوحيدة التى تم فيها اتخاذ قرار سياسى هام يمس الوضع فى الخليج دون الرجوع الى المقيم البريطانى فى المنطقة هى القرار الذى اتخذ فى سنة ١٨٧٣ بعد تسلم ادوارد روس لمنصبه مباشرة ، وقد وقع بموجب هذا القرار كل من سلطان مسقط وسلطان زنجبار على وثيقة يتعهدان فيها بحظر عمليات تصدير الرقيق أو استيراده حظرا باتا • وذلك بعد أن استهدفت تجارة الرقيق لهجوم عنيف من جانب بعض الفئات الدينية فى بريطانيا منذ أوائل القرن التاسع عشر • وفى سنوات ١٨٢٢ و ١٨٣٩ و ١٨٤٥ ارغمت الحكومة البريطانية امبراطور عمان السيد سعيد على التوقيع على معاهدات تحد من تجارة الرقيق فى أراضيه [٥٨] • وعلى أى حال فحتى سنة ١٨٧٠ كانت هذه التجارة لا تزال مزدهرة الى حد كبير ،

---

(٥٧) ظلت جميع المعاهدات المعقودة ايام الحكم البريطانى فى الهند مع امارات الخليج سارية المفعول بعد استقلال الهند سنة ١٩٤٨ . وقد حلت وزارة الخارجية البريطانية محل حكومة الهند فى الاضطلاع بمسؤولية تطبيق هذه المعاهدات •

(٥٨) تقرير ايتشيسون — ١٩٣٣ ص ٢٨٩ — ٣٠١ م ٤٠ •

ولم ينل الا عدد ضئيل من العبيد حريتهم • كمـا ان عرب المنطقة ظلوا متمسكين بهذه العادة لأنها تجارة مربحة ومشروعة فى نفس الوقت • وحتى أوائل القرن الحالى كان اقتناء العبيد من العادات المألوفة فى شبه الجزيرة ، كما كان أى انتقاد لهذه العادة يلقى اعتراضا واستهجانا فى الأوســاط الاجتماعية • فالدين العمانى يبيح اقتناء العبيد ، بينمـا يجيزه النظـام الاجتمـاعى •

فى الستينات من القرن التاسع عشر تجددت الحملة لمكافحة الرقيق فى منطقة المحيط الهندى • وكان يتزعم هذه الحملة الدكتور ديفيد ليفنجستون (David Livingstone) وفى سنة ١٨٧٠ تألفت لجنة للتحقيق فى هذا الموضوع وتقدمت بتقريرها الى البرلمان [٥٩] • وفى سنة ١٨٧٢ أوفـدت الحكومة البريطانية السر بارتل فرير ، أحد المناهضين للرقيق الى كل من سـلطان زنجبار وسلطان مسقط لمفاوضتهما فى عقد معاهدات تحد من تدفق الرقيق الى بلديهما • وقد نجح فرير فى اقناع برغش بن سعيد ، سلطان زنجبار بحظر هذه التجارة ، غير ان هذا لم يحدث الا بعد أن وجه الى السلطان انذارا شديد اللهجة بهذا الشأن ، أما تركى بن سعيد ، سلطان مسقط ، فقد أبدى استعداده بمحض رغبته فى وقف هذه التجارة • وبهذا الصـدد وقع تركى اتفاقا مع فرير تعهد فيه باتخاذ الاجراءات القانونيـة اللازمة لتحريم استيراد الرقيق الى بلاده وأصدر مرسوما بذلك جاء فيه : « ليكن معلوما للعموم اننا نمنع منعا باتا جميع أنواع الاتجار بالعبيد ، سرا أو علنا ، وكل من يخالف هذا الأمر ويتعامل فى بيع وشراء العبيد فى جزء من مملكتنا أو توابعها سوف يقبض عليه وتصادر أملاكه » [٦٠] • غير ان تركى

---

(٥٩) اصطياد العبيد : (من سجلات وزارة الخارجية البريطانية . ملخص تقرير اعدته لجنة التحقيق فى تجارة الرقيق فى أفريقيا الشرقية وقدم الى ايرل اوف كلارندن .

(٦٠) نص المرسوم الذى اصدره السلطان تركى بن سعيد وقد ورد كمرفق لخطاب رقم ٥٧٢ — ٣٠ مؤرخ ٣٠ مايو ١٨٧٣ من روس الى دوق أرجيل . راجع أيضا تقرير ايتشسون — ١٨٩٢ . وللاطلاع على نص المعاهدة يمكن الرجوع الى كتاب « سيرة حياة فرير » ص ٦ — ٧ ، تاليف : مارتينو .

باصداره لهذا المرسوم قد قامر بشعبيته ارضاء للبريطانيين ولكسب تأييدهم له • ولعل تركى بن سعيد اضطر الى مجاراة البريطانيين فى هذا الموضوع بسبب سوء الحالة المالية • اذ بعد توقيعه على الاتفاق المذكور تسلم تركى من فرير ٤٠٫٠٠٠ ريال نمسوى كما تقرر أن يدفع اليه مبلغ ٢٠٫٠٠٠ ريال نمسوى أخرى بعد مضى ثلاثة أشهر على توقيع الاتفاق • وقد ساعد هذا المبلغ السلطان تركى على دعم حكمه المنهار فى البلاد [٦١] •

أما النتيجة الأساسية التى تمخضت عنها معاهدة حظر تجارة الرقيق لسنة ١٨٧٣ فهى اعتماد عمان أكثر على التأييد البريطانى • كما ضاعفت من اعتماد السلطان على الانجليز فى النواحى المالية • ومن المؤكد ان مسألة التعويض الذى تعهدت حكومة زنجبار بدفعه لسلطان مسقط ، كانت ترتبط برمتها ارتباطا وثيقا بالمفاوضات التى سبقت توقيع معاهدات حظر تجارة الرقيق المعقودة سنة ١٨٧٣ على اختلافها • فخلال المحادثات التمهيدية للاتفاق على هذا التعويض أكد سلطان زنجبار انه لا يستطيع دفع التعويض المقترح ، والتنازل فى الوقت نفسه عن الرسوم التى تدخل خزينته من تجارة الرقيق ، كما كان ينص على ذلك حكم كاننج الصادر سنة ١٨٦١ • وقد أخذت حكومة لندن وجهة نظر السلطان هذه بعين الاعتبار • ومن ناحية أخرى أشارت حكومة الهند البريطانية الى أن عمان قد تفقد ثقتها فى الحكومة البريطانية اذا لم تحصل على التعويض ، مما سيؤدى الى فشل نظام المعاهدات الخاصة الذى رسمته بريطانيا لربط امارات الخليج بعجلة نفوذها • ولما كانت حكومة الهند فى ذلك الوقت تمر بأزمة مالية فقد طلبت الى حكومة لندن أو تتكفل بدفع التعويض السنوى الى سلطان مسقط ، اذا تقرر اعفاء سلطان زنجبار من هذه المسؤولية • وكانت هذه المشكلة لا تزال قائمة عندما طالب بارتل فرير حكومة الهند فى سنة ١٨٧٣ بأن تتحمل

---

(٦١) خطاب رقم ٥٧١ — ٤٩ بتاريخ ٣ مايو سنة ١٨٧٣ من روس الى دوق ارجيل •

دفع التعويض لحاكم مسقط مكافأة له على توقيع الاتفاق الخاص بتحريم تجارة الرقيق • وبمضى الوقت أصبح دفع هذا التعويض يشكل عبئا على حكومة الهند • وبالتالى على الرغم من احتفاظ المعونة السنوية التى تدفع عن زنجبار بطابعها حتى سنة ١٨٧٣ ، فقد تحولت الى مكافأة تدفعها السلطات البريطانية الى حاكم عمان • ولما كان هذا المبلغ يشكل جزءا هاما من دخل السلطان ، فقد كان البريطانيون يستغلونه كأداة للضغط على السلطان للسير فى ركابهم (٦٢) •

وقد تأزم موقف السلطان من جراء اتفاقيته مع الانجليز الذى لم يؤيده الشعب فيها ، ومن ثم أصبح التأييد السياسى والعسكرى البريطانى للسلطان مسألة حياة أو موت لبقائه فى الحكم • وفى سنة ١٨٧٣ وقع السلطان على معاهدة أخرى تجيز للبريطانيين اتخاذ كافة التدابير اللازمة لقمع تجارة الرقيق وتصنيفها ، كما تطلق أيديهم فى التصرف بتجار العبيد وفى العبيد أنفسهم ، كما والتصرف فى السفن التى تستخدم فى هذه الأغراض ، وتسيير دوريات بحرية فى المياه العمانية لمطاردة تجار العبيد وسفنهم •

وعلى الرغم من المعاهدات التى وقعت فى سنة ١٨٧٣ ، الا ان القضاء على تجارة الرقيق لم يتم بشكل فعال قبل سنة ١٩٠٢ • وحتى بعد هذه الفترة استمرت بعض مجموعات من العبيد تصل خلسة الى البلاد • غير ان

---

(٦٢) دوق ارجيل الثامن — السر جورج دوغلاس — ذكرياته وسيرة حياته ، تأليف دوقة ارجيل (طبعة لندن ١٩٠٦) ص ٢٧٧ ج ٢ . وخطاب رقم ٩٢ — ١٢ مؤرخ ١٨٧٣/١/٢٥ وخطاب رقم ٥٧٢ — ٥٠ بتاريخ ١٨٧٣/٦/٣ من روس الى دوق ارجيل و « محاضر » وزارة شؤون الهند ١٨٧٥/٤/١٩ و « سيرة حياة فرير » ، تأليف مارتينو جزء ٢ ص ٦٦ — ٧٠ وكتاب « اصطياد العبيد » ص ٣٨٦ ، اعداد كولومب وجاء فيه « ان السلطان كان يحصل على ١٠٫٥٠٠ ج . س من تجارة الرقيق وهو مبلغ يعادل ٥٢٫٥٠٠ ريال نمسوى . وهذا قبل أن توضع اتفاقيات ١٨٧٣ موضع التنفيذ .

محاربة البريطانيين لتجارة الرقيق وتجارها قد جلبت سخط أهل عمان [٦٣] كما ان مرابطة الطراد البريطانى « لندن » بالقرب من سواحل زنجبار بين سنة ١٨٧٤ وسنة ١٨٨٣ كاد أن يقضى قضاء تاما على تجارة الرقيق ، غير ان هذه التجارة عادت فانتعشت بعد سنة ١٨٨٣ عندما انسحب الطراد من مياه زنجبار . وفى التسعينات نشطت هذه التجارة على يد ملاحى صـــور تحت حماية العلم الفرنسى مما حال بين تفتيش السفن المثبتة فيها من جانب الأسطول البريطانى ، وأساء الى العلاقات الانجلو ــ فرنسية قبل أن تتم تسوية هذا الخلاف [٦٤] .

الادارة البريطانية فى الخليج فى عهد روس

وصل نشاط ادارة المقيم البريطانى فى الخليج الى ذروته فى عهـــد روس . كما ان النظام فى هذه الادارة لم يكن معقدا جدا فى أواخر القرن التاسع عشر . وفى سنة ١٨٧٣ أنهى ارتباط المقيم بحكومة بومبى ، وأصبح تحت امرة الادارة الخارجية لحكومة كلكتا مباشرة . غير ان هذا لم يؤد الى تغييرات كبيرة فى الادارة الفعلية للمقيم البريطانى فيما عدا ان القرارات والتوصيات التى يتخذها المقيم لم تعـــد تقوم عن طريق حكومة بومبى ، وانما توجه الى حكومة كلكتا مباشرة » . وقد بلغ عدد الضباط والمسؤولين والعسكريين الذين يعملون تحت سلطة المقيم بضع مئات . وفى أواخـــر التسعينات من القرن التاسع عشر بلغ ما أنفقته حكومة الهند على أعمـــال المقيم فى الخليج نحـــو ٨٠٠٠ جنيــه اســـترلينى ، كما أســـهمت بمبلغ ١٢٠٠ ج . س . كنفقات لبعض القوات الهندية المرابطة فى منطقة الخليج ، بينما كانت تنفق أكثر من ٣٠٫٠٠٠ ، على وحدات الأســـطول البريطـــانى العاملة فى المنطقة [٦٥] .

---

(٦٣) كتاب لوريمر مجلد ٢ ص ٢٥٠٠ — ٢٥١٤ .

(٦٤) التقرير الادارى — ١٨٨٥ — ٨٦ ص ٨ — ٩ و Precis slave ص ٤٩ — ٥٥ .

(٦٥) انظر الدبلوماسية لهرونز ج ١ ص ٢٢٧ .

ويعتبر المعتمد السياسى والقنصل البريطانى فى مسـقط الشخصية الهامة الثانية فى الخليج • وعلى الرغم من ان عدد من الأشـخاص قـد تناوبوا على شغل هذا المنصب ، الا أن اللفتانت كولونيـل سـمويل مايلز (Lt. Col. Sumnel B - Miles) الذى يشاطر روس اهتمامه بتاريخ الخليج قد أمضى أطول فترة فى هذا المنصب • بدأ مايلز حياته العملية فى المنطقـة العربية أولا فى عدن سنة ١٨٦٧ ، ثم عين معتمدا سياسيا فى مسقط سـنة ١٨٧٢ ، حيث استمر فى هذا المنصب حتى عام ١٨٨٧ ، « وكمعتمد سياسى » كان مايلز يعتبر مسؤولا تابعا لحكومة الهند البريطانية ، بينما مسؤوليتـه كقنصل تعود الى وزارة الخارجية البريطانية فى لندن •

وعلى الرغم من أن بلى قد كسب الجولة الرئيسية فيما يتعلق بوضع القوة البحرية فى الخليج بالنسبة للنظام البريطانى المطبق فى المنطقة ، فان روس قد خاض معركتين فى سبيل هذه الفكرة • وابتداء من سنة ١٨٧١ حتى سنة ١٨٧٦ كانت ترابط باستمرار السفينة الحربية هيو روز (Hugh Rose) من البحرية الهندية التابعة لاقليم بومباى تحت تصرف المقيم • وعنـدما سحبت هذه السفينة عام ١٨٧٦ لم تحل محلها سفينة حربية أخرى ولقـد طالب روس بايفاد سفينة حربية أخرى بدلا من السفينة المسحوبة ، وقال بأن وجود سفينة كهذه ضرورى بالنسبة للمقيم البريطانى حتى يتمكن من القيام بمهامه على الوجه الأكمل ، وحتى لا يضطر الى استدعاء السـفن المسلحة التابعة للاسطول الملكى فى أعمال عادية • وقد ظل النقاش محتدما حول هذه المسألة حتى سنة ١٨٨٤ عندما وصل الى ميـاه الخليج القارب المسلح سفنكس الذى بنى خصيصا لهذه الأغراض • غير ان هذا القـارب لم يكن من النوع السريع الذى يطالب به المقيم روس • عندئذ تقدم روس باقتراح جديد أسفر عن بناء سفينة حربية خاصة تسمى لورنس • ولقد برهنت هذه السفينة عن فائدتها فى مسـاعدة المقيم على أداء مهمتـه فى الخليج • وبهذه السفينة كان فى استطاعة روس أن يقطـع المسـافة بين

أبو شهر ومسقط فى ظرف أربعين ساعة بدلا من ثمانين ساعة كانت تستغرقها القوارب القديمة .

ولقد تجددت مشكلة وجود قوة بحرية بريطانية فى الخليج بين سنة ١٨٨٤ وسنة ١٨٨٨ . عندما أثير موضوع تخفيض وحدات الأسطول البحرى الملكى من جديد ، أما روس فقد تمسك بموقفه بوجوب احتفاظ القوة البحرية بمستوى ما قبل سنة ١٨٧١ ، غير أن ضباط البحرية كان من رأيهم أن القاربين سفنكس ولورنس كافيان للقيام بأعمال الدورية التى يتطلبها الوضع فى الخليج . وأخيرا تقرر الاحتفاظ بقارب واحد فى الخليج وآخر فى مياه عمان ، مع وجود قاربين آخرين كاحتياطى فى الهند . وعلى الرغم من هذا الاتفاق ، فقد ظل رجال الأسطول يشكون باستمرار من عملهم فى الخليج . وقد جاء من تقارير رجال الأسطول ان الخدمة المنتظمة فى مياه الخليج قاسية جدا على الملاحين البريطانيين . كما احتج هؤلاء على السلطات التى يمارسها المقيم البريطانى فى الخليج عليهم . وعلى أى حال فقد استطاع روس بحنكته أن يحتفظ بجميع التدابير البحرية التى كانت قائمة على عهد بلى . وقد كانت هذه التدابير عاملا أساسيا فى احتفاظ بريطانيا بمركزها فى الخليج وبالسلام البحرى فى المنطقة [٦٦] .

دفاع روس عن النفوذ البريطانى فى الخليج :

لقد نجح بلى بلباقته ومرونته فى تعزيز النفوذ البريطانى فى الخليج ، متجنبا فى الوقت نفسه الاصطدام مع حكامه . ومن العوامل التى ساعدت على انجاح ذلك هو الاعتقاد الذى كان يسود أوساط حكام الخليج من أن بريطانيا متكفلة بحمايتهم من أى تهديد داخليا كان أو خارجيا . أما من وجهة نظر الحكومة البريطانية فقد كانت تعتبر أن السعودية هى الدولة

---

(٦٦) (Precis Naval) ص ٢٥ — ٣٤ .

الوحيدة التى تشكل تهديدا للأوضاع فى امارات الخليج فى عهد بلى • غير ان الخطر السعودى على المنطقة قد انحسر خلال الستينات بعد أن اجتاحت الاضطرابات الداخلية والصراع على السلطة الدولية الوهابية • ومع ذلك فقد أصبح التهديد الوهابى للسلام الاقليمى والاستقرار السياسى فى المنطقة ، أقل خطرا من تحدين جديدين أخذت تتعرض لهما المنطقة خلال السبعينات ونعنى بهما بعث المصالح العثمانية وبعث المصالح الايرانية فى سواحل الخليج •

وعلى الرغم من أن الضعف قد دب بالفعل فى أوصال هاتين الدولتين فى أواخر القرن التاسع عشر • غير أنه كان ضعفا نسبيا وليس شاملا • أما اذا قورنت هاتان الدولتان بالدول الأوربيـة ، فانهمـا تعتبـران دولتين متدهورتين • وعلى كل فان جهود دولة القاجار فى ايران ، وانصراف دولة العثمانيين لتطوير جيوشها ونظام مواصلاتها وادارتها ، رغم انها جهود لم تصل الى مستوى التطور الحديث فى الدول الأوربية ، قـد نجحت فى تعزيز قوة الدولتين فى السيطرة على شعوبهما وشعوب مناطق الحدود الضعيفة الخاضعة لسلطانهما • كما استطاعت الدولتان الحد من تدهورهما الى حد ما بالمقارنة مع الدول الغربية ، عن طريق السيطرة على المقاطعات الداخلية فى أراضيهما وهى المقاطعات التى ظلت تتمتع بالاستقلال الذاتى التام لفترة طويلة من الزمن ، وعلى مناطق الحـدود التى تعهـد كل من حكومتى طهران والقسطنطينية باحترام استقلالها • ولما كان الخليج يندرج ضمن « مناطق الحدود الضعيفة » من وجهة نظر الدولتين ، فقد أصبح محور نشاط الدولتين السياسى فى نهاية القرن التاسع عشر •

أما بالنسبة للعثمـانيين الذين وجـدوا أنفسـهم يسـيطرون على امبراطورية مترامية الأطراف فقد كانت نتيجة تلك الأوضاع تبنيهم لفكرة الوحدة الاسلامية التى بعثها من مرقدها المفكر الاسـلامى جمـال الدين الأفغانى ثم تبناها السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى الذى دعا المسلمين الى الالتفاف حول راية خلافة اسلامية واحدة تقف فى وجـه الامبريالية

الغربية • وبطبيعة الحال نصب عبد الحميد من نفسه رائدا لتلك الحركة • وقد استعان السلطان عبد الحميد فى دعوته الى توحيد المسلمين فى نطـاق دولة اسلامية واحدة بزعامته ، بالنظريات الفلسفية لتبرير فرض سلطانه على المناطق التى سبق ان خضعت لغيره من السلاطين العثمانيين • وعلى الرغم من استحالة تطبيق هذه النظرية على كل بلد سبق ان خضـع لحكم القسطنطينية ، فقد كان شبه الجزيرة العربية يبدو مجالا ممكنا لمحـاولة استرداد بعض ما فقدته الدولة العثمانية من مناطق النفوذ •

فى شبه الجزيرة العربية كان العثمانيـون يسـيطرون على الأماكن المقدسة فى الحجاز لعدة قرون • وفى عام ١٨٧١ قبـل خمسـة أعوام من استيلاء السلطان عبد الحميد الثانى على مقاليد السلطة ، وقبل أن يبـدأ بالدعوة الى الوحدة الاسلامية بسنوات كثيرة ، كان العثمانيون قد بدأوا فعلا بتوسيع مناطق نفوذهم عبر شبه الجزيرة العربية • فلقد كانوا بدأوا حركة اختراق واسعة النطاق عبر شواطىء البحر الأحمر والخليج العربى ورافقت هذه المحاولة حملة عثمانية ، اتسمت بالمبالغة تطالب بشبه الجزيرة العربية ، بما فى ذلك عمان والساحل الجنوبى من شـبه الجزيرة باعتبارها جزءا من الامبراطورية العثمانية على الأساس التاريخى والقانونى [٦٧] •

وفى سنة ١٨٧٣ بلغ الضغط العثمانى على جنوب غربى الجزيرة العربية أشده بحيث اضطرت حكومة الهند الى اصدار بيان تعتبر فيه المطـالب العثمانية خطرا على خطوط المواصلات الامبريالية وحذرت الحكومة العثمانية من أنها عازمة على وضع حد نهائى لتلك المطالب [٦٨] • وهكذا أخذ ممثلو بريطانيا فى عدن وفى غيرها من امارات الجنوب العربى يستعدون لمواجهـة المطالب العثمانية • وقد عقدت الحكومة البريطانية سلسلة من المعاهدات مع حكام امارات الجنوب العربى المهددة من قبل العثمانيين • وبمقتضى

---

(٦٧) Precis Turkish Expansion جزء ١ ص ١١ — ١٢ •

(٦٨) « سياسة الهند الخارجية » برأساد ص ٢٤٩ — ٢٥٠ •

المعاهدات المذكورة أصبحت حكومة الهند مسؤولة عن حماية هذه الامارات والاشراف على شؤونها الخارجية • وما ان حلت سنة ١٨٧٨ حتى كانت تسع من الامارات الجنوبية الغربية المجاورة لعدن ، قد ربطت بمعاهدات الحماية البريطانية ، كما ضمت الى الحماية البريطانية أيضا فى سنة ١٨٨٢ جميع مناطق الجنوب العربى حتى حدود مقاطعة ظفار التابعـة لسلطان مسقط وعمان • وقد جددت هذه المعاهدات ما بين سنة ١٨٨٧ وسنة ١٨٩٢ بحيث أصبحت بفضل التعديلات التى أدخلت عليها مؤخرا تمثل الأسس القانونية لما يعرف « بمحميات عدن » أو (محميات الجنـوب العـربى) واتحاد الجنوب العربى [٦٩] •

وكما حدث بالنسبة للجنوب العربى ، وجد البريطانيون أنفسـهم مضطرين الى دعم وتثبيت الأسس القانونية لنفوذهم فى الخليج ، ردا على أطماع العثمانيين فى المنطقة • وخلال هذه الفترة ظهر مدحت باشا الوالى العثمانى فى العراق ، ومن دعاة حركة الدسـتور العثمانية ورئيس وزراء الامبراطورية ، ليتزعم التوسع العثمانى فى الخليج • وفى سنة ١٨٧١ اغتنم مدحت باشا انفجار الصراعات الداخلية فى السعودية فوجه حملة بحرية على ساحل الحسا استخدم فيها بعض السفن التى أسهم بها حاكم الكويت ، الذى كان يعتبر نفسه فى ذلك الوقت من أتباع سلطان الأتراك • وبنهاية العام كان العلم العثمانى يرفرف فوق سوارى المدن الكبرى على الشاطىء الشرقى للجزيرة ، بما فيها الحسا وامتدادا من الكويت حتى الدوحة كبرى مدن قطر • وفوق ذلك كانت الأطماع تراود العثمانيين فى مـد نفوذهم الى البحرين وساحل الصلح بل والى عمان أيضا • أما بريطانيا فقد قررت عدم التدخل ضد العثمانيين بشأن الحسا ولم تتخذ هذا القرار الا بعد أن أبلغت الباب العالى بأنها لن تعترف بسلطة العثمانيين على أى

---

(٦٩) تقرير ايتشيسون — ١٩٣٣ مجلد ١٠ •

منطقة أخرى على ساحل الخليج • وعلى ضوء هذا الحادث بنى ليويس بلى رأيه فى موقف الضعف الذى وقفته بريطانيا فى الخليج [٧٠] •

وحتى التسعينات من القرن كان البريطانيون يخشون أن يؤدى التوسع العثمانى فى الخليج الى انفجار الاضطرابات الملاحية من جديد أكثر مما كانوا يخشون من ذلك التوسع على وجودهم • وما ان احتل العثمانيون الحسا ، حتى أبلغ البريطانيون شيوخ البحرين وساحل الصلح ، بأن لا يورطوا أنفسهم مع العثمانيين ، بعد أن أكدت لهم تأييدها الكامل لامارتهم • وبما أن العثمانيين لم تكن لديهم قوة بحرية تعمل فى مياه الخليج فقد أتاح هذا لبريطانيا أن تستمر فى أعمال الدوريات البحرية عبر السواحل الشرقية للجزيرة ومواجهة أى اعتداء قد يقع على المنطقة ، وذلك استمرارا لما كانت تقوم به هناك منذ سنة ١٨٢٠ [٧١] وقد تهاوت قبضة العثمانيين عن الحسا بعد سنة ١٨٧٤ ، غير أن المنطقة العليا من الخليج أخذت تستهدف لهجمات من القراصنة الذين كانوا يستغلون سفنهم من موانىء تعتبر تابعة من الناحية الاسمية للعثمانيين • ولقد زادت عمليات الاحتكاك الناتجة عن المشاغبات الملاحية وعن مطالب العثمانيين مما اضطر بريطانيا فى سنة ١٨٨٠ الى اتخاذ كافة الاجراءات اللازمة لصون السلام فى مياه المنطقة ، دون أن تقيم وزنا للمطالب العثمانية [٧٢] » ••• وكنتيجة لذلك أرسلت بعض وحدات من الجيش الهندى الى البحرين التى كان حاكمها أول حاكم يوقع عى معاهدة غير مشروطة مع البريطانيين • « كما وافق على وضع شؤون امارته الخارجية تحت اشراف البريطانيين ، والتعهد بعدم منح أى امتيازات فى أراضيه لدولة غير الدولة البريطانية » • ولا تختلف هذه المعاهدة فى معناها عن المعاهدات الأخرى التى عقدت فى نفس الفترة مع حكام امارات الجنوب العربى ، والتى اتخذت

---

(٧٠) خطاب رقم ٣٨٨ — ٤٥ مؤرخ ١٨٧١/٤/٨ من بلى الى دوق ارجيل و « حول التوسع التركى » ص ١٥ — ١٦ •

(٧١) « الوجود البريطانى فى الخليج » ، تأليف : كيلى •

(٧٢) « حول التوسع التركى » ص ١٥ — ١٦ •

كنموذج لسلسلة المعاهدات التى توالى ابرامها بين الحكومة البريطانية وحلفائها من حكام الخليج فى الفترة الواقعة بين سنة ١٨٧٨ وسنة ١٨٩٢ • ويعتبر الاجراء الذى اتخذ سنة ١٨٨٠ بشأن البحرين بداية لسياسة بريطانية جديدة ترمى الى تقليص النفوذ العثمانى كما كانت أول خطوة لاضفاء الصفة الشرعية « لنظام » الحماية البريطانية فى شكله النهائى (٧٣) • وعلى الرغم من تصلب البريطانيين خلال وجود روس فى الخليج ، فان مطالب العثمانيين ومحاولاتهم لتوسيع مناطق نفوذهم فى ساحل الصلح ، وفى عمان أيضا لم تتوقف • وقد قام البريطانيون بمحاولتين مع سلطان مسقط لجره الى صفهم • وكان من المألوف للسفن التركية عند زيارتها ميناء مسقط أن تتجاهل تأدية التحية الرسمية للعلم العمانى (٧٤) • كما كان العثمانيون يوزعون بعض المنشورات الدعائية عن طريق الصحف المصرية التى تصل موانىء الخليج بما فيها ميناء مسقط • بالاضافة الى بعض المطبوعات الاباضية التى تصدر فى مصر وتؤيد فكرة الوحدة الاسلامية • وعلى أى حال فقد كانت كل هذه الدعايات تلقى الاهمال من جانب سكان المنطقة ، وكانت تدفع بحكامها أكثر وأكثر الى أحضان الغول البريطانى • ومن ناحية أخرى فان البريطانيين لم يكتفوا بمجرد الاستنكار لمطالب العثمانيين ، وانما وجهت السلطات البريطانية ما بين سنة ١٨٧١ وسنة ١٨٩٣ احتجاجات وتحذيرات كثيرة فيما يتعلق بالاجراءات والمطالب العثمانية فى المنطقة (٧٥) •

ان المطالب العثمانية فى الخليج كانت فى حقيقتها أكاذيب أكثر منها حقائق ، واذا استثنينا دور مدحت باشا فى بداية عهد العثمانيين فى مطلع السبعينات من القرن التاسع عشر ، فان الحكومة العثمانية قد برهنت على

---

(٧٣) « الدبلوماسية » ، تأليف هروتز جزء ١ص ١٩٤ •

(٧٤) خطاب رقم ٤٤ — ١٠ بتاريخ ١٨٧٦/١/٢٥ من مايلز الى روس وآخر رقم ٢٥ بتاريخ ١٨٨٠/١٢/١٣ من روس الى اللورد هارتنجتون •

(٧٥) (Precis Turkish Expansion) ص ١٣٨ — ٤٢ وقد وجهت بريطانيا ١٠ انذارات لتركيا بشأن الخليج بين سنة ١٨٧١ وسنة ١٨٩٣ •

تفككها وانهيارها فى المنطقة العليـا من الخليج • غير أن بعث سـلطان السعوديين بقيادة عبد العزيز آل سعود ، مؤسس الدولة السعودية الحديثة، قد اكتسح النفوذ العثمانى من الحسا سنة ١٩١٣ • ثم بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ تلاشت السلطنة العثمانية نفسها من الوجود •

أما فى ايران فقد قام القاجار بمحاولة كتب لها النجاح فى النهاية ، وذلك بتأكيدهم لسيادة الامبراطورية الايرانية على الموانىء الايرانية فى الخليج • أما خلال الفترة الواقعة بين سقوط دولة زند فى أواخر القرن الثامن عشر ، وبعث المصالح الايرانية فى منتصف القرن التاسع عشر ، فلم تظهر اى حكومة من الحكومات الايرانية اهتماما كبيرا بمقاطعات الساحل الايرانى على الخليج ، هذا رغم أن ولاة مقاطعة فارس الايرانيين كانوا يبدون اهتماما متقطعا بشؤون الخليج (٧٦) • ولما كان ملوك القاجار وقتها مشغولين بالتوسع الروسى فى مقاطعاتهم على بحر قزوين ، وبالتالى كان نشاطهم مقتصرا فى أغلبه على السهل الايرانى ، فقد أهملوا ممتلكاتهم فى الخليج والجزء الجنوبى من ايران ومنذ سنة ١٨٥٠ بدت القبائل التى تقيم على الجانب الايرانى من الخليج تكاد أن تكون مستقلة ، وأغلبها قبائل عربية ، من سلالات وفدت الى المنطقة من شبه الجزيرة العربية • أما الى الجنوب والشرق من بندر عباس ، فقد كانت أغلبية السكان فيهما من القبائل البلوشية وقبل الخمسينات من القرن كانت قبائل الساحل تدفع اتاوة صغيرة بين الوقت والآخر للسلطات الايرانية فى الداخل ، أما فيما عدا هذا فقد كانت هذه القبائل مستقلة فى شؤونها (٧٧) • غير أن الانجليز لم يقيموا علاقات أو يعقدوا معاهدات اطلاقا مع قبائل الساحل الايرانى ، كما فعلوا مع القبائل العربية • وباستثناء بعض التدابير المشتركة المؤقتة مع بعض هذه القبائل ، فان العلاقات الايرانية الانجليزية كانت تخضع للطرق الدبلوماسية العادية •

---

(٧٦) « جزر البحرين » فصل ٢ — ٣ اعظميت .
(٧٧) سجلات حكومة بومبى — ١٨٥٦ ص ٢٨٦ — ٢٨٧ .

وحتى سنه ١٨٥٩ كانت الحكومة البريطانية مترددة فيما اذا كانت المصالح الدبلوماسية بينها وبين ايران تخضع لحكومه لندن مباشرة او لحكومة كلكتا • وفى سنة ١٧٥٩ كنتيجه للتنظيمات الادارية التى ادخلت الى الهند فى اعقاب الثورة ، وضعت البعثة البريطانية فى طهران تحت عهـدة وزارة الخارجية البريطانية بصـورة نهائية ، وخولت الصلاحيات اللازمة للاشراف على العلاقات الانجليزية الايرانية • وعلى أى حال فقد ظلت حكومة الهنـد البريطانية تهتم بالعلاقات الانجليزية — الايرانية ، وفى سنة ١٨٩٩ أسهمت حكومة كلكتا فى نفقات البعثة البريطانية فى ايران • كما أن عددا من الرسميين البريطانيين العاملين فى ايران ، كالمقيم البريطانى فى ابو شهر ، كان يتم تعيينهم من جانب حكومة الهند ، هذا بالاضافة الى أعمالهم القنصليه التى يتبعون بمقتضاها وزارة الخارجية البريطانية فى لندن [٧٨] •

منذ عام ١٨٥٣ بدأت الحكومة الايرانية محاولاتها لبحث مصالحها فى الخليج • وفى هذه الفترة طرد الفرس الحاكم العثمانى من بندر عباس التى كانت تخضع لمسقط منذ أن احتلها السيد سلطان بن أحمد سنة ١٧٩٨ وذلك بالاضافة الى رقعة أخرى من الأرض طولها ١٥٠ كيلومترا ، وميناثى شهبار وجواذر • ومن الواضح أن السيد سلطان كان قد وافق على دفع ايجـار شهرى للسلطات الايرانية مقابل هذه المراكز مقداره ٦٠٠٠ تومان ايرانى أى ١٥٫٠٠٠ ريال نمسوى ، غير أن الايجار المذكور ربما لم يدفع لمـدة سـنوات •

لم يتمكن السيد سعيد من استرداد نفوذه على بندر عباس قبل سنة ١٨٥٦ ، وحتى هذا الاسترداد لم يتم الا بعد اعتراف السلطان ببندر عباس كأرض فارسية وتعهده بدفع ١٤٫٠٠٠ تومان أى ما يعادل (٣٥٫٠٠٠ ريال نمسوى) ايجارا سنويا عن استخدام الميناء المذكور [٧٩] • وقد جـرت

(٧٨) « الدبلوماسية » ، تأليف هروتز فصل ١ ص ٢٤٠ — ٤١ •
(٧٩) نفس المصدر ص ١٥٧ — ٥٨ و « الخليج العربى » ، تأليف ولسون ص ١٧٣ •

المفاوضات لتأجير الميناء المذكور سنة ١٨٦٨ ورفع الايجار الى ٣٠٫٠٠٠ تومان اى (٧٥٫٠٠٠ ريال نمسوى) • وعلى كل فقد فسخ عقد هذا الايجـــار سنة ١٨٦٨ عندما استولى عزان بن قيس على مقاليد السلطة فى مسقط وقد استندت السلطات الايرانية بفسخ العقد على احد بنود الاتفاق الذى يجيز فسخ العقد اذا وقع اعتداء على الحكم فى سلطنة مسقط • وما آن تولى تركى بن سعيد الحكم سنة ١٨٧١ حتى بادر الى الاتصال بالسلطات الايرانية لتجديد العقد ، غير آن السلطات الايرانية لم توافق على ذلك • كما منيت جميع محاولات تركى لاستخدام الميناء سنة ١٨٧٢ وسنة ١٨٧٨ وسنه ١٨٧٧ بالفشل [٨٠] • وبعـــد عام ١٨٦٨ استعاد الايرانيون سيطرتهم على ساحل ايران الجنوبى الذى كان يخضع سابقا للنفوذ العمانى • وقد رافقت محاولة بعث المصالح الايرانية فى المنطقة ـ مطالبة ايران بجزر البحرين • وهى المطالب التى تقدمت بها الحكومة الايرانية فى أواخر الستينات من القرن التاسع عشر غير أن وزير الخارجية البريطانية آنذاك اللورد كلارندن قد قرر وضع المسألة على الرف ، وان لم يتخذ أى خطوات مضادة ضـــد المحاولات الايرانية [٨١] •

وفى السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر أقام الايرانيون أجهزة سياسية ادارية ، وان كانت بدائية على امتداد الساحل الايرانى من الخليج • غير أن هذه الأجهزة التى أقامها الايرانيون لحماية موانئهم على الساحل الايرانى ، قد تحولت لسوء الحظ الى أداة لانتزاع الضرائب من سكان المنطقة أكثر منها جهازا حكوميا لادارة المناطق • وبعد سنة ١٩٠٢ تدهورت حالة ميناء لنجة بعد فترة من الازدهار عندما قفز عدد سكانها فى الستينات الى ٢٥٫٠٠٠ نسمة ، وذلك نتيجة للضرائب الباهظة التى فرضت على سكانها [٨٢] • وفى منتصف الثمانينات من القرن التاسع عشر ، قررت

---

(٨٠) (Precis Persian Coast) • ص ٣١ — ٣٢ •
(٨١) « الدبلوماسية » فصل ١ ص ١٧٢ — ٧٣ •
(٨٢) الامبريالية البريطانية — وبريطانيا العظمى — العـــراق والخليج الفارسى ص ١٦٢ •

حكومة ايران ، تنفيذا لسياستها العدوانية فى الخليج ، بناء أسطول يخصص لمنطقة الخليج ، ومحاولة تأكيد سيطرة شاه ايران على الجزر الايرانية القريبة من شواطئها • وقد اتبعت هذه الخطوة فى نهاية الثمانينات بمحاولة للتدخل فى شؤون ساحل الصلح • وكان رد الفعل لأطماع ايران ودعاواها فى المنطقة ، هو تأكيد روس لمبدأ الحماية البريطانية على امارات ساحل الصلح ، وبناء أسطول مؤلف من قاربين مسلحين صغيرين لا تقل حمولة كل منهما عن ٦٠٠ طن لاستخدامهما فى عمليات نقل البريد والتعليمات •

وعلى أى حال فقد كانت هناك محاولة جادة لبعث النفوذ الايرانى فى الخليج فى نهاية القرن التاسع عشر • وعلى الرغم من أن هذه المحاولات الايرانية قد تخللها بعض الوعود البراقة والتصريحات الجوفاء • فان من الواضح أن نوعا من السلطة السياسية الايرانية قد ظهر الى الوجـود على امتداد الجزء الأكبر من الساحل الايرانى للخليج • ومما اتضح يومئذ أن المقيم البريطانى على الساحل الايرانى كان يقوم بعمله كقنصل عام أكثر منه كنائب للقنصل ، على عكس ما كان معمولا به فى المنطقة الشرقية من شـبه الجزيرة العربية • ولم يكن فى وسع البريطانيين مجرد املاء رغبتهم على الايرانيين فيطيعهم هؤلاء • وقد قام مثلا بست محاولات فيما بين سنة ١٨٧٨ وسنة ١٨٩٢ للحصول على موافقة الايرانيين على تعيين قنصل بريطانى فى بندر عباس غير أن محاولاته هذه لم تثمر • ولم توافق الحكومة الايرانية على هذا الطلب بصورة نهائية قبل سنة ١٩٠٤ •

فى أواخر الثمانينات من القرن التاسع عشر ، تعرض الوجود البريطانى فى الخليج لتحد جديد ، ولكنه كان تحديا وهميا أكثر منه حقيقيا • فقد وصل الى المنطقة شخص فرنسى يدعى المسـيو شابوى • وسبب وصول هذا الفرنسى الى المنطقة حرجا وارتباكا شديدين للمقيم البريطانى روس الذى وصفه فى أحد تقاريره « بالمتآمر ، وشبه التاجر ، والمغامر » • وكان يسيطر على تفكير شابوى عدد من المشروعات الاقتصادية والرغبة فى الثراء

السريع • كما كانت ترشحه الاشاعات لمنصب المعتمد السياسى الفرنسى فى المنطقة • وكان شابوى مصمما على تصفية النفوذ البريطانى فى المنطقة • وعلى أى حال ، فقد اتخذ البريطانيون من هذا الحادث ذريعة لدعم شرعية وجودهم فى الخليج • وقد أشار المقيم البريطانى فى الخليج فى تقريره الى رؤسائه بوجوب اتخاذ كافة الاحتياطات لحماية الوجود البريطانى فى المنطقة ، ومن ثم فقد ركز روس جهوده فيما بين سنة ١٨٨٧ وسنة ١٨٩٢ على عقـد سلسلة من المعاهدات التى تربط الامارات البحرية العربية فى شرقى شبه الجزيرة العربية بعجلة النفوذ البريطانى (٨٣) •

المعاهدات غير المشروطة ١٨٨٧ ــ ٩٢ والنص الوارد فى المعاهدة العمانية ١٨٩١ بشأن عدم التنازل •

لاحظنا أنه كنتيجة للأزمة التى سببها نشاط الدولتين العثمانية والايرانية فى المنطقة والمخاوف البريطانية من أطماع الدول الأوربية الاستعمارية ، تقدم روس فى سنة ١٨٨٧ باقتراحات الى حكومته يطالبها بادخـال بعض التعديلات على نظام الحماية البريطانية (٨٤) وحتى ذلك الوقت كان هذا النظام يقـوم على أساس « المعاهدة العامة » المعقودة فى سنة ١٨٢٠ والتعديلات التى أدخلت عليها بموجب « معاهدة الصلح البحرى الدائم » المعقودة فى سنة ١٨٥٣ والتى تخول البريطانيين التوسط فى الخلافات التى تنشب بين حكام الخليج • وما بين سنة ١٨٥٣ وسنة ١٨٨١ كان المفروض ، وان لم ينص على ذلك ، أن تكون الشـؤون الخارجية لدول الخليج تحت اشراف الحكومة البريطانية • أما فيما يتعلق بشرعية الوجود البريطانى فى الخليج فقد كان هذا الوجود أكثر ميوعة فى امارات الخليج الأعلى ، حيث يعتمد هذا الوجود على نصوص معاهدة سنة ١٨٢٩ وهى معاهدة تجارية أكثر

---

(٨٣) (Precis Trucial Chiefs) ص ٦١ ــ ٧٠ •

(٨٤) خطاب رقم ١٩١ مؤرخ ١٨٨٧/٩/١ •

منها سياسية . وحتى الثمانينات لم يكن هناك من الأسباب ما يوجب تحديد السيطرة البريطانية فى المنطقة تحديدا رسميا واضحا . وعلى اى حال ، ففى عام ١٨٨٠ ، كما نلاحظ ، حتمت الأطماع والمطالب العثمانية فى الخليج على البريطانيين ، عقد معاهدة مع حاكم البحرين تخول البريطانيين صراحة الاشراف على الشؤون الخارجية للامارة .

وبما أن روس كان يتوقع أن يحصل على موافقة من الحكومة البريطانية على مقترحاته الخاصة بتدعيم نطاق الحماية البريطانية لدول الخليج ، فقد عقد فى سنة ١٨٨٧ اتفاقات غير رسمية مع عدد من دول المنطقة على غرار الاتفاق المعقود سنة ١٨٨٠ مع شيخ البحرين ، والذى يخول بريطانيا سيطرة غير مشروطة على الشؤون الخارجية لدول الخليج . غير أنه لم يتم التصديق على هذه الاتفاقيات غير المشروطة ، وذلك لأسباب قانونية تتصل بالنواحى الفنية ، لأن روس قام بهذه الاجراءات دون أن يكون له تفويض رسمى بذلك . وبما أن حكومتى لندن وكلكتا أعجبتا بخطوة روس ، فقد أبدتا استعدادهما للاعتراف بالاتفاقيات المذكورة كاتفاقيات شرعية ، وبذلك طلبتا الى المقيم بأن يتقدم بمقترحاته الخاصة بتفاصيل الاتفاقيات التى يقترحها للمنطقة . وقد كانت كل اتفاقية من الاتفاقيات المقترحة تحوى بندا بين بنودها يلزم كل حاكم على الاتفاقية المذكورة « بعدم التنازل » عن أى جزء من أراضيه لدولة غير بريطانيا ، اضافة الى بند آخر يخول بريطانيا سلطة الاشراف على الشؤون الخارجية للحاكم . وفى سنة ١٨٩٢ قدم الكولونيل تالبوت مسودة مشروع المعاهدات بعد تعديله الى حكام البحرين ، وامارات ساحل الصلح للتوقيع عليها ، وبعد ذلك تم التصديق عليها من جانب نائب الملك فى الهند [٨٥] . غير أن وضع عمان تحت الحماية البريطانية كان عملاأكثر

---

(٨٥) خطاب رقم ١٠٩ مؤرخ ١٨٩٠/٩/٨ من لانس داون الى كروس ، راجع أيضا Precis Trucial Chiefs ص ٦٦ — ٧٠ وتقرير ايتشيسون — ١٩٣٣ للاطلاع على نصوص المعاهدات .

صعوبة من بقية الامارات . ففى سنة ١٨٨٧ اقترح روس عقد معاهدة جديدة بدلا من اتفاقية سنة ١٨٣٩ التى كان معمولا بها حتى ذلك الوقت . وعلى الرغم من حصول روس على الموافقة الرسمية للاتفاق فانه لم يتمكن من متابعه الموضوع بسبب وفاة السلطان تركى فى سنة ١٨٨٨ . وعلى كل ففى سنة ١٨٩٠ تجدد الحديث عن اعلان عمان محمية بريطانية . غير أن اللورد لانس داون ، نائب الملك فى الهند كان من رأيه أن تشمل الاتفاقية المقترحة فقرة سرية تنص نصا صريحا « على اشراف بريطانيا على الشؤون الخارجية لعمان » . وقد جاء فى تقرير لمجلس وزراء الهند فى لندن بأن ثمة اعتبارات كثيرة تجعل من عمان « محمية بريطانية » منها :

١ — الضمان الوارد فى حكم كاننج سنة ١٨٦١ .

٢ — التعويض الذى تدفعه الحكومة البريطانية لقاء تنازل السلطان عن اقليم زنجبار .

٣ — ضرورة اعتراف الحكومة البريطانية بأى حـــكم عمانى يتولى السلطة فى مسقط .

٤ — المناسبات الكثيرة التى كانت تتدخل خلالها بريطانيا فى الخلافات الداخلية ، الى جانب نفى بعض المطالبين بالعرش الى الهند .

٥ — اشراف المقيم البريطانى على المفاوضـــات العمانية الخاصة بمعاهدة التجارة المعقودة فى سنة ١٨٧٧ .

٦ — سيطرة المصالح القومية التجارية للرعايا الهنود — البريطانيين المقيمين فى عمان (٨٦) .

---

(٨٦) خطاب رقم ١٠١٣ مؤرخ ١٨٩٠/١٢/١٠ من لانس داون الى كروس وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥٣٤ و « علاقات بريطانيا بالخليج » ، تأليف : داون ١٨٩٠ — ١٩٠٢ ص ٢٦٠ .

أما اللورد سالسبورى ، وزير الخارجية ، فقـــد كان من رأيه بأن الضمان البريطانى — الفرنسى المشترك لاستقلال عمان ، والذى لم تعرف عنه حكومة كلكتا الا مؤخرا ، يستبعد على أى حال ، ممارسة بريطانيا أى نوع من الحماية على عمان ، قبل الاتفاق على مثل هذه الخطوة مع الحكومة الفرنسية (٨٧) • ولكن اللورد لانس داون قد ظل يراوده الأمل فى أن تتمكن بريطانيا من فرض ما أسماه بالحماية المطلقة على عمان دون اعتراض على ذلك من جانب الفرنسيين • غير أن اللورد سالسبورى لم يؤيده فى الرأى وكان يعتقد أن الوقت لم يكن مناسبا لاثارة هذا الموضوع مع الحكومة الفرنسية ، وكان يفضل الانتظار حتى تحين الفرصة للقيام بهذه الخطوة • فطالما أن السلطان لم يؤسس فعلا علاقات خارجية ، فقد كان من الأنسب ، على حد رأيه ، ارجاء موضوع الحماية حتى تسنح الفرصة لممارسة مثل هذه السلطة بشكل رسمى سافر • وختم اللورد سالسبورى بيانه بأن قال : بأن « نظام شبه الحماية » هو أقصى ما يمكن أن تفكر فيه بريطانيا الآن (٨٨) •

وعلى هذا الأساس وقعت فى ٩ مارس سنة ١٨٩١ معاهدة تجارية بين عمان وانجلترا تنص على توسيع الامتيازات الاقليمية البريطانية فى عمان • وقد وقعها فيصل بن تركى (١٨٨٨ — ١٩١٣) عن الجانب العمانى ، وادوارد روس عن الجانب البريطانى • وعلى كل فقد تضمنت المعاهدة المذكورة بندا سريا يلزم السلطان بأن لا يتنازل ، أو يبيع ، أو يرهن ، أو يسلم أى جزء من أراضيه أو ملحقاتها الى أى دولة غير بريطانيا (٨٩) • غير أن البريطانيين لم يحاولوا فرض سيطرة مطلقة على عمان كما فعلوا فى أجزاء كثيرة أخرى من شرقى شبه الجزيرة ، لأن سلطان عمان كان يرتبط بعلاقات خارجية مع دول أخرى • ومعنى هذا أن الحماية التى كانت تمارسها بريطانيا على عمان

---

(٨٧) خطاب رقم ١١٣ مؤرخ ١٨٩٠/١٢/٨ من لانس داون الى كروس •
(٨٨) خطاب رقم ٤٥ مؤرخ ١٨٩٠/١٠/٢٣ من كروس الى لانس داون •
(٨٩) تقرير ايتشيسون — ١٩٣٢ •

فى سنة ١٨٩١ كانت شبه حماية من الوجهة القانونية • فقد كان لبريطانيا نفوذ كبير على عمان غير أنه لم يكن نفوذا مطلقا ، وبالتالى كان فى نظام الحماية البريطانية فى الخليج بعض الثغرات من وجهة النظر البريطانية ويرجع السبب فى ذلك الى أن عمان من الناحية القانونية تعتبر دولة مستقلة فى شؤونها الخارجية •

نضوج الحكم غير المباشر فى عمان سنة ١٨٧٢ ـــ ١٨٩٢ :

تعتبر المعاهدات المعقودة فى فترة ١٨٨٧ ـــ ١٨٩٢ تتويجا للجهود التى بذلها المقيم البريطانى ادوارد روس خلال عمله فى الخليج • وكان الغرض من ابرامها هو اضفاء الصبغة القانونية على السيطرة البريطانية فى دول الخليج • وعلى أى حال فهذه العلاقات تتضمن الأسس التى يمكن لبريطانيا أن توجه وأن تشرف على الشؤون الداخلية لامارات الخليج ، وهذا يشكل ما كان يسمى « بالحكم غير المباشر » الذى بدىء فى تطبيقه فى العشرينات من القرن التاسع عشر ، ثم أدخلت عليه بعض التعديلات فى الستينات من القرن التاسع عشر • كان الحكم غير المباشر بمفهومه السائد فى منطقة الخليج يخول بريطانيا جانبا كبيرا من النفوذ فى تقرير الشؤون الداخلية للامارات ، بينما يجنب البريطانيين متاعب وتكاليف النفوذ المباشر • فالنفوذ غير المباشر يعتمد على مجموعة من المعاهدات والعلاقات الشخصية والوثائق والعادات • وكان النفوذ غير المباشر على غرار الدستور البريطانى غير المكتوب ، ويستغرق تطوره زمنا طويلا ، انعكاسا لآراء وعصبيات الاداريين البريطانيين المسؤولين عن تطبيقه من ناحية ، والعرب الذين كان يعنيهم هذا النفوذ من ناحية أخرى [٩٠] • وتعتبر عمان نموذجا « للنفوذ غير المباشر » الذى بدىء

---

(٩٠) يرى بعض المعلقين ممن يتشبثون بموضوع الشرعية ، ان دول الخليج لا تعتبر محميات ، لان البريطانيين لا يمارسون أى سلطة على السياسات الداخلية للمنطقة ومن الطريف ان نواب الهنـد على اختلافهم كانوا يؤكدون بأن امارات الخليج بما فيها مسقط ، كانت فى الواقع ، وبالرغم من وجود نص صريح بذلك فى المعاهدات ، محميات بريطانية .

تنفيذه على يد المقيم البريطاني ادوارد روس . أما فى الفترة الواقعة بين سنة ١٨٧١ وسنة ١٨٩١ فقد كان النفوذ البريطاني على وجه العموم يعكس حاجة السلطان الى تأييد البريطانيين له ، وحاجة الانجليز الى تعاون السلطان معهم لتثبيت دعائم وجودهم فى المنطقة .

وقد ظهر هذا الاتجاه بشكل أوضح فى عهد السلطان تركى بن سعيد (١٨٧١ — ١٨٨٨) ولعل من الأسباب التى شجعت البريطانيين على تأييد تركى أنه كان ، رغم أخطائه . مخلصا فى تنفيذه للاتفاقيات وفى مساندته للسياسة البريطانية فى المنطقة . كما كان هذا التأييد فى نظر البريطانيين ثمنا رخيصا يدفعونه لمنع نشوب ثورات واضطرابات تهدد المصالح البريطانية فى منطقة كان البريطانيون يحرصون على استتباب السلم فيها لأسباب استراتيجية ومن أجل حماية النشاط التجارى للهنود المقيمين فيهـا [٩١] . ويعتبر توقيع السلطان تركى على معاهدة حظر تجارة الرقيق المعقودة فى سنة ١٨٧٣ أبلغ دليل على رغبة السلطان المذكور فى تأييد البريطانيين لحكمه مقابل التضحية بشعبيته . ولهذا كان تركى طوال مدة حكمه هدفا لسـخط الجماعات المناوئة لحكمه . فقد تعرضت مسقط لثلاث هجمات من جانب قوات الاباضيين المحافظين وذلك فى سنة ١٨٧٤ وسنة ١٨٧٧ وسنة ١٨٨٣ . وفى جميع هذه الاعتداءات وقف الانجليز الى جانب السلطان . وقدموا اليه المساعدة العسكرية ، كما وجهوا بالنيابة عنه انذارات الى المتمردين . وليس من المعقول أن يتخلى البريطانيون عن أداة طيعة فى أيديهم فى مقابل مصالح مجهولة . ومما لاشك فيه أن حكم تركى كان سينهار لولا التأييد الدبلوماسى ، والمالى والعسكرى الذى قدمته اليه بريطانيا [٩٢] . كما أن خصوم تركى كانوا يدركون تماما أن التأييد البريطانى له هو عامل

---

(٩١) محاضر وزارة شؤون الهند ١٨٧٤/١٢/١٧ وخطاب رقم ٣٦ — ٩ مؤرخ ١٨٨٥/١/٩ من روس الى كمبرلى .
(٩٢) التقرير الادارى ١٨٧٩ — ١٨٨٠ ص ١٣٣ .

حاسم فى المحافظة على عرشه . ولقد حاول المحافظون كثيرا قبل شن هجومهم اقناع الانجليز باتخاذ موقف الحياد من النزاع . ولكن يبدو أن المحافظين العمانيين كانوا يجهلون الأسباب التى كانت تحمل البريطانيين على تأييد السلطان ، فكانوا يرون فيه تدخلا فى شؤون عمان ليس له ما يبرره . وعندما قامت وحدة بحرية مسلحة تابعة للانجليز بصد هجوم شنه العمانيون على مسقط فى سنة ١٨٧٧ ، تلقى المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط خطابا من ابراهيم بن قيس شقيق الامام ، وأحد الزعماء العمانيين البارزين يقول له فيه : « لقد تدخلتم فى حرب العرب بين الحاكم ورعاياه ، وانكم أشعلتم حربا بغير وجه حق . وهذا أمر يخالف جميع القواعد والقوانين ، وما كنا ننتظره منكم . فاذا كنتم تعتقدون أن جيشكم قوى ، ودولتكم جبارة ، وشعبكم قوى ، فان الله أقوى وأعظم . وعليه نعتمد وبه نستعين . ونحن لا نسعى لغير صداقتكم فلا تعادونا بغير سبب ... » (٩٣) .

أما البريطانيون فانهم لم يفهموا الأسباب التى كانت تدفع العمانيين الى مناصبة تركى العداء ، على الرغم من أن زعماء الاباضيين قد بلغوا الانجليز أن عداءهم للسلطان مبنى على مخالفة المذكور لتعاليم الدين . ولعدم استقامته (أى بسبب اعتداله ورفضه التزمت فى المسائل الدينية) (٩٤) .

أما الانجليز فكانوا يعتبرون الاضطرابات الدينية فى عمان نوعا من « التمرد المسلح » ضد السلطان أو بالأحرى « مرضا مزمنا » يعود الى حدة مزاج الفرد العربى (٩٥) .

---

(٩٣) خطاب مؤرخ ١٨ يناير سنة ١٨٧٧ من ابراهيم بن قيس الى روبرتسون .
(٩٤) خطاب مؤرخ ٦ يونيو ١٨٧٤ من حمد بن أحمد الى مايلز . أيضا كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥٠٥ — ٥٠٦ .
(٩٥) التقريرات الادارية ١٨٧٤ — ١٩٠٤ .

غير أن المساعدة البريطانية لتركى لم تكن تقتصر على التأييد العسكرى وحسب . والى جانب ذلك كانت الحكومة البريطانية تدفع التعويض السنوى عن طريق خزينة الهند . وقد استمر دفع هذا التعويض بدون توقف طوال حكم تركى بن سعيد ، وكان يدفع اليه مقدما فى بعض المناسبات (٩٦) . أما السلطان فكان يوزع هذا المبلغ على الزعماء العمانيين ذوى النفوذ بصورة مرتبات أو مكافآت ، أو رشوات . وبالتالى كان هذا المال يتسرب الى جيوب الكثيرين من الأفراد ، وكان له تأثير على مواقفهم خلال الأزمات التى كانت تنشأ بين وقت وآخر . فاذا لم نقل بأن المال كان الحاكم فى عمـان فقـد كان عنصرا هاما فى الحكم .

كذلك ساعد الانجليز تركى بن سعيد على التخلص من منافسيه على الحكم من أفراد أسرته . كانت هذه الخطوات تثير المشاكل للبريطانيين . ففى سنة ١٨٧٤ خصص الانجليز معاش تقاعد للسلطان السابق سالم لقاء تنازله عن مطالبه فى الحكم والاقامة فى الهند . وعندما حاول سالم مغادرة الهند والعودة الى عمان اعتقله البوليس البريطـانى وأودعوه السـجن وأقاموا حراسة مشـددة عليه . وذلك عقابا له على تحـديه للسلطات البريطانية . كما أنتهت حياة سالم بن ثوينى نهاية غير سعيدة فى منفـاه بالهند سنة ١٨٧٦ ، ومن ناحية أخرى حاول اثنان من أبناء عمومة تركى هما حمد ومحمد ابنا ثوينى القيام بثورة ضد السلطان ، غير أن صموئيل مايلز ، المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط تمكن من القضاء على الثورة وهى فى المهد ، اذ ما أن علم مايلز بأمر الثورة التى يعد لها الاخوان حتى بادر الى توجيه تحذير لهما . قال فيه بأن حكومته سوف تنظر الى أى محاولة يقومان بها ضد النظام نظرة خطيرة . وكانت نتيجة ذلك أن تصالح الاخوان مع الحاكم (٩٧) . غير ان أخطر منافس عائلى ظهر لتركى هو عبد العزيز

---

(٩٦) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥١٢ — ٥١٩ .

(٩٧) رسالة رقم ١٠١٩ — ١١٠٠ بتاريخ ١٨٧٤/٩/٣ من روس الى سالسبورى .

ابن سعيد ، الأخ غير الشقيق للسلطان • ولم تنجح المحاولات البريطانية للتوفيق بين الأخوين الا مؤقتا ولم يرضخ عبد العزيز للانجليز الا بعد وفاة أخيه تركى ، حيث وافق على الاقامة فى الهند لقاء مرتب شهرى وبذلك تخلص السلطان فيصل ، خليفة تركى من أخطر منافس له على الحكم •

كان البريطانيون يتدخلون باستمرار فى الخلافات التى تنشب بين السلاطين وشيوخ القبائل فى عمان • وكان تدخلهم هذا يأخذ شكل الوساطة • ولما كان النفوذ البريطانى فى الخليج يعتمد فى النهاية على قوة الأسطول البحرى ، فقد كانت ثمة حدود للتدخل البريطانى لا يمكن تجاوزها للدفاع عن الوجود البريطانى بشكل مباشر • ويعتبر ما حدث سنة ١٨٧٣ تأكيدا لهذا الرأى فقد تلقى المقيم البريطانى روس تعليمات من حكومة الهند جاء فيها : « نخولك الصلاحيات اللازمة لمساعدة تركى مساعدة فعلية والى المدى الذى يمكن أن يصل اليه مرمى مدافع السفن الحربية البريطانية فى المنطقة ، على ألا تقوم بأى عمليات عسكرية على البر » (٩٨) • وقد أبرقت هذه التعليمات الى المقيم روس أثر نزاع نشب بين سلطان مسقط وقبيلة آل سعد على ساحل الباطنة ، وبعد أن فشلت المساعى السلمية لحل النزاع • غير أن هذا الحادث وحوادث أخرى مماثلة قد أقنعت العمانيين بأن لا فائدة من القيام بأى ثورة ضد السلطان ، طالما أن البريطانيين يؤيدونه ويشتركون معه فى الدفاع •

وعلى أى حال ، فقد كانت القبائل العمانية فى داخلية البلاد أقل انقيادا للضغوط والتهديدات البريطانية من تلك التى كانت تقيم على الساحل ، غير أن السلطان والانجليز قد استخدموا كل ما لديهم من الوسائل غير المباشرة للضغط على قبائل الداخلية • ومن هذه الوسائل فرض ضريبة تأديبية

---

(٩٨) برقية رقم ٢٨ — ب بتاريخ ٢٠ يناير سنة ١٨٧٤ من حكومة الهند الى روس •

على الصادرات الأجنبية الى عمان وفى بعض الحالات على المستوردات أيضا تدفعها كل قبيلة عمانية تناهض السلطان أو حلفاءه الانجليز • كما كان تعويض زنجبار وسيلة أخرى من الوسائل غير المباشرة لشراء زعماء فى الداخـل •

وقد تحددت العلاقات بين الحكومة البريطانية والسلطان تركى بشكل أوضح فى سنة ١٨٨٨ عندما أعلن البريطانيون ضمانهم لاستقلال مسقط وتعهـدوا فيه بتأييد تركى ضـد أى اعتـداء يقـع عليه من جانب العمانيين ••• [٩٩] « غير أن هذا الضمان كان مشروطا من جانب الانجليز بحيث يلتزم السلطان باتباع السياسة التى يرضى عنها الانجليز فى ادارة شؤون مملكته » • وقد صدر هذا الاعلان استنادا الى المقترحات التى تقدم بها المقيم روس فى سنة ١٨٨٥ • الذى كان يعتقد بأن هجمات العمانيين على مسقط لابد أن تتوقف متى فهم العمانيون بأن الانجليز سوف يتصدون لهم • وقد ظن السر ديوراند ، وزير العلاقات الخارجية فى حكومة الهند ، وكان يمثل سياسة التحفظ والاعتدال بالنسبة للوجود البريطانى فى الخليج ، ان مثل هذا الضمان سيكون بمثابة « توسيع لنطاق المسؤولية » تجاه حاكم يواجه كثيرا من الصعوبات فى الاحتفاظ بالسلطة • غير أن المقيم روس رد على هذا الافتراض ، بأن التعهد لا يلزم الحكومة البريطانية بأى مسؤوليات عدا المسؤوليات التى تتحملها بالفعل نحو تأييد السلطان تركى ، ولكنه سيؤمن الاستقرار للمنطقة • وجاء فى رده أيضا بأن السلطان تركى كان ولايزال من المؤيدين للحكومة البريطانية ، وبأن التعاون الذى أظهره السلطان المذكور فى موضوع الرقيق قد قلل من شعبيته فى البلاد كما قوى من مركز خصومه السياسيين • وان انهيار حكم هذا السلطان سيشكل ضربة على المصالح البريطانية • وقد أيد الكولونيل مايلز آراء روس فى هذا الشأن •

---

(٩٩) خطاب مؤرخ ١٨٨٦/٢/٩ وقد ورد كمرفق ١ لخطاب رقم ١٤٢ مؤرخ ١٨٨٦/٨/٢٠ من دفرين الى كروس •

وصرح بأن وجود قارب بريطانى مسلح واحد فى مياه مسقط كفيل بالحفاظ على عرش السلطان . وبأن الضمان الذى أعطى للسلطان كان تقديرا لما أبداه من تعاون مع البريطانيين . ويصور هذا الكلام مدى النفوذ الذى كان يمارسه روس فى رسم السياسة البريطانية فى الخليج ، وعلى الرغم من الشكوك التى كانت تراود كلا من حكومتى لندن وكلكتا فى موقف ادوارد روس ، فقد كتب لمقترحاته النجاح فى نهاية الأمر (١٠٠) . وعلى أى حال فقد استمرت حكومة الهند فى ترديد أكذوبة « عدم التدخل فى الصراعات العائلية والشؤون الداخلية » باعتبارها السياسة الرسمية لبريطانيا فى عمان وبأن ضمان سنة ١٨٨٦ يجب أن يظل اجراء استثنائيا تعهدت به الحكومة البريطانية مقابل خدمات خاصة قدمها السلطان الى بريطانيا . وهكذا فى يوم ١٣ يوليو سنة ١٨٨٦ قام المعتمد البريطانى فى مسقط بتبليغ السلطان تركى بالضمان البريطانى . وذلك فى حفل رسمى أقيم بهذه المناسبة وقلد فيه السلطان وسام الفارس الأعظم لنجمة الهند ، وبهذا الاجراء استكملت بريطانيا سيطرتها على عمان (١٠١) .

فى مقابل المساعدة والحماية البريطانية تعهد تركى بالتعاون مع البريطانيين فى تنفيذ مخططاتهم السياسية فى عمان . وكان البريطانيون يفضلون بأن تبقى عمان منطقة محايدة بحيث لا تشكل أى خطر على الهند أو المواصلات الامبريالية . لقد سبق أن تناولنا موضوع تعاون السلطان تركى مع الانجليز فى تحريم الرقيق . كما تعهد السلطان للمقيم روس بأن لا يتغيب لفترات طويلة عن البلاد لحاجة البريطانيين الى وجوده . غير أن السلطان كان يميل الى التقليل من أهميته بالنسبة الى البريطانيين ،

---

(١٠٠) خطاب مؤرخ ١٨٨٥/٨/١٢ وقد ورد كمرفق رقم ٣ لخطاب رقم ٤ مؤرخ ١٨٨٥/٩/١٦ من ديوراند الى روس وخطاب مؤرخ ١٨٨٥/١٠/٧ من روس الى ديوراند وقد ورد كمرفق رقم ٥ لخطاب مؤرخ ١٨٨٦/٢/٩ من ديوراند الى روس .

(١٠١) « من دوفرين الى كروس ٢٠ اغسطس ١٨٨٦ رقم ١٤٤ فايسروى » سجلات الهند ٤ مجلد ٤٧ .

كما كان يصاب بنوبات ياس ، حاول خلالها التنازل عن السلطه ، لو لم يقنعه روس بالعدول عن هذه الفكرة [١٠٢] . اما فيما يتعلق بالتفاصيل الادارية للحكم فلم يكن البريطانيون يتدخلون فيها ، طالما أن السلطان يحافظ على السلم فى المنطقة الساحيه من البلاد .

ولقد اعتاد تركى مجاملة البريطانيين كثيرا . وكان هؤلاء يردون عليه المجاملة بالمثل وقد بلغ من مجاملته للانجليز أنه أصدر أوامره فى أحد أعياد الميلاد باطلاق ٢١ طلقة مدفع تحية لهذه المناسبة . وقد تلقى على هذه اللفتة شكر المقيم البريطانى فى الخليج . غير أن هذا التصرف قد أثر على شعبيته بين الأوساط العمانية المحافظة كما أنه أجاز للمعتمد البريطانى أن يتنقل فى البلاد كيف شاء . وأتاح هذا القرار لمايلز أن يقوم بزيارة عمان الداخلية فى سنة ١٨٧٥ ، وسنة ١٨٧٦ وسنة ١٨٨٤ وسنة ١٨٨٥ ثم فى سنة ١٨٨٦ .

غير ان أصعب مشكلة واجهها السلطان تركى هى مشكلة توفير الحماية للتجار الهنود المقيمين فى عمان . ففى الحالات التى كانت تتعذر هذه الحماية ويتعرض بعض هؤلاء التجار لاعتداءات وخسائر مادية ، كان السلطان يقوم بدفع التعويضات ، اذا تعذر القبض على الجناة . ولقد اضطر تركى أكثر من مرة الى ابلاغ الانجليز بعدم استطاعته توفير الحماية للرعايا الهنود المقيمين فى بعض المناطق الداخلية . وطالب بأن يحصر هؤلاء نشاطهم ضمن المناطق الخاضعة لسلطته وبأن لا يتعدوها . ورغم هذا التحذير فقد كان التجار الهنود يغامرون بالتوغل داخل المناطق الخطرة . واذ حدث أن هاجمهم أحد أو اعتدى عليهم بالسرقة أو النهب ، كان المثلون البريطانيون فى مسقط يقفون الى جانبهم . وفى الحالات التى يتعذر على السلطان اتخاذ أى اجراء ضد الجناة ، فان السلطات البريطانية هى التى تتولى ردع الجناة وذلك عن طريق استخدام القوة المسلحة .

---

(١٠٢) رسالة مؤرخة ٨ يناير سنة ١٨٨٣ من جرانت الى تركى بن سعيد . سجلات الهند ٤ مجلد ٤٧ .

وبذلك تتمكن من تحصيل الغرامة المفروضة عليهم [١٠٣] • وكان من المتفق عليه أن التجار الهنود يبالغون فى تقدير خسائرهم ظنا منهم أن السلطات البريطانية سوف تؤيدهم حتى فى هذه الأحوال [١٠٤] •

وعلى أى حال فان مسألة الامتيازات الاقليمية البريطانية فى عمان على أيام تركى قد وصلت الى مرحلة حرجة فقد أبلغ تركى البريطانيين ان عددا كبيرا من التجار الهنود المشمولين بالحماية البريطانية كانوا يتهربون من دفع الضرائب المحلية المستحقة عليهم دون حق • وقد أشار تركى بصفة خاصة الى الهنود المسلمين (الخوجا) ، وقال بأنه يعتبر جميع أفراد هذه الجالية رعايا عمانيين ، وبأنه لم يوافق فى سنة ١٨٧٣ وسنة ١٨٧٦ على ادراجهم ضمن الهنود المشمولين بالحماية البريطانية الا قسرا • وفى عام ١٨٧٦ خول المعتمد البريطانى فى مسقط صلاحية فرض الحماية على رعايا الولايات الهندية المشمولة بالحماية البريطانية ومنذ أوائل سنة ١٨٧١ بدأت الوكالة السياسية البريطانية فى مسقط بتسجيل أسماء الرعايا البريطانيين المحميين فى عمان ، غير أن هذه السجلات لم تكن تخلو من المتناقضات حتى بعد مضى عشرين عاما على بدء هذه الاجراءات • وكانت معظم القضايا التى تعرض على محكمة القنصل البريطانى فى مسقط هى قضايا بين عمانيين وهنود وقبل سنة ١٨٧٨ كان المقيم البريطانى يمارس صلاحيات قنصلية مطلقة فى الخليج دون أن يخوله القانون البريطانى تلك الصلاحيات • ولم يخول القنصل البريطانى سلطات قنصلية مطلقة قبل عام ١٨٧٨ ، كما لم يقر البرلمان قانون السلطات الخارجية والصلاحيات القانونية للمقيم قبل سنة ١٨٩٠ • أما القوانين السارية على الرعايا البريطانيين فى الخليج فهى قوانين حكومة الهند البريطانية ، كما كانت المنطقة من الوجهة القضائية خاضعة للمحكمة العليا فى بومبى • وكان استئناف الأحكام القنصلية فى

---

(١٠٣) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥١٢ — ٥١٩ .
(١٠٤) رسالة رقم ١١ — ٤٣ مؤرخة ١٨٧٠/٤/٢٣ .

المنطقة ترفع الى تلك المحكمة . أما من الناحية الفعلية ، فقد كانت هــذه المحكمة تمارس سلطة قانونية على الخليج من منطق الأمر الواقع [١٠٥] .

دور بريطانيا فى عمــان والخليج : ١٨٩٢ : يوم غادر ادوارد روس منصبه كمقيم بريطانى فى الخليج سنة ١٨٩٢ كان قد ترك وراءه جهــازا للحكم غير المباشر والسيطرة يعمل فى دقة فائقة . لقد وضع روس نظــاما فعالا للسيطرة وفى نفس الوقت لا يكلف بريطانيا نفقات كثيرة لأنه يقوم على أساس السيطرة غير المباشرة [١٠٦] . ويمكن القول أن الامبراطورية قد بلغت أوج قوتها فى آسيا وأفريقيا على أكتاف حكام من طراز سلطان مسقط وعمان . ان ما كانت تهدف اليه بريطانيا فى معظم المنــاطق التى سيطرت عليها هو استقرار الأمن والسلام فى ربوعها لأسباب استراتيجية وتجارية . وقد استطاعت بريطانيا تحقيق هذا الهدف فى أكثر الحــالات بأقل جهد وتكاليف ممكنة ، وذلك عن طريق تأييدها لبعض الحكام المحليين ، وربطهم بعجلة المساعدات العسكرية والمالية ربطا لا فكاك لهم منه . وعندما لم يكن يوجد مثل هذا الزعيم فان السياسة البريطانية كانت تخلقه من العدم . ان كل ما يقع تحت سلطان نفوذ البريطانيين ، وكل ما يمكن أن يتصوروه كان يتحول الى دول [١٠٧] . ومن هنا كان البريطانيون يتجاهلون بعض مناطق عمان وبعض مجموعاتها القبلية الهامة ، لا لشىء الا لانها لا تقع تحت طائلة النفوذ الفعلى للسلطان فكل من كان يتحدى السلطان يعتبر فى نظرهم « متمردا » أو « ساخطا » .

ان التدخل البريطانى المقنع لم يكن يكشف عن وجهه الا فى بعض

---

(١٠٥) المصدر نفسه خطاب رقم ١٥٣ — ١٠ بتــاريخ ١٨٧٥/٢/٦ من روس الى اللورد سالسبورى .

(١٠٦) من هاملتن الى الجين ٤ ديسمبر ١٨٩٦ رقم ٥٠ أمانة سر الهند — ملف رقم ٦ .

(١٠٧) « الادارة الاستعمارية » تأليف جى . أ . بارنز مجلد ٢ ج ٢ صفحة ١٣٣ — ١٤٨ سنة ١٩٦٠ .

الحالات ، كموضوع الرقيق الذى تعارضت فيه وجهة النظر البريطانية مع تقاليد سكان البلاد ، أو فيما يتعلق بموضوع الدفاع عن المصالح الامبريالية البريطانية ، ففى هذه الحالة لم يكن البريطانيون يترددون فى اللجوء الى القوة لفرض سياستهم . ان معظم البريطانيين الذين لم يكونوا يحسون بوجودهم فى المنطقة ، كانوا يشيرون الى ان القيم الثقافيـــة التى كانوا يدافعون عنها فى عمان أخـــذت تتعرض لموجة من الأفـــكار والمؤســـسات والتكنولوجيا الحديثة . والواقع أن الانجليز كانوا يزعمون فى كل مناسبة بأن وجودهم فى الخليج يقوم على أساس عدم التدخل وعدم التورط فى التقاليد القومية لأهل المنطقة . وكان ليويس بلى كأحد المدركين للمؤثرات الحضارية ودعاتها الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يدرك نوع التغييرات الثورية التى يمكن أن تأخذ مجراها وراء ستار « عدم التدخل » .

لقد كان الحـــكم غير المباشر فى عمان يعتمد فى أكثره على مجموعة من السوابق . ولقد نجح هذا الحكم فى تحقيق الهدوء لمنطقة كانت تعتبر من أكثر المناطق تعرضا للثورات والقلاقل السياسية العنيفة . ولقد ظهـــر للبريطانيين بأن الحكم غير المباشر هو أضمن الأساليب لحماية المصـــالح الامبريالية الواسعة .

لقد كان الحكم غير المباشر فى عمان يعتمد فى أكثره على مجموعة من والسيادة ، على أساس أن البريطانيين هم مرجع السلطة النهائى . ورغم أن المعاهدات التى عقدتها بريطانيا لا تنص على هذا الحق نصا صريحا ، الا انه حقيقة معترف بها من الجميع . كما أن مبدأ الخضوع لسيادة الدولة الكبرى كان يتفاوت بين منطقة وأخرى فلقد كانت التزامات عمان للبريطانيين أقل من التزامات البحرين ، كما كانت التزامات البحرين أقل بدورها من التزامات الولايات الهندية ، أما الشؤون الخارجية لدول المنطقة فقد كانت خاضعة للسيطرة البريطانية بغير استثناء ، وكانت الحكومة البريطانيـــة تمارس هذه الســـلطة على الرغم من عـــدم وجـــود نص صريح بها فى المعاهدات . واذا كانت السياسة الرسمية للحكومة البريطانية فى الخليج

تقوم على أساس « عدم التدخل » فى الشؤون الداخلية لدوله ، فقـــد كانت الظروف الفعلية وسيلة للتأثير على مجريات الأمور فى المنطقة بشكل حاسم . والأمراء العرب الذين كانوا يتعاونون مع الحكم غير المباشر ، كانوا يعيشون فى مأمن من الغزو والثورات ، وغيرها من الأخطار فيما عدا الاغتيالات . ورغم هذا فقد كان البريطانيون يشكون دائما من ضـعف سلطة الأمراء والزعماء الخاضعين لهم . وكأنهم يجهلون أن ضعف السلطة عند هؤلاء الحكام سببها اعتمادهم على القوة البريطانية من ناحيـــة ، أو على الأقل انتهاجهم سياسة يرضى عنها البريطانيون بينمـــا ترفضـــها الشعوب . وبالتالى فقد كان هؤلاء الحكام فى موقف لا يحسدون عليه من حيث أنهم كانوا مضطرين الى ارضاء الانجليز ، وارضاء شعوبهم فى نفس الوقت . وهى مهمة تكاد أن تكون مستحيلة . ومن ناحية أخرى فقد كانت الأوضاع الاقتصادية فى المنطقة تزيد من حراجة موقف الحكام . فضغط رجال الحاشية والمحاسيب على الحكام لانتزاع أكبر قـــدر من المرتبـــات والمكافآت ، كان يؤدى الى افلاس الخزينة ، كمـــا كانت القروض التى يحصل عليها الحكام تزيد الموقف المـــالى ســـوءا . وكان بعض الحكام الضالعين مع بريطانيا يقفون موقف اللامبالاة من تردى الأحوال الاقتصادية فى بلادهم ، لانه لم يكن من مصلحة البريطانيين أن يوجد حكم حازم قوى فى المنطقـــة .

وعلى هذا القياس فان الوجود البريطانى فى عمان والخليج لم يكن وجودا سافرا أو واضحا ، وعلى وجه الخصوص فيما يتصـــل بعـــلاقة بريطانيا ، باعتبارها الدولة ذات السيادة العليا ، وبالحكام المحليين . وعلى أية حال فمن المهم أن نتذكر بأن الوجود البريطانى فى سنة ١٨٩٢ لم يكن قائما على أساس المعاهدات الرسمية وحدها . وانما على أساس مجموعة غير ثابتة من الاجراءات والتقاليد التى لا تشير اليها المعـــاهدات اشارة رسمية ، ولكنها تعتبر ملزمة لحكام المنطقة . وبالتالى فان جانبا كبيرا من

هذه التقاليد والاجراءات غير الرسمية ، كتدخل المقيم فى الخلافات التى تنشب على ولاية العرش بين دول الخليج ، أو فى المنازعات التى تنشأ بين حكامه ، تعتبر فى حد ذاتها اتفاقات قانونية معترفا بها • وفضلا عن ذلك فان التغييرات التى طرأت على أوضاع الخليج الاقتصادية والاجتماعيـــة قبل سنة ١٨٦٢ كنتيجة لظهور الأساليب العصرية الى المنطقة قد أسهمت بدورها فى الحد من استقلال الحكام المحليين ، وازدياد اعتمـــادهم على البريطانيين • ان دخول المحركات البخارية ، وافتقاد المنطقة الى ركائز مالية مستقلة وسيطرة المؤسسات الهندية والبريطانية على الحياة التجارية للمنطقة ، كل هذه العوامل قد عززت ولو بشكل غير مباشر من قبضة النفوذ البريطانى على مقدرات الخليج • وما ان حل عام ١٨٩٢ حتى كان أمراء الخليج قد وجدوا أنفسهم مرغمين على التصرف ضمن أطر من القوانين المتغيرة التى تحد من حريتهم • وبالتالى فقـــد كانت المهمة الأســـاسية والمستمرة للمقيمين البريطانيين هى التأكد من أن الحكام المحليين ، ورعاياهم ومنافسيهم السياسيين يدركون المضـــمون المتغير للقواعـــد والقوانين التى ينبغى أن يتقيدوا بها ازاء كل حادثة • أما الحكام أنفسهم فلم يكونوا أكثر من همزة وصل رئيسية فى عملية نقل هذه القواعد والقوانين الى شعوبهم •

خلال الفترة الواقعة بين سنة ١٨٩٢ والعشرينات من القرن التاسع عشر وصلت السيطرة البريطانية غير المباشرة فى الخليج ذروتها ، الا أنها أخذت تضعف فيما بعد ، على الرغم من أن مظاهر هامة من هذه السيطرة ما تزال ماثلة حتى اليوم • فلقد بدأت ســـلسلة من التنازلات من جانب البريطانيين تجاه حكام البلاد ، كما بدأت السلطة البريطانية تتقلص كنتيجة لتلاشى الاحتكار البريطانى على المؤسسات الحديثة فى المنطقة من ناحيـــة ولنفاد صبر أهل البلاد من ناحية أخرى ، مما أدى الى تخفيف كبـــير فى القيود المفروضة ، كما أن التغييرات التى تمخضت عنها الحرب العالميـــة الثانية فى وضع الامبراطورية البريطانية ، الى جانب الثراء السريع لبعض دول الخليج قد مكن عددا كبيرا من حكامه من المطالبة بالغاء الالتزامات

الرسمية التى تسندها المعاهدات • كذلك برهن الحكم البريطانى غير المباشر فى القرن العشرين على أنه أسلوب ادارى محدود ، لا يصلح لشىء عـدا المحافظة على الأوضاع على حالتها • ولهذا لم يعد هذا النظام يستطيع الاستمرار أو الصمود فى وجه التغيير • وبالتالى أصبح هدفا لهجوم من الطرفين • غير أن السر ادوارد روس كان قد وصل بنظام الحكم غـير المباشر فى سنة ١٨٩٢ الى أوج قوته •

الفصل السادس

الدفاع عن السيطرة البريطانية في الخليج

١٨٩٢ - ١٩٠٣

يوم غادر السر ادوارد روس الخليج سنة ١٨٩٢ كان الوجود البريطاني فيه قد استتب له الأمر . فلقد كانت سيادة بريطانيا عليه سيادة تعتمد على السيطرة المطلقة تقريبا على الشؤون الخارجية للامارات العربيه فيه . ذلك الى جانب ما كانت تمارسه من نفوذ قوى على الأوضاع السياسية الداخلية ، والنفوذ الشامل على اقتصاد المنطقة ، وما يشبه الاحتكار على وسائط المواصلات الحديثة . كما كانت القوات البريطانية والاداريون البريطانيون موزعين على سائر مدن المنطقة . ولم تكن هناك صورة محددة للمصالح والاهتمامات البريطانية فى الخليج فى ذهن واضعى السياسة الكبار فى كلكتا وعلى الأخص فى لندن . فقد كانت السيطرة البريطانية بالنسبة الى كثيرين من هؤلاء شيئا مقبولا ولكنهم لم يكونوا يعتبرونه أمرا حيويا بالمعنى المطلق لهذه الكلمة . وفى الواقع كان هناك احتمال دائم أن ينهار البناء المتين الذى قام على جهود عدد كبير من المقيمين البريطانيين . اذا ما عهد به الى عناصر دون المستوى المطلوب . وعلى الأخص ازاء الموقف السلبى الذى كانت تقفه كل من حكومة لندن وكلكتا من المنطقة . كما كان من المحتمل أيضا فى حالة حدوث تغيير فى طبيعة العلاقات بين الدول الكبرى ، أو فيما اذا تعرض أمن الهند الى تهديد خطير من خلال مناطق الحدود العازلة ، أن تضطر حكومة الهند البريطانية والحكومة البريطانية نفسها الى تقديم بعض التنازلات من سيادتها فى الخليج ، مقابل تسويات لمشاكل أخرى أو مشاكل أشد الحاحا .

وخلال التسعينات من القرن التاسع عشر بدأ كلا الاحتمالين على الوجود البريطانى فى الخليج تتضح معالمه . فقد أسندت شؤون الخليج

الى « مجموعة جديدة » من المسؤولين أقل كفاءة واستعدادا ممن سبقوهم ، كما أصبح الخليج محور أطماع الامبرياليات الفرنسية والروسية ، والألمانية . وقد بدا لفترة من الوقت أن السيادة البريطانية فى المنطقة ليست موضع شك . ولكن ما أن حل عام ١٩٠٣ حتى شعر المسؤولون البريطانيون فى لندن وكلكتا بالحاجة الى تدعيم الجهاز الادارى الذى تركه المقيم روس ، وتأكيد السيادة البريطانية بشكل قاطع . وتمشيا مع هذه الرغبة أخذ الساسة البريطانيون يظهرون اهتماما ملحوظا بمنطقة الخليج ، كما أعلنت حكومة لندن عن عزمها على أن تأخذ بنفسها مسؤولية تقرير المصالح البريطانية فى الخليج والاشراف عليها .

المقيمون السياسيون الضعاف — ١٨٩٢ — ١٨٩٩

على الرغم من أن التنظيم الادارى الذى وضعه روس للسيطرة على شؤون الخليج كان على درجة عالية من الكفاءة ، فقد كان لابد من تدريب وصقل المنتدبين البريطانيين لشغل هذا الجهاز ، وذلك تحقيقا لأفضل النتائج . وفى الفترة الواقعة بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٩٢ تولى شؤون هذا الجهاز عدد من المقيمين ، والمقيمين المساعدين ، ممن يتمتعون بالكفاءة والموهبة والنشاط وقد أدوا مهمتهم على الوجه الأكمل . وعند احالة روس على المعاش تدنى مستوى الكفاءة بين المسؤولين البريطانيين الى أقصى حد . ولو كانت فترة التسعينات من القرن التاسع عشر فترة عادية ، لهان الأمر ، غير أنها كانت فترة حافلة بالأزمات الخطيرة التى أخذت تهدد الوجود البريطانى بشكل لم يسبق له مثيل . فلقد كانت هذه الأزمات أكبر من أن يتصدى لها هؤلاء المسؤولون . وبالتالى وجدت حكومتا كلكتا ولندن أن الوضع يتطلب قدرا كبيرا من الاهتمام . وكانت القروض التى تقدمها الحكومة البريطانية الى حكام الخليج ، وعلى رأسهم سلطان مسقط ، من العوامل التى أسهمت فى تعزيز قبضة الامبراطورية البريطانية على المنطقة فى التسعينات . غير أن الخليج لم يشهد فى أعقاب سنة ١٨٩٢

ممثلا بريطانيا فى مستوى بلى وروس ، ومما ساعد على اضعاف موقف المقيم البريطانى فى الخليج خلال التسعينات من القرن هو صراع الدول الكبرى على المنطقة وقد فجر اضطرابات داخلية كثيرة . وبالتالى لم يكن فى وسع أى مسؤول بريطانى أن يصمد فى وجه الخطر المزدوج من غير تأييد حكومته وشدها لأزره . وعلى أى حال فحتى سنة ١٨٩٩ لم تكن حكومة لندن أو كلكتا تقدم الدعم المطلوب للمقيمين البريطانيين الذين تولوا مناصبهم بعد ادوارد روس . والمشاكل التى كانت تجابه المقيمين البريطانيين فى الخليج لم تكن فى نظر تينك الحكومتين مشكلات ملحة أو هامة ، ولهذا كانت حكومة كلكتا تختار ممثليها فى الخليج من مستويات عادية . ولكن فى سنة ١٨٩٩ بدأ مركز بريطانيا فى الخليج ينهار .

فى عام ١٨٩٢ عين اللفتنانت أى . سى . تالبوت مقيما سياسياً لبريطانيا فى الخليج خلفا لادوارد روس ، الا أنه ترك هذا المنصب ليشغل منصب مساعد وزير الشؤون الخارجية فى حكومة كلكتا وخلال سنة ١٨٩٤ تعاقب على شغل منصب المقيم فى الخليج ثلاثة بريطانيين . فقد تولا الكولونيل اف . أى . ويلسون من ١٨٩٤ حتى سنة ١٨٩٧ ، ثم تولاه اللفتنانت كولونيل ام . جى . ميد حتى سنة ١٩٠٠ . وتغيير المقيمين البريطانيين بهذه الصورة يتناقض مع الفترات الطويلة التى شغلها كل من روس (٢٠ سنة) وبلى (١٠ سنوات) . ولم تكن أوضاع المعتمدين السياسيين فى مسقط بأفضل من ذلك . فقد تولى هذا المنصب ما بين سنة ١٨٩٢ وسنة ١٨٩٩ خمسة معتمدين سياسيين كانت أطول مدة هى تلك التى شغلها الماجور جى . هيز سادلر (Hayes Sadler) حيث استمر أكثر من عامين . كما تولاه بالنيابة فى مناسبات أخرى ثلاث امتدت نحو أكثر من عام الدكتور اى . سى . جى . جاياكار (A.S.G. Jayaker) أثناء تغيب المعتمدين فى الاجازات .

هذا التغيير فى أشخاص رجال التمثيل البريطانى فى الخليج خلال

التسعينات من القرن التاسع عشر عكس ظلاله على كفاءة الجهاز الادارى للاشراف البريطانى على الخليج . كما كان النفوذ والخبرة الشخصية التى اكتسبها الممثلون البريطانيون السابقون خلال سنوات طويلة من وجودهم فى المنطقة من مميزات نجاحهم . قبل التسعينات من القرن كان معظم المرشحين لشغل المناصب الهامة فى الخليج يتلقون تدريبا خاصا لفترة طويلة داخل المنطقة نفسها حيث يعينون فى مناصب أقل مسؤولية . وكان لابد لهؤلاء من اجادة اللغة واكتساب الخبرة بالأوضاع المحلية ، قبل اسناد أى منصب مسؤول اليهم . وعلى سبيل المثال أمضى روس نحو تسع سنوات كمسؤول تحت التجربة فى مناصب أقل مستوى قبل تعيينه مقيما بريطانيا فى الخليج [1] .

فى التسعينات من القرن التاسع عشر بدأت العينة الجديدة من المسؤولين البريطانيين تفد تباعا الى الخليج . ولقد قيل عن هذه العينة أن خبرتها الدبلوماسية محدودةبالهند ، وحياة أفرادها موزعة بين الأندية وصفوف الجيش وبحاشية الأمراء الهنود [2] . وبالتالى لم تكن مناصب الخليج ، وعلى الأخص مسقط ، نظرا لقسوة مناخها ، بالمناصب التى تغرى أمثال هؤلاء [3] . وبالاضافة الى ذلك كانت حكومة الهند فى تلك الفترة تعانى من نقص فى الاداريين الأكفاء المدربين على اللغات الشرقية ، ومن لهم معرفة وثيقة بالشعوب التى يسيطرون عليها . ولم يبدأ التفكير بأعداد مثل هؤلاء الأشخاص قبل هذا القرن [4] .

(١) رسالة مؤرخة ١٨٩٣/٩/٢٧ من لانس داون الى كمبرلى وفيها ينتقد طريقة تغيير رجال السلك لحكومة الهند بسرعة مما كان له تأثيره على علاقة بريطانيا بالامراء المحليين .

(٢) نبذة من خطاب الدكتور كانتين من افراد بعثة التبشير الهندية فى مسقط وقد استشهد به . بى . جريفز P. Graves من كتابه « سيرة حياة برسى كوكس » (طبعة لندن ١٩٤١) .

(٣) مجلة كونتمبورارى ريفيو (The Contemporary Review) ص ٨٧٥ بقلم جى . تى . بنت .

(٤) مجلة ايسياتيك ريفيو Asiatic Review مقال بقلم جى . دى ريس تحت عنوان « روسيا والهند » والخليج والحدود الغربية للهند ص ٢٤٧ .

ويختلف موقف المسؤولين البريطانيين الجدد من الخليج ، ومن المسؤوليات التى يتحملونها تجاه السكان العرب الذين يشرفون على أمورهم ، اختلافا كبيرا عمن سبقوهم من عهد روس . فلقد استطاع كل من روس ومايلز كسب صداقة العرب واحترامهم . وكانا متفانيين فى عملهما ، كما يتضح من المؤلفات العديدة التى كتباها عن المنطقه لدرجة انهما تحولا الى عاشقين للخليج . كما كانت معاملتهما لحكام الخليج تتسم بالأدب والاحترام ، وكانا يراعيان تقاليد البلاد وعادات أهلها . أما فى التسعينات من القرن التاسع عشر فلم يكن المقيمون البريطانيون يتحلون بتلك اللباقة والحماسة التى طبعت أعمال من سبقوهم من المسؤولين . ومن الواضح أن العينة الجديدة من الممثلين البريطانيين كانت تشاطر الماجور هيز سادلر ، المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط من سنة ١٨٩٢ الى سنة ١٨٩٦ ، وغير الميال الى الخليج ، تشاطره رأيه فى العرب اذ يقول : « لا يمكن الوثوق بأى عربى » [٥] . وتكشف التقارير التى تتناول هذه الفترة فقدان الانسجام بين البريطانيين والعرب وانهيار روح الثقة المتبادلة بين الفريقين تلك الثقة التى تميز بها عهد المقيم ادوارد روس . وينطبق هذا الوضع أكثر على مسقط ، حيث أخذت العلاقات بين البريطانيين والسيد فيصل تسير من سيىء الى أسوأ وظلت هكذا حتى سنة ١٨٩٨ وسنة ١٨٩٩ ، عندما قام السلطان المذكور بمحاولة لاستبدال الحماية الفرنسية بالحماية البريطانية ومن الواضح أن مستوى هؤلاء الممثلين قد تدهور فى التسعينات ، فما بين عام ١٨٩٢ وسنة ١٨٩٦ كان أغلب الممثلين البريطانيين ، رغم ضعف مستواهم الأخلاقى يتكلمون العربية وملمين بالأوضاع المحلية فى المنطقة . وما بين سنة ١٨٩٦ وسنة ١٨٩٩ وصل مستوى هؤلاء الى الحضيض فاللفتنانت ام . جى . ميد (Lt. M. J. Meade) على الرغم من حسن نيته كان رجلا أخرق . بينما الماجور سى . جى . اف . فاجان . (Major. C. G. F. Fagan) على الرغم من

---

(٥) رسالة رقم ٣٩ مؤرخة ١٨٩٦/٩/٣٠ من الجين الى هاملتون .

مؤهلاته العسكرية التى نالها أثناء خدمته فى الهنـد وصـل بالعـلاقات الانجليزية العمانية الى أدنى مستواها . وبما أن فاجان لم يكن يجيـد العربية ، فقد كان يعتمد على أحـد موظفيه فى ترجمة خطاباته للسلطان . غير أن هذا الموظف كان مغرما بافشاء أسرار الدولة فى المحلات العامة . ولقد تدهورت العلاقة بين فاجان وفيصل تدهورا تاما فى سنة ١٨٩٩ . وكان فاجان يتعامل مع السلطان بطريقة فظة وكان يوجـه اليه الانذارات من وقت الى آخر ، واذا لم يرضخ السلطان هدده باستخدام القوة [٦] . وقد أثار هذا الوضع اهتمام حكومتى لندن وكلكتا فى سـنة ١٨٩٩ وكان معروفا فى هذه الدوائر أن فاجان يفتقر الى « أبجديات الدبلوماسية » كما قال عنه وزير الدولة لشؤون الهند فقد كان رجلا أخرق بكل ما فى الكلمة من معنى [٧] . وفى سنة ١٨٩٩ ، بعد أن مضى خمس سنوات على المحاولات الفرنسية لتقويض الوجود البريطانى فى الخليج ، تقرر ايفاد عناصر أفضل الى الخليج ، رغم أن المنطقة فى رأى الدوائر العليا لم تكن تستحق هذا النوع من الاداريين [٨] . فقد اقتنعت هذه الدوائر من أن المشاكل التى تواجهها بريطانيا فى المنطقة تعود الى عدم كفاءة ممثليها ، وبأن استعادة بريطانيا لمركزها فىالخليج يتوقف على وجود رجال أكفاء يمثلون مصالحها فيه . وهكذا غادر الماجور فاجان مسقط فى شهر ديسمبر سنة ١٨٩٩ ومعه طاقم الادارة البريطانية بأكمله . أما الكولونيل ميد فقد سلم العهدة فى الخليج فى شهر ابريل عام ١٩٠٠ .

---

(٦) رسالة مؤرخة ١٨٩٩/٢/٦ ورسالة مؤرخة ١٨٩٩/٥/١٥ ورسـالة مؤرخة ١٨٩٩/٥/١٨ من هاملتون الى كرزن . وكان اللورد سالسبورى ، رئيس وزراء بريطانيا غير راض عن هؤلاء الممثلين وبالاخص عن الكولونيل ميد .

(٧) رسالة مؤرخة ١٩٠٠/١/٥ من هاملتون الى كرزن . ابتداء من سنة ١٨٩٦ بدأ اللورد هاملتون وزير الدولة لشؤون الهند يعرب عن امتعاضه من نوعية الممثلين البريطانيين فى الخليج . انظر خطاب رقم ٣٨ بتاريخ ١٨٩٦/٩/٩ من هاملتون الى الجين .

(٨) رسالة مؤرخة ١٨٩٩/٢/١٦ من هاملتون الى كرزن .

خلف فاجان فى مسقط الماجور برسى كوكس الذى اشتهر باقامة دولة الانتداب البريطانى على العراق • وبقى كوكس فى مسقط حتى سنة ١٩٠٤ عندما عين مقيما بريطانيا فى الخليج • ولقد حقق كوكس نجاحا كبيرا فى مسقط • وفى أول اجتماع له مع السلطان استطاع أن يمهد الطريق لاقامة علاقات ودية بين عمان وبريطانيا • ويوم انتهت مدة خدمته فى مسقط كانت عمان تدور بالفعل فى فلك الاستعمار البريطانى أكثر من أى وقت مضى [٩]• وبالرغم من أن كوكس لم يكن يتمتع بما كان يتمتع به كل من بلى وروس من استقلال فى عمله ، الا انه لم يكن يقل فى مستواه عن هـــذين الممثلين البريطانيين البارزين • وقد خلف الكولونيل ميد اللفتنانت بى • اى • كمبل الذى بقى فى منصبه من سنة ١٩٠٠ حتى سنة ١٩٠٤ • وعلى الرغم من أن اللفتنانت كمبل قام بواجبه على الوجه الأكمل ، الا أن الظروف لم تؤاته لكى تبرز موهبته ، لأن اللورد كرزن ، نائب الملك فى الهند أصبح يشرف على كل صغيرة وكبيرة من سياسة الخليج •

كان لاهتمام كرزن بالخليج أو بالأحرى تمرسه به موقف على طرفى نقيض من موقف الذين سبقوه • ففى الفترة الواقعة بين سنة ١٨٩٢ وسنة ١٨٩٩ لم تظهر أى من حكومة لندن أو كلتا أى اهتمام جدى بشـــؤون الخليج رغم ازدياد قوى التحدى للنفوذ البريطانى هناك • وفى سنة ١٨٩٢ كتب اللورد كرزن يشكو من أن المسؤولين فى حكومة الهند ولندن لا يقدرون أهمية السيطرة البريطانية على الخليج بالنسبة للدفاع عن الهند [١٠] • فحتى ذلك الوقت كانت ممرات أفغانستان هى النقطة الوحيـــدة المكشوفة فى خط الدفاع عن الامبراطورية فى نظر المسؤولين البريطانيين [١١] • وقد

---

(٩) خطاب مؤرخ ١٩٠٠/١/٥ من هاملتون الى كرزن . ايضا Precis Maskat ص ٨١ ، كذلك يمكن الرجوع الى كتاب « حياة كوكس » ، تاليف جريفز وذلك للاطلاع بصورة أوفى على أعمال كرزن .

(١٠) « فارس والمسألة الفارسية » تاليف جى . كرزن (طبعـــة لنـــدن ١٨٩٢) جزء ٢ ص ٩٨/٣٩٧ .

(١١) « مسألة الشرق الاوسط او بعض مشاكل الدفاع عن الهند » ص ٢٩١ (طبعة نيويورك ١٩٠٣) .

خلت الرسائل التى تبادلها نائب الملك فى الهند مع وزير الدولة لشــؤون الهند فى لندن خلال الفترة الممتدة من سنة ١٨٩٤ حتى سنة ١٨٩٥ من أى اشارة الى الخليج ! ولم يلق موضوع الخليج الاهتمام قبل سنة ١٨٩٦ عندما أثار تدهور الوضع فى المنطقة انتقادات عامة من أكبر شخصيتين مسؤولتين عن رسم سياسة الهند • فلقد كانت فكرة ترك مسألة الخليج للمقيم روس لا تزال قائمة حتى سنة ١٨٩٢ ، بحيث أن حكومة الهند لم تعد تشغل نفسها بموضــوع الخليج حتى بعــد أن غادر روس الخليج كمسؤول بريطانى فيه • وفى أوائل التسعينات كانت حكومتا لندن وكلكتا متفقتين على أنه لا يوجد أى خطر على الهند أو على حدودها • وفى ســنة ١٨٩٤ كان البريطانيون واثقين تمام الثقة أن كل شىء فى الخليج قد أصبح تحت سيطرتهم بحيث أخذوا يفكرون فى خفض النفقــات العســكرية فى الهنـــد (١٢) •

قبيل تلك الفترة كان موضوع الخليج يشغل تفــكير نائب الملك فى الهند • وكان اللورد الجين دائم الشكوى من كثرة التقارير التى تقدم اليه بشأن مسقط حتى أصبحت تشكل أضخم ملفات عرفها فى حياته (١٣) • وكان يقول بأن مشكلات الخليج مشكلات بالغة الصعوبة ومن العسير اتخاذ أى قرار بشأنها ، ورغم هذا فلم يكن يولى شؤون هذه المنطقة أى اهتمام • ومن الانصاف للورد الجين أن نشير الى أن المشــاكل التى كانت تستأثر باهتمامه هى مشاكل الحدود الشمالية الغربية للهند وكانت تعتبر أخطــر المشاكل وأهمها وبالتالى لم تكن حكومة كلكتا تحفل بالأخطار الوهمية فى الخليج • وعلى كل حال ففى نهاية ١٨٩٧ بدأ القلق يساور رجال الحكم فى الهند من تسرب الأسلحة التى ترد من الخليج الى منطقة قبائل الحدود الهندية ــ الأفغانية • وفى سنة ١٨٩٨ تأكد هذا الشك ، الأمر الذى أسفر

---

(١٢) خطاب رقم ٢ مؤرخ ١٨٩٤/٢/٩ من كمبرلى الى الجين •
(١٣) خطاب رقم ٣٩ مؤرخ ١٨٩٦/٩/٣٠ من الجين الى هاملتون •

عن اقناع سلطان عمان وغيره من حكام الخليج بالموافقة على تقييد تجارة الأسلحة فى بلدانهم [١٤] . وهكذا بدأت شؤون الخليج تسيطر على اهتمام السلطات العليا فى الهند ، ولكن مع هذا الاهتمام بدأ التدهور يخيم على أوضاع الخليج بحكم فرض السيطرة البريطانية عليه .

اللورد كرزن والخليج العربى ، والتحدى الامبريالى — ١٨٩٩ — ١٩٠٣ :

كانت التسعينات من القرن التاسع عشر ذروة « العصر الامبريالى » ففى الفترة من ١٨٧٠ الى ١٨٨٥ ضمت كل من الدول الغربية وروسيا مناطق شاسعة اليها من العالم غير الغربى . وعلى الرغم من النزاعات التى كانت تنشب من حين الى آخر فان عملية التوسع والضـم ظلت تتم فى منتهى البساطة حتى سنة ١٨٨٥ ، غير أن مشكلة بنجده فى ذلك العام كانت الطلقة الأولى فى نظرية « الحدود الاستعمارية » فعلى مستوى العالم كله أخذت تلك الدول تستفز بعضها بعضا حيث لم تبق ثمة حدود يمكن أن تضمها الى أراضيها دون أن تمس بهذه العملية حدود دول امبريالية أخرى . وهكذا أخذت تتصادم وترتطم بعضها فى بعض مطالب الدول الكبرى ، بعـد أن أخذت تتلاشى المناطق العازلة بين مناطق نفوذ الدول الحديثة .

وهكذا أصبحت مناطق الصدام كثيرة — الشرق الأقصى ، جنـوب شرقى آسيا ، آسيا الوسطى ، شمال وشرق وجنوب أفريقيا ، ومنطقـة الكاريبى . أما المناطق الأسيوية فقد كانت على اختلافها تشكل فى مجموعها خطا متعرجا من الأراضى يلتف من شبه جزيرة العرب عبر ايران ، وآسيا الوسطى وأفغانستان ، امتدادا الى غرب وشمال الصين ، ومن بنجده جنوبا صوب كوريا والجانب الباسفيكى من الساحل الصينى ، منتهيا عند جنوب

---

(١٤) لوريمـر ١ و ٢ ص ٥٧٤ — ٥٧٥ وانتشـيسون ١٢/١٩٠٩ ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

شرقى آسيا فى أراضى سيام والهند الصينية • وما أن حلت التسعينات من القرن التاســـع عشر حتى كان الخليج العربى قـــد أدرج ضمن الأراضى المتنازع عليها • والجدير بالذكر أن الصدامات الامبريالية التى نشبت على سواحل الخليج كانت جزءا من مواجهة أكبر •

فى الخليج كانت تتصادم مصالح ومطالب دول أربع • فالوجـــود البريطانى فى الخليج الذى تدعم فى أوائل القرن التاسع عشر ظل وجودا غير منازع وان لم يكن معترفا به من الدول العظمى الأخرى • وقد أشرف عملاء امبراطورية الهند البريطانية على عملية الابتلاع والضم التدريجى للخليج الى جوف ذلك الجسم الهائل للامبراطورية البريطانية ، ورغم هذا فلم يكن فى وسع غالبية البريطانيين فى التسعينات من القرن أن يحددوا مضمون وتركيب أو حتى مبررات السيادة البريطانية على الخليج فيما عدا قلة من هؤلاء كانت ترى أن امارات الخليج تقوم بحماية المواصلات الى الهند ، وأن الامارات المذكورة أصبحت عاملا هاما فى سلسلة « المحميات » و « مناطق نفوذ » التى تحمى حدود امبراطورية الهند البريطانية • وقـــد يبدو عدم الاهتمام بالخليج أمرا غريبا اذا أخذنا فى اعتبارنا أحداث الماضى لأن الدفاع عن الهند فى أواخر القرن التاسع عشر ، باعتباره موضوعا يأتى فى الدرجة الثانية من الأهمية بعد الجزر البريطانية ، كان محور السياسة الامبريالية البريطانية • فقد كان الدفاع عن شبه القارة الهندية يعتمد على احتفاظ بريطانيا بسيادتها على العالم ، وعلى جيش هندى صغير ولكنـــه قوى ، ثم على مجموعة من المناطق العازلة وظيفتها حماية مؤخرة الهند • ومن هنا فان مشكلة الدفاع عن الهند قد ورطت بريطانيا فى مناطق كثيرة كمراكش وقبرص ، وعمان ، ومصر وأفغانستان • وحتى جلادستون الذى من عتاة الامبرياليين لم يكن يستطيع أن يتجاهل أهمية الدفاع عن الهند ، ومن هنا كان تورطه فى سنة ١٨٨٢ فى مصر ، ثم فى مشـــكلة تنجـــده فى سنة ١٨٨٥ •

غير أن أخطر تهديد تعرضت له مناطق النفوذ البريطانية فى الخليج ، هو المطالب التى تقدمت بها روسيا فى المنطقة فى التسعينات • فبعد سيطرة روسيا على مناطق آسيا الوسطى فى السبعينات ، أصبحت قاب قوسين أو أدنى من حدود ايران الشمالية الشرقية (خراسان وأفغانستان) • ومنذ الثلاثينات من القرن بدأ القلق يساور حكومتى لندن وكلكتا من الأطماع التوسعية الروسية فى الهند • وما بين سنة ١٨٧٦ وسنة ١٨٩٤ استطاعت بريطانيا عن طريق الأحلاف ، والبعثات ، والمساعدات ، والحروب ، ولجان الحدود أن تجعل من أفغانستان منطقة عازلة (Buffer State) بين الامبراطوريتين الروسية والبريطانية •

كانت أزمة بنجده فى سنة ١٨٨٥ ذروة النزاع • غير أن مسرح المواجهة قد انتقل وبعد سنة ١٨٨٥ غربا الى ايران • وبالتالى أصبحت امبراطورية القاجار محور الصراع الروسى — الانجليزى حتى سنة ١٩١٤ ، بالرغم من اتفاق سنة ١٩٠٧ الذى يحدد مناطق النفوذ الروسية والبريطانية • أما فى التسعينات فقد توسعت مناطق النفوذ الروسى بشكل هائل فى شمال ايران • وكان الخوف يساور بعض البريطانيين من أطماع روسيا التوسعية فى الهند ، وانه لو حيل بين الروس وأفغانستان فأنهم قد يتجهون صوب فارس ، ليثبتوا أقدامهم على سواحل الخليج ، وبالتالى يصبحون فى وضع يسمح لهم بشن هجوم برى وبحرى على الهند من الجهة الغربية • واذا كان التهديد الروسى من الجهة الايرانية يبدو أكثر احتمالا ، فان روسيا فى واقع الأمر كانت تركز ثقلها الاستعمارى حتى سنة ١٩٠٤ تجاه الشرق الأقصى لا الشرق الأوسط • ومع ذلك فخلال الفترة الواقعة بين سنة ١٨٩٩ وسنة ١٩٠٣ عندما كانت بريطانيا غارقة فى أزماتها الامبريالية والدولية ، كنتيجة لحرب البوير ، ازداد الضغط الروسى على منطقة الخليج •

أما الدولة الثالثة من دول الصراع على الخليج فكانت فرنسا • وقد بدأ اهتمام فرنسا بهذه المنطقة منذ القرن السابع عشر • غير أن اهتمامها

حتى سنة ١٨١٠ كان نابعا من رغبتها فى بسط سلطانها على الهند ، كما يرجع لأسباب تجارية ، أو لأسباب غير واضحة لدعم المصالح الفرنسية فى المحيط الهندى • وكانت فرنسا ثانى دولة تهتم بمنطقة المحيط الهندى • فلقد كان لفرنسا مستعمرات صغيرة فى الهند وعدد من الجزر المستعمرة • وفى الفترة الواقعة بين سنة ١٨٨٥ وسنة ١٨٩٤ ضمت اليها جزيرة مدغشقر الكبيرة ، كما أنشأت لها مستعمرة على خليج البحر الأحمر (الصومال الفرنسى) بالاضافة الى ما كان لها من نفوذ واسع فى الحبشة • أما على الجانب الآخر من المحيط الهندى فقد امتد النفوذ الفرنسى الى الهند الصينية وسيام • وفى الوقت نفسه اشتركت فرنسا مع انجلترا فى اصدار بيان مشترك بضمان استقلال كل من زنجبار وعمان • كما كان هناك عدد من السفن العربية التابعة للخليج يرفع العلم الفرنسى فى مياه الخليج والمحيط الهندى ، وذلك بموجب قانون التسجيل الذى أصدرته الجمهورية الثالثة ، ورغبة من الملاحين العرب فى ممارسة الأعمال التجارية المحظورة كتجارة الرقيق تحت حماية العلم الثلاثى • وأخيرا فى عام ١٨٩٤ افتتحت فرنسا قنصلية لها فى مسقط ، تنفيذا لخطة فرنسية توسعية فى الخليج وللتدخل فى شؤونه وقد بدأ تنفيذ هذه الخطة قبل احتدام الصراع الفرنسى البريطانى فى المنطقة بوقت طويل •

ان السياسة العدوانية الفرنسية فى الخليج تنبع من عوامل كثيرة أهمها السياسة المناهضة للوجود البريطانى فى المنطقة التى بدأت منذ سنة ١٨٩٤ وارتبطت بوزير الخارجية الفرنسية المسيو هانوتو (Hanotaux) والى أن حل دلكاس (Delcasse) محله فى سنة ١٨٩٨ ، حاولت فرنسا تهدئة الوضع فيما بينها وبين ألمانيا حتى تتفرغ لمواجهة البريطانيين فى الصراع على المصالح الاستعمارية فى العالم [١٥] • ولقد كشفت أزمة فاشودا فى سنة ١٨٩٨ عن خطر سياسة هانوتو على المصالح البريطانية فى

---

(١٥) دبلوماسية الاستعمار ، ١٨٩٠ — ١٩٠٢ ، تأليف دبليو لانجر (طبعة نيويورك ١٩٥٦) ص ٧٦٦ .

الخليج وهى السياسة التى استمرت لبضع سنوات أخرى . كما شهد عام ١٨٩٤ توقيع الحلف الروسى الفرنسى . ولقد كانت بعض الفئات فى فرنسا تدعو الى سياسة العنف فى الخليج ، وذلك لاقناع روسيا بأهمية الدور الذى تقوم به فرنسا على نتائج الصراع الروسى البريطانى فى آسيا . وأخيرا فان المصالح الفرنسية فى الخليج والتى كانت تتوافق مع التحرك الفرنسى (فى سيام ومدغشقر على الأوضح) كانت ترمى الى تدعيم الوجود الفرنسى الامبريالى فى المحيط الهندى .

كما دخلت فى التسعينات من القرن التاسع عشر ألمانيا كدولة منافسة جديدة على اقتسام المصالح الاستعمارية ، بالرغم من أن هذه المصالح لم تصل الى ذروتها قبل الفترة الواقعة بين سنة ١٩٠٣ وسنة ١٩١٤ . وفى التسعينات حققت ألمانيا توغلا اقتصاديا كبيرا داخل الامبراطورية — العثمانية ، ثم امتدت هذه المصالح الى ايران فى الحقبة التى تلت ذلك . فقد وضع المارشال فون بابيرشتاين ، (Von Bieberstein) السفير الألمانى فى اسطنبول ١٨٩٧ — ١٩١٢ ، ومصمم السياسة الألمانية فى الشرق الأدنى خطة تهدف الى تحويل بعض المناطق فى الشرق الأوسط الى « مستعمرات اقتصادية » ألمانية . وبموجب هذه الخطة تصبح المنطقة سوقا ومصدرا للمواد الخام للصناعة الألمانية ، وذلك كله على حساب الصناعة المحلية . كما تشتمل الخطة أيضا على مساندة الحكومتين التركية والايرانية ضد الدول الأوربية الأخرى . وعن طريق التأييد السياسى كان الألمان يتوقعون الحصول على امتيازات اقتصادية خاصة . وكان هدف الألمان الأساسى هو تأمين أسواق لصناعاتهم ولم يكن هدفهم الاستيلاء على أراضى . وكان الألمان ينوون فى حالة نجاح خطتهم مد شبكة من المواصلات الأرضية تتخلل مناطق كثيرة غير مطروقة من الشرق الأوسط . وكان الخط الرئيسى فى هذه الشبكة خط برلين — بغداد للسكة الحديدى . على أن تتفرع من هذا الخط خطوط فرعية أخرى بحيث تصبح منطقة الشرق الأوسط كلها فى متناول

الصناعة الألمانية [١٦] • وكان المفروض أن ينتهى الجزء الشرقى للخط على أحد موانىء الخليج ، لعله الكويت • وعن طريق هذا المشروع دخلت ألمانيا معترك الصراع على المصالح الامبريالية فى الخليج • غير أن مشروع الخط الحديدى لم يكتب له النجاح • وكان الألمان قبل سنة ١٩١٤ يمثلون تحديا اقتصاديا متزايدا للأسواق البريطانية من خلال نشاط حركة السفن البخارية الألمانية داخل المنطقة •

وفى التسعينات كان هناك ثلاثة ميادين تتصارع فيها الدول الكبرى فى منطقة الخليج وكان الميدان الرئيسى للصراع هو جنوب ايران وعمان ، حيث كان الفرنسيون يحاولون تحقيق نفوذ لهم هناك على حساب بريطانيا • أما ميدان الصراع الثانى فقد كان ساحل الخليج الأعلى الخاضع للنفوذ العثمانى • وكان الاعتقاد السائد سابقا ان المنطقة سوف تغدو مسرحا لصراع بريطانى روسى كنتيجة لمشروع الكاونت كابنست (Count Kapnis) الذى كشف عنه فى سنة ١٨٩٨ لانشاء خط حديدى من البحر الأبيض المتوسط الى الكويت تموله روسيا • وعلى أى حال فقد ظل هذا المشروع حبرا على الورق • أما بعد سنة ١٩٠٠ فقد كان الصراع بين بريطانيا وألمانيا حول مشروع خط حديد بغداد • كما اشتد الصراع الروسى البريطانى وبصورة خاصة فى الفترة ما بين سنة ١٨٩٩ وسنة ١٩٠٣ •

وكان ضمن مناطق الصراع الثلاث هذه فى الخليج قوى وعوامل أخرى أهم هى التى كانت تحدد الاطار الدولى للدبلوماسية الامبريالية فى ذلك الوقت • فقد كانت بريطانيا الدولة المهيمنة على المنطقة ، وعندما بدأت

---

(١٦) للاطلاع على تفاصيل هذه الخطة راجع نفس المصدر فصل ١٩ و « العلاقات الدبلوماسية بين ألمانيا وفارس » ، تأليف • بى • مارتن (طبعة لاهاى ١٩٥٩) و « تركيا والدول الكبرى ، وسكة حديد بغداد » (طبعة نيويورك ١٩٢٣) تأليف اى • ام • ارل •

الدول الأخرى محاولاتها لتوسيع نفوذها وجدت الأسطول البريطاني واقفا لها بالمرصاد . وكان أشد ما تخشاه بريطانيا هو أن يطيحها التجمع المناوىء لها الى خارج المنطقة .. وكانت الصدامات فى معظمها تتقنع بأقنعة قانونية فتزعم كل دولة من الدول الطامعة انها تعمل من أجل مصلحة احدى دول المنطقة أو الأخرى . أما شاه ايران ، وسلطان العثمانيين ، وحاكم مسقط فلم يكونوا أكثر من دمى تحركها الدول الكبرى على اختلافها .

عمان والفرنسيون فى التسعينات من القرن التاسع عشر

كانت عمان خلال هذه الفترة مسرحا لأول صدام كبير بين القــوى الامبريالية وذلك منذ أن بدأت فرنسا فى سنة ١٨٩٤ تتحــدى الوجــود البريطانى هناك . وفى القرن التاسع عشر وخلال الحروب النابليونية كان اهتمام فرنسا بعمـــان اهتماما متقطعا أكثر مما كان يتعلق بقنـــاة السويس خلال الستينات وآخر التسعينات .

لم يكن اهتمام فرنسا بعمان خلال الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر اهتماما مفاجئا . ففى الفترة الواقعة بين سنة ١٨٨٣ وســـنة ١٨٨٥ عندما كان جوليس فرى Jules Ferry مسؤولا عن شؤون المستعمرات فى الحكومة الفرنسية ، حاول انشاء خط ملاحى بحرى بين فرنسا والخليج تموله الحكومة الفرنسية . ان هذا الاهتمام وما أعقبه من نشاط المواطن الفرنسى شابوى فى منطقة ساحل عمان من الأسباب التى دفعت بالبريطانيين الى التعجيل فى عقد اتفاقيات غير مشروطة مع حكام الخليج على اختلافهم . وحتى قبل سنة ١٨٩٤ كان القنصل الفرنسى فى عدن ، واوبوك ، وزنجبار يوزع الأعلام وشهادات التسجيل الفرنسية على سكان صور وغيرها من الموانىء العمانية [١٧] . وفى نوفمبر ١٨٩٢ صرح النائب الفرنسى المسيو

---

(١٧) عــلاقات بريطانيا بالخليـــج ١٨٩٠ — ١٩٠٢ ص ٢١٣ — ٢١٤ ، تاليف داون .

ديلونكل Deloncle فى اجتماع الجمعية الوطنيـة الفرنسية ، وكان من عتاة الاستعماريين « أن كرامة فرنسا تحتم عليها أن يكون لها وكيل قنصلى فى مسقط لتسجيل أسماء المواطنين المتمتعين بالحماية الفرنسية » واستطرد ديلونكل يقول « بأن فرنسا ستكون فى وضع يسمح لها بالتعاون مع روسيا وبتثبيت وجودها كحليف قـوى لها اذا ما تمكنت من تثبيت أقـدامها فى الخليج » . وخلال مناقشة للميزانية الفرنسية العامة سـنة ١٨٩٣ عاد ديلونكل يطالب بسيطرة فرنسية فعالة فى الخليج ، واقترح اعتمادا اضافيا فى الميزانية فى حدود ٧٠٠٠ فرنك لفتح قنصلية فرنسية فى مسقط ، وقد وعد وزير الخارجية الفرنسية المسيو دنفيل أثناء المناقشة بانشاء القنصلية فى مسقط [١٨] . وكان فى استطاعة الفرنسيين اتخاذ هذه الخطوة بسهولة ، لأن عمان ، بخلاف دول ساحلى الصلح الواقعة شمالا ، لم تكن مقيـدة بمعاهدات تخضع شؤونها الخارجية للحكومة البريطانية .

وفى يوم ٨ نوفمبر وصل الى مسقط المسيو اوتافى (Ottavi) وهو دبلوماسى فرنسى يجيد التحدث باللغة العربية ، وقد سبق له أن عمل فى زنجبار ، كما شغل مناصب أخرى فى منطقة المحيط الهندى . وقد تسـلم عمله كقنصل لفرنسا بالنيابة . وكغـيره من الممثلين الفرنسـيين الكثيرين ، أظهر اوتافى ، وكان من أصل كورسيكى ، براعة دبلوماسية ونشاطا كبيرا . وكان متحدثا بارعا ، وهكذا أصـبح خصـما عنيـدا للممثلين البريطانيين المسؤولين عن المصالح البريطانية فى عمـان فى [١٩] التسعينات من القرن التاسع عشر .

---

(١٨) Precis Maskat ص ٤٥ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥٤٦ — ٤٧ .

(١٩) Annwaire Diplomatic et Consulaire de France. (طبعة باريس ١٨٩٩) أى السجل الدبلوماسى والقنصلى الفرنسى — سـنة ١٨٩٩ .

عند بداية وصول اوتاف الى مسقط شعر السلطان بشيء من النفور والخوف من مجيئه فقد خشى من أن تحاول فرنسا تأكيـد حمايتها على العمانيين الذين كانوا يرفعون العلم الفرنسى فوق سفنهم ، كما خاف من أن تحاول فرنسا فصل ميناء صور عن بقية أجزاء المملكة العمانية . الا انه بعد مضى خمسة أشهر على وصول اوتاف تغير موقف السلطان فيصل منه ، خصوصا بعد أن رفض البريطانيون مساعدته عسكريا ضد هجوم مسـلح قام به المحافظون العمانيون على مسقط ما بين شهرى فبراير ومارس من سنة ١٨٩٥ وقد ازداد الموقف تأزما عندما طالب الانجليز السلطان بدفع ٧٧٫٨٩٥ ريالا نمسويا كتعويض عن الخسائر التى لحقت بالتجار الهنـود نتيجة الهجوم على مسقط . وعلى عكس هذا الموقف كان موقف القنصل الفرنسى اوتاف الذى عرض على السلطان المساعدة العسكرية وأرسل بطلب السفينة الفرنسية المسلحة ترود (Troud) الا أن السفينة وصلت متأخرة . ولهذا لم يتمكن من مساعدة السلطان بشكل فعال ، غير أن موقف القنصل الفرنسى قد أكد للسلطان حسن نية الحكومة الفرنسـية والامكانات التى تحت تصرفها ، وبذلك شهدت عمان تصاعدا للوجـود الفرنسى اسـتمر خمس سنوات (٢٠) .

وما أن حل عام ١٨٩٦ حتى بدأ البريطانيون يعملون على تحسـين علاقاتهم مع السلطان وقد حاولوا من غير جدوى وقف نمو وتصـاعد الوجود الفرنسى عن طريق التودد الى السـلطان وتقـديم عروض من الأسلحة والمساعدات المالية والبحرية . ثم أخذوا يثيرون موضوع الحماية، ولكنهم عادوا فصرفوا النظر عن هذه الفكرة (٢١) . أما اوتاف فقـد كان

---

(٢٠) Precis Maskat ص ٢٢ و ٥٣ و « علاقات بريطانيا بالخليج » ، تأليف داود ١٨٩٠ — ١٩٠٢ ص ٢١٥ وكتاب لوريمر ص ٥٤٧ — ٥٥٣ وخطاب مؤرخ ١٨٩٦/٤/١٤ من هاملتون الى كرزن وخطاب رقم ٣٧٩ مؤرخ ١٨٩٥/٢/٢٤ من هاتوتو الى جوردون .

(٢١) الخليج العربى ، تأليف ويلسون ص ٢٣٩ .

يؤكد للسلطان فى كل مقابلة معه بأنه حر فى شؤونه الخارجية ، باعتبـاره المسؤول الأول عن دقة ادارة الحكم فى بلده [٢٢] . وكان يحرض السلطان على تأكيد استقلاله عن السيطرة البريطانية . ويعود السبب فى نجـاح اوتاف بتعكير العلاقة بين الحاكم العمانى والانجليز الى أخطاء البريطانيين أساسا ، كما يعود الى تأثير اوتاف الشخصى على السـلطان وعلى بعض أفراد حاشيته [٢٣] .

ومما أثار قلق الانجليز بوجه خاص هو تعيين عبد العزيز ، سكرتير القنصل الفرنسى فى وظيفة هامة بدرجة سكرتير خاص للسلطان ، بينما بدأ القصر يقرب اليه العمانيين المناهضين للانجليز [٢٤] . ومن ناحية أخرى بدأ فيصل بنفسه فى تشجيع المصالح الفرنسية فى عمان كمحاولة لاقامة توازن بينها وبين المصالح البريطانية ، وبذلك تستطيع عمان أن تتمتع بقسـط أكبر من الاستقلال .

وفى شهر مارس سنة ١٨٩٨ أحرز القنصل الفرنسى أكبر نجاح له فى مهمته . فقد أوصلت الى ميناء مسقط السفينة الفرنسية المسلحة جابيس (Gabes) ، ثم أعلن بعد ذلك عن موافقة السلطان على منح الفرنسيين امتياز لانشاء مستودع للفحم فى الجصة ، وهو مرفأ حصين يقع على بعد خمسة أميال من مسقط [٢٥] . وبعد اسبوعين وصلت السفينة المسـلحة سكوربيون فى زيارة لمسقط وكان ذلك فى شهر أكتوبر سنة ١٨٩٨ . وقـد تبودلت الهدايا خلال هذه الزيارة بين الفرنسـيين والسـلطان حيث تلقى

---

(٢٢) خطاب رقم ٤ مؤرخ ١٨٩٧/٢/٢٣ من اوتاف الى هانوتو .
(٢٣) رسالة بتاريخ ١٨٩٩/٧/٦ من هاملتون الى كرزن .
(٢٤) نفس المصدر .
(٢٥) نص برقية كرزن الى هاملتون رقم ٣١٥ بتاريخ ١٨٩٩/٢/٢٥ انظر ايضا صفحة ٧٥ من (Precis Maskat)

السلطان مدفع ميدان من ربان البارجة • كما عقدت اجتماعات سرية بين الطرفين واقيل الوزير الموالى للانجليز من منصبه • كذلك قام اوتاف وبعض طاقم السفينة سكوربيون برحلة استطلاعية للمرفأ المذكور [٢٦] • وهكذا بدا يومئذ أن فرنسا توشك أن تنتزع عمان من قبضة النفـوذ البريطانى المزمنة ، وتحل محلها فى منطقة كانت تعتبر حكرا على النفوذ البريطـانى وحــــده •

وعلى أى حال ففى شهر يونيو سنة ١٨٩٨ حل دلكاسى محل هانوتو كوزير لخارجية فرنسا ، بينما عين اللورد كرزن فى شهر سبتمبر سنة ١٨٩٨ نائبا للملك فى الهند • وقد تسلم الأخير منصبه فى شهر يناير سنة ١٨٩٩ • وكانت هذه الخطوات بداية فى السياستين الفرنسية والبريطانية فى آسيا والخليج • وفى بداية التسعينات ، وعلى أثر استكمال التحالف الفرنسى الروسى كانت مدرسة الامبرياليين المتعصـبين تتقدم الصـفوف فى فرنسا وكانت هذه الفئة التى يتزعمها هانوتو الفئة المسيطرة فى الفترة ما بين سنة ١٨٩٤ وسنة ١٨٩٨ وكان هانوتو ، وهو من أنصار جوليس فرى يؤمن ان على فرنسا اذا أرادت أن تبقى دولة عظمى أن تنشىء لها امبراطورية فيما وراء البحار • وكان على استعداد لتحسين علاقة فرنسا بألمانيا فى سـبيل تركيز جهود فرنسا على التوسع الامبريالى فى أفريقيا وآسيا غير ان هذه التطلعات كان لابد لها أن تثير ثائرة الانجليز •

وفضلا عن ذلك فقد كان فريق الامبرياليين المتعصبين يستغل العلاقة بين فرنسا وروسيا ما أمكنه ذلك ضمن عملية التحدى الفرنسى للانجليز فى مختلف ميادين الصدام فى العالم [٢٧] • وهكذا انفجر الصراع بين فرنسا وانجلترا فى كل مكان ، فى سيام سنة ١٨٩٣ — ٩٦ ، وفى عمان سنة ١٨٩٤ —

---

(٢٦) المصدر نفسه ص ٦٢ — ٦٥ •
(٢٧) « دبلوماسية الاستعمار » ص ٧٩٦ — ٩٧ ، تأليف لانجر •

٩٨ ، وفى السودان سنة ١٨٩٦ — ٩٨ ، وغرب أفريقيا سنة ١٨٩٧ — ٩٨ ، وذلك منذ ان بدأ هانوتو وأنصاره هجومهم على مناطق النفوذ البريطانى حيث يعتقد أن هذا النفوذ لم يكن مضمونا الى حد كبير • ويعبر دور اوتاف فى مسقط تعبيرا صادقا عن هذا الاتجاه فى السياسة الفرنسية ، كما يمثل ربيع عام ١٨٩٨ ، وهو التاريخ الذى حصلت فرنسا فيه على امتياز مستودعات الفحم فى أراضى عمان ، ذروة سياسة المواجهة الفرنسية ضد البريطانيين • وعلى كل فقد تبين يومئذ ان البريطانيين مصممون على النزال والصمود ضد الفرنسيين فى ساحتين من ساحات المعركة هما أزمة فاشوده فى السودان ومشكلة نيجيريا • بيد ان فرنسا كانت فى تلك الفترة ممزقة ومنهوكة على الجبهة الداخلية نتيجة لمشكلة دريفوس ، ولهذا اضطرت تحت ضغط هذه الأوضاع الى التخفيف من سياسة التطرف الخارجية التى كانت تنتهجها • وما بين سنة ١٨٩٨ وسنة ١٩٠٤ أخذت تسوى مشاكلها الامبريالية مع بريطانيا •

ويعود الفضل فى وضع حد لاحتمال نشوب حرب امبريالية ضروس بين فرنسا وانجلترا الى جهود تيوفايل دلكاسى Theophile Delcasse وزير الخارجية الفرنسية من يونيو سنة ١٨٩٨ حتى يونيو سنة ١٩٠٥ • فلم يكن هذا من غلاة الامبرياليين ، وكان يرى بأن الواجب الأول أمام فرنسا هو الاهتمام بتأمين سلامتها فى القارة عن طريق مجابهة القوة الألمانية النامية • وبالتالى كان يرى فى تقوية العلاقة بين فرنسا وبريطانيا كعنصر أساسى للسياسة الخارجية الفرنسية • وكان يفضل على ما يبدو أن تقوى بلاده علاقتها بانجلترا على حساب علاقاتها بروسيا • وبمجرد أن تسلم زمام منصبه بادر الى العمل على التخفيف من حدة التوتر بين فرنسا وبريطانيا كنتيجة للصراع الانجلو — فرنسى على « المستعمرات وهو الشركة التى خلفها سلفه هانوتو » [٢٨] •

---

(٢٨) نفس المصدر •

غير انه فى ٢٠ من شهر نوفمبر أذيعت فى باريس أنباء حصول فرنسا على امتياز لاقامة مستودعات للفحم فى مرفأ الجصة بمسقط ، فكانت هذه الخطوة التى عجلت بما عرف بأزمة مسقط » بين الحكومتين [٢٩] • وما ان علم مانسون السفير البريطانى فى باريس بهذه الصفقة حتى بادر الى الاستفسار عنها من وزير الخارجية الذى أنكر أى معرفة بالموضوع • ومن الواضح ان دلكاسى قد شعر بحراجة الموقف من اجراء الصفقة الفرنسية التى تعتبر من مخلفات سياسة هانوتو المناهضة للبريطانيين [٣٠] • غير ان اللورد سالسبورى (رئيس وزراء بريطانيا من يونيو ١٨٩٥ حتى يونيو سنة ١٨٩٢) اتخذ موقفا مرنا من المشكلة ، لكى يعطى دلكاسى وقتا كافيا للخروج من الورطة لأن سالسبورى ، على غرار دلكاسى كان مهتما بتحسين الموقف بين فرنسا وانجلترا وفى سنة ١٨٩٧ اقترح سالسبورى على الفرنسيين عقد اتفاق عرف « لتسوية جميع المشاكل الصغيرة المشتركة»[٣١] • وعلى الرغم من ان اقتراحه قوبل بالرفض ، كنتيجة لسياسة هانوتو المعادية ، ولأن الرأى العام فى فرنسا لم يكن يؤيد هذه الفكرة فى ذلك الوقت ، فمن الواضح ان سالسبورى كان يريد أن يجتنب أى صدام مع فرنسا ، وأن يصل معها الى اتفاق عام حول مشكلات المستعمرات • وبالتالى اشترك سالسبورى ودلكاسى فى الفترة ما بين سبتمبر سنة ١٨٩٨ ومارس سنة ١٨٩٩ فى اعداد مسودة اتفاق يتضمن حل كافة المشاكل الامبريالية الملحة التى كانت تسمم جو العلاقات بين فرنسا وبريطانيا ، بالرغم من وقوع كثير من المشكلات التى كانت تقوض المفاوضات وهى لا تزال فى منتصف الطريق [٣٢] •

---

(٢٩) Journal des Debats باريس ١٨٩٨/١١/٢٠ •

(٣٠) خطاب رقم ٦٦٣ مؤرخ ١٨٩٨/١٢/٢ من مانسون الى سالسبورى •

(٣١) « علاقات بريطانيا بالخليج » ١٨٩٠ — ١٩٠٢ ص ٢٢٠ — ٢٢١ ، تأليف داود ورسالة مؤرخة ١٨٩٧/٣/٢٦ من كورسيل الى هانوتو . من وثائق السلك الدبلوماسى الفرنسى سلسلة ١ مجلد ١٤ •

(٣٢) تم توقيع هذه الاتفاقية فى شهر مارس ١٨٩٩ •

وقد بدر أخطر تصرف بصدد المساعى المذكورة من جانب اللورد كرزن ، نائب الملك الجديد فى الهند الذى تسلم عمله فى شهر يناير سنة ١٨٩٩ . فمنذ سنة ١٨٩٢ وكرزن يلح على حكومته بتقوية وسائل الدفاع عن الهند . وكان الخليج وايران فى نظره أضعف المناطق العازلة ، وانه لابد من ردع أى محاولة تقوم بها الدول الكبرى المنافسة لبريطانيا لاختراق هذه المناطق [٣٣] .

وخلال الأيام الأولى من وصول كرزن الى كلكتا بدأ فى مواجهة ما كان يعتبره مناطق الخطر الرئيسية الثلاث على الوجود البريطانى فى الخليج وايران . فبالنسبة الى ايران حاول كرزن (ولكنه لم يكتب له النجاح التام) وقف التسلل الروسى الى المناطق الشرقية والجنوبية من ايران . وعندما علم بموضوع الامتياز الفرنسى فى عمان قرر ابطال هذا الاتفاق حتى ولو اضطر الى استخدام القوة ، كما قام أيضا باحباط المحاولات التى كانت جارية لربط الكويت بخط حديدى لا يخضع للاشراف البريطانى . فقد أدرك أن مثل هذا الخط سيخضع لسيطرة روسيا ، وذلك على الرغم مما عرف فيما بعد بأن ألمانيا كانت الدولة التى ستستفيد من مد الخط المذكور [٣٤] .

وحتى قبل أن تصله تعليمات من لندن كان كرزن قد أبلغ الكولونيل ميد ، المقيم البريطانى فى الخليج بأن يسوى جميع المشاكل البريطانية فى الكويت وعمان . أما الخطوة التى اتخذت بشأن الكويت فانها لم تسفر عن أزمة مباشرة اذ ان حاكم هذه البلاد الشيخ مبارك الذى كان يبحث عن حليف قوى يدعم مركزه ضد منافسيه الآخرين على الحكم وضد أسياده

---

(٣٣) فارس والمسألة الفارسية — كرزن ، مجلد ٢ ص ٤٦٥ .
(٣٤) دبلوماسية الاستعمار ص ٦٤٢ — ٦٤٣ ، تأليف لانجر و « حياة اللورد كرزن » فصل ٢ و ٢٣ (طبعة لندن ١٩٢٨) تأليف الايرل رونالدشى .

الاسميين الأتراك وافق على التوقيع على معاهدة يلتزم فيها بعدم التنازل عن أى شبر من أراضيه أو استقبال ممثل لأى دولة بدون موافقة سابقة من جانب الحكومة البريطانية [٣٥] غير أن كرزن بهذه الخطوات قد فجر سلسلة من الأحـداث التى تطـورت الى أزمة حادة أثرت تأثـيرا خطـيرا على المفاوضات التى كانت جارية بين سالسبورى ودلكاسى •

ففى ١٧ من شهر يناير استدعى فاجان المعتمد السياسى البريطـانى السلطان فيصل بناء على تعليمات تلقاها من كرزن وقد اعترف فيصـل بالامتياز الذى عقده مع الفرنسيين • ولكن فاجان احتج على هذا الاجراء واعتبره خرقا لماهدة عدم التنازل المعقودة فى سنة ١٨٩١ بين الحـكومة البريطانية وسلطان مسقط • الا أن السلطان فيصل رد على احتجاج المعتمد البريطانى بشجاعة لا تنقصها الصراحة ، وقال له بأنه قد أعطى وعـده للفرنسيين ، ولا يمكنه الآن سحب الاتفاق ، وانه اذا كان البريطانيـون لديهم اعتراض على هذه المسألة فليسووا المشكلة بينهم وبين الفرنسـيين مباشرة [٣٦] • غير ان كرزن بعد أن علم برد السلطان ، أصدر تعليماته برفع العلم البريطانى على مرفأ الجصة ، عند ظهور أى سفينة فرنسية فى المكان المذكور [٣٧] • وقد عزز كرزن هذه القرارات بقرار آخـر يقضى بوقف دفع التعويض المالى للسلطان فيصل • كما أوفد الكولونيل ميد الى مسقط ومعه انذار الى السلطان سلم اليه يوم ٩ فبراير ١٨٩٩ • وأشـار كرزن فى انذاره للسلطان الى سلسلة المشاكل التى أساءت الى العـلاقات العمانية الانجليزية منذ سنة ١٨٩٥ • وطالب فيصل (وقد وجه كرزن انذاره بغير علم من حكومة لندن) بفسخ الامتياز الممنوح للفرنسيين مع اعطائه مهلة ٤٨ ساعة لتنفيذ هذه الأوامر • وقد وقت كرزن ارساله الانذار الى فيصل مع طلب منه الى حكومة لندن بالموافقة على الخطوة التى اتخذها وبهـذا

---

(٣٥) تقرير اتشيسـون ١٩٣٣ •
(٣٦) Precis Maskat ص ٦٩ •
(٣٧) برقية مؤرخة ١٨٩٩/١/٢٠ من هاملتون الى كرزن •

وضعها أمام الأمر الواقع • وقد انتهت الأزمة ما بين ١١ و ١٥ فبراير • ففى يوم ١٣ فبراير رضخ السلطان فيصل لحكم القدر ، وأبدى استعداده لفسخ العقد ، وأرفق عرضه هذا بطلب حمايته من الفرنسيين اذا ما قرروا التدخل ضده • غير ان كل هذا الاستسلام لم يكن كافيا فى نظر كل من ميد وكرزن • وفى يوم ١٤ فبراير وصل الاميرال دوجلاس قائد الوحـدات البحرية الهندية على رأس أسطول صغير الى مسقط وطلب من السلطان فسخ العقد مع الحكومة الفرنسية رسميا • وكان كرزن يهدف من وراء هذا الاجراء اذلال كل من السلطان والحكومة الفرنسـية • وفى يوم ١٦ من فبراير حين لم يصل رد السلطان على الطلب البريطانى أصدر دوجلاس أوامره باستدعاء السلطان الى ظهر سفينة القيادة • وفى غضون ذلك بدأت السفن الحربية البريطانية تتحرك وتأخذ مكانها على مرمى من قصر السلطان والحاميات العمانية فى مسقط ، وأعلن الأسطول بأنه على وشـك ضرب المدينة • عندها اضطر السلطان الى الرضوخ وزار القائد ووافق على جميع ما طلب منه كرزن • ومن سـخريات القدر انه عنـد عودة السلطان من اجتماعه بالاميرال دوجلاس أصدر هذا أمرا باطلاق ٢١ طلقة تحية للسلطان، وهى التحية التى تطلق عادة للحكام المستقلين (٣٨) •

منذ ذلك الحادث مباشرة تطـورت علاقة البريطانيين بالسلطان الى الأحسن حتى أن السلطان قام فى شهر مارس من ذلك العام بزيارة مجاملة للماجور فاجان ، المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط والذى كان يحتقر السلطان ويكرهه أشد الكره • ورغم ذلك فان العلاقات العمانية البريطانية لم تسترد حرارتها قبل شهر أكتوبر سنة ١٨٩٩ عندما حل برسى كوكس محل فاجان كمعتمد سياسى بريطانى فى عمان (٣٩) • ففى سبيل المصالح

---

(٣٨) نفس المصدر ص ٧٠ — ٧٦ •
(٣٩) المصدر نفسه ص ٧٧ — ٨١ وخطاب مؤرخ ٥ يناير سنة ١٩٠٠ من هاملتون الى كرزن •

البريطانية ، برهنت « أزمة مسقط » على أن كرزن لا يتورع عند الضرورة عن أن يدوس حتى الاستقلال الزائف الذى يتمتع به فيصل بن تركى . كما أدرك فيصل فى شهر فبراير ١٨٩٩ بدوره بأن بقاءه كلسلطان على البلاد ، على الرغم من طلقات التحية الواحدة والعشرين ، يتوقف على رغبة الانجليز . وبأن أى محاولة من جانبه لتحدى البريطانيين سوف تكلفه العرش كله . ومن المؤكد أن فقهاء القانون البريطانى قد يقررون ، اذا ما طلب اليهم ابداء رأى القانون فى تصرف السلطان ، بأن نقض الاتفاقات الدولية يجيز حرمان الحاكم من عرشه . وقد أفتى هؤلاء القانونيون بالفعل فقالوا بأن الضمان الخاص لاستقلال عمان انما يضمن استقلال الأراضى العمانية ، لا شخص الحاكم نفسه [٤٠] . وقد انزعج الفرنسيون من الاجراءات التى اتخذتها بريطانيا ضد السلطان . وقدمت الحكومة الفرنسية يوم ٢٢ فبراير احتجاجها ضد الاجراءات التى اتخذها الاميرال دوجلاس [٤١] . كما أعرب دلكاسى عن اعتقاده بأن فى انجلترا فئات كثيرة تعمل للحرب ضد فرنسا ، وانهم بهذه الاستفزازات يحاولون جرها الى ذلك . ويبدو من الاجراء الذى اتخذه كرزن بأن المخاوف الفرنسية كان لها ما يبررها ، وعلى الأخص عندما صفق الرأى العام البريطانى لقرار نائب الملك . وقد عززت المناقشات البرلمانية للأوضاع فى مسقط من موقف الجمهور ! وعلى أى حال ففى شهر مارس عاد اهتمام الجمهور بالمشكلة فتضاءل وانتهت بذلك المناقشات البرلمانية [٤٣] .

ولقد أثار هذا الحادث ضجة كبيرة فى فرنسا ، غير أن دلكاسى

---

(٤٠) Precis Maskat ص ٧٤ — ٧٧ ورسالة ١٨٩٩/٣/١٠ من هاملتون الى كرزن .

(٤١) خطاب مؤرخ ١٨٩٩/٢/٢٢ من كامبون الى وزارة الخارجية .

(٤٢) رسالة مؤرخة ١٨٩٩/١/١٣ من مانسون الى سالسبورى .

(٤٣) صحيفة التايمز اللندنية عدد ١٨٩٩/٢/٢٢ وقد ايدت الصحيفة بشدة اجراءات كرزن ، كذلك انظر سلسلة مناقشات مجلس العموم رقم ٤ وخطاب مؤرخ ١٨٩٩/٢/٢٨ من هاملتون الى كرزن .

الملزوم ، تراجع فى موقفـــه وبذلك تمكن من اســـتئناف المفاوضـــات مع سالسبورى [٤٤] . أما سالسبورى نفسه ، فقد صدمته الطريقة التى عالج بها كرزن المشكلة مع السلطان فيصل ، وكان من رأيه أن الاجراء « غلطـــة كبيرة » كما انزعج مثل دلكاسى من الضجة التى أثيرت حول الموضوع [٤٥] . وقد خشى سالسبورى من انفجار صراع بين فرنسا وبريطانيا « بسبب أحد الأمراء الصغار » ، قد يهدد المفاوضـــات التى كان يجريها مـــع ديلكاسى للوصول الى تسوية شاملة للمشكلات الافريقية بين الدولتين . ولئن كان سالسبورى يعارض أى تنازل فعلى من جانب هؤلاء الحكام لدول أخرى ، الا أنه من ناحية أخرى كان يقر الفرنسيين فى الحصول على تسهيلات كالتى حصلوا عليها فى مسقط لانشاء مستودعات للفحم . وخلاصـــة القول ان سالسبورى كان يفضل حل هذه المشكلة من غير ضجة [٤٦] غـــير أن كرزن الذى كان يتصور بأن سالسبورى يتخذ موقفا لينا تجاه الفرنسيين ، قـــد حاول الدفاع عن الاجراءات التى اتخذها ضد السلطان رغم اعترافه بأن الفرنسيين كانوا فى حاجة الى ميناء فى عمان ، الا أن حصولهم على مينـــاء كهذا سوف يجعلهم فى وضع يستطيعون به تهديد الهند [٤٧] . وأخيرا فى أوائل مارس ١٨٩٩ نجح سالسبورى فى اخماد نار هذا الخلاف عندما اقترح على الحكومة الفرنسية الاستفادة من حظائر الفحم الموجودة فى مينـــاء مسقط . ومنذ ذلك التاريخ حتى شهر ابريل ظلت المفاوضات بين الجانبين تتعثر ، ولكن التوتر الذى كان يسودها سابقا قد خفت حدته . ومن ناحية أخرى واصل الفرنسيون جهودهم للحصول على مستودعات للفحم خاصة

---

(٤٤) الجريدة الرسمية لمناقشات مجلس النواب ٦٧٧/٣/٧ ورســـالة مؤرخة ٩٩/٣/٣ ورسالة أخرى بتاريخ ١٨٩٩/٣/٢٨ من هاملتون الى كرزن .

(٤٥) رسالة بتاريخ ١٨٩٩/٢/٢٢ وردت فى « الوثائق البريطانية لاسباب نشوب الحرب » اعداد جى كوش G. Gooch هـ . تمبرلى H. Temperley لندن ١٩٢٦ — ١٩٣٨ مجلد ١، ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

(٤٦) حياة كرزن ، تأليف رونالدشى فصل ٢ ص ٤٧ — ٥٠ .

(٤٧) المصدر نفسه وكذلك خطاب مؤرخ ١٩٠٠/٩/٥ .

بهم خارج ميناء مسقط ، بينما ظل البريطانيون مصرين على أن مثل هـذه التسهيلات ينبغى أن تقدم لهم داخل منطقة ميناء العاصمة ، منعا لأن تتحول الى قاعدة بحرية فى المستقبل • وقد وافق الفرنسيون فى النهـاية على الاقتراح البريطانى (٤٨) •

غير ان أوتاف الذى فشل فى محاولاته لكسب السلطان أخذ يستخدم بعد سنة ١٨٩٩ تكتيكا جديدا لدعم الوجود الفرنسى فى المنطقة • ولما كان الفرنسيون قد شرعوا منذ الستينات فى منح شهادة تسجيل واعلام فرنسية لعدد كبير من ربابنة السفن العمانية ، معظمهم من أهل صور ، فقـد طالب اوتاف بمعاملة الملاحين العمانيين الذين يرفعون الأعلام الفرنسية معاملة الرعايا الفرنسيين ، وان هؤلاء بالتالى يعتبرون مشـمولين بالحمـاية الفرنسية (٤٩) • غير ان البريطانيين كانوا يؤيدون السلطان فيصـل فى دعواه بأن رفع الأعلام الفرنسية على السفن العمانية اجراء غـير قانونى وان الغرض منه هو منع الرعايا العمانيين من اظهار ولائهم للحاكم الشرعى فى البلاد • فلقد كان البريطانيون يخشون من أن يتكاثر عدد الرعايا الفرنسيين فى عمان مما يخول لفرنسا مستقبلا التدخل فى شؤون البلاد ، أو حتى فصل ميناء صور أو أجزاء أخرى من السلطنة عن بقية البلاد • وقد كانت هذه مشكلة شائكة تمس عددا من الدول ، ولم يبت فيها الا بعد عرضها على محكمة العدل الدولية • وعلى الرغم من أن حكم المحكمة قد جاء فى صالح

---

(٤٨) Precis Maskat ص ٧٤ — ٨٢ انظر ايضا « الوثائق البريطانية عن اسباب الحرب » مجلد ١ ص ٢١٤ •

(٤٩) وقد وردت تفصيلات عن قضية رفع السفن العمانية والعربية الاخرى الاعلام الفرنسية فى Precis Maskat ص ٤٦ — ٥٥ وفى كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥٤٩ — ٦٩ وفى كتاب « الخليج العربى » ، تاليف ويلسون ص ٢٣٩ — ٤٣ وفى سجلات وزارة الخارجية الفرنسية تحت عنوان

Bouttres Mascataises Francaises

(طبعة باريس ١٩٠٥) و « الحكم فى قضية السفن الشراعيـة التابعة لعمان » (لندن ١٩٠٥) •

البريطانيين ، الا ان النزاع الفرنسى البريطانى فى عمان لم تعـد له تلك الأهمية بعد ابرام الاتفاق الفرنسى ــ البريطانى سنة ١٩٠٤ [٥٠] .

وكانت نتيجة النشاط الفرنسى فى عمان فى الفترة ما بين ١٨٩٤ وسنة ١٩٠٤ انها دفعت بالسلطان فيصل أكثر فأكثر الى أحضــان البريطانيين . واذا افترضنا ان السلطان فيصل كان يهدف من تشجيعه للفرنسيين الى الايقاع بينهم وبين البريطانيين فان هدفه هذا قد تبخر وأدرك السلطان من أزمة ١٨٩٩ حقيقة الوجود البريطانى وسيطرته المطلقة على مصيره ، كما أن الفرنسيين من جانبهم قــد جنبوا السلطان فيصل من أن يصبح كغيره من أمراء الخليج مجرد تابع مطلق للبريطانيين . اذ لولا تلك الأزمة لكان من الجائز أن يعلن كرزن الحماية البريطانية على سلطنة مسقط ، « لا بالاسم فقط وانما بالفعل أيضا » [٥١] . ويتداعى من ذلك ان التحدى الفرنسى قد جسد الخطر الذى يهدد السيطرة البريطانية على الخليج فى التسعينات . وقد اضطر هذا حكومتى لندن وكلكتا الى تقييم مصالح حكومتيهما فى المنطقة واتخاذ الاجراءات التى تكفل الحماية اللازمة لتلك المصـــالح . أما على الصعيد الدولى فان الخلاف الفرنسى ــ البريطانى فى حد ذاته لم تكن له تلك الأهمية . وعلى أى حال فان النظر الى هذا الخلاف من زاوية الروح الفوضوية التى كانت تسود عــلاقات الدول الأوروبيــة فى مطلع القــرن العشرين ، يجعل منه خطرا يهدد المفاوضات الدائرة حول مســائل أكثــر أهمية ، كانت تؤرق الرأى العام وتدعم موقف المعارضين للاتفاق . وعلى الرغم من آن كبار واضعى السياسة فى كل من لندن وباريس كانوا مهتمين بعد سنة ١٨٩٨ بتحسين العلاقة بين الدولتين ، فان التحسن فى اتجــاهات الرأى العام قد استغرق وقتا طويلا . وعلى أى حال فقــد استمر ممثلا

---

(٥٠) سجل الاعمال والبروتوكولات المتعلقة بالخلاف الفرنسى ــ البريطانى .
(٥١) خطاب رقم ٢٩ بتاريخ ١٨٩٦/٩/٣٠ من الجين الى هاملتون .

بريطانيا وفرنسا فى عمان فى تبادل التهم وعلى الأخص فيما يتعلق بتجارة الأسلحة . غير ان الخلاف الانجلو — فرنسى على تجارة الأسلحة ، والصدام المحتدم بين ممثلى الدولتين فى عمان حول بعض المسائل المحلية ، قد سوى فى النهاية عن طريق المفاوضات على المستويات العليا (٥٢) .

حكومة لندن تتولى المسؤولية المباشرة لتخطيط السياســة البريطانيــة فى الخليج

فى سنة ١٨٢٠ بدأ حكام الخليج يفقدون السلطة الفعلية التى انتقلت منهم الى المقيم السياسى البريطانى ومساعديه . وقــد لاحظنا ان المقيم البريطانى كان يقوم بدور فعال فى رسم سياسة الخليج ما بين سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٩٢ هــذا بالرغم من أن تقرير هذه السياسة من الناحية الرسمية كانت بيد السلطات البريطانية فى حــكومتى لندن وكلكتا . ومما أسهم فى ترجيح فكرة « اتخاذ القرارات الخاصة بهذه السياسة على الطبيعة » هو عدم تعرض المصالح البريطانية فى الخليج لأى تعد خطير ، وهو ما يفسر عدم اهتمام حكومتى لندن وكلكتا اهتماما خاصا بما يجرى فى المنطقة . غير ان هذا الوضع قد تغير فى التسعينات ، عندما تولى مقاليد الأمور فى الخليج ممثلون بريطانيون دون المستوى المطلوب ، وبالتالى لم يكونوا من مســتوى التحديات التى يواجهونها والمتمثلة بمنافسة الدول الامبريالية الأخــرى للوجود البريطانى . وعلى كل فحتى سنة ١٨٩٩ لم تتحرك أى من حكومتى لندن وكلكتا لمنع تدهور الموقف الذى بات يهدد ذلك الوجود فى الخليج . وأخيرا عندما جاء كرزن الى السلطة فى الهند فى ســنة ١٨٩٩ بدأ تطبيق سياسة بريطانية محددة واضحة فى الخليج وبهذا انتقلت السلطة الفعليــة

---

(٥٢) من كامبون الى لانس داون ٢ يناير ١٩٠٢ والسجلات العامة مخطوطة رقم ٣٦١١/٢٧ .

لرسم السياسة البريطانية فى الخليج ، والاشراف الفعال على المصالح البريطانية فيه كنتيجة للأوضاع المتخلفة من وجود ممثلين بريطانيين غير أكفاء ، الى نائب الملك فى الهند . غير أن سيطرة حكومة كلكتا على الخليج لم تعمر طويلا . فعلى الرغم من وجود سياسى بارع ككرزن فى الهند حتى سنة ١٩٠٥ ، بدأت حكومة لندن تأخذ بزمام السلطة الفعلية على الجهاز السياسى البريطانى فى الخليج ، حتى قبل أن يترك نائب الملك منصبه فى الهند . وكان السبب الرئيسى لهذا التحول ، شأنه شأن تضاؤل نفوذ المقيمين فى الخليج ، هو ازدياد حدة الصراع بين القوى الامبريالية فى العالم . وكان من الواضح فى فترة تشهد صداما بين قوى امبريالية كبرى على مناطق النفوذ فى العالم ان لا تسمح حكومة لندن بوجود سياسة خارجية مستقلة فى الهند ، وتتعارض فى بعض الأحيان مع سياسة الحكومة البريطانية فى لندن .

وقد بدا الاتجاه نحو سيطرة حكومة لندن نفسها على السياسة البريطانية فى الخليج واضحا فى السبعينات من القرن التاسع عشر عندما أخذت هذه الحكومة ترقب عن كثب تطورات الأحداث فى آسيا وحتى الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر كانت حكومة الهند ما تزال تمارس قسطا كبيرا من الاستقلال فى شؤونها الخارجية وعلى الأخص فى عهد اللورد ليتون (١٨٧٦ـ٨٠) وخلال السنوات الأولى من عهد كرزن . وفى خلال هذه الفترة كانت الوزارة البريطانية ، من خلال معالجتها للمشكلات التى تواجهها فى آسيا والمتمثلة فى التغلغل الروسى الى المنطقة ،تضع فى اعتبارها أيضا الأوضاع فى أوربا والبلقان كما وجنوب غرب آسيا . بينما لم تكن حكومة كلكتا يتجاوز اهتمامها نطاق القارة الآسيوية وحدها [٥٣] . كما ان حكومة

---

(٥٣) تاريخ الهند ــ اعداد اكسفورد ، الطبعة الثالثة ص ٦٩٤ ، ٧٥٢ — ٧٥٣ .

الهند لم تكن ، بأى حال ، جاهلة لنقطة الضعف هذه • ولقد ثارت المناقشات فى التسعينات من القرن التاسع عشر حـول ما اذا كان من المحتم تطعيم ادارة الشؤون الخارجية فى حكومة الهند بخبراء فى الشؤون الأوربية • غير أن اللورد الجين (نائب الملك فى الهند سنة ١٨٩٤ — ١٨٩٩) ارتأى بعدم الحاجة الى ذلك ، لأن خبيرا من هذا النوع لن يستطيع أن يخطـو خطوة واحدة فى أية مشكلة تنشأ بين الهند ودولة أوربية بغـير موافقـة حكومة لندن [٥٤] • ومما زاد فى خطورة هذا الاحساس فى التسعينات هو التسليم بعدم فعالية الجهاز المسؤول عن الشؤون الخارجية فى الهند ، فى الوقت الذى كانت أعباء ومسؤوليات هذا الجهـاز تتعاظم بسرعة [٥٥] • وحتى مكتب شؤون الهند فى لندن كان يفتقر الى العناصر المؤهلة لتقييم الأحـداث الخارجية والتنسيق بين سياسـة حـكومة كلكتا وسياسة حـكومة لنـدن الخارجيتين • فقد كان هذا الجهاز جهازا بطيئا فى أعماله ، أخرق فى تصرفاته وغير مؤهل لمعالجة المشاكل التى يتطلب حلها قرارات حاسمة [٥٦] • وهكذا بازدياد تورط السياسة الخارجية لحـكومة الهند فى المشـاكل الأوربيـة ، وصراعات الدول الكبرى ، أصبح يتحتم على وزارة الخارجية البريطانيـة القيام بدور أكثر فعالية فى تقرير السياسة الخارجية لحكومة الهند •

غير ان البت فى هذا الموضوع لم يتم قبل وصول كرزن الى كلكتا فى سنة ١٨٩٩ ، غير ان هذه المشكلة قد طرحت معها مشكلة الجهة التى يحق لها الاشراف على الشؤون الخارجية للهند • فقد كان اللورد سالسبورى قلقا فى التسعينات من استقلال حكومة الهند فى سياستها الخارجية • وفى هذا الشأن بعث بمذكرات عنيفة كثيرة الى وزارة شؤون الهند يتهم حكومة الهند بانتهاج سياسة ضيقة واستفزازية فى آسيا [٥٧] •

---

(٥٤) خطاب رقم ٤٣ مؤرخ ١٨٩٥/١٠/٢٠ من الجين الى هاملتون •
(٥٥) خطاب مؤرخ ١٨٩٩/٦/٤ من كرزن الى هاملتون •
(٥٦) خطاب مؤرخ ١٩٠٣/٢/١٣ من هاملتون الى كرزن •
(٥٧) خطاب رقم ٦ مؤرخ ١٨٩٢/٢/٣ من لانس داون الى كرزن •

وبعد وصول كرزن الى الهند بشهرين نشبت أزمة مسقط ، وقد أبدى سالسبورى استياءه من الطريقة التى عالج بها كرزن ومرؤوسيه فى الخليج هذه الأزمة ، وهذا مما حمله على الدخول فى مفاوضات مع الحكومة الفرنسية لحل هذه المشكلة ، كما انه عارض سياسة التشـــدد التى اتبعها كرزن فى عمان ووصفها بأنها سياسة صارمة جدا وبذلك مهـد الطريق لمفاوضـــة فرنسا [٥٨] ، أما كرزن فقد عارض موقف سالسبورى ، غير أنه لم يـكن يستطيع أن يفعل أكثر من أن يرضخ لرئيسه فى النهاية [٥٩] ، وبعد سنة ١٨٩٩ لم يعد فى مقدور كرزن أن يستقل بسياسته فى الخليج قبل الرجوع الى حكومة لندن،وفى سنة ١٩٠٣ عاد كرزن يشكو من سيطرة وزارة الخارجية البريطانية على الشؤون الخارجية للهند [٦٠] ، غير ان هـــذا لم يكن يعنى ان حكومة كلكتا لم يعد لها صوت مسموع فى شؤون الخليج ، خصوصا منذ أن تمكن كرزن من منع التدهور فى الموقف ، وانما لم تعد هى الجهة المسيطرة على شؤون المنطقة ، أما بعد سنة ١٨٩٩ فقد كانت اقتراحات حكومة الهند بشأن المنطقة تعرض على حكومة لندن أولا لبحثها قبل اتخاذ قرارات محددة بشأنها ، بل فى أثناء وجود كرزن كانت حكومة لندن تتخذ بعض القرارات فيما يتعلق بالخليج دون اشعار حكومة كلكتا بذلك ، ولقد ثارت ثائرة كرزن عندما أحيلت مسألة رفع العلم الفرنسى الى محكمة العــدل الدوليـــة فى لاهاى [٦١] ، وما ان غادر كرزن الهند ، حتى كانت هيمنة حكومة لندن على سياسة الهند ، وبالتالى (سياسة الخليج) واضحة كل الوضوح ، والواقع ان اللورد هاردنج ، وزير الخارجية البريطانية قد صرح فى معرض الحديث

---

(٥٨) حياة كرزن جزء ٢ ص ٤٨ ، تأليف : رونالدشى وخطابات مؤرخـــة ١٨٩٩/٢/١٠ ، و ١٨٩٩/٩/٥ و ١٨٩٩/٣/١٠ و ١٨٩٩/٣/١٥ من هاملتون الى كرزن .

(٥٩) خطاب مؤرخ ١٩٠٠/٩/٥ من كرزن الى هاملتون .

(٦٠) خطاب الميزانية للورد كرزن فى ١٩٠٣/٣/٢٥ كما ورد فى كتـــاب « مسألة الشرق الاوسط » تأليف : شيرول ص ٣ .

(٦١) رسالة مؤرخة ١٩٠٤/٥/٢٨ من كرزن الى هاملتون .

عن الاتفاق الروسى — الانجليزى المعقود سـنة ١٩٠٧ ، « باننا فى الآونة الأخيرة قد أسقطنا حكومة الهند نهائيا من حسابنا » [٦٢] .

مناقشات حـول السيادة البريطانية على الخليج

كان الصدام بين حكومة لندن وحكومة كلكتا حول السياسة البريطانية فى الخليج ما يزال قائما عندما طرحت المشكلة لمناقشة عامة . وبوصـول الصراع البريطانى الى ذروته ، اضطرت بريطانيا الى أن تقرر ما اذا كان استمرار السيطرة البريطانية بصـورتها المطلقة فى الخليج أمرا ضروريا لمصـالحها أم لا .

فى سنة ١٨٩٩ نشبت حرب البوير . وقد أعرب كثيرون من البريطانيين عن تخوفهم من أن تتحالف فرنسا وروسيا وألمانيا ضد بريطانيا عن طريق استغلال موقفها الحرج فى أفريقيا ، وبالتالى تقدموا بمخططات تحول دون قيام هـذا التحالف . غير أن هذا التحالف لم يظهر الى الوجود اطلاقا . كما لم تكن فرنسا التى كانت مشـغولة بأزمات داخليـة ، وبسبب توجيه ديلكاسى لسياستها الخارجية ، راغبة فى احياء السياسة المعادية للبريطانيين التى كان يسير عليها هانوتو . بينما كانت ألمانيا ، بقطع النظر عن نواياها تدرك أنها لم تكن تملك القوة البحرية الكافية لمواجهة بريطانيا فى حـرب استعمارية ، وكانت روسيا هى الدولة الوحيدة التى يمكن أن تستغل المشكلة البريطانية فى جنوب افريقيا لمصلحتها .

وفى الفترة ما بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩٠٣ حاولت روسيا توسيع مناطق نفوذها فى ايران عبر الخليج ولم يكن هناك أدنى شك فى أن كثـيرين من الزعماء الروس من القيصر حتى أصغر سياسى فى روسيا ، كانوا يرغبون فى توسيع نفوذهم فى ايران . والفقرات التالية من خطاب بعث به نيقولا الثانى

(٦٢) تاريخ الهند — اعداد اكسفورد ، الطبعة الثالثة ص ٦٩٤ .

الى شقيقه قبيل نشوب حرب البوير تلقى أضـواء كاشـفة على مطامع الروس : « انى أدرك تماما أنه فى مقدورى أن أغير من سـير الحرب فى أفريقيا ـ والحل بسيط • وهـو أن أبرق بأوامرى الى جيش تركسـتان بالاحتشاد والزحف نحو الحدود • وهذا كل ما فى الأمر • وليس فى استطاعة أقوى الأساطيل أن تمنعنا من تسوية مشاكلنا مع انجلترا • وفى أقـوى نقطة من نقاط نفوذها المنيعة • الا أن الوقت لاتخاذ هذه الخطوة لم يحن بعد • فنحن لسنا مستعدين بعد لعمل خطير كهذا لأن تركستان ليست مرتبطة مع روسيا الداخلية بخط حديدى حتى الآن »(٦٣) •

وكان يشاطر نيقولا رغبته فى تسوية الأمور مع انجلترا بعض كبـار وزرائه • ومن ناحية أخرى هاجم الكاونت ويتى هذه المغامرة الحمقاء ، ودعا الى اتباع استراتيجية صبور تقوم على التسلل الاقتصـادى المقرون بخطة للتنمية الاقتصادية داخل روسيا • وحتى سنة ١٩٠٣ عندما تكللت سياسة المغامرين بالنصر ، ظلت سياسة روسيا الخارجية موضوع نزاع(٦٤) • غير أن حكومة سانت بيترسبرج ، ادراكا منها لواقع الأمور عارضت هـذه السياسة المثيرة ، كاحتلال هرات ، أو موانىء الخليج • وصرح تيرتوف ، وزير البحرية الروسية ان أى مينـاء روسى على الخليج لا يمكن الدفاع عنه(٦٥) • وعلى أى حال ففى الفترة ما بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩٠٣ حاول الروس فعلا توسيع منطقـة نفوذهم فى ايران والخليج العـربى ، وذلك باستخدام كل الوسائل المباحة لهم :

١ ـ فعن طريق تقديم القروض ، والضغوط المالية ، والقيود التجارية حاول الروس أن يسيطروا على اقتصاد المنطقة الشمالية من ايران •

---

(٦٣) « القيصرية والامبريالية فى الشرقين الاقصى والاوسط » ـ ١٨٨٠ ـ ١٩١٤ ص ٧ ـ ٨ (طبعة لندن ١٩٤٢) ، تأليف : بى • اج سمنر •

(٦٤) روسيا ـ فكرة وتاريخ ، ام فلورنسكى (طبعـة نيويورك) ص ١٢٦٨ و ١٢٦٩ فصل ٢ •

(٦٥) القيصرية والامبريالية ، تأليف سمنر ص ٨ وص ٢٢ •

٢ — عن طريق افتتاح قنصليات روسية فى أبو شهر ، وبندر عباس ، وسيستان ، والمحمرة وبغداد •

٣ — عن طريق مرابطة مجموعات من الكوزاك تحت قيادة روس فى أصـــفهان •

٤ — عن طريق ايفاد بعثات علمية لمسح طرق النقل •

٥ — عن طريق فتح محاجر صحية يشرف عليها أطباء روس ، وتحت حراسة مجموعات من الكوزاك لسد الطريق البرى بين الهند وايران •

٦ — عن طريق قيام السفن الحربية الروسية بزيارة موانىء الخليج بانتظام (بفتح خط ملاحى بحـــرى بين ميناء أوديســـا الروسى وموانىء الخليج) • ولقد اعترف الروس فيما بعد بأن هذا الخط كان عملية خاسرة من الناحية التجارية ، وقد أنشىء لأسباب سياسية • وفوق هذا كله قام الروس بمحاولة لانشاء قنصلية لهم فى مسقط ولكن المحاولة لم يكتب لهـــا النجاح • وينبغى التأكيد على حقيقة واحدة وهى أن كل هذه الاجراءات قد اتخذت على مستوى مسؤولين ثانويين ، وبغير موافقة حكومة ســـانت بيتر ســـبرج [٦٦] •

ولقد أثارت هذه الاجراءات ردود فعل حادة على المستوى الحكومى والشعبى فى بريطانيا واستمرت المناقشات من ١٨٩٩ حتى منتصف ١٩٠٢ • وظهرت خلال هذه الفترة ثلاثة اتجاهات داخل الدوائر الحكومية • اتجاه يتزعمه اللورد سالسبورى ، وآخر يتزعمه اللورد جورج هاملتون ، وزير الدولة لشؤون الهند واتجاه ثالث يتزعمه اللورد كرزن • أما سالسبورى فقد دعا الى تجاهل المحاولات الروسية فى الخليج ولم يكن هذا الموقف منه

---

(٦٦) نفس المصدر ص ١٤٦٨ — ٧٠ ايضـا (Precis Navel) ص ٢٠ — ٢١ و ٣٧ — ٣٨ و « علاقات بريطانيا بالخليج العربى » ، تاليف : داود ص ١٧١ — ٢٠٩ •

شيئا جديدا . فمنذ توليه لوزارة الخارجيــة ، كان يركــز اهتمامه على الوصول الى اتفاق مع روسيا . فقد كان من رأيه ان روسيا دولة كبرى أمنع من أن يؤثر فيها أى هجوم بحرى بريطانى ، بينما أى هجوم روسى برى على الهند قد يهوى لبريطانيا الى مستوى المرتبة الثانية بين الدول[٦٧] . وكان يرى ان اعتبار الخليج كخط دفاعى عن الهند مجرد تضليل للحقيقة . وان نجاح أى دفاع ضد مثل هذا الهجوم ينبغى أن يقوم على تركيز القوات البريطانية فى بلوشستان حيث يمكن تعزيزها بخط حديدى . كما أن أية خطة للدفاع عن ايران ، فى رأى سالسبورى ، لابد وأن تعتمد على شــبكة من خطوط السكك الحديدية تمتد من الهنــد الى ايران[٦٨] . ولمــا كان سالسبورى يشك فى قدرة وسياسة حكومة الهند الانجليزية يومئذ فى فترة كانت تشهد مدا امبرياليا ، فقد كان يعتبر تحذيرات حكومة كلكتا من وقوع تغلغل من جانب دول أوربية أخرى فى الخليج تحذيرات مبالغا فيها[٦٩] . وما ان نشبت حرب البوير حتى أخذ سالسبورى ينتهج سياسة حذرة فى الخليج . وكان يرى ان القيام بخطوات عنيفة ضد روسيا وغيرها من الدول الأوربية قد يجلب ردود فعل انتقامية ، لن يكون فى مقدور بريطانيا الرد عليها نظرا « لتورطها المخيف فى جنوب افريقيــا »[٧٠] . وحاول كرزن مستعينا بوزارة شؤون الهند استيضاح سالسبورى حول السياسة البريطانية فى الخليج غير أن رئيس الوزراء لم يتزعزع عن موقفه . ولقد وصف اللورد جورج هاردنج سياسة ســالسبورى بأنها ســياسة انتحــارية ، ولكنها

---

(٦٧) « ديلوماسية الامبريالية » ص ٧٨٨ — ٧٨٩ ، تأليف لانجر .
(٦٨) خطاب مؤرخ ١٨٩١/١٠/٢١ تحت رقم ١٥ من ســالسبورى الى لانس داون .
(٦٩) خطاب مؤرخ ١٨٩٩/٤/٢١ من سالسبورى الى كرزن وقد استشهد به رونالدشى فى كتابه « حياة كرزن » جزء ٢ ص ٤٨. وخطاب مؤرخ ١٩٠٣/٣/١٠ من هاملتون الى كرزن .
(٧٠) خطاب مؤرخ ١٩٠١/٦/٢١ من هاملتون الى كرزن .

مدروسة (٧١) . وبما أن سالسبورى كان يرى بأن مشاكل بريطانيا فى الخليج تافهة بالمقارنة الى مشاكلها الأخرى ، فانه لم يسمح لنفسه بأن يجر الى مواقف متطرفة (٧٢) .

أما اللورد هاملتون وزير الدولة لشؤون الهند فقد كان له موقف خاص من أزمة حرب البوير وعلى عكس سالسبورى كان هاملتون قلقا من التحركات الروسية فى ايران والخليج (٧٣) . وقد دعا بريطانيا الى التخلى عن تأييد سياسة ايران وأن تطالب بدلا من ذلك بالمنطقة الشرقية من ايران وساحل الخليج (سيستان والموانىء الشرقية للخليج) كمنطقة نفوذ لها . باعتبارها موقعا هاما بالنسبة للدفاع عن الهند . بينما حذر هاملتون حكومته من المطالبة بأكثر مما تستطيع الدفاع عنه بشكل فعال (٧٤) . وكان ضد ما أسماه « بسياسة التوسع » التى تهدف الى الاحتفاظ بالنفوذ البريطانى عبر منطقة الخليج كله . وكان يعتقد أن روسيا لابد وأن تصل فى يوم من الأيام الى منطقة الخليج ، وأنها سوف تستولى على تركيا ، وايران ، وأفغانستان وان ذلك على المدى الطويل سيكون فى صالح الحضارة . وكان يعتقد انه يكفى روسيا أن تحصل ولو على ميناء واحد فى المياه الدافئة للخليج ، وان حصولها عليه سوف يكون بمثابة صمام الأمان لا مصدرا للخطر (٧٥) . وكان يخشى من قوة روسيا ، ويقول ان لا أمل لبريطانيا فى

---

(٧١) رسائل مؤرخة ٣/٢٣ و ٣/٢٩ و ٤/١٠ و ٥/١٠ سنة ١٩٠٠ من هاملتون الى كرزن .

(٧٢) « حياة كرزن » تاليف رونالدشى جـزء ٢ ص ٤٨ الى جانب خطابين آخرين احدهما بتاريخ ٥/١٨ والآخر بتاريخ ٦/١٦ سنة ١٨٩٩ من هاملتون الى كرزن .

(٧٣) خطابات مؤرخة ٣/٢٩ و ٤/٢٧ سنة ١٩٠٠ من هاملتون الى كرزن .

(٧٤) خطابات مؤرخة ٣/٢٢ و ٦/٦ و ٦/١٣ سنة ١٩٠٠ من هاملتون الى كرزن .

(٧٥) رسالة بتاريخ ١/١١ ورسالة بتاريخ ٢/١ سنة ١٩٠٠ من هاملتون الى كرزن .

مقاتلة روسيا والانتصار عليها فى معـارك برية ، الا على حـدود الهنـد فقط [٧٦] . وعندما نشبت حرب البوير دعا هاملتون الى الهدوء وعدم اثارة ضجة . ومما قاله تعليقا على هذا الوضع « بأن بريطانيـا تسـيطر على امبراطورية هامة فى آسيا وليست فى حاجة الى توسيع هـذه الامبراطورية بضم أراض جديدة اليها » [٧٧] . وكان يرى انه لو نشبت حرب فقد تواجه بريطانيا جبهة من الدول الأوربية ، وفى هذه الحالة ستجد الهنـد نفسها مضطرة الى أن تدافع عن نفسها بالامكانات التى لديها ، ولن يكون فى وسعنا ارسال تعزيزات اليها ، وقد تضطر الى اخلاء بعض المواقع الأمامية وهذه الاعتبارات هى وراء رغبته فى منع الهند من اسـتنزاف مواردها ، وذلك بالحـد من امكاناتها [٧٨] .

أما اللورد كرزن فقد كانت سياسته معروفة . وعلى أى حال فقد كان الرأى العام البريطانى يؤيده . كما كان يؤيده كتاب متنفذون أمثالى فالنتين شيرول محرر صحيفة التايمز . وكان ينادى بأن تفرض بريطانيا على الخليج برا وبحرا سيطرة تامة ، وان هذه السيطرة ضرورية لحماية الهند والدفاع عنها [٧٩] . وكان يقول عن سالسبورى ، وهاملتون بأنهما يتبعان « سياسة النعامة » فى ايران ، وبأن الطريقة الوحيدة لمواجهة الروس هى « محاربتهم على كل الجبهات » حتى ولو تطلب ارسال قوات هندية الى الخليج [٨٠] . غير أن موضوع التحدى الروسى ، وتحدى الدول الأوربية الأخرى وفقا لما كان يتصوره كرزن كان موضع تسـاؤل . ومهما يكن فان صراحة كرزن فى

---

(٧٦) رسالة مؤرخة ١٨٩٩/١١/٢ من هاملتون الى كرزن .
(٧٧) رسالة مؤرخة ١٨٩٩/١١/٩ من هاملتون الى كرزن .
(٧٨) خطابان تاريخ ١/٣ و ٦/١٣ سنة ١٩٠١ من هاملتون الى كرزن .
(٧٩) « الدبلوماسية » تأليف هرويتز جزء ١ ص ٢١٩ — ٢٤٩ وذلك للوقوف على التحليلات الكلاسيكية التى وصفها كرزن للوجـود البريطـانى فى ايران والخليج .
(٨٠) خطاب مؤرخ ١٩٠١/٤/٢٢ من كرزن الى هاملتون .

دفاعه عن موقفه ، كانت من أهم العوامل التى دعمت من مركز بريطانيا فى الخليج بعد حرب البوير .

وقد امتدت المرحلة الثانية من المناقشات عن احتمالات السياسة البريطانية فى الخليج على امتداد النصف الأخير من سنة ١٩٠٢ ، والنصف الأول من سنة ١٩٠٣ . وفى يوليو ١٩٠٢ اعتزل سالسبورى وخلفه بلفور فى رئاسة الوزارة البريطانية . ولم تتمكن الحكومة الجديدة من اثبات وجودها قبل سنة ١٩٠٣ ، ولكن ما ان تم ذلك حتى بدأت تهتم اهتماما بالغا بالشؤون الآسيوية ، كما شكلت لجانا خاصة لدراسة المنطقة . ورغم امتعاض بلفور من بعض تصرفات كرزن فقد كان يشاطره الخوف من روسيا [٨١] . أما اللورد لانس داون الذى احتفظ بمنصبه كوزير للخارجية فقد كان له موقف آخر ، على الرغم من انه كمرؤوس لسالسبورى كان أكثر تشددا من رئيسه القديم تجاه كل من ألمانيا وروسيا [٨٢] . ومنذ سنة ١٩٠١ أخذ كرزن يكاتب لانس داون وهو نائب سابق للملك فى الهند ويعرب فى رسائله هذه عن آرائه . ولقد شكا كرزن فى احدى هذه الرسائل من الوضع المتدهور فى فارس ، وحثه على تحريك وزارته لاتخاذ الخطوات اللازمة ، لان حكومته قد فعلت كل ما كان فى وسعها [٨٣] . وقد أعجب لانس داون بآراء كرزن ورتب قرضا لايران وزيارة يقوم بها الشاه الى لندن [٨٤] . وفى أحد ردوده

---

(٨١) خطاب مؤرخ ١٩٠٣/٢/٢٧ من هاملتون الى كرزن وكتاب « ارثر جيمس بلفور » ، تاليف بى د جديل جزء ١ ص ٣٩٢ (طبعة لندن ١٩٣٦) .

(٨٢) خطابان بتاريخ ١٩٠١/٨/٨ و ١٩٠٣/٢/٢٧ من هاملتون الى كرزن .

(٨٣) خطاب مؤرخ ١٩٠٣/٥/١٤ من كرزن الى هاملتون ويتضمن اشارات كثيرة الى خطابات كرزن الى لانس داون . أيضا خطاب مؤرخ ١٩٠١/٤/٥ من كرزن الى لانس داون وقد استشهد به جوس فى كتابه « وثائق عن أسباب نشوب الحرب » ص ٣٥٦ — ٦٣ مجلد ٤ .

(٨٤) سيرة حياة لانس داون ، تاليف اللورد نيوتن (طبعة لندن ١٩٢٩) ص ٢٣٢ — ٣٨ .

على رسائل كرزن ذكر لانس داون بأنه على الرغم من أنه ليس من حق بريطانيا أن تمنع بواخر الدول الأخرى من ارتياد مياه الخليج ، الا انه لن يسمح لروسيا بأن تكسب لها منطقة نفوذ فيه ، ملاحية كانت أو عسكرية[٨٥] . ومن الواضح ان لانس داون استطاع على ضوء خطاب كرزن المؤرخ فى شهر ابريل سنة ١٩٠١ والخطابات التالية الأخرى تكوين رأيه الخاص عن السياسة البريطانية فى الخليج ، وهو لا يختلف فى مضمونه عن سياسة كرزن هذا رغم ان لانس داون لم يكن يستطيع اتخاذ قرارات بمفرده فى هذا الشأن حتى سنة ١٩٠٢ . وما ان أشرفت حرب البوير على نهايتها حتى بدأت بريطانيا تتشدد فى سياستها فى الخليج . ففى أوائل شهر يناير سنة ١٩٠٢ بعثت بريطانيا بمذكرة سرية الى الحكومة الايرانية تحذرها من السماح لروسيا باقامة قاعدة لها فى الخليج[٨٦] وفى سنة ١٩٠٣ انتهت حرب البوير ، وبانتهائها تخلت بريطانيا عن سياسة « العزلة الوقورة » بتحالفها مع اليابان. وهذه الخطوة ، فضلا عن الزعامة الجديدة التى تولت مقاليد الحكم فى البلاد ، بدأت بريطانيا تتخذ موقفا صلبا من المشكلات الدولية . اتخذت بريطانيا أول خطوة لها فى الاتجاه الجديد فى أوائل سنة ١٩٠٣ ، بعد أن تلقت معلومات عن هجوم تزمع روسيا القيام به على التيبت[٨٧] . وقد أحدث هذا النبأ موجة من القلق والاستياء فى الدوائر الهندية الحاكمة ، مما حدا بلانس داون الى تحديد موقف الحكومة البريطانية من المشاكل الآسيوية والفارسية. فبعد اجتماع لانس مع الدبلوماسيين البريطانيين وبعد ان قام بجس نبض المسؤولين الروس ، قرر الوقوف فى وجه أى زحف تقوم به روسيا نحو

---

(٨٥) خطاب مؤرخ ١٩٠١/٥/٥ من لانس داون الى كرزن مكتبة وزارة الخارجية — وثائق لانس داون رقم ٢٧٧ .

(٨٦) Precis Jnt'l Rivalry ص ٤٦ .

(٨٧) تاريخ الهند — اعداد اكسفورد الطبعة الثالثة ص ٧٥٣ — ٧٥٤ والواقع ، ان الدالاى لاما ، قد طلب على ما يبدو بمساعدة من الروس ضد ضغط صينى متزايد على بلاده .

جنوب شرقى آسيا . وفى الخامس من شهر يوليو أعلن لانس داون رسميا فى مجلس اللوردات : « ان اقامة أية قاعدة بحرية أو ميناء مسلح فى منطقة الخليج من جانب أى دولة سيكون بمثابة تهديد خطير للمصالح البريطانية هناك ، وان الحكومة البريطانية ســوف تقــاومه بكل ما تحت تصرفنا من امكانات [٨٨] » . وقد جاء رد الروس على هذا البيان لينا ، وذلك بحــكم التزامات روسيا الجسيمة فى الشرق الأقصى . بل لقد صرح السفير الروسى بنكندرف « بان ليس لدى روســيا أى نية فى اقامة قاعــدة بحرية لها فى الخليج [٨٩] » . وعلى كل فقد كان البيان ، على حد رأى اللورد هاملتون تصرفا خاطئا ، ولهذا استقال من منصبه بعد مضى خمسة أشــهر على ذلك التاريخ [٩٠] . أما كرزن فقد صفق للبيان واعتبره انتصارا لخطه السياسى . وقد علق عليه يقول : « أنه لا يسعنى الا ان أشعر بالفخر » . اذ ان هــذا ما كنت أنادى به ، وهو أسلوب أصبح منذ ذلك الوقت أسلوبا معروفا[٩١] » .

وفى ربيع سنة ١٩٠٣ قام كرزن بزيارة للخليج للتأكد شخصيا من ان السيطرة السياسية والتجارية البريطانية فى المنطقة موجودة بالفعل . كمــا « وللبحث عن المواقع التى تصلح لاقامة قواعد بحرية بريطانية فيها » . وكان يعتقد ان زيارته « نتيجة منطقية » لتصريح لانس داون الذى اعتبره نائب الملك تمهيــدا لتطبيق مبــدأ مونرو بريطــانى فى الخليج [٩٢] » . أما الزيارة فى حد ذاتها فقد كانت نوعا من الدعاية والاعلان . وفى مسقط

---

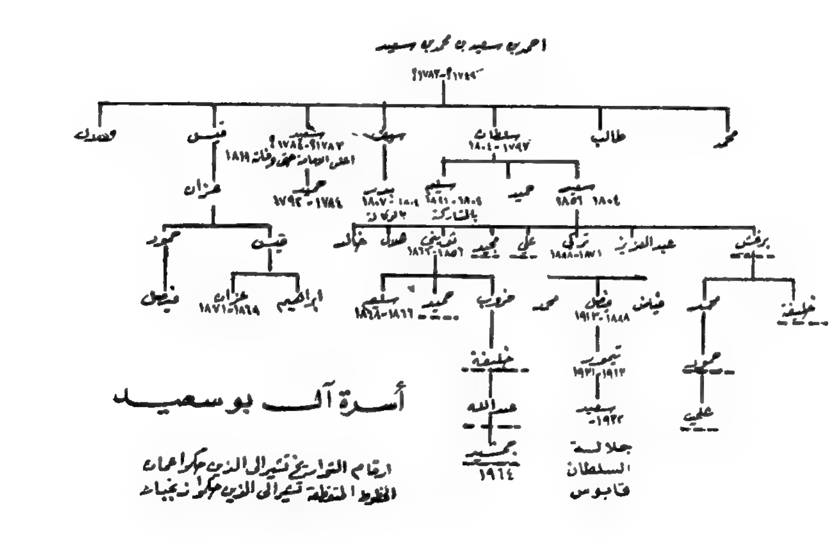
(٨٨) مناقشات مجلس اللوردات — ١٩٠٣ ، ١٩٠٣/٥/٥ .

(٨٩) Precis int'l Rivalry ص ٤٨ .

(٩٠) خطاب مؤرخ ١٩٠٣/٦/٥ من هاملتون الى كرزن .

(٩١) خطاب مؤرخ ١٩٠٣/٥/١٤ من كرزن الى هاملتون .

(٩٢) خطاب مؤرخ ١٩٠٣/٦/٢١ من هاملتون الى كرزن .



أسرة آل بوسعيد
ارقام التواريخ تشير الى الذين حكموا عمان
الخطوط المتقطعة تشير الى الذين حكموا زنجبار
احمد بن سعيد بن محمد بن سعيد
محمد
طالب
سلطان
١٧٩٢-١٨٠٤
سيف
سعيد
قيس
عزان
سالم
حميد
سعيد
١٨٠٤ ١٨٥٦
برغش
عبد العزيز
تركي
١٨٧١-١٨٨٨
علي
ثويني
١٨٥٦-١٨٦٦
هلال
خالد
قيس
ابراهيم
عزان
١٨٦٨-١٨٧١
فيصل
١٨٨٨-١٩١٣
تيمور
١٩١٣-١٩٣١
سعيد
-١٩٣٢
جلالة
السلطان
قابوس
خليفة
عبد الله
محمد
١٩١٤

قلد كرزن السلطان فيصل وسام الصليب الأعظم للامبر اطورية ، وأكـد للسلطان بانه يمكنه الاعتماد على بريطانيا فى مساعدته على قمع آى ثورة شعبية تنشب ضده • ولقد وصف كرزن السلطان فيصل بانه « الحـاكم الاقطاعى والتابع المخلص للتاج البريطانى أكثر منه حاكما ذا سيادة » ، كما أضاف يقول بأن السلطان قد أعرب عن رغبته فى ان تعامله بريطـانيا معاملتها لأمراء الهند فى علاقتهم بالتاج البريطانى [٩٣] • أما بالنسبة للرأى العام العالمى فى الخليج فقد كان الغرض من زيارة كرزن هى التأكيد على ان السيطرة البريطانية فى الخليج قد وجدت لتبقى ، كما كانت الزيارة نهاية لفترة طويلة من المناورات السياسية ، التى كان اعتـادها الخليج لمرحلة ١٨٩٣ — ١٩٠٣ • وخلال المفاوضات التى سبقت الاتفاق الروسى الانجليزى حول ايران سنة ١٩٠٧ اعترف الروس بالوجـود البريطانى فى الخليج • وبذلك تعزز تصميم بريطانيا على الاحتفاظ بسيطرتها على المنطقة • كمـا نجحت بريطانيا ما بين سنة ١٩١١ وسنة ١٩١٤ فى اقناع كل من الألمـان والعثمانيين بالاعتراف بالوجود البريطانى فى منطقة الخليج •

فى سنة ١٩٠٣ قررت بريطانيا الاحتفاظ بسلطانها على الخليج • ومنذ ذلك الوقت ارتبط مصير دول الخليج ببريطانيا ارتباطا واضحا • وبالتالى كان معنى تأكيد سالسبورى على مسؤولية حكومة لندن عند رسم سياسة الخليج ، أن مصائر دوله أصبحت تقرر من على بعـد آلاف الأميـال من أصحابها الأصليين • لقد كان جهاز السيطرة البريطانية فى الخليج فى سنة ١٩٠٣ خليطا من أفكار سالسبورى ، وكرزن ، وفرير ، وبلى ، وروس وغيرهم

---

(٩٣) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٢٦٣٤ — ٢٦٣٦ •

من أوائل المسؤولين البريطانيين الذين وقع على كاهلهم عبء رسم السياسة البريطانية فى المنطقة • ومن ثم فإن عملية فرض السيطرة البريطانية على الخليج عن طريق القوة كان يعنى ان المؤثرات الحضارية فى المنطقة تبقى من حيث الأساس مؤثرات هندية بريطانية • ومن هنا يجوز القول ان الشروط الأساسية لهذه العملية كانت قائمة بالفعل فى سنة ١٩٠٣ ، وهى التى شكلت وصاغت تاريخ المنطقة منذ ذلك الوقت ، كما انها هى التى أثرت فى نوعية التحديث السريع للمنطقة واتجاهاته منذ بداية صناعة النفط •

الجُزءُ الرابِع

تكيف عثمان مع المرحلة الجديدة

الفصل السابع

سقوط النظام المعتدل
١٨٥٦ - ٧١

لقد مزقت وفاة السيد سعيد بن سلطان سنة ١٨٥٦ غلالة الاستقرار التى كانت تحجب مواطن الضعف فى الامبراطورية العمانية . فالدولة العريضة الشاسعة التى امتد نفوذها من بحيرات أفريقيا الوسطى غربا حتى مشارف شبه القارة شرقا ، كانت فى حقيقتها انعكاسا لموهبة وشخصية رجل واحد هو السيد سعيد بن سلطان . وعلى الرغم من أن الشطر الافريقى من هذه الامبراطورية قد بعث من جديد ، الا أن الأعوام الخمسة التى أعقبت وفاة سعيد العظيم ، قد شهدت تداعى البناء السياسى الذى كان يستند عليه الحكم المعتدل فى عمان . وعلى أى حال ، فلم يكن فى مقدور أى انسان حتى لو كان فى مستوى السيد سعيد ، أن يحول دون الكوارث التى ألمت بعمان ما بين سنة ١٨٥٦ وسنة ١٨٧١ . كما لم يكن فى مقدور أى حاكم عمانى أن يمنع تسرب النشاط الاقتصادى الحديث ووسائل المواصلات الحديثة الى المنطقة الغربية من المحيط الهندى والخليج فى الستينات من القرن التاسع عشر . أو أن يغير من الاعتقاد بأن المؤسسات الملاحية القديمة فى الخليج قد استنفدت أغراضها بعد ظهور السفن البخارية فى المياه العربية . ومع ذلك فإن انتشار هذه التكنولوجيا الحديثة ، كان السبب ، فى تدهور النشاط التجارى والملاحى القديم للمنطقة ، وتقويض الأسس الاقتصادية التى كان يعتمد عليها الجهاز السياسى للنظام الأباضى المعتدل ، القائم فى المنطقة الساحلية من عمان ، والذى كان يدعى السيادة على الاقليم الداخلى من عمان أيضا .

ولو قيض لعمان حاكم قوى مستنير لتمكن من اخضاع مؤثرات الثورة الاقتصادية لعام ١٨٦٠ للبيئة العمانية ، وبذلك يمنع التفسخ السياسى الذى دب فى أوصال حكومة البوسعيد فى سنة ١٨٦٨ وعلى كل فخلال حكم خليفتى السيد سعيد المعتدلين ، وهما ابنه ثوينى (١٨٥٦ — ١٨٦٦) ، وحفيـده سالم (١٨٦٦ — ١٨٦٨) عانت عمان من ضعف فى جهازها الادارى ، ومن تأزم فى علاقاتها مع ايران والسعودية ، بالاضـافة الى ازدياد التـدخل البريطانى فى شؤونها الداخلية ، وأخيرا من ظهور جناح أباضى محـافظ ونشط ، معارض ، استطاع فى النهاية من تصفية الحكم المعتدل واعادة تثبيت حكم الامامة المحافظ فى سنة ١٨٦٨ •

وكان يبدو للوهلة الأولى أن حكومة المحافظين العمانيين بزعامة عزان ابن قيس (١٨٦٨ — ٧١) ، وينتمى الى أحد فروع عائلة البوسعيد ، قوية وتحظى بتأييد الشعب ، غير أن النزعة المحافظة للنظام الجـديد وتعصبه وافتقاره الى المرونة ، بالاضافة الى عجزه عن حل مشاكله المالية الخطيرة ، سرعان ما قوض دعائم إمامة عزان • وقد جاءت بعد حكومة عزان حكومة أخرى معتدلة بزعامة تركى بن سعيد ، أحد أبناء سعيد بن سلطان ولكنهـا كانت حكومة مزعزعة • وعلى كل فقد تعرضت حكومته فى سنة ١٨٧١ للخطر وبدا يومها أن عمان سوف تتفتت الى عدد من الامارات الصغيرة المتناحرة ، وبالتالى تفقد كل مظاهر وحدتها السياسية • وسوف نتناول فى بقية هـذا الفصل التدهور المؤقت لحكومة البوسعيد المعتدلة فى عمان ما بين سنة ١٨٥٦ وسنة ١٨٧١ •

ازمة الحكم فى الامبراطورية العمانية — ١٨٥٦ — ٦٨

تقسيم الامبراطورية :

لم يكن بين أبناء السيد سعيد من يتمتع بالكفاءة والتأييـد السياسى الذى يؤهله لحكم الامبراطورية العمانية والمحافظة على وحدتها • لذلك انقسمت هذه الامبراطورية بعد وفاة السلطان سعيد الى دولتين • وكان

سعيد قد عين اثنين من أنجاله نائبين عنه فى كل من الجزء الافريقى (زنجبار) والجزء الآسيوى (مسقط) من الامبراطورية للعمل أثناء الفترات الطويلة التى كان يتغيب فيها عن الحكم . ومنذ سنة ١٨٣٣ كان ثوينى ينوب عن والده فى العاصمة ، بينما كان الابن الثانى ماجد ينوب منذ سنة ١٨٥٤ عن والده فى زنجبار . وقد أصبح لكل منهما نفوذ واسع فى المنطقة التى يحكمها ، ولكن ليس بالدرجة التى تمكنه من ضم الجزء الآخر الى حيز نفوذه . كما لا يبدو أن السيد سعيد قد رشح أحد أبنائه ليخلفه على الحكم بعد وفاته .

وما أن توفى السيد سعيد حتى بدأ ماجد وثوينى يتفاوضان على حل المشاكل السياسية التى أخذت تواجه الدولة العمانية والأسرة الحاكمة فيها . وقد جاءت البادرة من ماجد الذى عين ابن عمهما محمد بن سالم كمبعوث الى أخيه فى زنجبار . وكانت نتيجة المباحثات التمهيدية ، أن تعهد ماجـد بدفع ٤٠٫٠٠٠ ريال نمسوى كل سنة مساعدة منه الى أخيه بشرط أن يتخلى ماجد عن مطالبته باقليم زنجبار الذى كان أغنى من الاقاليم الآسيوى . وهكذا بدا ان التقسيم الودى للامبراطورية هو الحل لمشكلة الخلافة [١] .

وعلى كل فان ماجد لم يتمكن من الوفاء بوعده لأخيه ، وذلك لانخفاض نسبة الضرائب الجمركية ، وبالتالى كان رد فعل ثوينى على هذا الموقف ، هو الاعلان فى سنة ١٨٥٦ بأنه الحاكم الشرعى لجميع أراضى المملكة العمانية بما فيها اقليم زنجبار . وتنفيذا لهذه الخطوة أخذ ثوينى يدبر الثـورات ضد ماجد كما جهز حملة عسكرية من ٢٥٠٠ جندى لمهاجمة زنجبار واطاحة أخيه . ولكن ما كاد أسطول الغزو يتوغل كثيرا داخل البحر وأصبح التهديد بنشوب حرب فى المنطقة الغربية من المحيط الهندى أمرا واقعا ، حتى تدخل الانجليز وردوا أسطول الغزو العمانى على أعقابه ، وفرضـوا هدنة على الطرفين [٢] .

---

(١) التحفة للسالمى جزء ٢ ص ٢١٩ ، وكتاب لوريمر جزء ١ ص ٤٩٦ .

(٢) تقرير حول زنجبار بقلم رجبى ـ من سجلات حكومة بومبى ١٨٦١ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٤٧٠ .

غير ان الحرب بينهما ظلت تنذر بالانفجار من وقت الى آخر مما أدى الى تدهور الأوضاع التجارية فى كل من مسقط وزنجبار • وأخيرا فى شهر مايو سنة ١٨٦٠ وتحت ضغط الأوضاع الاقتصادية فى البـلاد ، التى كان يغذيها الجو السياسى المضطرب ، وافق السيد ثوينى على اقتراح اللورد كاننج ، نائب الملك فى الهند بعرض الخـلاف بينهما على التحكيم • وكان السيد ماجد قد سبق أن وافق على هذا الاقتراح •

وعلى ضوء هذا الاقتراح شكلت لجنة للتحقيق فى النزاع • وفى عام ١٨٦١ أعلن اللورد كاننج ان قرارات اللجنة وتوصياتها تعتبر ملزمة عـلى الطرفين وحكما نهائيا فى النزاع • وينص قرار اللجنة فى المقام الأول على تقسيم الامبراطورية العمانية الى دولتين منفصلتين وبالتالى أصبح استقلال كل من زنجبار وعمان حقيقة معترفا بها وتلقب كل حاكم من الدولتين بلقب « سلطان » كما تعهد ماجد حاكم زنجبار عن نفسه وعن خلفائه بدفع مبلغ ٤٠٠٠ ريال نمسوى كل عام الى سلطان عمان • وهو نفس المبلغ الذى كان ماجد قد وعد به أخاه فى المفاوضات التى أجرياها بعد وفاة والدهما مباشرة • وقد نص القرار على ان المبلغ لا يعتبر أتاوة أو جزية ، بل بمثابة تعـويض لسلطان عمان مقابل تنازله عن حقوقه فى زنجبار وكتسوية لتركة لم تـكن عادلة • كما وافق ماجد على أن يدفع الى ثوينى الأقسـاط المتـأخرة من التعويض وقدرها ٨٠٠٠٠ ريال نمسوى [٣] •

وفى سنة ١٨٦٢ أى بعد سنة من هـذا الاتفـاق ، وافقت الحكومة الفرنسية التى كانت مشغولة ذلك الوقت بمشاكلها الافريقية ، على تزكية الاتفاق والاشتراك مع بريطانيا فى اصدار بيان باحترام استقلال كل من

---

(٣) تقرير ابتشيسون — ١٩٣٣ وكتاب « سلطنة عمان » أزمة مسقط — (طبعة باريس ١٩١٤) ص ١٨٣ — ١٨٥ . ثم « افريقيا الشرقيـة وغزاتها » فصل ٥ و ١٦ . وقد ضمت لجنة التحقيق كلا من البريجادير دبليو كوجلان المقيم البريطانى فى عدن والقس بارجر احد علماء اللغة العربية و هـ . رسام وكيـل حكومة بومبى الموقت فى مسقط .

سلطنة زنجبار وسلطنة عمان . وقد أجرى المفاوضات مع فرنسا السفير البريطانى فى باريس بالنيابة عن وزارة الخارجية . ولم يعلم ممثلو حكومة الهند والحكومة البريطانية شيئا عن أمر هذا الاتفاق الا فى سنة ١٨٩٠ عندما بدأت الأنباء عن اعلان الحماية البريطانية على الخليج تتسرب الى الخارج . وكان البيان الانجلو — فرنسى سببا فى عدول بريطانيا عن اعلان الحماية على عمان فى سنة ١٨٩١ مما أعطى فرنسا مبررات للتدخل فى شؤون عمان فى التسعينات ، وأبقى للسلطان قسطا من الاستقلال الشرعى أكثر مما كان يتمتع به حكام الدول البحرية الأخرى فى الخليج (٤) .

غير أن تفتيت الامبراطورية العمانية بهذا الشكل قد عاد بأضرار بالغة على عمان وبنوع أخص على المقاطعات الساحلية من البلاد . وعندما توفى السيد سعيد كانت معظم السفن الحربية والتجارية الخاصة به راسية فى ميناء زنجبار وبالتالى فقد استولى عليها ماجد وكانت تمثل الجزء الأكبر من استثمارات سعيد المالية . كما اضطر ثوينى فى سنة ١٨٦٣ الى تصريف العدد القليل من السفن العمانية التى بقيت فى ميناء مسقط بسبب الاهمال ، ولعدم توفر الأموال اللازمة للانفاق على ادارتها ، ما عدا سفينتين أو ثلاث . ومن ناحية أخرى تدهورت تجارة عمان التقليدية مع زنجبار ، وذلك قبل أن تظهر بواخر ماكيتون الى الوجود فى الخليج سنة ١٨٦٢ . وفى الستينات من القرن التاسع عشر ، كنتيجة لتوتر العلاقات بين حاكمى مسقط وزنجبار ، أخذت السفن العمانية تقصر نشاطها على المنطقة الآسيوية وحدها متخذة من بندر عباس مركزا لها (٥) . أما فى الفترة التى سبقت عام ١٨٦١ فقد كانت رؤوس الأموال العمانية تستثمر فى المشروعات الزراعية والتجارية

---

(٤) للاطلاع على نص الضمان راجع « الديلوماسية » تأليف هرويتز ص ٥ و ١٦ .

(٥) رحلة عام عبر اواسط وشرقى الجزيرة العربية (طبعة لندن ١٨٦٦) جزء ٢ ص ٣٣٩ وخطاب مؤرخ ١٨٦٣/٢/١٦ من بلى الى اندرسون و Precis inl'L Rivalry ص ٢٧ .

والملاحية ، وكانت حصيلة هذه الاستثمارات تسهم فى دعم اقتصاد البلاد . أما فيما بعد سنة ١٨٦١ فقد اضطر عدد كبير من التجار العرب ، لانعدام الفرص الاقتصادية ، الى الهجرة الى زنجبار . كما غدت زنجبار ملجأ للزعماء السياسيين المنشقين عن حكومة مسقط . وفى أكثر من مناسبة لعب ذهب زنجبار دورا هاما فى تقرير مصير الخلافات السياسية فى عمان . وفى سنة ١٨٦١ كان مجموع دخل حكومة السلطان حسب تقديرات لجنة كاننج أقل من نصف ما كان يرد الى خزينة زنجبار ولم تعد هذه الأموال فى متناول أى حاكم عمانى ، كما كان الحال قبل سنة ١٨٥٦ (٦) . وكان من المتوقع أن يؤدى تخفيف حدة التوتر السياسى بين البوسعيد وحكام السعودية فى أعقاب اعلان اتفاق كاننج سنة ١٨٦١ الى استئناف العلاقات الاقتصادية الوثيقة بين عمان وزنجبار الا أن تسيير الخط الملاحى فى مياه الخليج سنة ١٨٦٢ قد حول ، لسوء الحظ ، المشاكل الاقتصادية التى سببتها الأوضاع السياسية خلال سنة ١٨٥٦ — ٦٢ الى كارثة اقتصادية رهيبة .

كما ان الكارثة الاقتصادية بدورها أسهمت فى الكارثة السياسية . فانخفاض الدخل الجمركى وغيره من الدخول الضرائبية من الحركة الملاحية، قد ازداد فى الستينات من القرن التاسع عشر . ولم تتمكن أى حكومة عمانية من حكومات ذلك العهد التغلب على المشاكل الناجمة عن تقلص مصادر الدخل . والواقع ان الحكام العمانيين بغير استثناء قد واجهوا فى أواخر القرن التاسع عشر مشاكل مالية خطيرة أضعفت من قدراتهم السياسية الى حد كبير . وعلى كل فحكام ما بعد سنة ١٨٧١ قد قاموا بمحاولات كثيرة للتغلب على هذه المشكلة ، لم يكن فى وسع حكام الستينات القيام بها .

---

(٦) التقرير الادارى ١٨٧٧ — ١٨٧٨ ص ١٢٧ — ١٢٩ وابن رزيق و « اصطياد العبيد » تأليف كولومب ص ١٨٤ — ٨٦ ويذكر فيه ان مجموع قيمة تجارة زنجبار سنة ١٨٦٧ قد بلغ ٧٠٠٫٠٠٠ ج . س سنويا وكانت آخذة فى النمو بينما بلغ دخل سلطان زنجبار وحده ٣٤٥٫٠٠٠ ريال نمسوى أو ما يعادل ٧٢٫٠٠٠ ج . س وذلك عدا ارباح تجارة الرقيق .

ونظرا لأن النتائج المترتبة على كارثة الستينات ، كانت أكثر وضوحا فى الجزء الساحلى من البلاد ، لأن السلطات فى مسقط كانت محرومة من مصادر دخلها العادية فى ذلك الوقت ، فقد تمخض الوضـــع عن بروز مشـــكلات سياسية جديدة . فالحكم البوسعيدى المعتدل ، والجزء الساحلى من البلاد ، بعد أن جردا من مصادرهما الاقتصادية التقليدية ، فقدا الامكانيات اللازمة للاحتفاظ بالسلطة على الجزء الداخلى من البلاد وعلى مجموعاته المحافظة . وهكذا حدث تحول مثير نسبيا فى القوة السياسية لكل من العمانيين سكان الساحل والمحافظين سكان الداخل . وهكذا ارتفعت الأسهم السياسية للجزء الداخلى من البلاد والقوى المحافظة فى الستينات ، بحيث تمخض ذلك كله فى سنة ١٨٦٨ عن قيام حكم عمانى جديد استطاع تحقيق الوحدة السياسية للوطن العمانى برهة من الوقت تحت زعامة امام عمانى محافظ .

حكم ثوينى بن سعيد — ١٨٥٦ — ٦٦ :

تعرض ثوينى بن سعيد خليفة السلطان سعيد على الحكم وأكبر أبنائه أكثر من غيره من الحكام للمشاكل والأزمات السياسية التى داهمت عمان فى الفترة التى تلت وفاة والده سعيد . فثوينى لم يكن اداريا قديرا ، ومن سوء حظه أنه تولى الحكم فى فترة كانت البلاد تتطلب زعيما قديرا . ولم تكن سنه يومئذ تزيد على الأربعين . وكانت والدته من أصل حبشى ، وكانت له لحية كثة سوداء ، وطوله ستة أقدام ، وكان قوى البنية ويشبه والده تقريبا . كما لم تكن له شخصية مؤثرة ، أو من النوع الذى يستقطب المؤيدين (وقد اغتاله ابنه) . وكان مغرورا ومتكبرا ولم يكن متماسكا فى شخصيته . ويتميز حكمه بأعمال جريئة تخللها عجز فى النشاط والقدرة على حســـم الأمور "[٧] وبالرجوع الى الماضى يبدو لنا أن ثوينى كان يعتمد على التنظيم

---

(٧) المعلومات الخاصة بشخصية ثوينى مبعثرة فى عدة مصادر ولعل اهمها الملاحظات التى كتبها عنه اسكود ص ٧٨ و ١٠٥ وما ورد عنه فى كتاب « اصطياد العبيد » ، تأليف : كولومب .

والتكتيك الذى وضع أسسه والده ، فقد كان حاكما ضيق الأفق ، وكان يعتمد على النظام الذى ورثه عن أبيه . ولم يستطع اطلاقا ان يجابه أو يتغلب على الأوضاع السيئة التى وجد نفسه فيها ، والتى كانت تتطلب رجلا قادرا على الحسم وابتكار الحلول لا مجرد الاعتماد على الأجهزة القديمة . ورغم ذلك فقد استطاع ثوينى المحافظة على الاتجاه المعتدل لنظام الحكم طوال حياته ، ولم يكن هذا بالعمل اليسير ، بالقياس الى الفترة التى حكم فيها . ولعله فى الواقع أحد الحكام العمانيين القلائل الذين استطاعوا انقاذ الحكم المعتدل والمحافظة عليه . ومن المثير أن حكومة ثوينى سرعان ما تفككت وانهارت بعد عامين من وفاته .

اضطرت حكومة ثوينى الى مواجهة المشاكل الناجمة عن انخفاض الدخل التجارى كنتيجة للصراعات الداخلية بين أفراد العائلة ، مما اضطره الى تعيين عدد من أمراء البوسعيد فى حكومته خوفا من أن ينقلبوا عليه ، بالاضافة الى المتاعب التى يثيرها الزنجباريون والسعوديون ، والفرس . أما على الصعيد الداخلى فقد تدعم حكم ثوينى باستيلائه على مسقط وسيطرته على المواقع الهامة على الساحل ، وبفضل زعامته المطلقة للدولة العمانية . ويتمثل هذا فى لقب « السلطان » الذى أطلقه على نفسه فى سنة ١٨٦١ . وكانت قواته العسكرية تتألف من عدد من السفن ، وبعض التحصينات ، وجيش من المرتزقة قوامه ٦٠٠ جندى ، نصفهم من الوهابيين النجديين . ومن سريتين من الخيالة والمدفعية ، بالاضافة الى ما يمكن تعبئته من القبائل فى الظروف الطارئة . وتعتبر هذه القوات بالمقياس العمانى ، قوة كبيرة . وكانت مزودة بالأسلحة النارية فى الوقت الذى كانت غالبية المقاتلين العمانيين مسلحين بالسيوف والرماح . غير ان السلطان فقد هذه الميزة فى السلاح أخيرا [٨] .

عندما تولى ثوينى السلطة فى مسقط ، ادرك على الفور أن مشكلته مع

---

(٨) أواسط وشرقى الجزيرة العربية جزء ٢ ص ٣٥٦ — ٧٥ .

زنجبار لم تكن هى المشكلة المباشرة والأساسية رغم خطورتها . فلقد ورث ثوينى وضعا سياسيا داخليا مضطربا وكانت البلاد عرضة لتهديدات كثيرة وبالاضافة الى المناطق الخاضعة لحكميه كان هناك عدد من مراكز القوى السياسية التى لا سيطرة له عليها تقريبا . وما لم ينجح أى حاكم فى السيطرة على القوة السياسية الناشطة فى البلاد ، فانه لن يتمكن من الاستمرار طويلا فى الحكم . كما كان هناك منافسون كثيرون له من أمراء البيت البوسعيدى الحاكم من بينهم أخوه تركى الذى كان منذ أوائل الخمسينات يقيم مع أنصاره فى صحار أحد معاقل مقاطعة الباطنة ، الى جانب نجله الطموح والملتوى سالم بن ثوينى . هذا بالاضافة الى منافسيه من الزعماء المحافظين ، أمثال عزان بن قيس من فرع قيس من العائلة المالكة . كما كان على ثوينى أن يكسب القوى القبلية الرئيسية فى البلاد وعلى الأخص اتحاد قبائل الهناوية الساخطين بزعامة الشيخ صالح بن على ، زعيم قبائل الحرث ، سكان الشرقية ، ومجموعة قبائل الغافرية المتقلبة الولاء فى جعلان ووادى سمايل . وفوق هذا وذاك كان هناك الجناح المحافظ من علماء الأباضية الذى أخذ يتحرك للمرة الثانية للبحث عن وسيلة لتحقيق برنامجه الذاتى . وعلى الجانب الآخر بدأ اعداء عمان التقليديون — الوهابيون ينشطون على طول حدود عمان للربع الخالى . وكانوا منهمكين فى توسيع مناطق نفوذهم من مركزهم فى البريمى . حتى الانجليز أصبحوا عاملا فعالا فى سياسة عمان الداخلية ، بعد أن أصبحوا مسؤولين عن اتفاق كاننج والاشراف على دفع التعويض المالى لحكومة مسقط . غير ان السلطان بدوره ، بحكم الفترات الطويلة التى كان ينوب فيها عن والده فى الحكم أصبح متمرسا فى التعامل مع كافة هذا الخليط غير انه من ناحية أخرى كان لابد له كأى حاكم على عمان أن يتوقع نشوب صراعات على الحكم . وبالتالى كانت السيطرة على الأجواء السياسية والاقتصادية العاصفة فى اطار تلك الأوضاع المائعة بعد سنة ١٨٥٦ أمرا بالغ الصعوبة .

لقد أمضى ثوينى بن سعيد كل فترة حكمه فى محاولات للسيطرة على الأوضاع فى عمان . وهو هدف لم يتحقق له كاملا . وخلال السنوات الست

الأولى فقط من حكمه قمع ثوينى عددا من عمليات التمرد الداخلية فى أنحاء متفرقة من البلاد . فما أن تولى السلطة رسميا حتى انفجرت ثورة قبائل الغافرية فى وادى سمايل ولقد تمكنت من النجاح الحملة التى ارسلت الى قمع هذا التمرد الذى وقع فى أحد الممرات الاستراتيجية ، دون أن تتكبد تضحيات كثيرة (٩) . غير ان أخطر محاولة استهدف لها ثوينى هى تلك التى تزعمها أخوه الأصغر ، تركى بن سعيد ، الذى سبق ان أثار مشاكل مع حكومة صحار خلال حكم والده السيد سعيد ، وكان يهدف من وراء ذلك الى تأكيد موقفه ضد أخيه الذى كان يوما مشغولا بمشاكله مع زنجبار — الى أن أعلن استقلاله . وعلى الرغم من اهمال أخيه ثوينى له ، فقد ازداد عنادا فى حكم كاننج فى المشكلة وتم الاعتراف بثوينى الحاكم الشرعى الوحيد لعمان. وعلى أثر ذلك قرر تركى تحدى سلطة أخيه ، حيث أعلن اســتقلال اقليم صحار عن السلطان ، وذلك بالرغم من نصيحة البريطانيين له بعدم الاقدام على هذه الخطوة . ونتيجة لذلك بدأ التدخل البريطانى يأخذ أبعادا أعمق ، غير أن اللفتنانت بنجلى ، المعتمد السياسى البريطانى الجديد فى مســقط استطاع الجمع بين الأخوين وعقد هدنة بينهما ، أعقبه اجتماع للصلح عقد فى بلدة السيب . غير أن هذا الاجتماع كان بمثابة الكارثة لتركى اذ على الرغم من ان المعتمد السياسى قد أكد لكلا الطرفين بأن المحادثات ســوف تجرى باشرافه ، الا أن تركى رفض شروط السلطان ، وقفل راجعا الى مقره فى صحار ، مما جعل المعتمد السياسى يسحب تعهده . غير أن ثوينى فاجأ الجميع باعتقال أخيه تركى وايداعه السجن . فكان هذا التصرف سببا فى فصل بنجلى عن العمل فورا ، غير أن الطريق أصبح ممهدا امام السلطان كى يفرض حكمه على المنطقة الساحلية بما فيها الباطنة . وسرعان ما تم احتلال صحار التى عين ســالم بن ثوينى ابن السلطان الحاكم واليا عليها . ومن الجوانب المشؤومة لهذا الحادث أن ثوينى قبل تسوية النزاع مع

---

(٩) التحفة للسالمى جزء ٢ ص ٢٢١

أخيه ، كان قد دعا القوات الوهابية المرابطة فى البريمى لمساعدته ، غير أن هذه المساعدة ، على ما يبدو ، لم تصل فى حينها ، ومع هذا فان الخطوة المذكورة التى إتخذها السلطان قد ادخلت الى السياسة العمانية عنصرا فى غاية الخطورة (١٠) .

ولقد ظلت مقاطعة الباطنة مصدر قلاقل للسلطان حتى بعد تسلمه السلطة .. ففى شهر سبتمبر سنة ١٨٦١ ، ثار آل سعد ، كبرى قبائل الباطنة ضد السلطان ثوينى بعد أن الغى قرارا كان قد اتخذه والــده باعفائهم من الزكاة . ومن الواضح أن السلطان قد اتخذ هذا الاجراء غير الحكيم مرغما تحت ضغط الازمة المالية . كما ان اغتيال هلال بن حمد ، أحد أفراد الأسرة الحاكمة ، ووالى السويق قبل ذلك بوقت طويل كان من أخطر الأحداث التى تمخضت عن ثورة آل سعد ، بعد محاولة قام بهــا المذكور لاعادة فرض الزكاة . وهكذا تحولت السويق الى ســاحة قتال . كما ازداد الوضع تأزما عندما تزعمت جوخة بنت محمد ، اخت السلطان التى سبق أن اقترن اسمها بثورة ١٨٢٩ ضد السيد سعيد ، مقاومــة القوات الحكومية المرابطة فى قلعة السويق — غير أن آل سعد تمكنوا من اجتياح القلعة — فى نفس اللحظة التى وصل ثوينى لفك الحصار عن القلعة . وبما ان الفريقين قد استنفذا قواتهما ، فقد دخلا فى مفاوضات لتسوية الخلاف ، تمخضت عن دعوة القوات الحكومية الى احتلال المعقل واصدار بيان جديد باعفاء آل سعد من الزكاة . وقد نتج عن هــذا عودة الأمور الى نصابهـــا (١١) .

---

(١٠) نفس المصدر ص ٢٢٥ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٤٧٢ — ٤٧٣ أيضا « جزيرة العرب » ، تأليف فلبى ص ١٢٢ — ٢٣ .

(١١) التحفة للسالمى الجزء ٢ ص ٢٢١ — ٢٥ وابن رزيق أيضا رســالة رقم ٢٨٩ بتاريخ ١٨٦٩/٥/١٤ .

وقد نصح ثوينى بالعمل على تهدئـــة الموقف فى الباطنة بأى شــكل اذ أن خطرا جديــدا قــد أخذ يهدد حكمه . فلقــد أخذ فرع قيس من قبيلة البوسعيد الحاكمــة ، يهدد السلطان باستئناف نشاطه القديم ضد الحكم . فمنذ مطلع القرن التاسع عشر حاول اثنان من أبناء الامام أحمد بن سعيد ، وهما سلطان وقيس أكثر من مرة الاستيلاء على الحكم وفرض زعامتها على أسرة البوسعيد . وكان النصر فى الصراع الذى امتد حتى الستينات فى جانب أحفاد سلطان بن أحمد ، الأمر الذى لم يرض العناصر الساخطة فى فرع قيس من الأسرة الحاكمة . ولقد سبق للسيد سعيد والد ثوينى ان واجه تحديات كثيرة من هذا النوع ومن حلفائه فى صفوف الاباضيين المحافظين . وبالتالى لم يكن غريبا ان يصطدم ثوينى بدوره بهذه العناصر بعد توليه الحكم .

فى سنة ١٨٦١ كانت قلعة الرستاق القديمة معقل أسرة قيس ، وهى قلعة قديمة تربض فوق أحدى قمم سلسلة جبال الحجر المطلة على سهل الباطنة الذى كان فى وقت من الأوقات عاصمة لأئمة عمان المحافظين . ففى نفس السنة غادر قيس بن عزان ، زعيم العائلة وأحد المحرضين الرئيسيين لثورة آل سعد ، معقله فى الجبال ، الا انه لقى حتفه خلال الاشـــتباكات الأولى من المعركة . وخلفه على زعامة الأسرة نجله عزان بن قيس . وبفضل ما كان يتحلى به قيس من صفات الزعامة القديرة ، فقد نجح فى ملء الفراغ الذى احدثته وفاة أبيه . وكانت هناك توقعات ان ينجح عزان وان يرتفع بأسهم أسرته الى القمة ، وان يقود الجناح المحافظ من الأباضيين نحــو سيطرة مؤقتة على القطر العمانى .

وعلى أى حال ، لم يكن حظ ثوينى بن سعيد من الصراع ضد عزان سيئا للغاية ، فما ان تمكن ثوينى من تسوية مشاكله مع آل سعد ، حتى نشبت بينه وبين عزان معارك صغيرة فى الباطنة ، ولكنها ليست حاسمة .

وقد استمرت هـــذه المعارك أكثر من عامين • وعلى كل ففى سنة ١٨٦٤ استطاع ثوينى حشـــد قوات ضخمة لشن هجـوم على معقل عزان فى الرستاق ، غير أنه سرعان ما تدخل الوهابيون فى الصراع • وكان الوهابيون يمثلون خطرا على البلاد منذ عام ١٨٦١ • وبما ان عزان لم يكن واثقا من مقدرته على مواجهة قوات السلطان ، فقد استنجد بتركى بن أحمد السديرى القائد السعودى فى البريمى ، لامداده ببعض القوات ، ومن هنا قرر فيصل ابن تركى ، أن يستغل موقف عزان بن قيس لمصلحته الخاصـــة بشكل أو آخر • وكان فيصل من أقوى الحكام السعوديين وإليه يعود الفضل فى بعث النفوذ الوهابى فى شبه الجزيرة العربية •

فى أول الأمر طالب فيصل السلطان ثوينى بزيادة المقرر من الزكاة التى كان يدفعها لحاكم الرياض ، حيث كان قد تم الاتفاق منذ أوائل القرن أن تدفع السلطات الحاكمة فى مسقط نوعاً من الضريبة السنوية الى السعوديين مقابل امتناع السعوديين عن مهاجمة عمان • ولمـــا لم يتلق السعوديون رداً حاسماً على طلبهم فقد قرروا استعمال الضغط وكان السديرى ، القائد السعودى فىالبريمى قد قام فعلا بارسال قوة بقيادة عبد العزيز بن مطلق لمساعدة قوات عزان بن قيس المحاصرة فى الرستاق • وبما أن وصول هذه القوة قد أرغم ثوينى على صرف النظر عن مهاجمة الرستاق ، فقد شجع هـــذا مطلق بالزحف نحو الجنوب الشرقى • وبعد أن عبر سلسلة جبال الحجر ، واجتاح القطاع الغربى من تلك المنطقة دخل جعلان • وفى جعلان بدأ ابن مطلق نشاطه بالتدخل فى شؤون آل وهيبه ، ثم انضم الى قوات بنى بوعلى ، وهى قبيلة غافرية ولكنها تدين بالعقيدة الوهابية وتقيم فى تلك المنطقة (١٢) •

---

(١٢) التحفة للسالمى جـــزء ٢ ص ٢٢٢ — ٢٤ وابن رزيق و « الدولة السعودية » ، تاليف : ويندر ص ٢١٢ و « مذكرات حول السعودية » جـــزء ٢ ص ٢٢٦ — ٣٦ •

فى الوقت نفسه حاول البريطانيون الذين كانوا يرقبون تحركات السعوديين بالقرب من السواحل العمانية بقلق ، التوسط فى النزاع . وكنتيجة لذلك قام ليويس بلى ، المقيم البريطانى فى الخليج ، فى شهر مارس ١٨٦٥ بزيارة للرياض فى محاولة لتسوية المشاكل العمانية السعودية وغيرها من مشاكل الخليج التى بدأت تتفاقم ، بسبب السياسة التوسعية التى كان يسير عليها السعوديون فى ذلك الوقت [١٣] . غير أن المحاولة البريطانية للتوسط فى النزاع باءت بالفشل . وفى شهر أغسطس من سنة ١٨٦٥ بلغ الخطر السعودى على عمان ذروته ففى ذلك العام طلبت بعض فئات قبائل الجنبه ، سكان ميناء صور مساعدة الوهابيين لهم للتخلص من سيطرة حكومة مسقط على شؤونهم . وعلى أساس هذا الطلب هاجمت قوات ابن مطلق واتباعهم من رجال بنى بو على المدينة ، فقتلوا أحد التجار الهنود ونهبو ٣٠٫٠٠٠ ريال نمسوى تقريباً . وقد تفاقمت الأزمة من جراء الغارة على صور ، ورأى فيها البريطانيون تحدياً لوجودهم فى الخليج . ولهذا بادر ليويس بلى الذى استاء من هذه الحركة ، رغم التأكيدات التى تلقاها من الرياض بعزم السعوديين على افتتاح « صفحة جديدة فى العلاقات مع بريطانيا» الى استدعاء وحدة من الأسطول البريطانى الى الخليج فوراً . وقد اقرت سلطات الهند — البريطانية بلى فى رأيه على أن السلم البحرى فى مياه الخليج قد أصبح مهدداً بالأعمال التى يقوم بها السعوديون فى عمان وعلى مقربة من سواحل البحرين ، ولهذا أرسلوا ناربين مسلحين الى المنطقة قام أحدهما واسمه « هاى فلاير » (High Flyer) بضرب ميناءى القطيف والدمام على ساحل الحسا وذلك فى شهر فبراير ١٨٦٦ بعد أن رفضت حكومة الرياض الانذار الذى وجهه إليها المقيم البريطانى ليويس بلى . كما توجهت السفن الحربية البريطانية فى نفس

---

(١٣) « زيارة الى عاصمة الوهابيين فى اواسط الجزيرة العربية » بقلم بلى وقد نشر فى مجلة الجمعية الجغرافية الملكية » جزء ٣٥ (١٨٦٥) ص ١٦٩ — ٩١ وكتاب « عمان » اعداد شركة النفط العربية الأمريكية ص ٢٥٥ — ٢٥٧ .

الوقت إلى ميناء صــور ، غير أن ثويني كان قد أنهى المشكلة بتقديم رشوة الى الوهابيين مقدارها ١٠,٠٠٠ ريال نمسوى و ٦٠٠٠ آلاف روبية [١٤] .

إن استعراض القوة الذى قام به الأنجليز قد أحدث تغييراً فى الجــو السياسى فى عمان . وقد وافق ثوينى أخيراً على مقترحات قدمها إليه بلى بوجوب اتخاذ تدابير دفاعية أقوى ضد التدخل السعودى ، كما أخــذ يستعد لمهاجمة البريمى قاعدة النفوذ الوهابى فى جنوب شرقى الجزيرة العربية . لقد اتضح الآن أن الظروف المــالية كانت من بين الأسـباب التى منعت ثوينى من التحرك ضد خصومه بشكل فعال قبل شتاء سنة ١٨٦٥ — ٦٦ . فلقد تأزمت حالة السلطان المــالية لعدم وصول التعويض المــالى من أخيه ماجد ، سلطان زنجبار . وقد حاول ثوينى توفير بعض المــال عن طريق مصادرة أملاك ماجد فى عمان ، ولكنه لم ينجح . كمــا ساعده الانجليز ببعض الذخيرة وبمدفعى ميدان . غير أن البريطانين حلوا هذه المشكلة فى أوائل سنة ١٨٦٦ بارغام ماجــد بدفع ما عليــه من متأخرات لثوينى [١٥] .

وبالإضافة الى ذلك كان صالح بن على ، شيخ قبيلة الحرث القوية ، وأحد الزعماء العمانيين البارزين من الجناح الأباضى المحافظ ، يحث السلطان على اتباع سياسة أعنف ضد المطالب السعودية فى عمان . وقد ذهب هذا الزعيم الى حد تنظيم جبهة قوية من قبائل الهناوية ، ووضعها تحت تصرف ثوينى . كما تعزز ائتلاف القوى المناهضــة للسعوديين بالاتفاق الذى عقده السلطان مع أخيه تركى بن سعيد الذى كان قد أعلن الثورة عليــه .

---

(١٤) التحفة للسالمى جزء ٢ ص ٢٢٥ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٤٧٣ — ٧٤ و « زيارة بلى للرياض » من كتاب « عمــان » اعــداد شركة النفط العربية الامريكية ص ٢٥٧ .

(١٥) خطــاب رقــم ٣ — ٢٤ من بليفير الى وود ولوريمــر مجلد ١ ص ٤٧٤ — ٧٥ .

وينبنى على هذا انه عندما انتقل السلطان الى صحار فى أوائل سنة ١٨٦٦ على رأس القوى المتحالفة ، لوضع الترتيبات النهائية للهجوم على البريمى ، كان يومها فى ذروة قوته كحــاكم على بلد موحــد ضــد التهــديدات السعودية (١٦) .

ولكن عند صفو الليالى يحدث الكدر ، فذات ليلة من شهر فبراير سنة ١٨٦٦ ، وبينما كان ثوينى نائماً فى إحدى غرف القلعة الكبيرة فى صحار ، تسلل إلى غرفة نومه إبنه سالم ، برفقة أحد عملاء الوهابيين وأطلق النار على والده فأرداه قتيلا . وبهذا فشلت خطة الهجوم التى كان قد أعدها ثوينى ، كما انحلت الوحدة الوطنية التى لم يمضِ عليها غير وقت قصير ، وأخذ النظام المعتدل نفسه يسير فى طريق التفكك والانهيار الا أن السعوديين لم يحاولوا استغلال الفرصة التى تهيأت لهم بانهيار الأوضاع فى عمان . ولقد توافقت وفاة ثوينى بن سعيد مــع وفاة العاهل السعودى الكبير فيصل بن تركى ، وبالتالى تخلى كل من خليفتى العاهلين السعودى والعمانى عن فكرة الحرب ليركزا جهودهما فى دعم مركزيهما الشخصى فى مملكتيهما . ومن ناحية أخرى نجح بلى فى سنة ١٨٦٦ فى تحقيق الاستقرار فى المنطقة باستكتاب عبد الله الفيصل العاهل الجديد للسعودية ضماناً يتعهد فيــه « بعدم الاعتداء أو الهجوم على أراضى القبائل العربية المتحالفة مــع الحكومة البريطانية ، وعلى الأخص ... عمان ... » (١٧) .

بعد وفاة ثوينى تولى الحكم نجله سالم . وقد اعترفت به الحكومة البريطانية . أمــا ثوينى فســوف يبقى فى تاريخ بلاده من الشخصيات المأساوية . فقد تولى زمام السلطة فى فترة كانت تسودها الاضطرابات ،

---

(١٦) التحفة للسالمى جزء ٢ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(١٧) نفس المصــدر ص ٢٢٥ — ٢٦ وكتاب لوريمر جــزء ١ ص ٤٧٦ انظــر كذلك « الدبلوماسية » ، تأليف : هروتز جــزء ١ ص ١٧٢ وتقــرير ايتشيسون — ١٩٣٢ ص ٢٠٦ مجــلد ١١ .

وسقط فى الوقت الذى كان يبدو أن البلاد مقبلة على مرحلة من الوحـدة الوطنية بين أبنائها . ولم يكن ثوينى يحظى بشعبية فى عمان ، والتقارير البريطانية فى عمان تصـفه « بالحاكم الضعيف المراوغ » كما لم يكن المحافظون يؤيدونه ، وإن كانوا يعترفون « بسيطرته على عمان » وكان تأييد قسم كبير منهم له يرتبط بموقفه ضد الوهابين [٨١] . ولم يستطع أن يتخذ لنفسه موقفاً محدداً من معظم المشكلات التى كانت تقض مضاجع الحكم فى عهده . وحتى لو استطاع أن يكون صورة صحيحة لتلك المشكلات ، فانه لم يكن لديه الوسائل لحلها .

حكم سالم بن ثوينى :

ورث السلطان سالم ، خليفة ونجل ثوينى بن سعيد كل تركة المشاكل التى خلفها أبوه وعلى الرغم مما حققه من نجاح فى حل بعض المشاكل الخارجية ، الا أنه عجز عجزاً تاماً عن معالجة مشاكل السياسة الداخلية . كما أنه على الرغم من طموحه الشديد وطبيعته ـ المشككة ، فقد كانت قراراته وأحكامه تتسم بالأخطاء ، وعلى الخصوص فيما يتصل بأقرب الناس إليه من المستشارين والمؤيدين . وفى غضون عامين من حكمة تضافرت كل هذه الأخطاء ضده لتخلعه عن العرش .

يوم تولى سالم الحكم أشيع بأن له ميولا وهابية من الوجهة الدينية ، وكان أباضياً ـ محافظاً أكثر منه معتدلا ، وعندما علمت الجالية الهندية ، وعلى الأخص الفئات البوذية منها ، بتولية الحكم دب الذعر فى صفوفها ،

---

(١٨) التحفة للسالمى جزء ٢ ص ٢١٩ ـ ٢٢٥ على الرغم من أن السالمى يعبـر عن موقف المحافظين ومـلم بتاريخ عمـان ، ومؤسس امامة ١٩١٣ ، الا أنه لا يوافق على ان ثمـة دولتين فى عمـان ، دولة ساحلية ودولة داخلية ، على عكس بعض الكتاب المحـدثين أمثال هزارد فى كتابه « شرقى الجزيرة العربية » ان عمـان فى راى السالمى هى مثـل العمانيين الاعلى ، داخليين كانوا أم ساحليين .

فأغلقت الأسواق وتوقفت الحركة التجارية بل امتد هذا الخوف عبر البحر الى جوادر ولم تعد الأوضاع الى طبيعتها قبل شهر مايو سنة ١٨٦٦ .

كانت المهمة الأولى لسالم هى اعتراف بريطانيا به . وما أن علم بلى وفرير بالانقلاب الذى دبره سالم واستولى به على الحكم حتى قررا عدم الاعتراف به . الا أن سالم ظل يلح عليهما بالاعتراف . وفى شهر ابريل سنة ١٨٦٦ وصل اثنان من مبعوثيه الى بومبى ليعربا عن احتجاجهما على اعتراضات بلى ويجددا طلب الاعتراف . وقد نجح المبعوثان فى مهمتهما . بعد أن توجها الى كلكتا وظلا يلحان على المسؤولين هناك بتلبية رغبة السلطان وأخيراً قرر نائب الملك فى الهند يومئذ السر جون لورنس الاعتراف بالسلطان على أساس الأمر الواقع ، بعد أن ظهر له أن السلطان يسعى فعلا الى تدعيم نفوذه فى عمان ، وخوفاً من أن يتحول الى الفرنسيين أو غيرهم ، وذلك على الرغم من اعتراض مرؤوسيه فى أبوشهر وكلكتا على هذه الخطوة . وبالرغم من أن بلى وفرير لم يؤيدا نائب الملك فى موضوع الاعتراف ، الا أن بلى زار مسقط فى سنة ١٨٦٦ ليقدم اعتراف حكومته رسمياً بسالم كحاكم على مسقط وعمان . وفى شهر يناير سنة ١٨٦٧ قام الكابتن اتكنسون بإعادة فتح الوكالة السياسية البريطانية فى مسقط [١٩] .

إن نجاح السلطان سالم فى اعتراف الحكومة البريطانية به لم يكن يعنى انه سيبدأ على الفور بقبض التعويض المالى من سلطان زنجبار . فقد قرر ماجد عدم دفع المبلغ أثر تلقيه نبأ مقتل أخيه . وتبريراً لهذا الرفض ادعى ماجد أن التعويض يدفع الى ثوينى بصفته الشخصية وفقاً لاتفاق كاننج وبالتالى رفض أن يمد قاتلا بمساعدات مالية . ورغم أن الانجليز لم يؤيدوا ماجد فى التنصل من التزاماته ، فقد وافقوا أن يكونوا وسطاء فى تسليم التعويض الى سالم حتى لا يضطروه الى التعامل مباشرة

---

(١٩) التحفة للسالمى جزء ٢ ص ٢٢٦ و ٢٢٧ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٤٧٧ — ٧٨ .

مع أخيه . كما حذر الانجليز ماجد من محاولة التدخل فى سياسة عمان الداخلية ، أو إرسال أسلحة الى المنطقة . وأخيراً وافق ماجد فى ربيع سنة ١٨٦٨ [٢٠] على إرسال التعويض المالى الى سالم . ولكن ماجد كان يعانى من نقص شديد فى الموارد استمر طوال حكمه . ولهذا كانت الطرق كلها مسدودة أمام سالم . فمبلغ الأربعين ألف ريال التى تسلمها فى سنة ١٨٦٧ من حكومة الهند التى دفعتها بدلا من المبلغ الذى احتجزه ماجد ، اضطر الى دفعها فوراً لتسديد بعض الالتزامات المالية عليه . وقد بعث سالم بأكثر من خطاب الى البريطانيين يطلب منهم مساعدات مالية حتى إضطر فى النهاية الى الاقتراض من بعض التجار الهنود فى مسقط لتمويل خزانته بالنقد اللازم . ومن ناحية أخرى استمرت واردات الجمارك فى هبوطها خلال عهده بسبب التدهور السريع فى حجم التجارة [٢١] كما أن توتر العلاقة بينه وبين إيران قد أسهم فى متاعب سالم . فمنذ أن انقسمت امبراطورية سعيد الى دولتين ، أصبحت السيطرة على بندر عباس وساحل مكران والتجارة مع هاتين المنطقتين أهم لعمان نسبياً منها قبل تقسيم البلاد سنة ١٨٦١ . غير أن محاولات إيران لاسترجاع سيطرتها الادارية على المناطق المذكورة تلك المحاولات التى بدأت منذ سنة ١٨٥٣ ظلت مستمرة . وحتى قبل ثوينى فى سنة ١٨٦٤ طالبت ايران بميناء شهبار ، بل وميناء جواذر ، وهى محاولة مهدت لأحداث مقبلة ، على الرغم من أن الايرانيين لم يفرضوا عليها السيطرة الإدارية المباشرة ، أو يضعوا حداً للنفوذ العمانى على الساحل الايرانى [٢٢] . وفى عام ١٨٦٦ بطل مفعول اتفاق سنة ١٨٥٦ على حسد رأى المسؤولين الايرانيين كنتيجة لاغتصاب سالم الحكم وهو الاتفاق الذى أجرت إيران بموجبه ميناء بندر عباس وجزر كشم وهرمز لحكومة مسقط [٢٣] . ولكى لا تضيع بندر عباس من يده ، قرر سالم اتخاذ

---

(٢٠) خطاب رقم ١٨٦٨/٣/١ من بلى الى اتكنسون .
(٢١) نفس المصدر وخطاب رقم ٤١٢ بتاريخ ١٨٦٨/٩/١٧ .
(٢٢) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٤٧٦ .
(٢٣) « الدبلوماسية » جزء ١ ص ١٥٧ — ١٥٨ تأليف : هروتز .

خطوة جريئة ، وهى شن هجوم بحرى ضد الايرانيين إذا لم يغيروا من موقفهم . وبما أن الايرانيين لم يكونوا يملكون أسطولا ، فقد توسط الانجليز لحسم الخلاف . ففى سنة ١٨٦٨ توجه المقيم الكولونيل بلى ، ومعه الحاج أحمد ، وزير السلطان فى زيارة لشيراز . وفى نفس العام وقع سالم عقداً جديداً يستطيع بمقتضاه الانتفاع من ميناء بندر عباس مقابل إيجار سنوى أكبر مقداره ٣٠٫٠٠٠ تومان أى ما يعادل (٧٥٫٠٠٠ ريال نمسوى) وبحكم المادة ١٢ يسرى الاتفاق على سالم وورثته فقط ، وأنه فى حالة استيلاء قوة أخرى على السلطة فى عمان فان الميناء يعود الى أصحابه الايرانيين [٢٤] . وعلى أى حال فبحلول صيف عام ١٨٦٨ كان سالم قد انتهى من تسوية جميع مشاكله الخارجية ، وأنه والحق يقال ، قد أظهر قدراً كبيراً من المرونة السياسية فى هذا المضمار .

غير أن سالم لم يوفق فى حل مشاكله الداخلية ، كما لم يكن موفقاً فى اختيار مستشاريه . فأولهم وهو ثوينى بن محمد ، وأحد أمراء الأسرة الحاكمة ، قد سبق أن عمل مستشاراً . لثوينى . وعلى الرغم من كونه أحد أفراد الأسرة إلا أن هذا لم يمنع سالم من عزله عقاباً له على اشتراكه فى عملية تواطؤ ضده [٢٥] . وقد خلفه فى هذا المنصب الحاج أحمد لكن تبين أن هذا الآخر متآمر وخائن أيضاً ، وإن كان لم تكتشف مؤامراته . وقد حدث أن قبض الحاج أحمد التعويض المالى السنوى من زنجبار ، دون علم السلطان ، ولم يقيده لحساب الدولة [٢٦] .

والواقع أن سالم لم يكن يفتقر إلى المستشارين ، فقد كانت علاقته وطيدة بالوهابيين الذين كان لهم تأثير على سياسته ، وكان يعمل

---

(٢٤) تقرير ايتشيسون : ١٩٠٩ و « precis persian » ص ٣٠/٢٥ ولوريمر مجلد ١ ص ٤٨٠ .
(٢٥) خطاب رقم ٤٨٦ مؤرخ ١٨٦٨/١٠/٣١ من اتكنسون الى جون .
(٢٦) رسالة رقم ١٣٩ مؤرخه ١٨٦٩/٣/٤ من اتكنسون الى جاون .

بعضهم ضمن حاشيتـه الخاصـة • أما فى أوساط العمانيين المحافظين فقد كانت تربطه بسعيد بن خلفان الخليلى صداقة وثيقة وكـان هذا من مستشاريه ومؤيديه أيضاً • ويبدو أن الخليلى كان يحاول إقناع السلطان بإلتزام الخط المحافظ فى الحكم ، غير أن الأثنين اختلفا فيما بعد بسبب تمسك سـالم بموقفه • وحتى سنة ١٨٦٧ كـان سالم يحظى بتأييد زعيم قبيلة الحرث القوى ، صالح بن على الحارثى الذى كان يؤيد والده ثوينى (٢٧)

ومن الملاحظ أن موقف السلطان سـالم فى عمان لم يكن موقفاً قوياً • ولقـد حـاول دون جـدوى تبرير اغتياله لوالده ، إلا أنه لم يوفق فى تلطيف سمعته السيئة • فبعد تسلمه الحكم أودع عمه تركى بن سعيد السجن ، بحجة أنه كـان يساعد السلطان ثوينى • غير أن الانجليز سرعان ما أجبروا سـالم على الافراج عن تركى ، الذى فر إلى الداخل بعـد إطلاق سراحه ، فتوجه أولا إلى الظاهرة ومنها الى الشرقية ، حيث أخـذ يطوف بالقبائل بحثاً عن التأييد لأقصاء إبن أخيه • إلا أنه لم ينجح فى حملته هذه فى منطقة ساحل عمان (نتيجة لتدخل بلى فى الموضوع) وفى الظاهرة • وأخيراً وجد مؤيدين له فى الشرقية وجعلان • واستطاع أن يكسب إلى صفه بعض عناصر من الحرث وأغلبية قبائل بنى بو حسن ، والحجريين والهناوية • أما صالح بن على أكبر شيوخ الحرث الهناويين فقـد التـزم بموقف الحيـاد من المذكور يؤيده فى ذلك أغلبية الحرث • وعلى أى حـال ففى صيف ١٨٦٧ زحف تركى وأنصاره عـلى الساحل واحتلوا مدينـة مطرح • وعندما بدا أن تركى يوشك أن ينجح فى خطته تدخل المقيم بلى فى الموضوع واستقر السلام • لقـد سبق أن توسط الانجليز سنة ١٨٦٦ عند سـالم للافراج عن تركى الذى كان معتقلا فى ذلك الوقت ، وبالتالى كـان تركى مدين للانجليز بهذه البادرة • ولهذا عندما ألح بلى على تركى

---

(٢٧) التحفة للسالمى ٢ ص ٢٣٠ وتقرير ايتشيسون ١٩٣٣ مجـلد ١١ ص ٢٧٤ وابن رزيق وخطـاب رقم ٤١٢ مؤرخ ١٨٦٨/٩/١٧ من اتكنسـون الى جـاون •

بوقف الهجــوم والاعتزال فى الهند لم يجد تركى مفراً من قبــول هــذا الشرط وبهــذا الاجراء أنقذ الانجليز موقتاً حكم ســالم [٢٨] .

وعلى أثر ذلك اعتقــد ســالم أنه أصــبح من القوة بحيث يمكنــه الاستمرار فى الحكم حتى على حساب العمانيين المحافظين فى الداخل وبذلك ارتكب غلطة كبيرة . لقد كان تأييد صــالح بن على لســالم أثناء ثورة تركى ضده على جانب كبير من الأهمية . ولهذا قرر ســالم الذى كــان يظن أن صالح يتامر عليه خفية مع تركى ، اعتقل صالح بن على عندمــا جــاء فى زيارة لمسقط فى أواخر سنة ١٨٦٧ . وكــاد صالح يقع فعلا فى قبضة سالم لو لم ينتبه للأمر ويفر إلى الباطنة ، ومنها إلى الرستاق ، ثم منها إلى موطنه فى الشرقية [٢٩] . غير أن هذا الحادث قــد أســفر عن نهاية التحالف بين ســالم والمحافظين العمانيين . وفى صيف ١٨٦٨ لم يبق لســالم من الأنصار والمؤيدين غير نفر قليل من قبائل الغافرية فى جعلان — ووادى سمايل . إن طريقة ســالم فى التخلص من مؤيديه ، قــد حملت المعتمد البريطانى فى مسقط الكابتن اتكنسون إلى أن يكتب فى أحد تقاريره « بأن الخطر على ســالم لا يكمن فى أعدائه بقــدر مــا يكمن فى القلة من مؤيديه » [٣٠] . ففى سنة ١٨٦٧ تمرد عليه حمد بن ســالم ابن أخيه وواليه فى المصنعه [٣١] كمــا نشــط صــالح بن على أثر عودتــه إلى الشرقية لتكوين حلف من القبائل ضد ســالم . وقــد اتصل صــالح فى البداية بأستاذه القديم والأباضى المحافظ سعيد بن خلفان ، الذى أدرك بأن الوقت قــد حان لتحقيق الحــلم الذى حاول تحقيقه فى الأربعينات

---

(٢٨) التحفة للسالمى جزء ٢ ص ٢٢٦/٢٩ وابن رزيق وكتــاب لوريمر مجــلد ١ ص ٤٨٠ — ٨١ .

(٢٩) نفس المصــدر جزء ٢ ص ٢٢٩ .

(٣٠) من اتكنسون الى جون ٢٢ سبتمبر ١٨٦٨ رقــم ٤٢٠ — مســقط وسجلات الهنــد ٢ — مجلد ال *

(٣١) التحفة للسالمى جزء ٢ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

بحكم تدهور السلطان • وقــد انبرى الخليلى نيابة عن صالح بن على إلى تنظيم تكتل ضد ســالم ، كما أخذ يراسـل ويقابل زعماء ومشايخ عمان المحافظين وشخصياتها البارزة أمثال عزان بن قيس • وفى أواخر عام ١٨٦٨ كــان التكتل المحافظ قــد اكتمل وأصبح قادراً على شــن الثورة ضــد ســالم وإطاحة حكمه فى مسقط وإحياء الصيغة الأباضية للنظــام باعتبارها القاعدة السياسية والدينية للأمة • [٣٢] فى شهر سبتمبر انتهى المحافظون العمانيون من وضع خطتهم موضع التنفيذ فشنوا هجوماً على مسقط من جهتين فقد شق عزان طريقه إلى مسقط من الرستاق ، وفى طريقه احتل بركا على الساحل • وعند مشارف العاصمة التقت القــوات التى يقودها عزان بمجموعة القوات التى يقودها صــالح بن على وشيخ بنى رواحه • وقبل بدء الهجوم الثنائى على مسقط ، طلب المهاجمون من السلطان ســالم اعلان التوبة ، وكان الغرض من هــذا الطلب أن يغير الســلطان نظــام حكمه الاستبدادى ، ويعــود الى الصراط المستقيم (أى طريق المحافظين) أن يعمل بمشورة رجال الدين والعلم • والخلاصة أن الخليلى كــان على استعداد لأن يسمح لســالم بالاستمرار فى الحكم لو أنــه وافق على انتقال السلطة الفعلية الى زعماء المحافظين • وقــد رفض سالم الذى كــان يعتمد على التأييد البريطانى ومساعدة بعض فئات الغافرية الأنذار الذى وجه اليه • غير أن خطوط دفاعه كانت ضعيفة • وفى ٢٩ سبتمبر ١٨٦٨ سقطت مدينة مسقط ، ودخلتها القوات العمانية فى أول أكتوبر • وكــان الجنود المهاجمون على درجة عالية من النظام • وإذا استثنينا قصر السلطان فلم يتعرض أى شىء لهجومهم • وكأجراء احتياطى تم نقل الرعايا البريطانيين إلى السفن البريطانية الراسية فى الميناء • وقــد وصل بلى إلى مسقط وكــان ينوى التدخل لمساعدة السلطان ، إلا أنه تلقى تعليمات فى يوم ٧ أكتوبر تمنعه من التدخل فى النزاع • وبالتالى لم يجــد السلطان الذى كــان قــد اعتصم باحــدى القلاع بعد سقوط العاصمة

---

(٣٢) نفس المصدر • ولوريمر جزء ١ ص ٤٧٩ — ٤٨٠ •

مفراً من الهرب بعد أن حيل بينه وبين العون البريطانى • وفى يوم ١٢ أكتوبر غادر ســالم بن ثوينى مسقط فى إحدى السفن المبحرة إلى بندر عباس • وهكذا ارتفع علم المحافظين الأبيض اللون على العاصمة • ويوم سقط ســالم لم يكن قــد بقى من مؤيديه أكثر من ٥٠٠ رجل • أمــا حلفاؤه الغافرية ، والجنبة وبنى بو على فلم يقــدموا إليه أى مساعدة ، لأنهم كانوا مشتبكين فى قتال ضد بعضهم البعض • كمــا أن بنى جابر ، القبيلة الكبيرة الأخرى الموالية لســالم ، والتى كانت ترابط على الممرات الاستراتيجية بوادى سمايل ، فقــد كــانت مستاءة من ســالم بسبب تصرفه الأخير مع زعمائها ، ولهذا سمحت للقوات العمانية المهاجمة بالمرور عبــر أراضــيهـا [٣٣] •

وهكذا فخلال الفترة ما بين سنة ١٨٥٦ وسنة ١٨٦٨ سقط النظــام الملكى الأباضى المعتدل الذى يمثله البوسعيد فى مسقط • وبالتالى فان الذى يبحث فى أحداث هذه الفترة التاريخية ، لابد وأن يتأكد من أن حكام هــذه الأسرة لم يكونوا يعرفون أسباب التخبط الذى كانوا غارقين فيه • لأن أحداثا تخرج عن سيطرة أى حاكم ، كالتدخل البريطانى والتغيرات الاقتصادية والملاحية فى المحيط الهندى ، ربما كانت من الأسباب الرئيسية للانهيار • وكــان من الممكن بالاستخدام الذكى للامكانيات السياسية والاقتصادية التى بقيت لدى السلاطين ، وعلى الأخص السلطان ســالم ، الحيلولة دون نجاح المحافظين فى سنة ١٨٦٨ ، وبدلا من أن يتعاون أفراد عائلة السلطان الحاكمة فى تلك اللحظات ، فقد أثبتوا على اختلافهم أنهم أنانيون وقصــار النظر لدرجــة يستحيل معها اتفاقهم • وقــد بدا فى الأخيرة من حكم السلطان ثوينى أنه كــان يستطيع بمساعدة الانجليز تحقيق نوع من الاستقرار السياسى للبلاد غير أن رصاصات ســالم وضعت

---

(٣٣) نفس المصــدر ص ٢٣١ — ٣٥ مذكرة زعماء الثورة الى السلطان ســالم بتاريخ ١٨٦٨/٩/٢٩ وقــد وردت كملحق لخطاب رقــم ٤٢٩ مؤرخ ١٨٦٨/١٠/١٥ من انكتسون الى جاون •

نهاية لهذا الأمل • أما التجار وغيره من المرتزقة ، الذين كانوا سيخسرون من سقوط الحكم المعتدل فلم يكن يهمهم غير ملء جيوبهم بالأصفر الرنان ، كما أن فشل هؤلاء الحكـــام فى معالجة الأزمات السياسية والاقتصادية المتفاقمة ، قـــد أسهم فى زيادة الاضطراب السياسى والصدام مع السلطة ، وأخيراً فى نجاح المحافظين سنة ١٨٦٨ •

مرحلة زعامة المحافظين — امامة عزان بن قيس ١٨٦٨ — ٧١

طبيعة الثورة التى قام بها المحافظون :

إن أحداث عام ١٨٦٨ ليست مجرد انتقال الحكم من فئة الى أخرى • بل هى حصيلة ثورة قام بها الذاتيون * العمانيون لإحداث تغيير جذرى فى التاريخ العمانى منذ أن بدأ اليعاربة فى القرن السادس عشر تنظيم الحكم فى عمان • ولم تكن ثورة المحافظين العمانيين فى سنة ١٨٦٨ تختلف كثيراً عن غيرها من الثورات الكبرى التى نشبت قبل ظهور المجتمعـــات الأسلامية • فايديولوجية هؤلاء الثوار تتجسد وتتلخص فى مفهوم ثيولوجى (دينى) وبالتالى فان أهدافها الاجتماعية والسياسية كلها تنضوى تحت المفهوم الدينى للمجتمع • ولقـــد عبر المحافظون عن فكرتهم هذه بمحاولتهم الذاتية لاعادة الجماعة الاسلامية إلى حظيرتها الأصلية الأولى • وهاجمت الثورة المفهوم السائد للدين متهمة إياه بالانحراف والفساد • غير أن هؤلاء الثوار كانوا متزمتين جداً فى موقفهم الاجتماعى ويرمون بالكفر كل من لم يكن ينضوى تحت لواء عقيدتهم • وقد تم الاعداد لثورة المحافظين فى مقاطعة تبعد كثيراً عن مقر السلطة الحاكمة • وكان الهدف منها الاستيلاء على جهاز الدولة بحيث يتسنى اجراء الاصلاحات التى تكفل تحقيق البيئة

---

* الذاتيون هم الذين ينادون بالتطبيق الحرفى للعقيدة الاسلامية وتحرير الذات من الشهوات والاهواء المادية والحسية . ويقصد بهم انصار الامامة .
(المترجـم)

الاسلامية الحقة . وكان على رأس التخطيط للثورة والقادة والزعماء الدينيون والسياسيون الأقليميون الذين يمثلون مجموعة جغرافية وقبلية مستقله . ولم يكن للعامل الطبقى أى دور فى نشوب الثورة ، غير أن مؤيدى نظام الحكم المخلوع من طبقة الأثرياء قد تكبدوا خسائر مادية جسيمة ، بحكم مصادرة الثورة لأملاكهم بعد استيلائهم على السلطة . كما نشبت هذه الثورة فى فترة عاصفة من التغييرات الاقتصادية ، سببت بدورها مضاعفات اقتصادية أخرى . فلقد كانت الدولة التى قامت ضدها الثورة فى مرحلة من الضعف والتفسخ [٣٤] .

وفى الأربعينات من القرن التاسع عشر اندلعت ثورة مشابهة لثورة سنة ١٨٦٨ قام بها المحافظون أيضاً لتغيير نظام حكم سعيد بن سلطان المعتدل وإقامة نظام على غرار نظام إمامة العصور الوسطى [٣٥] . وربما كان عيب الثورة الأساسى أن فئة العلماء المحافظين الذين كانوا يسيطرون عليها ، لم ينجحوا فى محاولاتهم لتعبئة قوة عسكرية كافية لتحقيق أهدافهم . ومهما يكن من فشل ثورة الأربعينات ، فانها رفعت من شأن مجموعتين من المجموعات المشتركة فى ثورة ١٨٦٨ الناجحة : الجناح الدينى بزعامة سعيد بن خلفان الخليلى ، العقل المفكر الدينى والتنظيمى وراء الثوريين ، وجناح قيس من فرع أسرة البوسعيد . وكان حمود بن عزان من الفرع الاخير مرشح الخليلى للإمامه فى ثورة الاربعينات ، بينما الذى تولى الإمامة بالفعل فى الستينيات هو عزان بن قيس ابن عم حمود ويوم قرر صالح بن على الانضمام الى تجمع سنة ١٨٦٨ المحافظ كان يعبر عن تأييد قوى من جانب الهناويين الذين لعبوا دورا لا يستهان به

---

(٣٤) هذه الآراء اشبه بالملاحظات وقد وردت فى المحاضرة التى القاها البروفيسور برنارد ليويس عن التاريخ الاسلامى فى جامعة لندن سنة ١٩٥٨ . مضافا الى ملاحظاتى وآرائى الخاصة .

(٣٥) التحفة للسالمى جزء ١ ص ٦٠ — ٤٠ وجزء ٢ ص ٢٠٩ — ٣٠ ويتناول برنامج ونمو الحركة الاباضية المحافظة فيما بين الاربعينيات من القرن ١٩ و سنة ١٨٦٨ .

فى تدعيم حكم السلاطين المعتدلين سابقاً . ولقد كان تحول صالح بن على إلى جانب المحافظين أمراً بالغ الأهمية إذ هو قلب كفة الميزان لصالح المحافظين [٣٦] . وبالتالى فان انتصار المحافظين سنة ١٨٦٨ يعود فى أسبابه أولا إلى تأييد قسم كبير من العمانيين لبرنامجهم ، والى الزعامة المخلصة للطبقة الدينية المحافظة ثانيا ، والى وجود بعض الزعماء الشرعيين من قبيلة قيس فى معسكر المحافظين ، ثالثاً ، والى ايمان الزعماء القبليين بقضية المحافظين بعد سنة ١٨٦٧ رابعاً ، وأخيراً إلى الضعف والتفكك المتزايد فى صفوف الحكام المعتدلين .

دعم حكومة المحافظين :

بعد فرار السلطان سالم من البلاد فى شهر أكتوبر سنة ١٨٦٨ ، دعا زعماء المحافظين إلى اجتماع عام لعلماء الدين فى العاصمة ، وذلك لوضع أسس الدولة الأسلامية المثلى وفقاً للقواعد الأباضية . وكان البند الأول فى جدول الأعمال انتخاب الإمام . وقد أجريت عملية الاقتراع على النمط الأباضى القديم ، حيث تتفق مجموعة من الزعماء الدينيين والقبليين على مرشح واحد لاحتلال منصب الإمامة ، وتقديمه للأمة لأخذ موافقتها النهائية عليه . وقد رشح فريق الزعماء الذى يسيطر عليه الخليلى ومحمد بن سالم الغار ، وهو من الشخصيات الدينية البارزة فى قبيلة آل سعد التى تقطن الباطنة ، وصالح ابن على رشحوا عزان بن قيس ، الذى سبق أن تولى الامامة جده الأول من أبيه ، أحمد ابن سعيد ، أو حاكم البوسعيدى يتولى الحكم فى عمان فى القرن الثامن عشر . وقد أيد أفراد الشعب هذا الترشيح ، وتم اعلانه رسميا وبايع الجمهور المرشح على الامامة . وتقوم البيعة على أساس أن يتعهد الشعب للامام المنتخب بالطاعة مقابل

---

(٣٦) رسالة رقم ٤٧٩ مؤرخة ١٨٦٨/١٠/٢٩ من اتكنسون الى جاون .
وفى أوائل عام ١٨٦٨ انشقت قبائل الحرث والحجريين ، وبنى بو حسن ، الذين كانوا يؤيدون سالم بن توينى ، وانضموا الى صفوف المحافظين .

التزامه بشروط معينة والامام الذى يتم انتخابه على هذا الأساس ، يعتبر فى نظر الأمة اماما ضعيفا ، أى أنه لا يستطيع اتخاذ القرارات الهامة قبل موافقة علماء الدين عليها (٣٧) .

لقــد أقام المحافظون نظام حكم على نمط نظام الإمامة القديم . وعلى الرغم من كون الامام هو السلطة الاسمية والتنفيذية للحــكم ، إلا أن مجموع الشخصيات الدينية القيادية بما فيهم الإمام ، تعتبر السلطة العليا فى اتخاذ القرارات . غير أن نفوذ زعماء الدين كان نفوذا متأرجحا . فلقد كان الشيخ سعيد بن خلفان الخليلى أهم شخصية بين الشخصيات القيادية ، بما فيها الامام . وكــان المسئول عن وضع الخطوط العريضة للسياسة العامة للدولة ، كما كان يشرف على الشئون القضائية ، ويحدد لها الشكل العام . وكما كان معظم القرارات التى اتخذت فى عهد حكومــة العمانيين المحافظين ابتداء من سنة ١٨٦٨ حتى سقوط هــذه الحكومة فى سنة ١٨٧١ ، من بنات أفكار سعيد بن خلفان ونتاج خياله الخصب . ولم يحدث أن انطبق اصطلاح « القوة المحركة وراء الحكم » على شخص ما كما انطبق هذا الاصطلاح على مكانة الخليلى من حكم الإمام عزان بن قيس .

كان الخليلى من الزعماء المحافظين . وقد حافظ على خطه هــذا منذ محاولته الأولى لبعث الامامة فى سنة ١٨٤٣ — ٤٦ . وقد أمضى الخليلى فترة الخمسينات من القرن التاسع عشر يدرس ويبشر فى داخلية عمان . وعلى الرغم من أن سلالته القبلية غير معروفة إلا أنه كان يعتبر نفســه من هناويى بنى رواحه ، سكان وادى سمايل وكان الخليلى يستمد هــذا النفوذ من مكانته العلمية ، كمفسر وداعية للعقيدة الأباضية الجامدة (٣٨) .

---

(٣٧) التحفة للسالمى جزء ٢ ص ٢٣٦ — ٣٧ .

(٣٨) نفس المصدر ص ٢٠٩ ، ٢٢٩ و كتاب « عمان » اعداد شركة الزيت العربية الأمريكية ص ١٠٨ .

أما أنصاره فكانوا يعتقدون بأنه يتمتع بقوة سحرية حتى أن بعضهم قال بأنه يستطيع أن يحيى الموتى وبأن جبريل كان يزوره ويجاوره • أمـا هو فقد كان أباضيا متطرفا ومتعصبا للاباضيين ، وكـان يحرم التدخين ، والخمر ، والموسيقى واطلاق الشوارب • أما منصبه الرسمى فى الدولة فهـو قاضى القضاة ومحافظ مسقط • أما من الناحية الفعلية فقد كـان الخليلى كبير المستشارين ، الدينيين ، والماليين والسياسيين • وكـانت جميع المسائل حتى أصغرها تعرض عليه (٣٩) •

وكانت تناصره وتشد أزره حفنة من المتعصبين الدينيين (المطاوعة) الذين كانوا يمثلون رأس الحربة للاباضية العسكرية المتطرفة ، والذين يمكن تشبيههم بالغزاة المسلمين الأوائل • وهم جماعة عقيدة راسخة الجذور بين الأباضيين ، حيث يرجع تاريخها الى القرن الثامن عشر • غير أن محور وحدتهم السياسية فى الستينات من القرن التاسع عشر كـان فى الدرجـة الأولى هى ولاؤهم المشترك للخليلى • وكان ثمة ، على ما يبدو ، فريقـان من المطاوعة : علماء الدين المتضلعون ، ومهمتهم أشبه بمهمة جماعة القراء فى عهد الخوارج والمحاربون (المنفذون) للبرامج التى يضعها زعماء الدين • وبذكائه ، وبما اشتهر به من التقوى والورع وبعد النظر ، وبالتأييد الفعال من جانب المطاوعة ، الذين يضمون أغلبية رجـال القضاء فى عمان ، استطاع الخليلى أن يقبض بيد من حديد على زمام الحكم المدنى للحكومة المحافظـة فى عمـان (٤٠) •

أمـا عزان بن قيس الرئيس الاسمى للدولة فلم يكن فى الحقيقة على وفاق مع الخليلى ، غير أنه كان واقعاً تحت سيطرة كبير قضـاته معظم

---

(٣٩) رسالة رقم ٣٢٤ مورخـه ١٨٦٩/٦/٩ من دسبراو الى جـاون وكتاب « لوريمر » مجـلد ١ ص ٤٨٢ •

(٤٠) ابن رزيق ص ٢٠٣ ، ٢٤٧ — ٢٤٨ ، ماجورغرى (فرع المطوعة من الاباضـية) لوريمر جزء ١ ص ٢٧٥ ، الخ • • •

الفترة التى حكم فيها البلاد . وقــد تم انتخاب غزان لا لأنه أقــوى الشخصيات الموجودة ، بل لاستقامته ونسبه لبيت البوسعيد الحــاكم . ومما لا شك فيه أن الخليلى لم يكن يريد إماماً قوياً . وفضــلا عن ذلك فان زواج الإمام من كريمة الخليلى قد عزز من نفوذه . ويعتبر الإمام بالإضافة إلى منصبه هذا القائد الأعلى للجيش . وهى مهمة نجح فيها عزان وإن لم يكن قد برز فيها . وكان خشناً فى طباعه ، وإن كان على جانب من الأدب . وهذه هى الصفة التى فرضت له الاحترام بين الاوساط القبلية ، هذا بالرغم من ان الاتجــاه المتزمت للامامة قــد أفقده كثيراً من التــأييد فى المنطقة الساحلية . وفى الوقت الذى استطاع عزان ببراعته التوفيق بين العناصر المتنافســة داخل حكومته ، اكتســب خبرة وشــهرة حطت من اســهم الخليلى [٤١] .

أما الشخصية الثالثة فى الطبقة الدينية المهيمنة فهى صالح بن على زعيم قبائل الحرث . ويستمد صالح أهميته من تزعمه لقبائل الهناوية فى الشرقية . وقد تولى فى البداية منصباً رسمياً فى الحكومة الجديدة يماثل منصب رئيس وزراء فى دولة علمانية ، غير أن الخليلى كان يعتدى على صلاحياته ، وبذلك فترت علاقة صــالح بزملائه على مر الوقت ، وعلى الرغم من ان صالح قد اسهم بدور فعال فى انشــاء الإدارة المركزية لحكومة الامامة ، إلا أنه لم يكن طرفاً مباشراً فى سقوطها سنة ١٨٧١ . وعلى أى حال فقد احتفظ صالح بمركزه كدعامة من دعامات المحافظين [٤٢] .

---

(٤١) التحفة للسالمى جزء ٢٢ ص ٢٣٧ — ومن دسبراو الى جسون ٦ اغسطس ١٨٦٩ رقم ٤٢٤ — مســقط وسجلات الهند ٢ مجــلد ال ° ولوريمر جــزء ١ ص ٤٩١ .

(٤٢) التحفة للسالمى جزء ٢ ص ٢٣١ — ٢٣٧ وخطاب رقم ٤٨٦ بتاريخ ١٨٦٨/١٠/٣١ من اتكنسون الى جاون وخطاب رقم ٢٩ مؤرخ ١٨٦٩/٢/١٨ من اتكنسون الى بلى وخطاب رقم ٤٣٧ بتاريخ ١٨٦٩/٨/١١ من دسبراو الى جاون وخطاب رقم ٢٢٣ مؤرخ ١٨٧٠/٤/١١ من وى الى بلى .

أما محمد بن سلمان الغاربى فقد كان من الأعضاء المؤسسين بين الفئة الأوليجركية الحاكمة ، غير أن هذا الزعيم الدينى الذى ينتمى إلى قبيلة ال سعد ، أخذ يضيق ذرعا بزملائه على مر الوقت • وعلى الرغم من أنه كان اباضياً محافظا إلا انه لم يكن متعصبا ؛ ومما ان الغاربى من القطاع الساحلى من عمان ـ فقد كان يعتقد بأن الخليلى لم يكن واقعيا فى كثير من قراراته السياسية [٤٣] •

وقد برزت شخصية هامة أخرى فى محيط الحكم المحافظ هى ابراهيم بن قيس ، شقيق الامام عزان • وكان هذا ينتقد الخليلى علنا وكان قائداً عسكريا ، ومن المغرمين باثارة المشاكل لحساب اخيه • وبعد وفاة عزان وسقوط الامامة فى سنة ١٨٧١ ، ورث عزان زعامة قبيلة قيس ، كما ظهر زعيم عسكرى هام آخر مشاغب ونعنى به فيصل بن حمود ، ابن عم الامام عزان [٤٤] •

وبمجرد ان انتهى الحكم المحافظ من تنظيم نفسه اخذ يوجه نشاطه لتدعيم قبضته على عمان وسائر ممتلكات الامامة فيما وراء البحار • وقد نجح هذا النظام فى السنوات الاولى من عمره فى فرض سيطرته السياسية فى سنة ١٨٦٩ على جميع أراضى عمان ، بل والقضاء على الخطر السعودى المباشر على المقاطعات العمانية الواقعة على حدود الربع الخالى • ومن ناحية أخرى فان المستعمرات البريطانية فيما وراء البحار على ساحل مكران لم تدخل فى نفوذ الامام ، وفى سنة ١٨٧٠ بدأت متاعب النظام

---

(٤٣) التحفة للسالمى جزء ٢ ص ٢٣٠ — ٢٣٥ ، ٢٤٦ — ٤٧ ورسالة رقم ٥٢٠ بتاريخ ١٨٦٨/١١/١٨ من اتكنسون الى جاون ورسالة رقم ٤٣٠ فى ١٨٦٩/٨/٧ من دسبراو الى جاون •

(٤٤) التحفة للسالمى جزء ٢ص ٢٤٥—٢٥١—٢٥٣ ورسالة رقم ٥٢٠ بتاريخ ١٨٦٨/١١/١٨ من اتكنسون الى جاون ورسالة رقم ٤٣٠ مؤرخه ١٨٦٩/٨/٧ واخرى برقم ٤٦٥ مؤرخه فى ١٨٦٩/٨/٢١ من دسبراو الى جاون •

المالية ، والتذمر من بعض المواقف السياسية للحكومة تعصف بشعبية ونفوذ السلطات الحاكمه المحافظه • ان اهم ما انجزته حكومه عزان هو خضاعها البلاد كلها لسيطرتها وهذا ما لم يتسن إلا لقليل من رجال الحكم فى عمان • وعندما تالفت الامامة فى أكتوبر سنة ١٨٦٨ ، اعلنت غالبيه القبائل الهناوية ولاءها وتأييدها للحكومه الجديدة • ومن ناحية اخرى فان عدداً قليلا من قبائل الغافرية اشترك فى الثورة التى اتت بالامامة • ومع ذلك فانه بالرغم من أن بعض فئات الغافريه قد اعترفت بسلطة الحكم الجديد ، إلا أن اغلبيتها لم تخضع للامام • وبالتالى كان من المهام الأولية لحكومة المحافظين ، هى أن تتحرك لاخضاع أى قبيلة من قبائل الغافريه لا تعلن ولاءها للنظام الجديد •

لقد كان اقوى تجمع للقبائل الغافرية يتركز فى منطقة وادى سمايل ، ومن ثم فقد كان من الطبيعى ان يسير عزان اكبر حملة عسكرية إلى هذه المنطقة لاخضاع القبائل • وعلى أى حال فقبل ان تتحرك قوات عزان تلقى الامام انباء مشجعة عن خضوع قبائل آل سعد وغيرها من قوات المحافظين لسلطته ، وذلك بعد استسلام حمد بن سالم ، محافظ السلطان سالم السابق فى المصنعة [٤٥] ، وفى شهر يناير سنة ١٨٦٩ زحفت طلائع قوات الامام على سمايل وقامت بسلسلة من العمليات امتدت نحو شهر وانتهت باستسلام قبائل الغافرية لقوات الامام • وقد نشب قتال لا مثيل له فى العنف حتى بالمقاييس العادية للحروب القبلية فى البلاد العربية ، لاخضاع الخصوم السياسيين • فعندما رفضت هذه القبيلة دعوة الامام للاعتراف به ، شن عليها هجوماً بثلاثة آلاف مقاتل جندوا من ساحل الباطنة ، وكان يدعم هذه القوة مدفعان من مدافع الميدان • فكانت نتيجة هذا الهجوم ان انهارت قدرة السيابيين على القتال ، واستسلمت بقية قبائل الغافرية المجاورة بسرعة • وقد طلب الامام من جميع القبائل الرئيسية للمقاطعة

---

(٤٥) التحفة للسالمى جزء ٢ ص ٢٢٦ — ٤١ •

وهى بنى جابر ، والندابيين ، وبعض القبائل الأقل أهمية ، وانسيابيين أيضاً تسليم بعض الرهائن للامام كتعهد منهـا بحسن السلوك تجاه الحكومة . وجدير بالذكر ان بنى جابر كانوا قد ساعدوا المحافظين إبان الثورة ، ومع هذا فقد طلب اليهم ان يقدموا عشرين رهينة (٤٦) .

أما القبيلة الغافرية الوحيدة الكبرى التى استمرت فى تحديها للامام بعد شهر فبراير سنة ١٨٦٩ ، فهى قبيلة بنى ريام . فهذه القبيلة التى يقيم افرادها على قمم الجبل الأخضر ، وهى أعلى منحدرات سلسلة جبـال الحجر ، وبقيادة زعيمها سيف بن سليمان ، قد وقفت موقف الحياد من الصراع حتى بعد آن بعث اليها الامام بهدية من ٢٠٠ قيد كتحذير ضمنى لها . وبمـا ان عزان لم ينفذ تهديداته ، فقد شجع هذا سيف بن سليمان ، وغيره من المشـايخ الأقل اهمية ممن افلتوا من حملـة الامـام ، على التآمر لاعادة تنصيب السلطان السابق سالم على الحكم (٤٧) .

غير ان نشاط سالم بن ثوينى خلال ربيع سنة ١٨٦٩ لم يكن يشكل خطراً حقيقياً على سلطة الامام . فبعد فرار سالم من مسقط فى اكتوبر سنة ١٨٦٨ لجأ إلى بندر عباس . وهناك أخذ يعد العدة لاسترجاع عرشه ، واخيراً فى أوائل ربيع سنة ١٨٦٩ ، وبعد انذارات من البريطانيين بالتزام الهدوء ، عبر سالم البحر خلسـة إلى دبى على ساحل الصلح . وقد استقبل فى دبى بحفـاوة كبيرة . وبدأ محادثاته لتشكيل حلف مع امراء سـاحل الصلح بتأييد من بعض قبائل عمان التى لم تخضع للامام عزان ، وحليفه القديم تركى السديرى ، القائد الوهابى فى البريمى . وقد بدا لأول وهلة ان سالم يحظى بتأييد واسع ، كما وعده السديرى وبنو ريام ، وبنو جابر ، ممن أذلهم الامام عزان خلال حملته على وادى سمايل بالمساعدة ، غير أن

---

(٤٦) نفس المصـدر ٢٤٢ — ٤٤ وخطاب رقم ٦٩ مؤرخ ١٨٦٩/٢/١٥ من اتكنسون الى بلى .
(٤٧) التحفة للسالمى جزء ٢ ص ٢٤٤ .

خطة سالم بن ثوينى تلقت فى شهر ابريل سنة ١٨٦٩ ضربة ماحقة • فقد اغتيل السديرى أثناء عراك خلال وجوده فى الشارقة على ساحل عمان • وعلى الرغم من هذه الانتكاسة فقد قام سالم بجولة فى المنطقة الداخلية من عمان لتجميع قبائل الظاهرة ؛ إلا أنه لم يحصل منهـا على وعود قاطعة بالمساعدة فقد تخلت القبائل العمانية عن تأييده بعد أن فقدت نصيرها فى شخص السديرى • وأخيرا بعث الامام بدوريات للبحث عن سالم بن ثوينى والقبض عليه • غير ان سالم بعد ان شعر باليأس عاد إلى دبى • وفى شهر مايو سنة ١٨٦٩ عاد إلى منفاه بطريق البحر • وقد اقام فى جزيرة كشم الواقعة على مضيق هرمز ليكون على مقربة من الأحداث فى عمان ولكى يستطيع التحرك فورا إذا سنحت الفرصة من جديد لإسترجاع عرشه (٤٨) •

فى الوقت الذى كان الامام عزان بن قيس مشغولا بحملته فى وادى سمايل ، وبمواجهة المؤامرات التى يحوكها ضده بنو ريام والسلطان السابق سالم بن ثوينى ،كان فيصـــل بن حمود ابن أخ الامام فى طريقه عبر المنطقة الجنوبية الشرقية من عمان يتلقى مظاهر الولاء والتأييد من قبائل المنطقة ، وبعد مغادرته مسقط ، واستقباله بالترحيب والهتاف فى صور أتجه الموكب الى جعلان ، وفى الطريق توقف فيصل فى بلاد بنى بوحسن • وخلال وجوده فى هذه المنطقة أعلن شيخ بنى بو على الغافرى ولاءه للإمام عزان وقد أنهى فيصـــل بن حمود جولته بزيارة للشرقية ولقبيلتهـا الحرث ، ومنها قفل عائداً إلى مسقط بعد ان اطمأن إلى أن سيطرة الامام على عمان الجنوبية كأقوى ما تكون (٤٩) •

فى صيف عام ١٨٦٩ لم يبق من المناطق الكبيرة غير الموالية للامام غير

---

(٤٨) نفس المصـــدر ص ٢٥١ وخطاب مؤرخ ١٨٦٩/٦/٦ من سالم بن ثوينى الى دسبراو ورد كمرفق لخطاب رقم ٣٥٨ مؤرخ ١٨٦٩/٦/٢٧ مـــن دسبراو الى جاون •

(٤٩) التحفة ، تأليف : السـالمى جزء ٢ ص ٢٤٥ — ٤٦ •

مقاطعتين همـا مقاطعة الداخلية والظاهرة ـ وفيمـا عدا بعض القبائل الجبلية كقبيلة بنى ريام • وعلى أي حال فإن الظاهرة تعد مشكلة بالنسبة لأى حاكم عمانى ، لأن هذه المقاطعة تعتبر منذ أوائل القرن التاسع عشر داخلة ضمن منطقة النفوذ المتاخمة للحامية السعودية فى البريمى • غير أن وفاة السديرى المفجعة فى شهر ابريل سنة ١٨٦٩ ، قد اضافت عوامل جديدة من القلق وعدم الثقة إلى الوضـع • وربما كانت النتيجة المباشرة لوفاة السديرى ، هو ما قررته قبيلة النعيم الغافرية المقيمة فى البريمى والمناطق المجاورة لها بالتخلص من السيطرة السعودية • ولقد نجحت هذه المحاولة لأن القائد السعودى الجديد عبد الرحمن السديرى لم يكن فى مسـتوى المسؤولية من ناحية ، كمـا ان جهاز الحكم المركزى للدولة السـعودية ، كان قد بدأ يتزعزع تحت ضغط الحرب الأهلية الدائرة بين نجلى عـاهل السعودية ، سعود وعبد الله بن فيصل الزعيم المطلق للوهابيين • وقد تورط الامام عزان فى صراع النعيم ضـد الوهابيين وذلك لأسباب كثيرة • فمن ناحية كان عزان مستاء من اعتزام السديرى مسـاعدة السلطان السابق ثوينى ، كمـا أنه من ناحية أخرى توقف عن دفع ضريبة العشرين الف ريال التى كانت تدفع كرشوة للسعوديين • ومن هنا بات عزان يتوقع شيئاً مـا من السعوديين • وقد تقرر أخيراً ان يتوجه محمد بن على شيخ النعيم إلى الباطنة للاجتماع بمحمد سليمان الغاربى ، أحد زعمـاء الدين فى حكومة الامام ، للحصول على موافقته بزحف قوات الامام على البريمى واحتلالها ووضـع حد للتهديد الوهابى لعمان [٥٠] وبعد الاتفاق المبدئى بين الرجلين اتصلا بالامام عزان وعرضا عليه الخطة فوافق الأخير عليها [٥١] •

وقد اتخذ الجيش العمانى من صحار نقطة للتجمع والانطلاق ، وذلك

---

(٥٠) نفس المصـدر ص ٢٤٨ •

(٥١) كتاب لوريمر مجـلد ١ ص ٤٨٤ ـ ٨٥ ورسالة رقم ٤٧٩ مؤرخه ١٨٦٨/١٠/٢٩ من اتكنسـون الى جاون . ورسـالة اخرى رقم ٣٢٤ مؤرخه ١٨٦٩/٦/٩ من دسبراو الى جاون •

فى اوائل شهر يونيو سنة ١٨٦٩ • ومن صــحار تحركت القوات عبر سلسلة جبال الحجر عن طريق وادى الجزى حيث انضمت اليها هناك قبائل النعيم وحلفائهم من بنى كعب • وفى ذات الوقت عقد عزان بن قيس حلفاً مع شيخ ابو ظبى الطموح زايد بن خليفة ، وكان يحتل مركزاً بارزاً بين زعماء ساحل عمان حتى وفاته فى سنة ١٩٠٩ • وقد وصلت قوات الامام وحلفائه إلى البريمى فى منتصــف يونيو وشنت على الفور هجومهــا على القــاعدة السعودية (٥٢) • وفى يوم ١٨ يونيو سنة ١٨٦٩ سقط المعقل السعودى بعد معركة وصفها عزان بن قيس كمــا يلى : « لقد ارسلنا الطرف فشاهدنا امامنا قلعة حصــينة منيعة على الوصول • وهى قلعة عــالية جداً وقوية التحصين • كما كان فى داخلها رجال أشداء متحدى الصفوف وأخذ الطرفان يستعدان للنزال • ثم بدأ القتــال وتبادلت الضربات فارساً ضــد فارس ، ومرتجلا ضد مرتجل ونصل ضد نصل وسيف ضد سيف • واخذ الرجــال يتساقطون من على ظهور الجياد • يا لها من موقعة • كان المتقاتلون يلمسون الأرض بجباههم • وقد اســتمر الكر والفر ثلاثة ايام بلياليها • وفى اليوم الرابع ابلى المسلمون بلاء حسناً • وقرروا احتلال القلعة • ومــا ان انتشر الخبر بين جنود العدو حتى دب الذعر فى صفوفهم وعرضوا الاستسلام وطلبوا الرحمة • وبمــا أن من عادة العرب أن يمنحوا الرحمة لمن يطلبها فقد رحل العدو ، ولم تبق منه إلا ذكراه ••• » (٥٣) •

غير أن الامام عزان فى تعليقه على المعركة قد اغفل الدور الذى قام به النعيم فى عملية التسلل إلى داخل القلعة • كمــا اغفل الاشارة إلى النجدات التى وصلت فى اللحظة المناسبة بقيادة صالح بن على ، وكان لها الفضل فى

---

(٥٢) « عمــان » اعداد شركة الزيت العربية الأمريكية ص ٢٩ ومذكرات عن السعودية جزء ١ ص ٢٤٤ ٤٦ و « الحــدود الشرقية » ، تاليف كيــلى ص ٨٧ — ٨٨ ورســالة رقــم ١٤٧ — ٢ بتــاريخ ١٨٧٠/٥/٧ من بلى الى دوق ارجيــل •

(٥٣) خطاب مؤرخ ١٨٦٩/٧/٤ من عزان بن قيس الى دسبراو وقــد ورد كمرفق الخطاب رقم ٣٧٧ مؤرخ ١٨٦٦/٧/٩ من سبراو الى جاون •

تقويض معنويات المدافعين وارغامهم على التسليم • وقد أصدر الامام أمراً بتعيين حامية عمانية من مائتى جندى فى قلعة رأس الخندق وانشاء جهـاز إدراى تحت اشراف بريك بن سليمان من شيوخ الغافرية ، الذى عين محافظاً لمقاطعة الظاهرة •[٥٤] ويبدو ان النعيم لم يرحبوا بتعيين حاكم أباضى بدلا من السعودى ، إذ بعد عام من هـذا التاريخ انقلب النعيم على سـلطة الامام [٥٥] • وطبيعى أن يسهم احتلال البريمى فى دعم مركز الإمامة • وحتى مسـقط التى كانت متبرمة من الحكم المحـافظ ، احتفلت بهـذا النصر [٥٦] • غير أن هذا الحماس سرعان مـا أثار المخاوف من احتمال قيام السعوديين بعملية انتقامية سريعة • وهو مـا سوف نتحدث عنه فى الفصـول القادمة •

بعد ان تم احتلال البريمى ، عاد الامام إلى مسقط ليعد العدة لحملة أخرى على المقاطعة الوسطى من عمـان وهى المنطقة الوحيدة التى ظلت خارج سـلطته حتى ذلك الوقت • وقد تحركت الحملة فى شـهر سبتمبر وانتهت من عملياتها فى شـهر اكتوبر سنة ١٨٦٩ ، وكان الهدف من الحملة المذكورة إخضـاع بعض الجيوب القبلية من الغافرية ، وعمـان الوسطى ، فضـلا عن الاستيلاء على بعض التحصينات فى عمان • وقد استغل عزان مقره العائلى فى الرستاق كنقطة وثوب تنقض منهـا قواته فى اتجاه الجنوب الغربى من عمـان عبر سلسلة جبال الحجر حتى منطقة قبائل شـكيل فى مقاطعة عمان الوسطى والاستيلاء على قلعتهم الكبرى فى بهلاء • ولقد سبق لصالح بن على أن أغار على بنى شـكيل من نفس المكان لكنه اخترق المنطقة من جهة أخرى واستولى على قلعـة منح • وفى نفس الوقت كان فريق آخر بقيادة ابراهيم بن قيس ، شقيق الامام يشـق طريقه ويستولى على ازكى وعلى قلعتها الحصينة من شـيخ الغافرية الاكبر على بن جابر

---

(٥٤) التحفة ، تأليف : السالمى ٢ ص ٢٤٩ — ٥٠ .

(٥٥) « الحـدود الشرقية » ، تأليف كيلى ص ٨٨ .

(٥٦) خطاب رقم ٣٧٧ مؤرخ ١٨٦٩/٧/٩ من دسبراو الى جاون .

وقد تعزز هـذا النجاح بنجاح آخر هو استيلاء ابراهيم على قلعة نزوى ومدينتهـا . وقبل بدء الهجوم على نزوى كان المتوقع ان احمد بن سيف البوسعيدي ، محافظ المنطقة ، واحد بقايا النظام المعتدل قـاوم الامام . ومن هنا اضطر ابراهيم بن قيس إلى طلب مساعدة شيخ بنى ريام سيف بن سليمان ، زعيم بنى ريام ، الذى كان يتحين الفرصـة لانهاء خلافه مع الامام . كمـا كانت قواته تحتل جزءاً من نزوى . وقد سقطت نزوى فى يد قوات الامام وعين سالم بن عديم من بنى رواحة الهنـاوية محافظاً على المنطقة . ومن سـوء حظ الشـيخ سيف بن سليمان ان محـاولته لكسب رضا الامام انتهت بطريقة فاجعة . فبعد سقوط نزوى دعاه الامام عزان لزيارته وأعطاه الامان . غير ان عزان لم يكن قد نسى موقف سيف المناوىء له سابقاً . والوعود التى اعطاها لسـالم بمساعدته ضد الامام خلال محاولات الأول قبل ستة أشهر لكسب مؤيدين له بين صفوف القبائل . وهكذا وبالرغم من الامان الذى اعطاه الامام للشـيخ ، فقد اعتقله عند وصوله إلى مسقط وأودعه السجن حيث توفى فيه بعد ذلك بوقت قصير [٥٧] .

شـهد شهر نوفمبر سنة ١٨٦٩ الفصول الأخيرة فى قصـة المحاولات التى كان يقوم بهـا الامام لتدعيم مركزه فى البلاد . وقد نجح فى بداية حكمه فى قمع ثورة الغافرية التى اشترك فيهـا عدد كبير من وهابيى بنى بو على ، سكان جعلان ، غير أن الموقف اللين الذى اتخذه الامام من القبائل المذكورة بعد استسلامها قد أثار استياء الخليلى . ومـا من شك فى أن النتائج التى اسـفرت عنها الحملة الاخيرة لإقرار السـلام فى ربوع البلاد والتى انتهت باحتلال قلعة الحزم التى كان يرابط فيها بعض اليعاربة والتى تتحكم فى مدخل الرستاق ، قد جاءت مرضـية بالنسبة لقاضى القضاة .

---

(٥٧) التحفة للسالمى جزء ٢ ص ٢٥١ — ٥٤ وكتاب لوريمر مجـلد ١ ص ٤٨٤ — ٨٦ ، وخطاب رقم ٦٥٧ مؤرخ ١٨٦٦/١١/١٠ من دسبراو الى جـاون .

ولقد تمكنت قوات الامام من ابادة القوات اليعربية خلال دفاعها المستميت عن القلعة (٥٨) .

فى خريف عام ١٨٦٩ وصـل نفوذ الامامة فى عمان إلى ذروته . وكان اقوى حكم شـهدته عمان فى كل تاريخها . فقد امتدت سلطة الامام عزان حتى شملت البلاد كلها داخلها وخارجها ، مناطقها الساحلية ومناطقهـا القبلية ، معاقلها ومدنها ، سهولها وجبالها . وهو عمل يحق للامام عزان أن يفخر به (٥٩) . وعلى الرغم من ذلك فان هذه السلطة المركزية التى بلغت قمة نجاحها فى سنة ١٨٦٩ ، كانت على ما يبدو تحمل فى طياتها بذور ضعفها وانهيارها . إن النجاح الذى حققه الامام عزان كان يعود فى معظمه إلى التفاف قبائل الهناوية القوية حوله . ومع أن قبائل الغافرية لم تكن متحمسة للامام عزان فى أى وقت من الأوقات ، إلا أنهـا لم تقف ضده . ولعله من سوء حظ الامام عزان لم يفرق ، خلال محاولاته لاخضاع القبائل المنشقة من الغافرية ، بين تلك التى ناصرته ، كبنى جابر مثلا والتى وقفت ضده . وهذا مـا حدا بأكثرية القبائل التى تعرضت للهوان ، إلى التكتل ضـد الامام بمجرد ان سنحت لهـا الفرصة فى سـنة ١٨٧٠ — ١٨٧١ . ومن الحقائق التى لم تتغير فى تاريخ عمـان هى أن أى امامة لا يتحقق فيهـا الائتلاف بين الجناحين الهناوى والغافرى القويين ، لا يمكنها الاستمرار فى الحكم طويلا . وبالتالى فان ثمة ما يدعو إلى الاعتقـاد بأن امامة سنة ١٨٦٨ — ١٨٧١ لم تكن ، على مـا يبدو ، تعبيراً عن هـذا الائتلاف ، وإنما كانت أقرب إلى سـيطرة الجناح الهناوى على السـلطة ، مما أدى إلى انهيار الوضع . بل حتى حماس الهناوية لحكم عزان أخذ يفتر ، عندما تبين ان جباة الزكاة الذين كان يعتمدهم الامام لا يفرقون بين الهناوية والغافرية .

---

(٥٨) التحفة للسالمى جزء ٢ ص ٢٥٤ — ٢٥٧ وكتاب لوريمر مجـلد ١ ص ٨٤ ٤ — ٨٦ .

(٥٩) منذ عام ١٩٥٥ أصبح السلطان الحالى سعيد بن تيمور يسـيطر على مسـاحة تعادل مساحة المناطق التى خضعت للامام عزان بن قيس قبل مائة سنة . هـذا بالاضافة الى مقاطعة ظفار التى يحكمها السلطان سعيد .

ومن هنا فان الأسباب التى أدت إلى إطاحة حكم السلطان ثوينى سابقاً ـ وهى تخلى المؤيدين والأنصـار عنه ـ قد تضافرت من جديد للقضـاء على حكومة الامام عزان ٠

كما ان المتاعب التى كانت تواجه حكم الإمام عزان قد حتمت انتهاج سياسة صارمة نسبيا ، فلقد كانت أخطر والح مشكلة تقض مضـاجع زعماء عمان المحافظين خلال حكمهم للبلاد هى المشكلة المالية ، والطريقة التى يمكن بها توفير الأموال اللازمة للدولة ٠ ومن سـوء الحظ ان الوسائل التى عمد اليهـا الإمام فى مواجهة هذه المشكلات قد خلقت له معارضة قوية ٠ فقد كانت الشؤون المالية والاقتصـادية فى يد قاضى القضاة سعيد بن خلفان الخليلى وهو شخص على الرغم ممـا كان يتمتع به من ثقافة سياسية ودينية واسـعة ومما يتحلى به من اخلاق ، فقد كانت تنقصـه الخبرة بالشؤون المالية وغيرها من الأعمال المتصلة بهذه الناحية ٠

لم يكن نظام الحكم الجديد يتمتع بالكفاءة والقدرة على المعضـلات الاقتصـادية التى كانت تعـانى منها البلاد ، والشطر السـاحلى بنوع خاص ، وانمـا على العكس من ذلك كانت اجراءاتها وقراراتها تضاعف من تلك المشاكل ولقد خيم على مسقط جو من الكآبة والحزن فى اليوم الذى ارتفع فيه علم الامامة الأبيض فى المدينة ٠ فقد كانت هذه الحكومة تخضع للشخصيات القبلية والدينية فى الداخل وهى فئـات لم تكن تدرك أهمية مسقط كميناء عالمى ٠ ولقد أصـدر الخليلى واتباعه من علماء الدين سلسلة من القوانين والمراسـيم فى مسقط تحد من حرية الافراد كتحريم اللهو ، والخمر ، والمخدرات والموسيقى والطبول ٠ ولم يبق من المقاهى الاحد عشر التى كانت تعمل فى مسقط قبل الثورة غير مقهيين فى منتصف عام ١٨٦٩ ٠ كما ان التطرف فى تطبيق القوانين الشرعية وفقا للمفهوم الاباضى المحافظ قد حرم البلاد من عدد من الاعمال التجارية المسموح بهـا قبل استيلاء المحافظين على الحكم ٠ كمـا تحطمت الثقة التجارية فى البلاد ممـا ضاعف من الأزمة التجارية التى كانت تأخذ بخناق المدينة منذ أن تدهورت كمركز للتجميع فى أوائل الستينات من القرن التاسع عشر ٠ وفى سـنة ١٨٦٩

صدر مرسوم يطلب من جميع المسلمين أن يؤموا الجوامع لأداء الصلوات ، واعتبر هذا الطلب اجباريا ، بينما فرض على السكان غير المسلمين الامتثال لهذه الأوضاع . أمـا المطاوعة (رجال الدين) الذين عهد اليهم بالإشراف على الاخلاق العامة ومراقبتها ، فقد كان اغلبهم من القبـائل الأمبين . وكانت مهمـة هؤلاء الاشراف على تنفيـذ القوانين ، وإيقـاع العقوبة بالمخالفين . ولهذا أخذ البحارة الأجانب لا يبرحون سـفنهم أثناء زيارتهم لمسقط . كـا أخذ ربابنة السفن يتجنبون الدخول إلى ميناء مسقط حتى لا يتعرضوا لمعاكسات الحرس الدينى وغيرهم من المتعصبين الذين كانوا يرابطون فى منطقة الميناء . وهكذا انخفض حجم المعاملات التجارية فى أواخر سنة ١٨٦٩ إلى حد ان كميات الارز المستوردة من الهند قد انخفضت إلى ربع معدلها العـادى . وكان أهالى مسقط يتناقلون شـكوى كان يرددها أحد الجنود المحترفين عن عهد السيد سعيد والسيد ثوينى . وقد فقد مورد رزقه بعد استيلاء المحافظين على الحكم وتقول هذه الشكوى : « بانى رجل فقير واكسب بعض الريالات التى اعيل بها اسرتى . اننى لست شيئا ، غير أنى لن انسى أيام السـيد سعيد والسيد ثوينى عندمـا كنا نعيش فى رخاء ، وأعلل نفسى بعودة تلك الايام بأن يعود أحد أبنائهما الى الحكم فيخلصنا من هذا الوضع » [٦٠] .

والواقع ان النزعة الضـيقة للمحافظين لم تكن فى صالح المنـاخ الاجتماعى والاقتصـادى فى مسقط حيث كانت تتعـايش شتى الديانات ومختلف العقائد فى حرية تامة . وحيث كان عبدة « العجل الذهبى » ، كما يقول الرحالة بلجريف أكثر من أى فئة أخرى [٦١] . وقد طرد من البلاد

---

(٦٠) خطاب رقم ٤٢٤ مؤرخ ١٨٦٩/٨/٦ من دسبراو الى جاون وخطاب رقم ٧٠٤ مؤرخ ١٨٦٩/١٢/٩ من دسبراو الى بلى وكتـاب لوريمر مجـلد ١ ص ٤٨٢ راجع أيضـا ص ٢٦ من Precis Commerce

(٦١) أواسط وشرقى شـبه الجزيرة العربية جزء ٢ ص ٣٦٦ ، تأليف بليجريف .

أغلبية التجار المرموقين ممن كانوا يقومون بنشـــاط تجارى هام ، فى مسقط خلال حكم الامامة فى سنة ١٨٦٨ • ولم يكن حظ التجار المتمتعين بالحماية البريطانية أفضـــل من غيرهم ، فقد ساء وضع هؤلاء التجار كثيراً فى ظل هذا الحكم • وعلى الرغم من أن الإمام عزان كان يصرح دائماً بأنه لا يتدخل فى الأديان الأخرى ، إلا أنه كان يعارض دق الطبول والأجراس والصنج فى الاحتفالات الدينية للهنود (٦٢) • ولقد ارتكبت جرائم سلب ونهب وقتل ضـــد المستوطنين الهنود • كمـــا هوجمت مســـاكنهم من جانب الحرس للتأكد من مراعاتهم لقـــانون منع التدخين ، كمـــا حكم على أحد الهنود بالسجن عقاباً على حلق لحيته • أمـــا خارج العاصمة فقد كان الوضـــع اسوأ إذ احرق حى بأكمله للهنود فى بلدة الخابوره • وقد اضطر عدد كبير من الهنود إلى ترك البلاد والانتقال إلى زنجبار وغيرها من مراكز التجـــارة على ساحل المحيط الهندى مستصحبين معهم أموالهم وتجارتهم • وكانت الأكثرية من أفراد الجالية الهندية فى عمان تفتقر إلى سرعة الحركة ، ولهذا تحملت خســـائر مالية جسيمة • وكان عدد كبير من هـــذه الجالية يملك عقارات وديوناً ، أو غيرها من الاموال غير المنقولة (٦٣) • وقد تعذر على الهنود تحصيل الديون التى لهم على التجـــار العرب المحليين • وفى سنة ١٨٧٠ خفت حدة مقاومة الحرس للنشـــاط التجارى والجاليات التجارية العاملة فى البلاد ، غير ان الاوضاع بوجه عام لم تتحسن ، فقد أضرب العمـــال احتجاجاً على ضريبة باهظة فرضتها السلطات الحاكمة فى صـــورة قرض أهلى (٦٤) • ومن ناحية أخرى فان تدهور الاوضاع التجـــارية فى ظل حكم الامامة قد سبب انخفاضاً فى دخل الدولة من الجمارك • ولم تبدأ

---

(٦٢) خطاب مؤرخ ١٨٦٩/٨/١١ من عزان بن قيس الى دسبراو وقـــد ورد كمرفق للخطاب رقم ٤٦١ بتاريخ ١٨٦٩/٨/١٩ من دسبراو الى جاون .

(٦٣) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥٣٦ وخطاب رقم ٢٥٠ مؤرخ ١٨٦٩/٤/٢٦ وخطاب رقم ٢٧٨ مؤرخ ١٨٦٩/٥/١٢ وخطاب رقم ٣٥٣ مؤرخ ١٨٦٩/٦/٢٦ من دسبراو الى جاون .

(٦٤) خطاب رقم ٤٣٣—٣٣ مؤرخ ١٨٧١/١٠/٨ من بلى الى دوق ارجيل .

حكومة الامامة فى العمل على الاهتمام بالمشاكل الاقتصادية للمنطقة الساحلية إلا قبيل سقوطها بقليل [٦٥] .

وقد اتخذ سعيد بن عامر ، مدير الجمـارك الجديد الذى عينـه الخليلى ، ومن زعماء الحجريين أول خطوة فى معالجة الوضـع بتخفيض نسـبة الرسوم الجمركية تخفيضاً كبيراً . غير ان هـذه الخطوة تمت فى مرحلة كانت تعانى كساداً تجارياً وبدلاً من ان تكون عاملا لدعم التجارة ، كانت سبباً فى انخفاض الرسوم الجمركية . ان جهل المدير الجديد بشؤون الجمارك ، وعدم كفاءته بوجه عام قد اضطر الخليلى اخيراً فى سنة ١٨٦٩ إلى أن يستعين بمؤسسة كوبالداس — ماوجى الهندية فى الاشراف على الجمـارك وادارة شؤونهـا ، غير أن اللفتنانت كولونيل دسبراو عارض ذلك . واخيراً استطاع الخليلى ان يؤجر الجمـارك إلى احد التجـار الهنود المسلمين (الخوجا) ويدعى سليمان بن جمعه مقـابل ٣٥٫٠٠٠ ريال نمسـوى فى العام بعد أن اقنعه بأن الدخل سيكون كبيراً . ولكن مـا أن وقع جمعه على عقد الايجار حتى عـاد الخليلى فأنكر تعاقده مع التاجر المذكور وأخذ يهدده بالغرامة والسجن ، إذا حاول التنصـل من الصفقة المذكورة . وهكذا تحايل الخليلى على التاجر الذكور [٦٦] . ومن الوسائل القذرة والخطيرة أيضاً التى كان يعمد اليهـا الخليلى لدعم الامكانات المالية مصـادرة أملاك المؤيدين للنظام المعتدل السـابق . ولكن هذه الاجراءات لم تكن تلقى التأييد من الطبقة الدينية المسيطرة ، بمـا فيها صالح بن على ومحمد بن سليمان الغاربى . وعلى الرغم من ان هذين الزعيمين لم يكونا يؤيدان هذه الاجراءات إلا أنه لم يكن فى مقدورهما الحيلولة دون اتخاذها نظراً للنفوذ الكبير الذى كان يمارسه الخليلى وزمرته من المؤيدين لسياسته

---

(٦٥) انظر Precis Commerce ص ٢٩ وخطاب رقم ١٤٧ — ٢ مؤرخ ١٨٦٩/٦/١٩ من بلى الى دوق أرجيل وخطاب رقم ٣٢٤ مؤرخ ١٨٦٩/٦/٩ وخطاب رقم ٤٦٤ مؤرخ ١٨٦٩/٨/٢١ وخطاب رقم ٦٨٣ مؤرخ ١٨٦٩/١١/٢٥ من دسبراو الى جاون .

(٦٦) خطاب رقم ٦٦٦ مؤرخ ١٨٦٩/١١/١٣ من دسبراو الى جاون .

المذكورة [٦٧] . وقد اكتشف الخليلي أن التهديد بالمصادرة أجدى له من تنفيذها فى بعض الأحوال . والحقت هذه السياسة ضرراً بأعداد كبيرة من الناس فصودرت مزرعة أحد المواطنين بتهمة تعاونه مع الحكم السابق ، كما فرضت غرامة ٣٠٠٠ ريال نمسوى على مواطن آخر بدعوى انه اشترى قطعة أرض من السيد سعيد . كذلك استولت الدولة على مجموعة من العقارات واعتبرتها من « املاك الدولة » وكثرت عليات مصادرة الاملاك فى صيف سنة ١٨٦٩ حتى لم يعد هناك من يشتريها . هذا بالرغم من أن أحد أفراد أسرة البوسعيد ، وهو هلال بن سعيد جمع ثروة كبيرة من صفقات المضاربة فى شراء الممتلكات المصادرة [٦٨] . وقد اتسعت حركة مصادرة الأملاك حتى شملت انصار النظام القديم . وفى سنة ١٨٦٩ فرضت حكومة الإمام على شيخ بنى جابر ، وكان من مؤيدى الامام بالتنازل عن بعض ممتلكاته وتغريمه ٤٠٠٠ ريال . ولكن هذا الاجراء قد أدى إلى تخلى شيخ بنى جابر كلياً عن تأييد الإمامة ، كما سبباً فى ظهور تجمع قوى بين الغافرية أسهم فى النهاية بإطاحة نظام الإمامة فى عمان [٦٩] .

وبالرغم من الخطوات الحاسمة التى اتخذها الخليلى فقد كانت الخزينة خاوية فى سنة ١٨٧٠ ، مما حمل الخليلى على ان يطلب إلى الامام اتخاذ اجراءات استثنائية لطرح قرض وطنى على المواطنين أو استخدام القوة ، إذا لزم الأمر لتوفير الاموال اللازمة . وقد اعتبرت الأموال التى تم الحصول عليها على هذا الاساس تبرعاً من الجمهور ، لا قرضاً قابلا للسداد . وعلى كل حال فقد رفضت قبائل آل سعد المساهمة فى هذا المشروع ولم تسمح للمحصلين بالدخول إلى منطقتها [٧٠] .

---

(٦٧) التحفة للسالمى جزء ١ ص ٦٦ وجزء ٢ ص ٢٤٦ — ٤٨ وشجب السالمى نفسه سياسة المصادرة هذه .

(٦٨) خطاب رقم ٤٣٠ مؤرخ ١٨٦٩/٨/٧ ورقم ٤٩٦ مؤرخ ١٨٦٩/٩/٩ من دسبراو الى جاون .

(٦٩) خطاب رقم ٥٠ مؤرخ ١٨٦٩/٢/١ من اتكنسون الى بلى .

(٧٠) التحفة للسالمى جزء ٢ ص ٢٥٧ — ٧٠ وخطاب رقم ٤٦٥ مؤرخ ١٨٦٩/٨/٢١ وخطاب رقم ٤٩٦ مؤرخ ١٨٦٩/٩/٩ من دسبراو الى جاون .

وبالتالى فقد اضطر الخليلى إلى ضغط المصروفات إلى أقصى الحدود • ومن بين الاجراءات التى إتخذت لمواجهه الأزمه ، هو وقف دفع العشرين الف ريال ، التى كانت تدفع سنويا للحكام الوهابيين [٧١] • وقد نتج عن هذا بالطبع انفجار الخلاف العمانى الوهابى من جديد • كما امتنع الامام عن دفع مكافأة الثلاثة آلاف ريال التى كان قد وعد بها قبائل النعيم مقابل المساعدة العسكرية التى قدموها للامام ، مما جعلهم ينفضون من حوله أيضاً [٧٢] • لم يكن المرتب الذى يتقاضاه الامام يزيد على مائتى ريال شهرياً ، وكانت اعتمادات الجيش تعانى من العجز باستمرار [٧٣] • وبما ان صالح بن على لم يكافأ على الحملات العسكرية التى قادها باسم الامام ، وان الخليلى هو الذى استأثر بها [٧٤] • ، فقد رفض صالح الاشتراك فى اية حملات عسكرية جديدة لحساب حكومة الامام ، وقد تضامن مع صالح فى هذا الموقف عدد غفير من الزعماء العمانيين كاحتجاج على السياسة المالية التى كان يسير عليها الخليلى ، غير أن ذلك كله لم يجد فتيلا •

وبما أن البريطانيين لم يعترفوا بحكومة الامام عزان فانه لم يكن يتقلى التعويض السنوى عن زنجبار ، وكان السلطان ماجد يفضل بطبيعة الحال ان لا يدفع التعويض المالى المذكور • وكان الامام قد تقدم إلى بريطانيا بطلب الاعتراف بحكومته ، وبدفع التعويض المالى عن زنجبار ، غير ان حكومته سقطت قبل ان تتمكن الحكومة البريطانية من البت فى موضوع الاعتراف ، أو استلام التعويض [٧٥] •

لقد استحال على حكومة المحافظين حل المشكلة المالية ، مما عرقل

---

(٧١) خطاب رقم ٤٧٩ مؤرخ ١٨٦٨/١٠/٢٩ من اتكنسون الى جاون •
(٧٢) رسالة رقم ٤٣٠ بتاريخ ١٨٦٩/٨/٩ من دسبراو الى جاون
(٧٣) رسالة رقم ٣٢٤ مؤرخه ١٨٧٠/٦/٩ من دسبراو الى جاون .
(٧٤) رسالة رقم ٢٢٣ بتاريخ ١٨٧٠/٣/١١ من وى الى بلى .
(٧٥) رسالة رقم ٢٩٩ بتاريخ ١٨٧٠/٦/٢٤ من بلى الى دوق ارجيل (سجلات الحكومة الهندية) .

سير الأعمال الحكومية فى البلاد . وكان الخليلى ومعاونوه من علمـاء المحافظين ، وجلهم من مواليد المنطقة الداخلية من عمـان ، أقل تفهمـا لأوضـاع عمان ومشاكلها الاقتصادية والمالية من السلاطين المعتدلين الذين سبقوهم على الحكم وعاشوا فى الفترة مـا بين سنة ١٨٥٦ وسنه ١٨٦٨ . وعلى اى حال فقد كانت هذه السياسة سبباً فى ركود الحركة التجارية وفى هروب رؤوس الأموال أو انكماشها كمـا افقدت النظـام جانبا كبيرا من اتاييد وعلى الأخص فى المنطقة الساحلية من البلاد . ويبدو أن مشـاكل الثروة والتجارة لم تكن تستأثر باهتمام المفكرين ورجال الحرب المحافظين . وإذا كانت رفاهية اهل عمـان التاريخية تحتضر فى عهد السلاطين ١٨٥٦ — ١٨٦٨ ، فانهـا شهدت نهايتها على يد المحافظين .

العلاقات الخارجية فى عهد المحافظين :

لم تحقق حكومة الامـامة نجاحات ملحوظة فى علاقاتهـا بالدول الاجنبيه . الأمر الذى أسهم — أو بالأحرى أفشـلها فى الحصول على اعتراف بريطانيا بهـا — فى اسقاطها فى النهاية . وبالرغم من أن علاقه عمان بمستعمراتها على ساحل مكران الواقعة بين بندر عباس وجواذر كانت تعتبر من الشؤون الداخلية ، إلا أنها اضحت احدى مشـاكل السياسة الخارجية فى عهد حكم المحافظين . فمنذ الخمسينات من القرن التاسـع عشر ظلت هـذه المنطقة محور المصالح الايرانية بشـكل متزايد . عندما استولى عزان بن قيس على مسقط سنة ١٨٦٨ . بادرت الحكومة الايرانية إلى فسخ الاتفـاق المعقود مع السلطان ثوينى مستندة فى ذلك إلى أحد بنود الاتفاق الذى ينص على إمكـان فسخ الاتفاق فى حالة انتقال الحكم إلى دولة غازية أخرى . ومع ذلك فقد اعتمدت السلطات الايرانية الحاج أحمد ، وزير السلطان المخلوع حاكماً فى الميناء الايرانى المذكور ، وسمحت لسـالم بن ثوينى بالاقامة فيه . وقد حاول الامام استرجاع سلطانه على بندر عباس بالقوة ، غير أن البريطانيين عارضـوه فى ذلك . ورغم هـذا فقد استطاع الامام ارسـال قوة مسلحة خفية لغزو المدينة ، ورغم ان هذه

القوة تمكنت من احتلال الميناء ، إلا ان الامام لم يتمكن من الاحتفاظ بسلطته على المنطقه . ومنذ ذلك الوقت حتى اليوم بقيت بندر عباس فى حوزه الحكومة الايرانية ، غير ان العنصر العمانى فيها كان هو العنصر الغالب فى الأيام الأولى من استلام الايرانيين لادارة الميناء وعلى الأخص فى النواحى الادارية . وكان من بين هؤلاء العمانيين الحاج احمد [٧٦] .

أما فى جواذر فقد نجح الامام عزان فى تعيين حاكم عمانى عليها ، غير أن هذا الحاكم لم يكسب تأييد سكان المنطقة . وقد هيأ هذا الجو للقيام بانقلاب ضد الامامة فى جواذر ففى شهر ابريل من سنة ١٨٦٩ تسلل السيد ناصر بن ثوينى ، أحد أبناء السلطان الأخير ، ومن أم بلوشية تنتمى إلى إحدى المناطق القريبة من جواذر إلى هذه البلدة . ونظراً للقرابة التى تربطه بسكان المنطقة ، لم يواجه صعوبات كثيرة فى إعداد قوة مسلحة واحتلال جواذر . وقد استنجد والى الامام فى جواذر بالبريطانيين ، إلا ان هؤلاء لم يستجيبوا له ، لأن ناصر بن ثوينى قام بانقلابه من الداخل ولم يستخدم أى سفن حربية أو ينتهك اتفاقية السلم البحرى للمنطقة . بل على العكس فقد وقفوا ضد محاولة الامام فى ارسال حملة بحرية مسلحة للهجوم على ناصر [٧٧] . وكان فى هذا الموقف تطبيقاً لمبادىء السلم البحرى المعمول بها فى المنطقة على خليج عمان . وبهذا الاجراء حالت بريطانيا بين عزان والقيام بهجوم مضاد ضد خصومه ، كما حالت ايضاً بين الجماعة المعتدلة وشن أو تنظيم هجوم من قواعدهم على حكومة عمان .

ان الانطباعات التى كونتها السلطات البريطانية عن المحافظين وسياستهم لم تكن ترضى تلك السلطات وبمضى الوقت إزدادت العلاقة سوءاً بين

---

(٧٦) خطاب من الحاج احمد بن محمد الى المقيم بلى وقد ورد كمرفق رقم ١ للخطاب رقم ٥٢٨ مؤرخ ١٨٦٩/١٠/٩ من بلى الى دسبراو .

(٧٧) كتاب « لوريمر » مجلد ١ ص ٤٨٤ وخطاب رقم ١٨٩ مؤرخ ١٨٦٩/٤/١٢ من دسبراو الى بلى .

الجانبين • وقـــد أرسل الامام عزان فى اوائل حكمه وفداً عمانياً إلى الهند فى محاوله للحصول على اعتراف من الحكومه البريطانيه بحكمه ، غير أن المحاولة لم يكتب لها النجاح [٧٨] • وكانت العقبة الرئيسية أمام قيام علاقات طبيعية وودية بين الانجليز والامام عزان ، هى نزعة التطرف عند بعض المسئولين فى حكومه الامام ومؤيديها فى مسقط • وقد ازدادت العلاقه تدهورا بين الحكومتين بسبب المعامله السيئة التى كانت السلطات العمانية تعامل بها الرعايا الهنود وبسبب تدهور الاوضاع التجارية للبلاد أيضاً • ولقد تأزم الموقف إلى أبعد الحدود بين الامام عزان والكولونيل دسبراو فى صيف عام ١٨٦٩ ، بعد حادث اطلاق النار على إحدى السفن الحربية البريطانية وهى راسية فى ميناء مسقط • ولقد قاوم دسبراو بكل ما يستطيع فكرة اعتراف حكومته بنظام الامام عزان • غير أن علاقة عمان بالانجليز تحسنت فى مطلع سنة ١٨٧٠ بعد مغادرة دسبراو مسقط • ثم فى أواخر سنة ١٨٧٠ تغير موقف المقيم بلى من الحكم المحافظ فى عمان فطالب حكومته بالاعتراف به • وبعد اعادة النظر فى هذا الموضوع قررت الحكومة البريطانية الاعتراف بحكومة مسقط ، إلا أن هذه الحكومه سقطت فى أوائل سنة ١٨٧١ وذلك قبل أن يتمكن البريطانيون من ابلاغ قرارهم هـــذا لحكومة عزان [٧٩] •

سبق ان تناولنا المرحلة الأولى من علاقة عمان المضطربة بالسعوديين • فقد كان رفض الامام عزان لدفع الزكاة أو الاتاوة فى سنة ١٨٦٨ الخطوة الأولى فى سلسلة من المواقف التى اسفرت عن احتلال البريمى سنة ١٨٦٩ من جانب قوات الامام • وإزاء هذا بعث حاكم السعودية إلى الامام عزان

---

(٧٨) خطاب من عزان بن قيس الى اتكنسون وقـــد ورد كمرفق لخطاب رقم ٤٢٩ مؤرخ ١٨٦٨/٩/٣٠ من اتكنسون الى جاون .

(٧٩) « سياسة الهنـــد الخارجية » ص ٢٣٧ — ٤١ ، تاليف براســـاد ولوريمر مجـــلد ١ ص ٤٨٧ — ٩٠ . ان الرجوع الى المجـــلد ١٦ من سجلات الحـــكومة الهنـــدية يكشف كيف كان دسبراو يعارض فكرة الاعتراف بنظـــام الامـــامة فى عمـــان •

بالرسالة التالية : « من عبد الله بن الفيصل ، امام المسلمين » إلى عزان ابن قيس ، امام اللصوص • لقـد علمنا بما قمتم به ونأمل أن نزوركم بعشرين الف رجل ، ونرجو أن تستقبلونا أحسن استقبال » [٨٠] • وكان شتاء عام ١٨٦٩ شتاء مخيفاً بالنسبة إلى عمان إذ عاشت البلاد وهى ترقب بين لحظة وأخرى غزوا وهابيا مضادا ولهذا توجه الامام عزان وشقيقه ابراهيم بجيوشهما الى البريمى استعداداً لمواجهة الغزو المنتظر • إلا أن الهجوم المتوقع لم يحدث ، ربما بسبب الحـرب الأهلية التى نشبت بين الشـقيقين السعوديين عبد الله الفيصـل وسعود الفيصل للسيطرة على مقاليد السلطة فى البلاد من ناحية ، وخوف السعودية من رد فعل بريطانى ضدها فيما لو اقدمت على الهجوم من ناحية أخرى • وعلى أى حال فإن الاستعدادات التى اتخذتها حكومة الامامة للدفـاع عن البلاد قـد ضاعفت من الضغوط الداخلية فى الامامة ، بسبب الاجراءات الصارمة التى اتخذتهـا الحكومة لتـأمين النفقات اللازمة للمعركة على وجـه السرعة [٨١] • ومن ناحية أخرى ازدادت علاقة الامام عزان بحكام زنجبار تدهوراً • وكان السلطان ماجد يعيش فى جوف من أن يقوم عزان بهجوم مسلح على زنجبار ، أو بتدبير انقلاب ضده للاستيلاء على السلطة فى الجزيرة • كما كان ماجد يتمنى لو يعود فرع اسرته الحاكمة إلى السلطة فى عمان • لهذا قام ماجد باتصالات مع أخيه تركى بن سعيد فى أواخر سنة ١٨٦٩ • وكـان تركى يعيش فى منفاه الاختيارى فى الهند منذ سنة ١٨٦٧ ، لتخطط حركة مضادة لإطاحة حكم الامام عزان ، على أن يتولى تركى قيادة هذه الحركة ويتكفل ماجد بالنفقات التى تتطلبها • لقـد كان من المقدر لخطة ماجد ان تنجح فى نهاية الأمر فمن الاسباب التى قادت

---

(٨٠) خطاب من عبد الله الفيصـل الى عزان بن قيس وقد ورد كمرفق رقم ٤٦٥ لخطاب مؤرخ ١٨٦٩/٨/٢١ من دسبراو الى جاون •

(٨١) التحفـة ، تأليف السالمى جزء ٣ ص ٢٥٧ — ٦٣ و « الحـدود الشرقية لجزيرة العرب » ص ٨٨ ، تأليف كيلى وترجمـة محمد امين عبد الله وكذلك « انطباعات عن السعودية » ص ٢٤٥ جزء ١ •

إلى سقوط امامة عزان بن قيس ، هى الأموال التى رصدتها حكومة زنجبار لصالح الحكم المعتدل [٨٢] .

سقوط الامامة المحافظة :

فى سنة ١٨٧٠ تفاقمت الحالة الداخلية فى الامامه إلى حد كبير . فخلال شتاء العام المذكور عاش العمانيون على أعصابهم فى ترقب غزو وهابى لبلادهم . وفى الصيف تمرد بعض قبائل البدو سكان حدود الربع الخالى ، والغافرية ، سكان رؤوس الجبال ، والظاهرة وعمان الوسطى ، مما اضطر الامام وصالح بن على الى القيام بحملات عسكرية لاخماد هذه الحركات التمردية . وفى شهر سبتمبر سنة ١٨٧٠ أضرب بعض سكان مسقط احتجاجاً على ضريبة الحرب التى فرضت عليهم . وفى نفس الوقت كان الامام يواجه خطرا آخر يتمثل فى تمرد قبائل الهناوية سكان قطاع جعلان بعد أن كانوا من أقوى انصاره ومؤيديه [٨٣] .

وقـــد كـــان فى إمكان الامام عزان ، بلا شك ، التغلب على كل هذه المشاكل لو لم يظهر خصم قوى جديد يتحدى نفوذه بتأييد من بعض الجهات الأجنبية ، ونعنى به تركى بن سعيد ، نجل الســـيد سعيد بن ســـلطان واحدى الشخصيات المعروفة فى عمان . وعلى أساس الوعود التى تلقاها من حكومة زنجبار بمساعدته مالياً ، وبسبب انشغال عزان بمشاكله مع السعوديين ، أخذ تركى يعد العدة لاسترجاع الحكم من يد المحافظين . وحتى أواخر سنة ١٨٦٩ كان الانجليز لا يزالون يعارضون حكم عزان ، وبالتالى رفعت السلطات البريطانية القيود على تنقلات تركى بن سعيد ، غير أن تركى لم يغادر الهند إلى ميناء بندر عباس قبل شهر مارس ١٨٧٠ ،

---

(٨٢) خطاب رقم ١٦٦ ــ ٤ مؤرخ ١٨٧٠/٥/٢٣ من بلى الى دوق أرجيل .
(٨٣) التحفة للسالمى جــزء ٢ ص ٢٦٧ وخطـــاب رقم ٢١/٣٩١ مؤرخ ١٨٧٠/٩/٢٤ من بلى الى دوق أرجيل .

عندما سافر كراكب عادى على إحدى البواخر البريطانية • وما أن علمت سلطات الامامة بتحركات تركى حتى ساد الذعر فى أوساطها إذ خشيت أن يكون البريطانيون وراء تلك التحركات • وبعد وصول تركى إلى بندر عباس واستقبال الحاج أحمد له ، توجه الى دبى على ساحل الهدنة تمهيدا لتنظيم الحركة وهناك نجح فى اقناع زعمائها بدعم الانجليز لحركته ، واحتمال مساعدة السعوديين له أيضاً • وبالرغم من أن غالبية شيوخ الساحل كانوا يعطفون على حركته ، إلا أنه فشل فى كسب تأييد زايد بن خليفة ، شيخ أبو ظبى، الذى كان يؤيد عزان ، أو حتى زعيم قبائل النعيم ، الشيخ محمد • كما أن تركى لم يكن فى الحقيقة يحظى بتأييد البريطانيين حتى أنهم حذروه من القيام بأى محاولة قد تعكر الأمن أو الهدنة الملاحية فى المنطقة أو مهاجمة مسقط • والا فانه سوف يصبح عدوا فى نظرهم • وفى أوائل شهر يونيو بعد أن اخفق تركى فى محاولاته لتاليب شيوخ الساحل إلى جانبه ، عدل عن الخطة وعاد الى بندر عباس (٨٤) •

عاد تركى فتحمس من جديد للفكرة عندما تلقى وعداً قاطعاً من زنجبار بتقديم مساعدات مالية كبيرة اليه : ولهذا رسم خطة واسعة تهدف إلى رشوة أكبر عدد من الزعماء والشيوخ العمانيين المقيمين فى المناطق الاستراتيجية وتحريضهم على التخلى عن تأييدهم للامام ومنح تأييدهم له • وقد تسلم تركى من ماجد ما قيمته ٢٠،٠٠٠ ريال نمسوى لانفاقها فوراً مع تعهد بدفع ثلاثين ألف ريال أخرى بمجرد استيلائه على أحد الموانىء العمانية وبالاضافة الى عشرة آلاف ريال أخرى من الأمير السعودى إذا أمكن اقناعه بذلك (٨٥) • وبالتالى لم يكن ثمة وجه للمقارنة بين

---

(٨٤) التحفة للسالمى جزء ١ ص ٤٨٦ وخطاب رقم ١٤٧ — ٢ مؤرخ ١٨٧٠/٥/٧ من بلى الى دوق ارجيل و « انطباعات عن السعودية » جزء ١ ص ٢٤٥ — ٤٦ •

(٨٥) خطاب رقم ٣٤٣ — ٢٦ مؤرخ ١٨٧٠/٨/٢٧ من بلى الى دوق ارجيل •

الامكانات السخية التى كان يتمتع بها تركى ، والامام عزان الفقير فى امكاناته المالية • ولهذا عندما نجح تركى فى النزول فى منطقة رؤوس الجبال ، انبرى شيوخ منطقة ساحل الصلح : دبى ، ورأس الخيمة وعجمان ، وشيوخ النعيم وبنى قتب الى الانضواء تحت لواء زعامته ، كما استطاع تركى تدريجياً إقناع بعض القبائل ، وعلى الأخص من كان ينتمى منها إلى الغافرية بتأييدة • وكانت هذه القبائل تضم الدروع ، والجنبة ، والعبوس ، وآل وهيبة [٨٦] • أما الامام عزان فقد أخذ يحشد قوات مضادة فى نزوى • وفيما عدا صالح بن عيسى ، وبعض الشيوخ الموالين له ، رفضت أغلبية القبائل التى كانت تؤيده اسمياً التقدم نحو الظاهرة لمواجهة قوات تركى بن سعيد • وقد حلت الطامة الكبرى بالمحافظين فى أوائل شهر أكتوبر عندما بدأ فيلق من قوات الامام قوامه ٤٠٠٠ مقاتل يدعمها مدفعان خارج بلدة ضنك الزحف فى اتجاه أحد الممرات الجبلية الضيقة حيث فاجأتهم قوات تركى بن سعيد واشتبكت معهم فى معركة ضارية سقط فيها ٤٠٠ قتيل من جانب الامام مما اضطره إلى التراجع بقواته الباقية إلى مسقط بينما اناط بصالح بن على مهمة الدفاع عن مقاطعة الشرقية بكل ما فى استطاعته [٨٧] • وقد انضمت أفواج جديدة إلى صف تركى بن سعيد كنتيجة لذلك الانتصار ونجح اجتياح كل من مقاطعتى الظاهرة ومنطقة عمان الوسطى • وقد ظل تركى يتقدم حتى وصل إلى جعلان حيث انضم اليه بنى بو على وبنى بوحسن ، ومنها زحف الجمع كله نحو مدينة صور الساحلية [٨٨] •

حتى شهر نوفمبر كان تركى قد أنفق على عملياته العسكرية حوالى

---

(٨٦) التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ٢٦٩/٢٦٧ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٤٨٦ .

(٨٧) التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ٢٦٩/٢٦٧ وخطاب رقم ٤٥/٥٢٠ مؤرخ ١٨٧٠/١١/٥ من بلى الى دوق ارجيل ايضا « جزيرة العرب وحدودها الشرقية » ، تأليف كيلى وترجمة محمد امين عبد الله ص ٨٨ — ٨٩

(٨٨) التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ٢٧٠/٢٢٩ .

٨٠٠٠ ريال غير أن ماجد بن سعيد ، سلطان زنجبار توفى فى شهر نوفمبر ، وبالتالى فإن رصيد تركى من المال الذى كان العامل الرئيسى فى نجاحه ، على ما يبدو قد نفذ • وفى الوقت نفسه كان الامام عزان يعيد تنظيم قواته • كما وجه الانجليز من ناحيتهم انذارا آخر إلى تركى بن سعيد بوجوب مراعاة السلام الملاحى فى المنطقة • وهكذا ما أن حل شهر أكتوبر حتى كان تركى ، على ما يبدو ، قد انهكت قواه ، مما جعل المقيم بلى يتوقع من تركى العجز عن مهاجمة مسقط (٨٩) •

غير ان المقيم بلى لم يكن مصيباً فى افتراضه • وبما ان تركى ادرك بأن عليه أن يضرب فورا أو يخسر الحرب ، فقد قام بتوزيع قواته توزيعاً استراتيجياً • وقــاد بنفسه القوات الرئيسية للجيش من صور رجوعاً إلى صمد داخل الشرقية ، حيث كان يرابط الشيخ صالح بن عيسى داخل استحكاماته • وفى الوقت نفسه أرسل قوات من بنى بوحسن وبنى بو على ، وهم من أعداء الثائر عادة ، عبر المنطقة الساحلية للانقضاض فجأة على مسقط • وكان على رأس هذه القوات سيف بن سليمان البوسعيدى محافظ مدينة مطرح سابقاً على عهد الحكم المعتدل ، وساعد تركى الأيمن • وفى أواخر يناير ســنة ١٨٧١ دخل فيلق سليمان مدينة مطرح ليلا • وقــد اشترك الامام عزان شخصياً فى المعركة التى دارت رحاها على اسوار مطرح وقتل فيهــا الامام ، وسيف بن سليمان ، غير أن النصر كــان حليف تركى بن سعيد الذى استسلمت له كل من مدينتى مسقط ومطرح بعد مقتل الامام • وما أن علم تركى بسقوط مسقط ، وكانت قواته تقاتل صالح بن على فى ذلك الوقت ، حتى أسرع الى العاصمة فى حراسة ٥٠٠ رجل من راكبى الجمال ليقبض ثمن النصر (٩٠) •

---

(٨٩) رســالة رقم ٥٢/٦٠٥ مؤرخــه ١٨٧٠/١٢/٣ من بلى الى دوق ارجيل ورسالة اخرى رقم ٦٥/٦٦٥ مؤرخه ١٨٧٠/١٢/٣٠ منه أيضا •

(٩٠) التحفة ، تاليف السالمى جزء ٢ ص ٧١/٢٧٠ وخطاب رقم ١٧/١٤٥ مؤرخ ١٨٧١/٢/١٣ من بلي الي دوق ارجيل •

أما سعيد بن خلفان الخليلى الذى بقى فى مسقط فقد بذل كل ما فى وسعه للمحافظة على نظام حكم الامامة المنهار • وقد تحصن فى إحدى القلعتين بمسقط ، بعد ان سلم شؤون الامامة إلى إبراهيم بن قيس أخ الامام • كما طلب إلى الانجليز ان يتعهدوا بضمان حكم ابراهيم مقابل حصولهم على ربع الدخل السنوى للبلاد • غير أن المقيم بلى لم يتعهد بشىء فى رده على طلب الخليلى واكتفى بمراقبة الأحداث • أما ابراهيم بن قيس فقد أدرك أن الوضع ميؤوس منه وبالتالى فر إلى صحار • وأخيراً فى أوائل شهر فبراير تدخل المقيم بلى للتخفيف من الأضرار والخسائر التى قد تتعرض لها الحياة التجارية والممتلكات فى البلاد • كما اقنع الخليلى بتسليم نفسه للسلطات بعد ان تعهد له تركى بالشروط التالية :

(١) ان لا يعتبر الخليلى مسؤولا عن أعمال حكومة الامام عزان ، بما فى ذلك سياسة مصادرة الممتلكات ، (٢) أن يسمح للخليلى بالاقامة فى أى منطقة يختارها من عمان على شرط محافظة تركى على حياته حتى وصوله إلى مكان اقامته الجديد ، (٣) ان تبقى جميع الممتلكات فى أيدى أصحابها الحاليين ، (٤) ان تعتبر كافة الطلبات والدعاوى ساقطة ، (٥) ان يتكفل تركى بن سعيد بالانفاق على جيش الامام عزان ، (٦) على ان يسرى هذا الاتفاق على جميع أفراد حكومة المحافظين واتباعهم ، (٧) أن يضمن المقيم بلى تنفيذ بنود هذا الاتفاق [٩١] •

وعلى الرغم من كل هذه الضمانات فان الاتفاقية لم تنفذ • وفى شهر مارس سنة ١٨٧١ توفى سعيد بن خلفان الخليلى وبعد ٤٨ ساعة من

---

(٩١) نفس المصدر خطاب رقم ١٩/١٥٦ مؤرخ ١٨٧١/٢/١٩ من بلى الى دوق ارجيل •

وفاته لحقه ولده وسط ظروف تشير الى وجود مؤامرة • وبالتالى أعيدت الممتلكات المصادرة الى أصحابها الأصليين (٩٢) •

ان حكم الامامة المحافظ لم يدم أكثر من عامين وربع العام • فلقـد فشلت الامامة ، كما فشلت قبلها السلطنة التى قامت فيما بين سنة ١٨٥٦ وسنة ١٨٦٨ ، لتضع عمان على عتبة عهد جديد • ولعل من الأسباب التى عجلت بانهيار حكم الامامة هى اعتقاد أصحابها بأنهم يستطيعون أن يحكموا مجتمعا فى القرن التاسع عشر بمفاهيم الحكم الاسلامى للقرن السابع للميلاد • واذا كان مثل هذا الحكم ممكنا فى المنـاطق الداخلية النائية من البلاد ، فانه لم يكن ممكنا فى الشطر السـاحلى من عمان • كما ان رغبة زعماء الامامة فى فرض سلطانهم على عمان بأسرها داخلها وساحلها ، هى التى أودت بهم الى المصير الذى انتهت اليه سياسـة الحكام المحافظين • أما الأسباب المباشرة لفشل امامة عزان فتعزى الى سوء الادارة المالية واقتصاد المنطقة الساحلية ، بالاضافة الى السياسة الخارجية ، كما والى الخلافات السياسية الخطيرة التى كانت تمزق صفوف العصبة الدينية الحاكمة ، واخفاقها فى كسب العناصر الغافرية الهامة الى صفوفها كشركاء فى ادارة دفة الحكم ، واخيرا الى تخلى القبائل الهناوية تدريجيا عن تأييدها ، وذلك من خلال محاولة رجال الحكم فرض حكم صارم على عمان • وكما كان الحال بالنسبة الى سلطنة سـالم عند سقوطها ، كذلك كانت الامامة فى لحظاتها الأخيرة بغير انصـار أو مؤيدين ، فقـد تخلى عنها أكثر المؤيدين والموالين لها من الناحية النظرية •

---

(٩٢) التحفة ، تاليف السالمى و كتاب لوريمر مجـلد ١ ص ٤٩٢ وخطاب رقم ١٧٠ بتاريخ ١٨٧١/٥/٢٧ من وى الى بلى وخطاب رقم ٨١/٩٧٣ مؤرخ ١٨٧٥/٩/١ من روس الى سالسبورى •

الفصل الثامن

اعادة بنــاء الحكم المعتــدل

١٨٧١ — ١٩٠٣

لم ينته الاضطراب وعوامل القلق التى اقترنت بتاريخ عمان بعد سنة ١٨٥٦ باستعادة تركى للسلطة وعودة السلطنة اليها فى شهر فبراير سنة ١٨٧١ . ولم تظهر على النظام المعتدل بوادر الاستقرار الحقيقى قبل سنة ١٨٧٦ . وحتى بعد هذه الفترة تعرض حكم تركى لتحديــات خطيرة . ورغم هذا فان حكم تركى يعتبر من المنعطفات الهامة فى تاريخ عمان من حيث أنه شهد اعادة بناء الحكم المعتدل على أسس جديدة . وعلى الرغم من طول الفترة التى استغرقتها عملية البناء فان السلطنة اعتمدت فيها على الأسس التى كان معمولا بها أيام السيد سعيد ، فلقد أخــذ الحكم يعتمد على حكومة الهند البريطانية فى عملية تجديده . وكان ثمن الاعتماد على دولة أجنبية ، خضوع عمان للسيطرة البريطانية ، وهى سيطرة لم تكن تعتمد على الأسس القانونية بقدر ما كانت تعتمد على أساس الامر الواقع . وعلى أى حال فقد تعرض هذا الاتفاق لتحد عنيف عند تولى السلطان فيصل للحكم فى سنة ١٨٨٨ حيث كان الاخير يفضل اعتماد البلاد على نفسها ، كما كان يؤمن بقدرته الذاتية على السير فى طريق مستقل ومتحرر من الوصاية البريطانية ، ولم يدرك السلطان تركى حقائق الوجود السياسى البريطانى فى عمان الا فى السنوات الأولى من هذا القرن . ففى سنة ١٩٠٣ اقتنع فيصل بصواب السياسة التى كان يسير عليها والده تركى . وبالتالى فإن جانبا كبيرا من الاطار الأساسى للحكم وتكتيكاته فى

عهد تركى قد انتقلت الى حكومة السلطان فيصل ولا تزال سارية المفعول حتى يومنا هذا • أما الآن ، كنتيجة لانهيار النفوذ البريطانى فى المحيط الهندى ، وانبثاق روح الاستقلال الجديدة بين العرب بمن فيهم سكان الخليج ، وازاء احتمال تدفق الأموال على خزينة مسقط من عائدات النفط ، فان عمان سوف تشهد من غير شك تغييرات هامة فى جهازها خلال السنوات القليلة القــادمة •

حكم تركى بن ســعيد ١٨٧١ — ٨٨

كان تركى فى عامه الثلاثين عندما تولى الحكم فى عمان • وكان ذا بشرة سمراء وقامة فارعة بحكم كونه مزيجا من أم حبشية ووالد عظيم كالسيد سعيد بن سلطان • وكان رقيق الحاشية ، لبقا ومتحررا ودبلوماسيا فى تعامله ، كما كان شديد التمسك بالدين • وكــان لهذه الصفات دور كبير فى الشعبية الكاسحة التى كان يتمتع بها حتى آخر يوم من حياته • وقــد تولى تركى منصب محافظ صحار فى أيام حكم والده السيد سعيد وظل فى هذا المنصب الى ان عزله واعتقله ثوينى سنة ١٨٦١ • لقــد اشرنا سابقا الى اتفاق تركى مع أخيه ثوينى ، ومحاولته التى كادت أن تنجح لإطاحة أخيه السلطان ســالم فى سنة ١٨٦٧ ، وقبوله النفى الاختيارى الى الهند سنة ١٨٦٧ ، ثم اخيرا الى انتصاره النهائى فى الحرب ضــد الامام عزان بن قيس • وخلال كل هذه المغامرات كانت شعبية تركى بن سعيد وواقعيته السياسية (وعلى الأخص تقديره للدولة البريطانية) ونشاطاته امورا واضحة كل الوضوح • ولقــد واجه تركى بعد استيلائه على السلطة مشكلة تدعيم النظام • وفى سنة ١٨٧٣ عندما كان تركى من النجاح فى مهمته هذه على قاب قوسين أو أدنى ، أصيب بنوبة قلبية حادة كادت أن تقضى على حياته • ويعتبر مرض تركى خطا فاصلا فى حياته ، اذ بعد اصابته بهذا المرض فقد تلك القوة وذلك النشاط الذى طبع المرحلة الأولى من حياته ، وأصبح أقل حسما وأكثر ترددا وسلبية فى تصرفاته

ومواقفه . وبعد سنة ١٨٧٣ استنزف المرض كل حيوية تركى وقواه . وكان المرض الذى يشكو منه هو الشلوريا ، وهو نوع من الشلل جعل تركى يسير على عكازين ، كما أثر على روحه المعنوية . وقد فكر تركى أكثر من مرة بالتنازل عن الحكم عندما كانت وطأة المرض تشتد عليه . وفى المرحلة الأخيرة من المرض فقد تركى قواه العقلية . . وكان يؤمن بالسحر ، وهى احدى الخرافات المنتشرة فى عمان . واعتقاده بالسحر كان يجعله يفقد شعوره ويغيب عن الوعى .

وعلى أى حال ورغم ما كان يشكو منه ، فان أهم مرحلة فى حياة تركى هى المرحلة التى جاءت بعد سنة ١٨٧٣ ، وهى التى بدأ التعاون فيها بين السلطان تركى والسر إدوارد روس المقيم البريطانى فى الخليج ، والكولونيل مايلز ، المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط وذلك طوال الفترة التى شهدت بناء القواعد اللازمة للحكم المعتدل فى عمان .

ولعل تركى شعر بأن ضعف عمان هو انعكاس لضعفه الشخصى . ومهما يكن فلقد أدرك تركى بعد سنة ١٨٧٣ أن بقاءه فى الحكم والمحافظة على وحدة البلاد مرتهن باعتماده على الحكومة البريطانية . ومن هنا التقت مصالح تركى بالمصالح البريطانية ، غير أن هذا اللقاء وعلى الأخص خضوعه لارادة الانجليز فى قضية منع تجارة الرقيق قد كلفه الكثير وهبطت شعبيته بين رعاياه إلى حد كبير . غير أن التفاهم بينه وبين البريطانيين كان يعنى الكثير بالنسبة إليه وعلى الأخص فى المواقف الحرجة التى كان يتعرض فيها حكمه للخطر ، حيث كانت تخف بريطانيا إلى الوقوف إلى جانبه ومساندته . ومن المؤكد على ما يبدو ، أن تركى لم يكن راضياً فى قرارة نفسه عن هذه السياسة ، ولكن بما أن تركى لم يكن يستطيع الاعتماد على قوته الذاتية ، ولحاجته إلى الخبراء والمستشارين المخلصين من بين الطبقة العمانية الراقية ، لما لمسه تركى بنفسه من امكانيات الدولة البريطانية أثناء وجوده بالهند ، فقد اضطر إلى الاعتماد على بريطانيا اعتماداً كلياً خصوصاً فى المراحل الأولى من حكمه . وكان البريطانيون من ناحيتهم

يبادلونه هذا الشعور ، حيث كانوا يتسترون به رغم انه كان فى نظرهم حاكماً ضـــعيفاً .

ولا يبدو ، أن الجهــاز الإدارى الذى أسسه تركى فى عمان كان حصيلة خطة سليمة مدروسة ، فهو لم يكن حاكماً مثقفاً . وبعد سنة ١٨٧٣ كان يفضـــل تمضية الوقت فى الابتعاد عن العمل والخلود إلى الراحة . وبالتالى كان الجهــاز الإدارى الذى استغرق انشاؤه فترة طويله من الزمن خليطا من الفلسفة العمليه التى تجمع بين الاجراءات السياسية التقليدية ، ومحاولة التوفيق بين أتجاهات مختلفة ، فضـــلا عن الاعتماد على المساعدة البريطانية . كانت سياسة تركى تقوم على تفادى المشـــاكل قبل وقوعها ، وخلق الأجواء التى تجنب الدولة إعداد الحملات التأديبية ، وأخيراً الاحتفاظ بالدور المتزايد للســـلطان فى شؤون البلاد ، وعلى أى حـــال ، فقد كانت الطريقة التى تعمل بهـــا أجهزة الحكم بعد ســـنة ١٨٧٣ انعكاساً للموقف الســـلبى الذى أرغم عليه السلطان بعد مرضـــه ، وهو موقف يتناقض مع ما كان يتمتع به من حيوية ونشـــاط فى أول عهده بالحكم [١] .

البداية المضطربة لحكم تركى بن سعيد ، ١٨٧١ — ١٨٧٦ .

إن مـــا بدا من مظاهر القوة على حكومة تركى فى أول عهدها بالسلطة فى شهر فبراير ، كانت فى معظمها مظاهر خادعة . وإذا كان تركى قد تقلد زمام الســـلطة بالفعل ، وسيطر على كل من مسقط ومطرح ، وســـيطر أنصاره من القبائل على كثير من المعاقل الداخلية كما وقع ميناء صـــور فى قبضة الســـلطان ، فان تأييد هؤلاء الأنصـــار لم يكن تأييداً خالصاً وإنمـــا نظير المكافآت والعطاءات السخية التى أغدق بهـــا عليهم ، فضلا عن رغبتهم بالتخلص من حكومة عزان التى كانت تتدخل بكثرة فى شؤونهم .

---

(١) المعلومات عن حياة وسلوك تركى بن سعيد كثيرة ومتفرقة . انظـــر على الأخص كتاب لوريمر مجـــلد ١ ص ٥١٧ — ٥٢٢ .

أما بعد سنة ١٨٧٣ فقد بدأ التكتل الذى وصل بتركى إلى مقاليد السلطة فى التفكك ، بعد أن توقفت الأموال ، واختفى العدو المشـــترك للتكتل من الوجود . وبمـــا أن المصدر الذى كان يمول حركة تركى ابن سعيد لخلع الإمام والاستيلاء على الحكم لم يعد له وجود ، وبمـــا أن تركى لم يكن فى أوائل عهده ملماً بالشؤون الماليه . فقد تعذر عليه الاحتفاظ بالنجاح الذى حققه فى بداية حكمه .

لقد أخذ تركى يواجه خصـــوماً وأعداء كثيرين . فعلى الرغم من انهيار قوة المحافظين وضعفهم وتمزق شملهم ، فانهم لم يتحطموا نهائياً . وكان الســلطان تركى فى نظرهم شخصاً متمرداً اغتصب الحكم من حكومة شرعية . كمـا كان إبراهيم بن قيس ، شقيق الإمام الراحل ، لا يزال يسيطر على صـــحار والجزء الأكبر من مقاطعة الباطنة التى تعتبر منــذ أواخر القرن الثامن عشر مصـــدر القوة لعائلة هذا الزعيم . كمـــا كان هناك فيصل بن حمود الذى كان من مؤيدى الإمام عزان وكان يرابط فى قلعة الرستاق المطلة على ســاحل الباطنة ، بينمــا كان صالح بن على لا يزال يسيطر على مقاطعة الشرقية . فضـــلا عن عدد كبير من قبـــائل الهناوية التى لم ترضخ لتركى . هــذا بالإضافة إلى المؤامرات التى أخذ يحوكها أقرب أقرباء الســلطان لاغتصاب الحكم بدلا من الالتفاف حول البطل الجديد للاباضيين المعتدلين . وكان على رأس هؤلاء سالم بن ثوينى نجل الســـلطان السابق الذى كان يحوك المؤامرات من منفاه فى جزيرة كشم للعودة إلى السلطة . كما كان بين الطامعين فى الحكم عبد العزيز بن سعيد . الشقيق الأصغر للسلطان تركى . غير انه من حسن حظ تركى أن بعض قبائل الغافرية احتفظت بتأييدها للسلطان الجديد [1] .

ومن الواضح أن الخطر المباشر على حكم تركى بن سعيد كان يتركز

---

(١) التحفة للسالمى ج ٢ ص ٢٧٧ ولوريمر ج ٢ ص ٤٩١ — ٩٣ .

فى تكتل قوى المحافظين فى مقاطعـة الباطنة بزعامة إبراهيم بن قيس . ولا شك بأن أول عمل كان على تركى أن يقوم به بعد استيلائه على مسقط ، هو حشد مـا بقى لديه من إمكانات لتطهير مقاطعة الباطنة من المعارضين لحكمه والاستيلاء على صـحار . وفى يونيو سنة ١٨٧١ تحركت حملة تركى ولكنهـا منيت بالفشل بسبب نضوب الخزينة من المـال . وكان [٣] . هـذا الفشل بداية لثلاث سنوات عصيبة ، لم يقدر لجهود تركى النجاح طرق بابه فى سنة ١٨٧٤ عندما سـير حملة مسلحة بمسـاعدة الانجليز لإخضـاع المتمردين .

بعد فشـل محاولة يونيو سنة ١٨٧١ رأى تركى أن يتجنب الأجراءات السـافرة لتصفية نفوذ إبراهيم بن قيس فقد فضـل أن يعمل عن طريق الوسائل الدبلوماسية وعن طريق المؤمرات للقضـاء على خصمه الذى كان يستند على تجمع قوى القبـائل التى تؤيده . فقد وافق تركى على مشروع بتقسيم السـلطة فى عمان فيحتفظ إبراهيم بن قيس بالسيطرة على صحار وبقية ساحل الباطنة حتى بلدة الخابورة . والواقع أن هذا التقسيم من حيث المساحة أكثر من اعتراف بالأمر الواقع . وعلى أى حال فلقد تصور تركى أن اتفاقه هـذا مع إبراهيم سـوف يمزق التكتل الحلفى بقيـادة إبراهيم ويثير ضـده العناصر المتطرفة من الأباضيين الذين يعتبرون أى التقاء مع سلاطين عمـان المعتدلين ضرباً من الضلالة [٤] . وفى شهر يونيو سنة ١٨٧١ بعث تركى برسـالة إلى المقيم البريطانى فى الخليج تطرق فيها إلى تحالف إبراهيم بن قيس مع شيخ أبو ظبى زايد بن خليفة ، وكان أقوى شيوخ سـاحل عمان فى ذلك الوقت . ولقد نجح هذا الخطاب فى تحريك

---

(٣) نفس المصـدر ص ٢٧٧ — ٢٧٨ ورسـالة رقـم ٨٧٣ بتـاريخ ١٩٨١/٧/١٧ من بلى الى دوق ارجيل .

(٤) خطاب مؤرخ ١٨٧١/٨/٦ من تركى بن سعيد الى وى ، وقـد ورد كمرفق للخطاب رقم ٨٧/٩٨٧ — ١٨٧١/٨/٩ من بلى الى دوق أرجيل .

المقيم للضغط على زايد لكى يقطع كل علاقة له بابراهيم بن قيس • وبعد عام من هــذا التاريخ توطدت العلاقة بين زايد وتركى بن سعيد بحيث عقدا حلفا فيمـا بينهما • ولما كان زايد يتحكم فى المشارف الداخلية والشمالية للباطنه ، فقد كان لابد لكل من يزمع السـيطرة عـلى المقاطعه المذكرة بأقل ما يمكن من المتاعب ، أن يكون على علاقه طيبة بالزعيم المذكور • ومن الأهمية بمكان أن العلاقات بين مسقط وأبو ظبى ظلت على احسن ما تكون منذ سـنة ١٨٧٢ [٥] •

ولقد نجحت استراتيجية السـلطان تركى بن سعيد فى تجريد خصمه إبراهيم من المؤيدين والحلفـاء لدرجة أنه انس فى نفسـه القدرة على استئناف الحملة ضد إبراهيم فى أكتوبر سـنة ١٨٧١ • وقد ظلت المعركة فى البداية تتطور لمصـلحة الحكومة بعد أن أخذت سـيطرة إبراهيم على صـحار تتقلص بتقلص شعبيته فيهـا • كما نفدت موارده المالية فى نهاية العام فاضطر إلى الحصـول على الأموال من التجار الهنود المقيمين فى صحار • وفى شهر ديسمبر سنة ١٨٧١ كتب الشـيخ إبراهيم بن قيس إلى صالح بن على يطلب منه المساعدة [٦] • ولقد تمخضت هـذه الخطوة عن بعض النجاح ، فهـاجم صالح قوات السـلطان لعرقلة تقدم قوات تركى نحو الباطنة خلال معظم سـنة ١٨٧٢ • وقد فسر السـلطان حركة صالح ابن على بأنها محاولة للتخلص منه وإعادة تنصيب سالم بن ثوينى حاكما على البلاد ، اعتقاداً منه أن سالم لو عاد إلى الحكم فانه سـوف

---

(٥) خطاب مؤرخ ١٨٧١/٦/١٧ من تركى بن سـعيد الى بلى — وقد ورد كمرفق للخطاب رقـم ٨٧/٧٠٣ مؤرخ ١٨٧١/٧/٣ من بلى الى دوق ارجيـل وخطاب مؤرخ ١٨٧٢/٩/٢٠ من تركى بن سـعيد الى بلى . انظر ايضا « الحدود الشرقية للجزيرة العربية » فصـل ٣ للاطلاع على مراسيم تولى زايد بن خليفة سـلطة الحـكم فى ساحل عمان خلال الفترة الأخيرة من القرن ١٩ .

(٦) خطاب مؤرخ ١٨٧١/١٢/٥ من ابراهيم بن قيس الى صـالح بن على . وقـد ورد كمرفق الخطـاب رقـم ٢/٥٨ مؤرخ ١٨٧٢/١/١٣ مـن بلى الى دوق أرجيـل .

يعتمد عليه وعلى غيره من الزعمـاء المحافظين ، بحيث يكون مجرد العوبة فى أيديهم • وعلى أى حال فقد كان صالح شأنه شأن غيره من زعماء المحافظين يفتقر إلى المال لتنفيذ خطته ، ولهذا فشل الهجوم الذى شنه على قوات تركى بن سعيد وكان لقبائل الغافرية دور كبير فى إحباط هـذا الهجوم • وكان من نتيجة ذلك أن اضطر سالم إلى مغادرة عمان فى شهر ديسمبر سنة ١٨٧٢ وهو يجر أذيال الخيبه والفشل ، ولم يعد إليها مرة أخرى • وهكذا صفا الجو لتركى بن سعيد الذى استطاع أن يعبىء كل قواه للقضاء على خصمه إبراهيم بن قيس فى صحار [٧] •

وحتى شهر ابريل سنة ١٨٧٣ لم يكن تركى قد تمكن من توجيه ضربة ساحقة الى إبراهيم • غير أنه حدث تغيير جذرى فى الأوضاع فى أعقاب هذه الفترة [٨] • فالمتاعب التى كان يعانى منهاالسلطان تركى تعود فى أغلبها الى أسباب مالية لانقطاع التعويضات التى كان يتلقاها عن اقليم زنجبار بسبب الخلاف على الجهة المسؤولة عن دفع تلك التعويضات • وفى سنة ١٨٧٤ حلت المشكلة بعد أن قرر السر بارتل فرير مكافأة السلطان مالياً نظير توقيعه على معاهدة تحريم تجارة الرقيق • وقد فوض المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط بأن يدفع لتركى مبلغ ٤٠ر٠٠٠ ريال على الفور ، و ٢٠ر٠٠٠ ريال بعد ثلاثة أشهر من الدفعة الأولى على أن تقيد هذه المصروفات على حساب الحكومة الهندية [٩] هكذا أعاد تدفق الأموال إلى خزينة السلطان الخاوية الحياة إلى نظامه المتصدع المفلس • وبعد

---

(٧) النحفه ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ٢٧٩ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٤٩٣ — و ص ٥٠٣ وكذلك خطاب رقم ٣٦/٥٦٦ مؤرخ ١٨٧٢/٣/٢٥ من بلى الى دوق ارجيل . توفى سالم بن ثوينى فى سنة ١٨٧٦ وذلك فى منفاه فى الهند .

(٨) خطاب رقم ٢٢/٥٤/ مؤرخ ١٨٧٣/٢/٨ من مايلز الى روس .

(٩) خطاب مؤرخ ١٨٧٣/٤/١٥ من فرير الى مايلز وقد ورد كمرفق لخطاب رقم ٤٩/٥٧١ مؤرخ ١٨٧٣/٥/٣ من روس الى دوق أرجيل .

وقت قصير اتخذت بعض وحدات الجيش مواقعها على جميع الطرق المؤدية إلى مدينة صحار حيث التقت هناك ببعض وحدات المشاه التى ساهمت بها قبائل النعيم — وشيخا دبى وأم القيوين ،وبعض الجنود المحليين . وفى يونيو سنة ١٨٧٣ زحف بدر ابن سيف ، قائد قوات السلطان بجيشه على صحار . وبعد حصار قصير للمدينة وقصف بالمدفعية قرر إبراهيم بن قيس الاستسلام مقابل دفع تعويض اليه بمقدار ٥٠٠٠ ريال ومرتب شهرى فى حدود المائة ريال . وقد عين بدر محافظاً على صحار مكافأة له على النصر الذى حققه على قوات إبراهيم . كما وزعت بعض المناصب على غيره من أمراء البوسعيد فى مقاطعة الباطنة . وقد بلغت تكاليف إخضاع المقاطعة ، بما فيها المكافآت المدفوعة لحلفاء السلطان من القبائل وشيوخ الساحل ثلاثة آلاف ريال نمسوى [١٠]

وفى شهر أغسطس سنة ١٨٧٣ كان يبدو وكأن متاعب تركى قد انتهت جميعها . فقد أحبطت المحاولات التى قام بها كل من صالح بن على والسلطان السابق سالم بن ثوينى . كما احتلت الباطنة . وأصبح إبراهيم بن قيس أشبه بالمسجون . كما أن تجديد الحلف مع المجموعات القبلية وعلى الأخص الغافرية قد أعاد الهدوء إلى المقاطعات الداخلية بينما خففت التعويضات التى تدفع عن زنجبار من المشاكل المالية . ولقد حدث فى هذا الوقت أن داهم المرض تركى بن سعيد ، ومنذ ذلك الوقت كاد يشرف على الموت مرات كثيرة ، كما فقد نشاطه الجسمانى بعد أن أصيبت ذراعه بالشلل [١١] .

غير أن خصوم تركى السياسيين لم يتركوا الفرصة تمر دون أن يستغلوها . أما إبراهيم بن قيس فقد أصبح من غير قواعد ينطلق منها .

---

(١٠) التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ٢٧٨ — ٧٩ رقم ٨٣/٨٨٩ مؤرخ ١٨٧٣/٧/٢٨ من روس الى دوق ارجيل .

(١١) نفس المصدر وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٢٩٥ .

وبما أن أوضاعه المالية قد تحسنت بفضل المبالغ التى قبضتها نظير تسليمه مدينة صحار لقوات تركى ، فقد توجه إلى عمه فيصل بن حمود ، حاكم الرستاق ، واتفق معه على تسليمه قلعتى الرستاق والحزم مقابل ٢٢٠٠ ريال وعدد من مزارع النخيل ، وقد تمخض هذا الاتفاق بين الرجلين عن اعتزال فيصل بن حمود الحياة العامة . أما إبراهيم بن قيس فقد أخذ يلوح من جديد بعد خريف سنة ١٨٧٣ باتخاذ الرستاق قاعدة جديدة للانطلاق منها فى تنفيذ مخططاته ضد حكم السلطان تركى [١٢] . وقد تفاقم الوضع أكثر فى شهر يناير سنة ١٨٧٤ عندما سرت إشاعة عن وفاة السلطان تركى . فلقد استغل صالح بن على حالة الفوضى التى سادت البلاد يومئذ للقيام بمحاولة جديدة لتنصيب حمود بن عزان ، ابن الإمام الراحل عزان ابن قيس حاكماً جديداً للمحافظين . وكجزء من هذه الخطة أوعز إلى إبراهيم بأن يقوم بغارات جانبية على مقاطعة الباطنة بينما تحرك صالح على رأس قوة من الهناوية تقدر بثلاثمائة مقاتل بقيادة حمود بن عزان نحو مطرح ومسقط . ولقد نجحت هذه القوة فى القضاء على حامية من المرتزقة الوهابيين بقيادة بدر بن سيف ، بعد أن تمكنت من تفادى الاشتباك مع قبائل الغافرية المرابطة عبر طريق وادى سمايل . ثم استولت على مدينة مطرح ونهبت منطقة الميناء . ولم يكن فى مقدور السلطان تركى مواجهة الغزو بسبب مرضه ، واضطر إلى دفع ٦٠٠٠ ريال ومائة كيس من الأرز كرشوة لصالح بن على مقابل انسحابه من المدينة . وبذلك استطاع تركى إنقاذ عاصمته وعرشه من السقوط . كما تعهد السلطان للمحافظين باعادة أملاك المرحوم سعيد بن خلفان رئيس وزراء الإمامة السابق إلى ورثته والإبقاء على الممتلكات المصادرة فى عهد الإمام السابق عزان فى أيدى أصحابها من الهناوية وعلى الأخص قبيلة الحرث التى ينتمى اليها الشيخ صالح بن على نفسه . كما اشترط صالح على السلطان تركى بأن يعلن عفوه عن جميع المخالفات التى قد يكون صالح ارتكبها ضد

---

(١٢) رسالة رقم ١٣٠٩ — ١٣٥ مؤرخه فى ٤ أكتوبر سنة ١٨٧٣ .

الحكم . وهذه إهانة أخرى تضاف إلى سلسلة الإهانات التى وجهت الى السلطان تركى . وهكذا لم يدفع تركى ثمناً من ماله وحسب بل ومن كرامته أيضاً،مما اضطره إلى طلب مقدم من الحكومة البريطانية من حساب التعويض المالى الذى يدفع عن زنجبار ، وذلك لتدعيم وضعه المالى ، غير أن الثأر لكرامته كان مهمة أشق من ذلك [١٣] .

فى هـذه الأثناء كان إبراهيم قد نفذ مـا تعهد به لصالح بتحريك قواته فى اتجـاه الباطنة . وبعد تأليب آل سعد سكان المقاطعة الساحلية الموالين للمحافظين ضد تركى زحف على الباطنة واسـتولى على ميناءى السويق والمصنعة . وعلى الرغم من أن موقف السلطان تركى كان يبدو ميؤوساً منه ، إلا أن زحف قوات إبراهيم على الباطنة كان نقطة تحول حاسمة فى محاولات النظام المعتدل دعم سيطرته على البلاد . وقد حدث هـذا التحول على أثر مقتل أحد التجـار الهنود من رعايا الحكومة البريطانية فى سـوق المصنعة على يد جنود إبراهيم ابن قيس خلال احتلالهم للبلدة . وقد جرت العـادة على أن تتدخل الحكومة البريطانية إذا تعرضت أرواح او ممتلكات رعاياها للاعتداء . وقد حافظ روس على هـذه العادة . وعلى أثر ذلك ظهرت السـفن الحربية البريطانية على ساحل الباطنة وقامت بقصف بلدة المصنعه يوم ٢٣ مارس ١٨٧٤ بعد أن صدرت اليها الأوامر من الكولونيل مايلز المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط . كما وجـه المعتمد إنذاراً إلى ابراهيم بوقف الأعمال العدوانية ضد السلطان تركى وتغريم حلفائه بنى سعد مبلغ ١٥ ألف ريال نمسوى تعويضاً عن الخسائر التى سببها الهجوم . وهو مبلغ يعد كبيراً بمقاييس تلك الفترة . وقد قدم إبراهيم احتجاجا على هذا التدخل البريطانى ، ولأنه شخص عملى فقد

---

(١٣) التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ٢٨٠ وكتاب لوريمر مجـلد ١ ص ٤٩٥ — ٩٦ .

رأى أن يرضخ ، ولو بصـــورة شكلية للسلطان مقابل إعادة المخصصات الشهرية له سابقاً وقدرها مائة ريال ، وقد عاد إلى الرستاق [١٤]

أما آل سعد فانهم لم يسلموا بسهولة ، مما اضطر إدوارد روس الذى كان قد تلقى بالفعل أوامر بأتخاذ إجراء تأديبى ضد منافسى تركى • وكانت مناطق آل سعد أراضى مكشوفة لأى هجوم بحرى • فهى عبارة عن سلسلة من القرى ومزارع النخيل تمتد مسافة أربعة أميال على ساحل الباطنة • وهكذا ففى شهر يوليو سنة ١٨٧٤ وصلت إلى منطقة آل سعد سفينتان حربيتان بريطانيتان وكانت قد صدرت اليهما الأوامر بتقديم المساعدة اللازمة للسلطان إلى أقصى نقطة يمكن أن تصل اليها قذائف مدفعية السفينتين [١٥] • وفى نفس الوقت كانت قوات تركى التى أعيد تنظيمها تتحرك إلى شمال هذه المنطقة الكثيفة السكان • وإزاء هذا التفوق الساحق ، استسلمت القبيلة لشروط السلطان وما أن حل شهر يناير سنة ١٨٧٥ حتى كانت قد دفعت جميع ما كان عليها من ضرائب لحكومة مسقط فيما عدا أربعمائة ريال [١٦] • ومن يومها لم تعد الباطنة مصدراً لأى تحد عسكرى من جانب العناصر العمانية المحافظة ، بل تحسنت علاقتها بالسلطنة تحسنا كبيرا • ومن المؤكد أن التدخل البريطانى المسلح فى سنة ١٨٧٤ لصالح السلطان كان العامل الحاسم فى ذلك التحول الذى طرأ على موقفهم لمصلحة السلطان • بل ربما كان التدخل العامل الحاســم فى إنقاذ حكم السلطان نفسه من الانهيـــار [١٧] • كما كان درساً قاسياً

---

(١٤) التحفــة ، تأليف : الســالمى جـزء ٢ ص ٢٨٠ وخطــاب مؤرخ ١٨٧٤/٣/٢٥ من ابراهيم بن قيس الى روس •

(١٥) برقية رقم ٢٠٨/ب مؤرخة ١٨٧٤/٦/٢ من حكومة الهند الى روس •

(١٦) رسالة رقــم ٨٩٦ — ٨٧ مؤرخـــة ١٨٧٤/٧/٣٠ من روس الى سالسبورى وخطاب مؤرخ ١٨٧٥/١/١٦ من تركى بن سعيد الى مايلز •

(١٧) رسالة رقم ٦٤١ — ٥٥ مؤرخـــة ١٨٧٤/٥/٢٠ مــن روس الى سالسبورى •

لكل من خصوم تركى وأصدقائه على حد سواء . وهكذا جنى السلطان ثمر تحالفه مع البريطانيين .

كذلك أسهم الانجليز فى الجهود التى بذلها تركى لحل مشكلة أخرى من مشاكله المزمنة . فمنذ بداية حكمه أو بالأحرى منذ أن هاجمه المرض فى شهر أغسطس سنة ١٨٧٣ ، خفت جذوة النشاط فيه لا سيما وانــه كان فى حاجة الى المستشارين والمساعدين الأكفاء والمخلصين . وفى ربيع سنة ١٨٧٤ بذلت محاولات لمعالجة هذه الحالة ، بدعوة السيد عبد العزيز بن سعيد لتحمل بعض أعباء الحكم عن تركى [١٨] وقد قبل عبــد العزيز دعوة أخيه وعين رئيسا للوزراء ، أو وزيرا بالاصطلاح العربى . وعلى الرغم من أن عبد العزيز كان ذكياً ويتدفق نشاطا وحيوية ، الا أنه كان شخصا طموحا أكثر من اللازم . وهو لا يختلف عن السلطان تركى فى أيام شبابه . وقد عمل عبد العزيز مساعدا لأخيه لبعض الوقت ، الا أنه لم يكن بينهما وفاق على الاطلاق ، حتى اضطر عبد العزيز الى مغادرة البلاد والاقامة فى جواذر بعيدا عن أخيه . ولكنه فى عام ١٨٧١ أخذ يحوك المؤامرات ضد تركى بالتعاون مع المحافظين العمانيين طمعا بالوصول الى السلطة . غير أن تورطه مع المحافظين فى السياسة المعقدة ، قد انتهى نهاية غير ســارة ، وذلك بعد أن اعتقلته إحدى السفن الحربية البريطانية فى البحر وأرسلته منفيا الى كراتشى مع تخصيص مرتب شهرى له فى حدود ثلاثمائة ريال . وبهذا الاجراء وضعت حداً نهائياً لنشاطه ضد السلطان الحــاكم . كان عبد العزيز لا يزال فى المنفى عندما تلقى دعوة أخيه تركى لتولى الوزارة [١٩] وقد كان الوفاق سائدا بين الاخوين فى أواخر سنة ١٨٧٤ ، غير أن الخلاف انفجر بينهما من جديد ســنة ١٨٧٥ . بسبب تحيز السلطان مــع بعض

---

(١٨) خطاب مؤرخ ١٨٧٤/٥/١ من تركى بن سعيد الى عبد العزيز بن ســعيد .

(١٩) لوريمر مجلد ١ ص ٤٩٣ — ٤٩٥ و ٤٩٨ .

الانتهازيين من رجال الحاشية ، الذين حاولوا الحد من صلاحيات عبد العزيز كمستشار للسلطان ، كما ولا عتقاد الحاكم بأن التأييد القبلى للحكم يعتمد على الهناوية وليس على الغافرية • وفى سنة ١٨٧٥ حسم عبد العزيز الموقف بتقديم استقالته • وبما أن صحة تركى لم تكن قد تحسنت حتى ذلك الوقت ولم يكن فى مقدوره القيام بأعباء الحكم بمفرده • فقد وافق على تسليم كل الصلاحيات لعبد العزيز والتوجه الى جواذر للراحة والنقاهة• وهكذا فمنذ شهر أغسطس حتى ديسمبر سنة ١٨٧٥ أخذ عبد العزيز يحكم البلاد كنائب للسلطان [٢٠] •

إن فشل سياسة تركى بن سعيد تجاه قبائل عمان هو من الأسباب التى حملته على الاعتكاف فى أغسطس سنة ١٨٧٥ • لقد بدأت متاعب تركى قبل هذا الوقت بسنة ونصف وذلك عندما تخلى عنه عدد كبير من حلفائه من قبائل الغافرية ردا على التسوية التى عقدها مع صالح بن على واعترف فيها بشرعية عمليات مصادرة الممتلكات الأهلية التى تمت فى عهد الامام عزان بن قيس • وبموجب هذه التسوية انتقل جـزء كبير من الممتلكات الغافرية الى الهناوية • وفى صيف عـام ١٨٧٤ حـاول السلطان تركى التوسط فى بعض الخلافات التى نشبت بين الغافرية من سكان وادى سمايل غير أن المحاولة فشلت نتيجة لمعارضة الأطراف المعنية لهذا المتوسط • وقد اشتدت الاضطرابات القبلية بعد صيف عام ١٨٧٤ ، وظلت تتفاقم خلال سنة ١٨٧٥ • كما انفجرت الحرب القبلية بين الهناوية والغافرية فى نفس العام بسبب رغبة كل من القبيلتين فى الاستيلاء على الاملاك المصادرة وقد سببت هذه الحرب أضرار جسيمة فى الممتلكات والمزروعات ، ممـا جعل حكومة مسقط الخاضعة لسلطة عبد العزيز المباشرة تصبح تحت رحمة الهناوية • وقد تطورت المشكلة فى صيف سنة ١٨٧٥ الى الحد الذى اضطر السلطان الى فصل حرسه الخاص من مرتزقة الوهابيين والاستعاضة عنهم

---

(٢٠) التقرير الادارى ١٨٧١ — ١٨٧٦ ص ٧٥ •

بحرس من الهناوية . وهكذا تعذر على السلطان اتخاذ موقف الحياد من الصراع بين القبيلتين ، لأن الحرس كان فى استطاعته التأثير على السلطان باتخاذ القرارات التى تتفق ومصلحة قبيلته . ولقد ضاق السلطان تركى ذرعا بهذه الأوضاع بحيث فكر بالتنازل عن العرش وتعيين نائب مؤقت عنه لو لم يتدخل الكولونيل مايلز فى الأمر (٢١) .

لقد حكم عبد العزيز البلاد حكماً محافظاً وكان يعتمد على تأييد الهناوية ، وكان الغافرية يعارضونه بطبيعة الحال . وربما كان أغرب ما فى موقف عبد العزيز هو تودده للمحافظين لدرجة أن صالح بن على أصبح المستشار الأول للنائب ، وأخذ المطاوعة يفدون على العاصمة أفواجاً ، كما كان الحال فى عهد الإمام عزان ، وقد سبب هذا حرجاً كبيرا لأخيه السلطان تركى . فقد بقيت القوانين السابقة كقانون تحريم الوسائل الترفيهية . ولقد استاء الإنجليز من هذا الوضع ، غير أنهم لم يتوقفوا عن دفع التعويض المالى عن زنجبار للسلطان فى معتكفه بجواذر . ومعنى هذا أن تركى كان لا يزال يملك مصادر مالية كافية لتدعيم مركزه فى عمان متى سمحت له حالته الصحية بذلك .

ان فترة الاستجمام الطويلة التى أمضاها تركى فى جواذر قد فعلت فعلها فيه فاسترد صحته واستعاد نشاطه وروحه المعنوية ، وفى أواخر سنة ١٨٧٥ كانت صحته تسمح له بالعودة الى البلاد . ولما كان تركى يعلم أن عبد العزيز سوف يعارض عودته الى السلطة ، دخل البلاد خلسة ، وتسلم المسئولية وذلك فى شهر ديسمبر سنة ١٨٧٥ . وكان نائبه عبد العزيز متغيبا عن العاصمة فى ذلك الوقت . ولقد كان تركى على حق فى تشككه بأخيه ، إذ ما ان علم عبد العزيز بعودة تركى الى البلاد حتى جمع قوة على الفور للقيام بمحاولة لاطاحة حكم السلطان ، غير أن وصول نجدات

---

(٢١) لوريمر مجلد ١ ص ٤٩٧ .

من الغافرية فى الوقت المناسب احبط المحاولة ، وبالتالى لاذ عبد العزيز بالفرار الى الداخلية ، حيث جمع له بعض المؤيدين وتمركز فى منطقة وادى سمايل . ولكن تركى وضع حدا لتهديد عبد العزيز عندما زحف فى شهر فبراير سنة ١٨٧٦ على رأس جيش وارغم اخاه على الفرار من المعركة . وظل عبد العزيز ينتقل من مكان الى آخر فى المنطقة الداخلية من البلاد مدة ١٤ عاما فى محاولات يائسة لتجنيد قوات جديدة لإطاحة أخيه . ويبدو أن تركى كان موفقاً فى اختيار الوقت الذى يعود فيه إلى مسقط . فالصراعات والحروب الأهلية التى استمرت أشهراً طويلة قد استنزفت قوى القبائل العمانية ؛ مما مكن السلطان من اقرار السلام فى ربوع البلاد كلها ، وبالتالى من إعادة علاقاته الودية مع حلفائه القدامى الغافرية [٢٣] .

ان استئناف تركى للحكم وتوطيده لدعائم السلم فى البلاد خـلال شتاء سنة ١٨٧٥ — ٧٦ ، يعتبر نهاية للفترة المضطربة الاولى من تـاريخ الحكم فى عمان . فقد أبدى تركى نشاطا ملحوظا خلال الاشهر الاولى من سنة ١٨٧٦ ، وبنهاية العام كان تركى قد أعاد تخطيط نظام الحكم بطريقة تجعله يبدو وكأنه قد تخلص من الأخطاء والاضطرابات الادارية السابقة .

الدفاع عن النظام المعتدل ، ١٨٧٦ — ٨٨

لقـد عـاد فابتسم القدر لتركى بن سعيد أثر استئنافه للسلطة فى سـنة ١٨٧٥ ، ومما أسهم فى النجاح الذى حققه السلطان فى السنوات الأخيرة من حكمه ، بانتعاش التجارة العمانية بعد فترة الركود التى سادتها من القرن التاسع عشر كنتيجة للزيادة فى معدل الصادرات من البلح العمانى الى الهند والولايات المتحدة . غير أن القلاقل السياسية لم تنته بأى حال ما بين سنة ١٨٧٦ وسنة ١٨٨٨ ، وأن كان الوضع لم يصل إلى حـد

---

(٢٣) نفس المصدر ص ٥٠٢/٥٠٤ والتحفة ، تأليف : السـالمى جزء ٢ ص ٢٨١ والتقرير الادارى ص ٧٥-٧٦ سنة ١٨٧٥ — ٧٦ .

الفوضى مثل ما حدث مرات كثيرة من قبل ، خلال السنوات الخمس الأولى من حكم تركى • ولقد ظل الخطر من العناصر الاباضية المتطرفة فى داخلية عمان قائما ، وما بين سنة ١٨٨٧ وسنة ١٨٨٣ قامت هذه الفئات بأكثر من هجوم مركز على مسقط ، غير ان وجود السفن الحربية البريطانية قد افشل كل هذه الغارات •

كما ان التمزق السياسى داخل صفوف المحافظين العمانيين الذى حدث بعد سنة ١٨٦٧ قد اسهم بدوره فى دعم مركز السلطان • فبوفاة سعيد بن خلفان فقد المحافظون العمانيون زعيماً دينياً مرموقا مما جعلهم يخسرون ما كان لهم من تأييذ جماهيرى ، بينما لم يستطيعوا اكتساب مؤيدين جدد من العناصر الوطنية الهامة • وكان الشيخ محمد بن سليمان الغاربى من ساحل الباطنة من أثقف الزعماء القياديين فى المعسكر المحافظ خلال السنوات الاولى من حكم تركى ، غير ان هذه الدعامة التى كان يستند عليها حكم الامام عزان فى وقت من الأوقات ، قد تحولت الى السلطان تركى (٢٣) •

وعلى الرغم من ان صالح بن على كان من أبرز الزعماء القبليين المحافظين وكذلك فيصل بن حمود ، الا أن التعاون بين هذه الفئة من الزعماء كان تعاونا شكليا حتى ان الجناح الاباضى المتطرف انقسم على نفسه فى سنة ١٨٧٩ الى فئات عديدة • فصالح بن على لم يكن يثق فى أى حركة أو مشروع لا يكون تحت اشرافه ، بينما كان ابراهيم بن قيس فى أواخر أيامه يعيش على المنحة التى خصصها له السلطان تركى ، بحيث لم يكن فى مقدوره تقديم تأييد حقيقى لأى تكتل ضد السلطان (٢٤) • وحتى لو نجح هذا التجمع ، فان امكانات المحافظين وعلى الأخص بعد أن ضاعت

---

(٢٣) خطاب مؤرخ ٤ اكتوبر سنة ١٨٧٦ من محمد بن سليمان الغاربى الى تركى بن سعيد •

(٢٤) رسالة رقم ٥٥٧—٢١٦ بتاريخ ١٨٧٤/١٢/١٢ من مايلز الى روس •

من ايديهم مقاطعة الباطنة ، لا تقارن بموارد السلطان المالية المدعمة من جانب الانجليز ، وامكاناته للبذل للقبائل . ومن ناحية أخرى لم تكن هناك دولة أجنبية حليفة للمحافظين يمكن أن تمدهم بالمساعدة ، كما كان الحال بالنسبة لتركى الذى يعتمد على التأييد البريطانى له عند الضرورة . وقد إضطر صالح بن على فى سنة ١٨٨٣ الى رهن املاكه الخاصة بمبلغ ٩٠٠٠ ريال تقريباً لتمويل عملية هجومية على مسقط [٢٥] .

وعلى الرغم من ان شعبية المحافظين العمانيين قد هبط مستواها عما كان عليه فى الستينات من القرن التاسع عشر ، فانهم ما زالوا حتى ذلك الوقت يتمتعون بتأييد عدد كبير من العمانيين . غير ان برنامج المحافظين لم يكن يختلف فى أسسه النظرية عنه فى عهد الامام عزان الذى أيد المحافظون ثورته الناجحة ونظام حكمه . وقد ردد المحافظون نفس التهم التى وجهوها لحكم السلطان قبل هجومهم عليه فى سنة ١٨٧٧ وهى « الانحراف والتهاون فى المسائل الدينية » وهى نفس التهم التى أطلقوها على هذا النظام خلال حملتهم الدعائية سنة ١٨٦٨ [٢٦] . ولم تتغير أهداف الزعماء المحافظين من أمثال صالح بن على فى عهد السلطان تركى عما كانت عليه سابقا وهى بعث الامامة فى عمان على نمط امامة سنة ١٨٦٨ بحيث يشمل حكمها ساحل مسقط وعمان والشطر الداخلى من البلاد . وعلى أى حال ففى سنة ١٨٧٦ أخذ جيل جديد من الزعماء العمانيين المحافظين يشق طريقه الى عالم الوجود ، غير أن هذا الجيل كان يرى بأن تقتصر الامامة على الجزء الداخلى من عمان وبأن لا تضم مسقط والمدن الساحلية [٢٧] . وعندما عادت الامامة إلى السلطة بالفعل بزعامة سالم بن راشد الخروصى فى سنة ١٩١٣ اقتصرت سيادتها على الجزء الداخلى

---

(٢٥) رسالة رقم ١٨٢ بتاريخ ١٨٨٣/٧/٢٢ من موكلر الى روس .
(٢٦) رسالة رقم ١٠ مؤرخة ١٨٧٧/٥/٤ من بريدو الى سالسبورى .
(٢٧) خطاب مؤرخ ١٨٧٩/٣/٢ من مسلم بن عبيد الى تركى بن سعيد ويشير فيه الى وجهة نظره السابقة حول هذا الموضوع .

من البلاد فقط وذلك على أثر الحملة التى قامت بها قوات حكومة الهند البريطانية لصد هجوم قام به المحافظون على ساحل الباطنة • وبهذا تمكنت من المحافظة على وجودها حتى سنة ١٩٥٥ • غير أنه منذ سنة ١٨٧٦ وحتى ١٩١٣ كان اصرار أغلبية الزعماء المحافظين على ضم مسقط ضمن أية إمامة تقوم فى البلاد عاملا أساسياً من عوامل الاستياء والتوتر بين السياسيين العمانيين المحافظين وجزءا لا يتجزأ من أهدافهم ، أما الانجليز فقد كانوا يعارضون سيطرة المحافظين على أى جزء من الساحل العمانى بالشكل الذى يمكنهم من التدخل بالقوة المسلحة لسحق أى تجمعات محافظة تطمع فى بسط سيطرتها على مسقط والساحل العمانى •

خلال الاثنى عشر عاما من حكم تركى بن سعيد ، جابه بالاضافة إلى تمردين قبليين عاديين — محاولتين كبيرتين من جانب المحافظين لإطاحته • وقد اتسمت المحاولتان بنفس الطابع • المحاولة الاولى تمت فى سنة ١٨٧٧ عندما هاجمت قوات المحافظين مدينتى مسـقط ومطرح بالف وخمسمائة مقاتل بقيادة صالح بن على • ولما كان الهجوم مفاجئاً فقد تمكنت القوات المغيرة من احتلال مدينة مطرح ونهب أسـواقها ومتاجرها ، غير أن مسقط استعصت عليهم وقد ظلت حاميتها المؤلفة من مائتى رجل تدافع عن المدينة حتى وصول الطراد البريطانى تيزر teazer الذى قـام بقصف تجمعات القوات المهاجمة حتى أرغمها على الانسحاب • غير أن صالح بن على حاول ان يستغل الفرصة قبل انسحابه ، حيث اشترط دفع ٢٠,٠٠٠ ريال مقابل الانسحاب ، الا أن تركى كان يعرف بالفعل أن قوات صالح بن على قـد انهزمت ، ولهذا رفض طلبه ، وقـد دعم هذا من موقف السلطان فى جميع انحـاء البلاد [٢٨] •

---

(٢٨) خطاب رقـم ١٥ مؤرخ ١٨٧٧/٧/٥م مـن بريدو الى سالسبورى والتحفة ، تأليف : السالمى جزء ٢ ص ٢٨١ •

أما هجوم سنة ١٨٨٨ فقد وقع نتيجة لفشل تركى فى رأب الانشقاقات التى وقعت فى صفوف قبائل الغافريه المؤيدة له • وكانت هذه القبائل ترابط عبر الطريق الذى يمكن لأى جيش ينوى غزو مسقط أن يمر به • فقد انشق الرحبيون والندابيون عن السلطان استياء من السماح لبنى جابر ، وهم إحدى قبائل الغافرية بالانضمام الى المجموعات القبلية المرابطة فى الممر ، وانضموا الى قوات صالح بن على • وقد بذل السلطان جهودا يائسة لتهدئة خواطرهم ولكن دون جدوى • ففى شهر أكتوبر سنة ١٨٨٣ قاد صالح ابن على بالاشتراك مع عبد العزيز ، أخ السلطان تركى من ابيه ، بعض قبائل الهناوية من الحرث ، والحبوس ، والحجريين عبر الممر المذكور ومنه انقضوا على مسقط • ولعل أغرب ما وقع خلال هذا الهجوم هو عملية تسلق السور الذى يحيط بالعاصمة • وقد قام بها ليلا مجموعة من المهاجمين يرتدى أفرادها جلابيب سوداء • واشترك السلطان تركى بن سعيد شخصيا فى مقاومة المهاجمين الذين انسحبوا مخلفين وراءهم سبعين قتيلا • وفى الوقت نفسه ونتيجة للهجوم المذكور أرسل البريطانيون الطراد فيلوميل إلى مسقط للمساهمة فى الدفاع عن المدينة بعد أن تعذر على السلطان سد جميع الطرق على المهاجمين • وهكذا ساهم الطراد البريطانى فى إنزال الهزيمة بقوات المحافظين [٢٩] • وقد فشلت هذه الحملة بعد وصول تعزيزات من رجال الغافرية للسلطان يقدر عددها بثلاثة آلاف مقاتل وذلك للقضاء على فلول القوة المهاجمة ، بينما تحرك الأمير فيصل بن تركى ، نجل السلطان وولى عهده على رأس قوة من ١٧٠٠ مقاتل للانتقام من القبائل التى سمحت لقوات صالح بن على بالمرور عبر أراضيها [٣٠] • وقد دعم هذا الانتصار من مكانة السلطان تركى فى البلاد

---

(٢٩) التحفة ، للسالمى : جزء ٢ ص ٢٨١–٨٢ وكتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥٠٨ — ٥١٢ وخطاب رقم ٣٦ مؤرخ ١٨٨٣/١١/٩ من روس الى كمبرلى •

(٣٠) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥٠٨–٥١٢ وخطاب مؤرخ ١٨٨٣/١١/١٢ من فيصل بن تركى الى تركى بن سعيد وقد ورد كمرفق الخطاب رقم ٣.١٣ أ — بتاريخ ١٨٨٣/١١/٢٦ من جاياكار الى روس •

بحيث أن مسقط لم تتعرض لأى هجوم جديد من المحافظين طوال الفترة التى بقيت له فى الحكم . ومما هو جدير بالذكر ، على أى حال ، ان نشير الى تصريح سنة ١٨٨٦ الذى تعهد فيه البريطانيون بحماية سلطان مسقط مهما كانت الظروف ، فلقد أسهم هذا التصريح فى خلق جو من السلام والاستقرار السياسى الذى تميز به حكم السلطان فى السنوات الأخيرة . وباستثناء الحملتين الكبيرتين اللتين قام بهما صالح بن على لم تقع اعتداءات ضد مسقط ذات أهمية فيما عدا مغامرتين عسكريتين قام بهما ابراهيم بن قيس على مدينة الرستاق ومقاطعة الباطنة فى سنة ١٨٨١ وسنة ١٨٨٣ ، وانه فى كلتا الحملتين عـاد ابراهيم فانسحب من المعركة عندما هـدده السلطان بوقف المنحة التى تدفع اليه [٣١] .

قبل ان يوافى الأجل تركى فى سنة ١٨٨٨ كان يستطيع ان يقول بأن عمان جميعها أصبحت تدين له بالولاء ومع أن حكمه لم يكن قويا ، الا أن الولاة فى عهده كانوا يسيطرون على كافة المدن الساحلية الرئيسية ، وعلى نخل وسمايل فى مقاطعة وادى سمايل . كما كانت الرستاق وبعض اجزاء مقاطعة الشرقية تدين له بالولاء بين حين وآخر ، على الرغم من أن هذا لم يكن يحدث إلا فى الأحوال التى تنضب فيها موارد الزعماء السياسيين فى المناطق ويجدون أنفسهم مضطرين إلى طلب المساعدة من السلطان . وقد حافظت أغلب المناطق القبلية على علاقاتها الودية بحكومة السلطان من الناحية الاسمية ، هذا بالرغم من أن بعض فئـات قبائل الهناوية ، كالحرس ، والحجريين ، والحبوس ، كانوا يتحالفون مع أى تكتل يهدف إلى الإطاحة بالسلطان طوال فترة حكمه [٣٢] . ويدل اعتلاء فيصل بن تركى

---

(٣١) لوريمر مجـلد ١ ص ٥١٦ والتقـرير الادارى ١٨٨١ — ١٨٨٣ ص ١٣ — ١٥ .

(٣٢) لوريمر مجـلد ١ ص ٥١٠ والتقـرير الادارى ١٨٧٨ — ١٨٧٩ ص ١١٦ .

للعرش بطريقة سلمية ، لم يتخللها أى صراعات سياسية على استقرار النظام فيما بين سنة ١٨٧٦ وسنة ١٨٨٨ • ولقد كانت هذه أول مرة منذ القرن الثامن عشر تتم فيها عملية تغيير حاكم بآخر بغير عنف أو اراقة دماء •

تركيب الحكم المعتدل وأساليبه الادارية : ١٨٧٦ — ٨٨

ان ما يشهد على مدى كفاءة الحكم فى عهد السلطان تركى بعد سنة ١٨٧٦ ، هو سلامة نظامه السياسى والتحسينات الادارية التى ادخلت على الجهاز الحكومى منذ اعادة تنظيمه • ومما يعزز هذا الرأى ان التدابير التى اتخذت فى عهد تركى لتنظيم الاداة الحكومية ظلت سارية المفعول حتى هذا اليوم • وكما أشرنا آنفا فقد كان نظام تركى خليطا من الاجراءات السياسية المدروسة والاستخدام الذكى لمقتضيات العرف والتوفيق ، إلى جانب الدعم البريطانى للنظام • ولقد مرت هذه الأساليب بتغييرات وتعديلات مستمرة عبر فترة طويلة من الزمن •

ولعل اعتماد تركى على التأييد البريطانى بشكل سافر ، هو البدعة الوحيدة التى استحدثها تركى فى سلسلة النظم الادارية التى كان يسير عليها حكام عمان المعتدلون • غير أن هذا الاعتماد على القوة البريطانية كان خطوة حتمية كبديل عن الاعتماد على النشاط الاجتماعى الملاحى والتجارى كمورد للدولة على عهد سعيد بن سلطان • أما فى عهد السلطان تركى فقد كان نمو المصالح الامبريالية البريطانية فى منطقة الخليج يسير جنباً إلى جنب مع حاجة سلطنة مسقط الى مصدر جديد لدعم ازدهارها الاقتصادى الذى كان العامل الأساسى للدولة فى الفترة التى سبقت عام ١٨٥٦ • ومن هنا كانت مصلحة كل من بريطانيا وسلطنة مسقط فى توثيق علاقاتهما المشتركة وتعميق أسس المساعدات المتبادلة بينهما • وابتداء من سنة ١٨٧٤ تعددت المساعدة البريطانية لتركى من العون العسكرى ، الى المساعدات المالية المنتظرة ، إلى حجز الزعماء السياسيين المناوئين لتركى فى الهند ، الى المساعدات الفورية لحل المشكلات الحكومية والخدمات الدبلوماسية • وفى سنة ١٨٨٦ تطورت هذه المساعدة بحيث تعهدت بريطانيا

بضمان حكم السلطان على الجزء الساحلى من البلاد ، ورفض أى تعديلات سياسية فى هذا الجزء من عمان . وكثمن لهذا التأييد وافق السلطان على السير فى ركاب السياسة البريطانية ومخططاتها حتى لو تعارض ذلك مع مصالح الأمة ، كما حدث بالنسبة إلى المعاهدة البريطانية — العمانية المعقودة فى سنة ١٨٧٣ لمنع تجارة الرقيق .

وعلى عكس السلاطين الذين جاءوا قبله كثوينى ، وسالم ، وعزان ، كان تركى ينظر الى مشاكل عمان من زاوية واقعية . فقد أدرك تركى أن الأوضاع فى عهده تختلف عن الأوضاع فى عهد السيد سعيد ، وان السياسة التى كانت تلائم الحكم خلال السنوات العشرين الاولى لم تعد تصلح لأوضاع عمان فى أواخر القرن التاسع عشر . كما أدرك أيضا وبشكل خاص أن مصدر القوة الأساسى للحكم قد ضعف الى الحد الذى لا يمكن معه الاحتفاظ بالسلطة بالاعتماد على المصادر الذاتية وحدها . وانه إذا استطاع أن يضمن تأييد النفوذ البريطانى لحكمه ، فان ذلك سوف يجعل حكمه فى مأمن من تكتل القوى المناوئة له . وهكذا أصبح تركى فى التحليل النهائى على أتم الاستعداد للتعاون مع البريطانيين بشكل أو آخر مقابل ضمانهم لحكمه . وهكذا غدا مفتاح سياسة تركى هو توثيق علاقته بالحكومة البريطانية [٣٣] .

لقد أدرك تركى بأن الظروف تحتم عليه بأن يحكم البلاد بأحسن الطرق المتاحة له . وكان من بين الاسباب التى تدعو الانجليز الى تأييد تركى إقتناعهم بأنه يمثل الأمل الوحيد لتحقيق السلام والاستقرار فى

---

(٣٣) لوريمر مجلد ١ ص ٥٢٢ وخطاب مؤرخ ١٨٧١/٢/١٢ من تركى بن سعيد الى حاكم بومباى وقد ورد كمرفق الخطاب رقم ٣٤/١٥٤ بتاريخ ١٨٧١/٢/١٣ من بيلى الى دوق ارجيل انظر كذلك « سياسة الهند الخارجية » ص ٢٤٠ تاليف : برساد .

ربوع البلاد [٣٤] • ولما كان الهدف الأساسى لتركى هو توفير النظام والحكم المعتدل لسكان البلاد ، فقد كانت المشاكل القبلية أهم المشاكل التى تستأثر باهتمامه اليومى • وكـان لابد لتركى من الاعتماد على الجهاز التقليدى للادارة بالرغم من أنه جهاز تدعمه الحكومة البريطانية وبمعنى أوسع فإن تركيب الحكم بكلياته هو امتداد لشخص السلطان نفسـه • وممـا يصدق على اغلبية النظم الملكية الفردية ، أن وجود ملك أو رئيس وزراء يتمتع بالكفاءة والحماس على رأس الحكم ، يضمن لهذا الحكم سـهولة الحركة ، ولكن مثل هذا الحكم معرض للانهيار إذا مـا تهاون الملك عن واجباته • ولئن كانت السلطة فى مثل هذا النظام سلطة مطلقة وليس هناك حدود دستورية تقف عندها ، فإن سلطة تركى كانت مقيدة بقيود عمان الجغرافيه ، وبتركيبها السياسى والاجتماعى ، وايديولوجيتها الدينيـة والفكرية ، وباقتصاديتها • ومن الجدير بالذكر أن حكومة السلطان تركى هى من نوع الملكيات الملاحية التقليدية ذات الطابع العلمانى التجارى وقد نشأت وتطورت ضمن هذا الاطار • وعلى عكس الائمة الذين يستمدون سلطاتهم من الاعتبارات الدينية ، والقيم الاسلامية ، كان نظام السلطان يعتمد على قدرة الحكم على ممارسة طاقاته السياسية البحتة ، وعلى كفاءاته ومركزه الشخصى •

قبل أن يبدأ السـلطان تركى فى إعـادة تنظيم أجهـزة الحكم فى السبعينات من القرن كانت مسئولية الحكم قسمة مشتركة بين كبـار افراد عائلة البوسعيد وكان السلطان يجمع بين منصبه كحاكم للبلاد ومنصبه كعميد للبيت المالك يستمد سلطانه عليها من أفرادها أنفسهم ، هـذا رغم وجود بعض الارستقراطيين والوجهاء من القبائل العمانية الأخرى وبعض رجال الاعمال البارزين فى مسقط من أصل عمانى هندى مشترك يشاركونه

---

(٣٤) لوريمر مجلد ١ ص ٥١٧/٥٢٢ ومحاضر وزارة الهند ١٨٧٤/١٢/١٧ وخطاب رقم ٩/٣٦ مؤرخ ١٨٨٥/١١/٩ من روس الى كمبرلى •

المسئولية • أما الطبقات الشعبية ، فقد كان من النادر أن تتولى مناصب هامة فى الدولة • ولقد حافظ تركى على هذا التقليد الى حد كبير حتى بعد سنة ١٨٧٦ ، بالرغم من أنه كان أقل اعتمادا من غيره من الحكام على أفراد أسرته فى ادارة الحكم ، كما كان يستعين بخبرة ومشورة المعتمد السياسى المقيم بانتظام • وكان الكولونيل مايلز الذى يشغل هذا المنصب خلال الجزء الأكبر من فترة حكم السلطان تركى ، والكولونيل روس ، الرئيس المباشر للكولونيل مايلز فى الخليج على علاقة ودية وثيقة بالسلطان الذى كـان يستشيرهما ويطلعهما أولا بأول على سير الأمور فى البلاد • وكان من الأسباب التى مكنت للنفوذ الانجليزى فى دوائر الحكم ، فضلا عن نفوذهما على شخص السلطان نفسه ، هو افتقار تركى الى المستشارين المخلصين الاكفاء من أهل البلاد •

وعلى الرغم من جهود السلطان تركى — لتوثيق علاقته بأقرب أفراد العائلة ، وهى جهود كان النجاح فيها حليفه ، فقد كانت له مشاكل مع أخيه غير الشقيق ، عبد العزيز ابن سعيد ، والسلطان السابق سالم بن ثوينى وفى سنة ١٨٧٦ اضطر السلطان الى اتخاذ قرار بارسال محمد ، وحمود ، وحمدان ، أبناء أخيه ثوينى بن سعيد الى المنفى بتهمة تآمر هؤلاء مع أخيه عبد العزيز ضده • أما انجاله محمد ، وفيصل ، وفهد فقد عينوا ولاة لبعض المدن والمقاطعات الهامة ، فمحمد ، الأكبر كان محافظا لاقليم صحار من سنة ١٨٧٨ الى سنة ١٨٨٤ ، وبما أنه أثبت عجزا اداريا تاما فى منصبه فقد قرر والده تعيين ابنه الثانى الأصغر ، فيصل بن تركى وليا للعهد • ومن ناحية أخرى لم يكن السلطان يستطيع الاعتماد على أفراد عائلته الاقربين فى مشاركته المسئولية [٣٥] •

ويعتبر الوزير ، أو رئيس الوزراء من النــاحية النظرية المستشار

---

(٣٥) لوريمر مجـلد ١ ص ٥١١ — ٥١٢ •

والمســاعد الأول للسلطان • غير أن هــذا المنصب ، اذا مــا استثنينا آخاه عبد العزيز بن سعيد لم تشغله أى شخصية قوية وبارزة فى عهــد تركى • صحيح أن ثوينى بن محمد ، أحد أمراء البوسعيد الذى خدم الحكم فى عهد كل من السلطان ثوينى والسلطان سالم ، وفصل من منصبه فى عهد الحاكم الأخير بتهمة الخيانة والفساد ، وكان أول وزير يعينه تركى فى هذا المنصب ، غير أن ثوينى بن محمد لم يبرهن على جدارته بهــذا المنصب ، مما جعل تركى يرغب فى التخلص منه قبل نهاية عام ١٨٧١ ، ويعتبر ثوينى مسؤولا عن الخلاف الذى نشب بين تركى وأخيه عبد العزيز • ورغم ذلك فقد ظل تركى محتفظا بمنصبه هذا حتى أوائل سنة ١٨٧٣ ، عندما أقيل منه بتهمة اشتراكه فى حادث اغتيال ناصر بن على محافظ مسقط • وقد توفى ثوينى بعد هذا الحادث بوقت قصير ، عندما اغتاله انصار القتيل ، بينما كان يسير فى شوارع العاصمة [٣٦] • ولم يحتل منصبه شخص آخر ، فقد كان السلطان يقوم بعمل الوزير بنفسه الى أن داهمه المرض فى شهر أغسطس سنة ١٨٧٣ • وبخلو البلاد من وزيرها وسلطانها أخذت الحكومة تسير على غير هدى ، الى أن تم تعيين عبد العزيز بن سعيد رئيسا للوزراء فى ربيع سنة ١٨٧٤ • غير أن انانية عبد العزيز كرئيس للوزراء وكوصى على الحكم حتى شهر ديسمبر سنة ١٨٧٥ ، لابد وأنها أسهمت فى تذمر السلطان من مســاعديه البوسعيديين •

ولقد وجد تركى أخيرا ضالته المنشودة فى شخص سعيد بن محمد ، أحد أفراد الأسرة الحاكمة ، وشقيق الوزير الأسبق ثوينى بن محمد ، ومن رجال الحكومة القدماء • وبما أن سعيد كان من المقربين الى السلطان منذ بداية حكمه ، فقد عين وزيرا مساعدا للسلطان بمجرد استئناف تركى لمهام الحكم فى البلاد فى ديسمبر سنة ١٨٧٥ •

---

(٣٦) نفس المصــدر ورسالة رقم ١٢٣٤/١٤٠ مؤرخة ١٨٧١/١١/١ من بيلى الى دوق أرجيــل •

وكان سعيد بن محمد يتمتع بجميع المؤهلات اللازمة لرجل الحكم ، وعلى الأخص أنه قد امضى الجانب الأكبر من حياته العامة فى خدمة السلطان . وعلى الرغم من أن سعيد لم يكن رجل أفكار بنوع خاص بحيث يمكن الاعتماد عليه فى تزويد الحكم بأفكار جديدة إذ من الواضح ان هذه المهمة يقوم بها رجال حكومة الهند البريطانية المعتمدين لدى حكومة السلطان — إلا أنه كان رجلا مخلصا فى عمله ويحسن تنفيذ الأوامر التى تصدر اليه من السلطان . وعلى كل فقد كان سعيد نموذجا لذوى المناصب العليا فى حكومة السلطان . وكان أول عمل تولاه فى حكومة مسقط هو منصب مساعد لشؤون التموين والنقل فى حكومة السلطان ثوينى . كما تولى منصب والى مسقط فى عهد تركى قبل نقله الى منصبه الجديد . وكان شخصاً محبوباً من الانجليز لأنه كان يؤمن بالتعاون معهم . ولعل الشيء الوحيد الذى كان يقض مضجعه هو خلافه مع بدر بن سيف ، أحد المساعدين للسلطان تركى وكان بدر صديقاً حميماً للسلطان وقائداً عاماً للجيش . وفى أواخر أيامه اعفى سعيد بن محمد من عمله وأمر بنفيه إلى كتم ، بعد أن اتهمه بتعاطى « اعمال السحر » غير ان الوزير عاد لشغل منصبه بعد انتقال الحكم إلى فيصل بن تركى فى سنة ١٨٩٦ [٣٧] .

ان اتهام تركى لرئيس وزرائه بممارسة السحر يعتبر دليلا على المعتقدات التى كانت تسيطر على تركى وتتحكم فى تصرفاته ، وعلى الأخص خلال نوبات المرض التى كانت تفاجئه . فقد كان تركى فى أواخر ايامه ، وعلى الأخص بعد ان تدهورت صحته فى سنة ١٨٧٣ يثق كثيراً فى شخص يدعى نميش ويتاجر بالقصب . وهو شخص عديم الاخلاق لا ضمير له ومن نوع راسبوتين وكان يدعى معرفة السحر . وكان يتقاضى مرتباً شهرياً مقداره ١٥ ريالا . وقد طرد أخيراً ، ولكنه بعد ان جمع ثروة طائلة تقدر

---

(٣٧) التقرير الادارى ١٨٧٥ — ١٨٧٦ ص ٧٥ — ٧٦ والتقرير الادارى ١٩٠١ — ١٩٠٢ ص ١٠ — ١١ وخطاب رقم ٧٢/٥٦٣ مؤرخ ١٨٧١/٦/٥ من بيلى الى دوق ارجيل .

بنحـــو ٤٠ الف ريال عن طريق الرشـــوة والنفوذ • وحتى بعد أن تولى عبد العزيز رئاسة الوزارة فى سنة ١٨٧٤ احتفظ نميش بمركزه عند السلطان ، ولم يعتزل الا عندما عين عبد العزيز وصـــياً على الحكم فى أغسطس سنة ١٨٧٥ • وعندمـــا عاد إلى مسقط فى شهر ديسمبر ســـنة ١٨٧٥ نصحه مستشاروه البريطانيون بعدم الاعتمـــاد على اشخاص مثل نميش الذى كان يستغل غباء الســـلطان وميوله السوداوية واحساسه بالوحدة [٣٨] •

وإلى جـــانب رئيس الوزراء كان للســـلطان بعض المستشـــارين الخصوصيين والمصطادين فى الماء العكر • من هؤلاء بدر بن سيف الذى كان يتولى قيادة جيش الســـلطان فى أغلب الأوقات ، كمـــا عمل محققاً ووالياً على اقليم صحار ما بين سنة ١٨٧٣ وسنة ١٨٧٨ ثم واليا على مطرح بعد سنة ١٨٧٩ • ومنهم سليمان بن سويلم ، أحد عبيد السلطان الافريقيين وقد وصـــل إلى منصب السكرتير الخاص للسلطان ، كمـــا شغل منصب الوالى فى عدد من المناطق المضطربة كصور وظفار فى الجنوب العربى وقد ضمت مؤخرا إلى ممتلكات السلطان تركى [٣٩] • ان مكانـــة سليمـــان بن سويلم الشخصية ونشـــاطه يصوران لنا المرتبة التى يكن أن يرقى إليهـــا الافراد الاكفاء ، بصرف النظر عن وضـــعهم الطبقى •

أما الحاشية فقد كانت تتألف من موظفى الدرجة الثانية فى حكومة الســـلطان كالوزراء المســـاعدين ، أو المرافقين المستشـــارين الخصوصيين للحاكم • ويضم الجهاز المركزى للحكومة مجموعة متغيرة من المكاتب يخضع كلّ مكتب منهـــا للاشراف المباشر لأحد الســـكرتارية أو الاداريين [٤٠] •

---

(٣٨) خطاب رقم ١٢١/٣٥٧ مؤرخ ١٨٧٣/٧/١٦ من مايلز الى روس وخطاب رقم ٥٢/٦٠٦ مؤرخ ١٨٧٥/٦/١١ من روس الى سالسبورى •

(٣٩) لوريمر مجـــلد ١ ص ٥١١ والتقـــرير الادارى ١٨٧٥ — ١٨٧٦ ص ٧٥ — ٧٦ •

(٤٠) التقرير الادارى ١٩٠١/١٩٠٢ ص ١٠—١١ •

ولا نقصد من هذا ان نرسم صورة مكبرة لواقع التنظيم الادارى لجهاز الحكومة ، إذ ان هناك أنواعاً كثيرة متعددة من الوظائف التى كان يشغلها عدد من الأفراد كانت تحظى برضى الحاكم فى فترة مـا ومشكلة إيجاد وتوظيف رجال أكفاء للمهام الادارية بشـكل فعال كانت من المشـاكل العويصة التى يواجهها الحكم • ومن المؤكد ان العلاقات العائلية كانت تلعب دوراً رئيسياً فى تحديد المؤهلات الوظيفة • ومعظم ذوى الوظائف الحكومية الهامة كانوا من فئة الطبقة العليا للمجتمع أو من العائلة المالكة ، أو من العائلات التى تناصر حكومة البوسـعيد المعتدلة • كما كان هؤلاء بدورهم يعتمدون على مستخدميهم الخصوصيين • وبمـا أن التعليم فى البلاد يقتصر على تعليم مبادىء الدين ، فإن التدرب على الشـؤون الإدارية والعسكرية يتم فى إطار العمل • وفضلا عن ذلك فإن تعدد واجبات المسؤولين فى الحكومة يجعل تحديد هذه المسؤولية غير وارد على الاطلاق • وهذا النوع من النظام الادارى الذى يعتمد على أفراد الطبقة الحـاكمة وحدها ، والتى لا تتمتع بأى مؤهلات فنية نظـام محدود • ولهـذا كان السلطان مضطراً إلى الاعتمـاد على الجالية التجارية الهندية فى مسـقط فى إدارة الشؤون المالية • كما كان مضطراً أيضا إلى اتباع سياسة متقلبة تجـاه منافسيه السياسيين ، وتجاه رجـال القبائل والاطماع العائلية التى كانت الشـغل الشاغل لمساعديه • ان تركى كغيره من رجال الحكم الذين سبقوه أو خلفوه كان يواجه مشـاكل كثيرة فى محاولاته لتنظيم قواعد الجهاز الادارى ضـد طبقة عنيدة • كما ان سعيد بن محمد وبدر بن سيف ، على الرغم من ولائهما للسلطان تركى ، وبصرف النظر عما فيهمـا من عيوب ، كانا افضـل العناصر المسؤولة فى السلطنة وبالتالى فليس ممـا يثير الدهشـة أن يعاشر تركى أشخاصا مثل نميش ، أو من ناحية أخرى ، ان يعتمد فى تقرير مصيره المجهول على مشورة حلفائه الأوفياء والاكفاء — مستشاريه البريطانيين •

أمـا فيما يتعلق بالادارات الاقليمية للدولة التى كانت ترجـع فى أمورها إلى حكومة السـلطان ، فقد كانت أكثر تعقيداً من الادارة المركزية •

إن معظم المدن الســاحلية العمانية كان يحكمها ولاة يعينهم الســلطان ، وكان كل من هؤلاء ينفذ أوامر السلطان وفقاً لكفاءاته وامكانياته واتجاهاته السياسية . وكان عدد كبير من هؤلاء الولاة من أفراد أسرة البوســعيد الحاكمة ، وكانوا يعتبرون المناطق التى يتولون عليها بمثابــة إقطاعيات وراثية . أما من الناحية الشكلية فقد كان الوالى يحكم بالنيابة عن السلطان ويجمع فى يده ســلطات القائد العسكرى ، والبوليسى ، والقضــائى والمالى فى نطاق الاقليم الذى يحكمه وكان أبرز منصب فى مناصب الولاة الأقليميين منصب والى مسقط ، غير أن الذى يشــغل هذا المنصب يكون عادة ، وربما بسبب قربه من السلطان ، أقل استقلالا من غيره من الولاة . وبعد منصب والى مسقط يأتى منصب والى مطرح ووالى صحار فى الدرجة الثانية من الأهمية . كمــا تعد ولايتا ظفار وســمايل من المناصب الهامة . أمــا منصب والى صحار فيعتبر من أصعب مناصب الولاة فى عمــان . ويعمل تحت امرة هــذا الوالى ولاة مســاعدون فى كل من صــحم ، ولوى ، وشناص فضــلا عن غيره المسؤولين الذين يشرفون على المراكز العسكرية المتقدمة ، أو الواقعة عبر الممرات الاستراتيجية فى سلسلة جبال الحجر المؤدية إلى البــاطنة . وفى كثير من الأحيان لا تتعدى ســلطة الوالى حدود البلدة أو المنطقة التى يحكمهــا . أمــا فى المقاطعات الريفية فلنفوذ الوالى أهمية بالقيــاس إلى نفوذ شيوخ المنطقة القبليين . وقد يعترف الســلطان لإحدى القبــائل بسلطة فعلية على منطقتها أو قد ينعم على أحد حلفائها القبليين البارزين بتعيينه والياً على المدينة الرئيسية لاحدى المقاطعات (٤١) .

وتتراوح المهــام الادارية لحكومة الســلطان فى عمــان من عملية المحافظة على الأمن ، الى تأمين العدالة ، إلى توفير الأموال وصرفهــا على مختلف وجوههــا . أما السلطات الإدارية للســلطان فكانت مقصورة على

---

(٤١) لوريمر مجــلد ٢ ص ١٤١٨ — ١٤٢٥ .

مسقط ومطرح ، وبعض مدن الســاحل ، والمناطق البعيدة من السلطنة كسمايل ، وجواذر ، وبلوشستان وصلاله ، وظفار ، أما فى المناطق الريفية ، أو الخاضعة للسلطة القبلية ، فإن نفوذ الســلطان عليها لم يكن فى أحسن صورة نفوذا مباشراً وإنما عن طريق الشيوخ وأكابر القبيلة . أما دور السلطان نفســه فقد كان فى أغلب الاحوال دور إيجــاد توازن سلمى بين هذه المناطق بحيث يترك أمر الادارة الفعلية للمناطق لرؤسائها القبليين .

وبالنسبة للمدن والمقاطعات المدنية الخاضعة للســلطان ، فإن المحافظة على الامن من اختصــاص حرس الولاية ، بينمــا يتولى رجال السلطان البت فى القضــايا الجنائية والمدنية . والســلطان هو المرجــع الأعلى للاستئناف فى القضــايا المذكورة . بينمــا تحال قضايا القتل والجنايات الشخصية على السلطان للبت فيهــا إذا تيسر ذلك . والقتل هو الجريمة الوحيدة التى تصــدر فيها أحكام الاعدام ، ويتم تنفيذ هــذا الحكم وفقاً للطريقة التى يستخدمها القاتل ضــد القتيل . وقــد تصدر احكام الاعدام فى بعض الجرائم السياسية كالخيانة الوطنية ، غير ان الجرائم السياسية لا يحاسب عليهــا القانون . أمــا الجرائم الصغيرة ، فالولاة هم الذين يحكمون فيهــا ، عن طريق القضاة . غير أنه لا توجد هيئات محاكم ، وترفع الاحكام التى تصــدر فى مثل هذه القضايا إلى السلطان . ولا يوجد فى عمان قانون مكتوب إذا استثنينا القرآن ، هــذا بالرغم من وجود بحوث كثيرة فى القانون الاباضى ، يرجع اليهــا القضاة المتضلعون فى القوانين الدينية . ويتم الفصــل فى القضايا وفقاً للتفسيرات المحافظة او المعتدلة للشريعة وذلك بحسب اتجاهات القضاة الذين ينظرونهــا . وقد تخفف الاحكام فى حالة الأخذ بالتفسيرات المعتدلة للنصوص القرآنيــة . ومن

---

(٤٢) نفس المصــدر : وابن رزيق ص ٢٨٤ و " تقرير حول زنجبار " من وثائق ســجلات حــكومة بومبى (١٨٦١) ص ٦ — ٧ والتقرير الادارى ١٨٧٥/١٨٧٦ ص ٧٤ وخطاب رقم ٢٣٣ مؤرخ ١٨٨٤/٨/١٨ مايلز الى روس .

العادات المألوفة فى عمان استخدام الرشـــوة كوسيلة للتأثير على الأحكام الشرعية • ويشرف على تطبيق الاعراف فى المناطق القبلية رؤســاء القبائل بالتعاون مع اكابر رجال القبيلة • ولا يتدخل الســلطان الا نادراً فى هذه الاحكام • وعلى أى حال ففى القضــايا المعقدة ، أو النزاعات القبلية ، يحال الأمر إلى القاضى المختص • بينما يتوسط السلطان أو نائبه فى النزاعات الداخلية للمنــاطق القبلية • أمــا الجرائم الاخلاقية فعقوبتها الجلد ، بينما يفضــل الطرف المعتدى عليه التعويض المالى بدلا من الســجن • ولا توجد فى عمــان سجون حديثة ، بل يلقى بالمحكوم عليهم فى زنزانات داخل إحدى القلاع • وعلى المسجونين ان يقوموا بتوفير الطعام لأنفسهم ، وباستثناء المعتقلين السياسيين من ذوى الأهميــة ، فان حياة السجناء فى عمان بوجه عام ليست بالقســوة التى هى عليها فى بعض بلدان الشرق الاوســط • ويطلق سراح الســجين إذا كان من المواطنين إذا أمضى فى السجن أكثر من عام ولا يبقى فيه حتى يموت • وحتى ســنة ١٨٧٠ كانت المحاكم البريطانية هى المحاكم التى تنظر فى القضايا التجارية والمدنية ، لأن الجالية الهندية فى عمــان جالية لها نفوذها هناك وأفرادها يتمتعون بحكم وضعهم هــذا بامتيازات إقليمية تعفيهم من الترافع امام المحاكم المحليــة (٤٢) •

ولمــا كان نفوذ الســلطان على رؤساء الحكومة وقدرته على فرض أوامره يتوقفان على كمية الأموال التى تحت تصرفه ، فقد كانت ادارة المالية من أهم الادارات الحكومية • وكان الســلطان يستعين فى إدارة الشؤون المالية بجماعة الولاة ، وغيرهم من المسؤولين الحكوميين وعلى الأخص فئة التجار ورجال الأعمال • وكان مصــدر الدخل الرئيسى للدولة فى أواخر القرن التاسع عشر ، شأنه شأن الفترات التى سبقته من ضريبة العشر او الرسوم الجمركية التى تستوفى على الواردات • وعلى الرغم من أن نسبة الضريبة هى ١٠ بالمئة الا أنهــا فى الحقيقة لم تكن تزيد على ٥ بالمئة من سعر السلعة وهى الحد الأقصى المسموح به وفقاً للمعاهدات التجارية

المعقودة بين سلطات حكومة مسقط والدول الغربية فى منتصف القرن التاسع عشر . وعلى عهد السيد سعيد بن سلطان كانت إدارتا الجمارك فى مسقط ومطرح تحصلان على نسبة كبيرة من الدخل الحكومى : فقد بلغت حصيلة دخل الجمارك عام ١٨٤٠ — ٠٠٠ر٢٤٠ ريال نمسوى [٤٣] . وعلى أى ففى عام ١٨٧٦ لم يكن معدل دخل الجمارك يزيد على ٠٠٠ر١١٠ ريال نمسوى ، واستمر الدخل محتفظاً بهذا المعدل طوال ما بقى من فترة حكم السلطان تركى ، وذلك بالرغم من الهبوط المستمر فى قيمة الريال النمسوى [٤٤] . أما عملية إدارة الجمارك وجمع الضرائب الجمركية فقد كان يعهد بها إلى أحد التجار المقاولين على أساس التعاقد السنوى نظير دفعه مبلغاً معيناً من المال للخزينة . وكان يتولى هذا الامتياز بدون استثناء أحد كبار التجار الهنود . غير ان المسؤوليات والارباح المترتبة على هذا الاتفاق يشترك فيها فى الحقيقة عدد من البيوت التجارية الهندية الكبرى فى مسقط . وخلال معظم فترة القرن التاسع عشر كان محل رتنسى برشوم هو الذى يتولى الامتياز [٤٥] . وكان السلطان يحصل على إيرادات ضخمة من جمركى مسقط ومطرح . ولقد حاول السلطان إنشاء ادارة جمركية فى ميناء صور ، غير ان دخل هذا الميناء لم يزد على ٠٠٠ر٥٠ ريال فى السنة . كما ان السلطة السياسية للسلطان فى صور لم تكن قوية بحيث تمكنه من فرض ضرائب جديدة على أهل البلاد . بالإضافة إلى هذه الايرادات كان السلطان يحصل على إيراد صاف يتراوح بين ٠٠٠ر٢٠ إلى ٠٠٠ر٣٠ ريال نمسوى من دخل ميناء جوادر [٤٦]

---

(٤٣) من وثائق سجلات حكومة بومباى ٨٥٦ ص ٦٣١ .

(٤٤) التقرير الادارى ١٨٧٥/١٨٧٦ ص ٧٧ ..

(٤٥) « Precis Slave » ص ١٨ والتقرير الادارى ١٨٨٧ — ١٨٨٨ و ١٨٩٧ — ١٨٩٨ .

(٤٦) لوريمر جزء ٢ ص ١٤٢٢ — ١٤٢٥ وخطاب رقم ٢٥ مؤرخ ١٨٧٨/٧٣ من مايلز الى روس .

ومن الشروط التى يلتزم بهـا المتعهدون هى تقديم القروض للسلطان متى دعت الحاجة . وكان التجـار الهنود هم الذين يقـدمون القروض عادة سـواء للحكومة أو للافراد . وبالاضـافة إلى ذلك هناك الاقساط السنوية التى تدفعهـا حكومة زنجبار لمسقط . وقد اضطرت حكومة مسقط فى سنة ١٨٨٤ إلى أخذ قرض من حكومة زنجبار قدره ٣٢٫٠٠٠ روبيـة لتغطية العجز فى ميزانيتها وبسبب المتاعب المـالية التى كان يعانى منها السلطان تركى حتى أصبحت القروض ركنـا هاماً من أركان مالية الحكم وأحد المميزات للنظام المالى للسـلطان تركى [٤٧] .

وإلى جانب هـذه المصادر توجد ضريبة الزكاة كأحد المصادر الغنية للدخل ، وهى نوع من الضريبة تستوفى على المحصولات الزراعية فى عمان . وبمـا أن حكومة السلطان لم تكن تستوفى ضريبة الزكاة من أغلب المناطق القبلية ، فقد فرض السلطان ضريبة صادرات تستوفى من المنتجات الزراعية للمناطق القبلية والداخلية التى تصـدر إلى الخارج عن طريق ميناءى مسقط ومطرح . ولقد بذل السـلطان تركى محاولات مستمرة لرفع نصيبه من هذه الرسـوم ، حتى أنه قرر فى سنة ١٨٨١ رفع معدل ضريبة الزكاة من ٢ بالمئة إلى ٥ بالمئة ، الأمر الذى أثار تذمراً واسعاً فى صفوف القبائل . ومن الواضح ان هـذه الضريبة كانت . تستوفى بطريقة عشوائية . إذ أن مجموع ضرائب الزكاة عن سـنة ١٩٠٠ العينية وغير العينية ، لم تزد على نحو ٦٢٫٠٠٠ ريال ، لم يدخل خزينة الدولة منهـا أكثر من الربع [٤٨] .

وأخيراً هناك ضريبة بيت المال . ويعتبر بيت المال فى الدول الاسلامية التقليدية عادة الخزينة المركزية للدولة ، أو مجمـوع دخل الدولة على اختلاف مصادره . أما فى عمان فكانت ضريبة بيت المـال تعنى حصـيلة

---

(٤٧) خطاب مؤرخ ٢٥ يونيو سـنة ١٨٧٧ من تركى بن سـعيد الى روبرتسن .

(٤٨) لوريمر مجـلد ١ ص ٥٢٣ — ٥٢٤ ومجلد ٢ ص ١٤٢٠ — ١٤٢٢ .

إيجـار الأراضى والمبانى والمؤسسات الحكومية • ولم يزد إيراد حكومة تركى من هذه الضرائب على ١٫٢٥٠ ريالا فى العام فى الأحوال العادية (٤٩) • فضلا عن ذلك كانت حكومة تركى تحصـل على بعض الأموال من الغرامات وغيرها من الرسوم التى فرضتهـا الحكومة فى محاولاتها للتخفيف من حدة العجز المالى • وفى سـنة ١٨٧٢ صدر أمر بتحصيل رسم ريالين من ربابنة السـفن أثناء دخولها ومغادرتها ميناء مسقط • كمـا بدأ فى سنة ١٨٧٧ تحصيل رسوم ميناء ، كمـا فرض أيضـاً رسم على عمليات وزن الشحنات التى ترسل إلى خارج البلاد • كما أخذت الحكومة تستوفى رسما تأديبيا من القبائل المناوئة عن صادراتها ووارداتها (٥٠) •

وعلى أى حال فقد كان أهم مصـدر لإيراد حكومة السـلطان هو « مساعدة زنجبار » والتعويض المالى الذى تدفعه بالاشتراك مع حكومتا لندن وكلكتا بعد سنة ١٨٧٣ • وبعد سنة ١٨٨٣ أصبحت حكومة الهند — الانجليزية هى المسـؤولة عن دفع هذا التعويض • وبما أن دفع هـذه المخصصات يتم بالعملة الهندية — وهى الروبية • فقد كانت حكومة السلطان هى المستفيدة من ذلك إذ على الرغم من هبوط سعر الروبية بعد سنة ١٨٧٣ • فهو لم يكن ينخفض انخفاضا مفاجئاً كانخفاض سعر الريال النمسوى • وفى سنة ١٨٧٣ كانت القيمة الرسمية لمخصصات زنجبار تعادل ٨٦٫٠٠٠ روبية أو ٤٫٠٠٠ ريال • وكان يقيد لحسـاب السلطان كل عام • وبما ان المبلغ كان يدفع للحكومة بالعملة الهندية وهو يعـادل ٨٫٥٠٠ جنيه استرلينى ، فإن قيمته الفعلية فى سنة ١٨٧٥ لم تكن تزيد عـلى ٧٫٩٠٠ ج • س • وقد انخفضت القيمة الفعلية لهذه المخصصات فى سنة ١٩٠٠ إلى ٥٫٦٦٠ ج• س بسبب انخفـاض سعر التبادل للعملة التى تدفع بهـا ، وكان من

---

(٤٩) نفس المصـدر مجلد ٢ ص ١٤٢٣ — ١٤٢٤ •
(٥٠) نفس المصـدر ص ١٥٢٣ — ١٥٢٤ •

المحتمل ان تزيد نسبة الانخفاض فى قيمة المخصصات الحقيقية ، لو كان الدفع قد تم بالريال النمسوى.

كان للانخفاض المستمر فى قيمة الريال النمسوى فى الفترة الواقعة بين ١٨٧٥ وسنة ١٩٠٠ أهميتــه السياسية البالغة فى عمــان . فقد واجه السلطان فيصــل بن السلطان تركى مشاكل كثيرة من جراء ذلك الانخفاض ترتب عليه معالجتها . كمــا كانت الظروف تدفع الســلطان تركى نفسه من وقت إلى آخر ، وعلى الأخص فى الفترة الأخيرة من حكمه إلى الاعتماد على القروض لمواجهة نفقات الحكم . ومن المحتمل ان يكون مجمل الدخل الســنوى عن سنة ١٩٠٠ بما فيه ايرادات الأملاك الخاصة نحو ٣٠٠٫٠٠٠ ريال ، أو مــا يعادل ٢٤٫٠٠٠ ج . س .[٥١] وهى أعلى نسبة وصــل اليها الدخل وبما ان سعر الريال النمسوى كان يزيد بمعدل الضعف بالنسبة لسعر التحويل للجنيه الاسترلينى عن سعر سنة ١٩٠٠ ، فان دخل حكومة مسقط فى أواخر السبعينات من القرن التاسع عشر كان يقدر بحــوالى ٤٥٫٠٠٠ ج . س . سنوياً بالنسبة إلى قوة الشراء الدولية ، ومن ناحية أخرى تؤكد هــذه الارقام اهمية مخصصات زنجبار التى كانت تدفــع لحكومة مســقط . ففى اوائل الثمانينات كانت نســبة هذه المخصصات تمثل سدس دخل البلاد الحقيقى ، إلا أن هــذه النســبة عادت فارتفعت إلى الخمس فى سنة ١٩٠٠ . ومن الواضــح ان حاجة السلطنة إلى وجود علاقات وثيقة لهــا مع الانجليز كان موقفاً يمليه عليهــا وضعها المالى ، والذى بدونه لم تكن تستطيع أن تحقق أى نوع من الاستقرار المالى .

ومن الطبيعى ان تكون الامكــانات المالية عاملا أساسياً من عوامل النفوذ السياسى فى مجملة . وبالتالى فان انخفاض قيمة العملــة اوائل الستينات قد أســهم الى حد كبير فى تعقيد الأمور ، لأنه كان يحد من قدرة

---

(٥١) نفس المصــدر مجلد ٢ ص ١٤٢٠ — ٤٢٢ تقرير أوتاق التجارى لسنة ١٩٠١ من سجلات الحــكومة الفرنسية .

السلطان على تلبية بعض المطالب . وكان الدخل السنوى للسلطنة يوزع على بنود كثيرة : النفقات الحكومية ، وتشمل المصروفات العسكرية . والمرتبات ، والرشاوى ، ومعاشات التقاعد ، ومخصصات القبائل ، كما وعلى النفقات الخاصة ، كديوان الحاكم ومصروفات العائلة المالكة الخاصة وكان صرف الأموال يتم وفقاً لأوامر السلطان ، ويبدو أنه لم يكن هناك حد فاصل بين النفقات الخاصة والنفقات الرسمية . وكانت المصروفات فى أغلب الأحوال تزيد على الايرادات ، وكان يتم تغطية العجز عن طريق القروض ، وتأجيل تسديد الديون الحكومية (٥٢) .

كان البند الرئيسى فى نفقات الحكومة هو البند الخاص بالمصروفات العسكرية وشؤون الأمن ، وعلى الأخص المناطق القبلية الكثيرة ومشكلة اقرار السلام والوئام فيما بينها . ويعتبر السلطان القائد العام للقوات المسلحة ، هو كثيرا ما يضطر الى الاشراف شخصيا على المعارك الحربية وقيادتها . ويساعد السلطان فى المحافظة على النظام اغلبية كبار مساعديه وولايته . ورجال الحاشية الإداريين ، إذ ليس هناك فارق بين التنظيمات المدنية والعسكرية فى الدولة (٥٣) .

ويزيد عدد أفراد الجيش النظامى على ألف رجل موزعين فى هيئة فصائل تقوم بحراسة الحاميات الموزعة على البلاد توزيعا استراتيجيا . وعلى الرغم من بهاظة تكاليف الاحتفاظ بهذه الحاميات ، إلا انها تعتبر هامة لكونها تتحكم ببعض المقاطعات والطرق التى تربط بين أنحاء البلاد على اختلافها . كما أنها تمثل رمزاً لسلطان الحاكم وبالتالى انعكاسا

---

(٥٢) لوريمر مجلد ٢ ص ١٤٢٢ — ١٤٢٤ .

(٥٣) المعلومات الخاصة بالجيش والبوليس لحكومة مسقط خلال اواخر القرن التاسع عشر مبعثرة ضمن مصادر كثيرة . راجع على الاخص نفس المصدر ص ١٤١٨ — ١٤٢٥ و « تقرير اوتاق التجارى » ١٩٠١ من سجلات الحكومة الفرنسية مجلد ٢ ورسالة رقم ٥٧/٥بتاريخ ١٨٧٥/١/١٥ .

لمركزه فى البلاد . وحتى لو تمكنت أى قوة معادية ان تتفادى هذه الحاميات فسوف يكون من الخطر عليها وجود حاميات مثلها خلف خطوطها . فضلا عن ذلك فان هناك شبكة من المخابرات الفعالة تؤدى دورها خارج هذه المعاقل . ويشغل بعض هذه المعاقل المهامة عساكر السلطان ، بينما تتولى القبائل الحليفة للسلطان حراسة المعاقل الاخرى مقابل مخصصات تتقاضاها عن هذه الأعمال . وتعتبر حاميتا مسـقط ومطرح أكبر هذه الحـاميات ويشغلها ما يقرب من ٣٠٠ جندى أما المراكز فلا يزيد عدد الحراس فيها على ٣٠ شخصـاً .

والسواد الأعظم من قوات مسقط النظامية هم من العسـاكر الذين ليست لهم ارتباطات قبلية فى عمان . وفى عهد السلطان تركى كان نحو ٤٠٠ من هؤلاء العسـاكر من الوهابيين سكان الحسا ونجد ، ونحو ٢٥٠ شخصا من حضرموت فى الجنوب العربى ، ونحو ١٠٠ من طائفة البلوش سكان مقاطعة مكران على خليج عمان ، بالاضافة الى عدد من الافريقيين . أماالعمانيون فلم يكن عددهم يزيد على ٢٥٠ رجلا . ويتقاضى الجنـدى مرتبا شهريا يتراوح بين ٣ و ٥ ريالات نمسوية . وتتكون الوحدات الكبيرة من هؤلاء الحرس من نحو ٢٠ جنديا يترأسهم عقيد أو رقيب (جاويش) كما يترأس الحامية ضابط برتبة جمادار يتقاضى من ٢٠ الى ٣٠ ريالا فى الشهر . وتكاد رتبته تعادل رتبة الكابتن (يوزباشى) . وكان السلطان تركى يتولى بنفسه قيادة العمليات العسكرية خلال المعارك التى كانت تنشب فى عهده ، أو يعهد بذلك الى أحد انجاله أو الى أحد القواد أمثال بدر بن سيف . وفى جميع الحالات فـان جند السلطان جنـود مرتزقة لا يحاربون من أجل قضية ، كما أن تدريبهم العسكرى فى أحسن الظروف تدريب محـدود .

ون ناحية أخرى فان جنود السلطان ينقصهم التسليح . وفى عهـد السلطان ثوينى كان قسم من الجنود يرتدى بدلة شـبه أوربية بجاكيت أحمر على غرار بدلة الجندى فى الهند ، غير أن مثل هذه البدلات لم تكن

تستعمل فى عهد السلطان تركى • وكان هؤلاء الجنود مسـلحين ببنادق حديثة الأمر الذى يجعلهم متفوقين على القبائل المعادية التى لم تكن تملك مثل هذا السلاح • غير أن هذا التفوق لم يستمر عندما أصبحت مسقط فى التسعينات مركزا لاستيراد البنادق الاوربية الصنع التى كان يعـاد تصديرها الى مناطق كثيرة فى جنوب آسيا ، الامر الذى مكن القبـائل العمانية من التسليح بالأسلحة الحديثة • وكان لدى السلطان تركى بعض المدافع القديمة يعود تاريخها الى أيام البرتغاليين • وكان يشرف عـلى سلاح المدفعية طاقم من المدفعيين الايرانيين ، وبالرغم من أن معظم هذه المدافع كان فى الحاميات الجبلية ، فان عدد مدافع الميدان لم يكن يزيد على اثنين • وربما كان هذان المدفعان هما اللذين أهـداهما البريطانيون للسلطان ثوينى فى سنة ١٨٦٤ • كما كان فى جيش السلطان وحدة تموين لتزويد القوات بالذخيرة والطعام ، وهى تستعمل الجمال فى اعمـالها • وعلى العكس من القوات القبلية ، لم يكن يسـمح لأفراد قوات السلطان بالاقامة أو التواجد خارج منطقة العمل بقدر الامكان وبالأخص خلال العمليـات •

كان الأسطول العمانى فى عهد السيد سعيد كبيرا جدا ، الا أنه بسبب تقسيم الامبراطورية العمانية سنة ١٨٥٦ ، فقد أخذ هذا الأسطول يتناقص بسرعة • ولم يبذل السلطان تركى أى مجهود لإحياء الأسطول العمانى واعادة مجده اليه • وفى سنة ١٨٧٢ كان لدى السلطان سفينتان حربيتان شراعيتان قديمتان ، من بقايا أرمادا السيد سعيد ، وهما مُلتان والرحمانى ، غير أنه استغنى عنهما فى سنة ١٨٧٥ • وفى أواخر السبعينات أراد السلطان شراء سفن تجارية من الانجليز ، غير أن طلبه هذا قد رفض • وأخيرا فى أوائل الثمانينات من القرن التاسع عشر أهدى سـلطان زنجبار وشقيق تركى بن سعيد لحكومة مسقط يخته الملكى ، دار السلام • وباضافة هذا اليخت الى السفينة « السلطانى » التى تنازلت عنها حكومة زنجبار سنة

١٨٨٦ لمسقط ، تعززت امكانات الأسطول العمانى فيمـا يختص بعملياته الساحلية (٥٤) •

أن الحـروب الأهلية التى خاضتها عمان كانت سببا من أسـباب تدميرها • فخلال الحرب بين الهناويه والغافريه فى سنة ١٨٧٥ دمر من مزارع النخيل ما يربو ثمنه على ٥٠،٠٠٠ ريال ، وهى خسارة لم تتمكن عمـان من تعويضها (٥٥) • واثناء الحرب التى خاضها « ولى العهد » فيصل بن تركى فى منطقة وادى سمايل سنة ١٨٨٣ دمر قسـم كبير من الممتلكات الأهليه ومزارع نخيل باكملها • كما فرضت على القبائل المتمردة غرامة قدرها ٢٠،٠٠٠ ريال (٥٦) كما كلفت الغارات على المدن والأحياء الآهلة البلاد ثمنا باهظاً (٥٦) • وفى كثير من المناسبات ، حاول زعماء عمان وقادتها الروحيون التوسط فى المنازعات التى تنفجر وتهدد البلاد والعباد ، وذلك حقنا للدماء • ويعتبر فصـل الحصاد أفضل الفصول لشن الغـارات والحروب الأهلية فى عمان (٥٨) •

ويتضح من سجلات الحكومة أن امكانيات السلطان الحربية لم تكن تسمح له باخضاع البلاد كلها لنفوذه • فقد كان هذا النفوذ من الناحية العملية يرتبط بمدى قدرته على كسب تاييد عدد ملحوظ من قبائل البـلاد الرئيسية وعلى الأخص التى تقيم فى المناطق الاستراتيجية من البلاد ، كوادى سمايل ، كما ساعد على ذلك استعداده وبراعته فى تسوية الخلافات

---

(٥٤) لوريمر مجـلد ١ ص ٥١١ ــ ٥٢٠ وخطـاب رقـم ١٥٥ مؤرخ ١٨٧٢/٣/٢٣ •

(٥٥) خطـاب رقـم ٢١٩/٢١٨ بتاريخ ١٨٧٥/٢/٢٠ مـن روس الى سالسبورى •

(٥٦) خطاب مؤرخ ١٨٨٣/١١/١٢ من فيصل بن تركى الى تركى بن سعيد وقد ورد كمرفق لخطاب رقم ٣١٣ مؤرخ ١٨٨٣/١١/٢٦ من جاياكار الى روس •

(٥٧) خطاب رقم ٥١ بتاريخ ١٨٨٧/١٢/١٣ من روس الى هارتنجتون •

(٥٨) التقرير الادارى سنة ١٩٠٠/١٩٠١ ص ١٤ •

بين سكان المناطق القبلية • وبما أن الهدف الأساسى لكل حاكم هــو اقرار الأمن والمحافظه على النظام • فنقد اكتشف تركى بن سعيد بان هذه المهام بالنسبة اليه تعنى طبيعة العلاقة بينه وبين هذه القبائل • ونحن اذا القينا نظرة الى هذا النوع من العلاقة بين الحاكم والمحكومين ، يتضح لنا أنه لا يمكن لمثل هذا الحاكم الاحتفاظ بالحكم ، الا بإعتماده على حلفائه من القبائل • أما القبائل نفسها فقد كانت تحرص على استقلالها الذاتى أشد الحرص ، وكانت تعارض وترفض أية محاولة من جانب السلاطين أو الائمة لفرض نفوذ مباشر عليها • وبالتالى فان كسب رضا هذه القبائل وإقناعها بتأييد الحاكم والوقوف الى جانبه عند ظهور أى خطر ، والاعتراف به كسيد أعلى وقبول قراراته واحكامه فى النزاعات الداخلية والصدامات الأهلية يعتبر أفضل تكتيك لاستقرار الحاكم ونجاح سياســته • وعلى ضوء هذه الاعتبارات فإن سلطة الحاكم العمانى فى المناطق القبلية من البلاد لا يتعدى سلطة الحكم ، وممارسة النفوذ ، وفض النزاعات الداخلية من رجال القبائل • أما إدارة المناطق فهى من اختصاص زعماء القبائل أنفسهم • ولا مجال للاعتقاد أن العمانيين كانوا يتوقعون من حكــامهم سلاطين كــانوا أم أئمــة أن يحكموهم على أســاس المفاهيم الغربية الحديثــــة (٥٩) •

كما ليس فى وسع السلطان أن يفرض ما يشاء على التكتلات القبلية لأنه لا يملك القوة العسكرية الكافية ، ويعتبر ناجحا اذا استطاع تحقيق هدفه بالوسائل السلمية • غير أنه فى جعبة السلاطين أســلحة متعددة أشد فتكا من القنبلة والمدفع • فلكى يحافظ السلطان على مركــزه بين القبائل ، ويحتفظ بولائها له ، فقد كان يضع نفسه تحت تصرفها لحل أى نزاع ينشب بينها ، وينفق بسخاء فى هذا المجال ، كما كان يعفى القبائل

---

(٥٩) انظر « رمال العرب » ، تأليف تيسيجر ص ٣٢ وفيه تحليــل عن العلاقة بين حاكم عربى ورعاياه من رجال القبائل •

أحيانا من الضرائب فى سبيل دعم تحالفه معها ، أو لتسوية بعض الخلافات ، ولا يلجأ السلطان الى الضرائب التأديبيه والقيود التجارية الا كحل أخير ، وحتى تدرك هذه القبائل فائدة الاتحاد بالمقارنة الى الصراع . وعندما يقرر السلطان اللجوء الى القوة بعد فشل المحاولات السلميه ، فقد كان يحرص على أن يكون قراره مدعوما من القبائل الموالية له . غير أن السلطان لم يكن يلجا الى القوة العسكرية الا نادرا . وتعتبر مالية السلطان فى عرف العمانيين دعامة نفوذه السياسى ، ولئن كان فى وسع زعماء عمان القبليين أن يكونوا من أنفسهم قوة عسكرية لا تقل عن قوة السلطان ، واذا كان بينهم من هو أبرع فى الأمور السياسية فإنه لم يكن يوجد بينهم من يعادله فى الامكانات المالية . فقد لا تنجح الوسائل والأسلحة دائما فى تحقيق الأهداف ، بينما فى مقدور المال أن يحل المشاكل ولو حلا مؤقتا فبالمال يمكن كسب ود معظم القبائل وتأييدها سواء كان تأييدا حقيقيا أو أسميا فقط . والواقع أن عددا كبيرا من زعماء القبائل كان يتلقى من وقت الى آخر مخصصات مالية من السلطان تسلم اليهم عن طريق عامل السلطان مكافأة لهم على تأييدهم وولائهم للحاكم .

ولا تعتبر سياسة الحاكم سياسة ناجحة الا اذا استطاع الاحتفاظ بمركزه بين القبائل وهذا لا يتحقق للحاكم الا اذا كان يتمتع بأخلاق وسجايا شخصية ممتازة . فشخصية الحاكم عامل هام فى بلد تقوم العلاقة فيه بين الحكومة وعدد من زعماء القبائل شبه المستقلين على أسس شخصية . كما أن الحاميات الرمزية فى بعض القلاع ، والمخصصات والمنح الرمزية التى ينعم بها السلطان على بعض الشخصيات ، الى جانب الاجراءات الرمزية لحل الخلافات القبلية ، انما هى كلها تعبير عن القوة ، أكثر مما هى اعلان أو مظهر لسلطة الحاكم [٦٠] .

---

(٦٠) رسالة رقم ٢٢٥ مؤرخة فى ١٨٨٤/٩/١٥ ورسالة رقم ١٣٩ مؤرخة فى ١٨٨٥/٥/١٠ .

وحتى لو اعتبرنا السياسة فى عمان ، على ضوء هذه الآراء ضربا من الألعاب التى يجيدها الحكام ، فانه لابد من الاشارة الى بعض الخطوات القوية التى كان يقوم بها السلطان تركى لتنفيذ سياسته العامة . لقـد كانت سياسة السلطان فى بعض مناطق البلاد الهامة تعبيرا عن نفوذه وإلا انهار حكمه . ولعل منطقة وادى سمايل أهم مقاطعة عمانية تقـع خارج عاصمة السلطان ، لأن هذا الوادى والممرات المتفرعة منه تشكل الطريق الرئيسى الذى يربط منطقة مسقط بمقاطعات عمان الداخلية . ومن هنا كانت الضرورة تحتم أن يركز السلطان جهوده السياسية الرئيسية لاقرار السلام بين مختلف القبائل فى هذه المنطقة ، والمحافظة على ولائها لاحباط أى هجوم تشنه القبائل الاخرى ضد الحكم عبر وادى سمايل (٦١) . لهذا درج السلطان على تخصيص منح لعدد من قبائل الغافرية ، سـكان هذه المنطقة ، والاحتفاظ بحامية فى سمايل تحت قيادة أحد الولاة الأكفاء كما كان يدير شبكة واسعة من شبكات التجسس ونقاط المراقبة للتحذير من أى هجوم محتمل . أما حين تخفق كل هذه الاحتياطات فلا شىء يمكن أن يسد الطريق على القبائل الداخلية فى اى عملية انقضاض قد تقـوم بها على الساحل للغزو والنهب (٦٢) .

غير أن السلطان تركى كان أكثر دبلوماسية وحكمة فى معالجة المشكلة القبلية عبر مراحل حكمه . أما فى بداية حكمه فقد أهدر تركى أموالا طائلة على زعماء القبائل دون تحقيق مكاسب سياسية (٦٣) . وما أن حل عـام

---

(٦١) تقرير ادارى سنة ١٨٨٣ — ١٨٨٤ ورسـالة رقم ١١٤٠ — ١١٨ مؤرخة ١٨٧٣/٩/٤ من روس الى دوق أرجيل ورسالة اخرى رقم ١٨٢ بتاريخ ١٨٨٣/٧/٢٢ من موكلر الى روس ورسالة رقم ٢٧٩ بتاريخ ١٨٨٣/١٠/٥ من مايلز الى روس وفى الرسالتين الأخيرتين اشـارة الى الفشل السياسى الذى منى به السلطان فى منطقة وادى سمايل ، وكان توطئة للهجوم على العاصمة .

(٦٢) رسالة رقم ٣٦ مؤرخة ١٨٨٦/٢/١٦ من حكومة الهند الى كمبرلى .

(٦٣) لوريمر ص ١٤٩٩ مـن مايلز الى روس ١٦ اكتوبر ١٨٧٤ رقـم ٤٤٩—١٨١ مسقط سجلات الهند ٢ مجلد ٢٥ .

١٨٧٥ حتى كان تركى قد أفاد كثيرا من الدروس ووضحت أمامه صورة الخط السياسى الذى ينبغى أن يسير عليه فيما بقى له من أيام فى الحكم . أما بالنسبة للقبائل الداخلية فقد اكتفى تركى بالولاء الاسمى منها نظير بعض المكافآت . كما عقد مع بعض هذه المجموعات أحلافا بالفعل ، من هذه المجموعات العبريين سكان الظاهرة والجنبه وبنى بو على فى جعلان وبنى جابر ، والندابيين ، والرحبيين ، وبنى رواحه والسياسيين ، سكان وادى سمايل . وكانت حامية المصنعة فى الباطنة تستخدم حرسا من بنى رواحه . وعلى العكس من ذلك أنفق السلطان بعض الأموال كمساعدات قدمها لبعض السياسيين المحليين المناوئين لخصومه ، خصوصا العناصر المعادية لصالح بن على (٦٤) . وعلى العموم كان تركى ، باستثناء الفترة التى كان عبد العزيز يتولى فيها الوزارة والوصاية على الحكم ، أكثر ميلا الى الغافرية منه الى الهناوية وكان عدد كبير من هؤلاء محافظين فى تفكيرهم السياسى ولم يحاول تركى مصاهرة أى قبيلة من القبائل الموالية الهامة ، لأن البوسعيد يفضلون الزواج من قبيلتهم نفسها . وقد كان هذا التقليد عاملا هاما فى توثيق الروابط بين أفراد الأسرة على اختلافها . وعلى سبيل المثال فقد تزوج تركى من كريمة ابن عمه حمد بن سالم واليه فى المصنعة ومن الشخصيات التى تتمتع بتأييد سكان هذه المنطقة ، وذلك لتدعيم مركزه بين قبائلها وسكانها .

لقـــد سبق أن أكدنا على استغلال السلطان تركى لموارده المالية من أجل الحفاظ على مركزه الســـياسى فى البلاد فقد كـــان كل من زعيمى الندابيين والرحبيين يتلقى مخصصات شهرية من السلطان تبلغ نحـــو ٣٠ ريالا فى الشهر ، فضلا عن الهدايا التى كانا يحصلان عليها منه وذلك

---

(٦٤) من روس الى سالسبورى ١٩ اغسطس ١٨٧٤ ـ رقم ٩٤٤ ـ ٩٢ سجلات الهند ٢ مجلد ١٧ ومن مايلز الى روس ١٦ يناير رقـــم ٢٦ مســـقط وسجلات الهنـــد ٣ مجـــلد ٤ .

مقابل قيامهما بحراسة ممرين صغيرين يربطان مقاطعة الشرقية التى يقيم فيها صالح بن على ، بمنطقة وادى سمايل [٦٦] • وفى عام ١٨٨١ نجح تركى فى إحباط محاولة لاثارة الاضطرابات فى المنطقة نفسها مقابل رشوة مالية مقدارها خمسمائة ريال لوجهاء المنطقة [٦٧] • كما قدم السلطان رشوة إلى بعض معارضيه ونجح فى كسب تأييدهم ووقف نشاطهم المعادى ضده • وبعد سنة ١٨٨٣ وافق السلطان على دفع خمسين ريالا كل شهر الى صالح بن على ، ومايتى ريال لعبد العزيز كمخصصات شهرية بشرط محافظة هذين الزعيمين على العلاقات السلمية مع السلطان • كما لعب المال دوراً كبيراً فى وقف نشاط الزعيم ابراهيم بن قيس فى الرستاق بعد عام ١٨٧٥ [٦٨] • وعلى أى حال فقد حاول كثير من العمانيين استغلال هذا الكرم حيث أخذ بعض شيوخ القبائل يطلقون بعض الاشاعات المعادية للحكم طمعا فى الحصول على بعض المال والهدايا من السلطان [٦٩] • وفى معظم الخطابات التى كان يبعث بها زعماء القبائل فى عمان لم يكونوا يغفلون فيها طلب المال • فان أعرض السلطان عن إجابة تلك الطلبات فإن ذلك قد يعطى انطباعا غير محمود عنه وقد يسىء الى مركزه وهيبته الشخصية ، لأن هؤلاء الشيوخ لم يكونوا يتصورون أن المال يمكن أن ينضب فى خزينة السلطان • ولعل العبارة التى خاطب بها أحد هؤلاء الشيوخ السلطان تؤكد هذه الحقيقة فقد قال له « إن الفلوس ليست شيئا عندكم » [٧٠] •

---

(٦٦) خطاب رقم ١٢٦ مؤرخ ١٨٨٣/٥/٢٩ من موكلر الى روس •

(٦٧) تقرير ادارى سنة ١٨٨١ — ١٨٨٢ ص ١٣ — ١٥ •

(٦٨) نفس المصدر ص ١٢٧ سنة ٧٨/١٨٧٧ وص ١٣ — ١٥ سنة ٨٣/١٨٨٢ •

(٦٩) نفس المصدر ص ١٢٧ سنة ٧٨/١٨٧٧ •

(٧٠) خطاب مؤرخ ٩ اكتوبر سنة ١٨٨٣ من الشيخ محمد بن ناصر الرواحى الى تركى بن سعيد •

وكان السلطان تركى يحاول تطويل أجل المحاولات التى يقوم بها لتسوية الخلافات التى تنشب بين القبائل الى أبعد حد ممكن ، لأنه كان يدرك أن تسوية الخلافات أقل تكاليف من إرسال الحملات العسكرية للمحافظة على السلام وعلى سلطة الحكم . وعلى الرغم من أن مسؤولية حفظ الأمن بين القبائل كانت تقع على عاتق ولاة المقاطعات أنفسهم ، غير أن هؤلاء لا يملكون شيئا من القوة العسكرية أو المال للقيام بمثل هذه الأعمال . وكانت الخلافات القبلية تعرض على السلطان الذى وضع أصولا وقواعد خاصة لحسم هذه الخلافات . فقد كان يوفد أحد المبعوثين الى الأطراف المتنازعة ، مزودا بالصلاحيات اللازمة لتسوية الخلاف ، وفى حالة إخفاق المبعوث فى مهمته فانه يحاول عقد هدنة بين الاطراف المتنازعة ريثما يتم الوصول الى تسوية عامة . وقد يستغل السلطان فترة الهدنة هذه للقيام بدراسة للوضع ، أو لايفاد لجنة استقصاء ، يتبعها دعوة الى أطراف النزاع بالاجتماع به فى العاصمة أو فى أى مكان آخر يتم الاتفاق عليه ، وهو غالبا ما يكون منطقة النزاع نفسها ، وعن طريق ما يجتمع لدى السلطان من حقائق ومعلومات ، تتم تسوية النزاع بعقد صلح بين الأطراف المتنازعة . أما فيما يتعلق بالنواحى الشرعية للخلاف فيستفتى فى ذلك علماء الشريعة وتؤخذ آراؤهم . أما اذا لم تنجح كل هذه الوسائل فان السلطان ينفض يده من النزاع ويترك القبائل وشأنها تقاتل بعضها البعض . غير أن السلطان لا يلبث فى هذه الحالة أن يعيد المحاولة بعد مضى فترة من الوقت . أما إذا كان السلطان وحده طرفاً فى النزاع ، فانه يطلب إلى الانجليز التوسط فى الموضوع [٧١] .

وكان السلطان يعمد إلى فرض الضرائب والغرامات التأديبية على القبائل المتمردة عليه كضغط عليها لقبول التسوية ، أو لإثبات سيادته

---

(٧١) خطاب رقم ٣٥٠ — ٣٣٥ مؤرخ ١٨٧٥/٣/٢٠ من روس الى سالسبورى .

الاسـمية عليها • ففى سنة ١٨٧٤ حكم السـلطان على آل سعد بدفع غرامة ٠٠٠ر١٥ ريال لاشـتراكهم فى حركة تمرد ضـده كما فرض على الهناوية الذين غزوا مسقط فى سـنة ١٨٧٧ ضريبة تأديبية وقيوداً تجارية كجزء من الاجراءات التى وضعها تركى لمعالجة هذه المشكلات [٧٢] •

وعن طريق مثل هـذه الأجراءات نجح السلطان تركى فى توطيـد سيطرته على أغلبية المدن والمعاقل الكبرى فى عمان • ومن المتفق عليه ان سـلطة تركى على المناطق الداخلية من البلاد لم تكن فعالة ، وأنهـا كانت تعتمد على تعاون زعماء القبائل مع نظام حكمه •

ومن الأجراءات التى كان يستعين بهـا تركى لتوطيد نفوذه فى عمان ، هى تركيز الجهود لتدعيم وتوسيع نطاق حكمه فى الممتلكات العمانية فيما وراء البحار كجواذر وظفار • وقـد ضمت جواذر الواقعة على سـاحل بلوشستان إلى ممتلكاته منذ سنة ١٧٩٤ ، وبقيت تحت نفوذه حتى استردتها باكستان فى سنة ١٩٥٨ مقابل تعويض • وكانت متاعب السلطان فى جواذر تتلخص فى خوفه من مهاجمة القبائل المحلية لها ، غير أن هذا لم يعد يحدث بعد أن ضمت بريطانيا أغلبية منطقة بلوشستان إلى نفوذهافىسنة ١٨٨٦ [٧٣] • أما مقاطعة ظفار فقد ضمها السلطان تركى فى سة ١٨٧٩ عن طريق مبعوثه الخاص سليمان ابن سويلم الذى أوفده إلى صلالة وكان السيد سعيد قد احتل هذه المقاطعة لفترة مؤقته فى سنة ١٨٢٩ • وقد اتخذت حكومة مسقط هذا الاحتلال ذريعة لاسترجاع سـلطانها على المقاطعة ، وعلى أى حال فقد كان كل من دواة القعيطى فى الجنوب العربى والعمانيون تراودهم

---

(٧٢) رسـالة رقم ٢٨٤ مورخـة ١٨٧٧/٧/١٨ من روس روبرتسـون الى بريدو •

(٧٣) لوريمر مجـلد ١ ص ٦٠٢ — ٦٢٢ ظلت جواذر تابعة لسلطنة مسقط وعمان حتى سنة ١٩٥٨. عندما اشترت منها باكسـتان الاقليم بمبلغ ٣ ملايين جنيه استرلينى •

الأطماع فى هــذه المقاطعة . وفى سنة ١٨٨٣ وسنة ١٨٨٥ نشبت فيهـا اضطرابات بتحريض من العمانيين ، مما اضطر البريطانيين إلى التدخل للحيلولة دون احتلال العمانيين لهـا . وفى سنة ١٨٨٧ استكمل البوسعيد ضم الأقليم لحكمهم ، غير أن الثورات ضدهم ظلت تنفجر من وقت إلى آخر إلى أن استتب الأمر للسلطان فى مطلع هــذا القرن . غير أن المغامرة العسكرية فى ظفار استنزفت موارد السلطان . وعلى أساس من ذلك كانت هذه المقاطعة مصدر قوة لسلاطين البوسعيد أكثر منها مصدر ضعف . وقد تم فصل المقــاطعة من الناحية الإدارية عن عمان (٧٤) .

أمــا على الصعيد الخارجى فقد كان هدف السلطان تركى الاحتفاظ بعلاقاته الخاصة مع بريطانيا ، أو بالأحرى تدعيمها بقدر الأمكان . ولقد حقق نجاحاً مطرداً فى هذا المضمار كما فى النواحى الأخرى بمرور الوقت . وكان المسؤولون البريطانيون فى الهند ممن كانت لهم خبرة بشؤون الخليج يكنون احتراماً كبيراً للســلطان تركى . ورغم أن البريطانيين قد اعترفوا رسمياً بتركى فى شــهر أغسطس سنة ١٨٧١ ، الا انه لم يبدأ فى قبض مخصصات زنجبار قبل ســنة ١٨٧٣ ، وهى المخصصات التى أصبحت منذ ذلك الوقت تشكل جزءاً هاماً من موارده المــالية . وكانت المرة الوحيدة التى لم يقف فيهــا المسؤولون البريطانيون فى الهنــد إلى جانب تركى هى فى ســنة ١٨٧٤ — ٧٥ ، إلا انه حتى فى هــذه المناسبة ، وعلى الأخص فى أعقاب سنة ١٨٧٥ ، فقد كان تعاون تركى مع المسؤولين البريطانيين يعتبر فى تحليله النهــائى عاملا هاماً فى تأييدهم السياسى والعســكرى لنظامه . وقد توج هــذا التأييد ببيان سنة ١٨٨٦ الذى تعهدت فيه حكومة الهند البريطانية بضمان حكم السلطان . غير أن حكومتى لندن وكلكتا كانتا عــلى الصعيد الرسمى تظهران بعض التحفظ ، غير أن الكولونيل روس

---

(٧٤) نفس المصــدر ص ٥٩٥ — ٦٠٢ من الأمثلة على النظــام الخاص الذى تخضع له ظفار ان السلطان اصدر عملة خاصة بالاقليم المذكور .

والكولونيل مايلز كانا فى وضـــع يسمح لهما بالتأثير على رؤسائهما لتقديم التأييد اللازم للســلطان • وفى مقابل هذا لم يكن السلطان يمانع بوضع شــؤونه الخارجية باستثناء شؤون زنجبار ، فى عهدة الأنجليز • فلقد كان هذان المسؤولان يتدخلان باستمرار لمصلحة تركى لدى كل من حكومــة القاجار وحكومة العثمانيين ، كمــا كانا يجريان مفاوضات بالنيابة عنه مع الدول الغربية ، كهولندا التى عقدت معاهدة تجــارية مع عمان فى ســنة ١٨٧٧ (٧٥) •

ونظراً لأهمية التأييد الخارجى باعتباره الدعامة الأساسية للدولة يعتبر حكم تركى من هــذه الوجهة نقطة تحول جديدة فى سياسة عمان • صحيح كانت هناك علاقات وثيقة بين حكام عمان الســابقين مع الحكومة البريطــانية ، غير أن أولئك كانوا يعتمدون على أنفسهم وعلى أى حــال فاعتقادا من السلطان تركى أن وجوده فى الحكم مرتهن بالتأييد البريطانى ، قد جعلــه يوافق على تأدية الدور المطلوب منــه فى نظام الســيطرة غير المباشرة التى كانت بريطانيا تحكم المنطقة من خلاله • ولقد تحدد هــذا الدور بوضــوح أكثر فى سنة ١٨٨٦ عندما أعلنت حكومة الهند رســمياً بأنهــا مسؤولة عن استقلال السلطان ، وأنعمت عليه بتلك المناسبة بوسام الفارس « نجمة الهند » • وكان صاحب هذه الخطوة الحاكم البريطانى العام فى الهند • غير أن الأنعــام على تركى بالوســام ، على الرغم من خضوع السلطان للنفوذ البريطانى كان فى الواقع انعكاساً للمكانة الرفيعة التى يحتلها السلطان عند البريطانيين من ناحية ، وموقف التبعية لهم من ناحية أخرى • وعلى أى حال فعندما قضى تركى بن سعيد نحبه فى سنة ١٨٨٨ ترك وراءه لورثته مملكة تتميز بقدر كبير من التنظيم •

---

(٧٥) راجع الفصل الخامس ، وايضا كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥٢٠ •

الحكم المعتدل الجديد أمام التحديات ١٨٨٨ — ١٩٠٣ •

يعتبر فيصل بن تركى الحاكم الوحيد من أسرة البوسعيد الذى تولى مراسم الحكم فى جو سلمى • وقد كان عمره ٢٤ عاماً عندما تولى الحكم ، وكان عليه أن يثبت أنه أهل للمسؤولية التى أسندت إليه • ويعزى الجانب الأكبر من نجاح تركى السياسى فى السنوات الأخيرة من حكمه إلى العلاقات التى أنشأها مع عدد كبير من الزعماء العمانيين • ومن هنا كان يتعين على السلطان الجديد أن يحافظ على هذه الثقة الشخصية ، إذا أراد الاستمرار فى الحكم •

غير أن السلطان فيصل لم يوافق على أن يكون حكمه مجرد امتداد لحكم والده ، أو أن يسير على نفس السياسة التى كان ينتهجها والده ، والتى تقوم على مبدأ العلاقة الشخصية بين السلطان وزعماء عمان • فقد كانت الأحلام الرومانسية تسيطر عليه ، وكان يطمح فى أن يصبح سيد دولة موحدة مستقلة استقلالا حقيقياً ومتحررة من أى نفوذ أجنبى • ويبدو أن فيصل كان ممتعضاً بنوع خاص من سيطرة الأنجليز على سياسة وتصرفات حكومة مسقط ، دون أن يجد لذلك مبرراً معقولا • فلقد أخذ منذ البداية يعرب عن استيائه من تغلغل النفوذ البريطانى فى أرجاء السلطنة ، وعلى الأخص بين العناصر التى تنادى بسياسة التبعية لحكومة الهند البريطانية ، كما كانت فى أيام تركى • وكان أول قرار اتخذه فى هذا الشأن هو إقالة الوزير الموالى للانجليز والذى أمضى فترة طويلة فى خدمة والده الراحل •

وعلى غرار حكم والده تركى ينقسم حكم فيصل إلى مرحلتين : المرحلة الأولى التى حاول فيها تأكيد استقلاله وتحرره من القيود التى كانت تكبل والده ، والثانية هى انتهاجه طريقاً جديداً وإن كان رجعياً من الوجهة الرومانتيكية •

لقد حاول فيصل أن يكون الزعيم الذى يلتف حول رايته كافة

العمانيين • ومن هنا كان تودده الزائد إلى المحافظين العمـانيين ، وعلى رأسهم صالح بن على لدرجة أنه أطلق على نفسـه لقب إمام المسلمين إلى جانب لقبه الأصلى وهو السلطان • ولسوء الحظ فان هذه الاتجاهات المراهقة ، فضـلا عن محاولات فيصل الأولى لفرض حكم قوى فى بعض المقاطعات الداخلية ، قد كشـف لزعمـاء القبائل المحافظين عن جوانب الضعف فى السـلطان وافتقاره إلى النضـج السياسى • كما أن السياسة المعادية للانجليز التى سـار عليها فيصل فى السنوات الأولى من حكمه قد حالت بدرجة أكبر دون تحقيق أحلام هـذا السلطان فى مرحلة كانت تشهد مداً متصاعداً للامبريالية الغربية •

وفى سـنة ١٨٩٩ تعرض فيصـل لأهانة بالغة من الأنجليز ، كمـا انهار نفوذه السياسى بين العمانيين إلى أقصى حد ، وقد وضعت هـذه الأحداث نهاية لمراهقة فيصـل السياسية • ومـا بين سنة ١٨٩٩ وسنة ١٩٠٣ أدرك فيصل هـذه الحقيقة فاستدرك بالرجوع إلى الخط السياسى الذى كان يسير عليه والده • وقد أمضى فيصل السنوات العشر الأخيرة من حكمه فى محاولات ناجحة وإن كانت ضـعيفة للاحتفاظ بعرشه • وكان اعتماده على البريطانيين خلال هـذه الفترة واضحاً تماماً كمقاومته لهم فى أول عهده بالحكم • ولقد جاء فى وصف أحد الرحالة لفيصل فى سنة ١٩١١ انه كان حاكما ضعيفا ، لكنه عطوف ووقور وكانت هوايته الوحيدة زيارة السفن الحربية البريطانية والتصوير [٧٦] •

والواقع أن هـذه الصفات ، بصرف النظر عن دماثة خلقـه ووقار شخصيته تعتبر من صفاته العـامة • وقد قابل الرحالة ثيودور السلطان فيصل فى سنة ١٨٨٩ بعد توليه الحكم مبـاشرة ، وقدم فى مذكراته صورة

---

(٧٦) الهند فى حـكم كرزن وبعـده ، تاليف : ال فريزر (مطبعة لنـدن ١٩١٢) ٩٠ — ٩١ •

جذابة للسلطان الشـاب الخجول الحليق والحاد المزاج والذى كان فى حكم ســنه كثير التســاؤلات • وعلى الرغم من أنه لم يكن كغيره من الملوك بالمعنى الدقيق للكلمة ، فقد كان حاكما أوتوقراطياً • وعانى صعوبة كبيرة فى وصف طريقة فيصل فى معاملة المعتقلين فى أقفاص داخل البلاط من حيث يستطيعون أن يشــاهدوا الحظيرة التى يضع فيها الســلطان أسـده الأليف الذى كان يستخدمه أحياناً فى افتراس المحكوم عليهم بالأعدام (٧٧) •

وبمقــارنة أعمال السلطان فيصل بما كان يتسم به من خجل ظاهرى ، نجد أنه فى أول عهده بالحكم كان يتمتع بقوة الارادة وببعض النشــاط • إلا أنه لم يكن يعرف كيف يستغل هــذه المواهب وقد اكتسب فيصل بعض الخبرات الإدارية خلال حكم والده ، إلا أن اتصــالاته لم تتعد نطــاق الأسرة • وكانت أم فيصل حبشية • وقد اقترن بأبنة عمه الكبرى عليا كريمة السلطان ثوينى وكان أمياً لا يجيد القراءة والكتابة فيما عدا التوقيع باسمه • وعلى عكس والده فقد كانت معرفته محدودة ، بالإضافة إلى أنه لم يسافر إلى أى بلد قبل توليه الحكم (٧٨) •

مصير السياسة المستقلة للسلطان فيصل : ١٨٨٨ — ٩٩ •

لقد لاحظنا آنفا كيف أن السلطان فيصل بعد توليه السلطة أعلن عن عزمه على تغير سياسة الحكم وقد قام بأول خطوة فى هــذا السبيل حين عارض إسناد منصب حكومى هــام إلى سعيد بن محمد الذى لم يكن موالياً للانجليز وحسب ، بل كان مكروهاً جداً من المحافظين • ولمــا كان فيصل ينوى تقديم بعض التنازلات للمحافظين فى محاولة لكسبهم إلى جانبه • فقد كان وجود شخص كسعيد بن محمد فى حاشــيته يثير إحراجاً للسلطان

---

(٧٧) الجنوب العربى ، تاليف ثيودور بنت ص ٥٦ — ٥٨ •
(٧٨) لوريمر مجــلد ١ ص ٥٢٥ و « حياة كوكس » ص ٥٦ ، تاليف جريفز •

ولم يسترجع سعيد مركزه إلا بعد أن انتهت مرحلة المغـازلة بين فيصل والمحافظين العمانيين . وكان فهد بن تركى أخ السلطان أقرب مستشاريه ، غير أن فهد كان يعانى من مرض عقلى أدى به إلى الانتحار فى سنة ١٨٩٤ تخلصاً من زواج غير موفق . أمـا الأخ الأكبر للسـلطان ، وهو محمد فقد اكتفى بالمرتب الشهرى الذى كان يتقاضاه وقدره ٦٠٠ ريال ، ولم يحاول أن يحشر نفسه فى دوامة المؤامرات ضد الحكم ولكنه لم يكن يصلح لأى عمل . ولم يقع اختيار فيصل على محمد بن عزان كوزير للبلاط إلا فى شـهر مايو سنة ١٨٨٩ وكان عزان من رجـال الدولة القدامى من أسرة البوسعيد . وقد استمر يشـغل هذا المنصب حتى سنة ١٨٩٦ ولفترة أربعة أشهر أخرى ما بين سنة ١٨٩٨ وسنة ١٨٩٩ . ولكنه . على مـا يبدو . لم يكن لشخصيته أى تأثير ملحوظ على مجرى الاحداث . وكان أقوى رجلين فى حاشية السلطان فيصل بدر سيف العضو العسكرى فى مجلس السلطان وسليمان بن سويلم مساعده الذى شغل اكثر من منصب بمـا فيها منصب والى ظفار . كما عين وزيرا للبلاط فى سنة ١٩٠٢ . والواقع انه لم يكن بين مستشارى السلطان فيصل فى اوائل عهده من كان له تأثير حاسم على شؤن الدولة ، لأن السلطان كان يفضل ان يدير شؤون الدولة بنفسه (٧٩) .

والنشـاط الوحيد البارز للسلطان كان فيمـا يتصل بعلاقته مـع الانجليز . وبالرغم من أن السلطان كان قد كتب الى البريطانيين بعد وفاة والده مباشرة بأنه سـوف يحكم فى ظل الحماية البريطانية وانه سوف يعتمد على صداقتهم ، فقد كان من الواضـح ان فيصل قد عقد العزم على إثبات وجوده كحاكم مستقل من الوجهتين النظرية والتطبيقية (٨٠) .

---

(٧٩) كتاب لوريمر مجـلد ٢ ص ٥٣٢ و ٥٤٦ و ٥٥٦ والتقرير الادارى سنة ١٩٠١ — ١٩٠٢ وكذلك التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ٣٠٣ — ٣٠٤ « والجنوب العربى » تأليف بنت ص ٥٨ .

لقد انتهج السلطان منذ بداية حكمه طريقا مستقلا أثار مخاوف حكومة الهند البريطانية ولقد كتب جي° • جي • لوريمر (J. G. Lorimer) وهو مؤرخ ومسؤول فى حكومة الهند يقول : « ان تذمر فيصل من الالتزامات والقيود التى تربط حكمه بالبريطانيين كان لـــه رد فعل سيء فى دوائر الحكومة البريطانية » [٨١] • وقد ظل المقيم البريطانى فى الخليج السير ادوارد روس ، وكانت تربطه بوالد السلطان صداقة متينة ، متحفظـــا جدا تجاه ولده • ورغم ان روس استمر فى دفع المخصصات المقررة عن زنجبار الى حكومة فيصـــل الا انه ارجأ الاعتراف الرســـمى بها حتى شـــهر ابريل سنة ١٨٩٠ [٨٢] • وربمـــا اتخذت هـــذه الخطوة لتسهيل المفاوضـــات التى كان يجريها روس مع الســـلطان آنئذ • وأســـفرت المفاوضـــات عن المعاهدة التجارية العمانية الانجليزية ، واتفاقية عـــدم التنازل المعقودة فى سنة ١٨٩١ التى التزم فيهـــا العاهل العمانى بعدم التنازل عن أى شبر من اراضيه الى دولة أخرى بغير موافقة الحكومة البريطانية • وفى الوقت نفســـه كانت حكومة الهنـــد الانجليزية تعيد النظر فى علاقاتها بعمان • وربمـــا كان تأخير اعتراف هـــذه الحكومة بفيصل والطريقة التى كانت تجرى فيها المفاوضات قد ضايقت السلطان • وكان المسؤولون البريطانيون فى ذلك الوقت يدرسون احتمال إعلان سلطنة مسقط محمية بريطانية وهو موقف كان لابد وان يثير استياء الســـلطان فيصل لو عرف عنه • غير انه لم تقع خلافات عمانية انجليزية الا بعد استقالة المقيم روس ، فى سنة ١٨٩٢ •

وقد تمكن روس ببراعتـــه الدبلوماسية من التخفيف فى حـــدة ثورة الســـلطان فيصل ضد البريطانيين ، غير ان الهدوء الظاهرى الذى ســـاد العلاقات العمانية — الانجليزية حتى بسنة ١٨٩٣ كان يعود الى انشغال

---

(٨١) كتاب لوريمر جزء ١ ص ٥٣٣ •

(٨٢) التقرير الادارى سنة ١٨٩٠ — ١٨٨٩ ص ٥ •

السلطان فيصل فى الأيام الأولى من حكمه بالمشاكل السياسية الداخلية . فلقد حاول فيصل فى بداية الأمر انتهــاج سياسة تهدف إلى فرض سيادة مسقط على جميع المناطق الداخلية والقبلية فى عمان . فبعد توليه الحكم مباشرة عقد فيصـــل اتفاقاً مع صالح تمكن بمقتضاه من تعبئة ٣٠٠٠ مقاتل ضد ابراهيم بن قيس الذى كان يرابط فى الرستاق فى سنة ١٨٨٨ ، غير أن هذه الحملة منيت بالفشل واسفرت عن تدهور خطير فى مركز السلطان . فقد قاوم أهل الرستاق بقيادة سعود بن عزان النجل الثانى لعزان بن قيس مقاومة عنيفة شجعت آل سعد سكان الباطنة على الانتقاض على جيش السلطان وفصل قواته عن قواعد عملياتها فى بركا . ولم يمض وقت طويل حتى اضطر السلطان إلى التخلى عن المحاولة . وربما كان إفلاس خزينة السلطان من المال خلال حملته على الرستاق (وهى احد المعاقل العمانية الحصينة) أقسى عليه من فشل الحملة نفسها حتى أنه اضطر إلى الانسحاب دون أن يدفع مرتبات أفراد جيشه ولأسباب كثيرة لم يتمكن الســلطان من تعويض فشله فى الحملة المذكورة التى تعتبر أول حملة بعد توليــه الحكــم [٨٣] .

ان فشل حملة الرستاق ، ومــا كشف عنه هذا الفشل من عجز فى إمكانات السلطان فيصل قد هيأ الجو لقيام ائتلاف جديد شمل حتى القوى الصغيرة المناوئة له بزعامة عبد العزيز بن سعيد عم فيصل واخ السلطان تركى من ابيه ، والوزير السابق ومنافسه القديم ، وسعود وحمود ابنى عزان ، نجلى اخ ابراهيم بن قيس . غير ان رد الفعل على هــذا الائتلاف من جانب السلطان جاء سريعاً حيث قام بتعبئة جيش قوى من ألفى رجل يضم بعض انصار السلطان من قبيلة النعيم بقيادة أخيه الأصغر فهــد بن تركى . وطوال معظم فصــل شتاء عام ١٨٨٨ ــ ٨٩ ظل الامير فهد

---

(٨٣) التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ٢٨٣ ــ ٢٨٤ وكتاب لوريمر جزء ٢ ص ٥٢٦ ــ ٥٢٨ .

ينتقل بين المناطق الجبلية بحثاً عن المناوئين دون جدوى • وعلى أى حال فقد حققت هذه الحملة نجاحـا كبيرا واحدا وهو أنها اقنعت عبد العزيز باستحالة اطاحة السلطان فيصل بأى شكل من الأشكال • وبعد ١٥ عاما من التشرد الفاشل عبر مناطق عمـان الداخلية فى محاولة لتنظيم حركة مضادة من أجل إعادته إلى السلطة ، قرر عبد العزيز فى شهر مـارس ١٨٩٠ قبول منحة شهرية من حاكمى مسقط وزنجبار واعتزال السياسـة فى المنفى • وقد قضى حياته فى بومباى إلى أن توفى فى سنة ١٩٠٧ ، ولم ير عمان مرة أخرى [٨٤] •

ان الفشـل العسكرى الذى منى به السـلطان ، والعجز المستمر فى موارده المالية قد اقنعاه فى سنة ١٨٩٠ بالتخلى عن محاولاته الرامية إلى فرض سيطرته على الجزء الداخلى من البلاد ، وباتخاذ سبل أخرى لتحقيق أهدافه فى عمان • وذلك بتحسين علاقته بالمحافظين العمانيين ودعم وسائل التفاهم الذى سبق ان توصل اليه مع الشيخ صالح بن على • وقد ظلت العلاقة بين السلطان فيصل وصالح بن على عـلى ما يرام حتى سنة ١٨٩٤ ، أو على مـا يبدو ، طوال الفترة التى كانت حكومة مسقط تدفع المخصصات المالية المقررة للشيخ المذكور • كان فيصل أكثر من والـده إدراكاً لحساسيات المحافظين ومن هنا كان يحاول منذ بداية حكمه كسب ودهم وتأييدهم • وممـا يشهد على هذه المحاولات وعلى تجاوب فيصل مع أفكار المحافظين موقفه من تجارة الرقيق وحيازته • وعلى العكس من والده تركى الذى تجاوز كل الحدود المعقولة فى تعـاونه مع الانجليز فى موضـوع الرقيق ، أعلن فيصل أنه يؤيد العمانيين فى موقفهم من شرعية تجارة الرقيق والاحتفاظ بهم • ولم يظهر فيصل أى استعداد للتعاون مع البريطانيين فى هذا المجال ، كما رفض تقديم أى مساعدة أو تأييد لتحريم

---

(٨٤) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥٢٨ و Precis Maskat ص ١ — ٢ •

هـذه التجارة . وعلى حين اتخذ سلطان زنجبار وأحد أقارب السلطان فيصل فى سـنة ١٨٩٠ بعض الاجراءات التى أفضت فى النهـاية إلى القضـاء على تجارة الرقيق فى تلك البلاد ، أعرب المسؤولون البريطانيون أن موقف السلطان فيصل وتفاقم الوضع فى المناطق الريفية من عمـان يحولان دون الضغط للحدمن تجارة الرقيق بالبلاد (٨٥).والواقع أن الإنجليز قد شعروا بحق أن جهودهم الرامية إلى القضاء على تجارة الرقيق أصبحت تلاقى عقبات كثيرة من جانب الحكام المحليين أمثال فيصل بن تركى ومن سكان الخليج بوجه عام (٨٦) .

ويبدو ان السـلطان فيصل كان يرى انه فى حالة فشـله فى فرض الوحدة الوطنية على عمان ، فانه قد ينجح فى تحقيق هـدفه عن طريق التحالف مع الرأى العام ومع الكتل الوطنية ، كما كان يطمح فى ان يتولى الامامة والسلطنة فى وقت واحد . وقد صك هـذا اللقب المشترك فى بعض العملات التى اصدرها (٨٧) . فالأباضيون غير العمانيين . وعلى الأخص فى شمال أفريقيا ، وفى مستعمرتهم الصغيرة فى مصر كانوا يلقبون فيصل « بامام مسقط وعمان » وكانوا يعتبرونه أحد الزعماء واقطاب الاباضية من امثال صالح بن على . وسعيد بن ناصر ، وعلى بن محمد ، وهلال بن زاهر ، وعبد الله بن حميد السالمى (٨٨) . ورغم كل هذا فإن تودد السلطان فيصل إلى المحافظين ، لم يصل به إلى درجة التراجع تراجعاً أساسياً عن النظام المعتدل . ومن المحتمل أن فيصل كان يسعى إلى كسب جميع فئات الشعب العمانى وليس فئة معينة .

---

(٨٥) « Precis Slave » ص ٤٥ — ٤٧ و كتـاب لوريمر مجـلد ١ ص ٢٥٠٥ — ٢٥١٣ .

(٨٦) خطاب مؤرخ ١٩٠١/١١/٧ من هاملتون الى كرزن .

(٨٧) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٤٩١ ، ملحوظة .

(٨٨) كتاب الهداية ، تأليف المصرى ص ٨٢ .

ومهمـا كانت أسباب فيصل فى انتهاج السياسة التى اختطها بالنسبة إلى الوضع الداخلى وإلى الاباضيين ، فإن هذه السياسة قد فشـلت فى النهاية ، لان فيصل اساء تقدير إمكاناته العسكرية والمالية ، كما اساء تقدير خطواته السياسية والدبلوماسية • وبنهاية عام ١٨٩٠ ونظراً لما اسفرت عنه سياسة التحدى بالنسـبة إلى المنطقة الداخلية ، خفف فيصـل من أعبائه الادارية فى المنطقة كما تخلى عن سياسة التوسط فى المنازعـات القبلية • ولم تتضح الاسـباب التى حملت السلطان إلى التخفيف من أعبائه فى الجزء الداخلى من البلاد • وإن كان من المرجح أنه اضطر إلى ذلك بسبب العجز المالى المتزايد وإلى محاولته إرضاء بعض العنـاصر المحافظة • وعلى أى حال ، فلم يمض وقت طويل على هـذه السياسة حتى بدأت الخلافات والمنازعات القبلية تتفاقم وتشتد [٨٦] • ففى سـنة ١٨٩١ انفجر صراع قبلى فى وادى سمايل بين الهناوية والغافرية وبمـا أن السلطان لم يفعل شيئاً لتهدئة الأوضـاع فى هذه المقاطعة الاستراتيجية • فقد تفاقمت المشـكلة • كما نشب قتال عنيف أثر هجوم على قافلة تجارية للحرث كانت تحمل شـحنة منبلح الشرقية فى طريقهـا إلى الساحل [٩٠] • وقد استمر تصـاعد الحرب حتى اتسع نطاقها فى سنة ١٨٩٢ — ٩٣ بحيث شملت وادى سمايل ، وجعلان ومقاطعة الباطنة ممـا اضطر الشيخ صالح بن على إلى أن يطلب من السلطان التدخل لوضع حـد لتلك الفوضى • وقد أغلقت الطرق العامة بين المنطقة الساحلية والداخل كمـا منيت تجـارة مسقط ومطرح بخسـارة فادحة [٩١] • ومن المحتمل أن يكون التدهور

---

(٨٩) مذكرة مؤرخة فى فبراير سـنة ١٨٩١ مـن موكلر الى حـكومة الهنـد و « Precis Slave ص ٤٥ والتقرير الادارى ١٨٨٩ — ١٨٩٠ ص ٢٤ والتقـرير الادارى ١٨٩٣/١٨٩٤ ، ص ١٩ ، و Precis Maskat » ص ٢ وكتـاب لوريمر مجـلد ١، ص ٥٢٦ — ٥٢٨ •

(٩٠) التقرير الادارى ١٨٩٠/١٨٩١ ص ١٥ •

(٩١) التقـرير الادارى ١٨٩٢/١٨٩٣ و كتـاب لوريمر مجـلد ١ ص ٥٢٨ — ٥٢٩ •

السريع فى موارد السلطان المالية قد حال بينه وبين التحرك لحل المشكلة . ومما يؤيد هذا الاحتمال أن السلطان فيصل لم يتمكن فى سنة ١٨٩٤ من دفع المخصصات المقررة لشيوخ الغافرية سكان وادى سمايل ، الأمر الذى كانت له عواقب خطيرة (٩٢) . وكان من نتيجة ذلك أن تقلص نفوذ مسقط حتى فى المقاطعات الساحلية ، حتى ان السلطان لم يعد فى وسعه الاحتفاظ بأسطوله واضطر إلى بيع السفينة « دار السلام » فى بومباى ، بينما تم تفكيك السفينة « السلطانى » . وفى سنة ١٨٩٤ أثار إهمال السلطان لهذه المشاكل استياء القبائل التى كانت تربطها بالحكم المعتدل علاقات تقليدية (٩٣) .

وكنتيجة لتشجيع السلطان لتجار السلاح باتخاذ مسقط مركزاً لعملياتهم اضيف بعد جديد إلى الوضع الملتهب . وفى سنة ١٨٩٥ بدأت قبائل عمان تحصل على السلاح الحديث والذخيرة ، وفى سنة ١٩٠٠ أصبح سكان ميناء صور ، وكذلك قبائل جعلان ، ومقاطعة الشرقية . ومنطقة الجبل الأخضر أقوى من أن يرضخو لتهديدات السلطان بقواته المسلحة (٩٤) . وفى سنة ١٩٠٢ تأزم الوضع إلى درجة أن أحد الخبراء العسكرية البريطانيين قد حذر من أن اطلاق بضع قذائف من سفينة مسلحة لم يعد يكفى لحماية مسقط من الخطر وأصبح الأمر يحتاج إلى حملة باهظة التكاليف بما فيها انزال جنود من القوات الهندية ، فيما لو تعرضت مسقط لأى هجوم من جانب العمانيين المحافظين (٩٥) . وقد صدقت تنبؤات هذا الخبير ، فقد تعرضت مسقط بالفعل لغزو عمانى إبان الحرب العالمية الاولى .

---

(٩٢) التقرير الادارى ١٨٩٣ — ١٨٩٤ ص ١٩ — ٢٢ .

(٩٣) كتاب لوريمر مجلد ١ ص ٥٣٠ — ٥٣٢ .

(٩٤) خطاب رقم ٥ مؤرخ فى ١٩٠٢/١/٣ من كرزن الى هاملتون و كتاب لوريمر مجلد ٢ ص ١٣٩٠ و « Precis Trucial Chiefs » ص ٧١ .

(٩٥) خطاب رقم ٥ مؤرخ ١٩٠٢/٥/٥ من الكولونيل سى . اى . بيتس الى حكومة الهند ، الشؤون الخارجية .

وعلى أى حال فقد ازدادت العلاقات العمانية ــ الانجليزية تدهوراً مــا بين سنة ١٨٩٣ وسنة ١٨٩٥ بحيث أصبح تدخل بريطانيا تدخــلا مسلحاً لحمــاية عرش السلطان أمراً لا مفر منه . ان زوال الجو الودى الذى كان يميز العلاقات بين سلطنة مسقط وحكومة الهند ــ الانجليزية كان نتيجة لخليط من الظروف والأسباب الطارئة . من أهمها رغبة السلطان فيصل فى الحد من اعتماده على البريطانيين ، وإلى تصرفات جيل مــا بعد اداورد روس من المسؤولين البريطانيين من رجال حكومة الهند البريطانية فى الخليج الذين اتسمت أعمالهم بالطيش والغباء وسوء الفهم ، كمــا وإلى المغامرات الدبلوماسية الناتجة عن الصراع بين الدول الامبريالية الكبرى على الخليج فى التسعينات . فقد أخذ السلطان فيصــل يضيق ذرعاً بالامتيازات الاقليمية التى يتمتع بها رعايا الحكومة الهندية البريطانية ويســيئون استعمالها فى بعض الاحيــان . وعلى أى حــال فقد كانت احتجاجات السلطان فى هــذا الصدد تسبب المضــايقات للمســؤولين البريطانيين . وفى عام ١٨٩٣ تدهورت العلاقات بين السيد فيصل والماجور هيز ــ سادلر ، المعتمد السياسى البريطانى فى مســقط إلى درجــة ان تعرض فيهــا السلطان للإهانة (٩٦) وعندما بدا الصدام بين مطامع الدول الامبريالية المتنافســة واضحاً بعد إنشاء قنصلية فرنسية فى مسقط سنة ١٨٩٤ ، أدرك السلطان فيصل على الفور أن الوقت قد أصبح منــاسباً لتوجيه ضربة إلى الانجليز (٩٧) . ومنذ ســنة ١٨٩٥ بدأ السلطان يلعب لعبة التوازن بين النفوذ البريطانى والفرنسى . وســواء كان السلطان على حق فى هــذا أم لم يكن ، فقد أثار هــذا الموقف استياء حكومة الهند ــ البريطانية ، فى وقت كان فيه نفوذ السلطان ينهار بين القبائل العمانية . وقد انفجر الوضع فى عمــان سنة ١٨٩٥ ، وكان تخلى فيصل عن صالح بن على سبباً للانفجــار . فخلال سنة ١٨٩٥ بدأ السلطان يتودد إلى

---

(٩٦) كتاب لوريمر مجــلد ١ ص ٥٣٥ ــ ٥٣٦ و ٥٥٥ .

(٩٧) « Precis Maskat » ص ٦١ .

زعيم آخر من زعماء الحرث ليكون على رأس الزعـامة وذلك نكاية بصالح بن على ، غير أن صالح اكتشف المحاولة فى حينهـا فوجه رسـالة إلى السلطان ، ولما لم يتلق رداً على رسـالته تحرك المحارب عـلى الفور لانشـاء تحالف قبلى ضد السلطان [٩٨] . غير ان الوضع هـذه المرة كان يختلف عنـه فى سنة ١٨٦٨ ، عندما أدى تخلى صـالح بن على عن السلطان إلى اطاحة السلطنة . فقد كان تحرك الامامة فى هـذه المرة يفتقر إلى الوحدة الوطنية التى توفرت لهـا تحت زعامة عزان بن قيس ، وسعيد بن خلفان الخليلى ، وصالح ابن على نفسـه عندما كان لا يزال فتى يافعاً فى سنة ١٨٦٨ . ورغم هـذا فقد كان فى امكان الزعيم ان يستقطب بعض قبائل الهناوية بمن فيهم الحرث ، والحبوس ، وبنى بطاش ، والعوامر وبنى رواحـة وبعض الفصـائل الثانوية من بنى هنا سكان البـاطنة والمقاطعات المجـاورة للرستاق ووادى سمايل [٩٩] . وقد تلقى هـذا التحالف دعماً من جهة لم تكن متوقعة ، وهى السلطان حمود سـلطان زنجبار الذى امضى فترة صـباه فى عمان وكانت تراوده احلام لخلق دولة عمانية زنجبارية موحدة . ففى سـنة ١٨٩٤ زار وفد من زعمـاء عمان المحافظين السلطان حمود فى زنجبـار وعادوا من عنده محملين بالهدايا والأموال وبثلاثة مدافع و ٣٠٠ برميل بارود . ومـا أن علم البريطانيون بهـذا الأمر حتى حاولوا احباط المؤامرة ، وطالبوا حمود بعدم اقحـام نفسه فى سياسات عمـان ، غير ان التحذير البريطانى جاء متأخراً ، ولم يفلح فى منع وصول المساعدات إلى عمان [١٠٠] .

وأخيراً علم فيصل بالنجاح الذى حققه صالح فى انشـاء تكتل قبلى ضـده . وما أن أدرك فيصل أنه قد اهمل حلفاءه من القبائل ، كمـا أهمل

---

(٩٨) التحفة ، تأليف السـالمى جـزء ٢ ص ٢٨٤ والتقـرير الادارى ١٨٩٤ / ١٨٩٥ ص ١٥ — ١٨ .

(٩٩) كتاب لوريمر مجـلد ١ ص ٥٤٣ .

(١٠٠) » Precis Maskat « ص ٢٤ — ٢٥ .

اعداد وســائل الدفاع عن عاصمته نفسها حتى بدأ بتغيير سياسته . غير أن مساعيه لم تنجح فى منع صالح بن على من الانقضــاض بقواته على ضواحى مسقط فى سنة ١٨٩٥ عبر ممر وادى سمايل الذى لم تكن عليه حراســة فى ذلك الوقت . وما ان وصلت القوات إلى مسقط حتى عرض فيصل التفــاوض مع المغيرين واســتقبل فى ديوانه الشــيخ عبد الله بن صالح ، النجل الاكبر للشــيخ صالح ، وممثله وقائد قواته . غير أن المغيرين استغلوا هــذه الفرصة لجمع معلومات عن تحصينات العاصمة ومواقع دفاعها . وقد ظن فيصل انه يستطيع انقاذ عرشــه وعاصمته بتقديم الرشوة فبعث بمبلغ ١٢٠٠ ريال إلى الشــيخ عبد الله بن صالح أملا منه فى أن ينسحب الجيش المهاجم ويعود إلى داخلية عمــان . غير أن القائد فاجأ السلطان بالانقضاض على العاصمة ليلة ١٣ فبراير سنة ١٨٩٥ ، واحتلال أحد مداخهــا ، كما قاد مجموعة من رجاله كانوا يكمنون وراء الســور واحتلوا أهم المراكز فى المدينة . وقد كشف المهاجمون عن أهدافهم عندما رفعوا العلم الأبيض فوق قصر السلطان ونصبوا سعود بن عزان ابن الامام الراحل عزان رئيساً اعلى للحركة . وخلال المرحلة الأولى من احتلال المحافظين لمسقط أبدوا كثيراً من الاهتمام بعلاقتهم مع الانجليز وادعوا أنهم لا ينشــدون سوى صداقة حكومة الهند البريطانية كمــا امتنعوا فى حذر شديد من الاعتداء على متاجر الجالية الهندية أو نهبهــا . أما الماجور هيز — سادلر المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط فقد التزم الحياد الدقيق من الأحداث ، رغم أن موقفه كان فى مصلحــة صالح بن على أكثر ممــا كان فى مصلحة السلطان المحاصر . غير ان نقطة الضعف الأساسية فى التجمع المحافظ شأنه شأن أى ائتلاف من نوعه فى أواخر القرن التاسع عشر هى أنه لم يكن يضم فئات من الغافرية . ولهذا استجاب فى شهر مارس سنة ١٨٩٥ لنداء السلطان ووعده بتقديم الأموال نحو ٤٠٠٠ رجل من الغافرية جاءوا لنجدة العــاصمة المحاصرة ورابطوا حولهــا . وبالرغم من وقوع إصــابات فى المناوشات التى نشــبت بين

الجلنبين ، لم يتمكن أى منهمـا من زحزحة الآخر عن المواقع التى كان يحتلهـا . ونتيجة لذلك تجمد الوضع .

فى هذه الفترة بدأت المفاوضات . وفى ٩ مارس ١٨٩٥ عقدت معاهدة سـلام ، كمـا عفا السلطان عن صالح بن على وأنصاره ، وأعيدت له المخصصات التى كان يتلقاها قبل وقوع هـذه الحوادث . كمـا تسلم صالح مبلغاً خاصاً يتراوح بين ١١,٠٠٠ و ١٧,٠٠٠ ريال . ومن سوء حظ المحـافظين ان الانضباط الذى كان يسود صفوفهم قد عاد فتبخر على أثر انسحابهم من مسقط . وقد رافق هـذه العمليات أعمال سلب ونهب شاملة للمدينة . كما اشعلت فيها الحرائق أما التجار الهنود فقد تعرضوا بنوع خاص لخسائر جسيمة نتيجة للحرائق وأعمال السلب والنهب التى قام بها المهاجمون (١٠١) .

وقد نجا فيصل من الموت أو الأسر بأعجوبة فكان هجوم المحافظين على عاصمته فى سنة ١٨٩٥ درساً بليغاً . ولهذا مـا أن هدأت الأمور حتى بدأ فى تقوية وسائل الدفاع عن مسقط ومطرح بعد أن كان فيصل يهمل هـذه الأمور . فنصبت مدافع من عيار ١٢ رطلا فى كل قلعة ، كمـا ضم السلطان نحو ٤٠٠ افريقى إلى القصر للقيـام بأعمال الحراسة ، هذا بالاضـافة إلى تسليح رجال الحرس السلطانى بأحدث أنواع البنادق التى امكنـه الحصول عليها ، كما أخذ يخزن الذخيرة . ومن ناحية أخرى قام فيصل بخطوات جديدة لتعزيز أحلافه مع الجنبة ، وبنى بو على . وبنى بو حسن والحجريين وسائر القبائل الجنوبية فى جعلان بوجه عام كمـا وقبائل النعيم سـكان المنطقة الشمالية من السلطنة (١٠٢) . ومن العوامل الأخرى

---

(١٠١) للاطلاع على تفاصيل الحملة على مسـقط والآثار المباشرة لهـا انظر التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢ ص ٢٨٤ — ٢٨٦ .

(١٠٢) كتاب لوريمر مجـلد ١ ص ٥٤٥ والتقرير الادارى ١٨٩٥/١٨٩٦ ص ١٣ — ١٥ .

التى ساعدت فيصل على استرجاع مـا فقده من النفوذ فى الجزء الداخلى من البلاد هو التفكك الذى سـاد صفوف المحافظين فى أعقـاب جلائهم عن مسقط ومطرح فى سـنة ١٨٩٥ . فلقد كان هجوم صالح بن على آخر محاولة من جانب الزعماء العمانيين الذين كانوا يسيطرون على الجنـاح المحافظ منذ منتصف القرن التاسـع عشر . بل وحتى صالح بن على قد أصيب هو الآخر فى إحدى الحروب القبلية التى نشبت فى سنة ١٨٩٨ . وبوفاة ابراهيم بن قيس سـنة ١٨٩٨ خلا المسرح تماماً من الشخصيات التى أسهمت بدور طليعى فى شؤون عمان ما بين سنة ١٨٦٨ وسنة ١٨٧١ ، فيمـا عدا فيصـل بن حمود الذى لم يكن يقوم بأى نشـاط . وبزوال الجيل العمـانى من الزعماء والعلماء ورجال الحرب ، وجد المحـافظون انفسهم بلا زعماء ثابتين . كذلك فإن وفاة صالح بن على فى سنة ١٨٩٨ قد حرم المحـافظين من زعيم قوى . وقد انقضت فترة طويلة من الوقت قبل أن يبرز زعماء جدد ، غير ان ظهور هؤلاء فى نهاية الأمر فيما بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩١٠ ، قد أثبتت أنهم أكثر كفاءة ومقدرة من أسلافهم [١٠٣] . وعلى أى حال ففى عام ١٨٩٦ وجه السلطان حملته على بعض القبـائل الداخلية التى تكتلت ضـده فى سنة ١٨٩٥ وكانت يومئذ منقسـمة على نفسها وبدون زعـامة .

وقد توقع المراقبون ان السلطان فيصل وقد خرج من أزمة عـام ١٨٩٥ سوف يتحرك كمـا فعل والده من قبل فى سنة ١٨٧٥ — لإعـادة تنظيم الحكم على أسس سليمة وواقعية . غير أن هـذه التوقعـات لم تتحقق ، لأن فيصل فى سنة ١٨٩٥ كان يواجه أوضاعاً مالية متدهورة إلى أبعد حد ، ولأن استياءه من البريطانيين كان قـد بلغ درجة من الحدة لم يبلغهـا من قبل بسبب رفضهم مسـاعدته عند هجوم المحـافظين على عاصمته فى شهر فبراير سنة ١٨٩٥ .

---

(١٠٣) التحفة ، تأليف السالمى جزء ٢.ص ٢٨٦ — ٨٨ .

منذ أن امتنعت الهند عن صك الفضة فى معاملها سنة ١٨٩٣ ، ظلت حكومة السلطـــان تحاول دون جدوى معالجة الأزمة الاقتصادية التى تفاقمت • صحيح إن السلطات العمانية منذ وفاة السيد سعيد فى ســنة ١٨٥٦ كانت تعــانى ضائقة مالية متســترة ، وإن الحكومة كانت تفرض ضغطا على المصروفات ، إلا أن أزمة التسعينات كانت أشــد خطورة • وكان السلطان لأكثر من سبب عاجزاً عن مواجهــة الأزمة لأنه كان أمام مشكلتين : مســتوى ثابت من الدخل نسبياً من ناحية وارتفاع فى الأسعار من ناحية أخرى • ومن ناحية أخرى كانت المشــلة المالية جزءاً من أزمة اقتصادية دولية نتجت عن انخفاض فى ســعر العملات فى العالم • غير أن جهل السلطان بالشؤون المالية قد أســهم بدوره فى متاعبه • ففى عام ١٨٩٨ أجرت مصلحة الجمارك لأحد المتعهدين بمبلغ ١٤٠٫٠٠٠ ريال فى العــام ، بينما حصل المتعهد المذكور من العمليات الجمركية على ٢١٤٫٠٠٠ ريال هذا فى الوقت الذى كانت الخزينة تعانى من عجــز بمعدل ٧٠٠ ريال فى الشهر وهو مبلغ يعد كبيراً بالمقاييس العمانية غير أن هــذا العجز كان يمكن تغطيتــه لو ان الســلطان كان يحصــل على الدخول الجمركية بكاملهــا [١٠٤] •

وكنتيجة لهجوم سنة ١٨٩٥ ، أفلست الحكومة • وأخذ زعمــاء الغافرية الذين ساعدوا السلطان فى شهر فبراير سنة ١٨٩٥ ولبوا نداءه لانقاذ عرشــه ، يطالبونه بالمكافآت والأموال كثمن لتلك المســاعدة • بينمــا طالبــه البريطانيون بملغ ٧٧٫٨٩٥ ريالا كتعويض عن ممتلكات التجــار الهنود التى دمرت أثناء هجوم المحافظين على مسقط • وقد قدر مجموع خسائر التجــار الهنود فى البداية بمائتين وستة آلاف ريال ، غير أنه تبين أن هناك تزويراً ومبالغة فى هــذه التقديرات • وعند تقديم قائمة الخسائر

---

(١٠٤) كتاب لوريمر مجلد ١. ص ٥٤٦ « Precis Maskat » ص ١٣٤ .

الى السلطان اقترح الماجور هيز سادلر أن تسـدد هـذه الخسـائر من ضرائب تأديبية على جميع السلع الواردة من داخلية عمـان بصرف النظر عن اشتراك اصحابهـا فى الهجوم على مسقط أو عدم اشتراكهم ، وقد تقدم سادلر بهـذا الاقتراح للسلطان على اسـاس ما كان يؤمن به ، وهو أن لا يمكن أن يثق أحد بالعرب ، غير أن الممثل البريطانى قد وافق اخيراً على اقتراح يقضى بفرض ضريبة تأديبية غير مباشرة بنسبة ٢٠ فى المائة على القبائل التى اشتركت فى القتـال فقط ، إلا أن المعتمد البريطانى لم يتعهـد للسلطان بأى مسـاعدة فى حالة وقوع اضطرابات ضـده نتيجة لفرض الضريبة المذكورة ، غير ان هـذا الموقف أثار غضب السـلطان على المعتمد لدرجة أن كرهه للبريطانيين اشـتد أكثر من ذى قبل ، ودفع به أكثر فأكثر إلى جانب الفرنسيين ، ورغم ان الحكومة البريطانية قررت العدول عن هـذا الخط السياسى فى سنة ١٨٩٦ ، فان تعديل موقفهـا هـذا لم يعوض عن الاضرار التى سببهـا موقف الكولونيل هيز سادلر فى تلك الفترة العصيبة ، غير أن الضريبة التى فرضت لم تحقق للسلطان أكثر من ٢٠٫٠٠٠ ريال خلال العـام الواحد ، ذلك لأن تحصيلهـا ، كما كان الحال بالنسبة لدخل الجمارك ، يتم عن طريق محلات رتنسى برشوتم صاحبة التعهد (١٠٥) .

وفى أعقاب سنة ١٨٩٥ تضاعفت الديون على السلطان لصالح محلات برشوتم وشركائه من التجار الهنود ، ممـا جعله يتمادى فى الاقتراض من هؤلاء المرابين كى يتمكن من تسديد الديون التى عليه ، وكمحاولة لانقاذ خزينة مسقط من الإفلاس قدمت سلطات الهند ــ البريطانية فى سنة ١٨٩٥ قرضاً للسلطان مقداره ٦٠٫٠٠٠ روبيه ، ثم عادت فقدمت إليه قرضاً آخر فى سنة ١٨٩٧ ، وقد سـاعدته هـذه القروض على تسـديد ما عليه من ديون بمـا فيها الفوائد المستحقة عنها ، غير أن القروض البريطـانية

---

(١٠٥) التقرير الادارى ١٨٩٥ — ١٨٩٦ ، ص ١٣ — ١٥ .

للسلطان قدمت اليه بشرط عدم الاقتراض من أى دولة أجنبية أخرى . وفى سنة ١٨٩٧ بلغت ديون السلطان فيصل للمرابين العرب والهنود حوالى ١٣٠٫٠٠٠ ريال من هـذه القروض والقرض الذى أخذه فيصل من أحـد الصرافين ويبلغ ٣٠٫٠٠٠ ريال بفائدة ٢٤ بالمئة وفى سـنة ١٨٩٨ قفز مجموع الديون على السلطان إلى ١٩٠٫٠٠٠ ريال . وفى العـام نفسه اكتشف السلطان فيصل انه قد بدد القرض الذى حصـل عليه فى سنة ١٨٩٧ . ورغم هـذا كله ظل السلطان يرفض فكرة تنظيم الجهاز المالى . وكان الانهيار التام يبدو أمراً حتمياً فى الفترة التى اعقبت أزمة إنشـاء مستودعات الفحم الفرنسية سـنة ١٨٩٩ ، بعد أن قرر الانجليز وقف دفع التعويضات المالية عن اقليم زنجبار [١٠٦] .

إن عزم السلطان فيصل على انتهـاج سياسة مستقلة كان يبدو أمراً لا مفر منـه منذ اللحظة التى اختلف فيهـا مع الانجليز . وكمـا أشرنا آنفا أصبح السلطان فيصل مكروهاً من ممثلى الحكومة البريطـانية فى مسقط حتى قبل سـنة ١٨٩٥ ، وذلك رغم أن صداقة هؤلاء الممثلين لفيصل كانت عاملا حيوياً بالنسـبة لبقائه فى السلطة . ومع ذلك فان سياسـة اولئك الممثلين كانت سياسـة خاطئة أيضـاً ، وأن عجرفتهم كانت تثير حساسيات السـلطان وتدفعه إلى اتخاذ المـواقف غير الوديـة من البريطانيين [١٠٧] . وقد تدهورت العلاقات بين السـلطان والبريطانيين تدهوراً سريعاً فى أعقاب هجوم المحافظين على البلاد فى سـنة ١٨٩٥ . فقد اعتبر فيصـل موقف الحياد التام الذى اتخذه المعتمد البريطانى من احتلال العمانيين لمسقط دليلا على تخلى الحكومة البريطانية عن التزاماتها تجاهه [١٠٨] وربمـا نسى فيصل أن سياسته الودية ازاء أصدقاء الأسرة

---

(١٠٦) لوريمر مجلد ١ ص ٥٧٢ — ٧٣ و « Precis Maskat » ص ٦٦ .
(١٠٧) التقرير الادارى ١٨٩٥/٩٦ ص ١ .
(١٠٨) « Precis Maskat » وكتاب « لوريمر » مجلد ١ ص ٥٥١ .

القدامى وحماتها ، هى التى حالت بينه وبين الحصول على المساعدة البريطانية التى هى ، على أى حال مساعدة ضمنية وليست الزامية .

من خلال هذه الثغرة فى علاقات مسقط بالانجليز تسلل المسيو أوتافى ، القنصل الفرنسى الخبيث الذى وصل مسقط فى سنة ١٨٩٤ للقيام بتدعيم النفوذ الفرنسى فى عمان ، واستطاع بلباقته حمل السلطان على مقاومة التسلط البريطانى . وقد ازداد النفوذ الفرنسى فى بلاط السلطان بعد تعيين عبد العزيز الرويحى سكرتيراً خاصاً للسلطان ، بالاضافة إلى عمله كسكرتير للقنصل الفرنسى أيضاً . وكان لعبد العزيز نفوذ على السلطان يفوق نفوذ وزيره سعيد بن محمد الموالى للانجليز الذى فصل أخيراً من الخدمة فى سنة ١٨٩٨ [١٠٩] .

ومع أن نفوذ القنصل الفرنسى على السلطان فيصل كان مقصوراً على السياسة الخارجية فإن هذا لم يخفف اطلاقاً من اثر الصدمة التى منى بها البريطانيون من موقف السلطان . غير ان بعض المسؤولين فى حكومة الهند البريطانية قد أدركوا أن التدهور الخطير فى العلاقات العمانية كان ، من بعض الوجوه نتيجة لامتناع الانجليز من مساعدة السلطان خلال أزمة سنة ١٨٩٥ . ومن هنا بدأت محاولات جديدة لترضية السلطان فيصل . من هذه المحاولات تقديم قروض مالية اليه وبعض المساعدات العسكرية لقمع ثورة نشبت ضد حكمه فى مقاطعة ظفار . وقد توجت هذه المحاولات بالانذار الذى وجهته الحكومة البريطانية إلى زعماء القبائل العمانية بأنها لن تقف مكتوفة اليدين من أى اعتداء أو هجوم يقع على مسقط ومطرح . وهذا الإنذار يشبه البيان الذى اصدره الانجليز فى سنة ١٨٨٦ بالنيابة عن السلطان تركى بن سعيد . غير ان رد السلطان فيصل على البادرة البريطانية جاء فاتراً ، فقد اعتقد السلطان ان التغيير فى موقف البريطانيين قد جاء نتيجة لاحساسهم بتسرب النفوذ

---

(١٠٩) كتاب « لوريمر » مجلد ١ ص ٥٥٦ .

الفرنسي ، كما أن هذا التغيير جاء متأخراً عن موعده [١١٠] • وقد ظل السلطان متمسكاً بموقفه من البريطانيين • وتجلى هذا التصلب بشكل أقوى فى قرار فيصل باعطاء الاولوية للتجار العمانيين فيما يتعلق بصرف التعويضات عن الخسائر التى لحقت بهم فى حرب سنة ١٨٩٥ • وسواء كان هذا قراراً عادلا أم غير عادل ، فقد فسره الانجليز على انه برهان آخر على عناد السلطان وتماديه فى سياسته [١١١] •

ولقد ساءت العلاقات بشكل خطير فى سنة ١٨٩٨ عندما رفض السلطان أن يصدر أوامره بإطلاق مدافع التحية العادية بمناسبة عيد الملكة فكتوريا • ووقع حادث آخر ضد الانجليز عندما وجه أحد عبيد السلطان اهانة الى بعض ضباط الاسطول البريطانى • ولقد تقدم السلطان باعتذار رسمى عن كلتا الحادثتين ، غير ان سلطات الهند — الانجليزية رأت فيهما دليلا جديداً على عداء السلطان لبريطانيا [١١٢] • ومن ناحية أخرى فان البيان الذى صدر من السلطان بمنح الفرنسيين امتيازاً لانشاء مستودعات للفحم فى منطقة تقع بالقرب من العاصمة قد أضاف بعداً جديداً إلى المشكلة العمانية البريطانية إذ اعتبره الانجليز تهديداً مباشراً لوجودهم فى منطقة الخليج وخطراً على سلامة وأمن امبراطورية الهند البريطانية • وبالتالى عقد المسؤلون البريطانيون ابتداء من وزير الدولة لشؤون الهند فى حكومة لندن وانتهاء بالمعتمد والقنصل البريطانى فى مسقط العزم على وضع حد لتحدى « هذا الحاكم الصغير » [١١٣] • وبربط هذه المشكلة بأزمة فاشودا ، اعتبرت الأزمتان جزءاً من المجابهة العالمية بين الامبريالية البريطانية والامبريالية الفرنسية • ومن ثم فقد

---

(١١٠) « Precis Maskat » ص ٢١ — ٢٢ و كتاب « لوريمر » مجلد ١ ص ٥٥١ — ٥٥٥

(١١١) « Precis Maskat » ص ٢٣ •

(١١٢) نفس المصدر ص ٦٣ — ٦٤ •

(١١٣) خطاب مؤرخ ١٨٩٩/٣/١٠ من هاملتون الى كرزن •

فكانت أغلبية المسؤولين البريطانيين يهمها الوصول إلى حل لهذه المشكلة ، وكانوا مقتنعين بأنه لابد من اتخــاذ خطوة حاسمة « لانهــاء الاوضاع التى لم تعد تحتمل » . وهكذا تم تنفيذ العملية . فقد تحرك الماجور فاجان ، المعتمد الســياسى البريطانى فى مسقط برفقة الكولونيل ميــد ، المقيم البريطــانى فى الخليج ، والاميرال دوجلاس ، قائد الحــامية البحرية البريطانية لمنطقة الهنــد الشرقية على إحدى الســفن الحربية البريطانية إلى مسقط وطلبوا إلى السلطان فيصل الحضــور الى السفينة ، وتحت التهديد بضرب العاصــمة واعتقاله أرغموه على فسخ عقد الامتياز الممنوح للفرنسيين وذلك فى الوقت الذى كانت الحكومة البريطانيــة قد اوقفت دفع التعويض المــالى للسلطان الذى كان يعانى من الافلاس ، كمــا اصدر خبراء القانون الرسميون فى بريطــانيا فتوى تبرر للحكومة البريطانية معاقبة او بالأحرى خلع أى حاكم عمــانى يخل بالتزاماته تجــاه الملكة الامبراطورة (١١٤) .

إن أزمة ١٨٩٨ — ١٨٩٩ كانت بمعنى من المعانى الحفرة التى دفنت فيهــا « سياسية فيصل المســتقلة » . كما أن مؤامرات القنصل أوتافى وتشدد كرزن قد دفعا بفرنســا إلى موقف أصبحت فيه امام خيارين ، إمــا الانسحاب من عمان ، أو مقاومة التصميم البريطانى على شل النفوذ الفرنسى . وعلى الرغم من تدخل اللورد سالسبورى فى الوقت المناسب للحيلولة دون تفاقم المشكلة وبخاصة فى تلطيف الجو إلى حد مــا بين الحكومتين ، إلا أن فرنســا لم يكن فى وسعها إلا الانسحاب من الميدان غير ان هــذا الانسحاب قد وضــع فيصل تحت رحمة البريطانيين حيث لم يبق لــه مفر من الاذعان لمطالبهم فى سبيل الاحتفاظ بمركزه كحاكم فى البلاد . وعندما كان الســلطان يوقع بيده على وثيقة الاستسلام وهو على ظهر السفينة الحربية البريطانية طلب من الحكومة البريطانية ان تضمن

---

(١١٤) « Precis Maskat » ص ٧٧ .

له الحماية فيما لو فكرت الحكومة الفرنسية باتخاذ أى إجراء انتقامى منه لفسخه الاتفاق [١١٥] . وهكذا كتب للسلطان فيصل البقاء فى الحكم .

استئناف التعاون بين العمانيين والبريطانيين — ١٨٩٩ — ١٩٠٣ .

فى فبراير سنة١٨٩٥ كانت سلطة الحكم قد تدهورت إلى أقصى درجات الضعف والتفكك . فجهود السلطان فيصل فى فرض سلطانه على المنطقة الداخلية من عمان خلال الفترة الأولى من حكمه ، فضلا عن رفضه المشاركة فى الأحداث القبلية فيما بعد ، قد أدت إلى انفجار الاضطرابات فى المناطق الريفية من عمــان . كمــا اسفرت خطته للتقرب إلى المحافظين عن هجوم سنة ١٨٩٥ الذى قاده صالح بن على ضد السلطان . ومن ناحية أخرى أثار احتكاكه بالانجليز ، الذين تعتبر صداقتهم له أمراً ضروريا لاستمراره فى الحكم ، ثائرتهم عليه . واخيراً سببت محاولته ضرب النفوذ البريطانى بالنفوذ الفرنسى ازمة سنة ١٨٩٠ . وبالاضــافة إلى كل هــذه العوامل كان الســلطان يعانى من الإفلاس . ولعل الشيء الوحيد الذى حال بين فيصــل وانهيار حكمه هى كونه لا يزال الحاكم الشرعى المستقل للبلاد وسلطان مسقط وعمــان . وفى الفترة الواقعة بين شــهر فبراير وشهر اكتوبر سنة ١٨٩٩ كانت العلاقة بين بريطانيا وعمان ، بل ومستقبل السلطان نفســه يكتنفهــا الغموض [١١٦] . غير ان تلبد الجو بين الطرفين مــا لبث أن تبدد أخيراً فى شــهر اكتوبر بوصول الماجور برسى كوكس ليحل محل الماجور فاجان كمعتمد ســياسى بريطانى فى مسقط . فبعد بضــعة أشهر من وصول المعتمد السياسى الجديد استطاع بلباقته وحسن أســلوبه من تخفيف حدة العداء للانجليز ممــا جعل السلطان فيصل ينحو منحى جديدا يقوم على الاعتمــاد على مشورة المعتمد البريطانى فى مسقط . وقد سنح

---

(١١٥) نفس المصــدر ص ٧٣ — ٧٤ .

(١١٦) خطاب مؤرخ ١٨٩٩/٦/٣٠ من هاملتون الى كرزن .

الوضع الجديد لأن للوزير سعيد بن محمد بأن يستعيد ما كان له فى عهد السلطان تركى من نفوذ على البلاط • وفى أواخر سنة ١٨٩٩ طلب السلطان فيصل إلى الحكومة البريطانية بأن تتقدم عنه باحتجاج إلى الحكومة الفرنسية على رفع بعض السفن العمانية للعلم الفرنسى • قد جاءت هذه الخطوة دليلا على اعتماد السلطان على الانجيز فى الشؤون الخارجية اعتماداً كلياً (١١٧) •

أما على الصعيد الداخلى فقد عاد فيصل إلى انتهاج الأسلوب الذى كان يسير عليه والده تركى • وعند إحالة الوزير سعيد بن محمد فى سنة ١٩٠٢ على التقاعد خلفه قطب قديم آخر من أقطاب الجناح المعتدل هو سليمان بن سويلم (١١٨) • وخلال هذه الفترة نجح السلطان فى تحقيق بعض الاستقرار المؤقت فى أوضاعه المالية ، عن طريق قروض جديدة من البريطانيين واستغلال الجمارك من جانب الحكومة نفسها • وتنفيذاً لهذه السياسة أنشأ السلطان مصلحة للجمارك فى سنة ١٨٩٩ وكنتيجة لهذا الاجراء ارتفعت حصيلة دخله من الجمارك فيما بين سنة ١٨٩٩ وسنة ١٩٠٤ إلى ٨٠٫٠٠٠ ريال فى العام وهو رقم يزيد على الرقم الذى كان يدخل إلى خزينته عندما كانت الجمارك فى يد القطاع العام (١١٩) • كما ان ضعف المعارضة العمانية لفيصل من جانب القوى المحافظة ، قد مكن فيصل باستخدامه لتكتيك والده من استعادة نفوذه فى المنطقة الداخلية من البلاد • وفى سنة ١٩٠٣ أصبح نفوذه فى المناطق الريفية أقوى من أى وقت مضى ، كما دانت له بعض المناطق الهامة فى داخلية عمان كمدينة نزوى حيث كان لوالده تركى مجرد نفوذ اسمى فى أحسن الحالات • وفى

---

(١١٧) خطاب مؤرخ ١٩٠٠/١/٥ من هاملتون الى كرزن •
(١١٨) كتاب « لوريمر » مجلد ١ ص ٥٢٥ •
(١١٩) نفس المصدر ص ٥٧١ — ٧٣ و ٥٨٤ — ٥٨٦ •

سنة ١٩٠٣ ابتاع السلطان سـفينة مسلحة لتعزيز نفوذ مسـقط على المقاطعات الساحلية من عمان [١٢٠] .

إن الفترة الواقعة بين سنة ١٨٩٩ وسنة ١٩٠٣ تعتبر بداية لمرحلة جديدة فى مصير الاباضيين المحافظين فى عمـان . فبوفاة ابراهيم بن قيس فى مدينة الرستاق سـنة ١٨٩٨ خسر المحافظون آخر زعيم على قيد الحياة من زعمـاء إمامة سـنة ١٨٦٨ — ٧١ ممن لهم نشـاط سياسى ملحوظ . ولقد قام سعود بن عزان ، نجل الامام عزان بن قيس بمحاولات جديدة لاحياء الحركة المحافظة واعادة تنظيمهـا فدعا فى سنة ١٨٩٨ إلى مؤتمر عام فى مدينة الرستاق لبحث إمكانية بعث الإمامة فى عمـان بزعامته . وكان يبدو لأول وهلة أن حركة سعود قد تنجح ، غير أن الزعماء والساسة الشبان الذين ورثوا زعامة المحافظين ، لم يكونوا قد حققا النضج والخبرة والنفوذ اللازم لتحقيق التناسق السـياسى والدينى الذى لا بد من أن يتوفر لنجاح أى حركة لبعث الحكومة الذاتية فى البلاد [١٢١] . غير أن اغتيال سعود بن عزان فى سنة ١٨٩٩ قد قضى نهائياً على هـذه الآمال . ومع ذلك فقد ظهر من بين الصفوف زعماء جدد من جيل الشـباب العمانى المحافظ . حيث ظهر عيسى بن صالح ، نجل صالح بن على كأهم زعيم بين الزعماء الذين يؤيدون النظـام المحافظ فى عمـان . كما كانت الحاجة ماسة إلى زعيم دينى وفكرى جديد يلتفت من حـوله الرأى العمـانى العام المحافظ ويشـغل المكان الذى شغر بوفاة سعيد بن خلفان سنة ١٨٧١ . وقد تركزت الانظـار على عبد الله بن حميد السـالمى ، المؤرخ والقاضى وعالم الحركة الاباضـية فى عمان . وفى بداية القرن العشرين وقع حادث هام فى عمـان الداخلية . فقد قرر بعض قبائل عمان الشرقية ، اعتزال

---

(١٢٠) التحفة ، تاليف السالمى جزء ٢ ص ٢٩١ و كتـاب « لوريمر مجلد ١ ص ٥٨٣ — ٥٨٤ .

(١٢١) التحفة ، تاليف السالمى جزء ٢ ص ٢٨٩ — ٩١ .

السياسة والانزواء فى الداخل . وفى سنة ١٩٠٢ منع عيسى ابن صالح بعثة مؤلفة من بعض العلماء البريطانيين من التنقيب عن الفحم فى إحدى المناطق الواقعة فى الجزء الداخلى من اقليم صـــور . كمـــا رفض عيسى بن صالح طلبا تقدم به الماجور برسى كوكس المقيم البريطانى فى الخليج بفتح المنطقة ســلمياً للابحــاث العلمية ورد على اقتراح المقيم بعبـــارة تقول : « أننى لست مستعداً للاجتماع به أو لاجتماعه بى » (١٣٢) . ولقد تحققت هــذه التنبؤات ، إذ مـــا ان عادت الامامة إلى عمـــان الداخلية فى سنة ١٩١٣ ، بجهود زعمــاء أمثال عيسى بن صـــالح ، حتى اعتنقت سياسة التقوقع والانعزال على الصـــعيد الرسمى .

غير ان الامامة المحافظة فى عمـــان سنة ١٩٠٣ لم تكن لها تلك الشعبية ولا استقطبت ذلك الولاء الذى كان لهـــا فى الماضى ، وبذلك صـــفا الجو للســـلطان فيصل لكى ينعم بالسلطة . غير ان زيارة اللورد كرزن لمسقط فى ســـنة ١٩٠٣ كجزء من برنامج زيارته العـــامة لاقطار الخليج والتى كانت تســـتهدف تأكيد السيطرة البريطانية على المنطقة قد كشفت حقيقة السلطة الفعلية التى يمارسها السلطان فيصل . فقد كتب اللورد كرزن فى ســـياق تقرير له عن تلك الزيارة بأن السلطان فيصل كان يمثل « دور التابع المخلص للتاج البريطانى أكثر ممـــا كان يمثل دور الحاكم المستقل » . كما أشار اللورد بأن وضع السلطان بالنسبة للحكومة البريطانية لا يختلف اطلاقاً عن وضع « أمراء الهند المرتبطين بعجلة الحكم البريطانى » ولقد كافأ اللورد كرزن السلطان فيصل على ولائه هذا بأن تعهد له بأن حكومته سوف تخف لحمايته ، وبالقوة إذا دعا الأمر (١٣٣) فى أى وقت يتعرض حكمه للتهديد . ولقد نفذت بريطانيا تعهدها هــذا بعد مضى عشر سنوات من ذلك التـــاريخ .

---

(١٣٢) نفس المصـــدر ص ٣٠١ Precis Maskat ص ١١٥ .

(١٣٣) كتاب لوريمر مجـــلد ١ ص ٢٦٣٤ — ٣٦ .

ولئن كان فيصـــل فى سنة ١٨٩٩ على استعداد لأن يمثل دور « التابع المخلص للتاج البريطانى » فإنه فى قرارة نفســـه لم يكن راضياً عن ذلك الوضع وهـــذا يفسر حالة اليأس التى كانت تنتابه من حين إلى آخر . وفى عام ١٩٠٣ وهو نفس العام الذى استسلم فيه السلطان فيصل لشروط الانجليز ، أخذ يفكر جدياً فى التنازل عن الحكم [١٢٤] . وربمـــا كـــان إحساس فيصل بالعزلة وخيبة الأمل والقلق من المستقبل أقوى مـــا يكون فى تلك المرحلة من حياته . فلقد اتهمه العمـــانيون بالتواطؤ مع الاجنبى ، ورغم ذلك فقد كان إيمانه بعمـــان وولاؤه لتقاليدها أمراً لم يكن يرقى اليه الشك . والدليل على ذلك هو لقب« الامام » على العملة الرسمية التى اصدرها . وبالرغم من إدراك فيصـــل ، بعد الحادث الذى تعرض له فى سنة ١٨٩٩ ، أنه يعيش فى عصر ، الكلمة العليا فيه للدول الحديثة ، فانه فى الواقع . لم يكن يفهم مـــا تريد تلك الدول ، وكان يبدو متشائماً من التغييرات التى قد يكشف عنهـــا المستقبل . ومن المفارقات العجيبة حقاً أن الرجل الذى حاول فى وقت من الأوقـــات أن يحافظ على اســـتقلال بلاده وكرامتها ، لم يظهر أى استعداد لتخليص بلاده من تقاليدها البالية .

---

(١٢٤) نفس المصـــدر ص ٥٨٧ .

الفصل التاسع

خاتمـــــة

عمان فى القرن العشرين

فى غضون النصف الأول من القرن العشرين ظلت الاحداث فى عمان تسير على نفس المنوال الذى سارت عليه ما بين سنة ١٨٦٢ وسنة ١٩٠٣ . فلقد كانت الحكومة فى مسقط تمثل مصالح سكان المنطقة الساحلية والاباضية المعتدلة . وكانت تتمتع بحماية الحكومة البريطانية ومساعدتها . وكان المعتدلون يواجهون معارضة من المجموعات الأباضية المحافظة المتحصنة داخل الحدود الداخلية للبلاد . وكانت هذه المجموعات تسعى بحكم عقليتها البالية إلى المحافظة على بيئتها الدينية والسياسية المتجانسة . ومن ناحية أخرى ظلت الحالة الاقتصادية — وكانت تمر بمرحلة ركود فى سنة ١٩٠٣ — تسير من سىء إلى أسوأ . وقد ظلت هذه السمات ، وفقاً للظروف المتغيرة تستقطب واقع المجتمع العمانى حتى سنة ١٩٥٥ . فابتداء من هذا التاريخ بدأت تظهر بوادر تغييرات اساسية فى صلب المجتمع العمانى . وكان فى حكم المؤكد ، على ما يبدو ، أن عمان على أبواب مرحلة جديدة فى تاريخها وأنها تشهد بداية النهاية لمرحلة مؤلمة من التخلف السياسى والاقتصادى استمرت مائة عام وقضت على أهمية البلاد ومكانتها فى جميع أنحاء العالم . .

انقسام عمان الى سلطنة وامامة ، ١٩١٣ — ١٩٥٥

قضى السلطان فيصل معظم الفترة ما بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩١٠ يعمل ، كما يبدو ، على تعزيز مركزه فى البلاد . ويتضح من وضع عمان ،

إذا ما نظرنا اليه من زاوية الماضى ، أنه قد تطور تطوراً واضحاً . فالسلطان فيصل لم يسترد مركزه من جراء النكسة التى منى بها فى سنة ١٨٩٩ عندما عصفت الأحداث بأمانيه وأحلامه فى حكم مستقل ، واهينت كرامته الشخصية اثناء وجوده على ظهر السفينة الحربية البريطانية . وطوال الفترة التى كان فيها السر برسى كوكس معتمداً سياسياً للحكومة البريطانية لدى السلطان — سنة ١٨٩٩ — ١٩٠٤ ، كان السلطان المغلوب على أمره ينفذ أوامر البريطانيين . وهكذا استطاع السلطان فيصل بفضل القروض الانجليزية وتوجيه « الملك غير المتوج للخليج » تحسين اوضاعه المالية إلى حد ما [1] . كما استعاد بعض ما فقده من نفوذ بين قبائل عمان الداخلية وذلك كله بفضل العودة إلى سياسة وتكتيك والده السلطان تركى بن سعيد ، وهى سياسة تقوم على إقرار السلام والوئام فى ربوع السلطنة الداخلية والساحلية . غير أن الجانب الأكبر من النجاح النسبى الذى حققه السلطان فيصل بعد سنة ١٩٠٣ لا يعود اليه شخصاً بقدر ما يعود إلى جهود سليمان بن سويلم وزير حكومة مسقط من سنة ١٩٠٢ حتى سنة ١٩٠٧ ، وأحد العبيد السابقين . وبما أن زعماء عمان المحافظين كانوا يومئذ منقسمين على أنفسهم ولا يثق بعضهم بالبعض الآخر ، حتى سنة ١٩١٣ عندما عادوا فاتفقوا من جديد ، فإن هذا يعنى أن السلطان لم يكن يواجه معارضة قوية ضد الحكم تستنفد جانبا من اهتمامه . ولهذا ساد البلاد جو من الهدوء النسبى استمر لبعض الوقت . فى عام ١٩٠٦ تمكن السلطان من إقامة علاقات ودية — على المستوى الرسمى على الأقل — مع الشيخ عيسى بن صالح الذى تولى زعامة الحرث سكان المقاطعة الشرقية . خلفاً لوالده صالح بن على ، كما كان أحد زعماء الهناوية البارزين . وكان الشيخ عيسى مشغولا

---

(١) رسالة بتاريخ ٢٢ يناير سنة ١٩١٧ من كرزن الى كوكس نقلا عن جريفز فى كتابه « حياة كوكس » وقد ألمح فيه الى اشارة كرزن الى المكانة التى أصبح يحتلها كوكس فى الخليج خلال عمله هناك .

فى ذلك الوقت بالبحث عن حلفاء يؤيدونه فى نزاعه مع الشيخ حمد بن ناصر زعيم بنى ريام (٢) •

أما فيما يختص بعلاقات عمان الخارجية فقد اتسمت الفترة الواقعة بين سنة ١٩٠٤ وسنة ١٩١٤ بالاستقرار المتزايد إذا قورنت بالأحوال المضطربة الحافلة بالمناورات فى الفترة السابقة • وقد تمت تسوية الخلافات الانجليزية — الفرنسية على عمان ، وحصلت بريطانية على اعتراف من جانب الدول الكبرى بسيادتها على منطقة شرقى الجزيرة • وكنتيجة لا تفاق سنة ١٩٠٤ بين الحكومتين الانجليزية والفرنسية سويت مشكلة السفن العمانية التى كانت ترفع العلم الفرنسى « عن طريق محكمة لاهاى » وفى الفترة ما بين سنة ١٩٠٨ وسنة ١٩١٤ بذلت بريطانيا جهوداً واسعة للحد من تجارة السلاح فى مسقط ، وهى الجهود التى اسفرت عن اعتراف دولى باطلاق يد بريطانيا فى معالجة هذه المشكلة والقضاء عليها • ولقد قاوم الفرنسيون هذه المحاولات فى البداية واعتبروها استراتيجية بريطانية موجهة ضد حق فرنسا فى حرية الوصول إلى الأسواق العمانية ، غير أن حكومة باريس وافقت أخيراً على مبدأ التعويض الذى اقترحته الحكومة البريطانية • وكان عام ١٩١٤ خاتمة لمحاولات دامت عشرين عاماً بذلتها فرنسا لتوطيد نفوذها وحقوق معاهداتها مع عمان • وبانسحاب فرنسا من حلبة الصراع لم تحاول أى دولة كبرى غيرها تحدى السيطرة البريطانية فى عمان • ولما كان ابن سعود مشغولاً فى ذلك الوقت بمحاولاته التى أدت إلى إقامة دولة سعودية فى شبه الجزيرة العربية ، لم يعد امام زعماء عمان أو حلفائهم البريطانيين مشاكل مباشرة •

غير ان الفترة القصيرة التى نعمت فيها عمان بالاستقرار الداخلى سرعان ما انتهت فى سنة ١٩٠٧ • فقد اغتيل سليمان بن سويلم فى منطقة

---

(٢) التحفة ، تاليف السالمى جزء ٢ ص ٣٠٢ — ٣٠٣ و كتاب عمان اعداد شركة الزيت العربية الأمريكية ص ٥٢ .

السيابيين ، بينمـا كان عائداً من زيارة إلى القابل مقر الشـيخ عيسى بن صالح بمقاطعة الشرقية ويبدو أن اغتيال هـذه الشخصية ذات النفوذ قد جاء نتيجة لازدياد السخط فى اوسـاط بعض القبائل العمانية ضـد تدخل المذكور فى شؤونهم الداخلية • كمـا كان الاعتداء على حياته مقدمة لسلسلة من المتـاعب للسلطان فى هذا الجزء الحيوى من عمان • فقد سير السلطان حملة عسكرية لتأديب السيابيين • ورغم مـا حققته الحملة من اجراءات انتقامية ضـد هذه القبيلة الا أنها لم تسـاهم فى تعزيز مركز السلطان فى وادى سـمايل • كما كانت الحملة آخر محاولة جادة من فيصل لفرض سـلطته فى المنطقة الداخلية من عمـان • وبما ان حكومة فيصل قد ضعفت بوفاة واحد من ابرز رجالهـا فقد دب فيها التفكك والانهيار • فالاستقرار المالى الذى تحقق للبلاد فيمـا بين سنة ١٨٩٩ وسنة ١٩٠٤ كان الضحية الأولى لهـذا التدهور • ورغم وعود السلطان بالرجوع إلى البريطانيين فى أموره المالية ، إلا أنه عقد قروضاً جديدة كبيرة مع التجار الهنود المستوطنين ، ومع الجمارك ،كما أخذ قرضاً من المسيو جوجيور ، أكبر تاجر اسلحة فرنسى فى مسقط • ولقد ساءت الحالة المالية فى سنة ١٩١٠ كنتيجة لانخفاض ايرادات الجمـارك بعد الحصار الاقتصادى الذى فرضه البريطانيون على شواطىء الخليج لمنع اعادة شحن الاسلحة منه إلى الخـارج ، فى عام ١٩١١ تقدمت سلطات الهند — البريطانية بقرض كبير وبدون فوائد للسلطان لانقاذه من افلاس مؤكد ، غير ان الجهـاز المالى غير الفعال للسلطان استمر على حالته [٣] •

وفى سنة ١٩١٢ انفجر الوضـع المتدهور من جديد عندمـا وافق السلطان على مشروع بريطانى بإنشـاء مركز لخزن الذخيرة وتوزيعها فى عمان فمنذ سنة ١٨٩٨ ظل البريطانيون يضغطون على السلطان بفرض

---

(٣) التحفة ، تأليف السالمى ٢ ص ٣٠٢ — ٣٠٥ و « تجارة الأسلحة » — ١٩١٣ من سجلات الحـكومة الهندية .

حظر أشد على تجارة الأسلحة ، كما أرغمت الحكومة البريطانية رعاياها الهنود على عدم الاشتراك فى أى صفقات تجارية فى الأسلحة ، وقد أدت هذه الاجراءات إلى تحول الأرباح إلى المؤسسات الفرنسية والالمانية . وعلى الرغم من أن السلطان قد وافق فى النهاية على التوقيع على اجراءات الرقابة الضارة باقتصاده تحت ضغط الانجليز ، إلا أنه سبق أن عارض المحاولات البريطانية للحد من تجارة الاسلحة ، لانها كانت تمثل جانبا هاما من النشاط التجارى فى البلاد ، وكانت مربحة لخزانة السلطان الخاوية . ففى عام ١٩٠٧ حصل السلطان على سبيل المثال على ١٤٫٥٠٠ ج . س . كضرائب من شحنات الاسلحة التى وردت إلى البلاد . ولكن بعد ان تعهدت بريطانيا للسلطان بزيادة نسبة المخصصات التى تدفعها اليه عن زنجبار إلى ١٠٠٠٠٠ روبية أو (٦٦٦٦ ج . س) وافق على فرض قيود على هذه التجارة وقد أعطيت له هذه الزيادة لتغطية الخسارة المالية التى قد يتعرض لها إذا ما وافق على الحد من تجارة السلاح . وإذا كانت القيود التى فرضها السلطان على الأسلحة ، قد وضعت نهاية لعمليات تهريب الأسلحة فى الخليج وكان ذلك فى مصلحة الانجليز ، فإنها من ناحية أخرى قد عجلت بانفجار أخطر أزمة تجارية يواجهها الحكم فى مسقط [٤] .

وقد رأى كثيرون من العمانيون ان توقيع فيصل على الاتفاقية دليل على خضوعه التام للنصارى من الاجانب وعلى ميوله المرطقية . فلقد اصبح اعتماد السلطان على المساندة العسكرية البريطانية ، واضطراره إلى تبنى وجهة النظر البريطانية فيما يتعلق بتجارة الأسلحة أمراً واضحاً كل الوضوح . والواقع أن الشيخ عيسى بن صالح قد بعث فى سنة ١٩٠١ برسالة شديدة اللهجة إلى السلطان فيصل يحتج فيها على أطلاق المسؤولين البريطانيين سراح العبيد الذين يفرون من

---

(٤) الخليج العربى ص ٢٧ تأليف ارنولد ويلسون و « عمان » اعداد شركة الزيت العربية السعودية ص ٥٣ .

اسيادهم [٥] . كمـا عاد فاحتج فى سنة ١٩١٢ على قيود الحظر التى فرضت على تجارة الأسلحة . غير أن الزعماء الآخرين من المحافظين لم يكتفوا بتوجيه خطابات الاحتجاج وحسب . ففى شتاء سـنة ١٩١٣ استطاع زعماء ودعاة الأباضيين المحافظين تعبئة الرأى العـام فى المقاطعات الوسطى من عمان . وفى منطقة الجبل الأخضر وفى الشرقية ضد الاقتراح البريطانى بانشـاء مركز لتوزيع الأسلحة ، لكونه محاولة من الانجليز لحرمان العمانيين من الحصـول على حاجتهم من الأسـلحة الحديثة . وإذا كان هـذا الاجراء قد افاد السلطان من الوجهة السياسية ،لأنه يحرم القبائل العمانية من أسلحة يستخدمونها ضـده ، غير أنه قد غـاب عن ذهن السلطان ان قبائل عمان كانت تقوم بجمع الاسلحة والذخيرة منذ فترة تمتد عشرين عاماً . وكانت مسـلحة حتى الذقون وان الاجراء الذى اتخذه السلطان قد جاء متأخراً [٦] .

فى ربيع سـنة ١٩١٣ بدأ خليط من زعماء المحـافظين بالتجمـع والاستعداد لمواجهة مـا كانوا يعتقدون أنه خطر يتهددهم . وكانت ثمة ثلاث طوائف رئيسية بين المحافظين . كانت هناك المجموعة التى يتزعمها الشيخ عبد الله بن حميـد السـالمى ، العالم الدينى الضرير وأبو التاريخ العمـانى ورائد العقيدة الاباضية ، وأكثر المجموعات تطرفاً فى العقيدة بمفهومها الكلاسيكى الذى يهدف إلى إقامة الدولة الاباضية الفاضـلة . وكان الشيخ السـالمى يحظى بتأييد الشيخ سالم بن راشد الخروصى ، زعيم بنى خروص وهى قبيلة انجبت عددا كبيرا من الأئمة العمـانيين فى القرون الوسـطى . ومجموعة بنى هنا بزعامة عيسى بن صالح شـيخ الحرث وهى قبيلة عسكرية وتمثل النواة الصـلبة فى قوة المحـافظين

---

(٥) حياة برسى كوكس ، ص ٦٣ ، تأليف جريفز .

(٦) « الحرب العربية » جرترود بيل . من تقارير سرية كانت تبعث بهـا المؤلفة الى القيادة البريطانية العامة . وقـد أعيد نشرها من النشرة السرية العربية ص ٢١ (طبعة لندن ١٩٤٠) .

العسكرية واليهـا يعود الفضل فى نشوء إمامة عزان بن قيس سنة ١٨٦٨ • وكان الشـيخ عيسى بن صالح زعيماً لامعاً قوى الشـكيمة ، وقد نشأ كوالده الراحل نشـأة سياسية فى المقـام الأول • وكان يسـعى إلى تحقيق الاستقلال الذاتى لقبيلته واحتلال مركزها الطليعى بين قبـائل الهناوية وإلى تأكيد زعامته للقوى المحافظة فى عمان • ولم يكن الشيخ عيسى متزمتا كالسالمى فى مسـائل العقيدة ، وكان بالتالى ميالا إلى الحلول السياسة ان توفرت • أمـا المجموعة الثالثة فهى قبائل بنى ريام وأحد أركان قوى الاباضية فى عمان وكان يتزعمها حمير بن ناصر النبهانى شيخ مشايخ بنى ريام الغافرية•ومقر هذه القبيلة مدينةتنوف الواقة على منحدرات الجبل الاخضر المطل على مقاطعة عمان الوسـطى • وقد ظل الشيخ ناصر معتزلا فى مقره ولم يشـارك فى إمامة عزان بن قيس وفى نشـاط المحافظين بوجه عام حتى أوائل القرن العشرين • وكانت المخـاوف تساور الشيخ حمير على اسقلاله وعلى مستقبل العقيدة الاباضـية من التدخل المتزايد للقوى الأجنبية فى شـؤون البلاد الداخلية والتلاعب بمقدراتهـا مما دفعه إلى الانضـمام إلى المحافظين والانحياز إلى صفوفهم • وقد تأثر شيخ بنى ريام فى قراره هـذا بالمصالح القبلية أكثر ممـا تأثر بأهداف مؤسسى امامة سـنة ١٩١٣ • كما ان فصيلة النباهنة من بنى ريام قد ساهمت بعدد من الزعماء الذين وصـلوا إلى مراكز القمة فى داخلية عمان فيمـا بين القرن الثانى عشر والسـابع عشر [٧] • وقد تم تشـكيل الائتلاف المحافظ على مرحلتين • فقد اجتمـع كل من حمير بن ناصر وحميد السـالمى ، وسالم بن راشد الخروصى فى مدينة تنوف فى شهر مايو سـنة ١٩١٣ واتفقوا على ترشـيح الخروصى إماماً على عمـان ، ثم شرعوا فى تعبئة بقيـة

---

(٧) « الحـكم العربى فى ظل أسرة البوسـعيد العمانية » برترام توماس : موضوع محاضرة القـاها فى الاكاديمية البريطانية — سلسـلة ١٤ (١٩٣٨) ص ٤٧ و كتاب عمان اعداد شركة الزيت العربية الأمريكية ص ٥٣ و ٧٥—٨٢ .

العمانيين لتأييد هـذا الترشيح للامامة الجديدة [٨] . وفى أعقاب هـذا المؤتمر لعلماء الدين الاباضيين اعلنوا خلع السـلطان فيصل عن الحكم لانحرافه عن جادة المسلمين أى (الاباضيين) وباعتبار وجوده على الحكم غير شرعى وأحكامه باطلة [٩] وتعيين الخروصى اماماً على عمان . وكان الواضـح من هذه الخطوة أنها تهدف فى الاساس إلى إقامة إمامة على غرار إمامة سـنة ١٨٦٨ — ٧١ وتضم كل عمان ساحلياً وداخلياً . فى البداية لم يشـترك عيسى بن صالح فى هذا التجمع ، نظرا لعدائه الشديد لحمير بن ناصر وعبد الله بن حميد السالمى من ناحية ، ولمـا يتمتع به من حس سياسى عملى جعله يتريث حتى يعرف موقف الرأى العـام بالنسبة إلى النظام الجديد ، إلا أن إنتظاره لم يطل . ففى شـهر يونيو سنة ١٩١٣ اعلنت نزوى ، ذات المكـانة العريقة فى تاريخ عمـان ، عاصمة للامامة الجديدة . وفى يوليو تبعتهـا بلدة ازكى المجـارة . وفى هذه الاثناء أعلنت غالبية القبـائل العمانية — غافريين وهناويين — ولاءها للامام الجديد . ويعتبر تأييد الهناوية والغافرية للخروصى ومساهمتهم فى تنظيم وانشـاء الامامة الجديدة أمراً بالغ الأهمية . فقد كان من الأسـباب التى اطاحت إمامة عزان بن قيس ، ومـا أعقبها من فشل المحافظين فى صراعهم ضد السلاطين المعتدلين . غير ان عيسى بن صالح مـا لبث أن أدرك الحقيقة فانضم إلى الامامة فى يوليو سـنة ١٩١٣ ، وأصـبح بعد قليل أحـد أركانها . بانضمام عيسى إلى المؤيدين للامامة تعززت جبهة الهناوية — الغافرية وظلت محتفظة بقوتها وبوحدتها للأمة زهاء أربعين عاماً [١٠] .

فى شـهر يوليو سنة ١٩١٣ أثارت الأحداث داخل عمان مخـاوف المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط ممـا دفعه إلى توجيه تحذير إلى

---

(٨) مذكرة السـعودية مجـلد ١ ص ٣١٨ و « الحـرب العربيـة » جرترودبيل ص ٣١ .
(٩) مذكرة السعودية مجـلد ١ ص ٣٢٠ — ٣٢١ .
(١٠) « اسرة البو سعيد » ، تأليف برترام توماس ملف ٢٤ ص ٤٧ .

الزعماء العمانيين من القيام بمهاجمة مسقط أو مطرح ، وقال لهم فى رسالته : بأن حكومته لن تقف مكتوفة اليدين إزاء عمل كهذا . غير أن الماجور نوكس لم يرتح لردالإمام الذى حذره فيه من تدخل بريطانيا فى شؤون الاباضيين ، أو الاعتداء عليهم (١١) . وإزاء هذا الوضع اصبح من المحتم إنزال فصيلة صغيرة من القوات الهندية فى مطرح فى شهر يوليو كتعبير عن عزم حكومة الهند البريطانية على تنفيذ التزاماتها بالدفاع عن السلطان . وعلى أى حال فقد تدهور موقف السلطان تدهوراً خطيراً فى شهر اغسطس ، لان الممرات الواقعة فى وادى سمايل ، كما ومنطقة سمايل نفسها قد سقطت فى أيدى أنصار الامام . وغدت كل من مسقط ومطرح معرضتين للتهديد المباشر من جانب نظام الإمام الذى كان قد أعلن بأن هدفه هو إطاحة حكم السلطان . وتحسباً لهذا ضوعفت فى شهر سبتمبر سنة ١٩١٣ القوات الهندية المرابطة فى أراضى السلطان وانتقل الجنود إلى خنادقهم وتحصيناتهم فى بيت الفلج على مدى قريب من المدينتين الساحليتين (١٢) .

فى الرابع من شهر أكتوبر سنة ١٩١٣ توفى سيء الحظ فيصل بن تركى بعد أن وهنت سلطته على مملكته . وخلفه على الحكم ابنه الأكبر تيمور ، وكان يومئذ فى السابعة والعشرين من عمره . وكان له نشاط ملحوظ فى حكومة والده الراحل . وبما أن تيمور قد تولى الحكم فى فترة كانت خزانة الدولة فارغة وسلطة الحكم مزعزعة فى البلاد فقد حاول بكل ما فى طاقته أن يعمل على تحسين الأوضاع . ولهذا بادر إلى دعوة صديقه القديم الشيخ عيسى بن صالح إلى مسقط للدخول فى حوار معه وكان ذلك فى شهر ديسمبر سنة ١٩١٣ . غير أن محادثاته مع صالح لم تسفر عن نتيجة ،

---

(١١) مذكرة الحكومة السعودية مجلد ١ ص ٣١٩ .
(١٢) الحرب العربية ص ١٢ ، تأليف جرترود بيل .

وفى ربيع ســـنة ١٩١٤ كان رصيد الامـــام من التأييد بين قبائل عمـــان الساحلية قد ازداد كثيراً • وقـــد احتل المحافظون المدينتين الساحليتين بركا على ساحل الباطنة وقريات الواقعة على مسافة ٤٠ ميلا إلى الجنوب من مسقط • ولم يبق تحت سيطرة السلطان تيمور سوى مسقط ومطرح وصور وصحار وبعض الموانىء الساحلية الصغيرة على ساحل الباطنة • غير أن المحافظين تلقوا فى شهر أبريل سنة ١٩١٤ أول ضربة عندما قـــام الطرادان البريطانيان فوكس ودرمرت باقصائهم من بركا وقريات • فبعد وجود استمر مائة عام لم يعد البريطانيون يحتملون أى تهديد لنفوذهم على شواطىء الخليج ، غير أن نشوب الحرب العالمية الأولى فى شـــهر أغسطس سنة ١٩١٤ جعل السفن الحربية والقوات المسلحة البريطانية غير متوفرة ومستعدة للعمل بالسرعة والشكل اللذين كانا متوفرين من قبل • وفى نفس الوقت كانت الدعاية الالمانية التى أخذت تتسلل إلى عمان عن طريق زنجبار وأفريقيا الشرقية الألمانية (تنجانيقا) تعلن أن النفـــوذ البريطانى فى الخليج لم يعد له وجود • وعلى كل ففى شهر أغسطس سنة ١٩١٤ وصلت مجموعة أخرى من القوات الهندية الى مسقط • ومن ثم فعندما قام الامام سالم الخروصى والشيخ عيسى بن صالح بهجومهما المنتظر على العاصمة فى شهر يناير سنة ١٩١٥ كانت وسائل الدفاع عن البلاد على أتم الاستعداد (١٣) •

ولقد قامت بالهجوم على مسقط قوة تتألف من ٣٠٠٠ مقاتل ضـــد ٧٠٠ جندى من القوات الهندية المرابطة وراء تحصينات قوية • ثم التحم الجيشان ، جيش الامام الواثق من نفسه ضد جيش مسقط الذى يقل عنه عدداً ولكنه يفوقه تدريباً وتنظيماً • ونشبت معركة بين الطرفين فى وضح النهار • غير أن انعدام أى أثر للتكتيك العسكرى فى جانب قوات

---

(١٣) نفس المصـــدر ص ٢١ ــ ٢٣ و « عمـــان » اعـــداد شركة ارامكو ص ٥٤ •

الامام اسفر عن مجزرة رهيبة فى صفوفها اضطرها إلى التقهقر نحـــو المرتفعات الداخلية دون أن تفكر فى اعادة الكرة مرة أخرى [١٤] • ولقـــد تم تطهير المنطقة الساحلية من فلول قوات الامام بعد هجوم شنته قوات مسقط فى شهر يوليو سنة ١٩١٥ بقيادة السـلطان تيمور على قبيلة بنى بطاش التى لم تكن قد القت السلاح • وقـد استسلمت حيل الغاف ، عاصمة هذه القبيلة ، كما استسلمت أيضاً بلدة دغمر ، ميناء المنطقة الجنوبية من مسقط حيث اقام العمانيون بعض التحصينات الدفاعية • وعلى الرغم مما اشيع يومئذ عن أن قوات الامام تستعد للزحف على صور فى شـــهر أكتوبر سنة ١٩١٥ ، إلا أن السلطان تيمور لم يجابه أى تحركـــات معادية بعد ذلك الوقت [١٥] •

أما وقد فشلت خطة المحافظين العمانيين فى القاء تيمور وقواته إلى البحر ، أصبحت الفرصة مؤاتية لاجراء مفاوضات بين السلطان والامام • وقد جرت هذه المفاوضات بناء عـــلى اقتراح اللورد هاردنج الحـــاكم البريطانى العام فى الهند ، الذى عرض خلال زيارته لمسقط فى شهر فبراير سنة ١٩١٥ مساعدة المعتمد السياسى البريطانى كوسيط بين الجانبين • وقد فسر المحافظون موافقة السلطان على اقتراح اللورد هاردنج بإجراء مفاوضات بين مسقط والعمانيين على أنه علامة ضعف من جانب السلطان وبالتالى توقعوا أن ينهار حكمه • ومن ناحية أخرى كان هذا الاقتراع مثاراً للتردد والحيرة فى أوساط المحافظين ، فلقد ساورهم الشك بنزاهة الوساطة البريطانية وعدم تحيزها بعد العشرات من زملائهم الذين سقطوا صرعى على يد القوات البريطانية قبل شهر من ذلك التاريخ • وعلى أى حال • فقد بدأت الاتصالات الرسمية فى شهر ابريل سنة ١٩١٥ ، تبعها فى شهر مايو محـــادثات بين عيسى بن صـــالح والمعتمد السياسى البريطانى •

---

(١٤) اسرة البوسعيد ، تأليف : برترام توماس ص ٤٨ ملف ٢٤ •
(١٥) الحرب العربية ص ٢٥ — ٢٧ ، تأليف ج • بيل •

واستمرت الاتصالات بشكل متقطع على امتداد صيف سنة ١٩١٥ تبين فى نهايتها أن الاتفاق يكاد يكون مستحيلا بين الجانبين وبالتالى صرف النظر عنها [١٦] .

وتكتسب الشروط والمطالب التى تقدم بها المحافظون أهميتها من حيث الضوء الذى تلقيه على أهداف الامام سالم الخروصى ، كما ومن الذى أدرج معظم تلك الشروط والمطالب ضمن معاهدة السيب لسنة ١٩٢٠ التى وضعت حدا نهائيا للحروب التى كانت تنفجر بين السلطنة والامامة . وقد أكد المحافظون أكثر من مرة خلال المفاوضات أنهم لم يكونوا ضد الوجود البريطانى فى عمان ، وانما كانوا يعارضون وجود القوات البريطانية فى البلاد ويفضلون انسحابها ، كما ذكروا أيضا أن السلطان لم يعد يمثل الشعب لأنه خالف الصيغة الاباضية للحكم ، وطلبوا من الحكومة البريطانية الامتناع عن تأييده فى سياسة تتعارض مع حقيقة الدين . ومن المآخذ التى عددها المحافظون على الانجليز من وجهة النظر الاباضية ، أن الانجليز كانوا يحرمون الحلال كاقتناء العبيد والأسلحة ويحلون الحرام كاباحة الخمر والتدخين . كذلك كان المحافظون يعارضون سيطرة بريطانيا على البحار التى ينبغى أن تبقى حرة للجميع كما انتقدوا المرسوم الذى يلزم جميع السفن العاملة فيما وراء البحار بالتوجه الى مسقط أولا لدفع ما عليها من ضرائب . كما أثار هؤلاء مسألة انخفاض قيمة الريال وآثاره الضارة على أهل عمان ، وإلى ارتفاع أسعار المواد الغذائية والأقمشة . وعلى الرغم من أن هذه المشاكل كانت موجودة منذ عشرات السنين ، إلا أن التدهور الاقتصادى الذى أسفر عن الحرب العالمية الأولى قد ضاعف من الأزمة الاقتصادية ، وعلى كل فقد كان المحافظون يلقون كل اللوم على السلطان والانجليز ، ويتضح من هذا أن الحصار المفروض على واردات عمان الداخلية كان من أسباب المشكلة . ومن المشاكل التى أثارها المحافظون

---

(١٦) نفس المصدر ص ٢١ — ٢٣ .

موضوع ممتلكات وأموال قبائل عمان الداخلية ، والحرث منهم عـلى الأخص فى المنطقة الساحلية من لبلاد وفى زنجبار أو الذين عليهم ديون لأفراد يسكنون هذه المناطق ، ولم يكن فى وسعهم الاشراف على أعمالهم أو تسوية ديونهم • وبالتالى لم يكن من المستغرب أن يعتبر المحافظون الاتجار فى الرقيق أو الأسلحة حقـاً مشروعاً من حقوقهم يتعـين عليهم الدفاع عنه • وبالاضافه إلى تهمة الكفر التى وجهها المحافظـون الى السلطان ، فقد اتهموه أيضا بافساد العدالة وبالمحسوبية ، وبالتنكر لأصول الشريعة الاباضية ، وبأنه يبدد أمواله التى يستدين أكثرها من رجـال الأعمال والتجار الهنود فى الاحتفاظ بعدد كبير من الموظفين ، وعـلى اقاربه وغيرهم من المحسوبين عليه • وعلى الرغم من كل هذه التهم فقـد أعرب المحافظون عن استعدادهم لقبول السلطان حاكما على عمـان إذا وافق على أن تكون السلطة التنفيذية والادارة الفعلية للبلاد فى يد الامام وفقا لقانون الشريعة الاسلامية ، أما شخصيا أو عن طريق مندوب لـه فى مسقط • ويبدو من هذا أن المحافظين كانوا يرغبون فى الوصول إلى حل حتى ولو أدى ذلك إلى احتفاظ السلطان بالعرش ، إذا وافق أن يكون مجرد اداة فى يد السلطات العمانية [١٧] •

غير أن السلطان تيمور رفض هذه الشروط كما تأكد لديه أن الامام لم يكن يرغب فى الصلح لأنه كان يرفض الانسحاب والمعودة الى وادى سمايل • هذا فى الوقت الذى كان الشيخ عيسى بن صالح مستعدا للاتفاق على مثل هذه الخطوة لمصلحة السلام • وعلى أى حال فإن السلطان وحلفاءه البريطانيين قد اتخذوا كافة الاحتياطات الدفاعية على امتداد الساحل ومن ناحية أخرى عاد الامام الى الداخلية حيث بدأ فى تدعيم مركزه • وكجزء من حملة عسكرية قام بها الامام للاستيلاء على منطقة وديان جبال

(١٧) نفس المصـدر ص ٢٣ — ٢٤ •

الحجر الواقعة إلى الشمال من وادى سمايل ، وقد أبعد أحمد بن ابراهيم ، ابن أخ الامام السابق عزان بن قيس ، وابن عم سلطان مسقط وصديقه من مدينة الرستاق . غير أن الشيخ عيسى بن صالح عارض هذا الاجراء ، فقد كان يفضل بقاء أحمد بن ابراهيم فى مكانه . غير أن هذا الابعاد من ناحية أخرى قد وضـــع حدا للخلاف القديم بين فرعى قيس بن أحمـــد وسلطان بن أحمد من أسرة البوسعيد ، ولهذا لجأ أحمد بن ابراهيم إلى مسقط حيث احتضنه الحكم المعتدل هناك (١٨) .

فيما بين سنة ١٩١٣ وسنة ١٩٢٠ تدهورت الأوضاع فى كل مقاطعات عمان الساحلية والداخلية بسبب الحرب الاهلية والتفكك الذى طرأ على الأوضاع العامة فى منطقة الخليج كنتيجة للحرب العالمية الأولى . ففى داخلية عمان أدرك زعماء نزوى أن مواردهم لا تكفى لإطاحة حكم السلطان المؤيد من جانب البريطانيين ، خصوصا بعد أن اســتنفدوا طاقاتهم فى الحروب التوسعية . وكنتيجة لانقطاع الاتصالات بين موانىء عمـــان ومقاطعاتها الداخلية ، وارتفاع الأسعار أصـبح وجود النقد نادراً فى المناطق التى يسيطر عليها المحافظون مما اضطرهم فى ســنة ١٩١٦ إلى مصادرة أملاك المؤيدين لآل بوسعيد ، ثم جاء حظر تصدير العملات فى سنة ١٩١٨ إلى الخارج ليزيد الطين بلـــة . أن ما سببته الحـــرب الأهلية من مآسى للعمانيين يفوق حتى ما سببته موجة الكوليرا التى اجتاحت العالم فى سنة ١٨١٨ — ١٨١٩ وراح ضحيتها ٢٠ ألف عمانى وعلى الأخص فى مقاطعات عمان الداخلية مما حَمل الامام إلى إقامة صلاة عامة (١٩) أما فى المنطقة الساحلية فقد أخذت سلطة حكومة مسقط تتدهور بشكل متزايد مع استمرار الظروف الطارئة . وعلى الرغم من أن السلطان تيمور كان

---

(١٨) نفس المصـــدر و كتاب « عمـــان » اعـــداد شركة الزيت العربية الامريكية ص ٦٤ راجع ايضا ســجل التقارير الشــهرية للمقيم البريطانى فى الخليج رقم ٢٢٩٧ سنة ١٩١٩ . ويقول بعض المصـــادر ان مدينة الرســـتاق سقطت فى شــهر يوليو ســـنة ١٩١٦ غير ان معظم المراجع تتفق ان احتلال هـــذا المعقل قـــد تم فى ١٩١٧/٨/١٢ .

(١٩) التقرير الادارى الشهرى ص ٤٧ لمكتب المقيم البريطانى فى الخليج .

رجلا جديا ، إلا أنه لم يكن اداريا قديرا ، كمـا لم يكن يفهم شيئا فى الشؤون المالية أو يستطيع وضع حد للفوضى التى كانت تضرب اطنابها فى سلطنته • أما أقاربه فلم يكونوا فى وضع يسمح لهم بتقديم أى مساعدة ادارية اليه وكانت غالبيتهم لا يهمها من الأمر إلا أن تقبض مخصصاتها المالية من الدولة دون أن تقدم أى خدمة فى مقابل ذلك • ومن ناحيـة أخرى فقد السـلطان الدعم القبلى بانخفـاض المكافآت المـالية التى كان يتلقاها شيوخ المحافظين من حكومته • وعادت قبائل الهناوية فانضمت إلى الامام ، كما حذا بعض الغافرية حذوهم ، بينما اختار آخرون الحياد بين الجانبين • وفى سنة ١٩١٨ ضربت عمان أزمة تجارية خطيرة ارتفعت فيها الأسعار ارتفاعا مهولا كنتيجة للحروب الاهلية وعجز الحكومة عن ايجاد حل لمشكلة الديون التى تراكمت على السلطان للتجار الهنود حتى بلغت رقما يزيد على ٧٥٠ر٠٠٠ روبية • وكانت الفوائد على هذه الديون تصل إلى ٤٠ بالمئة • وبما أن البريطانيين كانوا مشغولين بالحرب العالمية فقد تركوا مسقط تصارع مشاكلها مع الاستمرار فى امدادها بجرعات دورية من القروض التى لا تخضع لفوائد على أساس اقتطاعها مستقبلا من مستحقات اقليم زنجبار لحكومة السلطان • وفى أعقاب سنة ١٩١٣ تدهورت الحالة التجارية فى مسقط بدرجة تشبه ما منيت به فى الستينات من القرن التاسع عشر بسبب حظر تجارة الأسلحة من جانب وتوقفت حركة النقل فى عمان ، ساحلها وداخلها نتيجة للحرب الاهلية من جانب آخر فضلا عن منافسة ميناء دبى على ساحل عمان وعلى الأخص خلال الحرب العالمية الأولى التى أدت الى تعطيل حركة النقل وبالتالى نقص السلع التموينية فى منطقة الخليج بأسرها • وفى سنة ١٩١٧ — ١٩١٨ انخفض مجمـوع قيمة تجارة مسقط الى ٣٢٣ر٨١٥ ج • س • أى نصف مجموعها قبل الحرب

تقريبا . وكان الجانب المشرق الوحيد فى تلك الصورة المعتمة للاوضاع انتعاش حركة النقل لدى أصحاب السفن والملاحين العمانيين الذين نجحوا موقتا فى مزاولة بعض النشاط التجارى كنتيجة لغياب السفن البخارية ، وعمليات التهريب التى أوجدتها ظروف الحرب [٢٠] .

وكان من الواضح أن البلاد يمكن أن تستعيد بعض الاستقرار لو ساد ربوعها السلام ، وأعيد تنظيم العلاقة بين الاباضيين المعتدلين ، ولو أمكن تجديد الجهاز الادارى الذى لم تدخل عليه إلا بعض التحسينات الطفيفة منذ أيام السلطان تركى . وكان الانجليز يعلمون أن سبب الأزمة المستحكمة يعود الى حد كبير الى الفساد المستشرى فى حكومة مسقط وإلى ضعفها وعدم شعبيتها . كما كانوا يعرفون أيضا بأن نظام السلطان يعتمد فى بقائه على مساعدة الانجليز وأموالهم ومساعداتهم ، وبالتالى فإن فشل تلك الحكومة كان انعكاسا سيئا لموقف الحكومة البريطانية نفسها . فى أوائل سنة ١٩١٤ قدم السر برسى كوكس ، المقيم البريطانى فى الخليج مشروعا إلى حكومة مسقط المتصدعة ، لتنظيم الادارة واقترح تزويدها « بمستشار ادارى سرى » وبضابط من الجيش الهندى البريطانى للاشراف على الجيش ، غير أنه تعذر وضع هذا المشروع موضع التنفيذ بسبب انشغال بريطانيا بالحرب . كذلك كان البريطانيون يأملون بإمكان اقناع السلطان تيمور بالموافقة على وضع برنامج اصلاحى متى شاءوا ذلك ، وذلك بسبب الوضع المالى المتردى واضطراره الى الاعتماد عليهم فى النواحى المالية . أو كما عبر برسى كوكس نفسه « أنه طالما كان السلطان مدينا للحكومة البريطانية فاننا ستكون فى موقف أقوى لفرض ما تريده بالنسبة لشؤون السلطنة » [٢١] . وفى خريف ١٩١٨ قدم الماجور هيوارث ، المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط مشروعا لاعادة تنظيم الادارة المالية ، وجهاز الأمن ، والحاق بعض رجال الخدمة البريطانية فى

(٢٠) نفس المصدر ـ شخصيات عربية ـ ١٩١٧ ص ٧١ — ٧٢ .

(٢١) من كوكس الى الحاكم العام وقد ورد كمرفق لبرقية الحاكم العام الى وزير الدولة لشؤون الهند فى لندن ـ ١٩١٦/١١/٢٠ .

الهند بسلك المناصب الرئيسية لحكومة مسقط . ويشبه هـذا المشروع مشروعات عديدة أخرى سبق للانجليز أن طبقوها فى اقطار أخرى من الشرق الأوسط . ولما كان السلطان تيمور يائسا من امكان اصلاح أوضاعه السياسية بجهوده الخاصة ، فقد وافق على مشروع هيوارث وتسلم قرضا منه بمبلغ ٦٥٠,٠٠٠ روبية لتسديد الديون التى عليه ، غير أنه اضطر فى مقابل ذلك إلى التنازل عن جانب هام من سلطته الفعلية فى مجـال الاشراف اليومى على شؤون الحكم فى البلاد [٢٢] .

وقد تولى تنفيذ هذا المشروع المأجور آر . اى ال وينجيت الذى خلف هيوارث فى منصب المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط وذلك فى الفترة ما بين سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢١ . ففى سنة ١٩٢٠ عين الكابتن مالكولم الذى كان معتمدا سياسيا فى الكـويت ، أول وزير فى قائمـة الوزراء والمستشارين الماليين البريطانيين الذين ترأسوا حكومة مسقط . وقـد فرضت قيود ومراسيم مالية صارمة فخفضت مخصصات السلطان وأفراد عائلته تخفيضا كبيرا ، كما أعيد تنظيم الخدمات الجمركية ، كما استحدث وظائف جمركية جديدة فى الموانىء البعيدة كميناء صور وصحار . وحل موظفون مصريون مدربون من قبل البريطانيين محل الموظفين الهنود فى الخزينة المركزية . كما أنشئت مراكز تنفيذية تطورت فيما بعد الى ادارات مالية وجمركية ، وداخلية وخارجية وموانىء ، تم تشكيلها من رؤساء هذه الادارات وغيرهم من مساعدى السلطان ، مجلس وزراء للبت فى شؤون الدولة فىحالة غياب السلطان عن البلاد . وفى سنة ١٩٢١ عين الكابتن إى . فى مكارثى ـ من ضباط الجيش الهندى ـ أول قائد عام لجيش السلطان فقام بتنظيم هذا الجيش تحت اسم : « فيلق مشاة مسقط » . وقد شكل الجيش فى البداية من بعض المرتزقة الايرانيين . ثم بدأ يضم افرادا من أهل البلاد ومن

---

(٢٢) من التقارير الشهرية التى يبعث بها المقيم البريطانى الى حكومتـه ملف رقم ٢٢٩٧ سنة ١٩١٩ .

أقليم مكران • وقد حل هذا الجيش محل القوات الهندية ـ الانجليزية التى يعود اليها الفضل فى انقاذ حكم البوسعيد خلال جربهم مع الامامة فى سنة ١٩١٣ ـ ١٩٢٠ • كما قامت حكومة السلطان فى سـنة ١٩٢١ بشراء زورقين مسلحين كدليل على عزمها على الاشراف على حماية السواحل ومن ناحية أخرى أعيد تنظيم المحاكم التى كانت هدفا لنقد شـديد من جانب العمانيين المحافظين بسبب ما كان يسودها من فسـاد وفوضى • وقد أضيفت اليها ادارة للشريعة الإسلامية ، كما انشئت محكمة عليا فى مسقط يسمح باستئناف احكامها الى السلطان [٢٣] •

لقـد أدرك الأنجليز أن نجاح أى خطة لتنظيم الحكم المعتدل يتوقف على وضع حد لعملية استنزاف الموارد المحدودة للسلطان عن طريق الحروب المستمرة بينه وبين أئمة عمان • ولهذا تقدم وينجيت (Wingate) فى شهر سبتمبر سنة ١٩١٩ ، أى فى نفس العام الذى بدأ فيه تنفيذ برنامج هيوارث الأصلاحى فى مسقط ، بدعوة الى الامام لاستئناف مفاوضـات السلام التى كانت قد توقفت ، غير أن الامام سالم بسبب موقفه المقرر رفض دعوة المعتمد السياسى فى مسقط • ولقد حاولت حكومة السلطان تيمور تصعيد ضغطها على الامام لحمله على الموافقة فرفعت نسبة الضريبة التأديبية عـلى منتجات الامـامة الى ٥٠ بالمئة من قيمـة بعض هـذه المنتجات [٢٤] • ومع ذلك فان فكرة الوصول الى اتفاق مع الامام لم تتبلور إلا فى أعقاب مصرع الامام سالم بن راشد الخروصى على يد أحـد الناقمين من قبيلة آل وهيبة وذلك فى شهر يوليو سنة ١٩٢٠ • وبسرعة

---

(٢٣) « أسرة البوسعيد » ، تاليف برترام توماس من سجلات الاكاديميـة البريطانية مجلد ٢٤ (١٩٣٨) ص ٤٩ ـ ٥٢ يعتبر تعيين وزير بريطـانى فى حكومة مسقط من الناحية النظرية ضرورة املتها الظروف ، بينما هو من الناحية العلمية تغيير فى موقف حكومة السلطنة .

(٢٤) من التقـارير الشـهرية للمقيم البريطانى فى أبو شـهر ملف رقم ٢٩٧و٢ سنة ١٩١٩ .

انتخب العمانيون محمد بن عبد الله الخليلى إماماً جديداً لهم • وكان هذا من قبيلة بنى رواحة الهناوية ، ومن خلصاء الشيخ عيسى بن صالح ، وحفيد سعيد بن خلفان الخليلى الرأس المنظم والمستشار الأول لإمامة عزان بن قيس التى قامت منذ خمسين عاماً • واعتبر انتخاب الخليلى تحولا فى موقف العمانيين نحو قبول مبدأ المفاوضات مع السلطان والذى كـان يؤيده الشيخ عيسى بن صالح • ومن ثم فقد بدأت المفاوضات على الفور • وبتاريخ ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٢٠ وعن طريق وساطة الماجور وينجيت توصل الجانبان الى اتفاق على عقد معاهدة السيب بين حكومتيهما وهى المعاهدة التى وضعت مبدأ التعايش السلمى بينهما كما تعهد شيوخ عمان وقبائلها بالكف عن شن هجمات على المناطق الساحلية (٢٥) •

غير أن معاهدة السيب اتفاقية يحيط بها الغموض من نواح عديدة فهذه المعاهدة على سبيل المثال لا تحدد بشكل دقيق طبيعة حقوق السيادة الخاصة بالسلطان ، كما أن استقلال الامامة عن السلطنة غير واضح تماماً من المعاهدة •ومن ناحية أخرى فان المعاهدة لا تنص بشىء عن حق الامام فى إقامة علاقات خارجية مع الدول الأجنبية رغم أن أحد المصادر المطلعة قد أشار الى وجود بند سرى يحرم طلب أى تدخل من الخارج (٢٦) • ومع ذلك فتتضمن المعاهدة عددا من الشروط كحرية تبادل السلع والأفراد بين المناطق التى يسيطر عليها كل من الحكومتين ، وتسليم المجرمين • ومجمل القول أن كلا الطرفين المتعاقدين يعترف ، فيما يبدو بالاستقلال الذاتى للطرف الآخر ضمن حدود كل دولة منهما وإن كانا قد تحاشيا النص بشكل صريح ومحدد على موضوع السيادة الشائك • إن هذه المعاهدة تختلف فى صياغتها عن المعاهدات المعروفة فى الغرب فهى معاهدة تفتقر إلى التحديد

---

(٢٥) ترجم هذا النص عن النص العربى الذى وزعته الادارة السياسية للامانة العامة لجامعة الدول العربية •

(٢٦) مسقط — آسيا الفرنسية مجلد ٢٣ سلسلة رقم ٢١١ (مايو ١٩٢٣) ص ١٣٥ —

فى بنودها • فهى من حيث المسائل التى تتناولها أكثر منها اتفاقية للهدنة • غير أنها لا ترقى الى مستوى التسوية المحددة لجميع المشاكل التى تسببت فى تعكير صفو العلاقات بين فرعى الأباضية فى عمان • وقد تم الوصول إلى صيغة هذه المعاهدة بين المعتمد السياسى وينجيت نائبا عن السلطان والشيخ عيسى بن صالح نائبا عن الامام • وقد صادق الامام على المعاهدة فى وقت لاحق ، ثم حذا حذوه نحو ١٥ شيخا من شيوخ القبائل المناصرة للإمام •

فى الفترة الواقعة بين سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٥٠ لم تقع خلافات كبيرة بين الحكومتين اللتين تسيطران على عمان • ففى منطقة السلطان واجه المسؤلون مشكلتين خطيرتين : مشكلة الركود الاقتصادى فى الجزء الساحلى من البلاد والاهتمام بالتغلب عليه . ومشكلة استعادة الحكومة للثقة فى قدرتها على ممارسة سلطانها فى البلاد بشكل فعال • غير أن المشكلات الاقتصادية التى واجهها النظام المعتدل لم تكن من النوع الجديد عليه ، هذا بالرغم من تفاقم هذه المشكلات بدرجة أخطر بعد سنة ١٩١٢ • وقد انتعشت التجارة موقتا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، غير أن البلاد تعرضت لأزمة جديدة فى منتصف العشرينات من القرن التاسع عشر جعلت الاقتصاد عاجزا عن مقاومة موجات الركود الاقتصادى التى اجتاحت العالم فى مطلع الثلاثينات من القرن التاسع عشر • وقد ظل البلح البند الرئيسى فى صادرات عمان ، غير أن محصول البلح الجديد من العراق والولايات المتحدة قد أستأثر بالنصيب الأكبر فى الأسواق الأمريكية ، التى كانت تعتمد سابقا على منتجات عمان من هذا المحصول قبل منتصف العشرينات من القرن التاسع عشر • وقد بلغ مجموع قيمة تجارة عمان ٥٧٥ر٦٠٣ ج • س • فى سنة ١٩١٩ — ١٩٢٠ ، و ٨١٧ر٦٣٧ ج • س فى سنة ١٩٢٥ — ١٩٢٦ . و ٢٠٢ر٤٧٤ ج • س فى سنة ١٩٢٦ — ١٩٢٧ ، و ٩٠٥ر٣٦٤ ج • س فى سنة ١٩٣٣ — ١٩٣٤ ثم عاد فارتفع الى ٠٠٠ر٤٠٠ ج س بعد زوال أخطر مرحلة من مراحل الركود الاقتصادى شهدتها الثلاثينات

من القرن التاسع عشر . وعلى غرار الوضع فى السنوات التى سبقت الحرب العالمية الأولى ظلت أرقام الواردات محتفظة بتفوقها على أرقام الصادرات من حيث مجموع القيمة ، كما لم تتغير أنواع المنتجات التى كان يجرى التبادل فيها تغيرا يذكر باستثناء الأسلحة والذخيرة التى تدهورت أسواقها بعد إبرام معاهدة سنة ١٩١٢ الخاصة بأنشاء مركز لتوزيع الأسلحة فى البلاد . كذلك ففى الثلاثينات بدأت المنتجات اليابانية الرخيصة تغزو الأسواق العمانية وتطرد منها السلع البريطانية مثل الأقمشة والمنسوجات . أما ريال ماريا تاريزا فقد ظل سعره بتأرجح سعر الفضة العالمى ، وبوجه عام ظل سعره منخفضاً بالنسبة الى سعر الروبية والجنيه الأسترلينى . وفى أوائل الثلاثينات من القرن التاسع عشر على وجه الخصوص تدنى سعر الريال النمسوى تدنيا كبيرا هذا بالرغم من أنه استعاد مركزه فيما بعد إلى حد ما . غير أن تحول التجارة عن مسقط الأمر الذى ضاعف منه تطور دبى كمركز تجارى لتبادل السلع مع أجزاء واسعة من جنوب شرقى الجزيرة العربية التى كانت تتزود سابقا بحاجاتها عن طريق ميناء مسقط ، قد أرغم العدد الأكبر من أفراد الجالية التجارية الهندية فى عمان على مغادرة البلاد والانتقال الى مطرح التى أخذت تستعيد نشاطها التجارى فى أعقاب استئناف حركة النقل والمواصلات بين داخلية عمان والمنطقة الساحلية من البلاد . وفى منتصف العشرينات من القرن العشرين انخفض عدد سكان مدينة مسقط إلى ٤٠٠٠ نسمة فقط بعد أن خسرت المدينة جانبا كبيرا من نشاطها الاقتصادى الذى تحول إلى مدينة مطرح ، وإن كانت فى الحقيقة ظلت محتفظة بأهميتها السياسية [٢٧]

خلال العشرينات من القرن العشرين كان يبدو أن احتمال اكتشاف

---

(٢٧) « الأوضاع الاقتصادية فى الخليج » ابريل سنة ١٩٢٩ ، بقلم اللفتنانت كومودورفورستر (طبعة لندن ١٩٢٩) ص ١٦ — ١٨ وكذلك « الأوضاع الاقتصادية فى الخليج » اكتوبر سنة ١٩٣٤ بقلم اف . ج جامبل (لندن ١٩٣٥) ثم تقرير عن الأوضاع الاقتصادية فى الخليج — ديسمبر سنة ١٩٣٦ ، بقلم اف . اج . تود (لندن ١٩٣٨) .

النفط بكميات تجارية فى عمان قد يؤدى الى التخلص من الأزمة الاقتصادية المزمنة التى كانت تعانى منها البلاد . ففى سنة ١٩٢٣ تعهد السلطان تيمور لحكومة الهند البريطانية بأن لا يقدم على منح أى امتيازات لاستغلال النفط فى عمان قبل استشارة المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط أولا ، ثم موافقة حكومة دلهى على ذلك ، ولا تختلف هذه الاتفاقية عن الاتفاقيات الأخرى التى عقدت مع شيوخ ساحل عمان فى سنة ١٩٢٢ (٢٨) وفى سنة ١٩٢٥ منح السلطان تيمور امتيازا للبحث عن النفط والغاز الطبيعى وغيرها من المعادن لشركة دى — اركى للتنقيب (٢٩) غير أن البعثة الجيولوجية التى توجهت الى منطقة الحجر الغربى من عمان لم توفق إلى اكتشاف أى شىء ذى قيمة من الوجهة التجارية . وقد انتهت مدة العقد بصورة تلقائية بعد ثلاث سنوات من تاريخ إبرامه (٣٠) .

وفى عام ١٩٣٧ منح السلطان الجديد سعيد بن تيمور ابن السلطان تيمور وخليفته على الحكم امتيازا للتنقيب عن النفط وإنتاجه ونقله إلى مؤسسة تنمية بترول (عمان وظفار) المحدودة وهى فرع من شركة نفط العراق ومدة الامتياز ٧٠ عاما غير أن هذه المؤسسة تنازلت فيما بعد عن جزء من منطقة امتيازها وهو مقاطعة ظفار الى احدى الشركات الأمريكية (٣١) .

لقد حالت المشاكل الاقتصادية التى تعانى منها السلطنة دون تنفيذ الخطة الأصلاحية . فبعد اعادة تنظيم الجمارك واجهت هذه المصلحة عداء

---

(٢٨) تقرير ايتشيسون — ١٩٣٣ مجلد ١١ ص ٢١٦ — ٢١٩ .

(٢٩) نفس المصدر ص ٢٨٤ .

(٣٠) « سلطنة مسقط وعمان » ، بقلم سى . جى . ايكليس — مقال فى مجلة جمعية آسيا الوسطى الملكية مجلد ١٤ جزء ١ (١٩٢٧) ص ٢٨ — ٢٩ .

(٣١) دليل شركة النفط العربية الأمريكية (١٩٦٠) ص ١١٦ . فى سنة ١٩٦٠ أعيد تنظيم شركة تنمية النفط المحدودة فى عمان ، وكنتيجة لذلك انتقل ٨٥ ٪ من ملكيتها الى الفرع البريطانى من شركة شل المحدودة و١٥ ٪ الى جوبلنكيان .

أفراد الجالية التجارية الهندية التى كانت المستفيدة الوحيدة من الأوضاع السابقة ٠ هذا ولم تواجه حكومة السلطنة بعد انشائها مراكز جمركية جديدة فى صور وصحار وفى كثير غيرها من موانىء الباطنة فى سنة ١٩٢٠ معارضة قبائل المنطقة وحسب بل والولاة المستقلين من عائلة البوسعيد ، كوالى صحار ، الأمير حمد بن فيصل الذى هدد رجال الجمارك بالضرب إذا حاولوا التدخل فى نطاق سلطته ٠ غير أن حمد وغيره من أمراء البيت الحاكم ،اضطروا آخر الأمر الى الاذعان لقـــرار الحـــد من مصروفاتهم الخاصة ضمن الحدود التى رسمها المستشار البريطانى الجديد للحكومة ٠ أما قبيلة آل سعد التى عرفت باثارة المشاكل ضد حكومة مسقط فقـــد تحدت قرار هذه الحكومة بانشاء مراكز جمركية فى مناطقها ولم تخضع للقرار الا بعد أن شنت السفن الحربية البريطانية وقوات السلطنة التى كان قد اعيد تشكيلها هجوما على هذه القبائل ٠ إلا أن الحكومة لم تنجح فى فرض سلطتها على الجـــزء الجنوبى من البلاد ٠ وعلى الرغم من أن السفن البريطانية قد أرغمت سكان صور ، الميناء العمانى الهام ، على الأذعان لقرار السلطان ، إلا أن منطقة جعلان الداخلية أبدت مقاومة أشد ٠ فقد تحول سكان هذه المنطقة من قبائل بنى بو على من موقف عدم الامتثال لقوانين مســـقط الى تحديها فى أواخر العشرينـــات من القرن العشرين ، عندما أخذ زعيم هذه القبيلة يلقب نفسه « بأمير جعلان » [٣٢] ٠

وعلى العموم فقد نجحت السلطات فى مسقط فى دعم وضعها المالى والدولى ، وتعزيز كفاءاتها الادارية خلال العشرينات من هذا القرن ٠ وعلى الرغم من احتفاظ الدولة بالكثير من أشكالها القديمة ، خصوصا فى النواحى الادارية ، فان العناصر الأوربية التى طعم بها الجهاز الحكومى قد نجحت فى ادخال الأساليب الادارية الجديدة فى البلاد ٠ كذلك فان

---

(٣٢) من التقارير الشهرية التى يبعث بها المقيم البريطانى فى الخليج ملف رقم ١٧٤٩ / سنة ١٩٢١ ٠

سياسة التدخل البريطانى المباشر فى شؤون السلطنة الداخلية ، الذى بدأ منذ أيام ليويس بلى قد وصل الى نهايته المنطقية ، إذ بلغ النفوذ البريطانى أقصى ذروته فى عهد السلطان تيمور ، الذى درج على ترك الأمور لمستشاريه ليتصرفوا بها كيف يشاؤون وكان يقوم بزيارات كثيرة للهند وهو فى طريقه من وإلى أوربا • غير أن التنظيم الجديد للادارة كان بداية لطريقة جديدة للحكم فى مملكة السلطان ، فقد كان بمثابة تغيير بطىء ولكنه حذر نحــو ممارسة الحكومة سيطرة أكثر على مقدرات البلاد • وقد استمر هــذا الوضع ابتداء من العشرينات من هذا القرن ، هذا بالرغم من أن « سلطنة مسقط وعمان » لا تزال تحكم وفقا لنفس المبادىء الأساسية التى بدأت فى عهد السلطان تركى ، كما لا تزال سلطتها على معظم مناطق البــلاد سلطة غير مباشرة وعن طريق زعماء القبائل • وعلى أى حال ، فبالرغم من أن شيوخ القبائل ظلوا محتفظين بالسلطة فى منــاطقهم ، الا أنهم اضطروا الى تنفيذ السياسة التى كان يقررها المسؤولون فى حكومة مسقط ، لا السياسة الناتجة عن المساومات القائمة بين السلطان ومشايخ القبائل •

غير أن الاستقرار الذى أخذت تنعم به أرجاء السلطنة تدريجيا خلال العشرينات من هذا القرن ، عاد من جديد يهدد الاقتصاد العمانى ونظامه المالى الضعيف كنتيجة للأزمة الاقتصادية التى شهدها العالم فى الثلاثينات من هذا القرن • ونظرا للتدهور التجارى تدهورت قيمة الريال النمسوى ، كما أن عجز الحكومة عن معالجة الأزمة الاقتصادية وما سببته من مضاعفات سياسية ، أرغم السلطان تيمور على التنازل عن الحكم فى شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ لأسباب صحية ، بينما استقال مستشاره البريطانى برترام توماس • ولقد حذا تيمور حذو جده السلطان تركى بن سعيد قبل نصف قرن عندما حاول وقف انهيار دولة البوسعيد وحكمهــا فى عمان وذلك بالاعتماد على المساعدة الشاملة والســافرة للحكومة البريطانية وأخــذ

مشورتها • وقد كوفىء السلطان تيمور على هذه السياسة باستمرار أسرته فى الحكم ، هـذا بالرغم من أنه شخصيا قد اضـطر الى التنازل عن الحكم والاعتكاف فى الهند •

فى أوائل سنة ١٩٣٢ تولى سعيد بن تيمور الابن الأكبر لتيمور الحكم خلفاً لوالده الذى اعتزل وكان فى الحادية والعشرين من عمره • تلقى سعيد تعليمه فى إحدى مدارس الأمراء التى تشرف عليهـا حكومة الهنـد — الانجليزية • وقد اعترف الانجليز بسعيد كولى للعهد خلال حكم والده وذلك كأجراء متبع فى عمان لأعطاء الأولوية فى الحكم للابن البكر عنـد اختيار الحاكم • وعلى الرغم من أن السلطان سعيد ظل يعتمد على عدد من المستشارين البريطانيين والأجانب ، فقد تميز حكمه باستقلال السلطنة وحرية التصرف من الوجهتين الفعلية والقانونية • ولقد أدرك الحـاكم الجديد أن السبب الأساسى لتدهور استقلال البلاد هو الأفلاس المالى المزمن والأعتماد على التأييد البريطانى • وبالتالى أظهر السلطان حكمه وبعد نظر يكاد يكون نادرا بين أقرانه من سلاطين عمان السـابقين ، فى إدارة دفة الشؤون المالية دون المساس بفاعلياتها الحقيقية • كمـا استطاع بمرور الوقت إثبات وجوده فى مجال الأشراف الفعلى على سير الأمور فى سلطنته • وبذلك أكد السلطان حقوقه الشرعية ، وتصميمه على أن يكون مستقلا وسيدا لمصيره ، ونجح فى ارغام الانجليز على التخفيف من القيود غير المباشرة التى كانت يفرضونها على سياسة الحكم فى عمان منذ سـنة ١٨٩٩ • ورغم كل هذا فقد رحب السلطان سعيد بالتعاون مع البريطانيين خلال الحرب العالمية الثانية وسمح لهم باقامة مهابط لطائرات سـلاح الطيران البريطانى فى عدد من المناطق بين صلالة ومسقط ، وقد ظل العمل مستمرا فى هذه المهابط حتى بعد نهاية الحرب للرحلات المدنية •

أما فى داخلية عمان فقد كان الحكم يتجه نحو العزلة والانغلاق أكثر

فأكثر وحتى الأربعينات من هذا القرن كان الحكم المحافظ يخضع لثلاث شخصيات : محمد بن عبد الله الخليلى ، إمـام المنطقة ، والشـيخ عيسى بن صالح زعيم الحرث ، والشيخ سليمان بن حمير الذى خلف والده على زعامة بنى ريام قبيل توقيع اتفاقية السيب [٣٣] . وكان الامام فى الخامسة والثلاثين عند انتخابه زعيما للمحافظين وبما أنه كان من أنصار العزلة فقد قاوم كل محاولة لاجراء اتصـال بين بلاده والعالم الخارجى إلا فى أضيق الحدود واكتفى بابقائها ضمن الجزء الداخلى من عمان . وحتى وفاته فى سنة ١٩٤٦ كان الشيخ عيسى بن صالح يمثل الشخصية العسـكرية ، والسياسية ، والدبلوماسية القيادية فى الامامة كما كان يتحلى بالوقار والاتزان ويحظى بالاحترام كزعيم عملى من زعماء البلاد . أما الشيخ سليمان فقد كان شخصية متعاظمة بحبها لذاتها . وعلى الرغم من أنه كان مواليا للإمام ومخلصاً له ، الا أنه كان مغرما بالالقاب فكان يلقب نفسه تارة بملك بنى نبهان وتارة بأمير الجبل الأخضر . ونظرا لاهتمامه بالأجهزة الحديثة فقد كان يقتنى الراديوات والسيارات . وبعد وفاة الشيخ عيسى بن صالح أصبح سليمان من القادة العلمانيين فى الحـكم المحافظ [٣٤] .

ولقد سبق أن أكدنا فى أكثر من موضـع من هذا الكتاب إخلاص إمامة الخليلى للأديولوجية الذاتية التى تقوم عليها عقيدة أهل عمان . وفى سنة ١٩٢٥ ساورت الامام المخاوف من أن يقوم عبد العزيز بن سعود ، مُوحد المملكة العربية السعودية ، والذى كان قد خرج لتوه من معركة ظافرة ضد الهاشميين فى الحجاز بالتوسع شرقاً نحو البريمى والظاهرة فأصدر أوامره الى القوات العمانية بالزحف شمالا واحتلال المناطق التى قد تتعرض لتهديد السعوديين . وتحركت قوة من الجيش العمانى مؤلفة من الهناوية والغافرية بقيادة الشيخ عيسى بن صالح ومساعده سليمان

---

(٣٣) كان الشيخ سليمان احد الشهود الموقعين على معاهدة السيب .
(٣٤) « عمان » ص ٧٠ — ٨٤ ، اعداد شركة الزيت العربية الأمريكية .

بن حمير إلى بلدة عبرى بمقاطعة الظاهرة الخاضعة للمحافظين ويحكمها وال تم تعيينه فى هذا المنصب بعد إخضاع كل من بلدتى الدريز وضنك للإمام وأثناء الرحلة مرض الشيخ عيسى بن صالح وتفككت الحملة مما اضطر الامام الى الاستقالة بسبب ما منى به من فشل فى حملته على البريمى • غير أن استقالته لم تقبل ، وعلى الرغم من زيارة قامت بها بعثة سعودية للبريمى وتبادل المذكرات بين أحد شيوخ النعيم وعبد الله بن جلوى ، أمير السعودية فى الحسا والمنطقة الشرقية ، فقد كان الملك عبد العزيز مشغولا وقتها بتدعيم انتصاراته • ولم يكن لديه من الوقت ما يخصصه لموضوع البريمى • ومهما يكن فقد كان العاهل السعودى يؤمن بأن من حقه المطالبة بأى منطقة سبق أن حكمها أو سيطر عليها أسلافه ، أو خضعت لنفوذهم خلال القرن التاسع عشر • وإذا أخذنا هذا التفسير كأساس للحدود فان مطالب السعودية تمتد إلى ما وراء مقاطعة البريمى بل وتشمل عمان نفسها ، لأن حكام مسقط كانوا يدفعون « رسم حماية » للحكام السعوديين (وهو من نوع الزكاة) لفترة امتدت ستين عاماً قبل سنة ١٨٦٨ • ومن هنا كانت المخاوف تراود إمام عمان طوال حياته من أن يتحرك السعوديين نحو الحدود الشرقية ، هذا على الرغم من أن خليفة الإمام محمد قد أقام علاقات ودية مع الرياض خلال الأيام الحرجة من سنة ١٩٥٤ [٣٥] •

وبضم عبرى الى الامامة امتدت الامامة فى القرن العشرين حتى أقصى حدودها الأقليمية وبالرغم من أن هذه الحدود لم تعين تعيينا دقيقا ، إلا أنها بوجه عام تضم من الجنوب واحة بنى بو حسن ، وهى قاعدة لاحدى قبائل الهاوية المعروفة بأسمها • أما من الشرق فيعتبر رأس سلسلة جبال الحجر حدودا للامامة ، هذا بالاضافة الى أن بلدة سمايل الواقعة فى منطقة

---

(٣٥) نفس المصدر ومذكرة الحكومة السعودية جزء ١ ص ٣٤٣ — ٤٤ و « مسقط وعمان » ، بقلم ايكليس (مجلة جمعية آسيا الوسطى الملكية) مجلد ١٤ جزء ١ (١٩٢٧) و «الحدود الشرقية للجزيرة العربية» ص ١١٨—١١٩ •

وادى سمايل ، وبلدة الرستاق على المنحدرات المطلة على البحر من سلسلة جبال الحجر على ساحل الباطنة تخضع لسلطة الامام أيضا . أمـا من الشمال فتحدها بلدة عبرى ومن الغرب تحدها رمال الصحراء الغربية أو الربع الخالى . وهكذا أصبحت مقاطعة عمان الوسطى ، والشرقية ، ووادى سمايل ، والجبل الأخضر والجزء الشمالى من جعلان ، والجزء الجنوبى من مقاطعة الظاهرة كلها تخضع للامامة (٣٦) .

كانت إدارة شؤون الدولة فى عهد الامام الخليلى تسير بطريقة خالية من التعقيدات والمظاهر ولكنها فعالة . وكان الامام يدير الدولة الاباضية المحافظة من مقره فى حصن نزوى الكبير المطل على المدينة نفسها . وكـان يجلس على الأرض فوق سجادة والى جانبه رجـال الدولة لأن الجلوس على الكراسى فى نظر المحافظين تقليد خاص بالملوك . ويحتفظ الامـام بسجلاته فى دفاتر خاصة وتقع خزينة الدولة فى أحد بيوت العاصـمة . ويكتب الامام رده على الرسائل التى ترد اليه على الجزء غير المكتوب من الرسالة ، أو يعهد الى قاضى قضاته ، وكان هـذا المنصب يشغله لمـدة سنوات ، منصور الفارسى بكتابة الرد : وكان منصور هـذا يجمع الى جانب وظيفته القضائية منصب السكرتير ، والوزير والمستشار فى آن واحد . وتحتفظ إدارة الدولة فى عمان بملفات تضـم العرائض والمراسلات . لما كـان الامام يمثل السلطة الدينية والسياسية للأمـة ، وهو منصـب يضعه فوق مستوى الخلافات القبلية التى تقض مضاجع بنى قومه فقـد كان يصرف معظم أوقاته فى نظر القضايا المعروضة عليه أو البت فيها ، وفى تسوية الخلافات القبلية ، وفقا للمفهوم الاباضى المحافظ للحكم . وبالرغم من نفور الامام من الاجانب الا أنه فى متناول أفراد الشعب وهم يفدون اليه بمنتهى السهولة لعرض مشاكلهم وقضاياهم ، أو لطلب المعونة منه .

يساعد الامام فى عمله مجموعة من القضاة الشرعيين الى جانب رجال

---

(٣٦) كتاب « عمان » اعداد شركة النفط العربية الأمريكية ص ٧ — ٩ .

الدولة المسؤولين مباشرة أمامه ، كما يساعده الأقطاب القبليون الكبار أمثال عيسى بن صالح وسليمان بن حمير وغيرهما من رؤساء القبائل الأدنى مرتبة • ويوجد بالاضافة الى الولاة والقضاة الذين يتولون السلطة فى المناطق الأكثر أهمية ، جمهور محصلى الضرائب أو جباة الزكاة والرؤساء القبليين• ويتم تعيين كل هؤلاء الرسميين بما فيهم شيوخ القبائل بأمر الإمام• وتشكل الزكاة التى تعتبر فى عمان ضريبة عقارية اسلامية تشبه الى حد ما العشر ، المصدر الرئيسى لدخل الدولة ، هذا بالاضافة الى الأموال التى تقتطع من الدخول الخاصة لبعض الزعماء وتستغل للمصلحة العامة • وعلى الرغم من أن المسؤولية العسكرية تنحصر فى القوات القبلية من المشاة ، يحتفظ الإمام بقوة عسكرية خاصة من ٤٠٠ الى ٥٠٠ رجل ترابط باستمرار فى مقر الإمام وهى تحت تصرفه • وللإمامة علمها الخاص المكون من أرضية بيضاء يعلوها سيف تحته العبارة التالية : « نصر من الله وفتح قريب » [٣٧] وبالاضافة الى مشاكل الامامة مع السلطان ، والحكومة السعودية فى الرياض ، كانت هناك مشكلة عويصة أخرى هى مشكلة الجفاف الحادة التى شهدتها البلاد فى العشرينات ، والثلاثينات والأربعينات من هذا القرن والتى أدت الى إتلاف جانب كبير من المناطق الزراعية الخصبية فى مقاطعة الشرقية • وفى أواخر الأربعينات أخليت قرى كثيرة من سكانها نتيجة للجفاف وحتى بلدة المقابل التى كانت فى يوم من الأيام الواحة الرئيسية فى المقاطعة ومقر قبيلة الحرث ، رحل عنها سكانها تقريبا • وقد اضطر عدد كبير من مزارعى الشرقية الى تناول الأسماك المجففة

---

(٣٧) نفس المصدر ص ٧٠ — ٧٤ اطلع المؤلف شخصيا على علم الامامة ، بمكتب امامة عمان فى جمهورية مصر العربية عند زيارته للمكتب فى شهر يوليو سنة ١٩٥٩ .وقد تم وضع تصميم العلم منذ وقت غير بعيد .

المستوردة من مسقط كما أن غياب عدد كبير من أصحاب هذه المزارع عن البلاد فى زنجبار التى كانوا يفضلون الاقامة فيها قد ضاعف من المشكلة . وكان هؤلاء يقومون بشحن محصول البلح الى مدينة مطرح لبيعه هناك بفائدة كبيرة لا يمكنهم أن يحصلوا عليها فيما لو تم تصريفه فى المنطقة الداخلية من البلاد [٣٨] ومن المؤكد أن إبادة العرب فى زنجبار وطردهم منها فى أعقاب ثورة ١٩٦٤ ، التى أطاحت بسلطان البوسعيد ، قــد أرغم أعــداد كبيرة من أصــحاب الأراضى الزراعية العمانيين الى العــودة الى موطنهم فى الشرقية .

توحيــد عمان فى ظل الحكم المعتــدل

ظلت الحالة مستقرة فى عمان طوال حكم الامام محمد بن عبد الله الخليلى كنتيجة لمعاهدة السيب التى وقعت فى سنة ١٩٢٠ . غير أنه بعد وفاة الامام المذكور فى سنة ١٩٥٤ قامت قوات السلطان سعيد فى ديسمبر سنة ١٩٥٥ باحتلال نزوى عاصمة الامامة وهذا الحدث الذى لم يسبق له مثيل فى تاريخ عمان جاء نتيجة لجملة من العوامل المعقــدة ليس أقلها أهمية محاولة السعوديين فرض سيطرتهم من جديد على المناطق الداخلية من جنوب شرقى شبه الجزيرة العربية على الأقل ، فضلا عن تضــارب مصالح شركات النفط العالمية فى المنطقة . بدأت هذه التطورات أول مــا بدأت فى شبه الجزيرة العربية عندما حصلت شركة ستاندارد أويل كمبنى أوف كاليفورنيا فى شهر مايو سنة ١٩٣٣ على امتياز لاستغلال النفط فى المقاطعات الشرقية من المملكة العربية السعودية غير أن حقوق هذا الامتياز الذى أدخلت عليه تعديلات فى سنة ١٩٣٦ قد انتقلت الى شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) وهى مؤسسة بترولية تملكها بالتضامن كل من شركة ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا وتاكساكو ستاندارد أويل أوف

---

(٣٨) شركة الزيت العربية الامريكية — كتاب « عمان » ص ٨٢ .

نيو جرسى ، وسوكونى موبيل • ومنذ الثلاثينات من هذا القرن أصبحت ثروة المملكة العربية السعودية تعتمد على نجاح شركة أرامكوا فى استغلال مصادر النفط فى المملكة السعودية •

وقد اعتبر هذا الامتياز منافسة لشركة نفط العراق التى يملكهـا البريطانيون ، غير أن الشركة البريطانية استطاعت ، دفاعا عن مركزها وبتأييد من الحكومة البريطانية تحريض شركات نفط متفرعة عنها بالحصول على امتيازات بترولية فى قطر (١٩٣٥) وساحل عمان (١٩٣٧) ثم فى عمان نفسها سنة (١٩٣٧) • ويشمل عقد الامتياز الذى وقعه السلطان سعيد بن تيمور كلا من أراضى السلطنة والإمـامة • كما يشمل أيضـا مقاطعة ظفار التى انتقلت حقوق امتيازها فيما بعد الى شركة ظفارسيتى سرفيس كمبنى انكوربوريشن التى تشاركها فى الملكية مؤسسة ريتشـفيلد النفـط •

ولقد ثارت مشكلة أساسية بالنسـبة الى هذه الامتيازات ، وإن كانت لا تمس شركة سيتى سرفيس الأمريكية • حيث لما كانت الحدود الدولية بين السعودية ومختلف بلدان جنوب ، وجنوب شرقى الجزيرة العربية الخاضعة للحماية البريطانية لم تعين ، فقد نشأت صعوبات حول معرفة حدود كل امتياز من امتيازات النفط الممنوحة للشركات • وابتداء من سنة ١٩٣٣ كان التنافس بين الفنيين والدبلوماسيين على أشده لتحديد هذه المناطق وما اذا كان التحديد يتم قبل أو بعد التأكد من المناطق التى تشملها الامتيازات • وعلى أى حال فقد تحرك رجال الحفـر الى مناطق الامتياز قبل أن يتحرك الدبلوماسيون ووزراء الخارجية للدول المعنية • ففى عام ١٩٣٤ بعد مرور سنة على توقيع أول اتفاقية للنفط فى المنطقة الشرقية من الجزيرة ، بدأت المفاوضات بين وزارة الخارجية البريطانية ووزارة خارجية المملكة العربية السعودية فى محاولة لتسوية مشاكل الحدود فى المناطق الجنوبية الشرقية من شـبه الجزيرة • وقد استمرت هـذه المفاوضات حتى سنة ١٩٣٨ دون الوصول الى تسوية ثم نشبت الحـرب

العالمية الثانية [٣٩] وقد تجدد النزاع على الحدود وعلى منابع النفط ما بين سنة ١٩٤٧ وسنة ١٩٤٨ وذلك عندما بدأت شركة تنمية النفط المحدودة عمليات البحث عن البترول فى مناطق البريمى وساحل عمان ، وهى المناطق التى لم تعين حدودها بشكل واضح . ولما كانت شركة الزيت العربية الأمريكية لا تريد أن تحرم نفسها من بترول بعض المناطق التى لم تعين حدود السيادة فيها ، فقد بعثت بفرق البحث التابعة لها إلى المناطق الواقعة على حدود الربع الخالى والقريبة من ساحل الصلح . وقد حدث ما كان لابد أن يحدث . إذ ما أن توغلت إحدى فرق البحث الأمريكية داخل هذه المنطقة فى شهر ابريل سنة ١٩٤٩ حتى أصدر الضابط السياسى البريطانى فى أبو ظبى الأمر اليها بمغادرة المنطقة التى كانت تعمل فيها بحجة أن المنطقة المذكورة هى جزء من امارة أبو ظبى . ولعل أكثر ما أثار السلطات البريطانية فى المنطقة أن البعثة كانت تضم بعض الجنود السعوديين . وهى لم تكن تعلم أن فرق النفط الأمريكية التى تجوب مناطق شبه الجزيرة العربية تصطحب معها مثل هذه الحماية العسكرية دائما [٤٠] . وفى ٢٦ أبريل سنة ١٩٤٩ تقدمت الحكومة السعودية الى السفارة البريطانية فى جدة بمذكرة احتجاج . أرفقتها بطلب مضاد مفاده أن المنطقة التى طردت منها البعثة هى جزء من الأراضى السعودية . ومنذ ذلك اليوم بدأ النزاع حول البريمى . وهو نزاع ليس فى بقعة واحدة باحدى الواحات بل يشمل منطقة مساحتها آلاف الأميال من شبه الجزيرة العربية [٤١] . وفى إطار هذا

---

(٣٩) مذكرة الحكومة السعودية جزء ١ ص ٤٠٠ — ٤١٨ و « الحدود الشرقية لجزيرة العرب ١٢٣ — ١٢٩ » .

(٤٠) شركة الزيت العربية الأمريكية — تعليمات لفرق البحث فى السعودية (١٩٤٩ . ؟) ص ١٤ — ١٧ .

(٤١) ان مواقف كل من الحكومة السعودية ، وبريطانيا والحكومات الموالية لها من موضوع الحدود واردة فى مذكرة كل من الحكومة السعودية والحكومة البريطانية ، وفى قرار هيئة التحكيم الخاص بمنطقة البريمى والحدود المشتركة بين ابو ظبى والسعودية ، كما وفى المذكرة البريطانية (لندن ١٩٥٥) انظر أيضا « جزيرة العرب وحدودها الشرقية » ترجمة العرب ، وتأليف كيلى فصل ٥ وهو يتضمن وجهة النظر البريطانية حول تطور النزاع حتى سنة ١٩٥٤ .

الخلاف المتشعب رأى البعض أن مصير بريطانيا نفسها قد يتأثر بنتائج ذلك الصراع ، لا لكون الجانب الأكبر من الصناعة البريطانية والأوربية الغربية تتحرك بنفط الخليج وحسب ، بل وللفوائد المالية ، وعلى الأخص الأموال اللازمة للاستثمارات الصناعية الجديدة ، التى قد تنشأ فيما لو بقيت شركات الكتلة الاسترلينية والامراء المحليون الموالون لبريطانيا مسيطرين على حقول النفط الجديدة .

وعلى الرغم من المفاوضات التى بدأها الدبلوماسيون البريطانيون والسعوديون حول مشكلة الحدود سنة ١٩٤٩ ، وموافقتهم على تأليف لجنة لدراسة المشكلة ، فان نتائج محادثاتهم لم تكن بأفضل من نتائج محادثات سنة ١٩٣٤ — ١٩٣٨ . وفى نفس الوقت كان الجانبان يدفعان بفرق البحث عن النفط ، وبقواتهما العسكرية عبر المناطق المتنازع عليها . بينما أخذت قوات الطرفين تحتل مراكزها فى واحة البريمى . وفى شهر أكتوبر سنة ١٩٥٢ أصبح كل من السلطان سعيد بن تيمور والامام محمد مقتنعين بأن السعوديين يخططون للاستيلاء على البريمى بالقوة . ولهذا أخذ الحاكمان يعدان العدة لمواجهة هذا الخطر عسكريا . ومن ناحية أخرى ظلت الدبلوماسية ومؤامراتها تعمل فى الخفاء رغم المحاولات التى بدأت فى صيف سنة ١٩٥٤ لاحالة النزاع الى التحكيم .

وفى الانتخابات التى تلت ذلك . لم ينجح السلطان فى محاولاته لكسب تأييد العناصر المحافظة ، كما خسرها أيضا كل من المرشحين السابقين ، نجل الامام سالم بن راشد الخروصى ، والعلامة محمد بن عبد الله السالمى ، نجل القطب الدينى عبد الله بن حميد السالمى الذى أسهم بدور هام فى تأسيس امامة عام ١٩١٣ . فقد فاز بالمنصب أحد رجال قبيلة بنى هناه ، هو غالب بن على الهنائى ، الذى حصل على تأييد كل من سليمان بن حمير ، وصالح بن عيسى ، الزعيم الشاب الذى خلف

والده عيسى على زعامة المشيخة . ولم يكن الامام المنتخب من بين الشخصيات المعروفة فى الأوساط السياسية العليا المتمرسة فى جنوب شرقى الجزيرة العربية ، ولذلك سرعان ما وجد نفسه هدفاً لضغوط كثيرة وقد تكشفت الأمور فى شهر سبتمبر سنة ١٩٥٤ ، عندما تأكد لكل من بريطانيا والسلطان سعيد بن تيمور ، أن الامام الجديد قد أخذ يتلقى الأسلحة والأموال من السعوديين ، وأنه قد يتحول الى اداة فى يد حكومة الرياض قد تهدد مستقبل المصالح البترولية فى المنطقة وانه لو صحت هذه المعلومات ، فانه قد يسبب متاعب للانجليز الذين كانوا فى ذلك الوقت قد بدأوا عمليات الحفر فى الفهود الواقعة بين المنطقة التى يسيطر عليها الامام والمنطقة غير المخططة من الربع الخالى على الجانب السعودى . كما ساد الاعتقاد بأن كلا من سليمان بن حمير وطالب بن على ، شقيق الامام هما القوة الحقيقية وراء تحركات حكومة نزوى . وان هذين الزعيمين لن يترددا فى قبول المساعدة من الحكومة السعودية ، إذا كان فى تلك المساعدة أية فائدة مادية . وعلى هذا الأساس وبفضل المؤمرات التى كانت تدبر فى الظاهرة ضد الإمامة ، وعن طريق الاستعانة ببعض الفصائل من قبيلة الدروع تحركت قوات مسقط وعمان واحتلت مدينة عبرى نيابة عن السلطان . ولو أن الامام لم يكن على اتصال بالسعوديين قبل احتلال عبرى ، وهى المنطقة التى ظلت تحت سيطرته منذ سنة ١٩٢٥ لأصبح من العسير عليه أن يتجنبهم بعد ذلك الحادث [٤٢] . وفى شهر نوفمبر سنة ١٩٥٤ قام الامام بخطوة حاسمة عندما قدم عن طريق شقيقه الشيخ طالب طلبا للانضمام الى جامعة الدول العربية . ويبدو من خطوة الامام هذه أنه كان يبحث عن قاعدة دلبوماسية ينطلق منها ، كما كان يأمل أن يربط قضية بلاده بالنضال العام للقومية العربية ضد الامبريالية

---

(٤٢) « عمان » اعداد شركة الزيت العربية الامريكية ص ٤٧ و « الحدود الشرقية لجزيرة العرب » ص ١٨٥ — ١٨٦ تأليف ، كيلى وترجمة المعرب .

البريطانية ، وكان هذا النضال يمر يومئذ بفترة حاسمة . وجاء فى طلب الامام الى الجامعة أن عمان دولة مستقلة تحكم وفقاً لمبادىء الشريعة الاسلامية [٤٣] . غير أن المسؤولين فى جامعة الدول العربية لم يكونوا ، على ما يبدو ، واثقين من الخطوة التى يمكن للجامعة اتخاذها بطلب من دولة صغيرة مجهولة . وفى شهر ديسمبر سنة ١٩٥٤ ، استطلعت الجامعة رأى الحكومتين السعودية واليمنية فى الموضوع ، وبالتالى قرر مجلس جامعة الدول العربية إرجاء البت فى طلب إمامة عمان ريثما تتسنى دراسته بشكل أوفى . وفى شهر أكتوبر سنة ١٩٥٥ أعلن مجلس جامعة الدول العربية « بأنه يرحب بامامة عمان عضواً فى الجامعة » ، غير أنه لم يتخذ خطوة جديدة فى الموضوع [٤٤] وقبل أن يتخذ مجلس جامعة الدول العربية فى الموضوع قراره النهائى كانت القوات قد احتلت الامامة . غير أن طلب الامام الى جامعة الدول العربية أثار موضوع اتفاقية السيب المعقودة فى سنة ١٩٢٠ من جديد ، وما اذا كان من حق عمان أن تتمتع بادارة شؤونها الخارجية .

وقد تطورت الأمور بسرعة نحو ذروتها فى سنة ١٩٥٥ فبعد أن فشلت محاولات حل النزاع عن طريق التحكيم فى جنيف فى شهر سبتمبر سنة ١٩٥٥ وسط اتهامات واتهامات مضادة بين الحكومتين الانجليزية والسعودية ، حيث كان كل جانب يشكك فى موقف هيئة التحكيم ، تحركت قوة مشاة ساحل عمان بأمر من سلطان مسقط وحاكم أبو ظبى واحتلت البريمى وطردت منها الحامية السعودية المرابطة فيها . وقد أعلنت الحكومة البريطانية يومئذ بأن المحاولات التى بذلت للتوصل الى تسوية عادلة للنزاع قد فشلت بسبب المؤامرات التى كانت تدبرها السعودية ، مما اضطر

---

(٤٣) الادارة السياسية بجامعة الدول العربية ، مذكرة الأمين العام بشان قضية عمان (القاهرة فى ١٩٥٧/٨/٦) .

(٤٤) نفس المصدر ص ١٠ .

البريطانيين الى فرض حلهم لهـذا النزاع على أســاس اتفاقية « خطة الرياض » لسنة ١٩٣٧ الذى تدخل بموجبها المناطق المتنازع عليها ضمن سيادة حاكم أبو ظبى وسلطان مسقط (٤٥) • ولقد ظل وضع الحدود بغير تسوية منذ سنة ١٩٥٥ ، لأن السعودية كانت ترفض الاعتراف بشرعيـة الاجراءات البريطانية ، أو وجهة النظر البريطانية بالنسبة لهذه المشكلة • ولما كانت بريطانيا عازمة بكل ما تملك من قوة على الاحتفاظ بنفوذها فى جنوب الجزيرة العربية ، لم يبق لامام عمان الذى ارتبط بصورة شرعية أو غير شرعية بالسعوديين أى أمل فى البقاء داخل عمان • وحتى خريف عام ١٩٥٥ كان دور السلطان سعيد بن تيمور دور المتفرج أكثر منه دور المخطط للأحداث • وعلى أى حال فقد كان السلطان مقتنعاً ، فيما يبـدو ، بأن الامام بعمله هذا قد انتهك ما كان يعتبره السلطان مبـادىء الحكم الذاتى لا الاستقلال كما خشى من أنه لو تحولت نزوى بالفعل الى صف حكومة الرياض ، فان استقلاله هو الآخر سوف يتعرض للخطر • وعـلى هذا الاساس شن السلطان خلال شهر هجوما مفاجئا على الامامة • وكان السلطان قد تمكن بمساعدة شركات النفط من بناء قواته المسلحة بحيث أصبحت تضم أربع وحدات يقوم البريطانيون بتدريب أفرادها وقيادتهم وهى : قوة ظفار التى ترابط فى صلاله ، وقوة ميدان آلية ترابط فى معسكر شركة تنمية نفط ساحل عمان (المحدودة) فى فهود وقوة ساحل الباطنة المرابطة فى صحار ، ووحدة المشاة القديمة التى ترابط فى بيت الفلج بالقرب من العاصمة وفى شهر ديسمبر تحركت قوات السلطان • وقد غادرت القوة الآلية مركز عبرى المتقدم يوم ١٥ ديسمبر وشقت طريقها نحو عمـان الوسطى • وبعد احتلالها لنزوى ارغمت الزعماء العمانيين على الفرار

---

(٤٥) « الحدود الشرقية للجزيرة العربية » ص ٢٠٢ — ٢٠٦ و « الاستعمار البريطانى فى الجنوب العربى » مكتب جامعة الدول العربية فى نيويورك (١٩٥٨) ص ٧٦ — ٧٨ • أن هذين المصدرين يتناقضان فى عرضهما للاسباب التى أدت الى فشل التحكيم •

وكل ذلك فى مقابل رصاصة واحدة فقط اطلقت على القافلة الامامية . وبعد يومين اكتسحت قوة مشاة الباطنة مدينة الرستاق بعد مقاومة عنيفة إلى حد ما من جانب طالب بن على . وبعد هذه العمليات العسكرية الخاطفة وصل سعيد بن تيمور الى نزوى عاصمة الامامة ليتسلم المقاطعات الجديدة بعد أن قطع ٦٠٠ ميل فى رحلته البرية من ظفار . وقد برر السلطان هـذا الاجراء بزعمه بأن إمام عمان قد نقض معاهدة السيب بتآمره مع السعوديين لاقامة دولة ذات سيادة مطلقة فى عمان ، تكون اداة فى يد حكومة الرياض بالسعودية (٤٦) .

وكان يبدو ان السلام قد عاد فاستتب فى عمان ، بعد أن أعلن الامام غالب وسليمان بن حمير مصالحتهما مع السلطان ، وقد سمح لهما بالعودة الى بلديهما . غير أن شقيق الامـام طالب ابن على تمكن من الافـلات والوصول الى السعودية حيث افتتح له مركزاً فى مدينة الدمام . غير أن الحكومة السعودية بعد أن درسـت احتمال توجيه تهمة الاعتداء ضـد بريطانيا فى مجلس الأمن عـادت فعدلت عن الفكرة ، وآثرت الاحتفاظ بعلاقاتها الدبلوماسية مع لندن — وربما كان هـذا بايعاز من الحـكومة الأمريكية غير أن العلاقات السعودية الانجليزية عادت فتدهورت من جديد على أثر قطع العلاقات الدبلوماسية فى أعقاب أزمة السويس فى سنة ١٩٥٦ . خلال هذه الفترة قام طالب بن على بمعاونة اثنين من أبناء عيسى بن صالح بافتتاح مكتب لامامة عمان فى القاهرة « باسم مكتب امامة عمان » الذى أخذ يقوم بحملة دعاية ضد بريطانيا وسلطان مسقط ويتهمهما بشن عدوان على دولة عربية مستقلة واحتلالها .

وفى أوائل سنة ١٩٥٧ كان طالب يقوم بتهريب الأسلحة والرجال من

---

(٤٦) « سلطان فى عمان » (طبعة نيويورك) ويعتبر هذا الكتاب بحثـا طريفا ولكنه هام لهذه الاحداث والتطورات .

اللاجئين العمانيين المحافظين الى داخلية عمان . وفى شهر يونيو سنة ١٩٥٧ عاد طالب الى عمان حيث التحق بأخيه وأعلنا بعث الامامة من جديد ، وقامت بعض فرق من العمانيين باحتلال نزوى . وما أن حل شهر يوليو من العام المذكور حتى كانت جميع مدن عمان ومقاطعات الجبل الأخضر التى يحكمها سليمان بن حمير يرفرف فوقها علم الامامة الأبيض . وقد عجز السلطان عن قمع الحركة الجديدة المضادة ، مما اضطره الى طلب المساعدة البريطانية التى قدمت اليه فورا فى أواخر صيف العام المذكور . وقد رأى السلطان فى حركة الامام تمردا موجها ضده ، بينما أعلن الامام أنه يخوض حربا لاسترجاع الأستقلال الذى انتزع منه فى سنة ١٩٥٥ . وبالرغم من أن السعوديين ، وجامعة الدول العربية كانوا يؤيدون الامام بمساعدات قليلة ودعاية كثيرة ، إلا أن قوات السلطان عادت فاستولت على نزوى مرة أخرى فى شهر سبتمبر ، غير أن القتال ظل مستمرا فى سفوح الجبل الاخضر الى أن تمكنت قوات السلطان بعد تعزيزها بثلاثمائة جندى بريطانى من الاستيلاء على الجبل الاخضر وسحق المقاومة العمانية . وفى شهر يناير سنة ١٩٥٩ تمكن الامام غالب ، وأخوه طالب وسليمان بن حمير وغيرهم من وجهاء عمان من الهرب الى الدمام حيث أنشأوا حكومة عمانية فى المنفى . بينما استمرت عمليات زرع الالغام والقناصة ، وغيرها من نشاط حرب العصابات فى البلاد [٤٧] .

وقد أدت هذه الأحداث الى تصلب موقف السلطان تجاه محاولات السعوديين لاستئناف التحكيم ، وقد أيدته فى ذلك وزارة الخارجية البريطانية . غير أنه فى شهر سبتمبر تبنى السكرتير العام للامم المتحدة المسيو داج همرشولد قضية عمان بصورة رسمية ، وبعد عام من ذلك التاريخ ادرجت مسألة عمان « فى جدول أعمال الامم المتحدة » كما استأنف

---

(٤٧) « الحدود الشرقية لجزيرة العرب » ص ٢٨٤ — ٢٨٥ ، تاليف كيلى وترجمة المعرب .

السعوديون فى شهر يناير سنة ١٩٦٣ علاقاتهم الدبلوماسية مع انجلترا ، واتفقتا على بحث مشاكل الحدود بين بلديهما عن طريق لجان الأمم المتحدة . وهذا هو المدى الذى وصلت اليه المشكلة . اما الامام واتباعه فما يزالون حتى الآن يصدرون بيانات يتحدون فيها البريطانيين ويمنــون أنفســهم بعودة مظفرة إلى عمان [٤٨] .

فى غضون هذه الفترة خفت حدة المشاكل التى كان يواجهها السلطان سعيد ، على الرغم من قدم هذه المشاكل . فتوحيد عمان فى إطار دولة سياسية موحدة ، وهو ما لم يتحقق لعمان منذ سقوط امامة عزان فى سنة ١٨٧١ ، وضع السلطان امام مطالب جديدة لبلد يحاول اللحاق بالعالم المتطور الذى سبقه الى التقدم ، فضلا عن رغبة السلطان فى السيطرة على عملية التغيير ، والاحتفاظ بالنظام القائم فى نفس الوقت .

فى أواخر الخمسينات أخذت الأمور تمضى بسرعة . فقد بدأ رجال النفط بعــد أن اطمأنوا على حرية اعمالهم بعد أحــداث سنة ١٩٥٥ — يسرعون فى عمليات التنقيب والاختبار . وقد استبدلت طرق القوافل بطرق حديثة للسيارات تربط مســقط بالشرقية عن طريق وادى ســمايل ونزوى بالبريمى وفهود عن طريق عبرى . كما شق طريق من مسقط عبر ساحل الباطنة فى اتجاه صحار والشرقية على ساحل عمان . كذلك انشئت فى عام ١٩٥٩ ادارة حكومية للتنمية تتحمل الحكومة البريطانية الجزء الأكبر من ميزانيتها وتقوم بتطوير الامكانات الزراعية والصحية والتعليمية ووسائل النقل فيها . وتحت اشراف هذه الادارة انشئت مزارع تجريبية فى صحار ونزوى لتحسين وسائل الرى وتخصيب التربة وأعمال الحصاد [٤٩] . غير أن كل هذا النشاط لم يغير من الواقع الكئيب الذى تعيشه عمــان

---

(٤٨) نفس المصدر ص ٢٦٦ — ٢٦٨ .

(٤٩) مطبوعات أوربا « مسقط وعمان » الشرق الاوسط وافريقيا الشمالية ١٩٦٤ — ١٩٦٥، (طبعة لندن) ص ٤٤٠ — ٤٤١ .

كبلد زراعي وملاحي وله نشاط محدود في صـيد الأسماك . وذلك الى أن تكتشف وسائل جديدة لتغيير الأسس التي تقوم عليها موارد البلاد .

ففي بداية الستينات من هذا القرن ، كان الاقتصاد العماني يمر بفترة ركود على الصعيد السياسي ، امتداداً لوضـعه خلال المائة عـام الأخيرة . وعلى الرغم من الخط الجوي الذي أسسته شركة طيران الخليج بين مسـقط والبحرين ، ظلت خطـوط الملاحة البحرية لشركة الهنـد البريطانية ، وشركة ستريك لاين النافذة الوحيدة التي تطل منها عمان على العالم الخارجي ، وذلك على نفس ما كان عليه الوضع في التسعينات من القرن التاسع عشر . وعلى حين كانت الارقام تشير الى ارتفاع في قيمة تجارة مسقط بالمقارنة الى مجموعه خلال الثلاثينات من القرن ، قدرت قيمة الواردات في سنة ١٩٦٢ بثلاثـة ملايين وسبعمائة ألف ج . س . (٣٫٧٠٠٫٠٠٠) والصادرات بسبعمائة ألف (٧٠٠٫٠٠٠) ج س وتعتبر حركة تضخيم العملة وتخفيض قيمتها — بالاضافة الى ارتفاع مستوى الأسعار مسؤولة الى حد كبير عن ارتفاع أسعار التجارة . وعلى حين تتألف الواردات من العربات وقطع الغيار ، والأسمنت — أي جميع الأشـياء التي تستخدم في أعمال التنقيب عن النفط — الى جانب السلع التقليدية الأخرى كالبن ، والحبوب ، والسكر ، والمنسوجات القطنية ، فان الصادرات لاتزال في معظمها من السلع العمانية التقليدية كالبلح ، والسمك ، والفواكه . كما أن الريال النمسوي ، والعملات المحلية الصغيرة التي تتداولها البلاد ، لا تزال مرتبطة بالعملة الهندية (التي هي الروبية) ، والتي ترتبط بدورها بالجنيه الاسترليني [٥٠] .

غير أن تحولا قد طرأ في سنة ١٩٦٣ فقد عثرت شركة تنمية نفـط

---

(٥٠) نفس المصدر .

عمان (المحدودة) والتى اعيد تكوينها فى سنة ١٩٦١ على أساس مساهمة شركة شل (اللمحدودة) بـ ٨٥ بالمئة من رؤوس الأموال ، عثرت على النفط أخيرا فى عمان بكميات كبيرة • فقد اكتشفت ثلاثة حقول فى فهود ، وفى منطقتين أخريين قريبتين منها وهما نتيه ، وبيال وقد قـدر مجموع مـا سوف تنتجه هذه الحقول مجتمعة بعشرة ملايين طن فى العام • وفى سنة ١٩٦٤ تم اعداد خطة لانشاء خط انابيب من خليج عمان لتسييل النفط من الحقول الجديدة • ومن ناحية أخرى نجحت سيتى سرفيس ورتشفيلد التى سبق أن عثرت فى عملياتها على بعض النفط ، فضلا عما قامت بـه شركة بيور اويل (Pure Oil) من نشاط فى سنة ١٩٦٢ ، نجحت فى اكتشاف حقول كبيرة آخرى للنفط فى مقاطعة ظفار • وواضح من هذا أن الأمـوال اللازمة لتطوير السلطنة وتحويلها الى دولة عصرية سـوف تتدفق على البلاد [٥١] •

ومما لا شك فيه أن الجهاز السياسى للسلطنة سيكون بين المؤسسات التى سوف يتناولها التغيير • وبالرغم من أن الرغبة لانشاء جهاز ادارى فعال كانت موجودة منذ أن أعيد تنظيم الاداة الحكومية فى سنة ١٩١٩ — ٢١ ، فان ادخـال التنظيم العصرى الى البلاد يتطلب وجود طاقم مـن الخبراء والموظفين الفنيين الذين لا بد وان يكون أكثرهم من الأجانب • فحتى سنة ١٩٦٣ كانت ميزانية مسقط متواضعة لا تزيد على المليون جنيه استرلينى فى العام ، كما ظل الجهاز الادارى بوضعه الأول منذ انشائه فى سنة ١٩٢١ كما لا يزال المستشار الشخصى للسلطان انجليزيا هـو الماجور شونسى ، أما وزير الداخلية ، والحاكم الفعلى للمقاطعات الداخلية التى ضمت أخيراً ، فهو أحمد بن ابراهيم أحد أمراء البوسعيد ، وهـو رجل يتمتع بثقة سلاطين عمان منذ أن اقاله الامام سالم الخروصى من

---

(٥١) نفس المصدر •

ولاية الرستاق فى سنة ١٩١٧ . هذا بالاضافة إلى سكرتير الشـــؤون الخارجية ، والسكرتير العسكرى . ومدير مصلحة الميناء والجمارك وهم كلهم من الأجانب (٥٢) .

أما بالنسبة للمستقبل فانه يبدو من المؤكد أن تغييرات كبرى سوف تتم فى عمان فى المدى القريب . وبالفعل فإن الأسس القديمة التى كانت تقوم عليها الأوضاع فى الماضى قد تغيرت بشكل نهائى . ان عزلة المنطقة الداخلية ، وما كان يسود البلاد من ركود اقتصادى ، فضلا عن السيطرة البريطانية على منطقة حوض المحيط الهندى ــ كل هذه الاعتبارات والعوامل هى الآن فى طريقها الى الزوال ، فاستغلال الموارد الطبيعية سوف يؤدى الى التطور الاقتصادى ، وربما الى استعادة عمان لمركزها الملاحى ، أو على الأقل لأهميتها كمنطقة لصيد الأسماك . ان مشاكل البناء السياسى ، هى بلا شك من أصعب المشاكل كما أن خوف السلطان ، وهو خوف ينبع من نظرته الاباضية المحافظة إلى التجديد اذا استثنينا بعض الاتصالات التى لا مفر منها مع بعض الاقطار الخارجية ، سوف تزيد الأمور تعقيداً . أن الفجوة بين الاباضية المحافظة والاباضية المعتدلة ينبغى أن تضيق ، هذا على الرغم من أن الاباضية تعتبر من أعتى الايديولوجيات مقاومة للتغير . كما ستكون هناك مشكلة علاقة عمان بالسعودية . وهى مشكلة عمرها الآن مائة وستون عاما . فلا بد من التغلب عليها كما لا بـــد من تنظيم مستقبل العلاقات العمانية الانجليزية أيضا . أن تغيير لقب الممثل البريطانى من معتمد سياسى الى قنصل عام يعتبر دلالة على تحول وضع التبعية الى تحالف . رغم أن السلطان لا يزال يعتمد على المســاعدات

---

(٥٢) نفس المصدر .

العسكرية البريطانية • وفى سنة ١٩٤٧ عين أول قنصل عام للهنــد فى عمان • أن قيام علاقات أقوى بين عمان والولايات المتحدة وغيرها من الدول فى المستقبل أمر لا مفر منه • وأخــيرا فأن على السلطنة أن تلتقى مــع القوى العصرية والقومية الجديدة التى تفجر العالم العربى بالثورة • ولكى تتحقق هذه الاهداف لا بد للسلطنة من اختيار عدة طرق وان لم تكن واردة حاليا • منها الدخول فى اتحاد مع امارات الخليج بل والجنــوب العربى ، باعتباره نواة لاتحاد اعظم يضم دولة الجزيرة العربية كلها • كخطوة لاتحاد أشمل لدولة عربية تضم العالم العربى كله • وقد تتولى الحكم فى السلطنة خلال السنوات القادمة دولة ثورية عصرية • كما أنه من المحتمل أن يتولى تسيير دفة الأمور جيل جديد من زعماء البوسعيد ممن التحقوا بكلية ساندهرست البريطانية • مثل الأمير قابوس ممن يستطيعون التكيف مع متطلبات العصر •

وبصرف النظر عن الافتراضات والتخمينات • فانه من الواضح ، أن السلطان سعيد رغم كل شيء ونظراً لتورطاته • ومهما يكن مترددا ازاء انضمام عمان إلى ركب الحياة العصرية • كان ولا يزال أهم حكام البوسعيد منذ عهد سميه العظيم سعيد بن سلطان قبل أكثر من قرن •

الفهـــــــرس

الموضـــــــوع	الصفحة

الفصـــل الرابع

الجـزء الثـالث

دعم السيطرة البريطانية في الخليج

الفصـــل الخامس

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الفصـــل التاسع

خاتمـــــــــة

رقم الإيداع ٥٠٨/ ٨٨
بتاريخ ١٥/ ١١/ ٨٨

طبع بالمطابع العالمية – روى سلطنة عُمان

